بدائع الزهور في وقائع الدهور

الجزء الثالث

ذكر

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين

قايتباى المحمودى الظاهرى

وهو الحادى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر فى العدد ، أقول : وكان أصله جركسىّ الجنس ، جلبه إلى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف بُرسباى ، هو وعدّة مماليك صغار ، فاشتراهم منه ضريبة كل مملوك خمسون دينارا ، فلما اشتراه أنزله بالطبقة ، وصار من جملة المماليك الكتابية ؛ واستمرّ على ذلك حتى توفى الأشرف بُرسباى وتسلطن الملك العزيز يوسف ، فاستمرّ كتابيًّا إلى أن خُلع من الملك وتسلطن الظاهر جقمق ، فاشتراه من بيت المال على يد حاسوك ، وصىّ الملك الأشرف بُرسباى ، هو وعدّة مماليك كتابيّة ، فاستمرّ فى رقّ الظاهر جقمق حتى أعتقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى دوادار سكين .

فلما توفى الظاهر جقمق وتسلطن الأشرف أينال ، فأنعم عليه بأمرة عشرة فى سنة اثنين وستين وثمانمائة ، فكان بين أمرته العشرة وبين سلطنته تسع سنين وخمسة أشهر ، فأقام على ذلك إلى أن توفى الأشرف أينال وتسلطن الظاهر خشقدم ، فجعله أمير طبلخاناه ، شاد الشراب خاناه ، ثم جعله مقدّم ألف فى أواخر دولته .

فلما توفى الظاهر خشقدم وتسلطن (٩٩ ب) الظاهر يلباى ، جعله رأس نوبة النوب عوضا عن أُزبك من طُطخ لما بقى نائب الشام ؛ ثم بقى أتابك العسكر لما ولى الظاهر تمربغا السلطنة ، فجعله أتابك العساكر عوضا عن نفسه ؛ فلما وثب خاير بك على الظاهر تمربغا ، وجرى له ما تقدّم ذكره ، فوقع الاتفاق من العسكر

(١) ذكر : ابتداء من هنا نقلنا المتن عن مخطوط فاتح رقم ٤١٩٨ .

على سلطنته ، وخلع الظاهر تمربغا ، وكان القائم فى ذلك طائفة الأينالية والظاهرية ؛ فلما انكسر خاير بك وطائفة الخشقدمية ، حطم الأمير يشبك من مهدى ، كاشف الوجه القبلى ، مع جماعة من العسكر ، فملكوا باب السلسلة ، وقبضوا على خاير بك ، فتقلّب العسكر على الظاهر تمربغا وأشرف على الخلع .

فعند ذلك طلع الأتابكى قايتباى إلى باب السلسلة ، وجلس بالمقعد الذى به ، واشتوروا فيما يكون من أمر الظاهر تمربغا ، فلم يوافق العسكر على إبقاء الظاهر تمربغا فى السلطنة ، فأرسلوا خلف أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، فحضر ، وحضر القضاة الأربعة وهم : ولىّ الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حُريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر جماعة من الأمراء .

فلما تكامل المجلس ، عُملت صورة شرعية فى خلع الظاهر تمربغا من السلطنة ، فخلعه الخليفة فى الحال ، وبايع الأتابكى قايتباى ، وتلقّب بالملك الأشرف ، قيل تولّى الملك وله من العمر نحو من خمسة وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلا ؛ ثم أحضروا شعار الملك ، وهى العمامة السوداء ، والجبة السوداء التى بالطرز الذهب ، والسيف البداوى ، فلما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنّع من ذلك وبكى ، فألبسوه ذلك الشعار غصبا ، وهو يتمنّع غاية الامتناع ؛ ثم قدّمت إليه فرس النوبة فركب من سلّم الحراقة ، وأذن للأمير جانى بك قُلقسيز ، أمير سلاح ، بأن يحمل الصنجق السلطانى على رأسه ، لعدم وجود وفَقْد القبة والطير من الزردخاناه ، فرفع الصنجق على رأسه وقد (١٠٠ آ) ترشّح أمره إلى الأتابكية .

فلما ركب سار ومشت قدّامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سرّ القصر الكبير ؛ فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبّل له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة ؛ قيل ولى الملك وله من العمر أربعة وخمسون سنة ، سُمع ذلك من لفظه ؛ فلما تمت بيعته وراج أمره ، أخلع على الخليفة ونزل إلى داره ؛ ثم أخلع على المقرّ السيفى

(٨) الأربعة : الأربع ، وقد صححت هكذا فيما يلى من المتن .   (١٧) وفقد : فقد .

جانى بك قُلقسيز الأشرفى بُرسباى ، وأقرّه فى الأتابكية عوضا عن نفسه ، فنزل إلى داره فى موكب حافل .

ثم دخل يشبك من مهدى ، وتمراز الشمسى ، على الظاهر تمربُغا ، وأقاموه من على مرتبته ، وأدخلوه إلى قاعة البحرة ، وهو فى غاية الإكرام ، ثم أخذوا منه النمجاة والترس والدواة وأحضروهم بين يدى الأشرف قايتباى ؛ ثم إن السلطان قايتباى رسم بتقييد خاير بك ، فقيّد هو وابن العينى ، وأدخلوهما إلى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وأدخلوا معهما عبد الكريم مهتار الظاهر خشقدم ، وهذا أول حكم وقع للأشرف قايتباى ؛ ثم ضُربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

سلطاننا الأشرف فى بذله   وعدله قد جمع الفضلا
تقبّل الله الذى عزّه   بالنصر منه الصرف والعدلا

وكان لما أراد أن يلبس شعار الملك ، أشرط على العسكر أنه ما ينفق عليهم نفقة البيعة ، فرضيوا بذلك ، فلما تسلطن لم ينفق على العسكر شيئا . ـ ثم إن السلطان أخذ فى أسباب القبض على أعيان الخشقدمية ، فقبض على كسباى الدوادار الثانى ، وقد ظهر من بيت يشبك من مهدى ، وقبض على مغلباى ورسم بإخراجه إلى نحو القدس ، يقيم بها بطالا ، ورسم بإخراج كسباى إلى حلب ، (١٠٠ ب) واختفى خشكلدى البيسق ؛ ثم صار فى كل يوم يقبض على جماعة من الخشقدمية ، ويشتّت شملهم ، ويسجنهم بالقلعة ، ما بين أمراء وخاصكية .

ثم إن السلطان رسم بإحضار قرقماس الجلب من دمياط ، وإحضار جماعة من الأشرفية ، منهم : بيبرس خال الملك العزيز ، ومنهم جانى بك المشد ، وبيبرس الطويل ، وكانوا بالقدس ، ثم أشار بعض الظاهرية على السلطان بعوْد هذه الجماعة الأشرفية إلى القدس على عادتهم ، فخرج الأمر من السلطان بأن يعادوا إلى القدس ، بعد ما كانوا قد وصلوا إلى قطيا فعادوا إلى القدس .

---

(٥) وأحضروهم: كذا فى الأصل، ولم نصحح مثل هذه الكلمات محافظة على أسلوب المؤلف.

وفى ثامن هـذا الشهر رسم السلطان بإخراج الظاهر تمربُغا إلى ثغر دمياط ، فخرج وهو فى غاية العزّ والإكرام ، من غير تقييد ، وقد رفق به ؛ وكان السلطان يرسل إليه فى كل يوم أسمطة حافلة وهو بالبحرة ، وعنـد ما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر إليه فى أمر السلطنة ، وأن ذلك لم يكن باختياره ، وكان على كُره منه هـذه السلطنة ، وكان بين تمربُغا وبين قايتباى إيمان عظيمة بأنه لا يغدره ولا يتسلطن ، فلم تتمّ هذه الإيمان ؛ ثم إن السلطان ودّع الظاهر تمربُغا ونزل من القلعة وهو راكب على فرس من مركوب السلطان ، ونزل من باب القرافة بعد العشاء ، وتوجّه إلى ساحل البحر ، ونزل فى الحرّاقة ، وانحدرت به الحرّاقة وتوجّه إلى ثغر دمياط ؛ فلما وصل إلى دمياط سكن فى أحسن دورها، وكان يركب إلى صلاة الجمعة، واستمرّ بدمياط إلى أن كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه أشار بعض الظـاهرية على السلطـان بأن يطلق من كان سجنه من الخشقدمية . ــ ثم إن السلطان أخذ فى أسباب مصادرة خاير بك الذى تسلطن ، وابن العينى ، فطلب من خاير بك نحوا (١٠١ آ) من ستين ألف دينار ، خارجا عن بركه وخيوله وسلاحه وغير ذلك ؛ وعلى ابن العينى نحو من مائتى ألف دينار ، خارجا عن بركه وسلاحه وغير ذلك .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وأخلع على من يُذكر من الأمراء ، وهم : بُرد بك هجين وقرّر فى أمرة السلاح عوضا عن قنبك المحمودى المؤيدى ، وأخلع على يشبك من مهدى وقرّر فى الدوادارية الـكبرى عوضا عن خاير بك الذى تسلطن ، ولما حضر قرقماس الجلب من دمياط أخلع عليه وقرّر فى أمرة مجلس عوضا عن ابن العينى ، وكان قرقماس الجلب لمـا نُفى إلى الإسكندرية أمير سلاح ، فنزل درجة لأسفل ، وقرّر فى الدوادارية الثانية قان بردى الإبراهيمى الأينالى عوضا عن كسباى الخشقدمى ، وقرّر فى ولاية القاهرة قانى باى الحسنى الأينالى عوضا عن أصباى البواب الخشقدمى ؛ وأنعم على قراجا الطويل الأينالى بتقدمة ألف ، وعلى تمراز الشمسى الأشرفى بتقدمة ألف ؛ ثم إن بعض الأمراء شفع فى الناصرى محمد بن

الأتابكى جرباش كُرت ، وكان مقيما بدمياط من حين نفاه الظاهر خُشقدم فى واقعة برش مملوك جانى بك نائب جدّة ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما حضر أخلع عليه كاملية بصمّوّر ونزل إلى داره .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريدة إلى شاه سوار بن ذلغادر ، وقد تقدّم ما وقع منه فى أيام الظاهر خشقدم ، وقد قويت شوكته والتفّ عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم ، وقد أظهر العصيان والمخامرة ، فخشى السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوّة ، وكان يمكنه أن يرسل إلى سوار خلعة وهدّية وتخمد هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك ، وأخذ الأشياء بالعترسة ، فعيّن له تجريدة ثقيلة ، وعيّن بها من الأمراء الأتابكى جانى بك قلقسيز ، وبُرد بك هجين أمير سلاح ، ونانق رأس نوبة (١٠١ ب) النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وعدّة أمراء طبلخانات وعشرات ، وعـدّة وافرة من الجنـد ، والغـالب فيهم من المماليك الخشقدمية ، وقصد السلطان بذلك عوضا عن نفيهم .

وفيه عمل السلطان الموكب وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : جانى بك الفقيه الظاهرى وقرّر فى الأمير آخورية الـكبرى عوضا عن بُرد بك هجين ، وقرّر فى الأمير آخورية الثانية يشبك جن عوضا عن جانى بك الفقيه بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الـكبرى ، وقرر فى حسبة القاهرة قانصوه الخسيف الأينالى عوضا عن طراباى الخشقدمى، وقرّر تانى بك قرا الأينالى تاجر المماليك،وأنعم عليه بأمرةعشرة.

وفيه رسم السلطان بإخراج خاير بك الذى تسلطن ، وقد سمّته العوام سلطان ليلة ، فخرج تحت الليل وهو مقيّد ، راكب على فرس ، والأوجاق يردفه وفى يده خنجر على جارى العادة ، فلما وصل إلى شاطىء البحر نزل فى الحرّاقة وانحدر حتى وصل إلى ثغر الإسكندرية ، فسجن بها، ورجع من كان معه من الأينالية متسفرّا عليه، وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تـكن، فسبحان من لا يزول ملـكه ولا يتغيّر . — وفيه نودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التى تتعلّق بالمحتسب ، وهى نحو

---

(١٣) السلطان الموكب : الموكب السلطان .

من ألف دينار فى كل شهر ، فبطل ذلك مدّة يسيرة ، ثم عاد بعد ذلك كل شىء على حاله .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع على الجند ، وكان أكثرهم من الأينالية ، وأمّر منهم جماعة كثيرة حتى رضيوا ، وكان قصدهم إثارة فتنة واتفقوا مع الخشقدمية على ذلك ، ثم غلب سعد الأشرف قايتباى على ما قصدوه وخمدت تلك الفتنة . — وفيه قُرر فى أتابكية دمشق شاد بك الجلبانى عوضا عن شرا مرد العثمانى ، بحكم القبض عليه . — وفيه وصل سودون البرق من دمشق بغير إذن من السلطان ، وكان عُيّن من جملة المقدمين الألوف (١٠٢ آ) بمصر ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف ، وعُيّن للتجريدة ، وكان مريضا فأعفى من السفر ، وأقام بمصر مدّة ومات . — وفيه حضر أزدمر الإبراهيمى الطويل الأينالى ، وكان مسجونا بقلعة دمشق ، فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وقد صار يدارى الأينالية أىّ مداراة .

وفيه عرض العسكر بسبب تجريدة سوار ، واستمرّ جالسا على التكة وهو يعرض ويكتب إلى قريب العصر ، ثم ضيّق على أولاد الناس وألزمهم بالسفر إلى سوار ، أو يقيموا لهم بديلا ، فصار يأخذ من كل ابن ناس مائة دينار عوضا عن البديل إلى السفر ؛ وقرّر على جماعة من المباشرين جملة مال ، وأمرهم بإحضاره سرعة ، ليستعين بذلك على نفقة من تعيّن للسفر من العسكر ؛ فهذه أول شدّة وقعت منه فى حق الناس ، واستمرّ هذا الأمر منه يتزايد فى كل يوم حتى جاوز الحدّ فى ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

فلما تكامل حضور المال حملت النفقات للأمراء المعيّنين للسفر ، فحُمل للأتابكى جانى بك قُلقسيز أربعة آلاف دينار ، ثم حُمل لبقية الأمراء المقدّمين لكل واحد ثلاثة آلاف دينار ، وللأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لكل واحد مائتا دينار ، ونفق على الجند لكل مملوك مائة دينار ؛ وهذا على العادة القديمة الجارى بها العادة ، فلما تزايد أمر التجاريد تضاعفت النفقات جدا ،

---

(١٤) بديلا : بديل .

حتى بلغت نفقة الأتابكى أزبك من ططخ نحوا من ثلاثين ألف دينار فى كل سفرة ، على ما سيأتى ذكر ذلك فى محله .

وفى شعبان أخلع السلطان على يشبك السيفى على باى وقرّر فى نيابة قلعة دمشق ، وقرّر فى حجوبية الحجاب بدمشق إبراهيم بن بيغوت ، وقرّر (١٠٢ ب) فى نيابة قلعة حلب تمرباى أخو ألماس . ــ وفيه أحضر السلطان الشهابى أحمد بن العينى بين يديه فى الدُهَيشة ، ووبّخه بالكلام بسبب ما قرّر عليه من المال الذى لم يُردّ منه شىء ، فبطحه على الأرض بالدهيشة وقام إليه وتولّى ضربه بيده ، فضربه نحوا من عشرين عصاة ، حتى شقّ كعبه وأدمى ، فأغمى عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فتوجّهوا به إلى طبقة الزمام، فأقام بها أياما ، ثم تسلّمه الأمير يشبك من مهدى أمير دوادار كبير، فنزل به إلى داره ليردّ ما قرّر عليه من المال .

وكان ابن العينى لما قُرر فى أمرة مجلس ونزل من باب السلسلة سكن فى بيت جانى بك نائب جدّة الذى فى قناطر السباع ، فلما انكسر خاير بك وزال أمر الخشقدمية نهبوا بيت ابن العينى عن آخره ، حتى قيل ذهب له من البرك والقماش أشياء بنحو خمسين ألف دينار ؛ وكان ابن العينى ماشيا على طريقة أولاد السلاطين ، حتى أُطلق عليه عزيز مصر، وربما تعصّب له بعض جماعة من الخشقدمية بأن يتسلطن بعد خلع الظاهر يلباى من السلطنة ، فلم يتمّ ذلك ، وقد لطف الله به حيث لم يتسلطن، فكان يقضى عمره كله فى السجن والقيد إلى أن يموت ، انتهى ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره خرج الأمراء والعسكر المعيّن للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود ، وهذه أول تجريدة خرجت من مصر إلى شاه سوار ، فكانوا نحوا من عشرين أميرا ما بين مقدمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، ومن الجند فوق الألف مملوك ؛ ثم ليالى السفر نفق على كل مملوك جامكية أربعة شهور معجلا ، وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد جملا وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

---

(١) ثلاثين : ثلثين ، وقد صححت هكذا فيما يلى من المتن . (١٢) الذى : التى .

(٢٠) مقدمين : كذا فى الأصل . (٢٢) جملا : جمل .

وفيه ركب السلطان ونزل إلى الميدان ودار حول القلعة ، فلما عاد طلع من باب السلسلة ، وهذا (١٠٣ آ) أول ركوبه ونزوله من القلعة وهو سلطان ، ثم تكرّر ركوبه من بعد ذلك ليلا ونهارا حتى خرج فى ذلك عن الحدّ ، حتى ترك بعض المؤرخين ضبط ركوبه ونزوله من القلعة ولم يحص ذلك ، بعد أن كان ركوب السلطان نادرة مما تؤرّخ فى التواريخ القديمة .

وفيه اختفى الوزير قاسم شُغيتة ، فلما اختفى أخلع السلطان على عبد القادر ناظر الدولة بالتحدّث فى الوزارة ، حتى يقرّر بها من يختار . ـ وفيه قرّر دمرداش العثمانى فى نيابة القدس عوضا عن محمد بن حسن بن أيوب ، وقرّر فى نظر القدس بُرد بك التاجى عوضا عن حسن التيمى . ـ وفيه أخلع السلطان على شاهين الجمالى وقرّر فى نيابة جدّة ، وقُرّر أبو الفتح المنوفى ، موقّع السلطان وهو أمير ، فى نظر جدّة مستوفيا على شاهين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن العينى وأخلع عليه كاملية بصمّور ونزل إلى داره ، وقد تحفّظ أمره بواسطة الأمير يشبك الدوادار ، والتزم ابن العينى بأن يردّ فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد ، فكان جملة ما أورده للخزائن الشريفة من الذهب النقد مائة ألف دينار وتسعة وتسعين أَلف دينار ، وذلك خارجا عن بركه وغلاله وخيوله وجماله ورزقه و إقطاعاته ومراكبه ومماليكه وغير ذلك ، ما يساوى نحوا من مائة ألف دينار ، فكان مجموع ما أخذ منه نحو من ثلاثمائة ألف دينار وخمسين أَلف دينار ، وكان السلطان قد صمّم على أن يأخذ منه ألف ألف دينار ، خارجا عن تعلّقاته وجهاته ، وهذه من النوادر الغريبة التى جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين ، منذ قرّر فى التقدمة إلى أن قُبض عليه ، وعدّ ذلك من النوادر .

وفيه ركب (١٠٣ ب) السلطان ونزل إلى القرافة وزار الأولياء ، وعاد من على قناطر السباع ، فدخل إلى دار سودون البرق وعاده من مرضه وأقام عنده ساعة ، ثم ركب وطلع إلى القلعة . ـ وفيه أخرج السلطان جماعة من المماليك الخشقدمية إلى

جهة الوجه القبلى مع الكشاف وغيرهم ، كما كان عادة المماليك الأينالية . ــ وفيه قرّر بيبرس الأشقر فى أتابكية صفد . ـ وفيه توفى سودون البرق ، وكان يعرف بالشمسى ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وقاسى محنا وشدائد ، ونُفى واختفى ، وكان إنسانا حسنا ، وعند ما بقى مقدّم ألف مات فى سنته . ــ وفيه أخلع السلطان على الصاحب شمس الدين محمد والد الصاحب علاى الدين الأهناسى ، وقرّر فى الوزارة عوضا عن قاسم شغيتة، وقرّر ولده محمد فى نظر الدولة عوضا عن عبد القادر الطويل .

وفى رمضان أشيع بأن فُقد من خزانة السلطان نحو من عشرين ألف دينار ، فظهر أن خوند سورباى وسرارى الظاهر خشقدم قد سرقوا ذلك ، فرسّم السلطان على خوند سورباى ، وأقامت فى الترسيم مدّة حتى أرضت السلطان . ـ وفيه وصل إلى الأبواب الشريفة السيد على بن بركات الحسنى ، وقد غضب من أخيه محمد أمير مكة ، فلما طلع إلى القلعة أكرمه السلطان وأخلع عليه ، واستمرّ مقيما بمصر ، ورتّب له ما يكفيه إلى أن مات بعد مدة طويلة ؛ وكان السيد محمد أمير مكة أرسل للسلطان ستين ألف دينار على أنه يعوّق السيد على عنده بمصر ، حتى لا يقيم فتنة بمكة .

وفيه ركب السلطان ونزل إلى القرافة وزار الإمام الشافعى والإمام الليث رضى الله عنهما ، ثم سار إلى بركة الحبش ولعب بالكُرة ، ثم عاد إلى القلعة ، وأخلع على تانى بك المعلم كاملية بصمّور وقد أعجبه ضربه للأكرة . ـ وفيه ختم البخارى بالقلعة، وهو أول بخارى ختم للسلطان ، وكان يوما مشهودا (١٠٤ آ) وحضر القضاة الأربعة وأعيان العلماء ، وفرّقت الصرر على من له عادة ، وكذلك الخلع فرّقت على أعيان العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفى شوال وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة ، وتشحّطت الغلال وارتفع سعرها ، فاستكعب الناس بالسلطان ، وصار إذا شقّ من القاهرة يسمّموه الكلام النكى . ــ وفيه توعّك السلطان وانقطع عن الموكب أياما ، ثم شفى ، فأقيمت الخدمة بالقصر لأجل خروج الحاج . ـ وفيه قدم جانى بك حبيب من بلاد الروم ، وكان هاربا من

(٣) محنا : محن. (١٧) يوما مشهودا : يوم مشهود ، وقد صححت هكذا فيما يلى من المتن.

أيام الظاهر خشقدم ، فتوجّه إلى بلاد ابن عثمان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأخلع عليه ، وبعث إليه الأمير يشبك الدوادار بألف دينار لترقع أحواله .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نظام الدين بن مُفلح قاضى القضاة الحنبلى بدمشق ، وكان من أهل العلم . ــ وفيه صعدت إلى القلعة زوجة السلطان خوند فاطمة بنت العلاى على بن خاص بك ، فكان لها يوم مشهود عند طلوعها إلى القلعة ، وحولها نساء الأمراء ، وأرباب الدولة وأعيان الخدّام حول محفّتها مُشاة ، وكانت مقيمة بدار السلطان التى بسوق الغنم إلى أن طلعت إلى القلعة فى ذلك اليوم .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجّه إلى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة ، وأُسر الأتابكى جانى بك قُلقسيز ، وقتل جماعة من الأمراء ، ومن الجند ما لا يحصى ، وكان غالب العسكر من المماليك الخشقدمية ؛ فقتل من الأمراء المقدّمين الأمير بُرد بك هجين المحمدى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق وكان عارفا بأنواع الفروسية ؛ وقتل نانق المحمدى الظاهرى رأس نوبة النوب ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به ؛ وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب فى وجهه .

وأما من قتل من الأمراء العشرات ، منهم : أيدكى الأشرفى ، وأسنبغا من صفرخجا المؤيدى نائب باب القلة ، وتمرباى الساقى الأشرفى ، وتمرباى قزل الظاهرى ، وتانى بك السيفى جانى بك الثور وجانى بك البواب المؤيدى ، وقانى باى الأشرفى ، (١٠٤ ب) وقانصوه النوروزى ، وقُطلوباى المحمودى الأشرفى العزيزى ، ومُغلباى الجلبى الأشرفى ، ويشبك القرمى الظاهرى ، ويشبك الأشقر ، قيل إنه فجر على سوار فضرب عنقه بين يديه ؛ وأما من قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية ، فما ضُبطوا ؛ وقد نُهب برك الأمراء والعسكر قاطبة ، والذى سلم دخل إلى حلب وهو فى أسوأ حال من العرى والمشى ؛ وقد قوى أمر سوار ، وتوجّه إلى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ، وأشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من عسكره إلى سوار.

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد تحالفوا على الخروج عن طاعة

السلطان ، فوثبوا هناك وأحرقوا الجرون ونهبوا بلاد المقطمين ؛ فلما بلغ السلطان ذلك عيّن لهم تجريدة بها عدّة من الأمراء ، وعيّن تجريدة إلى الشرقية ، وتجريدة إلى الوجه القبلى بسبب أولاد ابن عمر ؛ ثم أخلع على شيخ العرب صقر وقرّر فى مشيخة عربان البحيرة ، ثم عزل خشقدم كاشف البحيرة وولّاها لمحمد الصغير ؛ فلما وردت أخبار كسرة العسكر على يد سوار اشتغل السلطان بذلك عن كل شىء ، ودهمه هذه الأمور الشنيعة عن التجاريد التى عيّنها .

وفيـه ابتدأ السلطان بوقوع المساوئ منه ، فأخرج قرية إنبابة عن الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وكانت بيده من حين تسلطن المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، وكان أقطعها له لما تسلطن ، فأخرجها السلطان عنه باسم جانى بك حبيب ، ثم بعد مدّة يسيرة أخرج عنه أيضا جزيرة الصابونى وأقطعها لبعض مماليكه ، فعُدّ ذلك من مساوئه .

وفيه وصل قانصوه الجلبانى الحاجب الثانى بدمشق ، وعلى يده مكاتبة أزبك نائب الشام ، يخبر فيها بكاينة كسر العسكر ودخولهم إلى حلب وهم فى أسوأ حالة ، وأن أزبك نائب الشام دخل إلى (١٠٥ آ) حلب وهو مجروح فى وجهه ، وليس له برك ولا قماش ولا مماليك ، ودخل نائب حلب ونائب طرابلس على هذا الوجه ، ودخل غالب العسكر عراية مشاة ، وكانت هذه الواقعة فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة ؛ فلما وردت هـذه الأخبـار ماجت القاهرة وحار السلطان فى أمره ، وما كان يظن سوار يقوى على العسكر مع كثرته ؛ ثم جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن الأتابكى جانى بك قلقسيز سجنه سوار فى جبّ ، وأن عسكر سوار قد تقوّى بما نهبه من العسكر من خيول وسلاح وبرك ، وقد عزم سوار بأن يزحف على حلب .

فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقلعة ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ، وهم : ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالـكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر شيخ

---

(١٦) عراية : كذا فى الأصل :

الإسلام أمين الدين يحيي الآقصرای ، وجماعة من مشايخ العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطانى .

فلما تكامل المجلس قام القاضى كاتب السرّ أبو بكر بن مزهر ، فتكلم عن لسان السلطان ووجّه الخطاب إلى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم ، بما معناه من كلام طويل ، بأن بيت المال مشحوت من المال ، وأن سوار الباغى قد استطال على البلاد وقتل العباد ، وأن لا بدّ من خروج عسكر ليحمى بلاد السلطان ، وأن العسكر يحتاج إلى نفقة وليس فى بيت المال شيء ، وأن كثيرا من الناس ممهم زيادات فى أرزاقهم ووظائفهم ، وأن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصد السلطان يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ويدخل الفائض إلى الذخيرة ؛ فمال الخليفة وقضاة الجاه إلى شيء من معنى الإجابة إلى ذلك .

فبينما هم على ذلك إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الآقصرای الحنفى ، وكان قد (١٠٥ ب) تأخّر عن الحضور ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما حضر أعاد عليه كاتب السرّ الكلام الذى وقع فى أول المجلس ، فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار ، وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : لا يحلّ للسلطان أخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى ، وإذا نفد جميع ما فى بيت المال ينظر إلى ما فى أيدى الأمراء والجند وحُلىّ النساء ، فيأخذ منه ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بالحاجة ففى ذلك ينظر فى المهمّ ، إن كان من الضرورى فى الدفع عن المسلمين حلّ ذلك بشرايط متعدّدة ، وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت أجرك الله على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإنا نخشى من الله تعالى أن يسائلنا يوم القيامة ويقول لنا لم لا نهيتوه عن ذلك وأوضحتوا له الحق ؟ ولكن السلطان إذا أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع ليش يجمعنا ؟ ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤنة هذا الأمر كله ؛ ثم قام .

فانجبه منه السلطان ، وانفضّ المجلس من غير طائل ، وكثر القال والقيل ، وشكر الأمراء الشيخ أمين الدين على ذلك ، وغالب الناس ، وكثر الدعاء فى ذلك

(٥) مشحوت : مشحوتا . (١٩-٢٠) نهيتوه ... وأوضحتوا : كذا فى الأصل .

اليوم للشيخ أمين الدين ، وعُدّ هذا المجلس من النوادر ، ثم إن السلطان نادى للجند بالعرض ، وأخذ فى أسباب خروج تجريدة .

فلما أن دخل الدهيشة وهو فى غاية الحدّة من الشيخ أمين الدين الآقصراى ، وإذا بالأخبار جاءت إليه من ثغر دمياط بفرار الظاهر تمربغا من دمياط ، وأن شيخ العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف أنزلوه فى مركب ، وطلعوا به من الطينة ، وقصدوا به التوجّه إلى حلب ؛ فلما تحقّق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وضاق الأمر عليه من كل جانب ، ونسى ما كان فيه من أمر سوار ، وعرض العسكر ، ثم زاد القال والقيل فى أمر الظاهر تمربغا ، فعند ذلك عيّن السلطان الأمير يشبك الدوادار بأن يخرج ويلاق الظاهر تمربغا من غزّة ، فخرج على جرايد الخيل مسرعا ؛ ثم إن السلطان نادى فى القاهرة بأن أحدا لا يخرج من داره من بعد صلاة العشاء ، ولا يحمل (١٠٦ آ) السلاح ولا يكثر من الكلام ، وحصل للناس فى تلك الأيام غاية القلق .

وفى هذا الشهر قرّر فى قضاء الشافعية بدمشق قُطب الدين الخيضرى عوضا عن ابن الصابونى ، مضافا لما بيده من كتابة السرّ ، ثم قرّر فى نظر الجيش البدرى بن المزلق عوضا عن ابن الصابونى أيضا بحكم القبض عليه . — وفيه جاءت الأخبار بأن سبع وسبّاع ، ولدىْ هجار ، وثبا على الينابعة ، وكان قد خرج إليهما السيد على ابن بركات ، أخو صاحب مكة ، فكسروه ، وهذا أول فتنة الينبع .

وفيه عيّن السلطان تجريدة إلى سوار ، وهى التجريدة الثانية ، فعيّن بها من الأمراء قُرقماس الجلب أمير مجلس باش العسكر ، وسودون القصروى ، وقراجا الطويل الأينالى ، وأزدمر الطويل الأينالى ، وعيّن عدّة أمراء طبلخانات وعشرات ، وعيّن من الجند فوق الألف مملوك . — وفيه جاءت الأخبار بأن سوار قد أطلق الأتابكى جانى بك قلقسيز ، وقد وصل إلى قريب حلب . — وفيه جاءت الأخبار بقتل سبع وسبّاع ولدىْ هجار أمراء الينبع ، وقد وقعت فتنة عظيمة بالينبع بين

(١٣) الخيضرى : الخضيرى . (١٦) ولدى : ولدين .

خنافر وبينهما حتى قتلهما ، وكان سبع وسبّاع حصل منهما الضرر الشامل .

وفى ذى الحجة توفى شخص يسمى عصام الدين البخارى الحنفى ، وكان من أهل العلم ، وكان أكثر إقامته بدمشق ، وأشغل فى دمشق جماعة على مذهب الحنفية ، وكان من الأفاضل . ـ وفيه جاءت الأخبار من غزّة بأن أرغون شاه الأشرفى قد قبض على الظاهر تمربُغا ، فلما وصل الأمير يشبك إلى بلبيس تلقّاه وحمله فى محفّة وتوجّه به من هناك إلى ثغر الإسكندرية من غير تقييد ؛ ثم إن السلطان رفق به فلم يسجنه ، ورسم له بأن يسكن بدار الملك العزيز التى بالإسكندرية ، وأن يركب إلى صلاة الجمعة والعيدين ؛ ثم إن الظاهر تمربغا كتب إلى السلطان كتابا بخط يده ، وقال فيه : المملوك تمربُغا يقبّل الأرض وينهى ، وأرسل يعتذر إليه مما وقع منه بسبب (١٠٦ ب) تسحّبه من دمياط ، واعتذر بأنه قصد التوجّه إلى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان ، ويخمد هذه الفتنة ، فكان كما قيل فى المعنى :

إذا كان وجه العذر ليس بواضح فإنّ اطراح العذر خير من العذر

وكان الظاهر تمربُغا أرشل ، قليل الحظّ ، معكوس الحركات فى أفعاله ، ليس له سعد ولا قسم ، كما يقال فى المعنى :

دع التعرّض إن الأمر مقدور وليس للسعى فى الإدراك تأثير
والمرء يعجز عن تحصيل خردلة بالسعى إن لم تساعده المقادير

وقال آخر :

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى طرًّا فلا تعتب على أولاده

وفيه وصل أرغون شاه نائب غزّة ، وعلى يده محضر بأنه سلّم الظاهر تمربُغا إلى الأمير يشبك الدوادار ، وتوجّه به من بلبيس إلى الإسكندرية ، وكان أرغون شاه قبض على تمربُغا لما طلع من الطينة ؛ فلما حضر أرغون شاه بين يدى السلطان شكره على ذلك ، وأخلع عليه خلعة حافلة ، وأركبه فرس بسرج ذهب وكنبوش ، فعزّ ذلك على جماعة الظاهرية ، لكونه قبض على تمربُغا ، وما كان هذا قصدهم .

وفيه تزايد سعر القمح وانتهى إلى سبعمائة درهم كل أردب ، ففتح السلطان شونة

وباع منها بأقلّ من سبعمائة ، فحصل للناس بذلك بعض رفق . ــ وفيه ثارت المماليك بالقلعة ومنعوا الأمراء من الطلوع إلى القلعة ، وكادت أن تـكون فتنة كبيرة ، وسبب ذلك تأخّر الوزير عن حمل اللحم المرتب والخبز . ــ وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين محمد والد الصاحب علاى الدين الأهناسى ، ووكّل به بطبقة الزمام .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ثلاثة أيام ، (١٠٧ آ) حتى قلق الناس لذلك ، وزاد سعر القمح ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة حتى حصل الوفاء .

وفيه توفى الشيخ تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على الشمنى القسطينى ثم السكندرى الحنفى ، وكان إماما عالمـا فاضلا خيرا دينا ، عارفا بالفقه والأصول ، وله تصانيف وتآليف فى فنون العلم ، أجاز له البُلقينى وابن اللقن والعراقى وغير ذلك من العلماء ، وكان عين للقضاء الأكبر غير ما مرّة وهو يمتنع من ذلك .

وفيه قبض على شخص سرق ستر الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه ، فرسم السلطان بقطع يده ، فشهر وقطعت يده . ــ وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن أسد بن عبد الواحد السيوطى ثم السكندرى الشافعى ، وكان عالمـا فاضلا بارعا فى العلم ، عارفا بالقراآت بالروايات السبع ، ومولده سنة ثمـانمائة . ــ وفيه أفرج عن الصاحب شمس الدين الأهناسى ، وأخلع عليه بإعادته إلى الوزارة ، وصرف ولده محمد عن نظر الدولة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبى القاسم بن جهان شاه صاحب كرمان ، وكان لابأس به ، ولى على كرمان بعد أبيه ؛ وجرى عليه أمور شتى ، وآخر الأمر قتل . ــ وتوفى الشيخ أبو عبد الله محمد الواصلى التونسى المالـكى ، وكان عالما فاضلا من أكابر علماء تونس ، وعاش نحوا من سبعين سنة . ــ وتوفى فيها من الأتراك قانصوه خونى الأشرفى ، أحد مقدمين الألوف بدمشق . ــ وتوفى قراكز العثمانى ، المعروف بحمار ،

---

(٢١) مقدمين : كذا فى الأصل . وقد تركت هكذا فيما يلى من المتن محافظة على أسلوب المؤلف ، مع الإشارة إليها .

الخاصكى الظاهرى ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى فارس أبو شامة المؤيدى الخاصكى . ـ وتوفى طوغان ميق العمرى المؤيدى ، أحد الأمراء العشرات .

وتوفى صاحب طرابلس الغرب . ـ وفى أواخر هذا الشهر توفى القاضى علم الدين أبو الفضل بن جلود كاتب المماليك ، وكان أصله من الأقباط يسمى ابن إسحق وكان (١٠٧ ب) من أعيان المباشرين ورأى من العزّ والعظمة غاية ، انتهى ذلك .

وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن والشرور والأنكاد ما لا يكاد أن يضبط ، وقتل فيها من الأمراء والعسكر ما لا يحصى ؛ وتولّى فيها ثلاثة سلاطين ، بل أربعة بخير بك سلطان ليلة ؛ وتوفى فيها الظاهر خشقدم ، وتبدّد شمل جماعة الخشقدمية وزالت دولتهم ؛ ووقع فيها غاية الفساد فى البلاد الحلبية بسبب عصيان شاه سوار ، وقد تقدّم ما جرى منه من الضرر فى حقّ العسكر .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم صعد القضاة للتهنئة بالعام الجديد ، فأمر السلطان بعقد مجلس بسبب مشترى مماليك الظاهر خشقدم ، فاشترى من المماليك الكتابية نحوا من خمسمائة مملوك ، ضريبة كل مملوك عشرة آلاف درهم ، وقد طمع فى حقّ أولاد الظاهر خشقدم . ـ وفيه أخلع السلطان على عبد الكريم بن علم الدين بن جلود ، وقرّره فى كتابة المماليك عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يلتح بعد .

وفيه عيّنت الأتابكية لأزبك من ططخ نائب الشام ، عوضا عن الأتابكى جانى بك قُلْقسيز بحكم أسره عند سوار ، فخرجت إليه البشارة بذلك ، وبطلبه إلى مصر سرعة ليلى الأتابكية . ـ وفيه أرسل السلطان بالقبض على تانى بك المعلم ، الذى توجّه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبة ، وحُمل للقدس بطالا . ـ وفيه جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن فشى بها الطاعون . ـ وجاءت الأخبار بوفاة الخواجا شهاب الدين ابن المزلق الدمشقى ، وكان من أعيان تجار دمشق ، ولم يل شيئا من الوظائف كأخيه . ـ وفيه توفى جانى بك قُجا الشمسى المؤيدى ، مات بطالا ، وكان بيده أمرة عشرة .

وفى ليلة خامس عشره خُسف جميع جرم القمر حتى أظلمت الدنيا ، ودام على ذلك إلى قريب آخر الليل حتى انجلى . ـ وفيه توفى شاد بك بشق الأشرفى نائب ملطية ، ثم بقى مقدّم ألف بدمشق . ـ وفيه كان وفاء النيل المبارك (١٠٨ آ) فلما أوفى توجّه الأمير قُرماس الجلب ، أمير مجلس ، وفتح السدّ على جارى العادة . ـ وفيه توفى أصيل الخضرى ، وهو محمد بن إبراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق بن عبد الله المغربى ، وكان مالكى المذهب ، وكان عشير الناس ، كثير الداعبات والنوادر ، لطيف الذات ، محبّباً لأرباب الدولة ، وعاش من العمر مدّة طويلة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

وفيه حضر الزينى عبد الرحمن بن الكويز ، الذى كان ناظر الخاص وفرّ فى دولة الظاهر خشقدم ، فتوجّه إلى عند ابن عثمان ملك الروم ، فأقام عنده حتى توفى الظاهر خشقدم ، فحضر إلى القاهرة ، فلما مثل بين يدى السلطان أخلع عليه ونزل إلى داره .

وفيه حضر قاصد حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة بالتّهنئة للسلطان بالملك ، وصحبته هدّية حافلة .

وفى صفر فى أول يوم منه توفى العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم الشروانى الشافعى ، وكان إماما عالما فاضلا نادرة عصره ، بارعا فى فنون العلوم ، خضعت له الناس من أهل زمانه ، وشهرته تغنى عن مزيد ذكره ، ومولده سنة ثمانين وسبعمائة . ـ وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة ، وتوجّه إلى نحو طُرا والعدوية على سبيل التنزّه ، فأقام هناك إلى آخر النهار ، ومدّ هناك أسمطة حافلة ، وانشرح هناك انشراحا زائدا ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه توقّف النيل عن الزيادة أياما ، وقلق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشترى القمح ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة .

وفيه أخلع على يلباى الظاهرى أحد العشرات ، وقرّر فى نيابة الإسكندرية عوضا عن قانصوه اليحياوى ، وقرّر قانصوه اليحياوى فى نيابة طرابلس عوضا عن أينال الأشقر ، وقرّر أينال الأشقر (١٠٨ ب) فى نيابة حلب عوضا عن برد بك البجمقدار ، بحكم انتقاله إلى نيابة الشام عوضا عن أزبك من طُطخ ، بحكم انتقاله

إلى الأتابكية عوضا عن جانى بك قُلَقْسيز ، بحكم أسره عند شاه سوار .

وفيه نودى على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين نقرة الرطل، وكانت بستة وثلاثين، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل . — وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الأمير مُغلباى طاز الأبوبكرى المؤيدى أحد مقدمين الألوف بمصر كان ، مات بدمياط بطالا ، وكان خيرا دينا موصوفا بالشجاعة ، وهو صاحب الجامع الذى أنشأه بدرب الخازن ، ومات وقد ناف عن الثمانين سنة من العمر ، ونقل بعد موته إلى القاهرة ، ودفن بتربته التى أنشأها فى الصحراء . — وفيه وصل المقر السيفى أزبك نائب الشام، فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وأجلّه وأخلع عليه ، وقرّره فى الأتابكية عوضا عن جانى بك قُلَقْسيز بحكم أسره عند سوار ، فنزل إلى داره فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بوفاة خوند فاطمة بنت الأشرف أينال، وكانت توجّهت إلى الإسكندرية بسبب ختان أولاد أخيها الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، فطُعنت هناك وماتت ، وكان الطعن عمالا بالإسكندرية ، فحُملت وهى ميتة فى سحلية وأحضرت إلى القاهرة ، فدفنت فى تربة أبيها الأشرف أينال ؛ وكان تزوّج بها كسباى الدوادار الثانى الخشقدمى ولم يدخل عليها ، وكانت قبل ذلك تزوّجت بالأمير يونس البواب الدوادار الكبير ، ومات وهى فى عصمته ، وكانت شابة جميلة الصورة ، لها من العمر نحو من سبع وعشرين سنة ، فكثر عليها من الناس الأسف والحزن والبكاء ، وكانت من الأحرار .

وفيه توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس (١٠٩ آ) وجماعة من الفقهاء والمتعمّمين ، وأحضر إليهم بقوس ثقيل ومعه نشابة طومار ، وصار كل من طلع من أولاد الناس يدفع إليه ذلك القوس الثقيل والنشابة ، فكل من لا يقدر يسحب ذلك القوس يقطع جامكيته ، فحصل لأولاد الناس فى ذلك اليوم كسر خاطر، وافتضح منهم جماعة ، ووبّخهم بالكلام ، ونزلوا من القلعة وهم فى غاية النكد ،

(٤) مقدمين : كذا فى الأصل .

فقطع فى ذلك اليوم عدّة جوامك ، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك . ـ وفيه توفى الطواشى سرور الطرابيهى شيخ الخدّام بالحرم النبوى ، وكان قد طعن فى السن جدا . ـ وتوفى القاضى شرف الدين عيسى الطبولى الشافعى ، أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد بالقلعة ، وكان يوما مشهودا ، وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ومدّ أسمطة حافلة . ـ وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر يلباى المؤيدى ، مات وهو فى السجن بالطاعون ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وآخر الأمر مات بالسجن قهرا ، وقد تقدّم ما جرى عليه فى سلطنته التى هى دون الشهرين . ـ وفيه انهبط النيل سريعا فى أثناء توت ، وتزايد أمر الغلاء وشطح سعر القمح ، وابتدأ وقوع الطاعون بالقاهرة.

وفيه عيّن السلطان الأمير أزدمر الطويل الأينالى ، بأن يخرج ومعه خمسمائة من المماليك السلطانية إلى حفظ مدينة حلب ، ويقيم بها إلى أن تخرج التجريدة عقيب ذلك، وكان بلغ السلطان بأن عسكر سوار قد نزل على قلعة دَرندَة وحاصرها ، فبادر أزدمر وخرج فى قلب الشتاء ليحفظ حلب ، وكان ذلك عين الصواب . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم طاز الأشرفى أحد مقدمين الألوف بحلب ، مات وهو فى أسر سوار ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، ومات وقد جاوز الستين (١٠٩ ب) من العمر .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى خانقة سرياقوس ، ونصب هناك الخيام، وأقام يومين ، وعمل أسمطة حافلة وحضر هناك مع السلطان قاصد حسن الطويل ، وقاصد ملك الهند ، فكانت تلك أياما مشهودة ، وانشرح السلطان ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين الأهناسى والد الصاحب علاى الدين ، وسلّمه إلى الأمير يشبك الدوادار فعاقبه وسجنه عنده أياما ، ثم قرّر عليه ألفى دينار وأطلقه .

---

(١٥) مقدمين : كذا فى الأصل .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش لتفرقة الجامكية ، فقطع عدة جوامك لأولاد الناس والمتعمّمين ، وأحضر عنده ثلاثة أقواس بعضها أقوى من بعض ، وصار كلما دعى باسم شخص من أولاد الناس يدفع إليه من الأقواس قوسا ويأمره بجذبه ، فإن وَفّى به كتبه إلى التجريدة ، وإن لم يجذبه قطع جامكيته أو يحمل مائة دينار عوضا عن بديل للسفر ، وصار بعض الأمراء يشفع فى من له ألف جامكية بأن يبقى على حاله ، ومنهم من ألزمه بخمسين دينارا لمن له جامكية ألف درهم ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب هذه المصادرة ، وهان عليهم ترك الجامكية من كثرة توبيخ السلطان لهم .

وفيه أنعم السلطان على برقوق شاد الشراب خاناه بتقدمة ألف ، وعلى قانبردى الدوادار الثانى أيضا بتقدمة ألف . ـ ثم فى آخر الجوامك قطع عدة جوامك للفقهاء والمتعمّمين وفعل بهم كفِعْل أولاد الناس ومصادرتهم . ـ وفيه أمر بإحضار علاى الدين بن الصابونى فى الدُهيشة ، فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضُرب ضربا مبرحا على رجليه ، وألزمه بحمل مائة ألف دينار ، فأذعن إلى ذلك ، ثم حُمل إلى طبقة الزمام فى الترسيم ووكّل به جماعة (١١٠ آ) من الخاصكية إلى أن يردّ ما قُرّر عليه من المال .

وفيه أخلع على يشبك الدوادار خلعة حافلة كخلعة الأتابكية ، وقُرّر فى الوزارة مضافا للدوادارية الكبرى ، فأخذ الوزارة عن الصاحب شمس الدين والد الصاحب علاى الدين بن الأهناسى ؛ وقُرّر قاسم شُغيتة فى نظر الدولة عوضا عن محمد بن شمس الدين الأهناسى ؛ فلما تمّ أمر يشبك الدوادار فى الوزارة أخذ فى أسباب قطع مرتّبات اللحوم التى كانت للفقهاء والمتعمّمين قاطبة ، وكان ذلك بإذن من السلطان ، ففتك يشبك فى ذلك غاية الفتك ، ورسّم على جماعة من المتعمّمين ، وقصد أن يأخذ منهم ما أكلوه فى الماضى ، وكان منهم من كان له الأربع زبادى اللحم والخمس زبادى بل وأكثر من ذلك ، فرسّم على بدر الدين الدميرى كتكوت حتى شفع فيه بعض

(٨) توبيخ : توبخ . (٢٢) منهم : منه . || والخمس : والخمسة .

الأمراء ، وهرب واختفى حمزة بن البشيرى ، واستمرّ مختفيا حتى مات بعد مدّة ، وحصل للفقهاء والمتعمّمين فى هـذه الحركة غاية الضرر والبهدلة ، وما أُبقى فى ذلك ممكن ، فقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعمّمين والنساء ، وكان القائم فى ذلك قاسم شُغيتة وحسّن للسلطان ذلك .

وهذا فتح باب أول المظالم ، وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك ، وكان فى الزمن القديم تباع الزبادى اللحم وتشترى للنساء والفقهاء وغير ذلك من الناس ، فامتنع هذا الأمر فى تلك الدولة ، وصار اللحم يصرف للمماليك فقط ، وكانت الوزراء المتقدمين تسدّ هذا الديوان أحسن السداد ، مع كثرة اللحوم التى [كانت] مرتّبة للناس على هذا الديوان وآخر من كان يثور بسداد هذا الديوان الصاحب علاى الدين ابن الأهناسى ؛ ثم البباى ، ثم ابن الصنيعة وغيره من الوزراء ، حتى ولى قاسم شُغيتة (١١٠ ب) فحسّن ليشبك الدوادار ذلك ، حتى فعل بالناس ما فعل .

وفيه خرج الأتابكى أزبك إلى جهة البحيرة بسبب فساد العربان ، فأقام هناك مدّة ثم عاد . — وفيه قرّر سودون القصروى فى رأس نوبة النوب ، عوضا عن نانق الظاهرى بحكم وفاته عند سوار . — وفيه قرّر تانى بك قرا الأينالى فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن قان بردى الأينالى بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وقرّر قانصوه الخسيف الأينالى فى شادية الشراب خاناه ، وقرّر جانى باى الخشن الأينالى فى تجارة المماليك ، وقرّر مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن سرور الطرابيهى بحكم وفاته ، وكان مثقال هذا عشير الناس ، كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقته السلطان وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يعّـم ندا كفّ مثقال فراحته   فيها لمن أمّه جود وأفضال
واعجب له فرعاه الله من رجل   فيه قناطير خير وهو مثقال

وفيه نفق السلطان على العسكر المعيّن إلى تجريدة سوار ، فأعطى لـكل مملوك مائة دينار . — وفيه أخلع على يشبك جن وقرّر فى إمرة الحاج بركب المحمل ، وكان

قرّر قبل ذلك فى إمرة الآخورية الثانية ، وأخلع على يشبك الجمالى وقرّر فى إمرة الحاج بالركب الأول . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن حسن الطويل قد استولى على ممالك العراق وطرد من كان بها من الملوك ، وقد تزايدت عظمته جدا ، فخشى السلطان منه فى الباطن وأخذ حذره ، ولكن أشغله عنه أمر سوار .

وفيه أرسل السلطان نفقات الأمراء المعيّنين (١١١ آ) إلى التجريدة ، فحمل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار ، وحمل لقجماس الطويل أحد الأمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشرات لكل واحد منهم مائتا دينار ، فكان الذى صُرف على هذه التجريدة ، التى خرج فيها الأمير أزدمر الطويل ، ومن عُيّن معه من الأمراء العشرات ، ومن الجند وهم نحو من خمسمائة مملوك، مايزيد على مائة ألف دينار ، فخرج أزدمر فى أوائل الشتاء ليقيم فى حلب . ـ وفيه أخرج علاى الدين بن الصابونى إلى دمشق ، وخرج معه خاصكى يقال له جانى بك الأشقر ليحضر ما بقى عليه من المال الذى التزم به ، فخرج إلى دمشق فى الترسيم .

وفى ربيع الآخر طلع القضاة إلى التهنئة بالشهر ، فتكلم السلطان معهم فى المجلس فى قطع جوامك العواجز من الجند والنساء ، وأخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب ، فطال الكلام فى المجلس بسبب ذلك ، ثم انفضّ من غير طائل ، وقام القضاة ونزلوا من القلعة ؛ فلما فرّق الجامكية فى هذا الشهر جلس على الدكة واستدعى بالجامكية ، وصار يقطع عدّة جوامك للعواجز من الجند والأيتام والنساء، وصار فى كل شهر يجلس على الدكة وتفرّق الجامكية بحضرته ، ويقطع فى كل شهر للناس بحسبما يختار منها ؛ وهو أول من جلس على تفرقة الجامكية بنفسه من الملوك، واستمرّ ذلك من بعده تفعله الملوك إلى يومنا هذا فى كل يوم تفرّق فيه الجامكية ، ولم يُعهد هذا من ملك قبله أنه حضر تفرقة الجامكية بنفسه غيره .

وفى هذا الشهر قرّر يشبك البجاسى ، الذى كان نائب حلب وعُزل ، قرّره

---

(٩) مملوك . مملوكا .

السلطان فى نيابة حماة عوضا عن محمد بن مبارك ، فعُدّ هذا من النوادر ، لكونه قرّر فى نيابة حماة بعد نيابة حلب . ـ وفيه أخلع السلطان على يشبك الجمالى وقرّر فى الحسبة عوضا عن (١١١ ب) قانصوه الخسيف ، بحكم انتقاله إلى شادية الشراب خاناه ، فجاء يشبك الجمالى فى الحسبة على الأوضاع ، وساق له حرمة وافرة .

وفى جمادى الأولى توفى الأمير جوهر التركمانى اليشبكى الخازندار الكبير والزمام، وكان هندىّ الجنس ، سيىء الخلق ، غير محمود السيرة . ـ وفيه خرج تمراز الشمسى قريب السلطان وتوجّه إلى الغربية للكشف على الجسور ، فصار يتوجّه إلى هناك فى كل سنة ، ويقيم بالغربية أشهر . ـ وفيه توفى الغرسى خليل والد شيخنا الشيخ عبد الباسط ، وهو خليل بن شاهين الشيخى الصفوى الأشرفى ، وكان ذكيا لبيبا عارفا ، تولّى عدة وظائف سنية منها : الوزارة ، ونيابة الكرك ، ونيابة القدس ، ونيابة ملطية ، وأتابكية حلب ، ونيابة الإسكندرية ، وتقدمة ألف بدمشق ، وحجّ بالناس أمير المحمل ، وكان من أعيان الرؤساء ، وكان نادرة فى أولاد الناس ، ومولده سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وكان حنفىّ المذهب اشتغل على جماعة من العلماء وأجازه فى الحديث الحافظ بن حجر .

وفيه أخلع السلطان على الطواشى جوهر النوروزى الحبشى وقرّر فى الزمامية والخازندارية الكبرى ، عوضا عن جوهر التركمانى . ـ وفيه توفى الشيخ المسلك العارف بالله حسام الدين حسين بن محمود الأصفهانى الرفاعى الشافعى ، وكان دينا خيرا لا بأس به . ـ وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلى ، وقد نهب البلاد وأسر نساء العربان وأولادهم ، حتى قيل أحضر معه نحوا من أربعمائة امرأة ، وقد مات منهن من الجوع عدّة كبيرة ، فلما عاد يشبك حصل من العربان بسبب ذلك ما لا خير فيه من [نهْب] البلاد وسلْب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة شيخ العرب حسن بن بغداد أحد مشايخ الغربية ، وكان فى سعة من المال ، فأحاط السلطان على موجوده قاطبة .

وفى جمادى الآخرة ارتفع سعر الغلال عما كان ، (١١٢ آ) واشتدّ الغلاء على

الناس ، وجاءت الأخبار بفشاء الطاعون بإقليم البحيرة . ــ وفى هذا الشهر توفى الطواشى شاهين غزالى الظاهرى الرومى ، وكان بارعا فى الجمال ، وافتتن به الكثير من النساء والرجال ، وكان حسن الشكل ، وافر العقل ، كثير الأدب ، حشما فى نفسه ، وكان فى سعة من المال غاوى متجرا ، وكان منهمكا فى ملاذ نفسه ؛ فلما مات نزل السلطان وصلّى عليه ، ثم توجّه من المصلاة إلى بركة الحبش وأقام بها إلى آخر النهار ، ثم عاد إلى القلعة ؛ وفى شاهين غزالى يقول الشهاب المنصورى :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم وزاد حسنك بالإحسان تزيينا
فاخفضْ جناح الرضى واصطد طيور دُعاً من جوّ إخلاصنا إن كنت شاهينا

وقال آخر فى شاهين غزالى :

أيها العُشّاق اصغوا * واسمعوا حسن مقالى كل عاشق لُو غزالٌ * وأنا شاهينْ غزالى

أعجوبة : نقل شيخنا الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى فى تاريخه ، أن شخصا من الجند ، يقال له يوسف السيفى يشبك الصوفى ، خرج ليُسيّر نحو الجبل المقطم ، فرأى حصاة مرمية على الأرض فأخذها ، فإذا عليها مكتوب بخط جيد : قد قرُب الوقت اعتبروا واتّقوا الله ، وهى كتابة بغير نقط ولا شكل ، فأحضرها بين يدى الشيخ أمين الدين الآقصرائى حتى رآها وتعجّب من ذلك ، ولكن طعن فيها بعض الناس ، وقال إنها مصنوعة ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفيه عرض السلطان العسكر وأخذ فى أسباب خروج تجريدة ثقيلة إلى سوار ، وهى التجريدة الثانية ، فعيّن باش العسكر الأتابكى أزبك من ططخ ، وقرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القصروى رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا الطويل الأينالى ؛ ومن الأمراء الطبلخانات خاير بك من حديد ، وجانى بك الزينى ؛ ومن الأمراء العشرات زيادة على العشرين أميرا ، ثم رسم لأولاد الناس من أراد (١١٢ ب) منهم السفر يسافر ، ومن لم يسافر يحمل لبيت المال مائة دينار ليقوم بديل عنه بها ، وهذا لمن له جامكية وإقطاع ، ومن لم يكن له إقطاع وله جامكية ألف درهم يحمل خمسة وعشرين دينارا .

وفيه قبض السلطان على الشهابى أحمد بن العينى وسُجن بالقلعة أياما ليردّ بقية المـال الذى كان قد قرّر عليه ، فأقام بالقلعة أياما حتى حمل ما عليه من المـال المقرّر ، فعند ذلك أخلع عليه السلطان ونزل إلى داره . ـ وفيه نفق السلطان على العسكر لـكل مملوك مائة دينار ، ثم أرسل نفقات الأمراء ، فبعث للأتابكى أزبك خمسة آلاف دينار ، وللأمير قرقماس الجلب أمير مجلس ثلاثة آلاف دينار ، ولـكل أمير مقدّم ألف ألفى دينار ، وحمل للأمراء الطبلخانات لـكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لـكل واحد مائتى دينار ، فـكان جملة ما صُرف على هـذه التجريدة نحو من أربعمائة ألف دينار .

فلما كان يوم الموكب طلع قرقماس الجلب إلى القلعة وطلب من السلطان الإعفاء من السفر ، وأظهر العجز ، وسأل أن يكون طرخانا ، فى أى مكان اختاره السلطان ، فلم يجاب إلى ذلك ، بل وخاشنه السلطان فى اللفظ وألزمه بالسفر وأكّد عليه ، فلما نزل إلى داره كثر القال والقيل بأن ستـكون فتنة ، فلما بلغ السلطان ذلك لم اكترث به ، ونزل إلى خليج الزعفران وأقام به إلى آخر النهار ، ثم عاد إلى القلعة وبطلت تلك الإشاعة .

وفى رجب حضر من البحيرة الأتابكى أزبك ، فلما نزلت له النفقة تمنّع من السفر ، وزعم أنه لا يطيق مماليك السلطان إذا عمل باش العسكر ، فلا زال السلطان يتلطّف به حتى أجاب إلى السفر وقبل منه النفقة . ـ وفيه وصل قاصد حسن الطويل وعلى يده هدّية للسلطان ، ومكاتبة تتضمّن ما ملـكه من ملك العراقين ، وعلى يده عدّة مفاتيح لعدة حصون وقلاع ، وأرسل (١١٣ آ) يتملّق للسلطان بأن كل ما ملـكه من البلاد هو زيادة فى ممالك السلطان ، وأنه النائب عنه فيها ، فأكرم السلطان قاصده وأضافه ، وأخلع عليه كاملية حافلة ، وأرسل إلى حسن الطويل هدّية سنيّة ، وأذن للقاصد بالسفر ؛ وكان هذا من حسن الطويل عين الخداع لـما يأتى منه من بعد ذلك . ـ وفيه توفى القاضى معين الدين بن الطرابلسى الحنفى ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى ، وكان عالما فاضلا ناب

فى القضاء مدّة ، ثم ترك ذلك ولازم العبادة والتصوّف حتى مات .

وفيه أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعيّن إلى تجريدة سوار ، ثم ابتدأ بتفرقة الجمال ، ثم عجّل لهم جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضا ، وأرضاهم بكل ما يمكن ؛ ووقع يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة ، وهو أن الهجّانة لما أحضروا الجمال وساقوها إلى الميدان ، تزاحمت عند باب الميدان وقت دخولها ، فمات منها فى ساعة واحدة نحو من ثلثمائة بعير ، فتشاءم الناس لذلك ، وصرّحوا بعدم نصرة العسكر ، وكذا جرى . ـ وفيه كان ابتداء وقوع الطاعون بالقاهرة ، وهو أول طاعون وقع فى دولة الأشرف قايتباى .

وفى شعبان توفى قاضى القضاة المالكى حسام الدين بن حريز ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، وكان أصله مغربى من طُرُبطاى ، ثم انتشى بمنفلوط وولى القضاء بها مدّة ، وكان عالما فاضلا ، جوادا سمحا فى سعة من المال ، سمع على ولى الدين العراقى وابن عياش وغيرهما من العلماء ، وآل أمره إلى أن ولى القضاء الأكبر بمصر ، وصفا له الوقت وطالت أيامه بها ، وعظم أمره فى القضاء ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، وكان يُعاب بكثرة القيام فى أغراض نفسه ؛ ولما مات ولى بعده أخوه سراج الدين عمر فقرّر فى قضاء المالكية عوضا عن أخيه . ـ وتوفى المسند شمس الدين محمد بن النقاش الوفاى (١١٣ ب) الصوفى الشافعى ، سمع الحديث من والده الشيخ سراج الدين عمر بن عمر بن حسن .

وفيه تزايد أمر الطاعون جدا ، وعمل فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء عملا ذريعا حتى عظم الأمر فى ذلك ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا نعم عيشة مصر   وبئس ما قد دهاها
لما فشى الطعن فيها   حاكى السهام وباها

وفيه أخلع السلطان على المقر السيفى يشبك الدوادار ، وقرّره فى الأستادارية ،

(١٠) القاسم : القاشم .

مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى والوزارة وكشوفية الكشاف، فعظم أمره جد وما أظن أن هذه الوظائف قط جمعت فى أحد من الأمراء قبله ، فكان الإنسان إذ مرّ ببابه يستعيذ بالله من هول ما يرى من الظلمة الذين ببابه ؛ فلما ولى يشبك الأستادارية قبض على مجد الدين بن البقرى ، وشرف الدين بن كاتب غريب ، وطلب منهما مال ، فتضاعف أمر ابن البقرى على خمسة آلاف دينار ، وأما ابن كاتب غريب فإنه أظهر العجز وحلف أنه لا يملك شيئا وكان متمرّضا ، فرسم السلطان بحمله إ البرج الذى بالقلعة فسجن به .

وفى هذا الشهر خرج العسكر المعيّن إلى سوار ، فخرجوا من القاهرة فى تجمّ زائد ، وطلّبوا أطلابا حافلة ، فخرج الأتابكى أزبك باش العسكر ، والأمير قرقما الجلب أمير مجلس ، وسودون القصروى رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب وقراجا الطويل الأينالى ، ومن الأمراء الطبلخانات والمشرات عدّة وافرة ، وم الجند نحو من ألف وخمسمائة [illegible] ، وخرج قبل ذلك أزدمر الطويل ومعه خمسمائة فصار الطاعون عمّالا والتجريدة خارجة ، والعسكر فى غاية الضرر على أولادهم وعيال ومات من العسكر فى أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية ؛ و إن السلطان نزل تحت (١١٤ آ) الليل إلى الأتابكى أزبك ، وأقام عنده ساعة وو وعاد إلى القلعة ، كل ذلك تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس .

وفيه توفى الأديب البارع الفاضل الشهاب بن صالح ، وهو أحمد بن محمد بن م ابن عثمان بن محمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا من ف الشعراء ، وله نظم جيّد حسن السبك ، ومولده سنة عشرين وثمانمائة ، ومن ش الرقيق فيمن أهدى إليه بطيخا وقطرا فأنشأ يقول :

بعث إلىّ بطيخا وقطرا يشابه ذاك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل تولّد فى الحقيقة من نبات

وقوله أيضاً :

---

(٣) الذين : التى .

أنا صافٍ فإن تصدّى مصافٍ لصدودٍ جلا صــداه صقيلى
قِسْ بأصفا الزجاج تجنيس قلبى حيث يبدو للصفو وصف الخليلى

وقوله فيمن اسمه فرج :

شكى فؤادى همّ الصدّ يا فرج وفيك أصبح صدرى ضيّقا حرجا
واستيأس القلب حتى رحتُ أنشده ما يشتكى المرء عنه وأنتظرْ فرجا

والتورية فيه ثلاثية . ــ وفى هذا الشهر عظم أمر الطاعون بالقاهرة ، وصارت الغرباء يموتون فى الطرقات بعضهم على بعض ، فشرع الأمير يشبك الدوادار فى بناء مغسل بالقرب من مدرسة السلطان حسن ، وصارت تُحمل إليه الطُرحاء من الموتى فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله ، فحصل للناس بذلك غاية الرفق فى تلك الأيام .

وفى رمضان اشتدّ أمر الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب ، حتى قيل أبيعت الغرارة القمح بدمشق بنحو الأربعين دينارا وزيادة . ــ وفيه مات للسلطان ولد اسمه سيدى أحمد ، وهو أول أولاده من خوند الخاصبكية بنت (١١٤ ب) العلاى على بن خاص بك ، وكان عمر ابن السلطان نحوا من أربع سنين ، ثم ماتت له ابنة اسمها ستّ الجراكسة عمرها نحو من ست سنين ، من خوند أيضا ، فأخرجت قدامها كفارة .

وفيه توفى الطواشى لؤلؤ الأشرفى الزمام والخازندار . ــ وتوفى يشبك خازندار الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، وكان أمير عشرة . ــ ومات مغلباى الخشقدمى ، وكان من الأمراء العشرات . ــ ومات ابن أخت السلطان ، وكان شابا حسنا صغير السنّ . ــ ومات جان بلاط الأينالى أحد الأمراء العشرات . ــ ومات جكم المحمدى الخشقدمى ، أحد الطبلخانات الحاجب الثانى . ــ ومات أينال باى ميق الأشرفى ، أحد العشرات . ــ ومات آقبردى الهوارى الأينالى ، أحد الأمراء العشرات ورءوس النوب . ــ ومات أنص باى الأعور الأينالى ، أمير آخور التبن والدريس . ــ ومات أركماس قرا الخشقدمى ، أحد العشرات . ــ ومات قانى باى الحسنى الأينالى ، أحد العشرات ، وكان والى القاهرة ، وكان غير عسوف فى ولايته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس خال الملك العزيز ، مات بالقدس بطالا ، وكان فى عشر الثمانين ، وولى عدة وظائف سنية ، وجرى عليه شدائد ومحنا ، وكان لا بأس به فى جماعة الأشرفية . ـ وفيه توفى الشيخ جمال الدين أبو الفضل خطيب مكة ، وهو محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد العقيلى النويرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا سمع على جماعة من العلماء وولى خطابة مكة ، ثم قدم إلى مصر وأقام بها إلى أن مات ، وكان معظما عند أرباب الدولة ، وربما ترشح أمره لبلى القضاء بمصر ، فما تم ذلك . ـ وفيه حصل للأمير يشبك الدوادار توعك فى جسده ، فنزل إليه السلطان وعاده .

وفى شوال تناقص أمر الطاعون وأخذ فى الارتفاع ، بعد ما فتك فى الناس فتكا ذريعاً . ـ (١١٥ آ) وفيه أخلع السلطان على قانى باى آص الساقى ، وقرّر فى الحجوبية الثانية ، عوضاً عن جكم بن أخت السلطان بحكم وفاته . ـ وفيه كان وصول الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان بثغر الإسكندرية ، فاستأذن السلطان فى الحضور ليحجّ ، فأذن له فى ذلك ، فحضر ، فلما صعد إلى القلعة ووقف بين يدى السلطان وأراد أن يقبّل الأرض ، فنهاه السلطان عن ذلك ، وبالغ فى إكرامه ، ثم أحضر إليه كاملية بصمّور ، وفوقانيا أخضر بطرز زركش عريض ، وقدّم إليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فركب من الحوش ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدّامه الأمراء ، فتوجّه إلى دار الأتابكى أزبك عند أخته زوجة أزبك ، وكان غائبا فى التجريدة ، فأقام عندها ؛ ثم بعد أيام أضافه السلطان بالبحرة ومدّ له أسمطة حافلة ، ثم بعد السماط ألبسه كاملية بصمّور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل فى موكب حافل ، فعُدّ مجيئه إلى مصر وطلوعه إلى القلعة من النوادر ؛ ثم إن السلطان أخذ فى أسباب عمل يرق للملك المنصور لأجل الحج .

وفيه أخلع السلطان على خُشقدم الأحمدى الطواشى ، وقرّر رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالى ، وأخلع على مرجان التقوى الحبشى وقرّر فى مشيخة الخُدّام بالمدينة المشرفة . ـ وفيه توفى آقباى اليحياوى الأينالى ، أحد العشرات ، وكان شابا شجاعا بطلا . ـ وفيه أرسل السلطان إلى الظاهر تمربغا وهو بالإسكندرية فرسا

بسرج ذهب وكنبوش ، وكاملية بصمّور ، وأذن له بالركوب إلى الجامع فى صلاة الجمعة والميدين ، وإلى حيث شاء من أماكن الإسكندرية . ــ وفيه توفى الأمير قان بردى الإبراهيمى (١١٥ ب) الأينالى أحد مقدمين الألوف بمصر .

وفيه جاءت الأخبار بقتل السلطان أبو سميد بن أحمد بن سمدان شاه بن تمرلنك ، وكان متملّكا سمرقند وبخارى ، قُتل على يد حسن الطويل ، وكان من أجلّ ملوك الشرق قدرا ، فلما قتل تولّى من بعده ولده أحمد وهو باق على ملكه إلى يومنا هذا . ــ وفيه أخلع السلطان على يشبك من حيدر الأينالى وقرّر فى ولاية القاهرة ، فحسنت أوقاته بها وطالت أيامه ، ودام فى الولاية نحوا من عشرين سنة .

وفيه استقر فى مشيخة المدرسة الصلاحية ، المجاورة لقبّة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، الشيخ كمال الدين بن إمام المدرسة الكاملية ، عوضا عن زين العابدين بن قاضى القضاة يحيى المناوى ، بحكم وفاته . ــ وفيه خرج الحاج على العادة ، وخرج صحبتهم الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من برك وسنيح وغير ذلك .

وفيه لبس السلطان البياض فى يوم الاثنين سادس عشرينه ، الموافق لثالث عشر بشنس ، فخرج من الدهيشة لابسا البياض ، وقد خالف العادة فى ذلك بعدم لبسه له يوم الجمعة ، وهى العادة القديمة ، فأعيب ذلك عليه . ــ وفيه عاد القاضى شرف الدين الأنصارى من جبل نابلس ، وكان خرج بسبب جمع المشير المتوجّه مع التجريدة ، فقيل إنه أصرف على جمع العشير من النفقة نحوا من مائتى ألف دينار فيما يقال . ــ وفيه نزل السلطان إلى نحو قليوب ، ثم عرج على جسر أبى المنجا ، ثم عاد إلى تربة يشبك الدوادار فأقام بها إلى بعد العصر ، ثم عاد إلى القلمة .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن المسكر لما وصل أخذ باب الملك ، وأنهم فى الاستظهار على العدوّ سوار ، ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باى الأقطع أخو سوار ، وجماعة كثيرة من عسكره ، وبعث برأس مال باى الأقطع

(٣) مقدمين : كذا فى الأصل .

ومعها رأسين من أمرائه ، فلما حضرت تلك الرءوس طيف بها فى القاهرة ، ثم علّقت على (١١٦ آ) باب زويلة وباب النصر . ــ وفيه جاءت الأخبار بموت خاير بك الفهلوان ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر فى واقعة مال باى أخى سوار .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى نحو طُرا ، فأضافه هناك محمد بن البلاح ، فأقام إلى آخر النهار وعاد ــ وفيه سافر السلطان إلى جهة البحيرة ، وهى بحيرة تنيس ، وكان معه من الأمراء المقدّمين برقوق الناصرى ، واستمرّ فى هذه السفرة أياما ، وانقطع خبره عن الناس مدّة ، وقد قرب عيد النحر ، فبعث مرسوما بطلب قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلّى به صلاة عيد النحر بفارسكور ، فخرج القاضى بسرعة ، وأخذ معه أشياء من نوع المآكل هدّية للسلطان ، فتوجّه إلى نحو فارسكور ، فعيّد السلطان هناك ، وقطع أضحية جماعة من أولاد الناس والفقهاء والنساء حتى الخوندات وجماعة كثيرة من الجند ، فحصل للناس كسر خاطر بسبب قطع أضحيتهم على هذا العيد ؛ وكان فى هذا العيد العسكر غائبا فى التجريدة ، والسلطان مسافرا ، وكان عقيب الفصل وقد فقدت الناس أولادهم وعيالهم ، وقطعت ضحاياهم التى كانت مرتّبة بالديوان السلطانى من قديم الزمان . ــ وفى يوم عيد النحر كانت بشارة النيل بما جاءت به القاعدة ، ثم نودى عليه من غده .

واستمرّ السلطان فى هذه السرحة غائبا نحوا من أربعين يوما ، وطاف عدّة بلاد من الشرقية والغربية ، فدخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان والدركين ، من خيول ومال وغير ذلك ، وكان خروجه إلى السفر على حين غفلة ، ولم يكن معه من الأمراء المقدّمين سوى برقوق ، وبعض أمراء عشرات ، وبعض عسكر ؛ ثم جاءت الأخبار بأن السلطان (١١٦ ب) قصد العود إلى الديار المصرية ، وقد وصل إلى بلبيس ، فلما دخل إلى الخانكاه خرج إليه أرباب الدولة قاطبة إلى تلقيه ، ثم نودى

(٩و١١) بفارسكور : بفارس كور .

فى القاهرة بالزينة فزُيّنت زينة حافلة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشر هذا الشهر ، دخل السلطان إلى القاهرة من باب النصر فى موكب حافل ، وقد حمل القبّة والطير على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، وموجب ذلك كان الأتابكى أزبك غائبا فى التجريدة ، فكان له يوم مشهود ، ومشت قدامه الجنايب بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، من عند مدرسة أم السلطان التى فى التبانة إلى القلعة ، ونثرت على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشت قدّامه الأمراء الرءوس نوب بالشاش والقماش ، من بين القصرين إلى القلعة ، واصطفّت له المغانى النساء على الدكاكين ، واستمرّ فى ذلك الموكب حتى طلع إلى القلعة ، وهذا أول مواكبه الحافلة .

وصادف أن قاصد حسن الطويل كان حاضرا ، فتعجّب من حسن هذا الموكب ، وكان قد حضر وعلى يده رأس أبى سعيد ملك سمرقند ، وقد تقدّم أنه قُتل على يد حسن الطويل ؛ فلما صعد السلطان إلى القلعة وجلس على الدكة بالحوش ، حضر قاصد حسن الطويل ومعه رأس أبى سعيد فى علبة ، وكان المسكر بالشاش والقماش وكان الموكب عاما .

فلما انفضّ الموكب أقام السلطان بعد ذلك أياما ، وإذا بتانى بك الظاهرى أحد الأمراء المشرات رءوس النوب وقد حضر ، وكان ممن خرج فى التجريدة ، فأخبر بكسرة العسكر ورجوعه إلى حلب ، وهذه ثانى كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار ؛ فلما تحقق السلطان (١١٧ آ) ذلك اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة بمن فيها ؛ وكان سبب كسرة العسكر أن سوارا تحيّل عليهم حتى دخلوا فى مواضع مضيق بين أشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسىّ والنشاب والسيوف والأطبار ، فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم .

وأخبر تانى بك هذا بقتل الأمير قرقماس الجلب ، وكان يعرف بقرقماس من يشبك خجا الأشرفى ، وكان أميرا جليلا حشما ريسا ، وكان يقرب للأشرف

برسباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها رأس نوبة النوب ، وأمير مجلس ، وأمير سلاح ، ثم جرى عليه فى دولة الظاهر يلباى ما تقدّم ذكره ، وسجن ثم أطلق وتوجّه إلى دمياط ، ثم عاد إلى مصر فى دولة الأشرف قايتباى ، وأعيد إلى أمرة مجلس ، وخرج إلى التجريدة فقتل فى المركة .

وأخبر بموت سودون القصروى رأس نوبة النوب ، مات بحلب ، وكان مجروحا فحمل إلى حلب فمات بها ، وكان قد طعن فى السنّ وناف عن الثمانين سنة من العمر ، وكان إنسانا حسنا دينا خيرا ، وهو صاحب المدرسة التى بخط الباطلية بجوار داره ، وكان أصله من مماليك قصروه نائب الشام ، وكان دواداره ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة قلعة مصر ، ثم بقى مقدّم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ومات بحلب .

وأخبر بوفاة برسباى أمير آخور ثانى ، وكان يعرف بيرسباى الأبو بكرى ، وكان أمير عشرة ورأس نوبة ؛ ومات أينالى باى ميق الأينالى ، وكان أمير عشرة ؛ ومات تغرى بردى الأرمنى المنصورى ، وكان أمير عشرة ؛ ومات طُقطمش المحمدى الأشرفى برسباى ، وفارس البكتمرى أحد العشرات ، وقجماس الطويل الحسنى الظاهرى أحد الأمراء الطبلخانات ، ونوروز شكال من تغرى بردى الأشرفى أحد العشرات ، ونوروز سِمز العلاى الأشرفى برسباى ، قيل رماه سوار من أعلا السور فمات (١١٧ ب) لوقته ، وكان شجاعا بطلا ، ونوروز الدوادار من غيبى الأشرفى أحد العشرات ، وكان أمير خازندار ، وقانم بيضا اليوسفى الظاهرى أحد العشرات ، فهؤلاء قُتلوا كلهم فى واقعة سوار .

وقتل أيضا من أمراء دمشق الشرفى يحيى بن جانم نائب الشام أحد مقدّمين الألوف بدمشق ، وكان يوصف بالشجاعة ؛ وقتل محمد بن تنم من عبد الرزاق نائب الشام أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق ، والحاجب الثانى بدمشق ؛ وفارس التيمى أحد الأمراء بدمشق ، وشاد بك آص الأينالى أتابك دمشق ، وتمر باى الجلبانى أحد الأمراء بدمشق ، وإبراهيم بن بيغوت نائب حماة ، وكان حاجب الحجاب

بدمشق ، وخشقدم السيفى جار قطلوا أحد الأمراء بدمشق ، وجانى بك السيفى تغرى برمش دوادار السلطان بدمشق ، وشاد بك الحسنى الشمبانى أحد أمراء دمشق ، وعبد الرحمن الحزاوى أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ، ومشايخ عربان جبل نابلس ، والعشير ، والتركمان ، والغلمان ، فما أمكن ضبطه ، وكانت هذه من الوقعات المشهورة التى لم يسمع بمثلها ؛ فلما شاع بين الناس ذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقاهرة فى كل حارة نعى ليلا ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم فى قلوب العسكر مثل أيام تمرلنك ، وصاروا يرعدون من ذكره ، وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يا ربّ إن سوارا قد بغى وبه   قد أصبحوا الناس فى ضيق وفى قلق
فاكسر سوارا ودعه فى السلاسل فى   خواتم الأمر يستعطى من الحلق

وقال آخر :

إن سوارا قد غدا مخلخلا   عسكره قد حلّ فى دار البوّار
(١١٨ آ) يا ربّ شتّت شمله حتى نرى   خواتم الأمر لنا كسر سوار

ثم صار العسكر من بعد ذلك يدخلون إلى القاهرة وهم فى أنحس حال من العرى والجوع ، وبعضهم مجروح ، وبعضهم ضعيف ، وكان يدخل بعضهم راكبا على حمار أو جمل ، أو يدخل ماشيا وهو عريان ، وما قاسوا فى هذه التجريدة خيرا ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم .

وفى ذى الحجة أخلع السلطان على الأمير برقوق الناصرى وقرّره فى كشف التراب بالشرقية ، وحصل به نفع لقمع العربان المفسدين وعمارة الجسور . ــ وفيه توفى القاضى فتح الدين بن وجيه الدين بن سويد المالكى المصرى ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن حسن ، وكان عالما فاضلا فى مذهبه ، وناب فى القضاء ، وهو والد جلال الدين ، وكان لا بأس به .

(٨) يرعدون : يرعدوا .

وتوفى من الأتراك جانم المجنون الخشقدمى ، وكان أحد الأمراء العشرات . ـ وتوفى جقمق المؤيدى ، وكان أحد العشرات . ـ وتوفى إياس البجاسى نائب القدس ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى العلاى على بن النيسى ، وهو على بن إسكندر ابن ثمان تمر ، مات مع السلطان لما خرج إلى السرحة ، مرض فى أثناء الطريق ومات ، ثم نقل إلى القاهرة على جمل ، ودفن فى تربته التى بباب الوزير ، وكان ريسا حشما ولى عدة وظائف ، منها الحسبة ، وولاية القاهرة ، وأحد الحجاب بمصر ، وكان عنده بعض خفّة ورهج مع عسوفه وبطش ، وكان مولده فى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة .

وفيه توفى الواعظ المادح المنشد عبد القادر بن محمد الوفاى ، وكان ممن له ذكر وشهرة فى فنّه ، وكان لا بأس به . ـ وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، وقد وقع فيها أمور شتى منها الغلاء والفناء ، والفتن ببلاد الشرق ، وقتل أمراء وعسكر ممن تقدّم ذكرهم ، ووقع فيها مصادرات بسبب التجاريد ، وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ، وفقدت الناس فيها أولادهم وعيالهم ، وما قاسى فيها أحد خيرا ، انتهى ذلك (١١٨ ب) .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم أخلع السلطان على الزينى أبى بكر بن القاضى عبد الباسط وقرّر فى نظر الجوالى ، عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . ـ وفيه أخرج السلطان خرجا من جلبانه نحو المائتين مملوك ، وهذا أول خرج أخرجه فى سلطنته ، وسمّاهم الأشرفية . ـ وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار إلى نحو الوجه القبلى ، بسبب جمع المغلّ من البلاد القبلية . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة تمرباى السيفى ألماس نائب قلعة حلب ، وكان شابا جميل الصورة ، وأصله من الأينالية .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، ودخل صحبتهم الملك المنصور عثمان بن الظاهر

(١٨) المائتين : كذا فى الأصل .

جقمق ، فحجّ وعاد ، فلما طلع إلى القلعة أجلّه السلطان وأكرمه ، وأخلع عليه كاملية حافلة بصمّور ، وفوقها فوقانيا أخضر بطُرز زركش عريض ، ونزل فى موكب حافل إلى دار الأتابكى أزبك . — وفيه عقد الأمير يشبك الدوادار على خوند فاطمة ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، وكان العقد بالجامع الذى بالقلعة بين يدى السلطان ، والأربع قضاة حاضرين وسائر الأمراء .

وفى صفر كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك الرابع والعشرين من مسرى ، فلما أوفى نزل الأمير لاجين الظاهرى ، أحد مقدمى الألوف ، فخلّق المقياس وفتح السدّ على العادة . — وفيه أضاف السلطان الملك المنصور عثمان بالبحرة ، وأخلع عليه ، وأذن له بالتوجّه إلى ثغر دمياط ، فخرج وانحدر من يومه ؛ وقد وقع له أمور لم تقع لأحد من أبناء السلاطين قبله ، وكان لما حضر أذن له السلطان بأن يلعب معه الأكرة ، فكان يلعب مع الأمراء القدمين وهو ببند أصفر مثل السلطان ، وقد بالغ السلطان فى تعظيمه جدا .

وفيه جاءت الأخبار من (١١٩ آ) حلب بأن قرقماس الصغير ، نائب ملطية ، تقاتل مع عسكر سوار ، فكان بينهما واقعة هائلة ، وقتل فيها من عسكر سوار مقتلة عظيمة ، فوق خمسمائة إنسان ، وأسر جماعة كثيرة من أمرائه وأقاربه ، وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماس ، حتى بلغ بها ذلك . — وفيه توفى طومان باى المحمدى المعروف بدش سز الظاهرى ، أحد الأمراء العشرات ، وكان لابأس به . — وفيه توفيت خوند فاطمة ابنة الظاهر ططر ، وأخت الملك الصالح محمد بن ططر ، وزوجة الملك الأشرف برسباى ، وماتت وعليها جملة ديون .

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على يشبك جن بتقدمة ألف ، وأنعم على قانصوه الأحمدى المعروف بالخسيف بتقدمة ألف ، وقرّر فى شادية الشراب خاناه دولات باى حمام الأشرفى عوضا عن قانصوه الخسيف ، وقرّر فى رأس نوبية الثانية برد بك المشطوب اليشبكى عوضا عن دولات باى حمام . — وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، وكان حافلا . — وفيه توفى بتخاص العثمانى الظاهرى أحد العشرات ،

وكان حاجب ثانى .

وفيه أخلع السلطان على جانى بك حبيب العلاى الأينالى ، وقرّر فى الأمير آخورية الثانية عوضا عن يشبك جن ، ودام فى هذه الوظيفة عدّة سنين . ــ وفيه توفى الشيخ نور الدين على البَلطيمى الضرير ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان عمى فى سابع سنة من عمره بجدرى أصابه فى عينه ، وكان يعرف بابن شاور البُرلسى ، ومولده سنة ست أو سبع وثمانمائة ، وكان له نظم جيد . ــ وفيه أخلع على يشبك الجمالى المحتسب ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر فى أمرة الركب الأول آقبردى من أصباى الأشرفى برسباى .

وفيه توفى مغلباى أزن سقل الظاهرى الخشقدمى ، وكان من مقدمين الألوف بمصر ، ثم أخرج إلى القدس بطالا فمات به ، وكان أميرا دينا خيرا ولى عدة وظائف سنية ، منها شادية (١١٩ ب) الشون ، وحسبة القاهرة ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم نفى إلى القدس ومات به .

وفيه أرسل السلطان وقبض على زين الدين الأستادار ، وكان بطالا مقيما فى داره ، فأرسل بالقبض عليه ، فلما حضر بين يديه وبّخه بالكلام ، ثم أمر بضربه بين يديه ، فضرب ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم سجنه بالبرج الذى بالقلعة ، وصار يحضره بين يديه كل يوم بعد يوم ويضربه أشدّ الضرب ، فمات وهو بالبرج ، فلما أعلموا السلطان بموته لم يصدّق بذلك وأمر بإحضاره بين يديه وهو ميّت ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ، ثم أمر بحمله إلى داره ليغسّلوه ويدفنوه ، فحمل من القلعة إلى داره .

وكان بين السلطان قايتباى وبين زين الدين الأستادار عداوة قديمة ، من حين كان السلطان جنديا ، إلى أن تسلطن أخذ بثأره منه وقتله ؛ وكان يظن أن مع زين الدين مالا ، فعاقبه وطلب منه من المال ما لا يقدر عليه ، فمات تحت العقوبة ؛ وكان أصل زين الدين من الأرمن ، واسمه يحيى بن عبد الرزاق الأرمنى ، وكان يعرف بالأشقر

(٩) مقدمين : كذا فى الأصل .

ابن كاتب حلوان ، وكان يقرب لابن أبى الفرج ، وقد رأى فى دولة الظاهر جقمق من العزّ والعظمة ما لا رآه أحد بعده من الأستادارية ، وعظم أمره جدا وأنشأ بالقاهرة وغيرها عدّة جوامع يخطب فيها ، وعدة مدارس ، وولى الأستادارية غير ما مرّة وغيرها من الوظائف ، وباشر الأستادارية أحسن مباشرة وأفشى فيها من المظالم ما لا يسمع بمثله ، وجرى عليه من الشدائد والمحن والأنكاد ما لا يعبّر عنه ، وصودر غير ما مرّة ، وغرم الأموال الجزيلة ، وعصر فى أكمابه ، وضرب غير ما مرّة ، ونفى إلى المدينة الشريفة ، وإلى القدس وغير ذلك من الأماكن ؛ وكان له محاسن كثيرة ، ومساوئ كثيرة من أبواب المظالم الحادثة فى أيامه ، واستمرت بعده إلى الآن ؛ وكان مولده قبل قرن الثمانمائة وما لقى خيرا فى آخر عمره ، وله أخبار (١٢٠آ) يطول شرحها .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن عبد الرزاق بن عبد القادر بن نُفيش الأذرعى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل ، سمع على جماعة من العلماء ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السيوسى المغربى المالكى ، قاضى قضاة المالكية بدمشق ، وولى قضاء الإسكندرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمّة على وظيفة القضاء ؛ وتوفى السيد الشريف أبى هاشم حمزة بن أحمد بن على الحسنى الدمشقى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل . ــ وفيه أرسل السلطان خلعة إلى قانصوه اليحياوى باستقراره فى نيابة حلب ، عوضا عن أينال الأشقر ، وكتب لأينال الأشقر بالحضور إلى القاهرة على تقدمة ألف بها .

وفيه أرسل السلطان ليشبك البجاسي نائب حماة باستقراره فى نيابة طرابلس ، وقرّر عوضه فى نيابة حماة بلاط اليشبكى أحد مقدمين الألوف بدمشق ، وقرّر فى تقدمة بلاط بدمشق تمراز أتابك حلب ، وقرّر فى أتابكية حلب تغرى بردى بن يونس ، وقرّر فى حجوبية الحجاب بدمشق محمد بن مبارك ، عوضا عن ابن بيغوت الماضى

---

(٢١) مقدمين : كذا فى الأصل .

خبر موته فى واقعة سوار . ـ وفيه قرر لاجين الظاهرى فى كشف الجسور بالبهنساوية ، وقرّر يشبك جن فى كشف الجسور بالبحيرة . ـ وفيه توفى قانصوه الساقى الشمسى الأشرفى أحد الأمراء العشرات ، وكان متمرّضا من حين عاد من التجريدة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ابن رمضان أمير التركمان أخذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار ، وأخذ منهم قلعة سيس ، فسُرّ السلطان لهذا الخبر وأرسل إلى ابن رمضان خلعة سنية . ـ وفيه جاءت الأخبار من (١٢٠ب) ثغر الإسكندرية بوفاة قنبك المحمودى المؤيدى ، الذى كان أمير سلاح بمصر ونفى إلى الإسكندرية فى دولة الظاهر تمربغا ، فأقام فى البرج إلى أن مات ، وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان فى أوائل عمره شجاعا بطلا ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أمرة مجلس ، وأمرة سلاح ، وقاسى شدائد ومحنا فى آخر عمره إلى أن مات .

وفى جمادى الأولى حضر إلى القاهرة قراجا السيفى جانى بك نائب جدّة ، أحد الأمراء العشرات ، وأخبر بأن شاه سوار أطلق الأتابكى جانى بك قلقسيز وبعث به إلى حلب ، وقد أكرمه غاية الإكرام ، وقصد بذلك أن يسترضى خاطر السلطان ، وقرّر مع الأتابكى جانى بك قلقسيز بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان فى أمر الصلح . ـ وفيه نزل السلطان إلى الرماية ببركة الحاج ، وعاد من يومه ، وطلع من بين الترب . ـ وفى هذا الشهر ارتفع سعر الغلال ، حتى بلغ كل أردب قمح بأربعة أشرفية ، وكل أردب شعير بنحو من سبعمائة درهم ، والفول بنحو ذلك ، وبلغ الحمل التبن بنحو أشرفى ذهب ، وعمّت هذه الغلوة سائر البلاد ، حتى البلاد الشامية وغيرها .

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان وتوجّه إلى خليج الزعفران على سبيل التنزّه ، وأقام هناك ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه وصل أينال الأشقر المعزول عن نيابة حلب ، فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وأخلع عليه ، ونزل إلى دار أعدّت له ، ثم بعد أيام أخلع عليه وقرّر فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن سودون القصروى بحكم موته فى تجريدة سوار كما تقدّم ، (١٢١آ) وكانت هذه

---

(١٠) ومحنا : ومحن .

الوظيفة شاغرة من يومئذ .

وفيه توفى خشكلدى القوامى الناصرى ، وكان أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان جركسى الجنس ، من مشتروات الناصر فرج ابن برقوق ، وكان دينا خيرا متواضعا ، وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر . ــ وفيه توفى قاضى قضاة المالكية بدمشق محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث البكرى المصرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وناب فى الحكم بمصر مدّة ، ثم ولى قضاء دمشق ؛ وتوفى تمرباى التمرازى ، أحد العشرات ، ولى المهمندارية وأقام بها مدّة . ــ وفيه قرّر أبو الفتوح المنوفى كاتب السلطان ، وهو أمير ، فى نظر الأوقاف والبيمارستان ، عوضا عن شرف الدين عبد الباسط بن البقرى ، بحكم صرفه عنها .

وفى رجب تزايد أمر الغلاء بالقاهرة ، وأشيع بين الناس أن سبب ذلك تحكير الأمير يشبك الدوادار الكبير على الغلال بالوجه القبلى ، ومنع المراكب من حمله ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

وظالم منـــه أتانا الغـلا　　　يا ويله فى الحشر من ربّه
فادعوا وقولوا ربّنا اطمس على　　　أمواله واشـــدد على قلبه

وفيه أخلع على لاجين الظاهرى وقرّر فى أمرة مجلس، عوضا عن قرقماس الجلب، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل قرقماس فى واقعة سوار ؛ ثم بعد أيام وصل الأتابكى جانى بك قلقسيز وصعد إلى القلعة ، فقام له السلطان واعتنقه وترحّب به ، ثم أخلع عليه كاملية بصمّور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وركب من باب البحرة ونزل (١٢١ ب) من القلعة فى موكب حافل ، ثم بعد أيام أخلع عليه وقرّر فى أمرة السلاح ، عوضا عن برد بك هجين بحكم قتله فى واقعة سوار ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة ؛ ومن العجائب أن السلطان بعث مرسوما بمنع جانى بك قلقسيز لدخوله إلى القاهرة ، وأن يقيم بحلب ، فقدم جانى بك قلقسيز قبل وصول المرسوم إلى حلب بسبعة أيام ، فلما حضر قرّره فى أمرة السلاح بعد ما كان

---

(١٦) وكانت : وكان .

أمير كبير . ـ وفيه قرّر جقمق الظاهرى فى نيابة دمياط .

وفى شعبان كانت نهاية بناء السبيل ، الذى أنشأه السلطان بخط القشاشين من تحت الربع ، فجاء السبيل والمكتب فوقه فى غاية الحسن ، ولاسيا فى ذلك الخط . ـ وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلى ، وكانت مدة غيبته نحوا من سبعة أشهر ، ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله ، حتى قيل إنه شوى بالنار محمود شيخ بنى عدى ، وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ، ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هـذا العذاب ما لا فعله أحد قبله ، فدخل الرعب منه فى قلوب العربان ؛ فلما صعد الأمير يشبك إلى القلعة أخلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل إلى داره فى موكب حافل ؛ ثم بعد ذلك قدّم إلى السلطان تقادم حافلة ، بما ينيف عن مائتى ألف دينار ، مابين ذهب عين وخيول وجمال ورقيق وأعسال وسكاكر وغلال وغير ذلك . ـ وفيه توفى صنطباى من قصروه الأشرف أحد العشرات ، وكان مريضا من حين عاد من التجريدة .

وفى رمضان أمر السلطان بفتح شونتين من شوَنِه ، وأبيع منها القمح سعر ألف درهم كل أردب ، وكان وصل سعره إلى أربعة (١٢٢ آ) أشرفية كل أردب ، فحصل للناس بعض رفق ، وكثر الخبز على الدكاكين . ـ وفيه نودى من قبل السلطان بأن من أُخذ منه شيء ، من أولاد الناس وغيرهم ، بسبب بعْث البَديل إلى التجريدة ، فليصعد إلى القلعة فى ثامن هـذا الشهر ، ليردّ إليه ما أُخذ منه من مبلغ كان أورده إلى الخزائن الشريفة ، فتعجّب الناس من ذلك ، وما السبب فيه ، فعدّ هـذا من النوادر ؛ فلما صعد أولاد الناس إلى القلعة ردّ لهم ما أُخذ منهم بحكم النصف . ـ وفيه توفى القاضى حسام الدين بن بريطع الحنفى الدمشقى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، وكان من أعيان الحنفية ، ولى قضاء غزّة وصفد وطرابلس ودمشق غير ما مرة ، وكان ريسا حشما ، وله نظم ونثر وخط جيّد ، وألّف الكتب الجليلة .

وفيه حضر الأتابكى أزبك ، وكان مقيما بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل

---

(١٦) شيء : شيئا . (١٨) فتعجب : فتعجبون . (٢٠) بريطع : مريط .

إلى القاهرة هو ومن بقى معه من الأمراء والعسكر ، وصحبته شاه بضاغ أخو سوار ، الذى أخذ منه سوار البلاد ؛ فلما صعد الأتابكى أزبك إلى القلعة أخلع عليه السلطان ، وعلى من معه من الأمراء ، وعلى شاه بضاغ أخى سوار ، وكان معه يحيى كاوِرْ أخو سوار أيضا ، وكان مُسِك من قبل ذلك ، فلما مثل بين يدى السلطان أمر بسجنه فى البرج الذى بالقلعة .

وفيه اختفى القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص ، فلما اختفى أخلع السلطان على الزينى عبد الرحمن ابن الكويز ، وأعاده إلى نظر الخاص ، وهذه آخر ولاياته للخاص . ـ وفيه صعد قاصد سوار إلى القلعة ، وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له فى صعادها معه ؛ وحضر بمكاتبة سوار فكان ضمنها أنه يطلب الصلح مع السلطان ، لكن على شروط منه لم يقبلها السلطان ، (١٢٢ ب) منها بأن يكتب له تقليدا بأمرة الأبلستين ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ، وأنه إن فعل ذلك يسلّم عينتاب للسلطان ، فطال الكلام بين القاصد والسلطان ، ولم ينتظم الأمر فى شئ من الصلح ، ونزل القاصد بغير خلعة .

وفيه أخلع على الجمالى يوسف بن قُطيس وقرّر فى نيابة القدس ، عوضا عن دمرداش العثمانى ، بحكم انتقاله إلى نيابة سيس . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ بدر الدين قاضى شُهبة ، وهو محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسدى الشُهبى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه عارفا بمذهب الشافعى ، وكان عالم الشام على الإطلاق ، وترشّح أمره لقضاء دمشق غير ما مرّة ، ومولده فى سنة ست وثمانمائة .

وفى شوال أخلع السلطان على البدرى بدر الدين محمد بن الكويز ، وقرّر فى معلمية المعلمين ، عوضا عن البدرى حسن بن الطولونى . ـ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد على العادة ، وخرج صحبتهم الشيخ كمال الدين بن إمام المدرسة الكاملية ، وكان موعكا فى جسده ، فلما وصل إلى ثغرة حامد مات هناك ودفن بها ،

(١١) عينتاب : عنيتاب . (١٦) الأسدى : الأشدى .

وكان عالمـــا فاضلا بارعا ، سمع على جماعة من العلماء ، منهم ولى الدين العراقى وابن الجزرى والحافظ بن حجر وغيره من العلماء ، وولى عدّة تداريس جليلة ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه وقع كاينة عظيمة لجلال الدين عبد الرحمن بن سُويد المالـكى ، وطُلب من بيت أينال الأشقر رأس نوبة النوب ، بسبب أوقاف باعها كانت موقوفة على مدرسة جدّهِ ، فغرم بسبب ذلك مالا له صورة ، (١٢٣ آ) وحصل له غاية البهدلة من أينال الأشقر ، وما خلص إلا بعد جهد كبير ، وافتقر حاله عقيب هذه الـكاينة ، وباع جميع ما يملـكه حتى سدّ ماجاء عليه من المـال .

وفيه تزايد ظلم أينال الأشقر ، حتى صار غالب الناس ما يشتـكى إلا من بابه ، واشتـكى بعض الناس من بابه شخصا شاهدا ، فضربه وقطع أكمامه ، وأركبه على ثور ، وأشهره فى القاهرة ؛ وفى عقيب ذلك خزم غلاما فى أنفه ، ثم أشهره فى القاهرة . ــ وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء ، وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرّر به صوفة وحضورا بعد العصر ، وأنشأ هناك عدّة خلاوى برسم الصوفة وحوضا وصهريجا وأشياء كثيرة من وجوه البرّ والمعروف .

وفى ذى القعدة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، وابتدأ بضرب الـكرة مع الأمراء . ــ وفيه جاءت الأخبار بقتل طرا باى الظاهرى الخشقدمى ، وكان أميرا بحلب ، فقتله بعض العربان بالبلاد الحلبية ، وكان شجاعا بطلا ، وولى حسبة القاهرة، وكان من أعيان الخشقدمية .

وفى ذى الحجة طلب السلطان الشيخ تقى الدين الحصنى ، وقرّره فى مشيخة تدريس قبّة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، عوضا عن الشيخ كمال الدين إمام المدرسة الـكاملية ، الماضى ذكر وفاته بطريق الحجاز . ــ وفيه انتهى ضرب الـكرة ، وأضاف السلطان الأمراء ، ثم اشتغل بتفرقة الضحايا على العسكر .

وفيه كانت وفاة الجمالى يوسف بن الأتابكى تغرى بردى البشبغاوى الرومى نائب الشام ، وكان الجمالى يوسف ريسا حشما فاضلا ، حنفى المذهب ، وله اشتغال بالعلم ،

وكان مشغوفا بكتابة التاريخ وألّف فى ذلك عدة تواريخ ، منها : تاريخه الكبير الموسوم بالنجوم الزاهرة ، والمنهل الصافى ، ومورد اللطافة (١٢٣ ب) فيمن ولى السلطنة والخلافة ، وله تاريخ آخر فى وقائع أحوال على حروف الهجاء فى التوفيات ، وله غير ذلك عدّة مصنفات ، وكان نادرة فى أبناء جنسه ، ومولده فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه توفى حُذيفة بن أحمد بن الدكارى النوفى الحنفى ، وكان فاضلا خيرا دينا له شهرة وذكر ، وكان لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، وهو الشيخ فضل الله ابن عبد الواحد ، وكان من ذرية أبى الليث السمرقندى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم والزهد ، وله شهرة ببلاد سمرقند ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة أمير المدينة المشرفة ، وهو السيد الشريف زُهير بن سليمان ابن هبة الحسينى ، وكان ولى أمرة المدينة بعد ضَيغم ، وآل أمره إلى أن مات قتيلا .

وتوفى من الأتراك بيبرس من طُطخ الأشرفى ، وكان أحد الأمراء المقدمين الألوف بدمشق ؛ وتوفى جانى بك الحسنى الأينالى ، أحد العشرات رءوس النوب ؛ وتوفى دولات باى الأينالى أحد العشرات ، وكان متمرضا من حين عاد من التجريدة ، فمات بغزة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان طلب مالا من الست سادة ، والدة القاضى ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ، لتساعده على خروج التجريدة إلى سوار ، فتشكّت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف بحياة رأسه أنه ما يأخذ منها أقلّ من مائة وخمسين ألف دينار ، وصمّم على ذلك ، وقرّر معها أنها لا تبيع فى هذه الحركة لا ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ، فلم يقدر أحد من الأمراء ولا غيرهم يحفظ عنها شيئا من ذلك القدر ، فاستمرّت ترد ذلك المال الذى قرّر عليها عدة أشهر ، حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال ، ولم تبع لا ضيعة ولا ملْك ، فلما غلقت المال جميعه أرسل

(٤) ثلاث عشرة : ثلثة عشرة . (٢٢) الذى : التى .

خلفها ، فلما (١٢٤ آ) حضرت قام إليها وعظّمها ، وأخلع عليها كاملية مخمل تماسيح بصمّور ، وأكرمها غاية الإكرام ، ونزلت إلى دارها وهى معظّمة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كانت الأسعار مغلية فى جميع أصناف المأكولات من الحبوب وغيرها ، وعزّ وجود الأوز والدجاج من مصر جدا ، وتشحّط الخبز من الأسواق ، وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن ؛ وهـذا قط ما وقع ولا فى الغلاء الذى جاء فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وتناهى سعر القمح إلى سبعة أشرفية كل أردب ، ولم يأكلوا الناس الذرة ولا الدخن فى تلك الأيام .

وفى أوائل هـذه السنة كثر القال والقيل بين العلماء بالقاهرة فى أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض ، نفع الله الناس ببركته ، وقد تعصّب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية ، فاعترضوا عليـه فى ذلك ، وصرّحوا بفسقه ، بل وتـكفيره ، ونسبوه إلى من يقول بالحلول والاتحاد ، وحاشاه من ذلك أن ينسب إليه هذا المعنى ، ولـكن قصرت أفهام جماعة من علماء هذا العصر ، ولم يفهموا معنى قول الشيخ عمر فيما قصده من هـذه الأبيات ، فأخذوا بظاهرها ولم يوجهوا لها معنى ، فـكان كما قال المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفتـه من الفهم السقيم
ولـكن تأخذ الأذهان منه   على قدر القرائح والفهـوم

فـكان رأس من تعصّب على الشيخ عمر بن الفارض : برهان الدين البقاعى ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر ، وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، ونور الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كثيرة من طلبة العـلم يقولون بفسقه ؛ وأما من تعصّب لابن الفارض من العلماء وهم : الشيخ محيى الدين الـكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين بن يحيى بن حجى ، وشيخنا (١٢٤ ب) جلال الدين الأسيوطى ، والشيخ زكريا ، وتاج الدين بن شرف .

فلما زاد الرهج فى هذه المسئلة كُتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض ، التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشرع ، فكتب الشيخ محي الكافيجى على هذا السؤال ما هو أحسن عبارة وأقرب إلى الإنصاف ، وألّف الجلال الأسيوطى فى ذلك كتابا سماه : قمع المُعارض فى الردّ عن ابن الفارض ، وألّف البدرى بن الغرس فى ذلك كتابا شافيا فى هذا المعنى ، واضحا فى الردّ على من تعرّض على ابن الفارض ، وصنّف بعض العلماء كتابا سماه : دُرياق الأفاعى فى الردّ على البقاعى ؛ ووقع فى هذه المسئلة تشاحنات بين العلماء مما يطول شرحه فى هذا المعنى ، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيره ممن تعصّب على ابن الفارض ، وصاروا يكتبون الأوراق بهجو المترضين على ابن الفارض ، ويلصقون تلك الأوراق فى مزاره ، فمن ذلك قول الشهاب المنصورى فى البقاعى ، وأجاد :

إن البقــاعى بمــا ... قد قاله مطــالَب
لا تحسبوه سـالما ... فقلبــه يعـاقَب

وقوله من قصيدة مطولة مضمنا لأبيات سيدى عمر بن الفارض :

بين البقاعى وبين التاج من شرف ... ما بين معترك الأحداق والمهـج
يقول من صحّ فيه سهم صاحبه ... أنا القتيـل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدّع خوضا بفكرته ... فى كل معنى لطيف رايق بهج
يقول هـذا لهـذا غير مكترث ... دع عنك لومى وعُج عن نصحك السمج
ماذا تقول ولى فى الشرع أجوبة ... عنى تقوم بها عند الهوى حججى
دع التصارض لا تُشهر بواتره ... فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
فلو سلكت سبيلى كنت متبعا ... أو فى محب بما يرضيك مبتهج
لو سلّم المقتدى للمهتدى لوعا ... قول المبشر بعد اليأس بالفرج
(١٢٥ آ) فمن يكن منهما تاج فعصبته ... همُ أهل بدر فلا يخشون من حرج

وهــذه قصيدة مطولة ، وهذا القدر منهـا كافى هنا ، ومن نظم الأقدمين

---

(٩) فمن : فيمن .

فى سيدى عمر بن الفارض :

جُزْ بالقرافة تحت ذيل العارض   وقل السلام عليك يا ابن الفارض
أبرزت فى نظم السلوك عجايبا   وكشفت عن سرّ مصون غامض
وشربت من نهر المحبة والولا   فرَوِيت من بحر محيط فايض

وقال الناصرى محمد بن قانصوه من صادق :

عمر بن الفارض الحبر الذى   قَصُرَتْ عن فهم ما رام الفكر
لم يكن يؤذيه إلا جاهل   فارفضوه وترضوا عن عمر

وقال بعض شعراء العصر فى ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفىّ فى   كل القبايح أوحد الأزمان
فى مصر علم أبى حنيفة تدّعى   جهلا وأنت معرّة النعمان

وقال أبو النجا القمنى فى الحُلَيبي :

أقْعدْتَّ يا حُليبي   بالصفع فى قفاكا
لما ادّعيت فسقا   للفارضى يا كافر
وما خلصت حتى   أقمت شاهداكا

ثم إن بعض الأمراء تعصّب لابن الفارض ، بل وتعصّب له السلطان أيضا ، ورسم لكاتب السرابن مزهر بأن يكتب صفة سؤال إلى الشيخ زين الدين زكريا الشافعى ، فكتب هذا السؤال وهو هذا : ما يقول الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى الشافعى ، نفع الله المسلمين به ، عن من قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله عمر بن الفارض، تغمّده الله تعالى برحمته ورضوانه ، فيمن (١٢٥ ب) زعم أن عقيدته فاسدة ، بناء على فهمه من كلامه فى مواضع ، مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية ، باصطلاح مخاطبهم ، لا محذور فيها شرعا ، فهل يُحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ؟ أم على اصطلاح أهل ملّة غير الإسلام ؟ فما الجواب عن ذلك ؟ افتونا مأجورين .

(تاريخ ابن إياس ج ٣ ـ ٤)

ثم بعث هذا السؤال إلى الشيخ زكريا ، فامتنع من الكتابة عليه غاية الامتناع ، فألحّ عليه أياما حتى كتب ، فأجاب يقول : يُحمل كلام هذا العارف ، رحمة الله عليه ونفع ببركاته ، على اصطلاح أهل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى ، مجاز فى غيره ، كما هو مقرّر فى محلّه ، ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى بعض أبياته فى التائية ، من القول بالحلول والاتّحاد ؛ فإنه ليس من ذلك فى شىء ، بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته ، بقوله من أبيات القصيدة :

ولى من أتمّ الرؤيتين إشارة تُنَزِّه عن رأى الحلول عقيدتى

وقد يصدر عن العارف بالله إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان ، بحيث تضمحلُّ ذاته وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، عبارات تُشعر بالحلول والاتّحاد ، لقصور العبارة عن بيان حالته التى يُرقى إليها ، كما قاله جماعة من علماء الكلام ، ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عن من لم يدركها ، فما كل قلب يصلح للسرّ ، ولا كل صدف ينطبق على الدرّ ، ولكل قوم مقال ، وما كلما يُعلم يقال ، وحُقَّ لمن لم يدركها عدم الطعن فيها ، كما قال بعضهم فى المعنى (١٢٦ آ) :

فإذا كنت بالمدارك غِرًّا ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم ترَ الهلال فسلّمْ لأناس رأوه بالأبصارى

ولو ذاق المنكِرُ ما ذاق هذا العارف ، لما أنكر عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى صبي معى لكنه ما ذاقها

والحالة هذه ، والله يمنح بفضله ، ويمنع من يشاء بعدله ، وصلّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم ، وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى ؛ فلما كتب الشيخ زكريا على هذا السؤال ، سكن الاضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض ، رحمة الله عليه ، انتهى ذلك .

ثم فى عقيب ذلك عُزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية ، وحصل له عقيب ذلك فالجا ، وذهل وسُلب من العلم ، وحصل لولده عبد البر مع القلقيلى ما سنذكره فى موضعه ؛ وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله ، وحصل له من الأمراء ما لا خير

فيه ، فهرب واختفى حتى توجّه إلى مكة ، فمات هناك ؛ وأما إمام المدرسة الكاملية، خرج وهو مريض إلى الحجاز ، فمات فى أثناء الطريق ، بعد خروجه من القاهرة بستة أيام ؛ وقد جرى على من تعصّب على ابن الفارض ما لا خير فيه ، وظهرت بركته فى المتعصّبين عليه شيئا فشيئا إلى الآن ؛ وقد روى فى بعض الأخبار عن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلم ، أن الله تعالى قال : من عادى لى وليّا فقد أذنته بالحرب ، أى أعلمته بأنه محارب لى ، أورده النووى فى الأربعين حديثا ، انتهى ذلك .

وفى هــذا الشهر جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان وملك سوار قلعة إياس ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ، وأخذ فى أسباب خروج تجريدة إلى سوار . ــ وفيه بعث الأمير يشبك جنْ من البحيرة يطلب نجدة بسبب عربان لبيذ ، فعيّن إليه (١٢٦ ب) السلطان الأتابكى أزبك ومعه عدّة من الأمراء والجند ، فخرج إلى البحيرة . ــ وفيه وقعت أعجوبة غريبة ، وهو أن امرأة ولدت مولودا ، وهو جسد برأس ولا له يدان ولا رجلان ، فسبحان الصانع ، يخلق ما يشاء ، فعاش ساعة ومات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة برد بك البجمقدار نائب الشام ، وكان يعرف ببرد بك الفارسي الظاهرى ، ويعرف أيضا بالأقرع ، وكان من أعيان جماعة الظاهرية ، وكان أمير عشرة فى دولة أستاذه الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير طبلخاناه رأس نوبة ثانى فى دولة الأشرف أينال ، ثم بقى مقدم ألف وحج أمير المحمل غير ما مرّة ، ثم ولى حاجب الحجاب ، ثم بقى نائب حلب فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وحُمل إلى القدس بطالا ، ثم أعيد إلى نيابة حلب ، ثم بقى نائب الشام ، تولّاها مرتين ومات بها ، وكان أسر عند سوار وهو نائب حلب ، وأطلق من عند سوار بعد موت الظاهر خشقدم ، وقاسى شدائد ومحنا حتى مات .

وفيه دخل الحاج القاهرة ، وكان الأول والمحمل ركبا واحدا ، وكان الحاج قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل يشبك الدوادار شقادف وزادا وماء إلى المنقطعين من الحاج ، فلاقاهم من قريب الينبع ، وحصل بذلك لهم

غاية النفع . ــ وفيه توفى أبو بكر بن على ، دوادار بُرد بك البجمقدار نائب الشام ، فيقال إنه سمّ أستاذه بُرد بك ، فمات أبو بكر قبل بُرد بك بأيام ، وكان أبو بكر رقا فى أيام أستاذه حتى صار له ذكر وشهرة طائلة بحلب والشام .

وفيه حضر قاصد حسن بك الطويل وعلى يده مكاتبة ، يذكر فيها أنه قتل جماعة من أولاد تمرلنك وملك بلادهم ؛ وحضر (١٢٧ آ) بعده قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، يخبر بأنه افتتح عدة بلاد من بلاد الفرنج البنادقة . ــ وفيه عيّن السلطان الأمير أينال الأشقر ، رأس نوبة النوب ، ومعه عدّة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وعدّة من الجند ، بسبب قتال سوار ، وقد خشى السلطان من سوار أن يكبس حلب على حين غفلة ، فبعث هذه التجريدة يقيمون بحلب إلى أن يرسل تجريدة ثقيلة ؛ فلما عيّنه بعث إليه النفقة من يومه ، وقد حُمل إليه اثنتى عشر ألف دينار ؛ ثم نفق على بقية الأمراء والجند واستحثهم فى سرعة الخروج ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ولا أشلة ، وقد عزّ ذلك على أينال الأشقر كونه خرج فى قلب الشتاء .

وفى صفر توفى بُرد بك المشطوب اليشبكى ، أحد الأمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثانى ، وكان لا بأس به ، وأصله من مماليك يشبك نائب حلب . ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء ثانى عشرين مسرى ، فلما أوفى توجّه الأتابكى جانى بك قلقسيز ، وهو على أمرة السلاح ، ففتح السدّ على العادة ، وكان الأتابكى أزبك غائبا فى البحيرة .

وفيه عمل السلطان الموكب وأخلع على الأمير برقوق الناصرى وقرّر فى نيابة الشام ، عوضا عن برد بك البجمقدار بحكم وفاته ، وكان برقوق يومئذ أحد مقدمين الألوف بمصر ، فانتقل إلى نيابة الشام فى مدّة يسيرة ، فعُدّ ذلك من النوادر . ــ وفيه ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى ، وكان مختفيا ، فأخلع عليه السلطان وأعاده إلى نظر الخاص ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الكُويز ؛ وكان القائم فى عود ابن المقسى

(٢٠) مقدمين : كذا فى الأصل .

إلى نظارة الخاص الأمير يشبك الدوادار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه (١٢٧ ب) الأمير يشبك الدوادار وأعيان الدولة ، حتى قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى .

وفى ربيع الأول ، فى يوم مستهلّه ، ركب السلطان وتوجّه إلى طُرا ، فصعد قضاة القضاة للتهنئة بالشهر فلم يجدوا السلطان بالقلعة ، فقال لهم نقيب الجيش عن لسان السلطان بأنهم يصعدوا إليه بعد العصر ، إذا حضر السلطان . ـ وفيه وصل خاير بك الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان تسلطن ليلة واحدة ، فنزل فى بولاق فى بيت صهره ناظر الخاص يوسف ، وكان السلطان رسم له بأن يتوجّه إلى مكة ويقيم بها ، وكان الساعى له فى ذلك يشـبك الجمالى ، فأقام ببولاق أياما حتى عمل له يرق ، وخرج إلى مكة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وجلس برقوق الذى قرّر فى نيابة الشام رأس الميمنة . ـ وفيه نزل السلطان إلى جهة المطرية ونصب هناك الخيام ، ورسم للأمراء بالتوجّه معه ، وأقام هناك أياما على سبيل التنزّه ، وصنع هناك الأسمطة الحافلة ، حتى قيل كان مصروف هذه الحركة على الأسمطة ألف دينار . ـ وفيه أخلع السلطان على قاصد حسن الطويل وأذن له بالسفر ، وجهّز معه هدية إلى حسن الطويل . ـ وفيه توفى الأمير تانى بك المعلم المحمدى الأشرفى ، مات بالقدس بطالا ، وكان عارفا بفنون لعب الرمح .

وفى ربيع الآخر صعد القضاة إلى القلعة للتهنئة بالشهر ، فلما أرادوا الانصراف أخذ السلطان فى الـكلام معهم بسبب محراب جامع أحمد بن طولون ، بأن فى أصل وضعه الانحراف عن جهة القبلة ، فقال كاتب السرّ : هذا الجامع تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فقال القاضى ينبغى أن يتغيّر هذا المحراب ويجدّد غيره إلى جهة القبلة، فانفضّ المجلس على ذلك ، ولم يغيّر فيه شىء إلى الآن . ـ (١٢٨ آ) وفيه خرج برقوق إلى محل نيابته بالشام ، فطلّب طُلبا حافلا ، وكان له يوم مشهود . ـ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك على أخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر

العداوة للسلطان ، وقد طمع فى عسكر مصر بموجب ما فعله بهم سوار ، فتأثّر السلطان لهذا الخبر وقصد أنه يخرج إلى حلب بنفسه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس ، منها مكس قطيا ، ومكس الخشب والأطرون بالبحيرة ، وغير ذلك عدة مكوس أبطلها بمصر وجدّة ، فدعوا له الناس بسبب ذلك . ـ وفيه عيّن السلطان القاضى شرف الدين الأنصارى ، وكيل بيت المال ، بأن يخرج إلى جبل نابلس لجمع العشير ، بسبب التجريدة إلى سوار ، فخرج هو ودولات باى الخازندار . ـ وفيه عيّن فى أمرة الحاج بالمحمل يشبك الجمالى ، وفى أمرة الأول آقبردى الأشرفى ، على عادتهما فى العام الماضى ؛ وقرّر فى الزردكاشية الكبرى جانم السيفى تمرباى ، عوضا عن فارس الذى توجّه إلى دمشق .

وفى جمادى الأولى أرسل السلطان بعزل بلاط اليشبكى عن نيابة حماة ، وقد أرسل يستعفى من ذلك . ـ وفيه عيّن السلطان تجريدة ثقيلة إلى سوار ، وعيّن بها عدّة من الأمراء المقدمين ، منهم : الأمير يشبك الدوادار الكبير باش العسكر ، وتمراز الشمسى بن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك من حديد الأشرفى ، وأزدمر الطويل الإبراهيمى ، ثم بطل أزدمر الطويل وعيّن بُرسباى قرا عوضا عنه ، ثم عيّن قانصوه الخسيف الأينالى ولم يتمّ له السفر ، وعيّن أيضا تمر حاجب الحجاب ولم يتمّ له السفر ، وعيّن عدّة أمراء طبلخانات وعشرات ، وعرض الجند وكتب منهم عدّة وافرة ، وأعلمهم بأن السفر يكون بعد أن تربع الخيول .

وفيه أرسل السلطان خلعة إلى خاير بك القصروى بأن يستقرّ نائب حماة ، عوضا عن بلاط اليشبكى (١٢٨ ب) الذى عزل عنها ، فلما وصلت إليه الخلعة باستقراره فى نيابة حماة فمات فجأة قبل دخوله إلى حماة ، وكان أميرا جليلا تولّى عدة وظائف سنية ، منها نيابة القلعة بمصر ، ثم نيابة غزّة ، ثم نيابة صفد ، ثم قرّر فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم قرّر فى أتابكية طرابلس ، ثم قرّر فى نيابة حماة ، فمات ولم يدخلها .

وفيه توفى قاضى قضاة الشافعية بحلب ، وهو السيد الشريف تاج الدين

عبد الوهاب بن عمر بن حسن بن على بن حمزة الحسينى الحلبي الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل . ــ وفيه توفى الأمير يشبك جنْ الإسحاقى الأشرفى أحد مقدمين الألوف بمصر ، وكان يعرف بالفهلوان ، ومات وله من العمر نحو من سبعين سنة ، وكان حدّ المزاج سيىء الخلق . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة سُنقر قرق شبق الأشرفى، الذى كان زردكاشا بمصر ثم نفى ، ومات وهو مقدم ألف بدمشق ، وكان علامة فى لعب الرمح .

وفى جمادى الآخرة أنعم السلطان على بُرسباى قرا المحمدى الظاهرى بتقدمة ألف، وهى تقدمة يشبك جنْ ؛ وقرّر فى الخازندارية قجماس الإسحاقى الظاهرى ، عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وكان قجماس أُنىّ السلطان قديما .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى الخانكة ، ثم سار إلى العكرشا وهو راكب الهجن ، ثم عاد إلى القلعة بعد أيام . ــ وفيه توفى جكم الأجرود الأشرفى نائب صفد .

وفى رجب نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو قناطر العشرة ، وأقام هناك سبعة أيام ، وتوجّه إلى الأهرام وهو ماشى ، وحوله الأمراء ، وكانت تلك الأيام مشهودة فى القصف والفرجة ، ونصب له أشاير على رءوس الأهرام ، وعملت هناك أسمطة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى (١٢٩ آ) عمّال فى كل ليلة ، وبقيّة مغانى البلد، وابتاع المجمع الحلوى هناك بنصفين فضّة ، والصحن الطعام الخاص بنصف فضّة ؛ ثمّ إن السلطان رحل من هناك بعد مضى سبعة أيام وتوجّه إلى جهة الفيوم ، فلما دخلها زُيّنت له ، وكان يوم دخوله إلى الفيوم يوما مشهودا ، ودخل عليه جملة تقادم من الكاشف ومشايخ العربان ؛ فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من عشرين يوما ، وكان ذلك فى قلب الشتاء فى زمن الربيع ، ثم عاد السلطان إلى القلعة .

وفى هذه الأيام وقع العدل والرخاء بالديار المصرية ، حتى أبيعت البطة الدقيق بستة أنصاف ، والرطل الخبز بدرهم نقرة ، وأبيع الفدان البرسيم المخضّر بدينار ،

(٢) مقدمين : كذا فى الأصل .

وكثر اللحم والأجبان ، وانحطّ سعر سائر البضائع . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه اليحياوى نائب حلب قد وقع بينه وبين نائب قلعة حلب ، فأرسل يشكوه للسلطان ، فأنصف السلطان نائب حلب على نائب القلعة . ــ وفيه أخلع السلطان على قجماس الإسحاقى وقرّر فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن يلباى العلاى بحكم استقراره فى نيابة صفد ، عوضا عن جكم الأشرفى المعروف بالأجرود . ــ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سوار قد استولى على سيس وقلعتها، فانزعج السلطان لهذا الخبر.

وفى شعبـان عزل قاسم شُغيتة عن نظر الدولة ، ورسّم عليه الأمير يشبك الدوادار ، وطلب منه مالا . ــ وفيه عين السلطان الأمير برسباى قرا أحد المقدمين ، بأن يخرج جاليش العسكر إلى سوار قبل خروج الأمير يشبك ، فخرج ومعه عدّة من الجند ، وبعث إليه السلطان أربعة آلاف دينار بسبب النفقة .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن السلطان أعاد إلى جماعة ما كان أخذه منهم من المال (١٢٩ ب) لما صادر الناس فى التجريدة الأولى ، فأعاد إلى فارس الركنى ألف وخمسمائة دينار ؛ وأعاد إلى الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيارى ألف دينار؛ وأعاد إلى الشهابى أحمد بن الطرابلسى ، الذى كان دوادار ابن العينى ، ألف دينار ؛ وأعاد إلى فارس السيفى دولات باى ألف دينار ؛ وبعث لابن العينى خمسة عشر ألف دينار من بعض ما أخذه منه ؛ وأعاد إلى جماعة كثيرة ما كان أخذه منهم فى المصادرة ، فتعجّبوا الناس من ذلك ، لـكونه فعل هذا من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى النام ما أوجب ردّ هذا المال على أربابه ، فـكان حال الناس معه كما قال القائل فى المعنى :

كنّا نؤمّل أن ننال بجاهكم ... خيرا يكون على الزمان مُعينا
والآن نقنع بالسلامة منـكم ... لا تأخذوا منـــا ولا تعطونا

ولـكن فعل بعد ذلك بالناس من المصادرات وأخذ [من] الأموال ما يعجز عنه الواصفون . ــ وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من مكة ، بأن العين التى أجراها السلطان إلى عرفات قد انتهى العمل منها ، ووصل ماؤها إلى عرفات ، وحصل به

(٧) شغيتة : شعيثه . (١٢) فأعاد : فعاد .

غاية النفع لأهل مكة ، وكان لهذه العين نحو من مائة سنة وكسور وهى معطّلة عن الجريان ، وكان جوبان أجرى ماءها ثم تعطّلت من بعده حتى أجراها السلطان .

وفى رمضان نفق على الجند الكسوة ، ونفق على المماليك المعيّنين للتجريدة نفقة السفر ، لكل مملوك مائة دينار وكسوة عشرة دنانير ؛ فاستمرّ يفعل ذلك ثلاثة أيام متتابعة ، حتى انتهى ذلك . ــ وفى هذا الشهر كانت وفاة الأديب البارع الفاضل الشهاب الحجازى أحمد بن محمد بن على بن حسن بن إبراهيم الأنصارى الخزرجى الشافعى ، وكان (١٣٠ آ) عالما فاضلا بارعا فى الأدب ، وله عدّة مصنّفات فى الآداب ، منها : كتاب روض الآداب والقواعد فى المقامات ، وشرح الملقات ، وقلائد النحور فى جواهر البحور ، والتذكرة ، وغير ذلك من الكتب النفيسة ، وكان ظريفا ، لطيف الذات ، كثير النوادر ، عشير الناس ، حسن المحاضرة ، وله شعر جيّد ، فمن ذلك قوله :

فى خندس الليل أتانا فتى ونادم القوم فبئس النديم
فقلتُ للأصحاب لمّا أتى قد جاءنا فى جنح ليل بهيم

ومن تضامينه اللطيفة :

قصدتُ رؤية خصر مُذْ سمعت به فقال لى بلسان الحال ينشدنى
انظر إلى الردف تستغنى به وأنا مثل المعيدىّ فاسمع بى ولا ترنى

وكان مولده فى أوائل قرن الثمانمائة ، فلما مرض الشهاب الحجازى بعث إليه الشهاب المنصورى بهذين البيتين وهما :

قيل الشهاب سقيم قلتُ وا أسفا ما بال أحمد لا يخلو من العلل
وزنُ الرقايق من أضحى يحرّرها ووصفه بفنون العلم والعمل

فلما توفى الشهاب الحجازى رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

زادنى فقد الحجازىّ شجى هل يطيب العيش مع فقد الحجا
لو درى القُمرىّ أبدا نوحه أو غراب البين فيه شجّجا

---

(١) لهذه : لهذا . (٢) نفقة : نفقت .

سار فى زورق نعش قاطعا ... منك يا بحر المنايا لججا
(١٣٠ب)وامتطى طرف الردا مستوفزا ... طالبـا من همّ دنيـاه النجا
إن يكن فى التُّرب أمسى هابطا ... فسيرقا فى الجنان الدرجا
أو يكن ليل الضريح عاكرا ... فسيلقـاه شهـابا أبلجـا
فليطب أرجاء قبر زارهـا ... إنهـا حاكته فى حسن الرجا
فالحجـازىّ بكته مصره ... والشهاب اشتاقه بدر الدجا
ليس بدعا إن بكيناه دما ... لهب الحزن يذيب المهجا
إن تَسَلْ عن حالتى من بعده ... فسل الليـل إذا الليل دجا
أدمع العين جوار والبكا ... خـادم ألفيتـه لى فرجـا
رجم السهد الكرى بالدمع من ... محجر العينين حتى عرجا
فسـقى الله ثراه وابلا ... يُنْبِتُ الروض ويُهْدى الأرجا

قلت كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد ، وكل منهم يدعى بشهاب ، فكان يقال السبعة الشهب ، وهم : الشهاب بن حجر رحمة الله عليـه ، والشهاب ابن الشاب التايب ، والشهاب بن أبى السعود ، والشهاب بن مبارك شاه الدمشقى ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازى ، والشهاب المنصورى ، فلما ماتوا رثاهم الشهاب المنصورى بهذه الأبيات وهو قوله :

خَلَتْ سماء المعانى من سنا الشهب ... فالآن أُظلم أُفُق الشعر والأدب
تقطّب العيش وجها بعد رحلة من ... تجاذبوا بالمعـانى مركز القطب
تعطّلت خُرُدُ الأيام من درر ... كانت تحلّى بها منهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضُمنت بطرت ... بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى المسك أن الترب ضمّهم ... لودّ نشقة عرف من شذا الترب
(١٣١آ)لهفى عليهم إذا التذّ السماع عما ... أهدوا إليه التذاذ الذوق بالضرب
إن أبدلوا طربى بالحزن بعدهم ... فطال ما أبدلوا الأحزان بالطرب
لو كان صَوْنهم يا قلب يمكننى ... لصنتهم بك صون العين بالهُدُب

ما أنصفتْهم عيونى فى البكاء ولو … أغنت مدامعها عن وابل السحب
فطالما سلكوا نهج البديع وما … هدوا إليه هدى الأقمار للنجب
قد كان من أَرَبى تهذيب قافية … واليوم لم أَرَبى ميلا إلى أرب
زانوا بنظمهم الدنيا ولا عجب … إذا تزيّنت الظلماء بالشهب
لا تعجبن إن قضوا نحبا وفاجأهم … ريب المنون فما فى الموت من عجب
سقى ثراهم غوادٍ لا انقشاع لها … عيونها مِثل أفواهٍ من القِرَب

انتهى ذلك . ـ وفى هذا الشهر توفى كسباى الزينى المؤيدى ، الذى كان نائب الإسكندرية وعزل عنها .

وفى شوال كان خروج العسكر المعيّن إلى سوار ، فخرج الأمير يشبك من مهدى أمير دوادار كبير ، ووزير الديار المصرية ، وأستادار المالية ، وكاشف الكشاف ، وباش العسكر ، فكان فى غاية العظمة ، وقد فوّض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل فى جميع (١٣١ب) أحوال المملكة ، وكتب معه خمسمائة علامة ، ويُكْتَب على البياض ، وجعل له التصرف فى جميع النواب والأمراء ، إلا نائب الشام ونائب حلب فقط ، فكان له لما خرج يوم مشهود ، وطلّب طُلْبا حافلا بحيث لم يعمل مثله قط ، وجُرّ فى طُلْبه عدّة خيول ملبّسة بركستوانات فولاذ مكفّت بالذهب ، وبركستوانات مخمل ملوّن ، وصُنع فى رَنْكه سَبْع ، وقد اقترح أشياء غريبة لم يُسْبَق إليها ، ورسم لمماليكه بأن تخرج فى الطُلْب وهى لابسة لامة الحرب بأنواع السلاح زيادة فى العظمة ، فابتهج الناس بذلك غاية البهجة ؛ وخرج صحبته من الأمراء المقدمين الألوف : تمراز الشمسى ابن أخت السلطان ، وخاير بك من حديد ، وبُرسباى قرا أحد الأمراء المقدمين ، ومن الطبلخانات ومن الأمراء العشرات جماعة كثيرة ، ومن الجند نحوا من ألفين مملوك ، فرجّت لهم القاهرة ، واستمرّت الأطلاب تنسحب إلى قريب الظهر ، وشقّوا من القاهرة ، وخرجوا من باب النصر ، وتوجّهوا إلى الوطاق بالريدانية .

(٢١) ألفين : كذا فى الأصل .

فلما كانت ليلة الرحيل نزل السلطان إلى عند الأمير يشبك بالمخيم ، وجلس عنده وتكلم معه طويلا ، ثم أضافه الأمير يشبك ، وركب من عنده وتوجّه إلى الخانكة ، ثم عاد إلى القلعة . ــ ثم فى ثانى ليلة نزل إلى الأمير يشبك أيضا بعد المشاء وخلا به ، وأقام عنده إلى قريب الفجر ، ثم طلع إلى القلعة ، ورحل الأمير يشبك من الريدانية قاصدا للسفر ؛ ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سدّ الفضاء ، وكان هذا نقاوة العسكر من أعيان الشجمان ، فتفاءل الناس بأن هذا العسكر ينتصر ، وأن سوارا مأخوذ لا محالة ، وكذا جرى وأخذ سوار فى السنة الآتية ، كما سيأتى ذكر ذلك فى (١٣٢ آ) موضمه ؛ وقد أعيب على السلطان نزوله إلى الأمير يشبك فى الوطاق مرتين ، وهذا بخلاف عادات الملوك وقواعدهم القديمة . ــ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان له يوم مشهود ، ولكن تأخر إلى يوم عشرينه بسبب فرار غلمان أمراء الحاج .

وفى ذى القعدة وُلد للأمير يشبك الدوادار ولد من زوجته خوند ، ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، فسماه منصور ، فكان له مهمّ حافل . ــ وفيه أخلع السلطان على السيد الشريف سبع بن خنافر ، وقرّر فى أمرة الينبع ، عوضا عن خنافر . ــ وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو صقيل ، وقد أضافه هناك القاضى كريم الدين بن جلود كاتب المماليك ، فأقام هناك إلى آخر النهار وعاد إلى القلعة .

وفى ذى الحجة أخلع السلطان على شيخ عربان الشرقية بقر بن بقر ، وقرّره فى مشيخة الشرقية ، عوضا عن قريبه ابن عيسى بن بقر ، وسُجن ابن عيسى بالمقشرة بعد ما ضُرب بين يدى السلطان ضربا مبرحا . ــ وفيه عين السلطان الأمير تمر حاجب الحجاب ، والأمير قانصوه الخسيف الأينالى ، بأن يخرجا إلى الشرقية بسبب فساد العربان ، ورسم لهما السلطان بأن من وجدوه من بنى سعد وبنى وائل يقبضوا عليه .

وفيه كان ابتداء عمارة الإيوان الكبير الذى بالقلعة ، فأمر السلطان بتجديده

(١٤) الينبع : الينبوع .

وإصلاح ما فسد من بنائه ، وكان الشاد على عمارته القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر ، والبدرى بدر الدين بن الكُويز معلم المعلمين ، فأصرف عليه نحوا من عشرين ألف دينار ، وكان قصد السلطان بأن تقام الخدمة به على العادة القديمة ، ويوكب به ، فلم يتمّ له ذلك ، واستمرّ الأمر على حاله إلى الآن . ـ وفيه توفى الأستاذ (١٣٢ ب) المغنى الموسيقى محمد ، المعروف ببرقوق التونسى ، وكان بارعا فى الغناء والإنشاد ، وكان له شهرة طائلة ، قدم من الغرب يروم الحاج فتوفى بالقاهرة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كانت بشارة النيل المبارك فى أول يوم منه ، فتفاءل الناس بأنها سنة مباركة . ـ وفيه توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى الحنفى ، وهو إبراهيم ابن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العبسى القدسي الحنفى ، مات وهو منفصل عن القضاء ، وكان عالما فاضلا ريسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الاصطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السرّ ، وقضاية الحنفية ، ومشيخة الجامع المؤيدى ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو شيبين القصر ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فبينما هو سائر فى أثناء الطريق ، إذ شبّ فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان فرفسه ، فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان ، فانكسرت ، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم من ساقه ، فأرسل يطلب محفة حتى يعود فيها إلى القاهرة ؛ فلما وصل هذا الخبر إلى القاهرة كثر بها القال والقيل بسبب عود السلطان وهو فى محفّة ، فلما عاد طلع إلى القلعة وهو فى المحفّة حتى نزل على باب البحرة ، وكانت القاهرة قد زُيّنت لقدوم السلطان ، فلما طلع تحت الليل هُدّت الزينة ؛ وأشيع أن السلطان على غير استواء حتى نزل الوالى ونادى للناس بالأمان وسلامة السلطان ، وأن تعاد الزينة كما كانت ، فزُيّنت القاهرة ثانيا ؛ ثم إن السلطان خرج وجلس على الدكة وعلّم المراسيم ، وجهز مراسيم إلى (١٣٣ آ) البلاد الحلبية بسلامته

من هذا العارض ، حتى يسكن ذلك الاضطراب ، وتخمد هذه الإشاعة من البلاد الشامية . ـ وفيه توفى تغرى بردى بن يونس أتابك حلب ، وكان لا بأس به . ـ وفيه حضر صحبة الحاج القاضى كمال الدين بن ظهيرة ، قاضى جدة ، أخو القاضى برهان الدين بن ظهيرة ، قاضى مكة ، ليسعى لأخيه فى عوده إلى القضاء ، وكان قد صُرف عنها .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار قتل قرقاس الصغير نائب ملطية ، وقد تقدّم مافعله قرقاس بجماعة سوار ، وقبض على أحد إخوته وقتل جماعة كثيرة من عسكره ، فلما ظفر سوار بقُرقاس قتله أشرّ قتلة ، قيل إنه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا ، وقيل بل علّقه فى شجرة واستمرّ ينشبه بالنشاب حتى مات ؛ وكان قرقاس الصغير هذا أصله من مماليك الأشرف أينال ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، وكان لا بأس به . ـ وفيه عيّن السلطان نيابة ملطية لأينال الحكيم ، عوضا عن قرقاس الصغير بحكم قتله . ـ وفيه أخلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرّر فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن برهان الدين الديرى بحكم وفاته ، وكانت هذه الوظيفة مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف الملك المؤيد شيخ ، فأخرجها السلطان عنهم للشيخ سيف الدين ولم يلتفت إلى شرط الواقف .

وفى صفر جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سوارا أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة زمنطوا وصار على رأسه طيرة من العسكر بخلاف العادة . ـ وفيه عاد الأمير تمر حاجب الحجاب من الشرقية وقد قبض على جماعة من العربان المفسدين ، وفيهم موسى بن عمران ، وآخر يقال له أبو طاجن ، وكانا من أعيان (١٣٣ ب) العربان المفسدين ، فرسم السلطان بتوسيط موسى بن عمران ، فوسّطه ومعه جماعة من بنى سعد وبنى حرام وبنى وائل ؛ فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان وأفسدوا فى البلاد ، ورسم السلطان للأمير تمر بأن يعود إلى الشرقية ، فعاد عن قريب .

وفيه ركب السلطان وصلّى صلاة الجمعة بالقلعة ، وكان له مدّة لم يركب بسبب

كسر قصبة ساقه ، فلما ركب تخلّق الخدام بالزعفران ، ولاقته المغانى من باب الجامع، وكان يوما مشهودا بالقلعة . ـ وفيه رسم السلطان لابن الطولونى بأن يجدّد عمارة الميضا التى بجامع القلعة فوسّعها ، وترميم عمارة الجامع ، فأصرف على ذلك ألف دينار. ـ وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنة وطرسوس ، وتحارب مع جماعة سوار أشـــدّ المحاربة ، حتى طردهم عن تلك البلاد وملكها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء فى سادس عشرين مسرى ، فتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة . ـ وفيه توفى أسنبغا التترى اليشبكى الناصرى ، أحد الأمراء العشرات ورءوس النوب ، وكان لا بأس به . ـ وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجّه إلى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فنزل به وكشف على ما تهدّم من حيطانه وسقوفه ، فأمر ببنائه من ماله ، وشرع فى ذلك .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . ـ وفيه نودى من قبل السلطان بأن أحدا لا يشكو أحدا للسلطان ، إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فإذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان ؛ وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان ، لأجل أنه (١٣٤آ) وطىء جارية فى ملكه ، فما طاقت زوجته الغيرة ، فشكته للسلطان بقصة . ـ وفيه أخلع على يشبك الجمالى ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل على عادته ، وكان السلطان عيّن برسباى الشرفى ، فاستعفى من ذلك حتى عُفى .

وفى ربيع الآخر نزل السلطان إلى نحو خليج الزعفران على سبيل التنزّه ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء فأقام هناك إلى آخر النهار ، فلما عاد ووصل إلى الحسينة وجد فى طريقه جنازة ، وهى امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحمالين ، فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلّى عليها فى قارعة الطريق وقد أمّ بالجماعة الذين حضروا الصلاة ، فعُدّ ذلك من النوادر ؛ وقد وقع مثل هذه الواقعة

بعينها للأمير أحمد بن طولون ، واستمرّ ماشيا قدام الميت حتى والاه التراب . ـ وفيه عبث السلطان على الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، فأخلع عليه وقرّره فى نيابة عينتاب ، فنزل إلى داره مهموما ، وأقام على ذلك أياما حتى شفع فيه الأتابكى أزبك وأُعفى من ذلك .

وفى جمادى الأولى حضر محمد بن نائب بهسنا من عند الأمير يشبك ، بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار ، وأن عسكره قد فلّ عنه ، وهو خائف من العسكر ؛ ثم أرسل الأمير يشبك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسّع بها ، فإن العليق كان هناك مشحوتا ، فبعث إليه السلطان مائة ألف دينار تُفرّق على العسكر هناك ليتوسّعوا بها .

وفى هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى ، وهو أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن إسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى ، وكان عالما فاضلا متواضعا ، فكه المحاضرة ، بقية الناس ، سمع على جماعة من العلماء وأجازوه ، وناب فى الحكم مدّة ، ثم ولى (١٣٤ ب) القضاء الأكبر بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين البغدادى فى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، واستمرّ فى هذه الولاية مدّة طويلة نحوا من عشرين سنة إلا أشهر ، وباشر منصب القضاء بعفة ونزاهة ، وحُمدت عند الناس سيرته ، وانتهت إليه رياسة مذهبه ، وولى عدة تداريس جليلة ، وعاش مدّة طويلة وقد قارب الثمانين سنة من العمر ، ومولده سنة ثمانمائة .

فلما مات استمر منصب القضاء شاغرا لم يتولّ به أحد ، فأقام نحوا من خمسة أشهر ، وكان السلطان أرسل خلف برهان الدين بن مُفلح من الشام ليلى القضاء ، وكان السلطان رسم لبدر الدين السعدى أحد النواب ، وهو تلميذ قاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، بأن ينظر فى الأحكام المتعلّقة بمذهبه إلى أن يحضر البرهان بن مُفلح من الشام ، فلما عاد القاصد الذى توجّه إلى ابن مُلفح ، أخبر بأن ابن مُفلح مريض ، وأرسل يعتذر للسلطان فى عدم الحضور إلى القاهرة ، وتعلل بأشياء تدلّ على عدم قبوله للولاية .

فلما عاد هـــذا الجواب على السلطان أخذ القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر يسعى للسعدى فى أن يلى القضاء ، وكان يومئذ من هو فى الحنابلة أفضل من السعدى ، ولـكن الحظوظ تختلف ؛ فلما كان ختم البخارى فى رمضان أحضر السلطان خلعة وأخلع على بدر الدين السعدى ، واستقرّ به قاضى قضاة الحنابلة بمصر ، عوضا عن القاضى عز الدين بحكم وفاته ، فنزل من القلعة فى موكب حافل جدا ، وقد استكثر غالب الناس على السعدى ذلك ، وكان شابا لم يظهر بلحيته البياض ، وقد داعبه بعض شعراء العصر بهذه المداعبة اللطيفة ، وهو قوله :

قاضيكموا ما مثـله فى حكمه عفيفُ ذيلٍ ليس يُدعى زانيا
قد ساس أمر الناس فى أحكامه فلم نر أسْوَس منــه قاضيا

وفيه يقول القائل :

حضرتُ فى الدرسِ على قاضٍ نصّ على التقليـد فى درسه
فيُحسنُ البحث على وجهه ويوجب الدخل على نفســه

(١٣٥ آ) وفيه خرج السلطان إلى الرماية ببركة الحب ، وكان معه الأتابكى أزبك وبقية الأمراء ، فتوجّه إلى هناك ، ثم عاد إلى القلعة ، وشقّ من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، وصاد فى ذلك اليوم ثلاثة كراكى وبلشون .

وفى جمادى الآخرة قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهنــد الملك غياث الدين ، وأحضر على يده هدية إلى السلطان ، وإلى الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وأرسـل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند ، عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وأخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل . ــ وفيه وصل قاصد من عند الأمير يشبك الدوادار ، وعلى يده مكاتبة من عند يشبك ، يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون ، وجرح فيهـا الأمير تمراز الشمسى فى يده بسهم نشاب ، فأغمى عليــه حتى حُمل ورجع إلى الوطاق ،

(٨-٩) قاضيكموا ... قاضيا : البيتان كتبا فى الأصل ثم شطبا .

ثم إن الأمير يشبك ثبت وقت الحرب ، فزحف العسكر على عسكر شاه سوار ، فكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصى ، فانكسر عسكر سوار كسرة قوية ، وقُتل منه ما لا يحصى عددهم ، فولّوا مدبرين، وكانت النصرة لعسكر مصر على عسكر سوار ، فكان كما يقال فى المعنى :

جيوشنا كالأُسُود أضحت　　تقتحم الحرب بالعزايم
وسيف سلطاننا طويل　　له نفوس العــدا غنايم
فالنصر بالفتح مُذ أتاه　　صيّر قلب الحسود وارِم
فيا له فى الورى مليك　　لقمع أهل الفساد صارم

قيل لما ثار الحرب فكان أول من ألقى نفسه بفرسه فى النهر الأمير تمراز الشمسى ، فلما رأوه العسكر ألقوا أنفسهم فى النهر قاطبة ، فحطم تمراز فى عسكر سوار بنفسه فمزّقهم ، فما شعر حتى جاءه سهم نشاب فى يده فانخشّ له ورجع (١٣٥ ب) إلى الوطاق ؛ ثم إن العسكر حطم على عسكره سوار فكسره ، فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب فى نفر قليل من عسكره وطلع إلى قلعة زمنطوا فاختفى بها ؛ فلما بلغ الأمير يشبك أن سوارا فى قلعة زمنطوا حاصرها أشدّ المحاصرة ، ورمى عليها بالمدافع ، واستمرّ يحاصرها حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه ، فأخلع السلطان على القاصد الذى جاء بهذه البشارة ، وكذلك الأمراء أخلعوا عليه . ـ وفيه انشرح السلطان لهذا الخبر ونزل إلى الرماية وغاب يوما وليلة ، فلما عاد طلع من الصليبة فى موكب حافل . ـ وفى هذا الشهر خسف جرم القمر جميعه ، وكان خسوفا فاحشا .

وفى رجب شرع السلطان ينزل إلى الاصطبل ، وصار يحكم به كل يوم سبت وثلاثاء ، فتكاثرت عليه المحاكمات ، وتزايدت شكوى الناس إليه ، فوقف شخص يقال له محمد القِلّينى النقلى ، فاشتكى فى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان السلطان متحملا عليه فأمر بضربه بالمقارع بين يديه ، فعراه من أثوابه وضربه نحوا

(٢٣) يديه : يده .

من عشرين شيبا ، حتى أدمى من أجنابه ، وكان يوما شديد البرد جدا ، ثم أمر بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، فطلع وهو ماشى من باب السلسلة إلى البرج عريانا مكشوف الرأس والدم يسيل من أجنابه ، فعُدّ ذلك من مساوئ الأشرف قايتباى .

وفيه ضرب إنسان من أولاد الناس امرأة بسكين فى جنبها ، وهى ماشية بين الناس فى وسط الطريق ، فماتت فى الحال ، فلما تحقّق موتها هرب ، ولم يُعلم ما سبب ذلك . — وفيه نزل السلطان إلى نحو المطرية ، ثم عاد من على قنطرة الحاجب ، فأذن عليه المغرب عند ما وصل إلى المدرسة الجيعانية التى بالقرب من بركة الرطلى ، فنزل وصلّى المغرب هناك خلف من صلّى من العوام ، وكان الإمام فى ثانى ركعة ، فصلّى (١٣٦ آ) مع الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الإمام صبيا أمرد ، فأعاد الصلاة ثانيا ، ثم ركب من هناك وطلع إلى القلعة .

وفيه رسم السلطان ليشبك الجمالى المحتسب بأن ينادى فى القاهرة ، بأن امرأة لا تلبس عصابة مقنزعة ، ولا سَراقوش بحرير ، وأن تكون ورقة العصابة طولها ثُلث ذراع ، وهى بختم السلطان من الجانبين ، وكتب بذلك قسائم على من يبيع أوراق النساء ، وصمّم السلطان على يشبك المحتسب فى تكرير المناداة بذلك ، وصارت رسل المحتسب يطوفون فى الأسواق ، فإن وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة أو سَراقوش يضربونها ، ويجرّسونها والعصابة معلّقة فى رقبتها ، فقلقن النساء من ذلك ، وصارت الامرأة إذا خرجت إلى حاجة تكشف رأسها وتمشى بلا عصابة ، أو تلبس عصابة طويلة ، فلما طال عليهن الأمر لبسن العصايب الطوال التى رسم بها السلطان ، فيلبسونها إذا خرجن إلى الأسواق فقط على كره منهن ، ويلبسن العصايب المقنزعة فى بيوتهن ، وفى هذه الواقعة يقول الأديب زين الدين بن النحاس الشاعر ، وهو قوله:

أمرَ الإمام مليكنا بعصايب ... فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطَعْنه ولبسْنها ... ودخلن تحت عصايب السلطان

فاستمرّوا على ذلك مدّة يسيرة ، ثم رجعن إلى ما كُنّ عليه من لبس العصايب

(١٤) وصارت : وصار . (١٦) معلقة : معلقا .

المقنزعة والسراقوش ، ولم يلتفتن إلى تحجير السلطان عليهن فى ذلك . ـ وفيه أخلع على برسباى الشرفى وقرّر فى أمرة الحاج بالمحمل ، وكان قد أعفى من ذلك ، وقرّر يشبك الجمالى فى أمرة الحاج ، ثم بطل وقرّر بها بُرسباى الشرفى . ـ وفيه أخلع السلطان على البدرى بدر الدين بن مُزهر بن القاضى كاتب السرّ ، وقرّر فى نظر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى بحكم صرفه (١٣٦ ب) عنها بموجب ما تقدّم له ، وكان بدر الدين بن مُزهر صغير السنّ لم يلتح حين قرّر فى نظارة الخاص.

وفى شعبان نزل السلطان إلى خليج الزعفران ، وقد أضافه الزينى أبو بكر بن عبد الباسط ، فأقام عنده إلى آخر النهار ، وعاد إلى القلعة . ـ وفيه انتهت مواكب الاصطبل ، وقد ضُبط ما فرّقه السلطان على الفقراء وأرباب الديون فى هذه المدّة ، فكان نحوا من ثمانمائة دينار . ـ وفى هذا الشهر ظهر بالسماء نجم وله ذنب مستطيل ، فكان يظهر من جهة المغرب ، ثم صار يظهر من جهة المشرق .

وفيه خرج الأمير قانى باى صلق وتوجّة إلى جهة حلب ، وعلى يده كوامل الشتاء للنواب ، وعدّة خلع للأمير يشبك برسم من يرد عليه من التركمان ، وأرسل على يده نحوا من أربعين ألف دينار برسم توسعة للعسكر . ـ وفيه عرض السلطان محابيس المقشرة وأطلق منهم جماعة ، وكان به شخص له نحو من ثلاثين سنة ، فعمل مصلحته ، ووزن عنه للمداينين مبلغا له صورة وأطلقه .

وفيه نزل السلطان وعدّى إلى برّ الجيزة ، فأضافه هناك شخص من عرب اليسار يقال له محمد بن بُرقع ، فمدّ له أسمطة حافلة ، فبات عنده ، ثم عدّى وتوجّه إلى شبرا ، وطلع من هناك وتوجّه إلى المباسة ، فأضافه هناك الشيخ بيبرس بن شعبان شيخ العرب ، وأقام بالمباسه أياما ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه توفى الأمير طُوخ الأبوبكرى المؤيدى ، الذى كان زردكاشا ونُفى إلى ثغر دمياط ، ثم شُفع فيه وعاد إلى القاهرة ، ثم مات وهو بطال ، وكان لا بأس به .

وفى رمضان رسم السلطان للقاضى عبد الغنى بن الجيعان بأن يفرّق على الفقهاء

---

(٢) أمرة : أمر .

(١٣٧ آ) والعلماء توسعة فى رمضان لعيالهم ، واستمرّ ذلك عمالا فى كل شهر رمضان مدّة أيام الأشرف قايتباى إلى أن مات ، ثم تناقص ذلك من بعده .

وفيه رسم السلطان بإحضار الأتابكى جرباش كُرت ، وكان مقيما بثغر دمياط ، وكذلك الأمير يشبك الفقيه المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا ، فتكلم لهما بعض الأمراء بأن يحضرا إلى القاهرة ، ويكونا فى دورهما بطالين إلى أن تنقضى أعمارهما ، فأجاب السلطان إلى ذلك ورسم بإحضارهما ؛ وكان الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه متمرضا ، فلما حضر أبوه أقام مدّة يسيرة ومات ، وكان شابا حشما ، ريسا شجاعا بطلا ، حوى أنواع الفروسية ، وساق من جملة باشات الرماحة التى يسوقون فى المحمل ، وكان الظاهر خُشقدم أنعم عليه بأمرة عشرة ، وكان أمه خوند بنت المؤيد شيخ ، وكان نادرة فى أبناء جنسه ، ومولده سنة ٨ .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده هدية للسلطان ، وكان حضر بروم الحج . ــ وفيه كان ختم البخارى ، وأخلع فى ذلك اليوم على بدر الدين السعدى ، وقرّر فى قضاء الحنابلة ، عوضا عن عز الدين الحنبلى .

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، صعد سيدى منصور بن الظاهر خشقدم إلى القلعة ليهنّئ السلطان بالعيد ، وكان السلطان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير ، فلما وقف سيدى منصور بين يديه أخلع عليه مثمّرا ، ثم طلبه وأجلسه معه على الكرسى ، وكان صغير السنّ عمره دون العشر سنين ، فعُدّ جلوسه مع السلطان على الكرسى من النوادر التى ما وقعت قط .

وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير يشبك الدوادار ، بأن شاه سوار قد تلاشى (١٣٧ ب) أمره ، وفلّ عنه غالب عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك ، وأن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درندة ، وأنه يبعث ولده بمفاتيح القلعة ، فما وافق السلطان على ذلك إلا أن يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان . ــ وفيه توفى القاضى نجم الدين العَجلونى محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الزرعى

(٧) أبوه : أبيه .

الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا قدم إلى القاهرة بطلب من السلطان ليلى القضاء ، وكان موعكا فى جسده ، فمات ودفن بالقاهرة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل برسباى الشرفى ، وأمير ركب الأول الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البُردبكى الظاهرى برقوق .

وفيه وقعت حادثة غريبة وهو أن نجـارا كان عمالا بالقلعة فى بعض طبـاق المماليك ، فسقط من مكان عال فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو فقير ، فوقفوا أولاده وعياله للسلطان بقصّة يلتمسون منه شيئا من الصدقة ، فلما وقفوا إليه أمر لهم بمائةدينار ، وأمر للميت بثوب بعلبـكى وثلاثة أشرفية يجهّزونه بها ، فعُدّ ذلك من محاسن الأشرف قايتباى .

وفيه رسم السلطان بشنق جارية بيضاء ، ومعها غلام ، فشُهروا فى القاهرة على جملين ، وكان سبب ذلك أن الجارية اتفقت مع الغلام على قتل سيدها وأخذ ماله ويهربان ، فقتلاه ودفناه فى الاصطبل ، فلما ظهر أمرها رسم السلطان بشنقهما فشنقا . ــ وفيه توفيت خوند مُغل بنت البارزى زوجة الملك الظاهر جقمق ، وكانت دينة خيرة ولها برّ ومعروف ، وهى التى عمّرت جامع الشيخ مَدْين بالمقس ، وأوقفت عليه أوقافا كثيرة ، وكانت ناظرة إلى فعل الخير . ــ وفيه كانت نهاية عمارة الجامع الذى قد أنشأه تمراز ، أحد الأمير آخورية ، بجوار قنطرة عمر (١٣٨ آ) شاه .

وفى ذى القعدة غرقت مركب ببحر النيل بقرب بيسوس ، وكان فيها بضائع كثيرة لتجار من الأروام ، فلم ينج منها سوى ثلاثة أنفار ، فعيّن السلطان شرف الدين ابن كاتب غريب ، ومعه القاضى جلال الدين بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، بالتوجّه إلى مكان غرقت فيه المركب لضبط ما يظهر من تلك البضائع التى غرقت هناك ، فلم يظهر من ذلك إلا اليسير وغرق الأكثر . ــ وفيه قدم قاصد من عند حسن الطويل وعلى يده هدية للسلطان ، ومكاتبة فيها أشياء سرّ ، فلم ينشرح السلطان لقدوم هذا القاصد ، ولم يُعلم ما فى المكاتبة . ــ وفيه توفى حمزة بن يوسف بن مُغلطاى نائب ثغر دمياط ، وكان لا بأس به . ــ وفيه وقعت فتنة كبيرة بين بنى حرام وبنى وائل ،

وكثر الفساد من العربان بالشرقية ، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية ، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين .

وفى ذى الحجة وصل قاصد من عند الأمير يشبك ، ومعه مكاتبة يخبر فيها بأن سوارا بمث إليه بمفاتيح قلعة درندة ، وتوجّه إلى تسليمها الأمير دقماق أحد العشرات ، وأخبر أن سوارا أرسل يطلب الأمان لنفسه ، وأنه يقيم بقلعة زمنطوا هو وعياله ، فقال له الأمير يشبك : حتى نكاتب السلطان بذلك . ــ وفيه قدم إياس الطويل المحمدى ، الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان وأخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ورسم له بأن يعود إلى طرابلس ، وأنعم عليه بأمرة فى طرابلس يأكلها وهو طرخان ، وكان قد شاخ وكبر سنّه وعجز عن الحركة .

وفيه وصل الأتابكى جرباش كُرت من ثغر دمياط ، هو ويشبك الفقيه الذى كان دوادارا (١٣٨ب) كبيرا ونُفى إلى دمياط ، فشفع فيه بعض الأمراء بأن يكون بداره بطالا حتى ينتهى أجله ، فرسم السلطان بإحضاره هو والأمير يشبك الفقيه ، فلما طلع الأتابكى جرباش إلى بين يدى السلطان عظّمه وقام إليه وأجلسه إلى جانبه ، ثم إن الأتابكى جرباش قام وقبّل يدى السلطان وشفع فى جانى بك كوهية ، بأن يحضر هو أيضا إلى القاهرة وكان بثغر دمياط ، فأجابه السلطان إلى ذلك ورسم بإحضاره ، ثم أخلع على الأتابكى جرباش ويشبك الفقيه ونزلا إلى دورهما .

وفى هذه السنة أمر السلطان بإنشاء البرج العظيم بقرب ثغر رشيد ، فجاء غاية فى الحسن من البناء والإمكان . ــ وفى هذه السنة تزايد فساد بنى حرام وبنى وائل ، وفسدت أحوال الشرقية ، فعيّن لهم السلطان تجريدة ، وكان بها من الأمراء : الأتابكى أزبك ، وجانى بك قُلقسيز أمير سلاح ، وأزدمر الطويل أحد مقدمين الألوف ، وقانصوه الخسيف الأينالى أحد مقدمين الألوف ، وعيّن معهم جماعة كثيرة من الجند وأمرهم بالخروج إلى الشرقية سريعا ؛ وسبب ذلك أن العربان من بنى حرام وبنى وائل هجموا على القاهرة حتى وصلوا إلى رأس خط الحسينية ، ونهبوا الدكاكين وسلبوا

(٢٠و٢١) مقدمين : كذا فى الأصل .

أثواب الناس ، واستمر الحال على ذلك من بعد العصر إلى بعد المغرب ، فرجعوا حيث جاءوا ؛ فلما بلغ السلطان ذلك عيّن لهم هؤلاء الأمراء ، فخرجوا من يومهم سريعا ؛ ثم إن الأتابكى أزبك عاد إلى القاهرة بعد أيام ومعه بعض عربان ، فأودعوهم فى المقشرة ، وأما بقيـة الأمراء رسم لهم السلطان بالإقامة فى الشرقية لردع العربان المفسدين .

وفيه ولدت امرأة أربعة من الأولاد فى بطن واحد ، وهم صبيّان وبنتان ، وكان أبوهم فقيرا فحملهم إلى السلطان ، فلما وُضعوا بين يديه تعجّب (١٣٩ آ) منهم ، ورسم لأبيهم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر الصغير الإبراهيمى الظاهرى ، أحد الأمراء العشرات ورءوس النوب ، مات قتيلا على حصار قلعة زمنطوا ، وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ؛ وتوفى حسن التيمى بن بيرم بن ططر ناظر القدس والخليل ، وكان لا بأس به . ـ وفى هذه السنة كانت الفتن المهولات ببلاد فارس ، واستمرت الفتن عمالة حتى ملكها بنى وطاس ، وكانت الفتن عمالة ببلاد الشرق بين حسن الطويل وبين ملوك هراة وسمرقند . ـ وخرجت هذه السنة عن فتن وشرور فى بلاد الشرق وغيرها من البلاد ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم وقع بين تغرى بردى ططر وبين الأتابكى أزبك بسبب ضرب الكرة ، وقد زاحم فرس تغرى بردى ططر فرس الأتابكى أزبك ، فحنق منه فزاحمه عدّة مرار وهو صابر له ، ثم حنق منه وضربه بالصولجان على ظهره حتى تكسر الصولجان عليه ، وتغرى بردى يسُبّ الأتابكى أزبك ويشتمه فاحشا ، حتى دخل بينهما الأمير جـانى بك قلقسيز فثنى الأتابكى أزبك عنـان فرسه ونزل إلى داره كالمغضبان ، فتنـكّد فى ذلك اليوم السلطان غاية النـكد بسبب ذلك . ـ وفيه توفى قلمطاى الإسحاقى الأشرفى أحد العشرات ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية .

وفيه حضر قانى باى صُلق ، وعلى يده مكاتبة الأمير يشبك الدوادار ، تتضمّن

القبض على شاه سوار ونزوله من قلعة زمنطوا ، وقد وصل قانى باى صُلق من حلب إلى مصر فى ثلاثة عشر يوما ؛ فلما تحقّق السلطان صحّة هذا الخبر سُرّ به جدا ، وأخلع على قانى باى صُلق خلعة حافلة ، وكذلك سائر الأمراء أخلعوا (١٣٩ ب) عليه ، حتى المباشرين ، فحصل له جملة خلع سنية .

وكان من ملخّص أخبار القبض على شاه سوار ، أنه لما طلع إلى قلعة زمنطوا واختفى بها حاصره الأمير يشبك أشدّ المحاصرة ، وقد فلّ عن سوار عسكره وأراد الله تعالى بخذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تمراز الشمسي قريب السلطان، فتلطّف الأمير يشبك بالأمير تمراز حتى وافق على طلوعه إلى سوار ، فطلع إلى قلعة زمنطوا ، وصحبته القاضى شمس الدين بن أجا الحلبي الحنفى قاضي العسكر ، وهو والد القاضى كاتب سرّ الآن ، فلما طلع الأمير تمراز إلى سوار واجتمع به ، فتملّل سوار على أنه يلبس خلعة السلطان ويبوس له الأرض ولا يقابل الأمير يشبك ، فما وافقه الأمير تمراز على ذلك ، فقال له سوار : أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى إذا نزلت إليهم يقتلونى ، فقال له الأمير تمراز : ضمانك علىّ ما يصيبك شىء ، فما وافق سوار على نزوله من القلعة ، فقام الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا من عنده ، والمجلس مانع .

فلما عاد الأمير تمراز الجواب على الأمير يشبك لم يوافق على ذلك ، وحاصر سوار وضيّق عليه ، ورمى على قلعة زمنطوا بالمدافع ، فما طاق سوار ذلك وأرسل يطلب الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا ثانيا ، على أنه ينزل صحبتهما ، فطلع إليه الأمير تمراز وابن أجا ثانيا ، فطال بينهما المجلس ، وقيل إن سوارا أضاف الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنطوا ، فلما طال جلوس الأمير تمراز عند سوار ، فماج العسكر على بعضه وأشيع بأن سوارا قد قبض على الأمير تمراز وابن أجا ، فلما مضى من النهار النصف وإذا بالأمير تمراز قد نزل هو وابن أجا ، وصحبتهما شاه سوار وهو فى

(١٣) شىء ، كتب هنا فى الأصل ما يأتى على الهامش بخط يشبه خط المؤلف : وقد حلف له على مصحف حمايلى كان معه ، أنه ما يقبضوا عليه ولا يقتلوه ، فعند ذلك نزل صحبته وأركن إليه .

نفر قليل من عسكره ، فتوجّه إلى وطاق الأمير يشبك (١٤٠ آ) ونزل عن فرسه ، ودخل على الأمير يشبك فى الخيمة ، فقام إليه وترحّب به ، وأحضر إليه خلعة وألبسها له .

فلما أراد الانصراف من عنده قال له الأمير يشبك : امض إلى نائب الشام وسلّم عليه ، وكان يومئذ برقوق نائب الشام ، فلما توجّه إليه سوار نزل عن فرسه ودخل إلى برقوق نائب الشام وصحبته الأمير تمراز ، فلما وقف بين يدى برقوق قال له: من أنت ؟ قال : أنا سوار ، قال : أنت سوار ؟ قال : نعم أنا سوار ، فجعل برقوق يكرر عليه هذا الكلام : أنت سوار ؟ فيقول له : نعم ، ثم قال له برقوق : أنت الذى قتلت الأمراء والعسكر ؟ فسكت سوار ، ثم قال برقوق : احضروا له خلعة ، فأتوا إليه بخلعة وفى ضمنها زنجير ، فلما ألبسوها له وضعوا فى عنقه ذلك الحديد ، فلما رأوا جماعة سوار أنه وُضع فى زنجير ، ثاروا على جماعة برقوق وسلّوا أسيافهم ، وكان برقوق أكمن حول خيمته كمينا وهم لابسون آلة السلاح ، فهجموا على جماعة سوار وقطعوهم بالسيوف ، ثم قبضوا على سوار وأدخلوه فى بعض الخيام .

فلما رأى الأمير تمراز ذلك شقّ عليه ، وقال لبرقوق : أنا نزلت بسوار من القلعة ، وحلفت له أنكم ما تشوّشوا عليه ، فكيف بقى أحد يأمن لكم ؟ فأخرق برقوق بالأمير تمراز إخراقا فاحشا ، وربّ ما لكه ، فخرج تمراز من عند برقوق وهو غضبان ، وكان الأمير يشبك حلف لتمراز أن إذا قابله سوار لا يقبض عليه ولا يشوّش عليه ، فلما نزل إليه سوار ندب برقوق نائب الشام إلى ما فعله بسوار ، وكان هـذا عين الصواب ، ودع الأمير تمراز يغضب ؛ فلما تحقّق العسكر القبض على سوار ، قاموا على حمية وقصدوا التوجّه إلى الديار المصرية ؛ وهـذا ملخص ما وقع فى أمر (١٤٠ ب) القبض على سوار ، واستمر الأمير تمراز غضبانا من الأمراء حتى دخل إلى القاهرة ، فلما قُبض على سوار أخلع الأمير يشبك على شاه بُضاغ أخى سوار، وقرّر عوضا عن أخيه سوار فى أمرة الأبلستين .

وفى صفر جاءت الأخبـار بوفاة تانى بك السيفى ألماس الأشرفى نائب البيرة . ـ

وفيـه توجه الأتابكى أزبك إلى نحو البحيرة ، فغاب أياما ثم عاد من هناك ، ومعه جماعة من العربان المفسدين وهم فى الحديد ، فرسم السلطان بسجنهم فى المقشرة . ـ وفيه عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا الرمح بين يديه ، حتى يمتحنهم فى ذلك ويعرف من يلعب بالرمح ممن لا يعرف ، فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ، ووبّخ منهم جماعة بالـكلام ، وربما قصد الإخراق بهم .

وفيه عزل السلطان قاضى القضاة المالـكى سراج الدين بن حُريز ، ووكل به بطبقة الزمام ؛ ثم أخلع على برهان الدين اللقانى أحد نواب الحـكم ، وقرّر فى قضاء المالـكية عوضا عن ابن حُريز ، واستمر ابن حُريز فى الترسيم . ـ وفيه كتب السلطان عدة فتاوى ، وأخذ عليها خطوط مشايخ العلم والقضاة فى أمر سوار ، فأفتوا بأنه خارجى ، وأنه لا يبقى فى قيد الحياة . ـ وفيه ضرب السلطان ثلاثة من مماليكه الجلبان ، ومعهم آخر من المماليك الخشقدمية ، فضربهم ضربا مبرحا ، وقد بلغه أنهم سكروا وعربدوا على الناس ، ثم نفى المملوك الخشقدمى إلى البلاد الشامية .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو دمياط ورشيد وتروجة ، وغير ذلك من البـلاد ، فسار فى البحر فى عدة مراكب ، وكان صحبته الأتابكى أزبك والأمير أزبك اليوسفى ، وغير ذلك من الأمراء ، فاستمرّ السلطان غائبا فى هذه السفرة نحو من ثلاثة عشر يوما ، وقد تنزّه فى هذه السفرة وطاف عدّة بلاد ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه أحضر إلى القاهرة جماعة من الفرنج ، وقبض عليهم نائب ثغر الإسكندرية ، وكانوا يتعبّثون بسواحل البحر المالح ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم فى المقشرة ، (١٤١ آ) فأسلم منهم جماعة ، وجماعة سجنوا بالمقشرة . ـ وفيه حضر الشيخ علاى الدين الحصنى ، وكان خرج بصحبة الأمير يشبك الدوادار ، فغضب عليه وحصل له كاينة عظيمة مع يشبك ، فهرب منه وأتى إلى القاهرة واختفى بها .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك دخل إلى الشام وصحبته سوار ، فزيّنت له الشام زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها ،

(١٨) يتعبثون : يتعبثوا .

وقد دخل إلى غزّة ؛ فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وبابى زويلة، وضرب عليهما الزنوك الذهب ، ثم أخذ فى أسباب ملاقاة الأمراء ، فأكسى الأمراء المقدّمين لكل واحد أربع بدلات ، وجهّز لهم ملاقاة إلى الصالحية . — وفيه كان وفاء النيل المبارك فأوفى حادى عشرين مسرى ، فنزل الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه دخل الأمير يشبك وبقية الأمراء والعسكر إلى خانقاة سرياقوس ، وصحبتهم سوار وإخوته وهم فى زناجير ، فلما وصل الأمير يشبك إلى الخانكاه خرج الأمراء وأرباب الدولة والعسكر إلى ملاقاته ، ثم رحل من الخانكاه ونزل بالريدانية ، فخرج إليه قضاة القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء ؛ ثم إن السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزيّنت زينة حافلة ، ورجّت القاهرة لدخول سوار حتى بلغ كِرًا كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ، وكِرًا كل دكان أشرفى ذهب ، بسبب الفرجة على سوار ، فخرجت البنت فى خدرها تنظر إلى سوار الذى قتل العباد ويتّم الأطفال ونهب الأموال .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر هذا الشهر دخل الأمير يشبك الدوادار إلى القاهرة وصحبته شاه سوار ؛ وكان الأمير تمراز الشمسى دخل وهو منفرد عن الأمراء لم يرافقهم ، واستمرّ غضبانا (١٤١ ب) بسبب ما حصل له مع برقوق نائب الشام لأجل قبضه على سوار ، وقد تقدّم ذكر ذلك ؛ ثم إن سوارا دخل قدّام الأمير يشبك وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو فى زنجير بسلسلة طويلة ، وراكب إلى جانبه شخص من الأمراء العشرات ، يقال له تنم الضبع ، من الظاهرية الجقمقية ، وهو أخو تانى بك الجمالى ، وهو مشكوك مع سوار فى الزنجير ، وكان قدّام سوار أخوته وأقاربه وأعيان من قُبض عليه من أمرائه ، ممن نزل معه من قلعة زمنطوا ، فكانوا نحوا من عشرين إنسانا ، وهم راكبون على أكاديش ، وعليهم ملاليط بيض ، وعلى رءوسهم عمائم ، وهم فى زناجير ، ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالى .

فشق الأمير يشبك من القاهرة وهو فى موكب حافل ، وقدّامه الأمراء ممن كان معه فى التجريدة ، وسارت الأطلاب أمامه شيئا فشيئا ، واصطفّت الناس على الدكاكين للفرجة عليه ، ولاقته المغانى من رجال ونساء من باب النصر إلى سلم المدرج ، والكوسات عمالة بالقلعة ، والطبل والزمر مصفوفا على الدكاكين ، فكان له يوم مشهود بالقاهرة ، قلّ أن يقع مثله فى الفرجة ، فكان من نوادر الزمان .

واستمرّ الأمير يشبك فى ذلك الموكب حتى طلع إلى القلعة ، فعمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، فدخل عليه الأمراء هناك وقبّلوا له الأرض ، ثم انتقل إلى الإيوان فجلس به ، وكان من حين جدّد معالمه لم يجلس به سوى فى ذلك اليوم ، فقصد يعرض سوارا هناك ، فتزاحمت عليه الناس ، فانتقل السلطان إلى الحوش وجلس على الدكة وطلب سوارا هناك ، فلما مثل بين (١٤٢ آ) يديه وبخّه بالكلام وعاتبه عتابا لطيفا ، وسوار ساكت لم يتكلم ؛ ثم إن السلطان رسم بتسليم سوار إلى يشبك من حيدر والى القاهرة ، فتسلّمه هو وإخوته ثم أخرجوا أخاه يحيي كاور الذى كان فى البرج ، وقد قُبض عليه قبل ذلك وأحضروه إلى القاهرة ، فسجن بالبرج إلى أن قبض على سوار .

فلما تسلّمه الوالى نزع الخلعة من عليه فى الحال ، وأحضر له بجمل فأركبه له ، وألبسه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد وفيه جرس فى سيخ حديد طويل ، كما رسم السلطان بذلك ، ثم سمّروا إخوته وأقاربه على جمال وهم عراية ورءوسهم مكشوفة ، وكان فيهم إخوة سوار الأربعة وهم : أرْدَوانة الأحذب ، وخدادا ، ويحيي كاوِر ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ، فلما سمّروهم وأركبوهم على ظهور الجمال نزلوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادى عليهم : هذا جزاء من يخامر على السلطان .

فاستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى باب زويلة فشنكلوا سوارا وعلّقوه فى وسط باب زويلة ، وأخاه يحيي كاور عن يمينه ، وأرْدَوانة عن شماله ، وعلّقوا خُدادا داخل الباب ؛ وأما سلمان فكان أمردا مليح الشكل فرقّ له الناس ، فشفع فيه الأمير

يشبك نخلّصه من الشنكلة ؛ ثم توجّهوا بالبقية إلى بركة الكلاب فوسّطوهم أجمعين واستمرّ سوار معلقا حتى مات هو وإخوته ، فاستمروا معلقين يوما وليلة والناس ينظرون إليهم ، ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلّوا عليهم ، وتوجّهوا بهم إلى تل عال بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك .

ثم قلعوا الزينة وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن ، بعد ما ذهب عليه أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء ، وكسر العسكر ثلاث مرات ونهب بركهم (١٤٢ ب) وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرها ، حتى الفلاحين طمعوا فى الترك وتبهدلوا عندهم ، بسبب ما جرى عليهم من سوار ، وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب ، وقد خطب له فى الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ، ولولا لطف الله تعالى بالناس وأخذل سوارا لفسدت أحوال المملكة جدا .

وكان صفة سوار جميل الصورة حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرّب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد ، وكان فى عشر الأربعين من العمر ، وكان عليه مخايل الحشمة والرياسة ، يقرب فى الشكل من القاضى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان شجاعا بطلا ، وكان له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عسكر مصر غير ما مرّة ، وكان من أعظم أولاد ذلغادر ، وقد وقع له ما لا وقع لأحد من أجداده قبله ؛ وقد شقّ على الأمير تمراز قتل سوار على هذا الوجه ، واستمرّ غضبانا مدّة ، فكان الأمير تمراز الشمسى يقول لأصحابه : والله كلما مررت من على قبر سوار فأستحى منه ، فإنه أركن إلىّ ونزل معى ، فغدروا به وقتلوه ، وقد حلفتُ له ؛ وفى واقعة سوار يقول الشهاب المنصورى :

يا أيها الملك الذى سطواته ... تغنى عن العسّال والبتّار
عَلّق سوارا فوق باب زويلةٍ ... إن كنت منه آخذا بالتار
فلأنت تعلم أنّ ذلك معصم ... ما كنت تتركه بغير سوار

وقوله أيضا فى الأمير يشبك لما حضر إلى القاهرة وصحبته سوار :

منذ وافاالأمير يشبك مصرًا حَبّذا مصر مَوْطن الأوطار

لبستْ حَجْل نيلها وتحلّى زند بابَىْ زويلة بســوار

الحَجل هو الخلخال ، (١٤٣ آ) انتهى ما أوردناه من واقعة سوار . ــ وفى هذا الشهر حضر إلى القاهرة كسباى الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادار ثانى ونفى إلى الشام ، فأرسل الأمير يشبك يشفع فيه وأجيب إلى ذلك ، فأحضر كسباى صحبته ، واستمر بطالا فى داره حتى مات ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على بُرسباى الشرفى وقرّر فى أمرة الحاج بالمحمل ، وقرّر الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البُردبكى بأمرة الركب الأول ، وكان موعكا فى جسده ، فأخذ يستعفى من السفر ، فما أعفى من ذلك . ــ وفيه توفى جانى بك الأبيض أحد الحجاب ، وكان جاوز السبعين سنة من العمر ، وكان لا بأس به . ــ وفيه توجّه القاضى شرف الدين الأنصارى إلى جهة الطينة ، وكان معه مائة مملوك من مماليك الأمير يشبك الدوادار ، فلما وصل إلى هناك وجد فى البحر الملح مراكب فيها فرنج يتعبّثون بالمسافرين ، فقبض على مركب منهم وأسر من فيها من الفرنج ، وأحضرهم صحبته لما عاد .

وفيه عزل قاضى القضاة الحنفى محب الدين ابن الشحنة ، وأمر بالتوكيل به بطبقة الزمام ، وذلك بسبب ما وقع فى المقد المجلس ، الذى كان بين خوند شقرا وبين ابنة أختها خوند آسية ، بسبب وقف الظاهر برقوق ، فتعصّب ابن الشحنة لخوند شقرا ، فحنق السلطان منه وعزله ، وكان فى نفسه منه شىء بسبب ولده عبد البرّ ، وكانت هذه آخر ولايته للقضاء ، ولم يل بعدها القضاء ، واستمرّ فى الترسيم بطبقة الزمام بسبب تعلقات أوقاف الحنفية ، ثم إن السلطان أخلع على الشمسى شمس الدين محمد الأمشاطى ، وقرّر فى قضاء الحنفية ، عوضا عن محب الدين بن الشحنة بحكم انفصاله عن القضاء ، فأفيض عليه شمار القضاء ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وكان

(١) لما : فلما .

تمنّع من الولاية غاية التمنّع ، فألزمه السلطان بذلك . ـ وفيه شفع الأتابكى أزبك فى قاضى (١٤٣ ب) القضاة محب الدين بن الشحنة ، فنقُل إلى بيت كاتب السرّ حتى يقيم حساب أوقاف الحنفية .

وفى جمادى الأولى توفى دُقماق الأشرفى الأينالى نائب القدس ، وكان شابا حسن الشكل موصوفا بالشجاعة . ـ وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب ، بأن حسن بك الطويل ملك المراقين قد جمع من العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد السلطان ، وقد بعث ولده محمد مع عسكر ثقيل ، وقد وصلوا إلى الرُها ، فكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، فما صدّق العسكر متى خمدت عنهم فتنة شاه سوار ، فانتشى لهم فتنة حسن الطويل ، وزاد الكلام بين الناس بأن هذا ما هو مثل شاه سوار ، وأن هذا ما يطاق جدا ، فقلق السلطان والعسكر لهذا الخبر ، فكان كما قيل فى المعنى :

شكوتُ جلوس إنسان ثقيل فجاءنا آخر من ذاك أثقل
فكنت كمن شكى الطاعون يوما فجاء له على الطاعون دُمّل

وفى جمادى الآخرة عيّن السلطان تجريدة إلى حسن بك الطويل ، وعيّن بها من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم : جانى بك قلقسيز أمير سلاح ، وسودون الأفرم ، وقراجا الطويل الأينالى ، وعدّة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، ومن الجند نحوا من خمسمائة مملوك ؛ فلما عيّنهم نفق عليهم وأمرهم بالمسير إلى حلب سرعة من غير تأخير . ـ وفيه وقع تشاحن عظيم بين الأمير يشبك الدوادار وبين خاير بك من حديد ، وذلك بحضرة السلطان ، وكان سبب ذلك لأجل صِحصاح الكاشف ، فإنه وقع بينه وبين الأمير خاير بك بسبب بلاده التى فى الفيوم ، فتعصّب الأمير يشبك لصِحصاح ، فوقع بينهما ما لا خير فيه .

وفيه أخرج السلطان تقدمة سودون الأفرم ، وقد استعفى من السفر إلى حسن الطويل ، فلما أخرج عنه التقدمة أنعم (١٤٤ آ) بها على قجماس الإسحاقى ، ورتّب لسودون الأفرم ما يكفيه ، وبقى طرخانا مقيما فى داره . ـ وفيه شفع فى جانى بك المشد الأشرفى برسباى ، وكان مقيما بالقدس بطالا ، فحضر إلى القاهرة ورتّب له

ما يكفيه ، واستمر مقيما بداره مدّة حتى مات .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد استولى على نكتا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب إلى شاه بُضاغ صاحب الأبلستين ، بأن يسلم إليه القلاع التى حوله ولا يخرج عن طاعته ، وأرسل له فى المكاتبة ألفاظا مزعجة بما معناه : وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمرِ منكم ، ثم هدّد فى مكاتبته بأن متى خالفه يحصل عليه منه ما هو كيت وكيت .

فأرسل بُضاغ المكاتبة للسلطان ، فلما قرأها وعلم ما فيها انزعج لذلك وتأثّر ، ثم عيّن الأمير يشبك الدوادار باش العسكر ، وعيّن تجريدة أعظم من الأولى التى عيّنها قبل ذلك ، فعيّن بها من الأمراء المقدّمين : يشبك الدوادار ، وأينال الأشقر ، وبرسباى قرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات عدّة وافرة ، وكتب من الجند فوق الألفين مملوك ، ثم نفق عليهم وأخذوا فى أسباب الخروج إلى السفر ؛ فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك ، وكان باش عسكرها جانى بك قُلقسيز أمير سلاح ، ومن معه من الأمراء ، فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يشبك ومن معه من الأمراء فرجّت لهم القاهرة ، وكان يوما مشهودا .

وفى رجب ، لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر ، صعد معهم الشيخ أمين الدين الآقصراى ، فأخذ السلطان يتكلم مع الشيخ أمين الدين بسبب حسن الطويل ، فتكلم الشيخ أمين الدين بكلام انزعج منه السلطان ، وقد تقدّم له معه فى واقعة سوار بما تكلمه فى ذلك المجلس ، وقد تأثّر منه (١٤٤ ب) السلطان فى الباطن . ـ وفيه أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل إلى السلطان ، وكان أرسل يهدّده فى هذه المكاتبة ويأمره بأشياء لا يمكن شرحها ، وكتب فى صدر المكاتبة : يا أيّها الذين آمَنوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكم، فانزعج السلطان لهذه الأخبار . ـ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن وَردبش نائب البيرة قد قبض

(١١) الألفين : كذا فى الأصل .

على جماعة من عسكر حسن الطويل وكسر جاليشه ، فسُرّ السلطان لهذا الخبر .

وفيه وصل إلى القاهرة من بلاد الجركس أخت السلطان ، واسمها جان تِين ، ومعها ولد لها ، فصعدت إلى القلعة فى محفّة وحولها الخدام ، وحضر معها عدّة نساء جراكسة . ـ وفيه رحل الأمير يشبك هو والعسكر من الريدانية ، وكان مصروف السلطان على هذه التجريدة فيما نفقه على العسكر الذى توجّه للسفر ، مبلغ أربعمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، خارجا عن أشياء كثيرة بعث بها إلى الأمراء ؛ فلما رحل الأمير يشبك إلى الخانكاه ، نزل إليه السلطان وودعه هناك واجتمع به فى خلوة ، وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل التى بعث بها إلى نائب الشام .

وفى شعبان ثارت جماعة من المماليك الجلبان على شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان متكلما فى الوزر والأستادارية عن الأمير يشبك ، فتوجّهوا إلى داره وكسروا أبوابه ، فهرب واختفى ؛ وكانت هذه أول حوادث الجلبان فى الفتك ، واستمرّت الحوادث منهم تتزايد حتى كان منهم ما سنذكره فى موضعه . ـ وفيه حضر قاصد نائب حلب ، وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك ، وشخص آخر كان أستادارا على تقدمة حسن الطويل التى كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين نحو من أربعين نفرا ، وقد نُسبوا كلهم إلى المواطأة مع (١٤٥ آ) حسن الطويل ، ويكاتبونه بأخبار المملكة ، فأمر نائب حلب بشنقهم أجمعين ، فشُنقوا بحلب .

وفى هذا الشهر هلك بطرك النصارى الملكية ، وهو فخر بن الصنى ، وكان فى النصارى لا بأس به . ـ وفيه كانت وفاة الشيخ فخر الدين المقسمى ، وهو عثمان ابن عبد الله بن عثمان بن عفان الشافعى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه ، دينا خيرا وافر العقل ، وذُكر بأن يلى القضاء الأكبر غير ما مرّة ، وولى عدّة تداريس جليلة ، منها مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ؛ فلما مات قرّر فى مشيخة الحديث بالشيخونية شيخنا جلال الدين الأسيوطى ، عوضا عن الفخر المقسمى .

---

(١٦) ويكاتبونه : ويكاتبوه .

وفى رمضان نزل السلطان إلى دار تمر حاجب الحجاب يعوده ، وكان مريضا منقطعا عن الركوب ، فسلّم عليه وعاد إلى القلعة . ـ وفيه وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صحبتهم الحُرّة زوجة صاحب تونس ، وحضر صحبتها قاضى الجماعة الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر القلجانى ، وكان من فضلاء علماء المالكية ، فأكرمه السلطان والأمراء ، ورأى من العزّ والعظمة حظا وافرا . ـ وفيه صُلِبَت على باب زويلة جارية سوداء قد قتلت سيدتها، فأمر القاضى المالكى اللقانى بصلبها حتى تموت .

وفيه توفى جانى بك قرا العلاى الأشرفى ، أحدالأمراءالعشرات ، وشاد الشون، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى أيضا أرغون شاه أستادار الصحبة ونائب غزّة كان ، وهو الذى قبض على الظاهر تمر بغا لما تسحّب من دمياط ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان محمود السيرة . ـ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وكان ختما حافلا ، وأخلع فيه على القضاة ومشايخ العلم ، وفرّقت الصرر على الفقهاء .

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة (١٤٥ ب) برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب ، وولى عدّة وظائف سنية، منها شادية الشراب خاناه ، ثم تقدمة ألف ، ثم ولى نيابة الشام ومات بها ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ؛ فلما حضر سيفه كان السلطان على الدكة بالحوش ، فلما عرضوا عليه سيفه أظهر الحزن والبكاء وتأسّف عليه ، وكان عنده بمنزلة الأخ؛ ثم أمر بإحضار أولاده وعياله إلى القاهرة ، ثم رسم بنقل جثته إلى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة ؛ وكان لبرقوق برّ ومعروف ، وهو الذى أنشأ القبّة على ضريح الشيخ عمر بن الفارض رحمة الله عليه ، وهو الذى قام فى القبض على شاه سوار ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

وفى هذا الشهر توفى أيضا الأتابكى جرباش كُرت المحمدى الناصرى ، وكان طرخانا فى داره بطالا حتى مات ، وقد تقدّم أن السلطان أحضره من دمياط ورتّب له

(١٦) الدكة : الدكاه .

ما يكفيه حتى مات ، وكان قد قارب التسعين سنة من العمر ، وأصله من مماليك الناصر فرج بن برقوق ، وكان متزوّجا بخوند شقرا ابنة أستاذه الناصر فرج ، وكان أميرا جليلا حشما ريسا ، وولى عدّة وظائف سنية ، منها الأمير آخورية الكبرى ، وأمرة مجلس ، وأمرة السلاح ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، وترشّح أمره إلى أن ولى السلطنة لما وثبت جماعة الأشرفية على الظاهر خشقدم ، وأركبوه والصنجق على رأسه ، ولقّبوه بالملك الناصر مثل أستاذه ، فلم يتمّ له ذلك لقلّة سعده ، ثم نُفى عقيب ذلك إلى دمياط ، ثم أحضر إلى القاهرة ومات بها ، وجرى عليه شدائد ومحن ، كما قد قيل فى المعنى :

إذا طُبع الزمان على اعوجاج فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

(١٤٦ آ) وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار دخل إلى حلب ، وكان له يوم مشهود ، فلما استقرّ بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن الطويل وعلى يده مكاتبة ، شرحها أنه أرسل يطلب جماعته الذين أسروا وسُجنوا بحلب ، وأنه إذا أطلقوهم يطلق من عنده من الأسراء ، وكان عنده دولات باى النجمى الذى كان نائب ملطية وجماعة آخرين ، فلم يلتفت الأمير يشبك إلى ذلك القاصد ، ولا أجابه عن ذلك بشىء .

وفى هذا الشهر توفى الزينى عبد الرحمن بن الكُويز ، الذى كان ناظر الخاص ، وهو عبد الرحمن بن داود بن عبد الرحمن بن خليل ، وكان أصلهم نصارى من الشوبك ، وحضر جدّهم داود صحبة المؤيد شيخ ، لما قدم إلى مصر ، وكان عبدالرحمن ريسا حشما فى سعة من المال ، وولى عدّة وظائف سنية منها : نيابة الإسكندرية ، ثم ولى الأستادارية ، ونظر الخاص ، ثم جرى عليه شدائد ومحن وفرّ إلى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وأقام هناك مدة ثم عاد إلى مصر ، وكان يدّعى أنه يعرف علم الحرف ، وكان له نظم سافل ، ومولده فى سنة ثمانمائة . ـ وفيه توفى نوروز الأشرفى كاشف الوجه القبلى ، وكان لا بأس به .

---

(١٢) الذين : الذى .

وفيه خرج الحاج على جرى العادة ، وكان الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك أمير ركب الأول مريضا على غير استواء ، فلم يرقّ السلطان له ورسم بأن يخرج فى محفّة ، فخرج وهو فى النزع ، فلما وصل إلى بركة الحاج مات ليلة الرحيل ، وكان حشما ريسا أدوبا ، وكان من الأمراء العشرات ، وتوجّه إلى الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرّة ، وكان مولده بعد العشرة والثمانمائة ؛ فلما بلغ السلطان موته طلب جانى بك الأشقر أحد مماليكه وخواصه ، فرسم (١٤٦ ب) له بأن يتوجه أمير الركب الأول عوضا عن الشهابى أحمد بن تانى بك ، فتسلم جميع بركه وجماله وسافر على الركب الأول ، ورجع أحمد بن تانى بك إلى القاهرة وهو ميت فدفن بها ، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يكن يمرّ الحج على بال جانى بك فى هذه السنة قط ، فكان كما قيل فى المعنى :

ألا إنما الأقسام تحرم ساهرا وآخر يأتى رزقه وهو نائم

وفيه أرسل السلطان خلعتين ، إحداهما إلى جانى بك قُلقسيز أمير سلاح بأن يستقرّ فى نيابة الشام ، عوضا عن برقوق بحكم وفاته ، وكان جانى بك قُلقسيز مسافرا فى التجريدة ، فتوجّه من هناك إلى الشام واستقرّ بها ؛ وأما الخلعة الثانية بعث بها إلى أينال الأشقر بأن يستقرّ فى أمرة السلاح ، عوضا عن جانى بك قُلقسيز بحكم انتقاله إلى نيابة الشام .

وفى ذى القعدة طلع الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ليهنّوا السلطان بالشهر على العادة ، فتكلم الخليفة مع السلطان فى أمر ابنته ست الخلفاء التى كان عقد عليها خشكلدى البيسق ، ثم جرى عليه ما جرى ونفى إلى الشام ، ثم تكلم الخليفة مع القضاة بأن يُفسَخ عقد ابنته عن خشكلدى البيسق ، فطال الكلام فى ذلك ، وانفضّ المجلس على غير طائل ، ثم فُسخ عقدها عن خشكلدى فيما بعد ؛ وفى هذا المجلس تكلم السلطان مع قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الأمشاطى فى إقامة قاض برسم حلّ الأوقاف والاستبدالات ، فقال : إن السلطان له ولاية التفويض إلى من شاء

(١٢) إحداهما : أحدهما .

من النواب ، وأما أنا فلا ألقى الله تعـالى بحلّ وقف ولا بعمل استبدال ، وقام من المجلس كالغضبان ، فتأثّر السلطان منه فى الباطن .

وفيـه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك بعث جماعة من العسكر (١٤٧ آ) إلى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى إلى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الفرنج بأن يكونوا له عونا على قتال عسكر مصر ، وهذا أول ابتداء عكسه كونه أرسل يستعين بالفرنج على قتال المسلمين . — وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده إلى الأمير يشبك ، بأن يكون عونا للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد وعيّن صحبته القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر ، بأن يتوجّه إلى ابن عثمان وعلى يده هديّة حافلة ومكاتبة ، وأن ينشئ بينه وبين السلطان مودّة بسبب أمر حسن الطويل .

وفى أواخر هذا الشهر وردت على السلطان مكاتبة من عند ابن الصوّا من حلب ، يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ورحّلهم عن البيرة ، وأن ولد حسن الطويل قد جُرح جراحات بالغة ، وآخر من أولاده أصيب فى عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة مهولة ؛ وقُتل فى هذه المعركة شخص من الأمراء العشرات يقال له قرقاس العلاى المصارع ، أمير آخور رابع ، وهذا كان صهرنا ، وكان إنسانا حسنا دينا خيرا موصوفا بالفروسية والشجاعة ، علامة فى الصراع ، أصيب بسهم فى صدغه فمات لوقته ، ولم يُقتل فى هـذه المعركة من العسكر سواه فقط ؛ ثم رحل عسكر حسن الطويل عن البيرة ، وقد أخذلهم الله تعالى بعد ما عدّوا من الفراة وطرقوا من البلاد الحلبية أطرافها ، فردّهم الله تعالى عن المسلمين ؛ وقد قالت الشعراء فى هذه النصرة عدة مقاطيع ، فمن ذلك قول الشيخ شمس الدين القادرى :

أيا حسن الطويل بعثتَ جيشا ... كأغنام وهنّ لنـا غنايم
فنار الحرب قد سبكت سوارا ... وأنت لسبكها لا شك خاتم

(١٤٧ ب) وقال الشهاب المنصورى فيه أيضا :

(١٥) صهرنا ، يعنى صهر ابن إياس .

هل عارفا بالخارجىّ المعتدى ... يخــبر إلينـــا باسمه وصفاته
قالوا نعم حَسَن ، فقلتُ هلاكه ... قالوا الطويل ، فقلتُ ليل شتاته

وقوله أيضا :

أيهـا العسكر الذى سار قصدا ... لقتـــال الطويل لا تنظروه
لا تُطيلوا مع العـــدوّ كلاما ... فى وَغَى الحرب والطويل اقصروه

وقال محمد بن شادى خُجا :

عروس الحرب نقّطها المواضى ... بأرواح الأعارب والأعاجم
وقد جُلِيَتْ وفى يدها سوار ... وها حسن لـكفّ الحرب خاتم

وقوله أيضا :

أيا حسن الطويل قصرتَ عمرا ... وفاتَتْك المعـــالى والمغـــانم
سوار قد سبكناه ابتــــداء ... وأنت بنـــاره للسبك خاتم

وفى هذا الشهر كُسفت الشمس كسوفا عاما ، وأظلمت الدنيا ، واستمرّت فى الـكسوف نحوا من ثلاثين درجة . ــ وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة البحر الملح ، فأكرمه السلطان ، وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى بعض ملوك الفرنج ، بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر ، وهو يمشى عليهم من البرّ ، وقد ظفر هذا القاصد بقاصد حسن الطويل وهو قاصد نحو بلاد الفرنج ، فقبض عليه فى أثناء الطريق ، وهو فى مركب ، وأسره ؛ ثم إن القاصد أقام بمصر أياما ، وأضافه السلطان ، وأذن له بالسفر ، وأخلع عليه ؛ ثم إن السلطان عيّن دولات باى حمام الأشرفى بأن يتوجّه قاصدا من عند السلطان إلى ابن عثمان .

وفى ذى الحجة تغيّر خاطر السلطان على الأمير خاير بك من حديد الأشرفى ، وأمره بلزوم داره ، وهذه الـكاينة الأولى التى وقعت له ، ثم جرى عليه بعد ذلك ما هو أعظم من ذلك ، فأقام بداره أياما لا يركب ، ثم بعث السلطان خلفه إلى ضرب الـكرة ، فلما طلع (١٤٨ آ) إلى القلعة وضرب الـكرة ، فاتفق أن صولنجان

السلطان قد سقط من يده ، فترجّل خاير بك عن فرسه وناوله للسلطان ، فأخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ، ونزل إلى داره وهو مكرم . ـ وفيه توفى جانم اللفاف المؤيدى ، وكان أمير عشرة ، ولكن مات طرخانا . ـ وتوفى طوخ النوروزى ، وكان أمير عشرة ، ولكن مات طرخانا .

وفيه وصل مبشر الحاج وأخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل إلى المدينة الشريفة ، كان أمير ركبهم شخصا يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن دحية ، فضيّقوا على قضاة المدينة وأمروهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجّه إلى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج إليهم الشريف محمد بن بركات ولاقاهم من بطن مرو ، قبل أن يدخلوا إلى مكة ، وقبض على رستم أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعث بهم إلى السلطان ، ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ولم يتعرّض لهم .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المسلك العارف بالله سيدى إبراهيم ابن على بن عمر المتبولى ، رحمة الله عليه ، توفى بأسدود ودفن بها ، وكان خرج إلى زيارة بيت المقدس فأدركته المنية هناك فمات ، وكان دينا خيرا مباركا ، وللناس فيه الاعتقاد الحسن ، وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا تُرَدّ ، وكان له بِرّ ومعروف وأنشأ ببركة الحَبّ حوضا وسبيلا وبستانا ، وكان يأوى الفقراء والمنقطعين ، وكان نادرة فى عصره ، صوفىّ وقته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، العلامة الشيخ علاى الدين على بن محمد الطوسى التياركانى الحنفى ، وكان له شهرة ببلاد سمرقند ، وألّف العلوم الجليلة ، وكان من أعيان علماء الحنفية . ـ (١٤٨ ب) وفيه توفى إياس الطويل المحمدى الناصرى ، الذى كان نائب طرابلس وعزل عنها ، فرتّب له السلطان ما يكفيه ، وبقى على أمريته بطرابلس حتى مات ، وكان قد كبر سنّه وشاخ .

ومن الوقائع فى هذا الشهر أن البرهان البقاعى ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله القلجانى المغربى المالـكى ، وقع بينهما بحث فى بعض المسائل ، فوقع من البرهان البقاعى فى ذلك المجلس جوابا ضبطه عليه قاضى الجماعة ، وصرّح بكفره ، وشهّد عليه ، وأراد أن يقام عليه الدعوى عند قاضى القضاة المالـكى ، فلما علم كاتب السرّ ابن مزهر بذلك طلب البقاعى إلى عنده ، وحـكم بعض القضاة بحقن دمه ، ولولا كاتب السرّ ما حصل على البقاعى خير ، والذى جرى على البقاعى بخطيئة ابن الفارض ، فإنه كان رأس المتعصّبين عليه ، واستمرّ البقاعى فى عكس حتى مات، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتاع الرطل اللحم السليخ بثمانية نقرة ، والبطة الدقيق بأربعة أنصاف ، ووقع الرخاء فى سائر الحبوبات ، وابتاع القنطار البطيخ العبدلىّ بثلاثة أنصاف ، ووقع الرخاء فى سائر المأكولات قاطبة.ـ وفيه جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن الفرنج قد تعبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط ، فلما جرى ذلك عيّن السلطان فى الحال الأمير قجماس الإسحاقى ، أحد مقدمين الألوف ، وأمره بالخروج من يومه ، فخرج بعد العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب ، وأمره السلطان بأن يتبع الفرنج حيث ساروا .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نوى ، وقد أضافه هناك ابن طفيش ضيافة حافلة ، وأقام عنده إلى (١٤٩ آ) آخر النهار وعاد إلى القلعة . ـ وفيه رسم السلطان بعزل القاضى شهاب الدين القمنى المالـكى ، أحد نواب الحـكم ، بسبب حُكمٍ حَكَمَه ، فشكاه الخصم إلى السلطان بأنه جار عليه ، فحنق منه السلطان وأمر بعزله .

---

(١٥) مقدمين : كذا فى الأصل .

وفيه وصل الحاج وصحبتهم ابن أمير مكة ، والقاضي برهان الدين بن ظُهيرة الشافعى ، وولده أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رُستم أمير الحاج العراق ، والقاضى ، الذى بعث بهما حسن الطويل ، وصحبتهما كسوة للكعبة ، وأمر أهل المدينة ومكة أن يخطبا فيهما باسم الملك العادل حسن الطويل ، وقد تقدّم ذكر ذلك ، فرسم السلطان بسجن رستم والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، فسُجنا ؛ وتأخّر الحاج فى هذه السنة عن ميعاده ثلاثة أيام ، بسبب موت الجمال وقلّة المياه ؛ ثم أرسل خاير بك الخشقدمى ، الذى يسمى سلطان ليلة ، يسأل فضل السلطان بأن ينقله من مكة إلى القدس ، ليقيم به حتى ينقضى أجله ويموت هناك ، فشفع فيه الأمير يشبك الجمالى ، فأجيب إلى ذلك ، ونقل فيما بعد من مكة إلى القدس ؛ وحضر صحبة الحاج الشيخ سنان الأذربيجانى الحنفى ، وهو شيخ تربة الأمير يشبك الدوادار الآن .

وفى صفر أخلع السلطان على القاضى إبراهيم بن ظُهيرة وأعاده إلى قضاء الشافعية بمكة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه قضاة القضاة وأعيان الدولة . – وفيه أخلع على تمراز الشمسى بن أخت السلطان ، وقرّر فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن أينال الأشقر ، بحكم انتقاله إلى أمرة السلاح . – وفيه عيّن السلطان برسباى الشرفى أستادار الصحبة ، بأن يتوجه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم ، وجهّز صحبته هدية سنية .

وفى ربيع الأول كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس مسرى (١٤٩ ب) الموافق لخامس ربيع الأول ، فلما أوفى توجّه الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس وفتح السد على العادة . – وفى ذلك اليوم نودى على النيل بزيادة اثنا عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا ، فكان زيادته إلى يوم الوفاء ثلاثة أذرع فى ستة أيام . – وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، فلم يحضر فيه من الأمراء المقدّمين سوى ثلاثة أنفار ، وكان أكثر الأمراء غائبا فى التجريدة ، وشىء خرج لأجل فساد العربان .

(١٠) الأذربيجانى : الأدرينجانى .

وفيه جاءت الأخبار بهلاك صاحب قبرس ، وهو جاكم بن جوان بن جينوس الـكيتلانى ، وكان من أعيان ملوك الفرنج ، وهذا هو الذى حضر إلى الديار المصرية فى دولة الأشرف أينال ، وكان شابا حسنا فى شكله ؛ فلما هلك تولّت من بعده أخته.ـ وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكرا لمحاربة حسن الطويل ، فـكسر عسكر حسن الطويل ، فسرّ السلطان لهذا الخبر .

وفيه توفى الأمير يشبك الفقيه من سلمان شاه المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر خشقدم ثم نفى إلى دمياط ، ثم شفع فيه وعاد إلى القاهرة وأقام بها بطالا حتى مات ، وكان دينا خيرا وله اشتغال بالعلم ، وكان قد شاخ وكبر سنّه وقاسى شدائد ومحنا ، ومات ولده يحيى قبله بمدّة يسيرة وغُصّ عليـــه ، وكان ولده شابا حسنا مليح الشـكل ، مشهورا بالفروسية ، وقد تقدّم ذكر ذلك .ـ وفيه توفى القاضى زين الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن الجيعان ، وكان ريسا حشما كثير العشرة للناس ، ومات وهو فى عشر الخمسين ، وكان مولده سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة .

وفى ربيع الآخر أطلق السلطان رُستم أمير حاج العراق ، وأطلق القاضى الذى صحبته ، وأخلع عليهما وبعث بهما إلى بلاد حسن الطويل ترضّيا لخاطره ، وقد أشار بذلك الأمير يشبك الدوادار .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بوفاة برسباى الشرفى أستادار الصحبة ، الذى توجه قاصدا إلى ابن عثمان ، وكانت وفاته بحلب ، وكـان لا بأس به فى ذاته .ـ (١٥٠ آ) وفيه أخلع السلطان على ألماس الأشرفى أحد خواصّه ، وقرّر فى أستادارية الصحبة ، عوضا عن برسباى الشرفى بحكم وفاته ، وعيّن قاصدا إلى ابن عثمان ، عوضا عن برسباى الشرفى .

وفيه أخلع على جانى بك الأشقر الدوادار ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ؛ وأخلع على قانصوه خمسمائة الخـاصكى أحد مماليك السلطان ، وقرّر فى أمرة الركب الأول ، وقانصوه هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وجرى له ما جرى.ـ

وفيه رسم السلطان بتوسيط عبد صغير السن ، قد ذبح سيدته وأخذ مالها وهرب ، فقبض عليه من ليلته .

وفى جمادى الآخرة ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الصعود ، واستمر الحال على ذلك إلى غد ذلك اليوم حتى سكن الأمر قليلا ، بعد ما قصدوا قتل جماعة من خواص السلطان . ـ ومن الوقائع الغريبة أن إنسانا جلبى ، كان عنده مسن من الرخام الأخضر ، له عنده نحوا من ثلاثين سنة ، فاتفق أن ذلك المسن سقط من يد صاحبه فانكسر نصفين ، فخرجت منه دودة غريبة الشكل ، فمد الجلبى يده إليها وأخذ يقلبها فلذغته فى أصبعه ، فاضطرب ساعة ووقع ميتا لوقته ، وهذا من غرائب الاتفاق التى لم يسمع بمثلها . ـ وفيه أرسل الأمير يشبك يسأل فى الحضور ، فإن العسكر قد تقلق من قلة العليق ، فلما سمع السلطان بذلك حنق واغتاظ ، ثم أذن لهم فى الحضور بعد ذلك .

وفى رجب نزل السلطان وتوجه إلى الرماية ببركة الحب ، فاصطاد ثلاثة كراكى ، وعاد من يومه وشق من القاهرة فى موكب حافل . ـ وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود إلى القلعة ، وكان رأس الفتنة شخصا من مماليك السلطان يقال له على باى الخشن ، (١٥٠ ب) فلما خمدت هذه الفتنة ضربه السلطان نحوا من ألف عصاة ونفاه إلى الشام ، فجاءت الأخبار بعد مدة بأن سقط عليه حائط فمات تحت الردم ، ففرح به غالب الناس . ـ وفيه جاءت الأخبار باستقرار قراجا الطويل الأينالى فى نيابة حماة ، عوضا عن بلاط اليشبكى بحكم صرفه عنها ، وحمل بلاط عقيب ذلك إلى السجن بقلعة دمشق ، ومات فى السجن عن قريب ، وكان قد شاخ وجاوز السبعين سنة من العمر .

وفى شعبان عاد الأتابكى أزبك من البحيرة ، وأخلع عليه السلطان ونزل إلى داره فى موكب حافل . ـ وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان فى التجريدة صحبة الأمير يشبك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ولم يظهروا .

---

(١١) واغتاظ : واغتاض .

وفيه وقع نادرة غريبة ، وهو أن كاتب السرّ أبو بكر بن مزهر عطس بحضرة السلطان ، فشمته السلطان مرتين ، فعُدّ ذلك من النوادر .

وفى رمضان أنعم السلطان على تغرى بردى ططر بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قجماس الإسحاقى ، بحكم انتقاله إلى تقدمة قراجا الطويل الأينالى ، وقد انتقل إلى نيابة حماة . ـ وفيه قرّر مَلاج اليوسفى الظاهرى فى نيابة القلعة . ـ وفيه كان دخول الأمير يشبك إلى القاهرة ، وقد عاد من التجريدة ، فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فأخلع عليه السلطان ونزل إلى داره فى موكب حافل . ـ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وأخلع فى ذلك اليوم على قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وفُرّقت الصرر على الفقهاء . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ زين الدين خطاب بن عمر ابن مهنا بن يوسف بن يحيي العجلونى ، وكان عالما فاضلا مفتيا من أعيان الشافعية ، ومولده سنة تسع وثمانمائة .

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وحضر فى ذلك اليوم بالقلعة قاضى مكة البرهان بن ظُهيرة ، وولده أبو السعود ، وأخو البرهان بن ظُهيرة ، وكان حاضرا (١٥١ آ) الشريف بركات ابن أمير مكة ، وجماعة من أعيان مكة ، فأخلع السلطان على الجميع فى ذلك اليوم .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وكان أمير ركب المحمل جانى بك الأشقر ، وأمير ركب الأول قانصوه خمسمائة ، وكان يومئذ خاصكى ، فالتزم الأمير يشبك الدوادار بعمل يرقه من ماله ، وكان الأمير يشبك عقد على أخت قانصوه خمسمائة فصار صهره ؛ وخرج صحبة الحاج شاهين الجمالى نائب جدّة ، وخرج القاضى إبراهيم بن ظُهيرة وجماعته ، وابن أمير مكة ، قاصدين التوجّه إلى مكة ، وقد أوردوا للسلطان فى هذه الخطوة نحوا من مائة ألف دينار ، فأكرمهم السلطان وأجلّهم ورتّب لهم فى كل يوم ما يكفيهم من الأسمطة وغير ذلك ، وأنزلهم فى بيت أم ناظر الخاص يوسف الذى ببركة الرطلى ، فرأوا فيه بهجة أيام النيل حتى سافروا . ـ وفيه وقف الأمير يشبك الدوادار إلى السلطان واستعفى من الوزارة ومن الأستادارية ، فأجابه السلطان إلى

ذلك ولـكن حتى يُغلق سنته ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفى ذى القعدة رسم السلطان ليشبك الجمالى بأن يخرج قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم أبو يزيد ، وبطل ألماس الذى كان قد تعيّن قبل ذلك . ـ وفيه تزوّج أزدمر الطويل الأينالى بابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فـكان له مهمّ حافل . ـ وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا إلى جهة بولاق فنهبوا ما فيها ، ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار فنهبوا مـا فيها ، وصاروا يأخذون جمال السقّايين ويحمّلوها ما ينهبونه من الشعير ، فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سايق ومعه مقدّم المماليك ، ولـكن ما نزل السلطان إلا بعد فوات الأمر ، وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الضرر للناس من نهب وخطف بضائع وغير ذلك ؛ فبات السلطان تلك الليلة فى جامع زين الدين الأستادار الذى (١٥١ ب) ببولاق ، فأضافه هناك تلك الليلة بعض قضاة بولاق ضيافة حافلة ، وهو القاضى تقى الدين البرماوى ، إمام الجامع المذكور وخطيبه ، فشـكر له السلطان ذلك .

وفى ذى الحجة قصد جماعة من المماليك الجلبان الإخراق بالأمير يشبك الدوادار ، بل قصدوا قتله ، ففرّ منهم وتوجّه إلى بعض ضواحى الجيزة حتى تخمد هـذه الفتنة قليلا ، فاستمرّ غائبا نحوا من خمسة عشر يوما ؛ فنى هـذه المدّة كثر القيل والقال بين الناس ، وامتنعوا الأمراء من الصعود إلى القلعة ، والسلطان مقيم بالدهيشة كالغضبان من مماليكه ، والأبواب مغلوقة عليـه ؛ فطلع الأتابكى أزبك ، وأزبك اليوسفى ، وتمر حاجب الحجاب ، وكاتب السرّ ، وشرف الدين الأنصارى ، وآخرون من الأمراء ، على أنهم يتلطّفوا بالسلطان ويمشوا بينه وبين مماليكه بالصلح ، فامتنع السلطان من ذلك وصمّم على عدم الصلح مع المماليك ، ثم خرج إلى الحوش ، وجلس على الدكة ، وطلب من كان رأس الفتنة فى هذه الحركة ، وهو شخص من المماليك يعرف بالأقطش ، فأمر بتوسيطه ، فجرّده من أثوابه فى الحال ، فشفع فيه الأمراء ، فما أجاب إلا بعد جهد كبير ، ثم ضرب ذلك المملوك فوق الألف عصاة ، وسجنه فى

(٢٣) الألف : الاف .

البرج ، وهذا كله جرى والأمير يشبك غائبا فى الجيزة ، لم يحضر إلا بعد أيام حتى سكنت هذه الفتنة .

وفيه حضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق بطلب من السلطان ، وهذه ثانى مرّة حضرها إلى القاهرة ، فلما حضر أكرمه السلطان وأخلع عليه ، ونزل فى دار الأتابكى أزبك عند أخته ، ثم أمره بالصعود إلى القلعة لضرب الكرة مع الأمراء وعومل معاملة السلاطين فى إرخائه البند الأصفر ، وتغييره الفرس فى مكان يغيّر فيه السلطان فرسه ، حتى عُدّ ذلك من النوادر التى ما وقعت قط ؛ وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو شهرين ، ثم عاد إلى دمياط ، وكان فى غاية العز والعظمة ، ووقع له (١٥٢ آ) أمور ما وقعت لأحد من أبناء الملوك قبله ؛ وكان حضوره الأول بسبب الحج ، وهذه المرّة بسبب زيارة السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة البدرى حسن بن المزلق ، ناظر جيش دمشق ، وكان ريسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية . ـ وفيه توفى الأمير سودون الأفرم المحمدى الظاهرى ، وكان أحد مقدمين الألوف ، ولكن مات وهو طرخان ، وكان بيده أمرة عشرة يأكلها حتى مات . ـ وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى محمد الإسطنبولى رحمة الله عليه ، وكان يعرف بالأقباعى ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ومكاشفات خارقة . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة ملك التكرور ، وكان من أجلّ ملوك التكرور قدرا . ـ وفيه توفى عبد القادر بن جانم نائب الشام ، وكان شابا حسنا لا بأس به . ـ وتوفى فى هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان ، لم نذكرهم خوف الإطالة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وثمانمائة

فيها فى المحرم قدم قاصد حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة تتضمّن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره ، فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأظهر العفو

(١٣) مقدمين : كذا فى الأصل .

عما جرى منه ؛ وكان أشيع عن حسن الطويل أنه قُتل ، وأحضر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم ، ثم ظهر كذب هذه الإشاعة ، وقد ذكر موته غير ما مرة ثم يظهر أنه كذب .

وفى صفر أمر السلطان بقطع خصيان شخص من الأتراك ، يقال له شاهين، وهو خازندار الأمير أينال الأشقر ، وكان نُقل للسلطان عنه بأنه فعل الفاحشة ببعض مماليكه الأحداث ، وأنه كثير العشرة لهم ، فخصاه السلطان بعصر العتيقة وبرىء من ذلك بعد مدّة ، وعاش مدّة طويلة حتى مات ؛ وكان فى تلك الأيام ظهر بعصر شخص من اليهود عارفا بالإخصاء ، وفعل ذلك بجماعة كثيرة من الناس وبرأوا من ذلك .

وفى ربيع الأول تغيّر خاطر السلطان على الأمير قانصوه الخسيف الأينالى ، أحد مقدمين الألوف ، (١٥٢ ب) فرسم لنقيب الجيش بأن يتوجّه إلى داره ويخرجه منفيا إلى دمياط ، فتوجّه إليه وأخرجه من يومه ، وحصل لقانصوه الخسيف منه غاية البهدلة ، وأخرجه خروج الشوم ، فكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه فى ليلة الخميس عاشره ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك وهو فى داره ، فلما بلغ ذلك للسلطان بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء بأن يلبسوا آلة السلاح ، وأن يوثبوا على المماليك الجلبان ، فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود هذه الفتنة ، وخشوا من أمر طائفة الأينالية فإنهم تأثروا لنفى قانصوه الخسيف ، فبعث السلطان ألماس أستادار الصحبة ، ومعه عدّة وافرة من المماليك الجلبان ، إلى دار الأمير يشبك ، فقبّلوا يديه واعتذروا له مما وقع منهم ، فأكرمهم وأخلع على ألماس كاملية بصمّور ، وترضى الجلبان بالكلام ، وسكنت الفتنة قليلا .

وفيه أنعم السلطان على وَردبش نائب البيرة بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قانصوه

(٧) وبرىء : وبراء . (١١) مقدمين : كذا فى الأصل .

الخسيف بحكم نفيه إلى دمياط . ـ وفيه توفى تنم العجمى من ططخ الظاهرى ، أحد العشرات ، وكان خشداش الأتابكى أزبك ، وكان لا بأس به . ـ وفيه رسم السلطان بنفى سودون المؤيدى ، فنفاه إلى مكة ، وكان قد نُسب إلى شىء من أمر الفتنة الماضية مع المماليك الجلبان ، وقد وشى به بعض المماليك عند السلطان فنفاه . ـ وفيه ، فى ليلة عيد ميكاييل ، نزلت النقطة ، فأمطرت السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا ، حتى عُدّ ذلك من النوادر .

وفيه بعث الأمير يشبك الدوادار إلى القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ، يسأله فى استبدال قاعات البرابخية (١٥٣ آ) التى ببولاق ، فدفع لهم الثمن عند ذلك خمسة آلاف دينار ؛ وكان قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الأمشاطى صمّم على عدم الاستبدالات قاطبة ، فضيّق عليه الأمير يشبك حتى استبدل له البرابخية ، فقامت عليه الأشلة من الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة خاير بك الظاهرى الخشقدمى ، الذى يسمونه سلطان ليلة ، وكان ريسا حشما ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونفى فى عدة أماكن من البلاد ، وآخر الأمر توفى بالقدس . ـ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد توقّف أياما وحصل للناس غاية القلق ، حتى بعث الله تعالى بالوفاء ، وكان فى العشرين من مسرى ؛ فلما أوفى توجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وسُرّ الناس بذلك . ـ وفيه كان المولد النبوى ، وكان له يوم مشهود .

وفى ربيع الآخر ظهر بالسماء نجم وله ذنب طويل ، فكان يظهر بعد العشاء ، فاستمرّ على ذلك مدّة ثم اختفى . ـ وفيه كانت وفاة العلامة الشيخ زين الدين قاسم ابن قطلوبغا السودونى الحنفى ، وكان عالما فاضلا ، فقيها محدثا ، كثير النوادر ، مفتيا من أعيان الحنفية ، وكان مولده فى سنة إحدى وثمانمائة ، وكان نادرة عصره .

وفيه أخلع السلطان على جانى بك الأشقر ، وقُرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر جانى باى الخشن الأينالى فى أمرة الركب الأول . ـ وفيه نفى السلطان جماعة

كثيرة من مماليكه ، منهم أينال الخسيف الذى ولى حاجب الحجاب فيما بعد ، وغيره من المماليك ممن أثار تلك الفتن الماضية. ــ وفيه قدم على السلطان قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وعلى يده مكاتبة تتضمّن الشفاعة فى أينال الحكيم ، وكان قد جرت عليه كاينة وفرّ إلى ابن عثمان ، فقبل السلطان شفاعته فى أينال الحكيم ، وأكرم ذلك القاصد وأخلع عليه ، وأقام بمصر مدّة ، ثم عاد إلى (١٥٣ ب) بلاده .

وفى جمادى الأولى فى ليلة الجمعة كانت وفاة الإمام العالم العلامة محي الدين الكافيجى ، وهو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى الحنفى ، وكان إماما عالما فاضلا ، بارعا فى العلوم ، ماهرا فى الفقه والحديث والعلوم العقلية ، وقد تعاظم وانتهت إليه رياسة مذهبه بمصر ، وصار مفتيها على الإطلاق ، وألّف العلوم الجليلة ، وكان مهابا معظما عند السلاطين والأمراء ، وولى عدّة وظائف ، منها مشيخة الخانقاة الشيخونية ، ومشيخة تربة الأشرف برسباى وغير ذلك ، وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به ، ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، وكان من أفاضل الحنفية ؛ وفيه يقول الشهاب المنصورى ، وقد دخل عليه فى خلوته فأضافه بحلاوة قرع ، فقال فى الحال ارتجالا :

يا عين أعيان الزمان ويا   محي بمصر سُنّة الشرع
ما قرَعَ الباب عليك امرئْ   إلا وذاق حلاوة القَرْع

ولما مات رثاه بهذه الأبيات ، وهو قوله :

بكتْ على الشيخ محي الدين كافيجى   عيونُنا بدموع من دم المهج
كانت أسارير هذا الدهر من درر   تزهى فبدّل ذاك الدر بالسبج
فكم غُنى بسماح من مكارمه   فَقْرًا وقوّم بالإعطاء من عوَج
يا نور علم أراه اليوم منطفيا   وكانت الناس تمشى منه فى سُرُج
فلو رأيت الفتاوى وهى باكية   رأيتها من نجيع الدمع فى لُجَج
ولو سَرَتْ بثناه عند ريح صبا
لاستنشقوا من (١٥٤ آ) شذاها أطْيَب الأرَج

يا وحشة العلم من فيه إذا اعتركت أبطاله فتــوارت فى دجى الزهج
لم يلحقوا شأن علم من خصايصه أنّى ورتبتــه فى أرفع الدرج
قد طال ما كان يُقرِئُنا ويُقرِئُنا فى حالتَيْه بوجه منـــه مبتهج
سَقْياً له وكساه الله نورَ سَنا من سُندس بيــد الغفران منتسج

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو طُرَا ، فأقام بها إلى آخر النهار وعاد . ــ وفى عقيب ذلك رسم بنفى اثنين من الأينالية وهــذا أول الفتك بهم . ــ وفيه توفى سودون المنصورى ، أحد العشرات ، مات قتيلا ، سقط من سطح وكان مشغول الرأس فمات لوقته ، وكان شابا حسن الشــكل كثير الإسراف على نفسه ؛ فقصد السلطان أن يصلّى عليه ، فلما علم كيفية موته لم يصلّ عليه ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه أخلع السلطان على خشقدم الأحمدى الطواشى ، وقرّر فى الوزارة ، عوضا عن الأمير يشبك الدوادار بحكم استعفائه منها ، وقرّر قاسم شُغيتة فى نظر الدولة ؛ فلما أحضروا لخشقدم الخلعة شرع يلطم بيديه على وجهه ويبكى ، وصار يدّعى الفقر والعجز ويكرّر الاستعفاء ، والسلطان لم يلتفت إلى كلامه ، فلبس الخلعة ونزل إلى داره . ــ وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومن جملتها سبع عظيم الخلقة ، وخيمة كبيرة ، وغير ذلك ، فأكرمه السلطان وأخلع عليه .

وفيــه نزل السلطان وتوجّه إلى خليج الزعفران ونصب هناك تلك الخيمة التى أهداها إليه ملك الهند ، وكانت غريبة الصفة ، (١٥٤ ب) فأقام هناك ثلاثة أيام ، فصادف دخول الأمير يشبك الجمالى ، الذى كان قد توجّه قاصدا إلى ابن عثمان ، فعاد من سفره وقابل السلطان فى خليج الزعفران وعليه خلعة ابن عثمان ، ومكاتبته تتضمّن التودّد بينهما ، فابتهج السلطان بذلك . ــ وفيه أمر السلطان بإصلاح ما تهدّم من جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فقيل إنه أصرف على ذلك خمسة آلاف دينار .

وفى جمادى الآخرة أخلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرّر فى مشيخة الخانقاة الشيخونية ، عوضا عن محيي الدين الكافيجى ؛ وأخلع على الشيخ

---

(٢٠) فابتهج : فابتجهج .

تاج الدين بن قاضى القضاة سعد الدين الديرى ، وقرّر فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن الشيخ سيف الدين بحكم أنه انتقل إلى مشيخة الشيخونية ؛ وكانت مشيخة المؤيدية مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف ، فعادت إليهم . ـ وفيه أعيد السيد الشريف موفق الدين أحمد الحموى ، فى نظارة الجيش بدمشق ، عوضا عن ولد برهان الدين النابلسى ، وكان قد وليها بعد وفاة البدرى بن المزلق . ـ وفيه وقعت تشحيطة صعبة بالقاهرة ، وعزّ وجود الخبز من الدكاكين ، وتزاحم الناس على شراء القمح ، واستمرّ ذلك مدّة حتى دخل المغل الجديد .

وفى رجب قرّر الشيخ أبو عبد الله القلجانى المغربى ، قاضى الجماعة ، فى مشيخة تربة السلطان ، وقرّر فى خطابتها الشيخ أبو الفضل المحرقى ، وقرّر شيخ الميقاتية بها بدر الدين المارداني ، وفى قراءة المصحف بها ناصر الدين الأخميمى ، وخازن الكتب بها العلاى على بن خاص بك ، وقرّر بها ثلاثين صوفيا يحضرون فى الخمسة أوقات ، وبنى للصوفية حول التربة عدّة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتّب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون ، وغير ذلك من وجوه البرّ والمعروف ، وخُطب بها فى هذا الشهر ، وحضر الأمراء والقضاة الأربعة وأرباب الدولة (١٥٥ آ) قاطبة ، وكان يوما حافلا . ـ وفيه أخلع على القاضى أبى الفتح المنوفى ، وقرّر فى نيابة جدّة عوضا عن شاهين الجمالى ، وأضيف إليه الصرف أيضا ، عوضا عن محمد بن عبدالرحمن .

وفيه غضب السلطان على شاد بك أبازا الأشرفى الأينالى ، أحد العشرات ، فألبسه زمطا عتيقا وأمر بحمله إلى خان الخليلى ليباع ، وقد ثبت أنه باق على ملك الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، بحكم أنه ورثه من قانى باى الجركسى ، فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور ، فشفع فيه الأتابكى أزبك ، فما قبل منه وآل الأمر إلى أن حمل شاد بك أبازا ، وآخر من الأينالية يقال له خاير بك ، وآخر يقال له سيباى ، فحملوا إلى الملك المنصور وهو بدمياط ، فأشهد على نفسه بعتقهم ، ثم نفى شاد بك إلى دمشق ، ونفى خاير بك إلى طرابلس ، وشفع

(١١) يحضرون : يحضروا .

فى سيباى بأن يقيم بمصر بطالا ؛ وقد بلغ السلطان عنهم ما قد غيّر خاطره عليهم ، قيل إنهم قصدوا الوثوب على السلطان لما وثبوا المماليك على الأمير يشبك الدوادار ، فانكشف رُخّ جماعة الأينالية فى هذه الحركة ، وصار السلطان ينفى منهم جماعة بعد جماعة ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة .

وفيه طلع إلى السلطان شخص من الفقهاء ، يقال له شهاب الدين القلقيلى ، ورفع قصّة يشكو فيها الشيخ عبد البرّ بن الشحّنة بأنه سلّط عليه غلمانه وعبيده ضربوه ضربا مبرحا ، وذكر فى أثناء القصّة بأن عبد البرّ جاهل ما يحسن قراءة الفاتحة ، وأن الصلاة خلفه لا تصحّ ؛ فمال السلطان مع القلقيلى على عبد البرّ ، وهذا بخطيئة ابن الفارض فإنه كان من رأس المتعصّبين عليه ، فرسم السلطان بإحضار عبد البرّ وجماعة من مشايخ القراء ، وقرأ عبد البرّ بحضرتهم والسلطان جالس والقلقيلى حاضر ، فلما قرأ أثنوا عليه مشايخ القراء وشكروا من قراءته ، فاستمال السلطان على القلقيلى ، وكان قد حلف برأس السلطان أن عبد البرّ ما يحسن قراءة الفاتحة ، (١٥٥ ب) فلما ظهر للسلطان كذب القلقيلى أمر بضربه ، فضُرب بين يديه ضربا مبرحا ، وأمر بحمله إلى عند القاضى المالكى ليفعل به ما يوجب الشرع ، وانتصر عبد البرّ عليه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمد بن مبارك التركمانى الحلبى ، نائب طرابلس ، وكان ريسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة البيرة ، ونيابة حماة ، ونيابة طرابلس . ــ وتوفى نائب قلعة دمشق يشبك الظاهرى السيفى على باى ، وكان لا بأس به . ــ وفيه نزل السلطان للرماية ، فلما عاد شقّ من القاهرة ، وكان له يوم مشهود . ــ وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وبين خشقدم الوزير ، حتى صرّح الأمير يشبك بعزل نفسه من الدوادارية ، وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى ركب إليه أمير كبير أزبك وجماعة من الأمراء ، وتلطّفوا به حتى طلع معهم إلى القلعة ، فأخلع عليه السلطان كاملية بصمّور ، وأصلح بينه وبين خشقدم الوزير ، وباس خشقدم يد الأمير يشبك ، وخمدت تلك الفتنة التى بينهما . ــ

وفيه جاءت الأخبار بوفاة يلباى العلاى الظاهرى ، نائب صفد ، وكان لا بأس به ، وولى نيابة الإسكندرية ، ثم نيابة صفد ومات وهو فى عشر الستين .

وفى شعبان توفى بكتمر البواب الأبوبكرى الأشرفى ، وكان لا بأس به . ــ وفيه نزل السلطان إلى الاصطبل وحكم به ، وصار كاتب السرّ يجلس بين يديه على دكة لأجل قراءة القصص ؛ فجاء شخص وشكى يشبك الدوادار وهو واقف بين يدى السلطان ، فأمره أن ينزل ويقف بإزاء خصمه حتى ادّعى عليه ؛ وحضر آخر وشكى جانى بك الفقيه ففعل به كذلك . ــ وفيه توفيت خوند بدرية ابنة الأشرف أينال ، وكانت لا بأس بها ، وتركت عدّة (١٥٦ آ) أولاد ذكور وإناث . ــ وفيه وصل قاضى القدس وهو فى الحديد ، ومعه جماعة من أعيان أهل القدس وهم فى الحديد ، بسبب هدم كنيسة هناك ، وقد ثار بسبب ذلك شرّ كبير بين العلماء ، وكُتبت عدّة فتاوى بسبب تلك الكنيسة ، وصار يُفتى بعضهم بالهدم ، وبعضهم بالإبقاء .

وفيه هجم طائفة من العربان المفسدين على جماعة من الناس فى أثناء طريق المنية ، واستمرّوا يعرّون الناس من المنية إلى قنطرة الحاجب ، وكان ذلك بعد العصر ، وكان أوان الربيع ، فسلبوا أثواب المتفرّجين ، وطلعوا من على قناطر الأوزّ ، وخرجوا إلى الفضاء ، وكانوا نحوا من عشرين خيّالا ؛ فكان من جملة ممن سلبوه من أثوابه شخص من الأمراء العشرات يقال له كسباى المغربى ، وكان راجعا من طريق المنية ، فأخذوا سلاريه من عليه . ــ وفيه توفى قانى بك الأزدمرى الحاجب الثانى ، وكان قد شاخ وبلغ من العمر نحو تسعين سنة . ــ وفيه عرض السلطان من فى السجون ، فأطلق منهم أربعة أنفار لا غير ، وأعاد البقية إلى السجون .

وفى رمضان صعد القضاة ومشايخ العلم للتهنئة بالشهر ، فأمر السلطان بعقد مجلس بين يديه ، بسبب كنيسة اليهود التى هُدمت بالقدس ، فأفتى الشيخ أمين الآقصراى بجواز هدمها ، وكذلك شمس الدين الجوجرى ، وزين الدين الأبناسى ، وأفتى الشيخ سراج الدين العَبادى ، وقاضى الجماعة القلجانى المغربى المالكى ، وآخرون من العلماء ،

---

(١٣) يعرون : يعروا .

بعدم جواز الهدم وأنها تُعاد على ما كانت عليه ، فوقع فى المجلس القال والقيل بين العلماء ، وكثر الُخباط ، وانفضّ المجلس على غير طائل ؛ فأمر السلطان بعقد مجلس آخر فى دار يشبك الدوادار ، وكان السلطان مائلا إلى عدم هدم الكنيسة وإعادتها (١٥٦ ب) إلى ما كانت عليه ، وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان ، وحُكم بإعادتها على ما كانت عليه ، ووقع بين قاضى القضاة المالكى اللقّانى وقاضى الجماعة ما لا خير فيه ، وكذلك الشيخ سراج الدين العَبادى والجوجرى ، ومما هُجى به السراج العبادى لبعضهم :

أيا سراج اليهود طُرّا ومن لدين المزيز أفتى
عصبة أهل الكتاب قالوا لن ترض عنك اليهود حتى

وقيل فى قاضى الجماعة من جملة أبيات فى ذلك المعنى :

تفتى بعَوْد كنيس يا مغربى ما أنت إلّا . . .

انتهى ذلك . ــ وفيه توفى الأمير أينال الأشقر اليحياوى الظاهرى ، أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا ، شجاعا بطلا ، وكان ظالما غاشما عسوفا ، كثير الإسراف على نفسه ، وكان عنده كرم زائد مع اتضاع ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وولى عدّة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ، ونيابة ملطية ، ونيابة حلب ، ورأس نوبة النوب ، وأمرة السلاح ، وغير ذلك من الوظائف ، وكان فى أواخر عمره ظهر عليه جذام وبرص فاحش جدا . ــ وفيه قرّر يشبك قرقاش الأشرفى فى نيابة دمياط .

وفيه توجّه السلطان إلى نحو الطرانة ، وكان معه الأتابكى أزبك ، فأقام هناك أياما وعاد . ــ وفيه قرّر مُغلباى سُرق الأشرفى فى حجوبية الحجاب بحلب ، عوضا عن دولات باى النجمى ، بحكم انتقاله إلى حجوبية الحجاب بدمشق . ــ وفيه فرّ من سجن الديلم شخص من عربان بنى حرام ، يقال له عمر بن معروف ، وفرّ من سجن القاعة أيضا شخص يقال له محمد بن زامل ، وفرّ من سجن المقشرة أيضا شخص يقال له ابن صالح ، الكل فرّوا فى مدّة يسيرة من هذا الشهر .

(١١) ... : بياض فى الأصل .

وفى شوال فى ثالثه خرج الأتابكى أزبك مسافرا إلى الحجاز ، وصحبته زوجته خوند ابنــة الظاهر جقمق ، وخرج صحبته أيضا الأمير أزبك اليوسفى ، (١٥٧ آ) ومعه زوجته خوند ابنة عمّ الملك الظاهر جقمق ، وخرج صحبتهم الشيخ أمين الدين الآقصراى ، وولده أبو السعود ، فحجّ الشيخ فى محفّة ، وقد بعث إليه السلطان بسبعمائة دينار يستعين بها على الحجّ ؛ وخرج صحبتهم الـكثير من الناس ، وقد سبقوا الحاج بعشرين يوما — وفيه أخلع السلطان على قرابته أزدمر ، وقرّر فى نيابة صفد ، عوضا عن يلباى العلاى الظاهرى بحكم وفاته . — وفيه خرج الحاج على العادة ، ولما حجّ الشيخ أمين الدين فى المحفّة قال فيه بعض شعراء العصر هذا المعنى :

محفّة الشيخ الآقصراى   تنشر جدواه فى المشاهد
تقول طوبى لمثـل هذا   قد حجّ بالناس وهو قاعد

وكان أمير ركب المحمل فى هذه السنة جانى بك الأشقر ، أحد خواص السلطان ، وبالركب الأول جانى باى الخشن الأينالى ، تاجر المماليك ؛ وفى هــذه السنة حجّت خوند فاطمة زوجة السلطان ، وهى ابنــة العلاى على بن خاص بك ، فـكان يوم خروجها إلى السفر يوما مشهودا ، وكان لها الموكب حافل ، فخرجت فى محفّة زركش ، برصافيات لؤلؤ مرصّعة بفصوص بلخش وفيروز ، وخرج صحبتها أخت السلطان فى محفّة زركش أيضا ، وخرج معها خمسون حملا من المحاير المخمل الملون ، ومشت قدّام محفّتها بالرملة جميع أرباب الدولة ، وهم : كاتب السرّ ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدّم المماليك ، وأعيان الخدّام بأيديهم العصى ، وقدّامها من الحداة أربعة ، منهم : إبراهيم بن الجندى المغنى ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك ، فـكان لها تجمّل زائد قلّ أن يقع لأحد من الخوندات مثلها ، فعُدّ ذلك من النوادر ، وكان المتسفر عليها والدها (١٥٧ ب) العلاى على بن الخاص بك ، وبُرسباى المحمودى الخازندار .

ومن الحوادث أن قبل خروج خوند إلى السفر ، رسم السلطان بشنق جارية بيضاء جركسية ، فشنقت على جميزة بالقرب من حدرة ابن قُميحة ، عند الأحواض التى

بطريق مصر العتيقة ، وكانت هذه الجارية حملت فى طريق الحجاز من بعض مماليك السلطان الجلبان ، فلما وضعت قتلت الولد من خوفها ، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية وأغرق المملوك ، وقيل بل أخصاه ونفاه إلى الشام . ــ وفيه اضطربت أحوال الشرقية بسبب فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل ، فعيّن السلطان إليهم الأمير يشبك الدوادار ، فخرج مبادرا .

وفى ذى القعدة هجم عرب عَزالة على ضواحى الجيزة ، ونهبوا خيول المماليك ، وقتلوا جماعة من الغلمان ، وأطلقوا من كان بالسجن فى الجيزة ؛ فتنكّد السلطان لهذا الخبر وعيّن عدّة من الأمراء والجند ، فخرجوا على حمية ، فأقاموا هناك أياما وعادوا ولم يظفروا بأحد من العربان المفسدين . ــ وفيه توفى بيبرس الطويل الأشقر من ططخ ، أحد المقدمين بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من الإسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد تمرُبغا الظاهرى الرومى ، مات بثغر الإسكندرية ، وقد جاوز الستين سنة من العمر ، وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا ، عارفا بأنواع الفروسية ، وافر العقل كامل الهيئة ، وإليه تنتسب أشياء كثيرة من آلة الحرب ، ورَمْى النشاب ، ولعب الرمح ؛ وكان من خيار الظاهرية ، اشتراه الملك الظاهر جقمق فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأعتقه ، ثم آل أمره إلى أن بقى سلطانا ، وجرى عليه شدائد ومحن ، و نُفى عدّة مرار ، وجرى عليه من المماليك الخشقدمية ما لا خير فى إعادته ، وخلع من السلطنة بعد ثمانية وخمسين يوما ، فكانت كأحلام النائم ، وآخر الأمر مات قهرا ، فكان كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا إذا كملت   وتمّ سرورها خذلت
(١٥٨ آ) وتفعل بالذين بقوا   كما فيمن مضى فعلت

وفيه أمر السلطان بتوسيط كاشف البحيرة ، وهو شخص يسمى خشقدم الزينى ، فوسّطه هو وشخص من الكُتّاب يقال له ابن الطواب ، وقد تجمّد عليهما جملة من المال لم يقوما به . ــ وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا ، ثم نودى عليها كل رطل

بستّ وثلاثين، ونودى على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين ، فخسر الناس فى هذه الحركة الثلث من أموالها ، وكانت الفلوس الجدد تخرج معاددة كل أربعة أفلاس بدرهم .

وفيه قدم مبشّر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وكان المبشّر يومئذ شخصا من الخاصكية ، يقال له جان بلاط النورى ، فأخبر بوفاة أبى السعود محمد بن الشيخ أمين الدين الآقصراى ، مات وهو عائد من مكة ، ودفن فى أثناء الطريق ، وكان شابا حشما ريسا ، من أهل العلم والفضل ؛ وتوفى كاتب سرّ طرابلس السيد الشريف تقى الدين أبو بكر بن أحمد ، وكان لا بأس به ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم أخلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الغَرس الحنفى ، وقرّر فى مشيخة تربة الأشرف برسباى ، عوضا عن الكافيجى بحكم وفاته . ــ وفيه رسم السلطان بتوسيط عمر بن أبى الشوارب ، شيخ قليوب ، وقد ضُرب بالمقارع بين يدى السلطان ، وشُهر على جمل ، ووُسّط بقليوب . ــ وفيه فى سابع عشره كان وصول الأتابكى أزبك من مكة ، وقد حجّ وعاد ؛ وحضر صحبته الشيخ أمين الدين الآقصراى وهو فى غاية التشويش على فقد ولده أبى السعود ، وقد حصل له ما يشبه الذهول ، فلم يلبث بعد دخوله القاهرة سوى تسعة أيام ومات ، (١٥٨ ب) فلما طلع إلى السلطان أخلع عليه وعلى الأتابكى أزبك ، ونزلا إلى دورهما .

وفيه فى رابع عشرينه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد تأخّر عن ميعاده أربعة أيام ، وحصل على الحجاج عطشة شديدة عند العود ، وكان الحاج فى تلك السنة كثيرا ؛ ثم دخلت خوند زوجة السلطان إلى بركة الحاج وهى فى تجمّل زائد ، ولاقاها الأمراء قاطبة حتى قضاة القضاة ، وترجّلوا إليها من على بغالهم وهى فى المحفّة ، ولاقاها المغانى بالطارات من البويب ، ومُدّت لها هناك أسمطة حافلة ؛ فلما طلعت إلى القلعة رُفعت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها خفائف الذهب والفضة ، وكان لها

بالقلعة يوم مشهود ، ودخل إليها التقادم الحافلة من أرباب الدولة وأعيان الناس ، انتهى ذلك .

وفيه فى سابع عشرينه كانت وفاة شيخ الإسلام أمين الدين يحيى بن محمد الآقصراى الحنفى ، رحمة الله عليه ، وكان قد ناف عن الثمانين سنة من العمر ، وكان مولده سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وكان إماما عالما فاضلا مفتيا ، به النفع للمسلمين ، من أجلّ علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه ، دينا خيرا ، قائما فى الحق ، يخاشن الملوك والسلاطين ، ويغلظ عليهم فى القول ، ولا يخشى إلا الله ، وكان فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية ، منها مشيخة المدرسة الأشرفية ، ومشيخة المدرسة الصرغتمشية ، والأيتمشية ، والجانبكية ، وكان بيده عدّة تداريس وطُلب ليلى القضاء غير ما مرة وهو يمتنع من ذلك .

وفى صفر أخلع السلطان على قريبه جانم الشريفى ، وقرّر فى نظر الجوالى ، وهذا أول استظهاره فى الوظائف . ـ وفيه توفى الأمير قانى باى الساقى الطويل الظاهرى ، (١٥٩ آ) أحد الأمراء الطبلخانات والحاجب الثانى ، وكان ريسا حشما لا بأس به . ـ وفيه نزل السلطان إلى طُرا ، ومعه الأتابكى أزبك ، فبات هناك ، ومدّ له بها الأتابكى أزبك أسمطة حافلة ، فبات وعاد من غده . ـ وفيه توفى الشيخ نجم الدين إسحاق القرمى الحنفى ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، ومولده قبل التسعين والسبعمائة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الأمير تمر حاجب الحجاب وهو تمر من محمود شاه الظاهرى ، وكان ظالمـا غاشما عسوفا شديد القسوة ، تولّى ولاية القاهرة وحجوبية الحجاب ، وكان فى أيام ولايته صارما على العبيد والغلمان وغير ذلك ، وقتـل منهم جماعة كثيرة ، حتى قيل أُحصى من قتله فى أيام ولايته فـكانوا زيادة على السبعمائة إنسان على ما قيل ، فلما مات قال جماعة من أهل الصحراء إنهم سمعوه يعوى فى قبره كما تعوى الـكلاب ، نعوذ بالله من ذلك . ـ وفيه طلع القلعة شخص من الأمراء العشرات ، يقال له دولات باى حلاوة المحمودى ، فبينما هو واقف بين الأمراء فأغمى عليه ، فحملوه إلى

تحت الكرمة التى بالحوش ، فمات لوقته ، فأحضر له تابوت وأنزلوه إلى داره ، ودفن من يومه ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وحضر القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من الأمراء وغيرهم . - وفيه أخلع على القاضى تاج الدين ابن المقسى وأعيد إلى نظر الخاص ، وقد نسى الملقة المقارع التى دخلت فى أجنابه ، وانفصل عنها بدر الدين ابن كاتب السرّ ابن مزهر . - وفيه أخلع على الأمير أزدمر الإبراهيمى الطويل ، وقرّر فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن تمر بحكم وفاته . - وفيه قرّر فى الحجوبية الثانية سيباى الظاهرى ، الذى كان أمير (١٥٩ ب) آخور ثالث ، وقرّر الأمير أزدمر المسرطن فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن أزبك اليوسفى بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف . - وفيه توفى الأمير يشبك جبس من آقبردى الأشرفى أحد العشرات ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركى الإمام ، وقرّر فى مشيخة المدرسة الأشرفية ، عوضا عن الشيخ أمين الدين الآقصراى بحكم وفاته . - وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن السلطان يقصد السفر والخروج بنفسه إلى البلاد الشامية ، فنزل إلى الميدان الكبير الذى بالناصرية ، وعرض هناك خيول الدُشار ، ثم توجّه إلى بولاق ونزل فى بيت شرف الدين الأنصارى الذى ببولاق ، فأضافه الأنصارى هناك ضيافة حافلة ، وكان الأنصارى أنشأ غرابا تحت داره ، فنزل السلطان فيه وتوجّه إلى شبرا ، ثم عاد قريب المغرب وطلع إلى القلعة . - وفيه فى ثانى عشر مسرى كان وفاء النيل المبارك ، ونزل الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن محمد أغرلوا بن حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه ، وقد بعث يستنجد بنائب حلب على أبيه ، فجهّز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب ، وعليهم أينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفى جانى بك نائب جدّة ، وكان يومئذ نائب البيرة ، وعيّن دولات باى المحوجب وآخرين من أمراء

حلب ، فلما خرجوا إلى عسكر حسن الطويل تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح محمد أغرلوا جرحا بالغا ، ورجع إلى حلب فى خمسة أنفار ، وأن أينال الحكيم فُقد فى المعركة ، وأن دولات باى المحوجب أسر ، وقُتل (١٦٠ آ) من عسكر حلب جماعة كثيرة ؛ فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوّش له وعيّن جماعة من الأمراء ، منهم : الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار وتَمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباى قرا ، وخاير بك من حديد ، ووردبش ، وعيّن من الأمراء الطبلخانات والعشرات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يجهّزوا يرقهم ويكونوا على يقظة حتى يرد عليه من أمر حسن الطويل ما يكون ، فاضطرب أحوال العسكر ؛ فبينما هم على ذلك إذ ورد كتاب من عند ابن الصّوا ، يخبر فيه بأن عسكر حسن عاد إلى بلاده ولم يحصل منهم ضرر ، فانشرح السلطان لهذا الخبر ، وبطل أمر التجريدة التى تعيّنت إلى حسن الطويل ، فكان كما قيل فى المعنى :

وكم همّ تُساء به صباحا فتأتيك المسرّة بالعشىّ

وفيه توفى الشيخ عضد الدين السيرامى ، شيخ المدرسة البرقوقية ، وهو عبد الرحمن بن يحيى بن سيف بن محمد بن عيسى الحنفى السيرامى ، وكان عالما فاضلا ريسا حشما ، من أعيان علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه مفتيا ، وكان لا بأس به ؛ فلما توفى أخلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين الأمشاطى ، وقرّر فى مشيخة البرقوقية ، عوضا عن السيرامى . ـ وفيه أخلع على أزبك فُستق الظاهرى ، وقرّر فى أمرة الآخورية الثالثة ، عوضا عن سيباى ، بحكم انتقاله إلى الحجوبية الثانية . ـ وفيه أخلع السلطان على ولد برهان الدين النابلسى ، وأعيد إلى نظارة الجيش بدمشق ، وصرف عنها الشريف موفق الدين الحموى . ـ وفيه توفى جمال الدين الباعونى قاضى القضاة الشافعى بدمشق ، وكان (١٦٠ ب) عالما فاضلا ريسا حشما ، وكان ترشّح أمره ليَلى قضاء مصر ولم يتمّ ذلك ، وكان مولده سنة خمس وثمانمائة .

وفى جمادى الأولى أخلع السلطان على قجماس الإسحاقى ، وقرّر فى أمرة آخورية الكبرى ، عوضا عن جانى بك الفقية الظاهرى ، بحكم انتقاله إلى أمرة

السلاح ، عوضا عن أينال الأشقر ، بحكم وفاته ؛ وأخلع على قانى قُشير الظاهرى أحد العشرات ، وقرّر فى نيابة ثغر الإسكندرية ، عوضا عن قجماس الإسحاقى ، بحكم انتقاله إلى أمرة آخورية الكبرى . ـ وفيه أخلع على برد بك السيفى جرباش كُرت ، وقد ظهر أنه قريب السلطان ، فقرّره فى نيابة صفد ، عوضا عن أزدمر من مزيد قريب السلطان أيضا ، ونقل أزدمر المذكور إلى نيابة طرابلس ، عوضا عن يشبك البُجاسى ، بحكم القبض عليه وسجنه ؛ ولما أخلع السلطان على قريبه برد بك وقرّره فى نيابة صفد ، كان يومئذ شاد الطرائة ، فاستكثروا عليه الناس نيابة صفد دفعة واحدة .

وفيه توجّه إلى دمشق برهان الدين النابلسى وكيل بيت المال ، وقد خرج فى بعض أشغال السلطان . ـ وفيه وصل القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر ، وكان قد توجّه رسولا إلى حسن الطويل ، فأخبر أن الطاعون قد هجم فى بلاده ، ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره فسُرّ السلطان لهذا الخبر . ـ وفيه قدمت إلى القاهرة زوجة حسن الطويل ، أم ولده محمد أُغرلوا ، تستجير لولدها محمد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ويصلح بينهما ، فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحرم .

وفيه نُقبت قاعة الذهب وسُرق منها عدة سبائك ذهب ، وشريط ذهب ، (١٦١ آ) فلما بلغ السلطان ذلك ضيّق على والى القاهرة حتى يفحص عن من فعل ذلك ؛ ثم بعد أيام ظهر أن شخصا يقال له يوسف ، وكان من جملة صنّاع القاعة ، أنه هو الفاعل لذلك ، فقُبض عليه وعُرض على السلطان ، وأُخذ ما كان معه من السبائك الذهب ، وسُجن بالمقشرة إلى ما تقتضى الآراء الشريفة فى أمره .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من دمشق ، بأن برهان الدين النابلسى وكيل السلطان لما دخل إلى دمشق صدرت منه القبايح العظيمة بأهل دمشق ، فما طاقوا ذلك وثاروا عليه ورجموه ، ورموا عليه بالسهام ، وأحرقوا داره بالنار ، وأرادوا قتله ، فركب نائب قلعة دمشق بنفسه وتلطّف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا ،

وقد كادت أن تخرب دمشق فى هذه الحركة بسبب ظلم النابلسى ، وكان قد طغى على الناس وتجبّر ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حقّه ، حتى آل أمره إلى ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو طُرا ، فأضافه هناك ابن البلاّح ، فكان فيما أحضره بين يديه قدورا مختومة بها شهد ، ففُتحت منهم قدرة بين يدى السلطان وهو جالس على السماط ، فلما فُتحت خرج منها نحلة كبيرة ، فقصدت وجه السلطان دون الجماعة الذين على السماط ، فلدغته فى جفن عينه ، فورم وجهه فى الحال وتشوّش لذلك ، ورجع من وقته وطلع إلى القلعة ، فانقطع عن إقامة الخدمة أياما حتى شُفى من ذلك . — وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة بين شاه بضاغ ابن ذلغادر صاحب الأبلستين ، وبين ابن قرمان ، ووقع بينهما مقتلة عظيمة ؛ ووقع أيضا بين حسن الطويل وبين أخيه أُويس ، وبعث إليه طائفة من عسكره بالرُها ، فحاربوا أُويس فقتلوه أشرّ قتلة ، ومن (١٦١ ب) كان معه من عسكره .

وفى أثناء هذا الشهر توجّه السلطان إلى ثغر دمياط ، وقد توجّه إلى دمياط مرة أخرى قبل ذلك ، وهذه السفرة الثانية ، وقد توجّه إلى دمياط من البحر فى عدة مراكب كثيرة ، نحو من مائة مركب ، وكان معه من الأمراء يشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشرات ، وجماعة من المباشرين والخاصكية والمماليك السلطانية ؛ ومما وقع له وهو حادر فى البحر أنه رأى عدّة كراكى على جزيرة فى البحر ، فقام بنفسه ورمى عليهم بسهم نشاب ، فصرع منهم كُركى فتحامل بسهمه وألقى نفسه فى البحر ، فبادر إليه بعض السلحدارية ونزل فى البحر ليحضر الكركى فقوى عليه التيّار فغرق من وقته ، فتنكّد السلطان بسبب ذلك ؛ فلما طلع إلى ثغر دمياط لاقاه النائب ومدّ له مَدّة حافلة ، فأقام بها أياما وهو فى أرغد عيش ، وتنزّه فى غيطان البلد ، وتوجّه إلى مكان يصاد به السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وعاين كيف يصاد البورى ، وانشرح فى هذه السفرة إلى الغاية ؛ فلما أراد العود إلى

(٧) الذين : الذى .

القاهرة عاد فى البحر أيضا ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من خمسة عشر يوما ، فطلع إلى القلعة فى سلخ الشهر .

ومن الحوادث أن السلطان لما عاد من دمياط ونزل فى المراكب قاصدا للديار المصرية ، فلما أن وصلوا إلى بولاق جاء صاروخ نفط فى مركب الأمير يشبك الدوادار ، فعملت النار فى قلع المركب فاحترق ، فاضطرب الأمير يشبك من ذلك ، وصار يلاقى عن وجهه النار بالمخدّة ، فأدركه طواشى يقال له مرجان الحسنى ، فبينما هو يطفىء النار إذ سقط عليه الصارى فمات لوقته ، هو وشخص من المماليك السلطانية ، انتهى .

وفى رجب صمد قضاة القضاة إلى القلعة للتهنئة بالشهر وقدوم السلطان من السفر ، فأخلع فى ذلك اليوم على أبى البقاء ابن قاضى القضاة ابن الشحنة ، وقرّر فى قضاء الشافعية بحلب ، عوضا عن عز الدين الحسناوى ، بحكم صرفه عنها . ـ وفى أثناء هذا الشهر خرج السلطان على حين غفلة وقصد التوجّه إلى بيت المقدس ، وكان معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء والخاصكية ، وجماعة من أعيان المباشرين وغيرهم ، فلما دخل القدس أظهر به العدل ، وأقام به ثلاثة أيام ، ثم زار الخليل عليه السلام ، وتصدّق (١٦٢ آ) فى القدس والخليل بستة آلاف دينار ، وأزال ما كان بهما من مظالم كانت حادثة هناك ؛ ولما مرّ بالقُرين أمر ببناء جامع وسبيل هناك ، وحصل له جملة تقادم حافلة من أعيان الناس هناك ؛ ولما دخل إلى غزّة أخلع على سيباى المنصورى الظاهرى أحد العشرات ، وقرّر فى نيابة غزّة ، عوضا عن يشبك الملاى ، بحكم انتقاله إلى حجوبية الحجاب بدمشق ، عوضا عن جانم الجدّاوى ، بحكم انتقاله إلى أتابكية دمشق ؛ ثم إن القاضى تاج الدين ابن المقسى ناظر الخاص قدم من عند السلطان ، وأخبر أنه قد وصل إلى قطيا ، فخرج جماعة من الأمراء إلى لقائه .

وفى شعبان فى عشرينه وصل السلطان ودخل القاهرة فى موكب حافل ،

---

(١١) الحسناوى : الحساوى .

وقدّامه الأمراء بالشاش والقماش ، وخرج طائفة اليهود والنصارى بأيديهم الشموع الموقدة ، وشقّ من القاهرة ، وكان له يوم مشهود ، حتى طلع إلى القلعة . ــ وفيه كان ختان بدر الدين بن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان له مهمّ حافل . ــ وفيه توفى القاضى محيى الدين الطوخى ، أحد نواب الشافعية ، وهو عبد القادر بن محمد بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وجها عند الناس ، ناب فى القضاء مدّة طويلة وحُمدت سيرته ، وكان لا بأس به . ــ وفيه توفى السيد الشريف أمير جان تاجر المماليك ، وكان ريسا حشما فى سعة من المال ، وكان وجها عند الملوك والسلاطين ، وجلب غالب أمراء عصرنا ، وصاروا يعرفون بالشريفى إلى الآن .

وفيه حضر مهنا بن عطية إلى بين يدى السلطان ، وقد بعث إليه بمنديل الأمان ، وكان رأس العربان المفسدين ، وقد أعيى أمره الكشاف ومشايخ العربان ولم يقدروا على تحصيله ، فترامى مهنا بن عطية على أحمد بن طُفيش ، حتى قابل به السلطان ، وأخلع عليه خلعة الرضى ، ودخل تحت طاعة السلطان . ــ (١٦٢ ب) وفى أواخره توفى جانى بك الأشقر الدوادار ، أحد خواص السلطان ، وكان ريسا حشما عارفا سيوسا ، توجّه إلى الحجاز أمير حاج غير ما مرّة ، وكان مقرّبا عند السلطان ، وكان أصله من مماليك قانى باى فرفور ، واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ، ثم خدم الأشرف قايتباى من حين كان أمير طبلخاناه إلى أن بقى سلطانا، وأنعم عليه السلطان بأمرة عشرة ، وكان فى سعة من المال . ــ وفيه توفى شاهين الفقيه الزينى ، وكان من أعيان الخاصكية محمود السيرة ، دينا خيرا لا بأس به .

وفى رمضان أخلع السلطان على الأمين لاجين الظاهرى أمير مجلس ، وقرّر أمير ركب المحمل ، عوضا عن جانى بك الأشقر المتوفى ، وكان قرر أمير ركب المحمل قبل موته . ــ وفيه وصل دولات باى المحوجب ، وكان قد أُسر عند حسن الطويل ، فأطلقه وأخلع عليه . ــ وفيه توفى سيباى أمير آخور ثالث ، وكان ولى حاجب ثانى ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان يعرف بسيباى من يخشباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن بعض تجار الفرنج احتال على تجار الإسكندرية حتى أسرهم ، وكان فيهم تجار السلطان : ابن عُليبة ، وابن يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى النمراوى ، فلما أسروهم خرجوا بهم من إسكندرية فى الوقت والساعة وتوجّهوا بهم إلى بلاد الفرنج ، فاضطربت أحوال الإسكندرية وكادت أن تخرب ؛ فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثّر لهذا الخبر وعيّن فى الحال خاصكيا من خواصه يقال له قيت الساقى ، الذى تولّى ولاية القاهرة فيما بعد ، وكتب معه مراسيم شريفة لنائب ثغر الإسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنج الذين بالإسكندرية (١٦٣ آ) جميعهم ، فلما توجّه قيت الساقى إلى هنـاك قبض على تجار الفرنج الذين بسائر السواحل ، وضيّق عليهم وأودعهم فى الحديد ، وألزمهم بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار ؛ وقد قام السلطان فى هذه الحادثة قياما تاما ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وآخر الأمر اشتروا التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمـال له صورة ، حتى أطلقوهم وأتوا بهم إلى الإسكندرية ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه أخلع على قنبك جُشحة الملاى الظاهرى الرماح ، وقرّر فى الحجوبية الثانية ، عوضا عن سيباى الظاهرى ، بحكم وفاته ؛ وأخلع على دولات باى الحسنى ، وقرّر فى شادية الشون ، عوضا عن قنبك جُشحة . ـ وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل الكركى الحنفى ، والد برهان الدين إمام السلطان ، وكان دينا خيرا من صوفية الخانقاة الشيخونية ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى مُقبل الدوادار ، وكان أصله من مماليك تغرى بردى المؤذى ، وكان متكلما على شمير الذخيرة . ـ وفيه قرّر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى أينال الإسحاقى ، وكانت عادة مشيخة الحرم النبوى للخدّام الطواشية من قديم الزمان ؛ وقرّر فى باشية الجند بمكة قانى باى اليوسفى .

وفى شوال أخلع السلطان على أبى الفتح المنوفى ، وقرّر فى نيابة جدّة على عادته . ـ

(٧و٨و١٢) الذين : الذى .

وفيه أخلع السلطان على شخص من النصارى اليماقبة ، يقال له ميخائيل، من نصارى منفلوط ، وقرّر فى بطرقة النصارى . ــ وفيه خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل لاجين الظاهرى أمير مجلس ، وبالأول جانى باى الخشن الأينالى ؛ وخرج صحبة الحاج القاضى شرف الدين الأنصارى ، وكان الأمير يشبك الدوادار مُحطّا عليه فخرج إلى مكة ، وكان آخر عهده بالقاهرة ، وقد (١٦٣ ب) تسلّط عليه برهان الدين النابلسى وأخذ منه وكالة بيت المال ، فضاق الأمر عليه فترك مصر ومضى عنها ، كما قد قيل فى المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفى ذى القعدة أشيع بين الناس أن قد سُرق من خزانة السلطان مال له صورة، فظهر بعد أيام أن الفاعل لذلك جماعة من بوابين الدهيشة الألواحية ، فقبض السلطان على بعضهم وضربه ، فأحضر المال ، فرسم بسجنه فى المقشرة ، فسجن . ــ وفيه سافر السلطان إلى الفيوم ، وهى السفرة الثانية ، وكان معه الأتابكى أزبك ويشبك الدوادار ، وجماعة من الأمراء المقدّمين والعشرات ؛ وكان سبب توجّهه إلى الفيوم أن خاير بك من حديد أنشأ هناك ضيعة ، وجعل بها طاحونا تدور بالماء ، وأنشأ بها بستانا حافلا ، فتوجّه السلطان ليرى ذلك . ــ وفيه خسف جرم القمر خسوفا تاما حتى أظلم الجوّ ، وأقام الخسوف نحوا من أربعين درجة .

وفى ذى الحجة كان عيد النحر يوم الجمعة ، وخُطب فيه خطبتان . ــ وفيه قدم قطب الدين الخيضرى من دمشق ، وقد أتى يشكو من برهان الدين النابلسى ، وقد تزايد ظلمه وجوره فى حق الناس جدا . ــ وفيه كان ختان أولاد الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان الختان بثغر دمياط ، فبعث السلطان إليه بألفى دينار بسبب احتياج المهمّ ، وتوجّه إليه ابن رحاب المغنى ومشى فى الزفة ، وكان له مهمّ حافل .

وفيه وصل مبشّر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأخبر بوفاة القاضى المالكى

(١٠) بوابين : كذا فى الأصل . (١٨) الخيضرى : الخضيرى .

محي الدين عبد القادر بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المعطى الأنصارى السعدى المالـكى ، قاضى مكة ، وكان عالما فاضلا فقيها نحويا ، ولى قضاء مكة مدّة (١٦٤ آ) طويلة ، وكان محمود السيرة . ـ وفيه توفى تنم الفقيه الأبو بكرى المؤيدى ، أحد الأمراء العشرات ، وكان صهر الشيخ أمين الدين الآقصراى ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى أينال الإبراهيمى الحـكيم الأشرفى ، أتابك حلب ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى جقمق المؤيدى أحد العشرات ، وكان دينا خيرا ، إنسانا حسنا لا بأس به .

ومن الحوادث اللطيفة أن فى أثناء هذه السنة ، أعنى سنة ثمانين وثمانمائة ، فيها كان ابتداء منشأ الأزبكية على يدى المقر الأتابكى أزبك من ططخ الظاهرى ، الذى نُسبت الأزبكية إليه ، أقول : وكانت هذه البقعة أرض ساحة خراب ، ذات كيمان فى أرض سباخ ، وبها أشجار أثل وسنط ، وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير ، وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم ، وكان فى هذه الأرض جامع خراب يسمى جامع الجاكى وهو باق إلى الآن ، وكانت هذه الأرض قديما عامرة بها المناظر والبساتين ، وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل ، ثم إن بعض الملوك حفر بها خليجا وأجرى إليه الماء من فم الخور ، وصار هذا الخليج يعرف بخليج الذكر ، وبقى من جمله مفترجات القاهرة ، وبنى على هذا الخليج قنطرة وفوقها تـكة للمتفرجين يجلسون عليها للفرجة ، وفيها يقول إبراهيم المعمار :

يا طالب التكة نلت المنا وفزت منها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها تـكة وتحتها تلقى خليج الذكر

واستمرّت هذه البقعة على ما ذكرناه إلى سنة خمس وخمسين وستمائة ، فلما تلاشى أمرها وضعف جريان الماء فى خليج الذكر ، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاون خليجه المسمى بالخليج الناصرى ، وذلك فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، فطمّ خليج الذكر وخربت مناظر اللوق التى (١٦٤ ب) كانت هناك ، وصارت هذه البقعة خربة مقطع طريق ، واستمرّت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت إليها أحد من الناس ؛

ثم إن شخصا من الناس عمد إلى سراب حمّام كانت هناك ، وفتح له بجمون من الخليج الناصرى ، فجرى فيــه الماء فى أيام زيادة النيل ، فلا زال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية ، فصار يدخل إليها الماء فى آخر الزيادة ويروى بها بعض أراضيها وتُزرع البرسيم والشعير .

واستمرّت على ذلك مدة إلى سنة ثمانين وثمانمائة ، فى دولة الملك الأشرف قايتباى ، فحسن ببال الأتابكى أزبك أن يعمّر هناك مناخا لجماله ، وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة ، فلما أن عمّر المناخ حلا له هناك العمارة ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوّار والمقعد والبيتات والحواصل وغير ذلك ، ثم إنه أحضر أبقار ومحاريث وجرف الـكيمان التى كانت هناك ومهّدها ، ثم حفر بهـا هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، وجدّد عمارة قنطرة خليج الذكر التى كانت قديمة ، ثم بنى على هذه البركة رصيفا محتاطا بها ، وتعب فى ذلك تعبا عظيما حتى تمّ له ما أراد من ذلك ، فكان فى قوة الحرّ يدور خلف المحاريث فى الـكيمان وغيرها ، وأصرف على ذلك مالا له صورة ما يزيد على مائتى ألف دينار ، وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة والأماكن الجليلة ، ولا زالت تتزايد فى العمارة إلى سنة إحدى وتسعمائة ، وقد رغب الـكثير من الناس فى سكنى الأزبكية ، وصارت مدينة على انفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع الـكبير وجعل به خطبة ، وأنشأ به المئذنة (١٦٥ آ) العظيمة ، وجاء غاية فى الحسن والزخرف والبناء ، وفيه يقول الشيخ شمس الدين القادرى :

بنى جامعـا لله يلتمس الرضى   به ونجـاة من أليم عقـابه
وفـكّر فى الحشر الذى عقباته   طوال يهول المرء قطع عقابه
فأكرمْ به من جامع مَنْ نوى به   فلم يخلُ منشيه إذًا من ثوابه
فيا فوز عبد مؤمن قد جنى به   ثمار أجور من رياض جنـابه
عظيم أجور لا ينوب منـابه   سواه لأجر نـال كل المُنا به

ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع والحمامات والقياصر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع ، وسكن فى تلك القصور وتمتّع بها مدة طويلة ، حتى مات وبقى له تذكار بالأزبكية ، وفيه يقول شمس الدين القادرى :

لأزبك مـولانا المقرّ عمـارة   بها السعد يسمو للنجوم الشوابك
بمملـكة الإسلام لم أر مثلهـا   ولا الناس طُرا فى جميع الممالك
بها جامع للحُسن أصبح جامعا   تقرّ به العينان من كل ناسك
به شُرّفت تلك العمارة واغتدت   مكرّمة عند المـلا والملايك
إذا قال قوم مَن أتى بك للعلا   تقول لهم سعد الأمير الأتابكى

وكان يوم فتح سدّ هذه البركة تجتمع عنده الأمراء المقدّمون بالقصر ، وتأتى الناس أفواجا للفرجة ، ويكون لها يوم مشهود ، وكان يصنع بها فى كل سنة وقدة حفلة ، وتُحرَق بها حراقة نفط ، وتدخل إليها المراكب قاطبة ، ويكون لها ليلة حافلة لم يسمع بمثلها ، وتنفق بها فى تلك الليلة أموال جمّة بسبب الفرجة بها ، وتضرب حول البركة عدّة خيام ، ويقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة ، وتكون ليلة حافلة ؛ وقد ألّف فى هذه الأزبكية شيخنا الشيخ شمس الدين القادرى (١٦٥ ب) مقامة لطيفة ، كلها غُرر ، تشتمل على نثر ونظم ، وقد أوردتها بالتمام والكمال فى كتابى « نزهة الأمم فى العجائب والحكم » انتهى ذلك ؛ ولما كملت عمارة الأزبكية ودخل الماء إلى بركتها أنعم السلطان قايتباى على الأتابكى أزبك بأرضها ، وكتب له بذلك مربّعة شريفة ، وكانت أرض الأزبكية وقفا على خزائن السلاح .

وفى هذه السنة توفى الشيخ نور الدين على بن بُرد بك الحنفى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى نظمه ، وله نظم جيد ، فمن ذلك قوله :

نُعمان خـدّ حبيبى   قد جاءه الخال يسعى
فورّث الخال حسنا   وقال بالإرث شرعا

(١٩ـ٢٢) وفى ـ شرعا : كتبت فى الأصل على هامش صفحة ١٦٤ ب .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم خرج الأتابكى أزبك ، ومعه عدّة من الأمراء والجند ، إلى قتال عربان لبيذ ، وكان قد تزايد شرّهم ، فلما توجّه إليهم تقاتل معهم وقبض على جماعة منهم ، وقاسى العسكر مشقّة زائدة ، وطردوا خلفهم إلى الأودية المعطشة ، حتى بلغ الكراز الماء إلى أكثر من دينار . ـ وفيه تغيّر ماء النيل عند نزول النقطة فى لونه وطعمه ، حتى نفر منه طبع الناس جدا ، وصاروا يشربون من الآبار والصهاريج . ـ وفيه توفى الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش ، وهو محمد بن عبد الرزّاق ابن أبى الفرج ، وكان أصله من الأرمن ، وكان ريسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : الأستادارية الكبرى ، ونقابة الجيش ، وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن الفرنج قد أطلقوا من كان عندهم من التجار الذين كانوا أسروهم ، وقد اشتروا أنفسهم بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج ، واستمرّ ابن عُليبة من يومئذ مريضا إلى أن مات بعد مدّة . ـ وفيه رسم السلطان بشنق حُذيفة بن نصير الدين ، وكان رأس المفسدين ، وشنق معه ثلاثة أنفار من أصحابه .

وفى صفر أخلع السلطان على قطب الدين الخَيضرى وأعاده إلى قضاء الشافعية وكتابة السرّ بدمشق على عادته ، وغرم جملة مال فى هذه الحركة . ـ وفيه خرج الأمير يشبك إلى جهة الوجه القبلى ، (١٦٦ آ) بسبب محاربة يونس وأخيه أحمد أولاد ابن عمر . ـ وفيه توفى مُمحق الفقيه الخاصكى ، وكان دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . ـ وفيه توفى الشيخ تقى الدين الحصنى الشافعى ، وهو أبو بكر بن محمد بن شادى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه والعربية وغير ذلك من العلوم ، وكان دينا خيرا لا بأس به ، وولى عدة تداريس ، منها تدريس المدرسة الصلاحية التى بجوار قبّة الإمام الشافعى رضى الله عنه ؛

---

(١١) الذين : الذى .

فلما مات قرّر بها الشيخ زين الدين زكريا الأنصارى عوضا عن الحصنى . ـ وفيه توفى قاضى القضاة صلاح الدين أحمد المعروف بالمكينى ، وهو أحمد بن محمد بن بركوت الحبشى التاجر الكارمى ، وكان عالما فاضلا ريسا حشما ، ربيب قاضى القضاة علم الدين صالح البُلقينى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها حسبة القاهرة ، ثم ولى قضاء الشافعية ، وغرم بسببه مالا له صورة ، ولم يمكث فى القضاء سوى مدّة يسيرة وعزل عنها .

وفيه حضر نجاب من مكة وأخبر بوفاة القاضى شرف الدين الأنصارى ، وهو موسى بن على بن سليمان التتاى الشافعى ، وكان ريسا حشما غير خال من فضيلة ، عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا حسن الرأى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الجيش ، ونظر الخاص ، ووكالة بيت المال ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، حتى عُدّ مدبّر المملكة ، وكان مولده بعد العشرين من قرن الثمانمائة . ـ وفيه أرسل نائب الشام ، جانى بك قلقسيز ، هدية حافلة للسلطان ، من جملتها من الذهب النقد عشرة آلاف دينار ، وعدّة حمالين ما بين صمّور ووشق وسنجاب وصوف وغير ذلك .

وفى ربيع الآخر وقع حريق عظيم بباب السلسلة ، واحترق من خيول السلطان الخاص ستة أرؤس ، وقد أعيى المماليك عن طفيه ، وهدم من سور باب السلسلة جانب عظيم . ـ وفيه فى ثالث مسرى (١٦٦ ب) كان وفاء النيل المبارك ، وتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان يوما مشهودا . ـ وفيه توفى نائب الإسكندرية قانم قُشير الظاهرى ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى عاد الأمير يشبك الدوادار من بلاد الصعيد ، ولم يظفر بأولاد ابن عمر . ـ وفيه قرّر فى أمرة الحاج ركب المحمل تانى بك الجمالى الظاهرى ، أحد مقدمين الألوف ، وقرّر آقبردى الأشرفى أمير الركب الأول . ـ وفيه حضر إلى الأبواب الشريفة قانصوه اليحياوى نائب حلب ، وكان قد أشيع عنه أنه خرج عن الطاعة ، فلما حضر أخلع عليه السلطان باستمراره ، وبطل تلك الإشاعة عنه ، وكان القائم فى أمر مساعدته الأتابكى أزبك أمير كبير .

---

(٢٠) مقدمين : كذا فى الأصل .

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى خليج الزعفران لضيافة الزينى أبى بكر بن عبد الباسط ، فأضافه ضيافة حافلة ، ثم ركب من خليج الزعفران وتوجّه إلى الخانكه فصلّى بها صلاة الجمعة ، وأضافه هناك الأمير يشبك الدوادار ضيافة حافلة .

وفى رجب وقع بالقاهرة زلزلة فى الليل ، وكانت مهولة ، وقع منها بعض أماكن ، ولو أنها دامت درجة أخرى حصل منها غاية الضرر للناس . ـ وفيه تعطّلت أسباب الناس لأجل الفلوس العتق ، وكثر الضرر منها على البائع ، وصار النصف الفضة يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق ، وصارت البضائع بسعرين ، سعر الفضة شىء ، وسعر الفلوس شىء ، فحصل بسبب ذلك للناس غاية المشقّة . ـ وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وبين خاير بك من حديد تشاجر بالقلعة ، فخنق منه الأمير يشبك ولكمه بيده ، فأرمى تخفيفته عن رأسه ، فدخلت بينهما الأمراء وخلّصوا بينهما ، واستمرّت القلوب معمّرة بالعداوة ، حتى كان من أمر خاير بك من حديد ما سنذكره فى موضعه .

وفى شعبان (١٦٧ آ) نزل السلطان إلى الرماية وعاد فى موكب حافل ، لكنه لم يشقّ من القاهرة وطلع من بين الترب ، وقد تكرّر نزوله إلى الرماية فى هذا الشهر ثلاث مرار ، وهو يطلع من بين الترب ولا يشقّ من المدينة ، وسبب ذلك لأجل الفلوس الجدد حتى لا تشكوا له الناس من ذلك .

وفى رمضان نودى على الفلوس بستة وثلاثين الرطل بالميزان ، وأبطل عددها ، ونودى على الفضة المضروبة بأن لا يتعامل بها إلا بالميزان ، وكذلك الذهب ، وكانت الفضة قد خفّت جدا فصارت تخرج بالميزان ، وكذلك الذهب ، وبطل أمر المعاددة . ـ وفيه أشيع بين الناس بأن السلطان يتزايا بزىّ المغاربة وينزل إلى جامع الأزهر ويصلّى به ، وكان يسأل فى بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ، ووقع له مع الناس فى هذا الأمر أشياء غريبة يطول الشرح فى ذكرها ، وبعض الناس كان يحطّ عليه فى أفعاله وهو يسمع ذلك بأذنه ممن يسأله . ـ وفيه توفى جانى بك المشد ،

وكان موته فجأة بعد أن صلّى التراويح ، وكان قد شاخ وكبُر سنّه ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وولى شادية الشراب خاناه فى دولة الأشرف أينال ، ثم بقى مقدم ألف ، ونفى إلى القـدس فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر إلى القاهرة فى دولة الأشرف قايتباى ، ومات وهو طرخان .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة على العادة ، وفُرّقت الخلع والصرر على الفقهاء . ـ وفيه فشى أمر الطاعون بالقاهرة ، وهذا الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ومات به فى هذا الشهر القاضى عبد الـكريم بن جلود ، وهو عبد الـكريم ابن أبى الفضل محمد بن إسحق القبطى ، وكان ريسا حشما ، وولى كتابة المماليك بعد أبيه ، وكان فى حداثة سنّه لم يلتح ، وباشرها أحسن (١٦٧ ب) مباشرة ، وكان له حرمة وافرة ، وكان مولده قبل السبعين والثمانمائة . ـ وفيه توفى قانصوه رفرف الإبراهيمى ، وكان من أعيان الخاصكية مقرّبا عند السلطان ، شابا مليح الشكل حسن الهيئة ، كثير الأدب والحشمة ، عارفا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

وفى شوال تزايد أمر الطاعون بالقاهرة ، وفتك فى المماليك والأطفال والعبيد والجوار والغرباء فتـكا ذريعا ، وكان طاعونا مهابا يموت منـه الإنسان فى يومه ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

لهفى على مصر وولدانها أضحوا إلى الموت يساقونا
ما نشر الفَصل سهام الردى عليهمُ إلّا طواعينـــا

وفى هذا الشهر حضر دولات باى النجمى الأشرفى ، حاجب الحجاب بدمشق ، وكان السلطان قد تغير خاطره عليـه ، فلما حضر أخلع عليه وأظهر له الرضى . ـ وفيه وصل السيد الشريف على بن بركات أخو أمير مكة ، وكان حضر قبل ذلك إلى القاهرة ، فمشى السلطان بينه وبين أخيه بالصلح وتوجّه إلى مكة ، فأقام بها مدّة يسيرة ووقع بينه وبين أخيه ثانيا ، فعاد إلى القاهرة هو وولده ، فأكرمه السلطان ورتّب له ما يكفيه ، وأقام بمصر حتى مات . ـ وفيه أخلع السلطان على قراجا السيفى جانى بك نائب جدّة ، وقرّره فى نيابة جدّة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحـكم

انفصاله عنها . ــ وفيه خرج الحاج من القاهرة على عادته ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذى القعدة تناهى أمر زيادة الطاعون ، ومات فيه من الأعيان جماعة كثيرة، منهم الشيخ المسلك العارف بالله الولى الصالح محمد بن أحمد بن محمد التونسى الشاذلى الوفاى ، المعروف بأبى المواهب ، رحمة الله عليه ، وكان أصله مغربيا يعرف (١٦٨ آ) بابن زغدان ، وكان عالما صوفيا محقّقا ، أخذ عن أبى السيادات بن أبى الوفاء ، وألّف عدة أحزاب جليلة ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ، ودفن بتربة الشاذلية التى بالقرافة ؛ وتوفيت أخت السلطان خوند جان‌تين الجركسية ، وكانت لا بأس بها ؛ ومات جكم المصارع الأشرفى الخاصكى ، وكان لا بأس به ؛ ومات طوغان شيخ المحمدى الأشرفى ، وكان فى عشر الثمانين ، وله اشتغال بالعلم ؛ ومات الشيخ عبد الكريم السيواسى الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل ؛ ومات عيسى بك أخو شاه سوار وكان مقيما بالقاهرة ؛ ومات كسباى من ولى الدين الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادار ثانى فى دولة الظاهر تمربغا ؛ ومات تمرباى كاشف الشرقية ، وكان من مماليك السلطان ، وكان أمير عشرة ، فلما مات قرّر عوضه فى الكشوفية على باى ، الذى ولى نيابة الإسكندرية فيمابعد ؛ ومات كرتباى كاشف البحيرة ، وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جدّة ، ثم ظهر أنه قرابة السلطان .

وفى هذا الشهر توفى العلامة الإمام العالم العامل الشيخ سيف الدين الحنفى ، وهو محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا التركى القاهرى ، وكان عالما فاضلا وارعا زاهدا ، خيرا دينا صالحا ، ماهرا فى الفقه والحديث ، وولى مشيخة الجامع المؤيدى ، ومشيخة الخانقاة الشيخونية وغير ذلك من التداريس ، وكان متقشفا زاهدا عن أبناء الدنيا ، ومولده سنة ثلاث وثمانمائة ، وكان من خيار الحنفية ، ولما مات رثاه شيخنا الجلال الأسيوطى بهذه الأبيات :

مات سيف الدين منفردا   وغدا فى اللحد منغمدا
عالم الدنيا وصالحها   لم تزل أحواله رَشَدا
ناصر دين النبىّ إذا   ما أتاه مُلحد كمدا

(١٦٨ ب) فى الذى قد كان من ورع   لم يخلّف بعده أحـدا
لم يكن فى دينـه وَضَن   لا ولا للـكبر منه ردا
عمره أفنـاه فى نصب   لآله العرش مجتهـدا
من صلاة أو مطـالعة   أو كتاب الله مقتصدا
ليت شعرى مَن نؤمّله   بعد هذا الحبر ملتحدا
ثُلمة فى الدين موتته   ما لها من جابر أبدا
قد رَوَيْنا ذاك فى خبر   وهو موصول لنا سندا
فعليـه هامعـات رضى   ومن الغفران سُحب ندا
وبُعننـا ضمن زمرته   مع أُهيل الصدق والشُهدا

وفى ذى الحجة فحش الطاعون جدا ، ومات من مماليك السلطان نحو من ألفين مملوك وزيادة ، خارجا عن المماليك السيفية والقرانصة ، ومات من الطواشية نحو من خمسة وعشرين طواشيا ، حتى قيل إن السلطان حمل بطيخة صيفى بنفسه حتى دخل بها إلى دور الحرم لقلّة الطواشية . ـ وفيه توفى يلباى الأعور أحد العشرات ، وهو من مماليك السلطان ؛ ومات قان بردى المحمدى الأشرفى أحد العشرات رءوس النوب ؛ ومات أمير عربان هَوّارة سليمان بن عيسى ، وكان فى السجن .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى الجامع الأزهر ، وكان معه كاتب السرّ وبعض أمراء ، فلما دخل الجامع طلب قضاة القضاة وصعد وإياهم إلى سطح الجامع ، ورسم بهدم ما كان بسطح الجامع من الخلاوى ، وحكم القاضى المالـكى بهدم الجميع ؛ ثم إنه رسم بترميم ما فسد من عمارة الجامع ، وأصرف على ذلك نحوا من عشرة آلاف دينار ؛ وفى ذلك اليوم تصدّق على الفقراء المقيمين بالجامع بنحو من ألف دينار ، ثم ركب وعاد إلى القلعة ، وكان (١٦٩ آ) الطعن عمالا .

وفيه دخل مبشّر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الموت كثير بمكة بعلّة البطن ، وكان قبل دخول الحاج يموت بها نحو من أربعين إنسانا فى كل يوم . ـ

(١٠) ألفين : كذا فى الأصل .

وفيه مات بالطعن من الأعيان سيدى إسماعيل بن الأمير لاجين ، وكان بارعا فى فن الصراع. ــ وفيه مات بالطعن سيدى عمر بن الأمير دولات باى الدوادار المؤيدى، وكان شابا حسن الشكل ، جميل الوجه ، بهى المنظر ، كما بدا عِذاره ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وفيه يقول بعض الشعراء :

سعيتُ نحو حبيبي سعى مجتهد وطُفتُ حول حماه وانقضى الوطر
فمن له عُمرةٌ فى عمره اغتنمتْ فلى بسعيي على طول المدى عُمَرُ

وفيه مات بالطعن سيدى محمد بن الأمير يونس العلاى أمير آخور كبير كان ، وكان من أعيان أولاد الناس . ــ وفيه توفى الجناب الناصرى محمد بن سيدى يعقوب ابن أمير المؤمنين محمد المتوكل ، وهو والد سيدى خليل ، وهو ابن أخى أمير المؤمنين يوسف المستنجد بالله ، وكان ريسا حشما ، وكان ترشح أمره ليَلى الخلافة بعد الجمالى يوسف ، فما تمّ ذلك .

وفيه مات محمد الصغير الكاشف ، وكان كبر سنّه وشاخ ؛ وتوفى بهادُر من يشبك الظاهرى ، أحد مقدمين الألوف بدمشق ؛ ومات تمرباى الجلب نائب قلعة حلب ، وكان من مماليك السلطان ؛ ومات كسباى والد جانى بك الفقيه أمير سلاح، وكان قدم من بلاد الجركس ؛ ومات قانصوه نائب عينتاب، وكان من مماليك السلطان؛ ومات قايتباى من نوكار الظاهرى ، أخو الأمير قرقماس الجلب ، وكان من مماليك الظاهر خشقدم ؛ ومات يشبك الإبراهيمى الأينالى أحد العشرات ورءوس النوب ؛ ومات فى هذا الطاعون من الأمراء العشرات والخاصكية ما لا يحصى عددهم ، (١٦٩ب) وكان ممن مات بالطعن بطرك النصارى اليعاقبة المسمى ميخائيل المنفلوطى، وكان مشكورا فى بطركته محمود السيرة عند أهل ملّته ؛ ولما دخل خماسين النصارى خفّ أمر الطاعون بالنسبة لما كان عليه ، بعد ما أفنى من الناس ما لا يحصى . ــ وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، بسبب فقد أولادهم وعيالهم ، وما قاسوا فى هذه السنة خيرا .

---

(١٣) مقدمين : كذا فى الأصل .

ومما عُدّ من محاسن الأمير يشبك الدوادار ، وهو المغسل الذى فتحه عند مدرسة السلطان حسن ، فحصل للناس به غاية النفع لأجل تجهيز الموتى ولا سيما الغرباء ، وقد حاز به غاية الأجر والثواب ؛ ومما عُدّ من محاسنه أيضا أنه ركب يوما إلى جهة المطرية ، فوجد فى طريقه شيخا هيئة فلاح ، وهو قاصد للقاهرة ومعه قُفّة على كتفه ، وكان وقت انفجار الصبح ، فعبث عليه الأمير يشبك ، وقال له : ما فى قُفتك ؟ فقال: بيض جيت به لأبيعه وأشترى لأولادى بثمنه خبزا ، فإن معى ثلاث بنات ، فقال له الأمير يشبك : كم هم بيضة أنا أشترى منك ذلك ، فأخرج له الشيخ ما فى القفّة من البيض ، فقال له : عدّهم ؛ فعدّهم فإذا هم عشرون بيضة ، فأخذ منه ذلك البيض ودفعهم للغلام ، ثم رسم لمن خلفه من المماليك بأن يدفع لذلك الشيخ عشرين دينارا ، وقال له : لو كان معك أكثر من ذلك لدفعت لك فى كل بيضة دينارا ، وقد اختُلف فى عدد البيض التى كان مع الشيخ ، قيل إنه كان أكثر من عشرين بيضة ، فدفع له فى كل بيضة ديناراً ، فعُدّ ذلك من النوادر اللطيفة ، وكان الأمير يشبك الدوادار فيه المحاسن والمساوىء كما قيل :

ترجى وتخشى حالتيك الورى (١٧٠ آ) كأنك الجنة والنار

انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم وصلت رأسُ أمير عرب ، وكانت قد قطعت بالوجه القبلى ، فلما حضرت إلى القاهرة طيف بها ، ثم علقت على باب زويلة . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير أحمد بن عمر الهوّارى قد فرّ من الصعيد ، فلما فرّ أخلع السلطان على الأمير يشبك الدوادار ، وقرّر فى أمرة هوّارة ، عوضا عن الأمير أحمد بن عمر ، فعُدّ ذلك من النوادر . ـ وفيه توفى قانصوه قُطُز المحمدى الأينالى ، وكان أحد العشرات ورءوس النوب ؛ ومات جانم الأصفر أخى السلطان ، وكان أحد العشرات ورءوس النوب .

وفيه وصل الحاج مع السلامة ، وحُمدت سيرة تانى بك الجمالى أمير ركب المحمل . ـ وفيه توفى الأمير دولات باى النجمى الأشرفى ، حاجب الحجاب بدمشق ، وكان من أعيان الأشرفية . ـ وفيه توفى الصاحب شرف الدين يحيى بن الصنيعة القبطى ، وكان ريسا حشما لا بأس به تولّى الوزارة عدّة مرار . ـ وفيه نزل السلطان ومعه جماعة من الأمراء فتوجّه إلى نحو المباسة والصالحية ، وكشف عن الجامع والسبيل والحوض الذى أنشأهم هناك ، فأقام بالمباسة أياما ، ثم عاد إلى القلعة .

وفى صفر توفى الطواشى جوهر النوروزى الحبشى ، مقدّم المماليك ، ثم الزمام ، وكان دينا خيرا ، وأصله من خُدّام الخواجا شمس الدين بن المزلق ، ثم وهبه لابنته زوجة نوروز الحافظى ، فنُسب إليه . ـ وفيه توفى شرف الدين موسى بن كاتب غريب ، وهو موسى بن يوسف القبطى ، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وكان (١٧٠ ب) غير مشكور السيرة وعنده عسف وظلم ، فمات والناس عنه غير راضية .

وفيه شرع الأمير يشبك الدوادار فى أمر توسيع الطرقات والشوارع والأزقة ، فأمر القاضى فتح الدين السوهاجى أحد نواب الشافعية بأن يحكم بهدم ما وُضع فى الشوارع والأسواق ، بغير طريق شرعى ، من أبنية وربوع وحوانيت وسقايف ورواشن ومصاطب وغير ذلك ، فقام القاضى السوهاجى فى ذلك قيام الجاه ، وحكم بهدم عدة ربوع وحوانيت وسقايف وغير ذلك ، واستمر الحال فى أمر الهدم حتى دخلت سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، فحصل بذلك بعض نفع فى توسيع الطرقات ، ولكن حصل غاية الضرر لجماعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوانيتهم ؛ وهُدم لخوند شقرا ابنة الملك الناصر فرج ثلاثة ربوع فى الموازنيين ، أحدهم كان تجاه جامع الصالح خارج باب زويلة ؛ فاضطربت أحوال القاهرة وكثر الهدم فى الأماكن ، ولا سيما المطلّة على الشوارع ، وحصل على القاضى فتح الدين السوهاجى غاية المقت من الناس بسبب حكمه لهدم الأماكن ، وفى هذه الواقعة يقول الشهاب المنصورى :

(٢٠) تجاه : بجاه .

تكشّفت عن محيّا مصر أستار   وخفّ عنها من الأثقال أوزار
واهتزّت الأرض منها بهجة وربت   ولاح فيها إضاءة وأنوار
كانت كصبح تعالت فوقه ظلم   شتى ففاجأها بالنور أسفار
كانت كشمس تغاشاها الغمام ضُحًى   فمزّقته من الأرياح أعصار
فاليوم أعطافها بالبشر مايسة   وقدّها فى حلىّ السعد خطّار
وكانت الطرق قد شابت مفارقها   والشيب إن شان ما فى أخذه عار
(١٧١آ)وأصبحت أوجه الأرضين مسفرة   وزال عنهن إقتار وأقذار
تتيه زهوا على الأمصار قاطبة   وبازها بجناح النسر طيّار
ألا تراها اكتست حلى البياض   ولولا ذاك ما اتّضحت للناس أقطار
كأنها روضة بالقطر قد غُديت   وزانها من وجوه البيض أزهار
فالبعض منها يهنّى البعض منه على   كشف الغموم والإعسار إيسار
فبعض أبوابها بالنصر مشتهر   وبعضها لفتوح الرزق مختار
وللسعادة باب عنده فرج   كلاها لأخيه فى الهنا جار
وأما زويلة زالت عنه كربته   وللدخول به كم دُقّ مسمار
دَقّت مساميره طاراتها فرحا   وفيه للريح تشبيب ومزمار
حيّت شوارعه للناس فاتسعت   واستشرقت منه أسواق وأسوار
كانت حوانيته تشكو الثيوبة من   وَطْىِ الحوافر وهى اليوم أبكار
وخرق عادة باب الخرق يرفعه   من العناية بَنّاء ونَجّار
واليوم ساكنه فى جنّة وجرت   من تحتها لأولى الأبصار أنهار
والقوس من بابها جنّتْ لجاذبها   طوعا وأصمّتْ من الأعداء أوتار
(١٧١ب) وباب قنطرة والبحر فى عجب   من باب شعرية لم تحوِ إيزار
وأما الجوامع قد فكّت جوامعها   عنها ففيها تسابيح وأذكار
لجامع الصالح استوفى مصالحة   حتى كأنّ المشايا فيه أبكار
لما شكا الناس من مصر مضايقها   وحار فيها من الحُكّام أفكار

فما تلقّى أجور القـاطنين بهـا … إلا الأمـير الذى بالعرف أمّار
فهو الهمام النظـام المرتقى درجا … ت الفضـل يشبك مولانا الدوادار
ذو الحزم والعزم مَن فى الخافقين له … أمرٌ ونَهْىٌ وإيراد وإصـدار
فشـدّ حبـل قواه وهو منتهض … وسـلّ سيف سطاه وهو بتّـار
لولا عزايمـه فى مصر ما حسنت … والدوح ييبس ما لم تَهْمِر أمطار
له على الحق إقبـال يليـق به … طبعا وعن زُخرف الأقوال إدبار
مذ قام يُحيِي من الأرض التى اندرست … أمواتهـا ساعدت عَليـاه أقدار
وكيف لا وعزيز النصر جاء له … مهاجرا وله الأيام أنصـار
فكم تجلّت بوجه منـه مَظلمة … وكم تحلت بمين منـه آثار
إن رُمتَ حَصْر يسـير من مناقبه … فدون ذلك أزمان وأعمـار
ودّت محاسن مصر أن يكون لهـا … إلى محاسنه سمع وإبصـار
هذا اعمرى هو النَدْب الذى افتخرت … مصر به فهى حُسْنا نعمـة الدار
لا زال روض أمان للأنام به … ظِلّ مدا الدهر ممدود وأثمـار
(١٧٢ آ) ما ماست الدوح بالأكام راقصة … وما تغنّت على العيـدان أطيار

انتهى ذلك . — وفيه تغيّر خاطر السلطان على برهان الدين النابلسى وكيل بيت المال ، فقبض عليه وسلّمه للأمير يشبك الدوادار ليستخلص منه الأموال ، فاستمرّ الأمير يشبك يعاقبه ، فاستخلص منه جملة أموال لها صورة ، وآخر الأمر مات تحت العقوبة أشرّ موتة ، وقد أذاقه أنواع العذاب وتفنّن فى عذابه تفنينا ، قيل إنه ضربه عدة مرار نحوا من ألفين وستمائة عصاة ، وقلع أدراسه ودقّهم فى رأسه ، وغير ذلك من أنواع العذاب ؛ وكان أصله من دمشق ، وهو إبراهيم بن ثابت ، وكان أحد نواب الشافعية ، وله اشتغال بالعلم ، لكنه أدخل نفسه فى أمور السلطنة ، وطاش وظلم الناس وجار عليهم ، ولم يتفكر فى عقبى ذلك ، فأُخذ من الجانب الذى أمن إليه ،

(١٧) منه : منهم. (١٩) ألفين : كذا فى الأصل . || أدراسه : كذا فى الأصل.

بعد أن عادى جميع الناس من بمصر والشام ، حتى الأمراء وأعيان الدولة ، وشق لنفع غيره حتى سُلب من المال والروح . ــ وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة ، فأكرمه السلطان ، وأعاد له الجواب ، وسافر بعد أيام .

وفى ربيع الأول أخلع السلطان على الصاحب خشقدم الأحمدى ، وقرّر فى الخازندارية الكبرى والزمامية ، عوضا عن جوهر النوروزى ، فعظم أمره جدا ، وصار وزيرا وخازندارا وزماما ؛ وقُرّر مثقال الساقى الظاهرى ، رأس نوبة السقاة ، وكانت بيد خشقدم أيضا . ــ وفيه أخلع على القاضى تاج الدين بن المقسى ، وقرّر فى الأستادارية ، عوضا عن الأمير يشبك وقد استعفى منها ، فصار ابن المقسى أستادارا وناظر الخاص ، فعظم أمره جدا ، وكان ذلك معظم نهايته ومنتهى سعده .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان يوما حافلا ، وحضر القضاة الأربعة وسائر (١٧٢ ب) الأمراء . ــ فلما انقضى أمر المولد نزل من القلعة فى يوم السبت رابع عشره وعدّى إلى برّ الجيزة ، ولم يشعر به أحد من الناس ، وقصد التوجّه إلى ثغر الإسكندرية ، فسافر من البرّ وجهّز سنيحه من البحر فى مراكب ؛ وسافر صحبته من الأمراء الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدّة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، والجمّ الغفير من الخاصكية والماليك السلطانية ، وسافر معه سائر المباشرين ؛ وكان القاضى كاتب السرّ ابن مزهر متوعكا فى جسده ، فخرج وسافر مع السلطان وهو عليل ؛ وكان القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان مريضا على غير استواء ، فتخلف بالقاهرة ولم يسافر مع السلطان ، وإنما سافر معه ولده عبد الغنى .

فلما وصل السلطان مدينة الإسكندرية زُيّنت له زينة حافلة ، وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال وهو بالشاش والقماش ، وكذلك قجماس الإسحاقى نائب ثغر الإسكندرية ، واصطفّت الناس فى شوارع المدينة بسبب الفرجة ، فدخل السلطان فى موكب حافل ، وجميع من معه من العسكر ملبسين آلة السلاح بالعدد الكاملة ، والأتابكى أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد

بين يديه قدّام الأمراء ، وقدّامه أعيان المباشرين وأرباب الدولة ، وطلب طُلْبا حافلا وجرّ فيه مائتين وخمسين فرسا ، منها خمسون فرسا بالسروج الذهب والـكنابايش ، والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات والجواغين المـكفتة بالذهب والفضة ، والبقية من المخمل الملون ، وفى الطُّلْب لجاوتين زركش ، وهى التى تعرف الآن بالجوشن ، ولعبوا قدّامه بالغواشى الذهب والأوزان عمالة والشبابة السلطانية ، ومشت قدّامه الأمراء الرءوس النوب بالعصى ، فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما شقّ من مدينة الإسكندرية سقط الطائر الذهب من على القبة ، فنزل الأمير يشبك الدوادار عن فرسه وثبّت الطائر على القبة ، ثم ركب على فرسه ومشى ؛ ثم إن بعض تجار الفرنج (١٧٣ آ) نثر على رأسه لما شقّ المدينة ألف بندقى ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فـكاد السلطان أن يسقط عن ظهر الفرس من شدة ازدحام الناس عليه ، حتى أدركه الأمير تمراز رأس نوبة النوب وفى يده عصاة ، فضرب بها الناس حتى خلص السلطان ومشى ، واستمرّ فى ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح ؛ وكان من العادة القديمة أن السلطان إذا دخل إلى مدينة الإسكندرية ، تُفَكّ أبواب المدينة وتُلق على الأرض إلى حين يرحل السلطان عن المدينة ، فلم يوافق السلطان قايتباى على فكّ أبواب المدينة ، وأبقى كل شىء على حاله .

وهـــذا من عهد الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون لم يدخل الإسكندرية سلطان ، وقد دخلها مرتين ، المرّة الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، لما طرق الفرنج ثغر الإسكندرية ، فدخلها على جرايد الخيل ؛ وأما فى المرة الثانية كان سنة إحدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزُيِّنت له مدينة الإسكندرية ، وفرش له خليل ابن عرّام ، نائب الإسكندرية ، الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ومشت بين يديه الأمراء ، وكان له بها يوم

مشهود ، وكان دخوله من باب رشيد فإنه كان فى تروجة ، وتوجّه من هناك إلى الإسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد إلى القلعة .

ثم توجه بعده للإسكندرية الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصّة يشكو فيها من ظلم القُبّاض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث (١٧٣ ب) إلى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وعُدّ ذلك من محاسن الناصر فرج ، انتهى ذلك .

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف قايتباى ، فلما نزل بالخيم مدّ له هناك قجماس نائب الإسكندرية مَدّة حافلة ، ثم أخلع على الملك المؤيد ونائب الإسكندرية ، ورجعا إلى دورهما وصحبتهما الأمراء قاطبة ؛ فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب بالكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجّهوا معه ، ودخل عليه من تجار الإسكندرية تقادم حافلة ؛ ثم إنه توجّه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا معظما ، وهو الموجود الآن كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ؛ ثم إن السلطان رحل عن الإسكندرية وتوجّه إلى نحو إدْكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان فى هذه السرحة إلى الغاية ، واستمرّ يرحل من مكان إلى مكان على سبيل التنزّه نحوا من أربعين يوما حتى عاد إلى القلعة ، فلما عاد من هذه السفرة طلع من بين الترب ، ولم يشقّ من القاهرة ، ولم يوكب عند طلوعه إلى القلعة .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان جاء قاصد من عند قَراجا الطويل نائب حماة ، وأخبر أن أهل حماة ثاروا على النائب ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواداره وأحرقوه بالنار بسبب ظلمه وعسفه فى حقّ الرعية ؛ فلما بلغ السلطان هذا الخبر عيّن من هناك خاصكيا لكشف الأخبار ، ليرى من هو الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ؛ وأخبر بوفاة قاضى القضاة المالكية بمكة ، وهو محمد

أبو اليمن بن أبي السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن بركات وبين قبيلة (١٧٤ آ) بنى جازان ، وحصل بينهما ما لا خير فيه ، وآل الأمر إلى أن الشريف محمد قبض على شيخ بنى جازان .

وفى ربيع الآخر كان وفاء النيـل المبارك ، وقد أوفى فى آخر يوم من أبيب ، وكُسر فى أول يوم من مسرى ، فعُدّ ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره   إذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولـكن بعد الـكسر زاد تجبّرا   وأفرط هجما فى القرى وتجسّرا

وقال آخر :

إن بحر النيل قد وفّا لنا   ما عليـه من قديم قُرّرا
وقضـانا الدين إلّا أنه   حين وفّا ما عليه انـكسرا

وكان الوفاء فى غيبة السلطان ، فتوجّه الأمير لاجين أمير مجلس وفتح السدّ على العادة بأمر تقدّم من السلطان له ، وكان يوما مشهودا . ـ وفى هذا الشهر كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ، وهو شاكر بن عبد الغنى بن شاكر القبطى ابن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل المصرى ، متـولّى ديوان الجيش ، وكان ريسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين ، وكان عنـده تواضع زائد للناس قاطبة ، وله اشتغال بالعلم ، ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى ، وكان نادرة فى بنى الجيعان ، ولم يجئ فيهم مثله فيما ناله من العزّ .

وفيـه وصل السلطان إلى القاهرة وطلع إلى القلعة ، وكانت مدّة غيبته فى هذه السفرة نحو شهر وأيام ، ودخل له جملة تقادم حافلة ، فلما استقرّ بالقلعـة أخلع على الشرفى يحيي بن شاكر بن الجيعان ، وقرّره فى وظيفة والده . ـ وفيه توفى ريس الطب والـكحل عبد اللطيف بن عبد الواحد بن العفيف ، وكان ريسا حشما وأصله من الملـكية ، ومولده سنة (١٧٤ ب) عشرين وثمانمائة .

---

(١٩) غيبته : غيبة .

وفى جمادى الأولى عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، وقرّر من اختاره منهم فى وظائف ، مثل : طبردارية ، وجمدارية وغير ذلك . ـ وفيه أخلع السلطان على شمس الدين القوصونى ، وقرّره فى رياسة الطبّ ، عوضا عن ابن العفيف . ـ وفيه كان انتهاء عمارة قاعات الأزبكية التى أنشأها الأتابكى أزبك ، فعزم على السلطان هناك ، فنزل إليه وبات عنده ، فأضافه ضيافة حافلة ، ثم قدّم له تقادم حافلة ، فشكره على ذلك ولم يقبل منها شيئا ؛ فلما أصبح توجّه هو والأمير يشبك الدوادار إلى جهة المطرية ، فأضافه هناك الأمير يشبك فى القبة التى أنشأها هناك ، فأقام عنده يومه وليلته وانشرح هناك إلى الغاية ، وشكر عمارة الأمير يشبك على عمارة الأتابكى أزبك ، ثم طلع إلى القلعة ، فلما طلع إلى القلعة بعث إليه الأمير يشبك تقادم حافلة ، فقبل منها شيئا وردّ عليه شيئا .

وفيه انتهت زيادة النيل المبارك إلى واحد وعشرين أصبعا من إحدى وعشرين ذراعا ، وثبت إلى آخر بابه ، وقد كسر الجسور ، وقطع الطرقات ، وغرقت أراضى المنية ، وكان نيلا عظيما . ـ وفيه أخلع السلطان على قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقرّر فى مشيخة الخانقاة الشيخونية ، عوضا عن الشيخ سيف الدين الحنفى ، بحكم وفاته ، وكان ابن الشحنة منفصلا عن القضاء .

وفى أثناء هذا الشهر خرج السلطان على حين غفلة من العسكر وتوجّه إلى الصالحية ، ثم بعد أيام أشيع بين الناس أن السلطان توجّه من هناك إلى نحو البلاد الشامية ، فتعجّب الناس من ذلك ، وكان فى نفر يسير من العسكر ، بحيث أن كان معه من المماليك نحو (١٧٥ آ) من أربعين مملوكا من خواصه ، وكان معه بعض أمراء عشرات ، منهم تانى بك قرا الدوادار الثانى وآخرون من الأمراء ، وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السرّ أبو بكر بن مُزهر ، وأبو البقا بن الجيعان ، والقاضى قطب الدين الخيضرى ، وكان من المقربين عند السلطان ، وشهاب الدين ابن التاج الموقع ، وبرهان الدين بن الكركى الإمام ، وغير ذلك ممن لا يحضرنى أسماؤهم الآن ؛ وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله يوسف ، والقضاة الأربعة ،

والأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وسائر الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ، وجميع العسكر قاطبة لم يتبعه منهم أحد ، فصار الناس فى شكّ من سفره على هذا الوجه ، ولم يتّفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة .

وفى جمادى الآخرة حضر هجّان من عند السلطان ، وعلى يده مراسيم إلى الأمراء الذين بالقاهرة ، فكان من مضمونها أن السلطان توجّه إلى نحو البلاد الشامية ليكشف على أمر النوّاب والقلاع بنفسه ، وأرسل يقول للأمراء بأن يتوصّوا بأحوال الرعية والجند ، وأن يحضروا تفرقة الجوامك ما دام السلطان غائبا ، وكان المشار إليه فى غيبة السلطان الأتابكى أزبك ، وقد عظم أمره جدا والتفّ العسكر عليه دون الأمراء . ـ وفيه فى غيبة السلطان توفى القاضى نور الدين على بن الإنبابى نائب كاتب السرّ ، وكان ريسا حشما عارفا بأحوال المملكة ، وكان إنسانا حسنا لا بأس به.

وفى رجب توجّه القضاة الأربعة إلى بيت الأتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وهنّوهما بالشهر . ـ وفيه خرج الأتابكى أزبك إلى السرحة ، فغاب أياما وعاد إلى القاهرة . ـ ومن جملة ألطاف الله تعالى أن فى غيبة (١٧٥ ب) السلطان لم يقع الخلف بين الأمراء ، بل كان الأمان والاطمان فى القاهرة وجميع ضواحيها ، حتى عُدّ ذلك من النوادر .

وفى شعبان وصل هجّان من عند السلطان ، وأخبر بأن السلطان دخل إلى حلب وأقام بها أياما ، وهو قاصد إلى جهة الفُراة ، وقد عرّج قبل دخوله إلى حلب إلى نحو طرابلس ؛ ثم حضر هجّان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام ، ومكاتبة للأتابكى أزبك بأن يتوجّه إلى المطعم الذى بالريدانية ويُلبّس الأمراء هناك الصوف ، وأن يصرف الكسوة للجند ، فخرج الأتابكى أزبك إلى المطعم وصحبته الأمراء قاطبة والعسكر ، وكان له يوم مشهود ، فألبس الأمراء هناك الصوف كعادة السلاطين ؛ وأخلع فى ذلك اليوم على الأمير جانى بك الفقيه أمير السلاح ، وقُرّر فى أمرة الحاج ركب المحمل ، وقُرّر آقبردى الأشرفى بالركب الأول . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشهابى أحمد بن أبى الفرج نقيب الجيش ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الغنى ، توفى

بحلب ، وكان خرج صحبة السلطان فمات هناك ، وقيل إنه حصل له رجفة من السلطان ، فانطرب ومات عقيب ذلك ، وكان شابا قليل الأذى لا بأس به .

وفى رمضان وقع بالقاهرة بعض اضطراب ، وسبب ذلك أن مضى الثلاثون من شعبان ولم يُرَ الهلال ، فأكل غالب الناس فى أول يوم من رمضان ، فنادى القاضى الشافعى بالإمساك ، فثار عليه العوام وقصدوا الإخراق به ، فثبت رؤية الهلال قريب الظهر ، ولكن فطر غالب الناس فى ذلك اليوم . ـ وفيه وقع بين تنم الضبع أحد الأمراء العشرات ، وهو أخو الأمير تانى بك الجمالى ، وبين القاضى أبو الفتح السوهاجى ، (١٧٦ آ) تشاجر ، بسبب هدم مكان ، فسبّ تنم الضبع القاضى السوهاجى ، فشكاه السوهاجى إلى الأمير يشبك ، فطلب تنم ، فلما حضر أمر بضربه بين يديه فضُرب ، ولم يوقره لأخيه تانى بك الجمالى ، فحصل بسبب ذلك بعض قلقلة بين الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان لما توجّه إلى الفراة أقام هناك أياما ثم عاد إلى حلب ، ورحل عنها وقصد التوجّه إلى حماة ، فلما دخلها وأقام بها حصل له هناك مرض حاد ، فلما ثقل فى المرض وعجز عن الحركة أحضروا له محفّة ، فحُمل فيها وتوجّه إلى دمشق ، فدخلها وهو مريض على غير استواء ، فكثر القال والقيل بين الناس ، وصار فى كل يوم يشاع بالقاهرة خبر جديد بأن السلطان قد مات ودُفن هناك ، فاضطربت أحوال الأمراء فى بعضهم ، وأظهر كل أحد منهم ما فى نفسه من السلطنة ، وأرجفت القاهرة بموت السلطان غير ما مرّة ؛ ونُقل للأمير يشبك الدوادار بأن بُرد بك جبس ، أحد الأمراء الآخورية ، وكان من أخصّاء جانى بك الفقيه أمير سلاح ، بأنه قد مشى بين طائفة المماليك الخشقدمية بأن يكونوا من عصبة جانى بك الفقيه ، وإذا صحّ موت السلطان يقومون مع جانى بك الفقيه حتى يسلطنوه ، وكان جانى بك الفقيه تحدّثه نفسه بالسلطنة ، ويقرّب أرباب الفلكية والمنجمين ، وحظى عنده جماعة من خواصه بسبب ذلك .

(٢) فانطرب : كذا فى الأصل . (١٤) حاد : حد .

ثم إن الأمير يشبك أرسل خاف بُرد بك جبس وذكر له ما نُقل عنه ، فأنكر ذلك وحلف أيمانا عظيمة أنه لم يصدر منه شيء من ذلك ، فقامت عليه البيّنة وكذّبوه فى وجهه ، فسكت ولم ينطق بحرف واحد ، فعند ذلك أمر الأمير يشبك بضربه ، فضُرب بين يديه ضربا مبرحا حتى أشرف (١٧٦ ب) منه على الهلاك ، ثم أقامه وأحضر له عمامة يهودى صفراء وألبسها له ، وقصد يشهره فى القاهرة ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فأركبه على حمار وجرّسه بين يديه فى الدوّار ، ثم شكّه فى الحديد وأمر بنفيه إلى الواح ، فنفى ، وكل ذلك جرى والسلطان مسافر لم يُعلم له خبر ، وكانت هذه الواقعة سببا لنفى جانى بك الفقيه أمير سلاح ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفيه ختم قراءة البخارى بجامع الأزهر ، وحضر به القضاة الأربعة ، وفرّقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء ، وكان قراءة البخارى من أول شهر رمضان فى الجامع الأزهر ، وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة . ـ فبينما القاهرة فى اضطراب وإذا بخاصكى حضر من عند السلطان ، يقال له بُرد بك سُكر ، وعلى يده عدّة مكاتبات ، منها للخليفة والقضاة الأربعة والأتابكى أزبك وبقية الأمراء قاطبة ، فكان من مضمونها أن السلطان كان قد حصل له توعّك فى جسده ، وقد بعث الله تعالى بالعافية والشفاء ، وحصل البُرء ، فضُربت البشائر بالقلعة ، ودخل على بُرد بك سُكر عدة كوامل بصمّور من الأمراء والخليفة وقضاة القضاة وأرباب الدولة ، ودُقّت البشائر على أبواب الأمراء ، وتخلّق الخدّام بالزعفران ، ونودى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ، فزيّنت وأظهر الناس الفرح والسرور بعافية السلطان ، وسكن الاضطراب الذى كان بالقاهرة ، وبطل القال والقيل الذى كان بين الأمراء ، وفى ذلك يقول الشهاب المنصورى :

بعافية السلطان مولى الأنام قد تهلّل وجهه الدهر فهو جميل
وقد صحّت الدنيا لصحّة جسمه فليس بها غير النسيم عليل

وكان الأمير يشبك الدوادار ، من حين توجّه السلطان للسفر ، وهو مجتهد فى

توسيع الطرقات ، وإصلاح وجوه (١٧٧ آ) أبواب الجوامع والمساجد ، وجلاء رخامهم وتبييض حيطانهم ، وكشف عن أبواب جامع الصالح وظهر منه عواميد رخام لجلاهم ونعمّهم ، وأمر بتبييض الدكاكين ووجوه الربوع التى تطلّ على الشوارع ، وأخلع على شخص من أبناء الناس وجعله مشدّ الطرقات ، فصار يستحثّ الناس فى سرعة البياض والدهان ، حتى عادت القاهرة كأنها كما استجدت فى بنائها وتزخرفها ، وصارت كالعروس التى تجلى ؛ ثم إن الأمير يشبك أمر بقلع عتبة بابى زويلة ، وعلاّ العتبة وقلعها وأصلحها ، فإن الأرض كانت عليت عن الباب ، فقطع الأرض ومهد قدّام الباب ، واستمرّ باب زويلة مغلوقا أياما حتى انتهى منه العمل ، فعُدّ ذلك من النوادر ، وصارت الناس تدخل إلى القاهرة من باب الفرج حتى انقضى أمر العمارة .

وفيه حضر هجّان من عند السلطان وأخبر أنه خرج من الشام ، بعد ما جلس فى القصر الذى بالميدان ، وحكم بين الناس ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فأخلع الأمراء على ذلك الهجّان ؛ ثم حضر عقيب ذلك هجّان ثانى ، وأخبر أن السلطان خرج من غزّة وهو قاصد للديار المصرية ، فشرع الأمراء فى أسباب الخروج إلى ملاقاة السلطان ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلى قطيا .

وفى شوال جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلى الصالحية وصلّى بها صلاة عيد الفطر ، فعند ذلك خرج الأتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وبقية الأمراء قاطبة ، إلى ملاقاة السلطان ؛ ثم وصل السلطان إلى الخانكاه ، فخرج إليه قضاة القضاة والعسكر قاطبة ، ومعهم الشاش والقماش ، ونودى فى القاهرة بالزينة فزيّنت زينة حافلة .

فلما كان يوم الخميس رابع شوال دخل السلطان إلى القاهرة فى موكب حافل ، وقدّامه القضاة الأربعة (١٧٧ ب) والأمراء بالشاش والقماش ، والعسكر قاطبة ، فدخل من باب النصر وشقّ القاهرة ، والأتابكى أزبك رافع القبة والطير على رأسه ،

---

(١٢) الذى : التى .

وقدّامه الجنايب بالسروج الذهب والكنابيش الزركش والكجاوتين الزركش ، ولعبوا قدّامه بالغواشى الذهب ، والجنايب التى بالأرقاب الزركش قدّامه ، والنفير السلطانى يزعق والجاويشية والدفّ والشبابة والأوزان عمّال ، ومشت قدّامه الرءوس النوب بالعصى ، ومشت قدّامه الخاصكية بالشاش والقماش ، وفُرشت له الشقق الحرير من باب زويلة إلى القلعة ، ونُثرت عليه خفائف الذهب والفضة فى عدة أماكن ، واستمرّ فى هذا الموكب على ما ذكرناه حتى طلع إلى القلعة ، وكان له يوم مشهود ؛ فلما طلع إلى القلعة فرشت له خوند شقق حرير وأثواب مخمل من باب القلعة إلى الحوش ، ونثرت عليه خفائف من الذهب والفضة ، ولاقته المغانى ، ومدّت له أسمطة حافلة ، فلما انتهى أمر المدّة أخلع السلطان عدّة خلع على من كان مسافرا صحبته .

ولما وصل السلطان إلى الفراة قدم عليه هناك شخص من أولاد حسن الطويل ، وهو ابن محمد أُغرلو بن حسن الطويل ، وكان شابا جميل الصورة ، له من العمر نحو من ثمان عشرة سنة ، نخافت عليه أمّه أن لايقتلوه أعمامه ، فأتت به إلى السلطان ، فحضر معه إلى القاهرة وحظى عنده ، وكان يشقّ من القاهرة وقدّامه الساعى ، واستمرّ بمصر حتى مات كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وكان اسمه حسين بك ، وقيل مرزاه .

ولما عاد السلطان من هذه السفرة عظم أمره جدا ، وقد وصل إلى الفراة وكشف على عدّة قلاع بنفسه ، ودخل إلى الشام وحلب وحماة (١٧٨ آ) وطرابلس، وغير ذلك من البلاد الشامية ، ودخل عليه من النواب وأعيان الناس جملة تقادم وأموال جزيلة ، وعُدّت هذه السفرة من النوادر الغريبة ؛ وكانت مدّة غيبة السلطان فى هذه السفرة نحوا من أربعة أشهر إلا أياما ؛ وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتونى هذه القطعة الزجل ، وهى من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى هذه القطعة :

سلطاننا الأشرفْ خرجْ فى اربعينْ   من العساكر حِينَ سافرْ حماه

ومن حلب عدّى يروم الفُراة   فأسقى الخيول من ماه ورَبُّو حماه

فى مصر فرسان أربعين بالمَدد   لدورة المحمل يسوقوا الجياد
ورُعبهم ساكن قلوب الملوك   ردّوا الخارج وأهل العناد
فى ذا العدد راح الملك وافتخر   بهم على ساير ملوك البلاد
وَخُو سوار لاقاه وفى صحبتهُ   ولد حسن بك بالخِدَمْ ما أباه
وأخلع عليه اطمنّ وأخلع على   ولد حسن خلمهْ وشتّت أباه

كامل مظفّر بالعدا لم يَزل   تجرى دماهم من حسامه نَهَرْ
خرج لتطمين العباد فى البلاد   فكم شكر عادل وظالم نَهَر
إمامنا الأعظم مليك الزمان   بالعدل فى هذا الوجود اشتهر
كشف على النوّاب فمن حاف وجار   أنكر عليه فعلَهُ وبالعزلِ جاه
(١٧٨ب) ومن رآه عادل وفعله حسن   خلع عليه واعطاه منازل وجاه

هذا الملك صالح وسرُّه ظهر   لا شك فى أنُّه قطب فى الدايره
لما خرج فى الاربعين خلتهم   بدر الدجا حوله نجوم زاهره
لهم منازل كل حدّ منزله   شِيْ للرصد شانُهْ وشِيْ سايره
كَشَفْ بلاده واعتبر أهلها   واحد رفع قدره وآخر سماه
وطَلْعته فاقت شموس الضحا   وأخفت البدر المنير فى سماه

لما دخل للشام توعّك وكان   من الهوا والشرب من ما العيون
فقلت كادت عين تصيبه فكان   توعّكُهْ حِرزُه لدفع العيون
وربّنا عافاه وجِبُهْ لِنَا   سالم وقرّت به جميع العيون
ومهّد الدنيا وأن يعدلوه   أن ينثنى عزمه الشديد ما ثناه

(١٩) وجبه لنا ، يعنى : وجاء به إلينا .

وفاز بتاريخ ما فرح به ملك   قبله ونال قصده وبيّض ثناه

أهل الفضايل والعلوم ورّخوا   وكل واحد فى الكتابه ذهب
يكتب تواريخ الملوك بالمداد   إلّا لقايتباى كتب بالذهب
هو فارس الإسلام وليث الوغا   وفهلوان الحرب مُبدى العجب
(١٧٩ آ) وخالقه علّا مقامه الشريف   على الملوك وانشاه ومن ما يراه
وكل ذا فى اللوح قديم فى الأزل   خطُّو القلم جلّ الذى قد براه

تاريخ سنة اثنين جماد الأخير   تلى ثمانين مع ثمان من مئين
من هجرة الهادى عليه السلام   خير النبيين سيّد المرسلين
تجهّز السلطان يريد السفر   وأخفا عن العسكر خرج فى اربعين
وفرّ لبيت المال خزاين ذهب   ما يحصروها من قلم مع دواه
وربّح العسكر وكم من ضعيف   كان التخلُّف فى بلاده دواه

لأجلُهْ الدوادار الكبير قد برز   أمره بتوسيع الطريق المُضيق
وكشفْ أبواب المساجد وما   بين المدارس كان على غير طريق
وصلّح الأبواب وشى بيّضه   وأخلع على واحد مشدّ الطريق
ووكّله بالقاهرة كل يوم   بقى يدور راكب وفى إيده عصاه
ويأمُرْ الناس بالبياض والدهان   طاع الجميع أمره ولا حد عصاه

صارت مدينتنا عروس للملك   وذا عجب كيف العريس هو الولى
ونقّشوها بالدهان فى البياض   وأضحت عروسهْ بالطراز تنجلى
(١٧٩ب) ومُدّت المدّات نهار الفرح   وزيّنوها بالحُلا والحُلى
وبان لها سيقان عواميد رخام   جلاهم الصانع ونعّم جلاه
ودُقّت الكوسات نهار الدخول   وكان دخوله فى المواكب جلاه

---

(٢) ورخوا ، يعنى : كتبوا التاريخ .

وقبـــل ذا صلّوا على المصطفى … خير الخلايق وأعلنــوا بالسلام
فـكل مرّه من صلاتك عليــه … جزاك عشر مرات يصلّى السلام
وبالشفاعه يُدخلك جنّتُـه … من بابها الأول لدار الســلام
هو أوّل الرسل الكرام فى الوجود … وهو لهم خاتم وما حــد تلاه
وأنزل القرآن عليــــه العزيز … على لسان جــبريل مُفرّق تلاه

فى ليـــلة المعراج بخير الأنام … ساقوا حديث مسند صحيح السياق
نزل عليـــه جبريل وقلّه الإله … يدعوك إلى الحضره على ذا البُراق
ركب عليـــه حتى صعد للسماء … وصار إلى السبع العوال الطباق
لجنّـة المـــاوى رقا وارتقـــا … وزجّ بيه فى النور وزاد فى شفاه
وافرض عليه الخمس كان أصلها … خمسين وكان فيهـــا خطابه شفاه

هذا المعانى والبديع والجنـــاس … من نظم زيتـــونى لفقـه دخول
(١٨٠ آ) أبوالنجاالعوفى نظم فى الملك … من حين خروجه فى السفر للدخول
فإن تجد له عيب فسـدّ الخلل … إذا سمعتـــــه فى نظامه يقول
سلطاننا الأشرف خرج فى اربعين … من العساكـر حين سافر حماه
ومن حلب عدّى يروم الفُراة … فأسقى الخيــول من ماه وربُّه حماه

انتهى ذلك . ـ وفى الثامن عشر منه خرج الحاج ، وكان أمير ركب المحمل جانى بك الفقيه أمير سلاح ، وبالأول آقبردى الأشرفى ؛ فلما خرج جانى بك الفقيه ، رسم السلطان بهدم سبيله الذى كان قد أنشأه بالرملة ، فأخذ الناس يلهجون لا بقى يعود إلى القاهرة ، وكذا جرى .

وفى ذى القعدة قـدم قجماس الإسحاقى نائب الإسكندرية ، فأقام بباب السلسلة ، وكان قد جمع بين نيابة الإسكندرية وبين أمرة الآخورية الـكبرى . ـ

---

(٧) وقله ، يعنى : وقال له .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى برّ الجيزة ، فكشف عن خيوله ، وأقام هناك أياما ، ثم توجّه إلى جهة منوف العليا ، وكشف عن جسورها ، وأمر بإصلاحهم ، وأقام هناك أياما وعاد إلى الجيزة ؛ ثم سافر من هناك إلى الفيوم ، وكان عزم عليه خاير بك من حديد ليرى البستان الذى أنشأه هناك ، وهذه ثالث سفرة إلى الفيوم ، وكان معه فى هذه المرّة الأتابكى أزبك وتمراز الشمسى رأس نوبة النوب ، وكان معه من الأمراء العشرات ومن الخاصكيه عدّة وافرة ، فلما وصل إلى الفيوم تلقّاه خاير بك من حديد ، وكان مقيما بالفيوم ، فأخلع عليه خلعة حافلة ، وأقام (١٨٠ ب) هناك أياما وهو فى أرغد عيش على سبيل التنزّه ، فبينما هو على ذلك إذ ورد عليه من جهة الصعيد بأن عرب هوّارة ثاروا ، مع يونس بن عمر ، عَلَىَ سيباى كاشف الوجه القبلى ، فكسروه ، ووقع بينهما مقتلة قتل فيها جماعة كثيرة من الجند والبلاصية ، فتنكّد السلطان لهذا الخبر وقصد بأن يتوجّه من هناك إلى جهة الصعيد ، فمنعوه الأمراء من ذلك ، وكان الأمير يشبك متمرضا برجله وهو بالقاهرة ، فأرسل السلطان يستحثّه فى سرعة السفر إلى جهة الصعيد .

وفى ذى الحجة عاد السلطان من سفره من الفيوم ، فلما استقر بالقلعة أخلع على بركات بن يحيى بن الجيعان ، وقرّره نائب كاتب السرّ ، عوضا عن نور الدين الإنبابى بحكم موته ، وهذه أول عظمة الزينى بركات بن الجيعان . ـ وفيه توفى الناصرى محمد بن قرقماس الحنفى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الحنفية ، وكان يدّعى معرفة الحرف وعلم الكيمياء ، وكان ولى مشيخة تربة الظاهر خشقدم ، ومولده سنة اثنتين وثمانمائة ، وكان ناظما ناثرا ، وله عدة مصنّفات ، منها : كتاب زهر الربيع فى شواهد البديع ، وغير ذلك من التآليف ، وله عروض مقامات الحريرى ، وكان يدّعى دعاوى عريضة ، ومن نظمه الرقيق وهو قوله :

إذا مَنَّ مَنْ تهوى عليك بنظرة   أماط الجوى من نار قلبك والبلوى
فكن شاربا صبرا لمرّ صدوده   فما ذاق منّ الوصل مَن همّ بالسلوى

---

(٤) الذى : التى . (١٨) الكيمياء : الكياء .

وقوله فى مليح من ركاب الخيل وأجاد :

وظبي من العُرب الـكرام سألته   لمن فى الورى تُعزى (١٨١ آ) فقال مؤنّبى
أنا ابن الذى تمشى الملوك أمامه   إذا ما رأوه راكبا يوم موكب

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار إلى جهة الصعيد ، بسبب تلك الفتنة التى وقعت بين يونس بن عمر وبين داود بن عمر قريبه ، وأخذ معه جماعة كثيرة من الجند ـ وفيه توفى حسن بن محمد بن أيوب الـكردى ، نائب القدس ، ونائب الـكرك ، وكان ريسا حشما لا بأس به ، وكان قد شاخ وناف عن الثمانين . ـ وتوفى القاضى شهاب الدين أحمد الطولونى الحنفى ، أحد نواب الحـكم ، وكان مفرطا فى السمن جدا بحيث لم يكن فى عصره أسمن منه ، ولما مات حمله ستة عشر حمّالا بالنوبة ، ومات مخنوقا بالشحم ، فأوصى لـكل حمّال بأشرفى ؛ ومما وقع له أن جماعة من الفلاحين تحاكموا عنده على دين ، فأنـكر الذى عليه الدين فألزمه القاضى بيمين ، فلما أراد أن يحلف ، قال له الخصم : إن كنت ما أخذت منى شيئا تبقى فى سمن هذا القاضى ، فاعترف لخصمه بالدين ولم ينـكره ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم أخلع على العلاى على بن الصابونى ، وقرّر فى وكالة بيت المال ، عوضا عن النابلسى ؛ وقرر فى قضاء الشافعية بحلب عز الدين الحشفاوى ، وصرف أبو البقا بن الشحنة . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن السلطان قبض على جانى بك الفقيه أمير سلاح ، الذى توجّه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبة وأرسله من هناك إلى القدس بطالا ، ونفى أيضا قايتباى الخشقدمى إلى جهة حلب ، ونفى أيضا يشبك جنب الظاهرى جقمق إلى جهة دمشق ، لـكونهما كانا من أصحاب جانى بك الفقيه .

وفيه دخل (١٨١ ب) الحاج إلى القاهرة ، وقد قاسى فى هذه السفرة شدائد عظيمة ، من الغلاء وموت الجمال ، وانقطع جماعة من الحجاج من رجال ونساء ؛

وقتل فى هذه السنة قاضى المدينة المشرفة وخطيبها ، وقد قتله بعض الرفض ، وسبب ذلك أن الخواجا شمس الدين بن الزمن ابتدأ بعمارة مدرسة للسلطان ، فأخذ مكانا يسكنه هذا الرافضى وأدخله فى بناء المدرسة ، فتعصّب القاضى على الرافضى فى هدم مكانه ، وكان ذلك سببا لقتله ، وأنا حججتُ تلك السنة وشاهدتُ هذه الوقائع ؛ ونفى جانى بك الفقيه من العقبة .

وفيه أخلع السلطان على قرابته جانم الشريفى ، وقرّر فى نظر الجوالى ، وهذا أول إظهار جانم الشريفى فى الوظائف ، فأقام فى نظر الجوالى مدّة يسيرة ثم أنعم عليه بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانى بك الفقيه أمير سلاح ، فعظم أمر جانم جدا ، وكان أمردا لم يلتح .

وفى صفر أخلع على شاد بك الصغير ، وقرّر فى نيابة سيس ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقدم أزدمر إلى القاهرة . – وفيه كان عقد جانم الشريفى قريب السلطان على أخت خوند ، وهى ابنة العلاى على بن خاص بك ، وكان العقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وكان عقدا حافلا ، وأخلع فيه على قاضى القضاة ولى الدين الأسيوطى لكونه تولّى العقد ، وأخلع على كاتب السرّ ابن مُزهر لكونه كان وكيلا عن جانم .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . – وفيه عيّن السلطان وردبش الظاهرى بأن يخرج إلى الجون ، بسبب إحضار الأخشاب ، وعيّن معه جماعة من الجند ، وأمرهم بأن يدخلوا (١٨٢ آ) إلى قبرس ويطالبوا صاحبها بالجزية ، ويتوجّهوا من هناك إلى الجون لإحضار الأخشاب .

وفيه وقف الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيارى إلى السلطان بقصّة يشكو فيها من قانصوه خمسمائة ، بسبب المكان الذى أنشأه قانصوه خمسمائة فى قناطر السباع تجاه بيت ابن أسنبغا الطيارى ، وذكر فى القصّة أن قانصوه خمسمائة قد جار عليه ، وفتح

(٤) وأنا حججت ، ابن إياس يعنى نفسه. (٢١) تجاه : يجاه .

من عنده بابا بغير طريق شرعى ، وقطع من عنده عدّة أشجار ، وقد أضرّ ذلك بحاله؛ فلما سمع السلطان ذلك وبّخ قانصوه خمسمائة بالـكلام ، وأمره بأن يسدّ الباب الذى فتحه ، ويرضيه فى قيمة الأشجار التى قطعها من عنده ، وأنصف ابن أسنبغا الطيارى على قانصوه خمسمائة ، فعُدّ ذلك من النوادر كونه أنصف ابن أسنبغا الطيارى على قانصوه مع خصوصيته بالسلطان ، ولـكن كان قانصوه خمسمائة متعديا على ابن أسنبغا الطيارى .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على قجماس الإسحاقى ، أمير آخور كبير ، وقرّره فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وأخلع على فارس الركنى وقرّره بأمرة الركب الأول ، فاستعفى فارس من ذلك ، فأعفاه السلطان ، وقرّر عوضه آقبردى الأشرفى على عادته ، وقيل إن فارس سعى بمال حتى أُعفى من أمرة الحاج .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار قد قبض على يونس بن عمر الهوّارى ، وقد تتبعه إلى بلاد النوبة ، وجرى له معه أمور يطول شرحها ، وآخر الأمر قبض عليه وحزّ رأسه ، وقبض على أخيه أحمد وعلى جماعة من أقاربه ، وانتصر على بنى عمر نصرة عظيمة ، وبعث برأس يونس إلى القاهرة فطيف بها وعُلّقت على باب زويلة أياما ؛ وكان يونس هذا (١٨٢ ب) من خيار بنى عمر ، وهو يونس بن إسماعيل بن يوسف أمير عربان هوّارة ، وكان مشهورا بالشجاعة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى رابع مسرى ، فتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة . ـ ومن الحوادث الغريبة أن فى ليلة الوفاء انقطع جسر أبى المنجا وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد التى تحته غاية الضرر ، وغرق الـكثير من أموال الناس والمقطعين ؛ ومن العجائب أن البحر لم يتأثر لقطع جسر أبى المنجا ، وأوفى تلك الليلة وزاد عن الوفاء اثنى عشر أصبعا ، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة ، ثم فى ثانى يوم من كسره زاد ستة عشر أصبعا ، فأكمل الذراع السابع عشر فى يومين حتى تعجّب الناس من ذلك ، وقد قال القائل فى المعنى :

أرى النيل قد وفّا وزاد ولم يزل   يجود على أهل القرى بالمـكارم
أفاض عليها الماء من بسط راحة   أصابعها فاقت أيادى حاتم

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حماة بأن سيف أمير نُميْر ، وقرابته الغاوى قد خرجا عن الطاعة ، وأن نائب حماة تقاتل مع الغاوى ، فكسر نائب حماة وقتل من عساكر حماة ما لا يحصى ، ثم خرج إليه نائب حلب واتقع معه ، ففرّ منه ، فتتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة بين المماليك الجلبان ، حتى تفازعوا بالسيوف ، فخنق منهم السلطان ورمى النمجة والترس من يده ، ونزل من القلعة وتوجّه نحو شطنوف ، فلما تحقق الجلبان ذلك أخذوا فى أسباب (١٨٣ آ) تلافى خاطره ، وسكن أمر الفتنة التى كانت بينهم ، ثم توجّه الأتابكى أزبك وكاتب السرّ إلى السلطان وتلافوا خاطره وتلطّفوا به فى عوده إلى القلعة ، فلم يجب إلى ذلك ، واستمرّ مصمّما على عدم عوده إلى القلعة ، فلا زالوا به حتى عاد إلى القلعة بعد جهد عظيم .

وفيه وصل الأمير يشبك الدوادار من جهة الصعيد ، وحضر صحبته الأمير أحمد ابن عمر الهوّارى ، أخو يونس الذى حُزّت رأسه ، وأحضر صحبته جماعة من بنى عمّ يونس وأقاربه وهم فى الحديد ، فلما تمثّل بين يدى السلطان أخلع عليه خلعة حافلة ، ونزل إلى داره ومعه أحمد بن عمر فى الحديد .

وفى جمادى الآخرة عُرض أحمد بن عمر على السلطان ، فرسم بتسلمه إلى الوالى ، هو ومن معه ، وكانوا سبعة أنفار ، فأركبوهم على جمال ، ونزلوا بهم من القلعة ، وأتوا بهم إلى باب زويلة ، فكلبوهم وعلقوهم على الباب ، ووسّطوا منهم جماعة ، وكان لهم يوم مشهود ، وتأسّف عليهم الكثير من الناس ، فإنهم كانوا خيار بنى عمر ، ولكن كان للأمير يشبك عليهم ثأر قديم فاقتصّه منهم ، كما يقال :

الموت فى طلب الثار ولا حياة فى العار

وفيه نزل السلطان إلى قبّة يشبك التى بالمطرية ، فأضافه هناك كاتب السرّ ابن مزهر ضيافة حافلة ، وبات هناك ثم طلع إلى القلعة .

وفى رجب أخلع السلطان على الشريف سبع ، وقرّره فى أمرة الينبع ، عوضا عن صقر ، بحكم القبض عليه . ـ وفيه أخلع على يوسف بن أبى الفتح المنوفى نائب

جدّة ، وقرّر فى كتابة المماليك ، عوضا عن عبد الـكريم بن جلود بحكم وفاته ، وكان متحدّثا فيها بغير تقرير . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الفقيه ، الذى كان أمير سلاح ونفى من العقبة إلى القدس ، فمات هناك ، وكان (١٨٣ ب) أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان يعرف بجانى بك من ططخ ، وكان إنسانا حسنا وله اشتغال بالعلم ، وتولّى عدة وظائف ، منها أمير آخور ثانى ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم نفى إلى القدس ، ومات به بطالا .

وفيه توفى دولات باى حمام الأشرفى ، وكان يعرف بدولات باى من تغرى بردى ، ومات وهو نائب ثغر الإسكندرية ، وكان لا بأس به . ــ وفيه عزل تاج الدين بن المقسى من الأستادارية ، وأعيد إليها الأمير يشبك الدوادار ، وأقام ابن المقسى فى الترسيم على مال ، وكان ذلك آخر سعده .

وفى شعبان أخلع على بدر الدين محمد بن الـكويز ، وقرّر فى نظر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى ، بحكم انفصاله عنها . ــ وفيه أخلع السلطان على محمد بن عجلان وأعاده إلى مشيخة العرب بالشرقية ، وكان له نحو من عشر سنين وهو فى البرج بالقلعة . ــ وفيه أخلع على آقباى الطويل ، وقرّر فى كشف الشرقية ، وآقباى هذا هو الذى ولى نيابة غزّة فيما بعد . ــ وفيه توفى دولات باى سَـكسَان الأشرفى برسباى ، توفى بحماة ، وكان أتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرفية ولا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بموت حسن بك الطويل ملك العراقين ، وأن ولده خليل تولى على العراقين بعده ، وقيل كان موته فى رجب ، وكان ملـكا جليلا عاقلا سيوسا ، كثير الحيل والخداع ، اقتلع مُلك العراق من أخيه جهان كير بحيل غريبة ، وقتل عمّه الشيخ حسن ، وانقرضت دولة بنى أيوب على يده ، ثم قوى على جهان شاه وحاربه حتى أن قتله وشتّت أولاده ، وملك تبريز والعراقين ، (١٨٤ آ) وبلغ مبلغا لم يصل إليه أحد من أجداده ولا من أقاربه ، وقد تحرّش بابن عثمان ملك الروم بأن يأخذ من مُلـكه شيئا فما قدر عليه ، ثم تحرّش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف

قايتباى أمور يطول شرحها ، وكان الأشرف قايتباى يخشى من سطوته ، فلما مات عُدّ ذلك من جملة سعد الأشرف قايتباى ، وقد قيل فى المعنى :

أيا ملكا صار من سعده بموت الأعادى حقيقا يفوزا
لقد أهلك الله عنك العداة وينصرك الله نصراً عزيزا

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو جهة القُرين ، ثم إلى الخطارة ، وكشف عن الجامع والسبيل الذى أنشأهما هناك ، والحوض الذى أنشأه على الدرب السلطانى، وكان الشاد على العمارة الأمير يشبك الجمالى، فجاءت هذه العمارة فى غاية النفع.

وفى رمضان أخلع على أينال الأشرفى مملوك السلطان ، وقرّر فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن دولات باى حمام . ــ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة على العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، أخلع السلطان على الأمير يشبك من مهدى الدوادار ، وقرّر فى أمرة السلاح ، عوضا عن الأمير جانى بك الفقيه ، بحكم نفيه إلى القدس بطالا ، فعظم أمر الأمير يشبك جدا ، وصار : أمير سلاح ، دوادار كبير ووزيرا ، وأستادارا ، وكاشف الكُشّاف ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك ، فصار يجلس رأس الميسرة وهو بالقصر ، ويقف فى الحوش فى منزلة الدوادارية ، ولم تجتمع هذه الوظائف فى أحد من الأمراء قبله . ــ وفيه توفى شمس الدين العاقل ، أحد الموقعين والشهود والعدول ، وكان لا بأس به . ــ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى (١٨٤ ب) تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل قجماس الإسحاقى أمير آخور كبير ، وأمير الركب الأول آقبردى الأشرفى ، وحجّ فى تلك السنة الشيخ صلاح الدين الطرابلسى الحنفى .

وفى ذى القعدة خرج قانصوه الألفى مسافرا إلى بلاد جركس ، وكان قد حصل له توعّك فى أذنه وعينه ، فتوجّه هناك للتداوى ، وكان يومئذ خاصكى ، فغاب هناك مدّة طويلة ، ثم عاد إلى القاهرة . ــ وفيه توفى أبو يزيد من طراباى الأشرفى رأس نوبة الجمدارية ، وهو والد الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان لا بأس به .

(١٤) الكشاف : الكاشف .

وفى ذى الحجة نزل السلطان من القلعة ، وعدّى إلى برّ الجيزة ، وكشف على القناطر التى أمر بإنشائها على يد الأتابكى أزبك ، وكان الوقت محتاجا لإصلاح تلك القناطر، وكانت تهدّمت فأصرف عليها جملة مال حتى جدّدها ، وهى باقية إلى الآن. ــ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة نائبها جانى بك قلقسيز ، وكان أميرا جليلا ريسا حشما ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وتولّى عدة وظائف سنية ، منها : حجوبية الحجاب الكبرى ، وأمرة مجلس ، وأمرة السلاح ، ثم ولى الأتابكية بمصر ، وترشّح أمره إلى السلطنة غير ما مرّة ، ثم أسر عند سوار ، ثم أطلق وأعيد إلى أمرة السلاح ، ثم تولى نيابة الشام ومات بها ، وكان كفوا للمناصب والمهمات وغير ذلك .

وفيه أرسل السلطان الخواجا محمد بن محفوظ المغربى إلى ملك الكيتلان الفرنجى، وأرسل له على يده هدية حافلة ، فسار إليه . ــ وفى عقيب ذلك أرسل صاحب قبرس ما عليه من الجزية ، وكان له (١٨٥ آ) مدّة سنين وهو عاصى لم يرسل ما عليه من الجزية المقررة ، وقصد السلطان أن يجهّز له تجريدة ، فلما أرسل ما عليه سكن الأمر.ــ وفى هذه السنة توفيت خوند فاطمة ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، وهى زوجة الأمير يشبك الدوادار أم ولده منصور ، وكانت شابّة جميلة وفيها الخير ، فحزن عليها الناس . ــ وفيه توفى شاهين الظاهرى الفقيه ، أحد الأمراء العشرات ، وكان لابأس به، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم توجّه الأمير يشبك الدوادار إلى ثغر دمياط ، وكان السلطان قد جعله متحدّثا عليها . فلما توجّه إلى هناك أنشأ على فم البحر الملح ، عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، سلسلة من حديد زنتها نحو من مائتى وخمسين قنطارا من الحديد ، وكانت هذه السلسلة قديما هناك ، ثم بطل أمرها فجدّدها الأمير يشبك الدوادار فى هذه السنة ، وحصل بها النفع لطرد مراكب الفرنج الكبار . ــ وفيه وصل

الحاج إلى القاهرة ، وحُمدت سيرة الأمير قجماس أمير ركب المحمل .

وفيه فى يوم السبت رابع عشرينه كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالى يوسف المستنجد بالله العباسى بن محمد المتوكل على الله بن المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله سليمان ابن الإمام أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الهاشمى ، وكان الثالث عشر من خلفاء بنى العباس بمصر ، تولّى الخلافة بعد خلع أخيه حمزة ، ودام فى الخلافة نحوا من خمس وعشرين سنة وأشهر ، وكان ريسا حشما ، وعنده لين حانب مع تواضع زائد ، ورأى فى خلافته غاية العزّ ، وقلّد فيها خمسة من السلاطين ، وهم : المؤيد أحمد بن الأشرف أينال ، والظاهر خشقدم ، والظاهر يلباى ، والظاهر تمربغا ، والأشرف قايتباى ، ومات وله من العمر (١٨٥ب) زيادة عن ثمانين سنة ، ومولده بعد التسعين والسبعمائة؛ ولما مات دفن عند أقاربه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وهو أول خليفة سكن بالقلعة ودام بها حتى مات ، وقد مات عن غير ولد ذكر ، بل خلف بنتا تسمى ست الخلفاء ، فعهد بالخلافة من بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز .

ذكر خلافة المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله بن المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله سليمان بن الإمام الحاكم بأمر الله أحمد العباسى الهاشمى

وهو الرابع عشر من خلفاء بنى العباس بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت عمّه الجمالى يوسف بعهد منه ، وكانت ولايته فى يوم الاثنين سادس عشرين المحرم من هذه السنة ، فطلبه السلطان ، فحين حضر حضر قضاة القضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وكان يومئذ عمّه موسى موجودا ولكنه كان غير صالح للخلافة ، فلم يكن فى بنى العباس يومئذ أمثل من العزى عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته ، فتولّى الخلافة فى ذلك اليوم ؛ أقول ولم يل الخلافة من اسمه عبد العزيز سواه ، ثم إنه أراد أن يلقّب نفسه بالمستعزّ بالله ، فعورض فى ذلك ، ولقّبه بالمتوكل على الله كلقب جده

(٢٠) ولايته : ولاته .

محمد المتوكل ، فأُحضر إليه شعار الخلافة وأفيض عليه ، وقُدّمت إليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وقدّامه قضاة القضاة وأعيان الدولة ، فتوجّه إلى مكان تسكن فيه الخلفاء ، ثم تحوّل من يومه وطلع إلى القلعة وسكن بدار عمّه يوسف ، التى هى داخل الحوش السلطانى ، وطالت أيامه فى الخلافة ، وكان كفوا لذلك ، وكان سنّه لما تولى الخلافة نحوا من اثنين وستين سنة أو أكثر من ذلك ، وكان مولده سنة تسع (١٨٦ آ) عشرة وثمانمائة ، وكانت أمه تسمى حاج ملك بنت مُقبل ، وهو شخص من المماليك السلطانية ، انتهى ذلك .

وفى صفر تغيّر خاطر السلطان على أزدمر الطويل الإبراهيمى الأينالى حاجب الحجاب ، فرسم بنفيه إلى مكة ، وبعث إليه بألفى دينار يتجهّز بها . ـ وفيه نزل السلطان وتوجّه إلىسنيت ، وأقام بها أياما ، ثم عاد إلى القلعة ، وسبب ذلك أن القال والقيل قد كثر بسبب نفى أزدمر الطويل ، وأن جماعة الأينالية تثير فتنة ، فلم يتأثر السلطان إلى هذه الإشاعة وتوجّه إلى سنيت وأقام بها أياما .

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على تانى بك قرا الأينالى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة أزدمر الطويل ، وعيّن الدوادارية الثانية إلى قانصوه خمسمائة ، وأخلع عليه بها بعد أيام . ـ وفيه نُقل السيفى قانصوه اليحياوى من نيابة حلب إلى نيابة الشام ، عوضا عن المرحوم جانى بك قلقسيز بحكم وفاته ؛ ونقل أزدمر قرابة السلطان من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب ، عوضا عن قانصوه اليحياوى بحكم انتقاله إلى نيابة الشام ؛ وقرّر فى نيابة طرابلس بُرد بك المعمار نائب صفد ، عوضا عن أزدمر قرابة السلطان ؛ وقرّر عوضه فى نيابة صفد جانى بك أحد مماليك السلطان ، وكان مقيما بالشام بطالا . ـ وفيه توفى جانم الأعور من يلباى أمير شكار أحد العشرات ، وأصله من مماليك الملك الأشرف برسباى .

وفيه ضرب الأمير يشبك الدوادار الكُرة مع السلطان ، فسقط صَولجان الأمير يشبك من يده ، فترجّل الأمير جانم الشريفى قريب السلطان أحد المقدمين عن فرسه

(٢٢) صولجان: صولنجان.

وأخذ الصولجان من الأرض وناوله للأمير يشبك ؛ فلما كان فى يوم الثانى صنع الأمير يشبك وليمــة حافلة جدا ، وعزم على جانم قرابة السلطان وقانصوه خمسمائة (١٨٦ ب) وآخرين من الأمراء ، فلما حضروا أصلح الأمير يشبك بين جانم وبين قانصوه خمسمائة وكان بينهما وحشة ، ثم أخلع على كل واحد منهما كاملية بصمّور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكانت هذه الوليمة من نوادر الضيافات الحافلة .

وفى ربيع الآخر كان نهاية ضرب الكرة ، وأضاف السلطان الأمراء ضيافة حافلة ، ونزلوا إلى دورهم . ـ ومن الحوادث فى هذا الشهر كانت وفاة الأمير جانم الشريفى قريب السلطان ، أحد المقدمين ، وكان من حين أضافه الأمير يشبك وخرج من عنده وهو مريض ، حتى اتُّهم به الأمير يشبك أنه قد أشغله فى ذلك اليوم فى شىء من الحلوى ؛ فلما تزايد به المرض وتورّمت قدماه حمل فى محفّة وتوجّهوا به إلى بولاق، فأقام هناك بعض أيام ومات ؛ فلما بلغ السلطان ذلك أظهر التأسّف عليه والحزن، ثم أحضر الأمير جانم من بولاق فى محفّة وهو ميت إلى داره ، فغسل هناك وأخرجت جنازته من هناك إلى سبيل المؤمنى ، ومشت قدّامه الأمراء وأرباب الدولة ، ونزل السلطان وصلّى عليه ، ثم توجّهوا به إلى تربة السلطان فدفن بها ، واستمرّ العزاء قائما بالقلعة بدور الحرم ثلاثة أيام .

وقيل إن السلطان جلس بقاعة البحرة ، ورسم لنساء عرب اليسار أن يدقّوا ويلطموا على الأمير جانم وهو ينظر إليهن ، وقد جلس للعزاء وصارت الأمراء تتلطّف به وتسلّيه ؛ وقيل إن جانم كان يقرب للسلطان من جهة النساء ، وكان جميل الصورة حسن الهيئة ، كما بدا عذاره ، وكان ريسا حشما ، وافر العقل ، جليل القدر ، ورأى غاية العزّ والعظمة على صغر سنّه ، أقام فى الطبقة مــدّة يسيرة ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم (١٨٧ آ) بقى ناظر الجوالى ، ثم بقى شاد الشراب خاناه ، ثم بقى مقدّم ألف ، وجاءت إليه السعادة سريعا ، وزالت عنه فى مدّة

(١) الصولجان : الصولنجان .

يسيرة ، وقد دهمه الموت فتوفى وله من العمر دون العشرين سنة ، وكان كريما سخيا سمحا بالعطاء حتى قيل فيه :

فُقْتَ الكرام فى الورى يامطلبا لرايم   ما أنت إلا حاتم تصحّفت بجانم

وكان تزوّج بأخت خوند زوجة السلطان ، فكان له مهم حافل ، وكان له زفّة لم يسمع بمثلها ، وزيّنت له القاهرة بالشموع والقناديل ، وعلّقت له التنانير من سويقة العزّى إلى بين القصرين ، ومشى فى زفّته الأمراء المقدّمون ، وكان الأمير يشبك الدوادار ماسك لجام فرسه ، هو والأمير أزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبقية الأمراء مشاة قدّامه بالشموع من سويقة العزّى إلى دار العلاى على بن خاص بك ، فجُلى هناك ، فكان أبهى من العروسة التى جليت عليه ، كما قد قيل :

ما سمعنا والله فيما سمعنا   بعروس تجلّى عليها عروس

وكان عُرس الأمير جانم من الأعراس المعدودة بحيث لم يقع بعده مثله ؛ فلما انقضت وفاة الأمير جانم كثر الكلام فى حق الأمير يشبك بسبب جانم ، ونسب إلى قتله بالسمّ ، وصار فى تهديد ووعيد من المماليك الجلبان ، ووقع بسبب هذه الحادثة أمور شنيعة يطول الكلام فى شرحها ، وقصدوا قتل الأمير يشبك غير ما مرّة ، وصار السلطان يرجع الجلبان عن الأمير يشبك ، وصار الأمير يشبك يترضّى خاطر المماليك الجلبان بكل ما يمكن ، حتى سكنت هذه الفتنة قليلا ، وصار على رأس الأمير يشبك طيرة من الجلبان ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفى هذا الشهر قدم الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال من ثغر الإسكندرية ، وكان سبب قدومه أن والدته خوند زينب حصل لها توعّك شديد (١٨٧ ب) قد أشرفت فيه على الموت ، فأتى إليها الأمير يشبك ليعودها ، فسألت فضله ن يسأل السلطان فى حضور ولدها الملك المؤيد إلى مصر لتنظره قبل أن تموت ، فلما طلع الأمير يشبك إلى القلعة تكلم مع السلطان فى ذلك ، فرسم بإحضاره ؛ فلما حضر طلع إلى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ، ومعه ولده على ، فقام إليه السلطان

(١) دون العشرين : كذا فى الأصل .

وترحّب به ، وأخلع عليه وعلى ولده ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه الأمير يشبك الدوادار ، وتانى بك قرا ، وآخرون من الأمراء ، فنزل فى داره التى بالجسر الأعظم عند والدته .

وفى جمادى الأولى فى ثالثه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى تاسع عشرين أبيب القبطى ، وكسر فى آخر يوم من أبيب فعُدّ ذلك من النوادر ، فلما أوفى توجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان يوما مشهودا ؛ ثم بعد يومين من كسره زاد النيل عشرين أصبعا ، فغلق الذراع السابع عشر وستة أصابع من الذراع الثامن عشر ، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة . ـ وفيه أخلع السلطان على ألماس الأشرفى ، وقرّر فى شادية الشراب خاناه ، وقرّر بيبرس الرجبى قريب السلطان فى أستادارية الصحبة ، عوضا عن ألماس .

وفيه سافر السلطان إلى ثغر الإسكندرية ، وهى السفرة الثانية ، فتوجّه من البحر فى عدّة مراكب كثيرة ، وكان سبب توجّه السلطان من البحر لعدم الطريق من كثرة ماء النيل على افتراش الأراضى ، وكان معه من الأمراء : الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك من حديد ، والأمير أزبك اليوسفى الخازندار أحد المقدّمين ، وآخرون من الأمراء المقدّمين ، وعدّة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، والجمّ الغفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية ، وكان معه من المباشرين : القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر ، وغيره من أعيان المباشرين ، وكان (١٨٨ آ) معه الشهابى أحمد بن العينى ، وسيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وغير ذلك من الأعيان ، فكان له ببولاق يوم مشهود عند نزوله إلى البحر .

وكان سبب سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرّة لأجل البرج الذى أنشأه هناك وقد انتهى العمل منه ، فتوجّه إليه ليرى هيئته ؛ فلما دخل مدينة الإسكندرية لم يوكب بها مثل أول مرّة ، ولا حُملت القبة والطير على رأسه ، فلما نزل بالمخيم مدّ له نائب الإسكندرية مَدّة حافلة ، ثم توجّه إلى رشيد ، وكشف على

البرج الذى أنشأه بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ، ومن أعظم الأبنية ، وأجلّ الآثار الحسنة ، ومن نوادر أفعال الملوك ، كما قيل :

ليس الفتى بفتاء يستضاء به حتى يكون له فى الأرض آثار

وقيل صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عُقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج ، وقد بُنى على أساس المنار القديم الذى كان بالإسكندرية ، وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلّا على البحر ، يُنظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهى داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعا بخطبة ، وطاحونا وفرنا وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ؛ وجعل حول هذا البرج ، مكاحلا معمّرة بالمدافع ليلا ونهارا ، بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المحمدى ، وهو الذى ولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى ؛ وقيل إن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة (١٨٨ ب) ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف ؛ ثم إن السلطان أقام بثغر الإسكندرية أياما ورحل عنها ؛ ثم جاءت الأخبار بأن السلطان دخل إلى دسوق وزار سيدى إبراهيم الدسوقى وهو ماشى ، وحوله الأمراء ؛ واستمرّ السلطان غائبا فى هذه السفرة إلى أواخر هذا الشهر .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان توفيت خوند زينب والدة الملك المؤيد أحمد ، وهى زوجة الأشرف أينال ، وكانت من أجلّ الخوندات قدرا ، ورأت فى دولة زوجها الأشرف أينال غاية العزّ والعظمة ، حتى صارت تدبّر أمور المملكة من ولاية وعزل ، وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة ، فى سعة من المال ، ولم تتزوج غير

(١) ثم كشف ــ الإسكندرية : هذه الجملة ناقصة فى الأصل ، وقد نقلناها عن نسخة الفاتيكان .

الأشرف أينال ، ولم يتزوج هو أيضا غيرها ؛ وصادرها الظاهر خشقدم غير ما مرّة وأخذ منها جملة مال ، وهى باقية على نظامها ، وعقد ناموسها لم يتغيّر إلى أن ماتت ؛ وقد جاوزت من العمر فوق الثمانين سنة ، وهى زينب بنت حسن بن خليل بن خاص بك ، ولم يجىء بعدها فى الخواندات مثلها ، وكانت من مشاهير الخوندات ، وكانت إذا دخلت على الأشرف قايتباى يقوم إليها ويعظّمها ؛ ولما ماتت لم يحضر جنازتها أحد من الأمراء المقدمين غير تانى بك قرا ، وسبب ذلك أن السلطان كان غائبا ، فلم يجسر أحد من الأمراء يجىء إلى عند الملك المؤيد ، ومع هذا ما سلم الأمر من القال والقيل ، فحضر جنازتها قضاة القضاة وأعيان الدولة .

ثم فى سلخ الشهر حضر السلطان من السفر فى البحر أيضا وطلع من بولاق ، وكان له يوم مشهود ، وقد عُدّ سفره من النوادر كونه توجّه إلى (١٨٩ آ) ثغر الإسكندرية وترك الملك المؤيد بالقاهرة ، مع أن مماليك أبيه الأشرف أينال كانوا فى غاية التنمرد ينتظرون لوقوع الفتن ، وظهر منهم فى غيبة السلطان بعض حركة ، وانكشف رُخّ جماعة منهم فى هذه الحركة ، ونفى فيما بعد منهم جماعة كثيرة ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى جمادى الآخرة أضاف السلطان للملك المؤيد ضيافة حافلة بالبحرة ، وأخلع عليه وعلى ولده ، وأذن له بالعود إلى الإسكندرية ، وقدّم الملك المؤيد للسلطان تقدمة حافلة من مال وتحف ، بسبب موجود والدته الذى خلّفته . ـ وفيه ثبت النيل المبارك على عشرين أصبعا من عشرين ذراعا ، فوافق ذلك مثل العام الماضى حتى عُدّ من النوادر .

وفى رجب سافر الملك المؤيد إلى الإسكندرية ، وقد أقام بالقاهرة نحو شهرين إلا أياما . ـ وفيه ظهر للسلطان بأن طائفة الأيناليه قصدوا إثارة فتنة فى غيبة السلطان ، فلما تحقّق ذلك صار ينفى منهم جماعة شيئا فشيئا ، ثم نفى مملوكه بُرد بك سُكر الخاصكى إلى البلاد الشامية ، وكان قد نُسب إلى أشياء من هذه الإشاعة ؛ وقد تمّرت قلوب المماليك الجلبان بعداوة الأمير يشبك الدوادار ، وقد نُسب على أنه قد سمّ الأمير جانم قريب السلطان ، فانقطع يشبك عن طلوع القلعة أياما ، وكثر

الـكلام فى حقّه بسبب ذلك .

وفيه أخلع السلطان عَلَى على باى ميق ، الذى كان كاشف الشرقية ، وقرّره فى نيابة سيس ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقرّر أزدمر قريب السلطان فى نيابة حماة ، عوضا عن قراجا الطويل الأينالى ، بحكم صرفه عنها ، وسجنه بقلعة دمشق . ـ وفيه رسم السلطان بنفى ستة أنفار منهم ثلاثة من طائفة الأينالية ، ومنهم : أبو يزيد ومسيد (١٨٩ ب) وشاد بك ، وكانوا الثلاثة من الأمراء العشرات ، وثلاثة منهم من مشتروات السلطان ، فتوجّهوا بهم إلى نحو البلاد الشامية ، ثم تتابع النفى لجماعة من الأينالية ، وكثر الـكلام فى ذلك جدا . ـ وفيه قرّر فى قضاء الحنفية بدمشق تاج الدين ابن عرب شاه ، عوضا عن ابن عيد .

وفى شعبان رسم السلطان بنفى الطواشى معروف اليشبكى شاد الحوش ، فنفاه إلى جهة قوص لأمر أوجب ذلك . ـ وفيه أخلع السلطان على برسباى قرا المحمدى الظاهرى ، وقرّر فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن أزدمر الطويل ، بحكم نفيه ، وقرّر فى شادية الحوش سرور السيفى جَرباش كُرد ، عوضا عن معروف اليشبكى . ـ وفيه وصل قانصوه الألفى ، الذى كان قد توجّه إلى بلاد الجركس ، فأحضر معه عدّة من أقارب السلطان ، فأخلع عليه ونزل إلى داره .

وفيه حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند ، صحبة أبو الفتح نائب جدّة ، وعلى يده هديّة حافلة إلى السلطان . ـ وفيه أنعم السلطان على آقبردى قريبه بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الشريفى ناظر الجوالى ، ثم بعد مدّة أرسل إليه بشاش ، ورسم له بأن يلفّ له تخفيفة ، وكذلك قانصوه خمسمائة فإنه بقى دوادار ثانى ، وهو بكوفية بقُندس . ـ وفيه توفى جانم السيفى تمرباى الزردكاش الـكبير ، وكان أحد الأمراء الطبلخانات .

وفى رمضان احتفل الصاحب خشقدم الزمام فى مسايرة حافلة ، وكان قد قرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرر شاهين الجمالى فى أمرة الركب الأول ، وكان قرّر بها أولا جانم الزردكاش الذى توفى ، فـكان للصاحب خشقدم يوم مشهود

بتلك المسايرة ، وقد (١٩٠ آ) أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحجّ فى هذه السنة ، فعمل هذه المسايرة الحافلة ، بسبب توجّه السلطان إلى الحجاز . ــ وفيه أخلع السلطان على مملوكه قان بردى أحد الخاصكية ، وقرّر فى كشف الشرقية، عوضا عن على باى ميق الذى استقرّ فى نيابة سيس ، وقرّر آقباى الطويل فى كشف الغربية .

وفيه قدم بُرد بك جبس ، وكان منفيا فى البلاد الشامية ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان بإحضاره ، فحضر ورضى عليه . ــ وفيه توفى معروف اليشبكى الطواشى شاد الحوش ، مات وهو منفى بالواح ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، وكان لا بأس به ، غير أنه كان عنده تكبّر فى نفسه وتعاظم . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة مسايد الإبراهيمى الأينالى ، وكان من الأمراء العشرات ، فتغيّر خاطر السلطان عليه، فنفاه إلى الشام ، فمات بها . ــ وفيه رسم السلطان بنفى جانى باى الخشن الأينالى تاجر المماليك ، أحد العشرات ، ونفى أبوزيد أزبك الخاصكى الأينالى ، ونفى تغرى برمش أحد العشرات ، والكل أينالية ، وقد سقط نجمهم وبدأ عكسهم ، وصار السلطان فى كل شهر ينفى منهم جماعة فى أماكن شتى .

وفى شوال أخلع السلطان على يشبك الجمالى ، وقرّر فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن جانم السيفى تمرباى ، وقد جمع يشبك الجمالى بين الحسبة والزردكاشية الكبرى . ــ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل الصاحب خشقدم الزمام ، وقد احتفل بعمل برق حافل بسبب سفر السلطان إلى الحجاز ، فكان معه نحو من مائتى وخمسين جملا ، وقيل إن السلطان بعث إليه بثلاثين ألف دينار بسبب عمل هذا البرق ، فكان لخروج الصاحب خشقدم يوم مشهود .

وفى هذا الشهر رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى مقدم المماليك ، وكان يعرف بمثقال البرهانى ، فخرج منفيا إلى (١٩٠ ب) طرابلس ، وكان هذا كله بسبب خروج السلطان إلى نحو البلاد الشامية وتوعّكه هناك ، وقد تزايدت الأقوال بموته ، وحصل بين الأمراء نقل كلام فى من يلى بعده السلطنة ، وانكشف رُخّ جماعة من الأينالية

فى هذه الحركة ، ولم يعلم باطن الأمر فى حقيقة ذلك ، فصار السلطان ينفى كل قليل جماعة من الأينالية ومن مماليكه ، واستمرّ الأمر على ذلك .

فلما خرج الحاج من القاهرة ، ورحل المحمل من بركة الحاج ، نزل السلطان من القلعة فى يوم الخميس ثالث عشرين شوال ، ولم يشعر بسفره أحد من الناس ، فخرج على حين غفلة ، فسافر معه بعض أمراء عشرات ، منهم يشبك الجمالى الزردكاش وآخرون من الأمراء من أخصائه ، وعدّة وافرة من الخاصكية والمماليك السلطانية ، وجماعة من المباشرين ، منهم أبو البقا بن الجيعان ، وغير ذلك من الأعيان ، منهم برهان الدين بن الكركى الإمام ؛ فخرج السلطان من بين الترب ، وسافر بعد صلاة الظهر ، فنزل معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، فودّعاه ورجعا من أثناء الطريق ، فأوصاهما السلطان بحفظ الرعية ، ثم سار على ظُهر للبُويب ، ولم يتوجّه معه أحد من الأمراء المقدّمين ، فعُدّ سفره على هذا الوجه من النوادر .

وفى ذى القعدة رسم الأمير يشبك الدوادار ليشبك من حيدر والى القاهرة بأن يتحدّث فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى ، بحكم سفره مع السلطان ، وكان الأمير يشبك الدوادار هو المشار إليه فى غيبة السلطان . ـ وفى هذا الشهر شرع الأمير يشبك الدوادار فى بناء القبّة التى أنشأها فى (١٩١ آ) رأس دور الحسينة ، وأخرب عدة ترب كانت هناك ، ثم أنشأ بهذا المكان غيطان ومجارى وسواقى ، وقصد أن يجعله من جملة مفترجات القاهرة ، ولو عاش لفعل ذلك ، فجاءت القبّة من محاسن البناء فى ذلك المكان .

وفى ذى الحجة كان انتهاء عمارة الربع الذى أنشأه السلطان بحدرة الكبش ، وكان الشاد على العمارة نانق المؤيدى أحد العشرات . ـ وفيه قدم مبشّر الحاج ، وهو شخص من الخاصكيه يقال له أسنباى ، وقد استمرّ اسمه بالمبشّر بعد ذلك ، فأخبر بسلامة السلطان ، وأنه دخل إلى مكة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، وأنه تصدّق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، ووقع منه

(٢) الأينالية : الأينالة .

تواضع وخضوع إلى الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم فى شىء يتملق بالأحكام بين الناس ، وفعل فى الطريق أشياء كثيرة من وجوه البرّ والمعروف ، فحصل لأسنباى المبشّر جملة خلع وماله صورة من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة .

وفيه جهّز الأتابكى أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان بالعقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفى أحد المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتمّ الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ، ودهان أبوابها ، وضرب الرنوك السلطانية عليها ، وجلاء واجهة القصر الأبلق وما يليه ، حتى ظهر رخامه الملون ، وقد احتفل فى إصلاح ذلك جدا . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بك بن حسن الطويل ملك العراقين ، وكان أكبر أولاد حسن الطويل ، فثار عليه بعض أمرائه فقتله ، فلما مات ولى من بعده أخوه (١٩١ ب) يعقوب ، وكان من خيار بنى حسن الطويل . ـ وتوفى تانى بك الأشقر المحمدى البواب ، أحد العشرات ، وكان كاشف المنوفية ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم بعث السلطان نجّابا إلى الأمراء ، وأخبر النجّاب بأن السلطان دخل إلى المدينة الشريفة ، وزار وأنعم بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل إلى نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بأن لا يخرج إلى ملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبّة الأمير يشبك التى بالمطرية ، فبادر الأمراء بالخروج إلى هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلى البُويب ، فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وبقيّة الأمراء ، من المطرية وتوجّهوا إلى ملاقاة السلطان ،

فلما وصلوا إلى البُويب اجتمعوا بالسلطان هناك ، وساروا قدّامه حتى وصل إلى الوطاق الذى بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله فى ثانى عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ؛ فلما نزل بقبّة الأمير يشبك مدّ له الأتابكى أزبك هناك مَدّة حافلة جدا ، وبات السلطان هناك ، وحضر إلى عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنّوه بقدومه .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشره أوكب السلطان من هناك ، وحمل الأتابكى أزبك على رأسه القبة والطير ، وركب قدّامه الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش، وسارت القضاة الأربعة قدّامه ، فدخل من باب النصر ، وشقّ من القاهرة وقد زّينت له زينة حافلة ، واستمرّ فى هذا الموكب الحافل ، وطلّب طُلْبا حافلا ، ولعبوا قدّامه بالغواشي الذهب ، ومشت بين يديه الجنايب وهى بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية وابن رحاب المغنى ، وجماعة الجاوشية ، واصطفّت له جوق المغانى من النساء (١٩٢ آ) على الدكاكين ، وفُرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من التبانة إلى القلعة .

فلما طلع فَرشَت له خوند عدّة شقق من باب القلعة إلى الحوش ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وتوشّحت الخدّام بالبنود الحرير الأصفر ، وتخلّقت بالزعفران فى شاشاتها ، فلما دخل السلطان إلى الحوش مدّ له هناك الأمير يشبك الدوادار مَدّة حافلة ، أعظم من مَدّة الأتابكى أزبك التى مدّها بالقبة ؛ ثم إن السلطان أخلع على من كان معه من أرباب الوظائف ، ونزلوا إلى بيوتهم ، وانفضّ ذلك الموكب ؛ وعُدّت هذه الحجة للسلطان من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف ما يعدل مائتى ألف دينار ، من أمير مكة وقضاتها ومن أعيان التجار الذين بها ، وكذلك من أمير المدينة الشريفة وقضاتها، ومن أمير الينبع، وغير ذلك، انتهى ؛ وقد نظم الشعراء فى هذه الواقعة عدّة قصائد ، فمن جملة ذلك قول الشهاب المنصورى :

---

(٢) الذى : التى . (٢١) الذين : الذى .

قدم السرور بمقــدم السلطان   من حجّه المقبــول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف الــراقى   سماء الحسن والإحسان
٣ فدعاؤنا ببقائه فى نعمة   وسلامة فرض على الأعيان
ولقد علِمْنا أن طاعة أمره   أو نَهْيِهِ دينٌ من الإيمان
لما نوى حجًّا ولبّى محرماً   عمّ الأمان مراتع الغزلان
٦ والوحش فى أبياتها والدوح فى   أنباتها والطير فى الطيران
فالحزن سهل والمخاوف مأمن   والضنك رحب والتباعد دان
حُظيتْ به أم القرى مذ زارها   واشتاقه مصر أبو البلدان
٩ فكلاهما يدعو بعزّة نصره   وبقائه ملكا لكل زمان
والكعبة افتخرت وودّت أنها   فى خدّ دولته من الخيلان
نَصبتْ ستائرها لرفع مقامه   ثم انثنتْ مجرورة الأردان
١٢ (١٩٢ب) لو أنها عقلت لخرّت حُرمةً   لله ساجدة على الأذقان
أو أحسنت رقصا لفرحتها به   رقصتْ له بمعاطف الأركان
ولسلّمت جهرا عليه وأبذلت   سرّ السلام عليه بالإعلان
١٥ فاطّوّف الملك الهمام بها إلى   سبع ولولا الحدّ زاد ثمان
وصفا له قلب الصفا والمرْوة أســتَرْقت   به مرق بنى مروان
وأفاض منذ أفاض من عرفاتها   دمع اشتياق سال كالغدران
١٨ وعلى منى بلغ المنى من ربّه   ورمى الجمار بمهجة الشيطان
وقضى مناسك حجّه فاتمّها   مختومة بالحمد والشكران
بأبى حنيفة مقتدٍ فى دينه   فليبتهجْ بشقائق النعمان
٢١ وافا كبدر التمّ بين نجومه   حسن المحجّة واضح البرهان
فاستبشرت مصر وهنّا بعضها   بعضا بعودته إلى الأوطان
فالحمد لله الذى جبر الورى   ورعى القرى بسلامة السلطان
٢٤ ثم الصلاة على النبي المصطفى   خير الأنام وآله الشجعان

ما لاح فجر أو تألّق بارق أو غرّدت وُرْق على العيــدان

فلما استقرّ السلطان بالقلعة أخذ فى أسباب تفرقة الهدية على الأمراء ، فابتدأ بالأتابكى أزبك ، ثم على بقية الأمراء ، ثم على المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدّموا للسلطان (١٩٣ آ) أيضا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك . ـ وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وحمدت سيرة الصاحب خشقدم الزمام أمير ركب المحمل . ـ وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى القرافة ، فزار ثم رجع من جهة مصر العتيقة ، وطلع من على قناطر السباع ، وأتى إلى الـكبش فـكشف عن عمارته التى أنشأها هناك ، ثم طلع إلى القلعة من جهة الصليبة ، وكشف عن عمارة سبيله الذى أنشأه برأس سويقة عبد المنعم التى بالرملة ، وكان الشادّ على عمارته الأمير تانى بك قرا أحد المقدّمين ، ثم طلع من باب السلسلة إلى القلعة . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قراجا الطويل الأينالى الذى كان نائب حماة ، مات بطالا بالقدس ، وكان لا بأس به . ـ وفيه ضرب السلطان قانم الأشرفى الذى كان كاشف الشرقية فضربه بين يديه ورسم بنفيه إلى طرسوس .

وفى صفر قرّر خالص التـكرورى الطواشى فى تقدمة المماليك ، عوضا عن مثقال البرهانى ، وقرّر سرور الشامى نائب المقدّم ، عوضا عن خالص . ـ وفيه قدم تمراز الشمسى رأس نوبة النوب من البحيرة ، وقد أتى ليُهـنّى السلطان بعوده من الحجاز . ـ وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة بحماة ، وقُتل فيها نائب حماة أزدمر من أزبك قريب السلطان ، وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل كان قد خرج عن الطاعة ، فحاربه أزدمر نائب حماة المقدّم ذكره ، فقتل فى المعركة ، وقتل معه جماعة من أمراء حماة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر جدا .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان حافلا ؛ ومما وقع فى ذلك اليوم أن السلطان لما تـكامل المجلس بالقضاة الأربعة والأمراء ، وانتهى أمر السماط ، (١٩٣ ب) حضر كاتب السرّ ابن مزهر ، وأبو البقا بن الجيعان ، وخشقدم الزمام ، وخلفهم ستة أطباق على رءوس ستة طواشية ، فحُطّت بين يدى

السلطان بحضرة القضاة والأمراء ، وكشفوا عنها فإذا فيها ستون ألف دينار ذهب عين ، فأخذ كاتب السرّ يقول فى المجلس العام إن السلطان نصره الله تعالى ، لما حجّ فى العام الماضى ، رأى أهل المدينة المشرفة فى فاقة زائدة من عدم الأقوات ، فنذر مولانا السلطان فى نفسه بأن يفعل بالمدينة المشرفة خيرا يكون مستمرّا من بعده ، وقد خرج عن هذا المال لله تعالى ، وهو من وجه حِلّ من خالص ماله دون مال بيت المسلمين ، ليُشترى به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع وأماكن وربوع ، وغير ذلك ، ما يُصنع بالمدينة فى كل يوم من الدشيشة والخبز والزيت وغير ذلك ، كما يُفعل بمدينة الخليل عليه السلام ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء فى ذلك المجلس ؛ ثم أمر السلطان بأن يكون هذا المال تحت يد قاضى القضاة الشافعى حتى يُشترى بها أماكن أو ضياع ، فامتنع القاضى من ذلك واعتذر عن تسليمه حتى عُفى من ذلك ؛ ثم شرع السلطان فى بناء تلك الربوع التى أنشأها فى باب النصر ، وفى البندقانيين والخشابين والدجاجين ، وغير ذلك من الأماكن وغيرها ، انتهى ذلك .

وفيه نزل السلطان إلى قبّة الأمير يشبك ، فلما عاد وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائعة ، وأن من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين ، فلما طلع إلى القلعة وأصبح ، رسم للصاحب قاسم شغيتة بأن يتكلم فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى ، وكان لما تولى الزردكاشية أهمل أمر الحسبة ، وضاعت المصالح فى أمور البضائع وغيرها ، وزاد سعر الغلال ، (١٩٤ آ) ووقع بالقاهرة تشحيطة فى الخبز فى تلك الأيام ، وكادت أن تكون غلوة .

وفيه عيّن السلطان الأمير يشبك الدوادار للخروج إلى حماة ، بسبب قتال سيف أمير آل فضل الذى قتل أزدمر نائب حماة ، كما تقدم ذكر ذلك ؛ وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يشبك ، ولم يعد منها إلى مصر ؛ وعيّن معه من الأمراء المقدّمين برسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا ، وعدّة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وعدّة وافرة من الجند ، وقد لهج الناس بأن هذه التجريدة قد خرجت

---

(١١) التى : الذى .

لسيف ، وكان الأمر كذلك ، وراح أكثر الأمراء والعسكر على السيف ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تَنْطِقنّ بما كرهتَ فربّما نَطَق اللسان بحادث سيكون

وقال آخر :

احفظ لسانك أن تقول فتبْتلى إنّ البلاء موكل بالمنطق

وكان الأمير يشبك له غرض تام فى سفره إلى ديار بكر ، وقد سأل السلطان فى ذلك بنفسه ، والسبب فى ذلك أن الأمير يشبك كان قد وقع بينه وبين جلبان السلطان بسبب جانم الشريفى قريب السلطان ، وقد اتُّهم به أنه أشغله ، فصار مع الجلبان فى تهديد ، وقصدوا قتله غير ما مرّة ، فحسّن له بعض الأعاجم بأن مملكة حسن الطويل سايبة ، والعسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربتهم لايقووا على محاربتك ويسلموك مملكة العراق قاطبة ؛ فانصاع الأمير يشبك إلى هذا الكلام ، وسأل السلطان فى السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شىء سبب (١٩٤ ب) لينفذ القضاء والقدر ، فكان كما قيل فى المعنى :

أتطمع من ليلى بوصل وإنما تقطّع أعناق الرجال المطامع

فلما عيّن السلطان الأمراء عرض بعد ذلك الجند وكتب منهم نحوا من خمسمائة مملوك، وكان الأكثر منهم من طائفة الأينالية ، فلما عرضهم نفق عليهم وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يشبك ، فبلغت النفقة عليهم فى هذه الحركة زيادة على المائة ألف دينار . ــ وفيه أخلع على الأمير تغرى بردى ططر أحد المقدّمين ، وقرّر فى أمرة ركب المحمل ، وقرّر يشبك من حيدر والى القاهرة فى أمرة الركب الأول.ــ وفيه توفى السيد الشريف زين العابدين القادرى ، وهو محمد بن محمد بن على بن على ابن حسين القرشى الهاشمى السنجارى الحنبلى ، وكان ريسا حشما فى سعة من المال ، كثير التواضع حسن الملتق .

وفيه أخلع السلطان على قانصوه خمسمائة دوادار الأمير يشبك ، وجعل له التحدّث فى الأستادارية إلى أن يعود أستاذه ، فاستعفى من ذلك وأظهر السفر صحبة أستاذه ،

فقرّر فى التكلم فيها مجد الدين بن البقرى . ـ وفيه قرّر جانم دوادار الأمير يشبك فى كشف أسيوط ، عوضا عن قرقماس الأعور ، فاستعفى جانم من ذلك ، واستقرّ بها سيباى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، وطُلب قرقماس للسفر صحبة يشبك .

وفى سلخ هذا الشهر كانت وفاة شيخ مذهب الشافعية بمصر الشيخ سراج الدين عمر ابن حسن بن حسين الشافعى العَبادى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم مفتيا ، وصار أحفظ أهل زمانه بمذهبه بمصر ، وكان متطرّح النفس جدا ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : نظر الأحباس ، (١٩٥ آ) ومشيخة خانقاة سعيد السُعداء ، وغير ذلك من الوظائف ، ومولده سنة إحدى وثمانمائة . ـ وفيه نودى بأن تكون معاملة الفضة بالميزان ، وكانت قد خفّت جدا .

وفى ربيع الآخر خرج الأمير يشبك إلى التجريدة من غير تطليب ، وكان عليه خمدة زائدة ، فتفاءل الناس بأنه لا يعود إلى مصر أبدا ، وكذا جرى ، وصار الناس يقولون خرج لسيف فكان هذا فألا عليه . ـ وفيه قرّر جانم الأعرج السيفى جانى بك نائب جدّة فى نيابة حماة ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان .

ومن الحوادث أن السلطان برز أمره إلى سيباى كاشف الوجه القبلى ، بأن يقطع رأس أزدمر الإبراهيمى الطويل الأينالى ، الذى كان حاجب الحجاب وتغيّر خاطر السلطان عليه فنفاه إلى مكة ، ثم نقله بعد مدّة من مكة إلى أسيوط ، فأُحضر من على جهة القُصير وسُجن بأسيوط ، وكان بينه وبين الأمير يشبك عداوة ، وقصد أزدمر قتل يشبك غير ما مرّة ، بل وقتل السلطان أيضا ، فلما برّز الأمير يشبك خامه بالريدانية ، عند سفره إلى تجريدة سيف أمير آل فضل ، أرسل يشبك يقول للسلطان ما أرحل من هنا حتى تقطع رأس أزدمر الطويل وتجىء إلىّ ، وبقى عدّة أيام لا يرحل وهو فى انتظار ذلك ، فأرسل السلطان يوسف النوّام ، الذى كان والى قوص ، إلى سيباى كاشف الوجه القبلى بقطع رأس أزدمر الطويل ، فتوجّه إليه فى الخفية إلى أسيوط وعلى يده مرسوم السلطان إلى سيباى بقطع رأس أزدمر ، فحُزّت رأسه بأسيوط ووضعت فى علبة وأُحضرت إلى بين يدى (١٩٥ ب) السلطان ، فنظر إليها ثم أرسلها

إلى عند الأمير يشبك فنظر إليها ، وكُتم هذا الأمر عن النـاس ، بل وما خفى واستفاض من يومه ؛ وكان أزدمر هذا من أعيان الأينالية ، شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية ؛ ثم إن الأمير يشبك رحل من الريدانية وقد نال قصده من أزدمر الطويل، فما عن قريب حتى قُطعت رأس الأمير يشبك بعد ذلك بمدّة يسيرة ، والمجازاة من جنس العمل ، كما سيأتى الـكلام على ذلك .

وفيه توفى بُرد بك التاجى الأشرفى أحد المشرات ، وكان لا بأس به . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ، وعلى قاضى القضاة الحنبلى بدر الدين السعدى ، فعزل القاضى الشافعى ، ورسم بنفى القاضى الحنبلى إلى قوص ، ولم يكن سبب ذلك كبير أمر يستحقّ لهذه الـكاينة ، بل كان من أمر القاضى الشافعى ما هو بسبب تركة إنسان ، والقاضى الحنبلى بسبب كتاب وقف أو نحو ذلك ، فاستمرّ أمرهما فى اضطراب مدّة أيام ، وتـكلموا مع السلطان فيمن يلى قضاء الشافعية وقضاء الحنابلة ، وكتبت قائمة بأسماء جماعة من طائفتى المذهبين ، ثم آل الأمر إلى إعادتهما إلى ما كانا عليه بشفاعة الأتابكى أزبك ، فأُخلع على القاضيين ونزلا إلى دورهما ، وكان لهما يوم مشهود .

وفى جمادى الأولى توفى القاضى شرف الدين يحيى بن الجيعان ، مستوفى ديوان الجيش ، وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغنى القبطى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ريسا حشما ، وله اشتغال بالعلم ، وكان علامة فى الفرائض . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص كان ، فرسم بتسميره ، فسُمّر على جمل وطيف به القاهرة ، وتوجّهوا به إلى قنطرة (١٩٦ آ) الحاجب ليوسّطوه هناك ، وكان هيئته وهو مسمرّ على الجمل وعلى رأسه عمامة صغيرة وهو لابس كبر أبيض ، فلما وصل إلى هناك وقع فيـه شفاعة ، فعادوا به وقد أركبوه على فرس ، وفرح الـكثير من الناس بسلامته .

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بشنق تاج الدين بن المقسى بعد أن عنى عنه ، فتوجّهوا به إلى غيط الحاجب ، فشنقوه على جيزة هناك ، وشُنق معه فى ذلك اليـوم

قاسم بن بقر أمير عربان جدام بالشرقية ، وكان لهما يوم مهول ، وكان اسمه عبد الله ابن نصر الله القبطى ، وكان ريسا حشما ، كيّسا حسن الهيئة ، لطيف الذات ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : كتابة المماليك ، ونظر الدولة ، ونظر الجيش ، ونظر الخاص ، والأستادارية ، وغير ذلك من الوظائف ، ومات وهو فى عشر الخمسين ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وقاسى فى أواخر عمره أهوالا وشدائد ومحنا ، وضُرب بالمقراع على أجنابه فى يوم شديد البرد ، وآخر ذلك شُنق ؛ ووسّطوا مجد الدين بن البقرى الذى كان أستادارا فى بركة الكلاب . ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة . ــ وفيه نزل السلطان فى مركب وتوجّه إلى نحو قليوب ، ثم طاب له رؤية البحر ، فأقلع من هناك وتوجّه إلى جهة الوجه القبلى ، حتى وصل إلى نحو طنبدى ، ثم عاد إلى القلمة .

وفى رجب جاءت الأخبار بقتل سيباى العلاى الأينالى كاشف الوجه القبلى ، قتله بعض العرب بخنجر فى بطنه وهو راقد على فراشه بساحل طما ، وكان شابا حسن الهيئة ، شجاعا بطلا من خيار الأينالية ، وهو الذى حزّ رأس أزدمر الطويل ، فكان بينه وبين قتل أزدمر الطويل شهرين وبعض أيام . ــ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة برهان الدين بن إبراهيم بن عمر بن حسن بن على بن أبى بكر الجرباوى البقاعى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا ماهرا (١٩٦ ب) فى الحديث ، وليس من مساوئه سوى حطّه على الشيخ عمر بن الفارض ، فلما قامت عليه الدائرة بسبب ابن الفارض توجّه إلى دمشق فمات بها . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار لما دخل إلى الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه اليحياوى وتوجّه إلى حلب ، وأن قانى باى صلق توفى بحلب ، وكان صحبة الأمير يشبك ، وكان قانى باى صلق أصله من مماليك شاد بك الجكمى ، وارتقى حتى بقى أمير طبلخاناه رأس نوبة ، وكان لا بأس به ، ورأى غاية العزّ فى دولة الأشرف قايتباى .

وفى شعبان كان انتهاء عمارة القناطر التى بالجيزة ، وأخلع على الأتابكى أزبك بسبب ذلك كون أنه كان شادّا على العمارة ، فجاءت من أجلّ آثار الملوك ، وقيل

إن السلطان أصرف على عمارة هذه القناطر نحوا من مائة ألف دينار . ــ وفيه توفى بدر الدين بن الكُويز ، وهو محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن داود بن خليل الشوبكى ، وكان ريسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : معلم المعلمين ، ونظر الخاص ، وغير ذلك من الوظائف ، ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

وفى رمضان كان ختم قراءة البخارى بالقلعة ، وفُرّقت الخلع والصرر على القضاة ، وعلى مشايخ العلم ، وكان قارىء الحديث الشريف برهان الدين بن الكركى إمام السلطان ، فأخلع عليه ونزل من القلعة فى جمع حافل . ــ وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قبة الإمام الشافعى رحمة الله عليه ، وكان الشادّ على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن .

وفيه كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الأمشاطى محمد بن أحمد بن حسن بن إسماعيل بن يعقوب المينتابى الكجكاوى (١٩٧ آ) الحنفى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى علوم مذهبه ، وافر العقل فكه المحاضرة ، وناب فى القضاة مدّة طويلة ، ثم ولى القضاء الأكبر وباشره بعفّة زائدة وحرمة وافرة ، وحُمدت سيرته ، وامتاز على غيره من قضاة عصره ، وصمّم على عدم حلّ الأوقاف فى أيامه ، وجمع بين القضاء ومشيخة البرقوقية ، وكان نادرة فى عصره ؛ فلما توفى الأمشاطى تكلموا مع السلطان فيمن يلى القضاء عوضا عن الأمشاطى ، فلم يوافق على أحد يوليه من أهل مصر ، ثم أرسل خلف شخص من الشام يقال له شرف الدين موسى بن عيد ليَلى القضاء ، واستمرّ منصب قضاة الحنفية شاغرا إلى أن يحضر ابن عيد .

وفى شوال جاءت الأخبار من الرّها بوقع كاينة عظيمة طامّة ، قُتل فيها الأمير يشبك الدوادار ، وانكسر العسكر قاطبة ، وقُتل الأكثر منهم ، وكان سبب ذلك أن الأمير يشبك لما دخل إلى حلب ، كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب ، ونائب حماة ، ونائب طرابلس ، والعسكر المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك من العساكر ، فلما استقرّ بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذى خرج بسببه قد فرّ وتوجّه إلى

(١١) العينتابى : العنيتابى .

نحو الرُّها ، فقوى عزم الأمير يشبك بأن يعدّى من الفراة ويتبع سيف فى أى مكان كان فيه ، فكان كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشىء وفيه هلاكه لو كان يدرى

فعدّى من الفراة هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف إنسان ، فلما عدّى توجّه إلى نحو الرُّها وكان المتولى أمرها يومئذ شخصا يقال له بايندُر ، أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل ، فحاصر الأمير يشبك (١٩٧ ب) مدينة الرُّها أشدّ المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها أرسل بايندُر يتلطّف بالأمير يشبك ، وقال له : ضمان مسك سيف علىّ ، وأرسل يقول له : ارحل عن الرُّها وأنا أجمع لك من أهل المدينة مالاًله صورة ، فأبى الأمير يشبك من ذلك لما رأى كثرة تلك العساكر التى معه ، فطمعت آماله فى أخذ مدينة الرُّها ، ويزحف من بعد ذلك على مُلْك العراق كما قد حسّنوا له ذلك ، فزعق النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز إليهم بايندُر بمن معه من العساكر ، وتحارب معهم .

فلم يكن إلا ساعة يسيرة وقد كُسر عسكر مصر ، وبقيّة العساكر قاطبة ، فأُسر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه ، فأتوا به إلى بايندُر ، وأُسر معه نائب الشام قانصوه اليحياوى ، ونائب حلب أزدمُر ونائب حماة جانم الجدّاوى ، وقُتل بُرد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وأُسر برسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ؛ وقُتل من الأمراء المشرات ، ومن أمراء الشام وحلب ، ما لا يحصى ، وقُتل من العساكر التى كانوا مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم ، فكانت حوافر الخيول لا تطأ إلا على جثث القتلاء من العسكر .

فكان ما قُتل من أعيان عسكر مصر ، وهم : بُرد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وهو بُرد بك المعار السيفى جرباش كُرد ، وجانى باى أخو سيباى أحد الأمراء العشرات ، وجانى باى أخو تانى بك قرار ، وسُوزار الأشرفى ، وكان علّامة فى الرمى بالنشاب ، وطقطمُش اُلخشقدمى أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من

(١٩) القتلاء : كذا فى الأصل .

(١٩٨ آ) أقارب سِوار ، وقانصوه البواب الأينالى أحد العشرات ورءوس النوب ، وقُرقاس قَراقاش المحمدى الظاهرى أحد العشرات ورءوس النوب ؛ وأما الذى قُتل من الخاصكية والمماليك السلطانية فما ضُبط لكثرته ، وقُتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم ، وكانت مصيبة عظيمة مهولة قلّ أن يقع مثلها لعسكر مصر .

وأما ما كان من أمر يشبك الدوادار ، فإنه أقام عند بايندُر فى الأسر ثلاثة أيام ، ثم فى اليوم الرابع بعث إليه بعبد أسود من عبيد التركمان ، قطع رأسه تحت الليل وأحضرها بين يدى بايندُر ، وقيل إنه حزّ رأسه بالسيف عدّة مرار ، وهى لا تنقطع ، فقطعها بسكين صغيرة ، وعذّبه غاية التعذيب ، فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس ، وهى مرمية على قارعة الطريق ، وعورته مكشوفة ، حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض ، فسبحان من يعزّ ويذلّ ، فكان كما قيل فى المعنى :

ما أعجب الدهر فى تقلّبه والدهر لا تنقضى عجائبه
وكم رأينا فى الدهر من أسد بالتْ على رأسه ثعالبه

وقيل إن الأمير يشبك حلق رأسه قبل أن يُقتل بيوم ، ثم نظر وجهه فى مرآة وقال : يا ترى يا رأس بقيت تدخلى إلى مصر ، أو تدخلى إلى ماردين ؛ ومن العجائب أن الأمير يشبك كان جماعة من المنجّمين يخبروه بأنه يُقتل على يد شخص يسمى أزدمر ، فظن أنه أزدمر الطويل ، فبادر إلى قتله ، فلما أحضر إليه بايندُر ذلك العبد الأسود ليقتله ، فقال له يشبك : ما اسمك ؟ قال : أزدمر ، فعند ذلك تيقّن بأنه هو الذى يقتله بيده ، وراح أزدمر الطويل ظلما ، فكان هو ذلك العبد الأسود ، انتهى ذلك .

فلما قُطعت رأس الأمير يشبك ، بعث بها بايندُر إلى بلاد العجم ، إلى عند يعقوب ابن حسن الطويل ، فكان لها يوم مشهود بمدينة ماردين ، فطافوا بها بلاد العجم وهى

(١٥-١٦) وقيل - ماردين : كتبت فى الأصل على هامش صفحة ١٩٧ ب .
(١٧) يخبروه : كذا فى الأصل .

على رمح ، وألبسوا رأس الأمير يشبك تخفيفته الكبيرة لماطافوا بها ؛ وطافوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم فى قيود وزناجير ، والمماليك الذين أسروا مشاة ، وأرسل بايندُر إلى يعقوب بن حسن بجميع ما نُهب للعسكر ، من خيول ومال وسلاح وقماش وبرك ، وغير ذلك أشياء كثيرة ما لا تُحصى ، (١٩٨ ب) وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة .

وكانت قتلة الأمير يشبك فى العشر الأخير من رمضان سنة خمس وثمانين وثمانمائة بالرُّها، فكانت مدة الأمير يشبك فى الدوادارية الكبرى نحو أربع عشرة سنة ، إلى أن قُتل بالرُّها كما تقدم القول على ذلك ؛ وكان الأمير يشبك أميرا جليلا معظّما ، فى سعة من المال ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتراوات الظاهر جقمق ، وكان يعرف بيشبك من مهدى ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى حتى صار صاحب الحلّ والعقد بالديار المصرية ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية، منها : الدوادارية الكبرى ، وأمرة السلاح ، والوزارة ، والأستادارية الكبرى، وكاشف الكُشّاف ، ومدبّر المملكة ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، فعظم أمره جدا ، ووقع له أشياء غريبة لم تقع لغيره من أبناء جنسه فى عصره ، ومات وله من العمر نحو من ستة وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلا ، وكان صفته أبيض اللون ، ومدوّر الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملىّ الجسد .

وأنشأ أشياء كثيرة من العمائر بالديار المصرية ، ما بين ربوع وحوانيت ، ودور جليلة ، وصهاريج ، والمغسل ، وأسبلة ، وزوايا ، وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة برأس الحُسينة ، وتربة عظيمة بالقرب من زاوية كهنبوش ، وغير ذلك من الزوايا والآثار الحَسَنة؛ وكان له فى كل سنة عدة شقادف محمّلة على جمال ، ومعها الزاد والماء ، تلاقى الحجاج من العقبة ، بسبب المنقطعين من الحجاج ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البرّ والمعروف ؛ وكان له محاسن ومساوئ ، وفيه الخير والشر ، وقد ساقه أجله حتى

(٢) الذين : الذى . (١٩) وزوايا : وزوايه . (٢٠) الزوايا : الزاوية .

خرج (١٩٩ آ) فى هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل ، فكانت منيّته بالرُّها، وكان الأمير يشبك باغيا على بايندُر ، فإنه قصد محاربته من غير سبب ولا موجب لذلك ، فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان فى وَكْره   يوما فلا يأمن من لَسْعته

وقد نهى بعض الحكماء عن التوجّه إلى بلاد الشرق من غير حاجة ، فقال :

إذا شئت أن تلقى دليلا إلى الهدى   لتقفو لآثار الهداية من كاف
فخلّ بلاد الشرق عنك فإنها   بلاد بلا دال وشرقٌ بلا قاف

ولكن قُدّر فى الأزل بأن قبض روح الأمير يشبك يكون بالرُّها ، فسبّب له الأسباب لذلك ؛ وقد رُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة ؛ ومن النكت اللطيفة ما رُوى فى بعض الأخبار أن ملك الموت زار سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ويطيل النظر إليه ، فقال ذلك الرجل لسليمان عليه السلام : ومن هذا الرجل الذى يطيل إلىّ النظر ؟ فقال له سليمان : هذا ملك الموت ؛ فاضطرب ذلك الرجل منه ، وقال لسليمان عليه السلام : يا نبى الله أقسمتُ عليك بالله تعالى ألا ما أمرت الريح يحملنى من هنا ويلقينى خلف جبل قاف ؛ فأمر سليمان الريح بأن تحمل ذلك الرجل وتلقيه خلف جبل قاف ، فلما حملته الريح إلى هناك ، قال ملك الموت لسليمان عليه السلام: كان نظرى إلى هذا الرجل تعجّبا منه ، لأنى أُمرت بقبض روحه (١٩٩ ب) خلف جبل قاف ، وقد وجدته بحضرتك ، فصرت متعجّبا من ذلك ؛ فلما مضى الرجل خلف جبل قاف قبض ملك الموت روحه هناك كما أُمر ، وهذا مصداق للحديث الشريف، فكان قبض روح الأمير يشبك بالرُّها، انتهى ذلك .

فلما ورد هذا الخبر على السلطان اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة عن آخرها، وكان يوما مهولا ؛ ثم أشيع بين الناس أن الأمير يشبك فى قيد الحياة ، وهو فى الأسر عند بايندُر ، وقيل إنه فرّ بنفسه وهو مختفى عند بعض التراكمية ، واختلفت الأقوال فى أمره ، وصارت دكّة النقباء على بابه بعد قتله مدة طويلة ، ونظامه باق على حاله ،

ووقع الشك فى حقيقة قتله ؛ ثم أشيع بين الناس أن السلطان قصده السفر إلى حلب بنفسه ، ويقيم بها خوفا من عسكر يعقوب بن حسن أن لا يطرق حلب والشام ، فإن النواب قاطبة كانوا فى الأسر عند يعقوب بن حسن .

ثم إن السلطان عيّن الأتابكى أزبك إلى السفر إلى حلب ، وعيّن معه وردبش أحد المقدمين ، وأخلع عليه وأقرّه فى نيابة حلب ، عوضا عن أزدمر ، وعيّن من الأمراء الطبلخانات والعشرات عدّة وافرة ، منهم جانى بك حبيب أمير آخور ثانى ، وآخرين من الأمراء ، ثم عرض الجند وكتب منهم جماعة كثيرة ، ونفق عليهم واستحثهم على الخروج بسرعة ، قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب ، ولولا فعل ذلك خرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكى أزبك من القاهرة هو والعسكر فى تجمّل ، وكان لهم يوم مشهود ، وفوّض السلطان أمر البلاد الشامية والحلبية (٢٠٠ آ) للأتابكى أزبك ، وجعل له التكلم فى أمور المملكة من ولاية وعزل ، ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل إليه السلطان وودعه ، وجلس عنده مليّا ، واشتورا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكاينة ، ثم إن الأتابكى أزبك سافر فيما بعد .

وفيه عيّن السلطان تمراز الشمسى قريبه لنيابة الشام ، فامتنع من ذلك وادّعى الفقر وعدم اليرق ، فوبخه السلطان بالكلام ، فحنق منه تمراز ونزل إلى داره وأغلق بابه ، ولم يجتمع بأحد من الناس ، وصرف نقباءه عن بابه ، وكثر القال والقيل فى ذلك ، فأرسل السلطان يقول له : توجّهْ إلى مكة وأقمْ بها بطالا ؛ واستمرّ فى هذه الحركة أياما وهو فى اضطراب ، والسلطان يستحثه فى سرعة الخروج إلى مكة ، ثم إن الأتابكى أزبك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع إلى القلعة وقابل السلطان ، وأخلع عليه ونزل إلى داره فى موكب حافل ، وقد زال ما كان بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام ؛ ثم تحوّل أمر نيابة الشام إلى قجماس الإسحاقى أمير آخور كبير فأخلع عليه وقرّر فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم أسره عند

(١٧) نقباءه : نقباؤه .

يعقوب بن حسن الطويل .

وفى عقيب ذلك وقف الأمير خاير بك من حديد إلى السلطان ، وسأله فى إقطاع الأمير يشبك الدوادار ، فنتر فيه السلطان ، فنزل إلى داره مغضبا ، وأغلق بابه وصرف غلمانه ، وامتنع من الاجتماع بالناس ، وتكلم بكلمات كثيرة فى حق السلطان ، وكان الأمير خاير بك صعب المراس ، شديد الخلق ، قوىّ الرأس ؛ فلما بلغ السلطان ذلك بعث بإحضاره ، فاختفى خاير بك وخرج من داره ، ولبس له جبّة صوف أبيض ، وتعمّم بمئزر صوف أبيض ، وأخذ بيده سبحة ، وادّعى أنه (٢٠٠ ب) قد ترك الدنيا ، وبقى فقيرا مجرّدا ، فتوجّه إلى جامع قيدان الذى بقناطر الأوز ، وكان أنشأ به جوسقا مُطلّا على البركة التى هناك ، فأقام به ، فلما بلغ الأمير تمراز ذلك توجّه إليه وتلطّف به فى عوده إلى داره ، فلم يوافق على ذلك واستمرّ مصمّما على عدم عوده ، وبقى هناك أياما .

ثم إن السلطان أرسل إليه قانصوه خمسمائة ، فأخذه من هناك وشكّه فى الحديد ، وطلع به إلى القلعة وهو ماشى ، فلما مثل بين يدى السلطان وبّخه بالكلام وقصد أن يفتك به ، ثم آل أمره من بعد ذلك إلى أن أخرجه منفيّا إلى دمشق ، صحبة الأتابكى أزبك لما خرج إلى التجريدة المقدّم ذكرها ، فسجن هناك وجرى عليه شدائد كثيرة ومحن إلى الغاية ، واستمرّ فى هذه النفية إلى أن مات بمكة ، ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ؛ وكان خاير بك من أخصاء السلطان ، وكان من أكبر أصحابه من حين كان السلطان خاصكيا ، فأقلب عليه كأنه لم يعرفه قط ، فكان كما يقال : ثلاثة لا يُؤمَن إليهم ، المال وإن كثر ، والملوك وإن قربوا ، والمرأة وإن طالت صحبتها .

وفيه طلع الأمير لاجين الظاهرى إلى السلطان واستعفى من أمرة مجلس ، وذكر للسلطان أنه قد شاخ وكبر سنّه وعجز عن الحركة ، فأعفاه السلطان من ذلك ورتّب له ما يكفيه ، واستمرّ طرخانا إلى أن مات . ـ وفيه أخلع السلطان على الشيخ

(١٩) يؤمن : يأمن .

ناصر الدين بن الإخميمى الحنفى ، أحد أئمة السلطان ، وقرّر فى مشيخة البرقوقية ، عوضا عن قاضى القضاة الأمشاطى . — وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تغرى بردى ططر (٢٠١ آ) أحد المقدمين ، وأمير ركب الأول يشبك من حيدر والى القاهرة .

وفى ذى القعدة وصلت جثة الأمير يشبك الدوادار من الرُّها وهى فى سحلية ، وهى جثة بغير رأس ، فوقع الشك فى أمرها ، هل هى جثته أم لا ؟ فوجدوا بها أمارِ تدلّ على أنها جثته ، فكفنوها ودفنوها فى تربته التى عند زاوية كهنبوش ، وتحقّق موته ، وانقطعت الإشاعات بأنه فى قيد الحياة ؛ وحضر صحبة جثته قانصوه دواداره ، وأخبر بحقيقة موته وكيفية أمر الواقعة ، ومن أُسر من الأمراء ، وأخبر بقتل قانم قريب السلطان الذى كان أتابك العساكر بحلب ، قُتل على ماردين ، وكان من جملة من أُسر من العسكر ، وكان شجاعا بطلا لا بأس به ؛ فلما ثبت موت الأمير يشبك قامت النقباء من على بابه وشالوا الدكة ، وزال كأنه لم يكن بمصر . — وفيه وصل شرف الدين بن عيد الدمشقى الحنفى ، الذى أرسل السلطان خلفه ليلى قضاء الحنفية ، فلما طلع إلى القلعة أخلع عليه السلطان ، وأقرّه فى قضاء الحنفية ، عوضا عن الأمشاطى .

وفى ذى الحجة أخلع على تغرى بردى من يلباى الظاهرى ، خازندار الأمير يشبك الدوادار ، وقرّر فى الأستادارية ، عوضا عن مجد الدين بن البقرى ، ورسم على مجد الدين ليقيم الحساب ، وكان فى ذلك دماره . — وفيه توفى دولات باى بطيخ الأبوبكرى المؤيدى ، أحد العشرات ورءوس النوب ، وكان لا بأس به . — وفيه جاءت الأخبار من حلب بقتل محمد بن حسن بن الصوّا الحلبى ، نائب قلعة حلب ، وكان من أخصاء السلطان ، ثاروا عليه أهل حلب بسبب مظالم أحدثها بحلب ، فقتلوه العامة ، (٢٠١ ب) وقُتل أيضا فرج بن أغلبك حاجب الحجاب بحلب ، وكان ريسا حشما من أعيان أهل حلب ، وكان لا بأس به . — وفيه مات مشنوقا

شيخ عربان الشرقية قاسم بن بيبرس بن بقر بن راشد ، وكان من خيار بنى بقر . ـ وتوفى أبو بكر جركس ، مقدم البريدية ، وأحد الحجاب بمصر ، وكان ريسا حشما لا بأس به ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم فى رابعه أخلع السلطان على آقبردى من على باى قرابته أحد المقدمين ، وقرّره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن يشبك من مهدى ، بحكم قتله بالرُّها ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وسكن فى دار الأمير يشبك ، ورسم له السلطان بجميع فرش الأمير يشبك وبركه وأوانيه ، وما كان فى بيته عن آخره ، فجاءت إليه السعادة بغتة وهو لا يشعر بها ، كما قيل : مصائب قوم عند قوم فوائد .

وفيه أخلع السلطان على ألماس وقرّره فى نيابة صفد ، فخرج عن قريب ، وخرج صحبته تانى بك الجمالى ، أحد المقدّمين ، إلى جهة حلب ، عونة للأتابكى أزبك ، فطلّب وخرج ، وكان له يوم مشهود . ـ وفيه ثارت ريح شديدة عاصفة ، وثار منها غبار أصفر يأخذ بالأنفاس ، واستمرّ من قبل الزوال إلى نصف الليل ؛ ثم فى عقيب ذلك فى يوم الأربعاء سابع عشر هـذا الشهر ، كانت زلزلة مهولة بمصر والقاهرة ، ماجت منها الأرض ، وتحرّكت المآذن ومالت ، وسُمع للأرض دوىّ كدوىّ الرحا ، وكان ذلك بعد العصر ، فاستمرّت نحو ثلاث درج وهى فى اضطراب ، حتى دهشت منها الناس ، وخرجن النساء من البيوت وهن حاسرات (٢٠٢ آ) عن وجوههن ، وحصل للناس غاية الرعب .

ومات من هذه الزلزلة قاضى القضاة شرف الدين موسى بن عيد الدمشقى الحنفى ، كان جالسا بإيوان المدرسة الصالحية ، فقام حين وقعت الزلزلة ، فسقط عليه ساقط من أعلا الإيوان ، فمات لوقته ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، بعث السلطان خلفه من دمشق إلى مصر ، وولّاه قضاء الحنفية ، فأقام بها ثمانية وخمسون يوما ومات ،

---

(١٢) صحبته : صحبه . (١٦) المآذن : المواذن .

وكان سبب موته من الزلزلة ، وكان أصله من عجلون ، وهو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى ، وكان تولّى قضاء دمشق ، ثم طُلب وولى قضاء مصر ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة ، فلما أخرجت جنازته نزل السلطان من القلعة وصلّى عليــه ، ودُفن بالصحراء .

ومات من الزلزلة عقيب ذلك الزينى أبو بكر بن القاضى عبد الباسط ، ناظر الجيش كان ، وكان ريسا حشما ، نادرة فى أبناء الناس ، ذات شهامة وعظمة ، وكان من أخصاء السلطان ، وكان عليلا فمات مرجوفا من الزلزلة حين ماج به البيت ، وكان فى سعة من المال والقماش والبرك ، وولى من الوظائف نظر الجوالى ، وأستادار الأغوار ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيــه أخلع السلطان على قانصوه من طراباى المعروف بخمسمائة الأشرفى ، وقرّر فى الأمرة الآخورية الـكبرى ، عوضا عن قجماس الإسحاقى ، بحكم انتقاله إلى نيابة الشام ، وكان قانصوه خمسمائة يومئذ شابا كما بدا عذاره ، وولى الدوادارية الثانية وهو لابس الـكوفية التى بالقُندس ، فلما بقى أمير آخور كبير بعث له السلطان بشاش فلفّ له تخفيفة كبيرة . ـ وفى هذا الشهر أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف منهم : أزدمُر تمساح ، ويشبك الجمالى الزردكاش الـكبير ، وأزدمر المسرطن (٢٠٢ ب) الظاهرى .

وفيه قُرّر فى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين بن القصيف ، عوضا عن تاج الدين ابن عرب شاه ؛ وقُرّر شهاب الدين بن فرفور الدمشقى فى قضاء الشافعية بدمشق ، عوضا عن العبدوى ، وعُزل العبدوى ، وكان ابن فرفور قُرّر قبل ذلك فى نظر الجيش بدمشق ، فجمع بين نظارة الجيش وبين قضاء الشافعية ، وعُزل عن نظارة الجيش الشريف موفق الدين الحموى ، وأودع فى السجن بقلعة دمشق ؛ وأخلع على قطب الدين الخيضرى ، وقُرّر فى كتابة السرّ بدمشق ، فانفرد بكتابة السرّ دون قضاء الشافعية ، وكان قبل ذلك متولّى قضاء الشافعية بدمشق .

وفيــه قدم قاصد ملك الحبشة ، فأوكب له السلطان بالحوش موكبا حافلا ،

من غير شاش ولا قماش ، فجلس السلطان على الدكّة وحوله الأمراء ، فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان ، كان صحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسى يجلسون عليها بحضرة السلطان ، فمنعوهم الرءوس النوب من ذلك ؛ ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه ، وأنزله فى مكان قد عُدّ له ، ورتّب له ما يكفيه فى كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده ؛ وحضر صحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرم ذلك القاصد جدا ؛ وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولّى شخصا يكون نائبا عنه ببلادهم .

وفى صفر أخلع السلطان على الأمير قنبك جشحة ، وقرّر فى الرأس نوبة الثانية عوضا عن أزدمر تمساح ، بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وقُرّر فى الحجوبية الثانية تانى بك الأينالى ، عوضا عن قنبك جشحة ، بحكم انتقاله إلى رأس نوبة ثانى . ـ وفيه نزل السلطان إلى جهة قليوب ، وكان يوم الجمعة ، فلما عاد صلّى الجمعة فى قبّة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وتوجّه قاضي القضاة الشافعى وخطب به هناك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة أينال الإسحاقى الظاهرى ، أحد العشرات ، وشيخ الحرم الشريف النبوى ، وكان إنسانا حسنا (٢٠٣ آ) خيرا دينا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أخلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين محمد الغزى بن المغربى ، وقرّره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن ابن عيد ، ولم يكن هذا الغزى أهلا لولاية قضاء الحنفية ، ودُلس على السلطان أمره ، وكان الساعى له فى هذه الوظيفة تغرى بردى الأستادار ويعقوب شاه المهمندار ، وقد عزّ ذلك على جماعة من الحنفية ، وكان فيهم يومئذ من هو أولى بذلك من الغزى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكى أزبك ، لما وصل إلى حلب ، وجد أمر الفتنة التى وقعت بين عسكر مصر وبين بايندُر قد سكن أمرها ، وأن يعقوب ابن حسن الطويل شقّ عليه ما فعله بايندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ولامه على ذلك ؛ ثم إن الأتابكى أزبك أرسل جانى بك حبيب قاصدا إلى عند يعقوب ابن حسن ، فتلطّف به فى الكلام ، وكان الأمير جانى بك حبيب سيوسا دربا حلو

اللسان ، فأكرمه يعقوب وأجلّه ، ثم أطلق من كان عنده من الأسراء من النواب والأمراء وغير ذلك ، فسلّمهم للأمير جانى بك حبيب ، فأتى بهم إلى حلب صحبته، فلما سمع السلطان بهذا الخبر سُرّ به جدا .

وفيه أخلع السلطان على البدرى حسن بن الطولونى ، وأعاده إلى معلمة المعلمين وكانت قد أخرجت عنه مدّة طويلة . — وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى الخانكه ، فأعجبه مكان عند قناطر المرج والزيات ، فأمر ببناء زاوية هناك وحوض وسبيل ، وأخذ فى أسباب ذلك وجاء من أحسن البناء . — وفيه توفى القاضى (٢٠٣ ب) سعد الدين الكماخى ، أحد نواب الحنفية وهو إبراهيم بن محمد بن محمد بن قطلو بك الحنفى ، شيخ المدرسة الظاهرية العتيقة ، وكان عالما فاضلا ريسا حشما أدوبا ، محمود السيرة فى قضائه ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة السلطان المعظّم المفخّم المجاهد المغازى ، ملك الروم ، وصاحب مدينة القسطنطينية العظمى ، وهو محمد بن مراد بن أبى يزيد ابن عثمان ، وكان ملكا جليلا معظّما ، ساد على بنى عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل ، والكرم الزائد ، وسعة المال ، وكثرة الجيوش ، والاستيلاء على الأقاليم الكفرية ، وفتح الكثير من حصونها وقلاعها ، وكان مَلَكَ أمرَ الروم فى حياة أبيه ، ثم استقلّ به من بعده ، ومكث به مدة طويلة تزيد على إحدى وثلاثين سنة ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة ، ولما مات تولّى بعده ابنه أبو يزيد يلدرم الموجود الآن ؛ فلما بلغ السلطان ذلك أظهر الحزن والأسف عليه .

وفيه أخلع على العلاى على بن الصابونى ، وقُرّر فى نظر الخاص ، عوضا عن بدر الدين بن الكُويز ، بحكم وفاته ، وقد جمع بين نظر الخاص ووكالة بيت المال . — وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . — وفيه أخلع على يشبك من حيدر والى القاهرة ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف

(١) الأسراء : كذا فى الأصل .

ناظر الخاص فى أمرة الحاج بالركب الأول ، وقرّر (٢٠٤ آ) شاهين الجمالى فى نيابة جدّة ، ويخرج صحبة الشهابى أحمد ناظر الجيش ، ويكون هو المتكلم على الحجاج بالركب الأول .

وفى ربيع الآخر نزل السلطان وتوجّه إلى قبّة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وصلّى صلاة الجمعة هناك ، وخطب به محمد بن دمرداش إمام القبّة ، وعمل هناك بعد الصلاة ميعادا بحضرة السلطان ، فأنعم عليه بمائة دينار . ـ وفيه نزل السلطان وعدّى إلى جهة الروضة ، وأمر بتجديد الجامع الذى هناك تجاه المنشية ، وكان تلاشى أمره فأمر بهدمه وتجديده ، وكان الشاد على عمارته البدرى حسن بن الطولونى .

ثم إن السلطان توجّه إلى المقياس ، ونزل عن فرسه ، ودخل إلى قاعة المقياس ، وأمر بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه وغير ذلك ؛ ثم إن السلطان صار يتردّد إلى الروضة ويكشف عن بناء هذا الجامع ، حتى انتهى العمل منه فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وقد جاء غاية فى الحسن والتزخرف ، وصار يعرف بجامع السلطان ؛ وكان أصل من أنشأ هـذا الجامع الفخر ناظر الجيش ، وهو صاحب القنطرة ، الذى أنشأه فى دولة الناصر محمد بن قلاون ، ثم جدّد بناءه الصاحب شمس الدين محمد بن المقسى ، فعُرف به ، ثم جدّد بناءه الأشرف قايتباى ، فعُرف به ، وجاء من أحسن البناء هناك .

وفى جمادى الأولى توفى علان الأشقر من ططخ الأشرفى ، أحـد العشرات ورءوس النوب ، وهو الذى أنشأ الحوض والسبيل بطريق بركة الحاج ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أخلع السلطان على أينال السلحدار نائب الإسكندرية ، وقرّره فى نيابة طرابلس (٢٠٤ ب) عوضا عن بُرد بك المهار ، بحكم قتله فى واقعة باينذُر ؛ وأخلع على جكم قرا الظاهرى أمير آخور الجمال ، وقرره فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن أينال السلحدار ، بحكم انتقاله إلى نيابة طرابلس .

وفيه توفى الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس كان ، وقد شاخ وكبر وجاوز التسعين سنة من العمر ، وكان دينا خيرا ، ريسا حشما ، وكان فى شبابه من الشجعان ،

---

(٧) تجاه : يجاه .   (١٣) الذى : التى .   (١٤و١٥) بناءه : بنايه .

وولى عدة وظائف سنيّة ، منها : الزردكاشية الـكبرى ، ثم شادية الشراب خاناه ، ثم بقى مقدّم ألف ، ثم بقى أمير مجلس ، واستعفى من ذلك ومات بطالا ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى شاد بك طاز اليوسفى الظاهرى أحد العشرات ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أخلع على قانم الفقيه الأشقر الظاهرى ، وقرّر فى مشيخة الُخدّام بالحرم الشريف النبوى ، عوضا عن أينال باى الإسحاقى بحكم موته .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب من عنـد الأتابكى أزبك ، بأن الجمجمة بن عثمان ملك الروم قد وقع بينه وبين أخيه أبو يزيد ، وأن جمجمة قد وصل إلى أطراف بلاد السلطان ، وبعث يستأذن فى الدخول إلى حلب ، فعاد الجواب من السلطان للأتابكى أزبك بأن يحضر إلى القاهرة فى قليل من عسكره ، ثم إن السلطان أخذ فى أسباب تجهيز الملاقاة إليه إلى أن يصل إلى مصر . ـ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس عشر مسرى ، فلما أوفى رسم السلطان للأمير أزبك اليوسفى بأن يتوجه ويفتح السدّ ، وكان الأتابكى أزبك غائبا فى حلب كما تقدم .

وفى رجب طلع (٢٠٥ آ) القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فوقع فى المجلس كلام يتعلّق بالشهابى أحمد بن العينى ، بسبب تركة شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان أثبت بعض نواب المالـكية دعوى ابن العينى وحكم له ، ثم وقف أمر هـذه الدعوى مدّة طويلة ، فلما طلع القضاة فى أول هذا الشهر ، فأخذ السلطان يسأل القاضى المالـكى والشافعى : ما السبب فى تأخّر ذلك بعد أن ثبت حقّ ابن العينى وحُكم له بذلك ؟ فطال الـكلام فى المجلس بين القضاة ، فحنق منهم السلطان ، فقام كاتب السرّ يتكلم للقضاة من نوع المساعدة لهم ، فقال له السلطان : أنت معزول ، والقاضى الشافعى والقاضى المالـكى ؛ فنزلوا إلى دورهم وهم فى غاية النـكد ، وكان ذلك آخر عزل ولى الدين الأسيوطى ، ولم يل بعد ذلك القضاء ، وكذلك برهان الدين اللقانى ، فـكانت مدّة ولىّ الدين الأسيوطى فى قضاء الشافعية نحو من ست عشرة سنة ، وكان مشكور السيرة فى قضائه .

ثم أخذ السلطان فى أسباب من يلى قضاء الشافعية ، فترشّح أمر الشيخ زين الدين

زكريا ، فطُلب وأخلع عليه وولى القضاء ، وقد تمنّع من ذلك إلى الغاية ، ثم أشرط على السلطان شروطا كثيرة ، فأجيب إلى بعضها ، ونزل من القلمة فى موكب حافل ، واستمرّ فى هذه الولاية مدّة طويلة ، وقد أخذ عن ولىّ الدين الأسيوطى بحكم صرفه عنها ، وكان الشيخ زكريا يومئذ رأس الشافعية ؛ ثم إن السلطان طلب الشيخ محيي الدين ابن تقى المالكى ، وأخلع عليه وأقرّه فى قضاء المالكية ، عوضا عن برهان الدين اللقانى بحكم صرفه عنها ، واستمرّ (٢٠٥ ب) فى هذه الولاية إلى أن مات .

وأما القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر ، فإنه أقام فى داره نحو ثمانيــة عشر يوما وهو منفصل عن كتابة السرّ ، ثم إن بعض الأمراء مشى بينه وبين السلطان فى عوده إلى وظيفته ، بعد ما كان قد ترشح أمر قطب الدين الخيضرى بأن يلى كتابة السرّ ، ثم إن ابن مُزهر أورد للسلطان مالا له صورة حتى رضى عليه ، فلما طلع إلى القلمة أخلع عليه السلطان وأعاده إلى وظيفته ، ونزل من القلمة فى موكب حافل ، وتخلّق جماعته بالزعفران ، وزُيّنت له حارة برجوان ، وهنّاه الأديب أبو الخير بن النحاس بقوله فيه :

مقام ابن مُزهر فوق السها وقد زاد ربّى إجــلاله
وظيفته الدهر تسمو به ولم تكن تصلح إلّا له

وقال آخر :

يا كاتب الأسرار يا من فضله قد جمّـل الدنيا وزان المنصبا
هذى وظيفتك التى فارقتها عادت إليك فرحبا بك مرحبا

وفيه حضر برقوق الساق الأينالى أحد المشرات ، وكان ممن أُسر عند بايندُر وحضر صحبته إياس مملوك الأتابكى أزبك ، وأخبر بأن النواب والأمراء الذين كانوا فى الأسر عند بايندُر قد أطلقوا أجمين ، ودخلوا إلى حلب صحبة جانى بك حبيب ، وقد أخلع عليهم يعقوب بن حسن الطويل ؛ ثم أخبر إياس المذكور بأن جمجمة ابن عثمان قد خرج من غزّة وهو قاصد للديار المصرية ، فلما أخبر (٢٠٦ آ) السلطان بذلك أخذ فى أسباب ملاقاة الجمجمة . ــ وفيه توفيت خوند بنت الملك

(١٤) تسمو : تسموا . (١٩) الذين : الذى .

المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وهى زوجة الأمير تمراز الشمسى رأس نوبة النوب ، وكانت شابة جميلة ماتت نفساء بعد أن وضعت . ـ وفيه قرر عماد الدين إسماعيل الناصرالحنفى الدمشقى فى قضاءالحنفية بدمشق ، عوضا عن ابن القصيف بحكم انفصاله عنها .

وفى شعبان خرج الصاحب خُشقدم الزمام إلى ملاقاة جحجمة بن عثمان ، فمدّ له أسمطة حافلة ببلبيس والخانكه ، ثم لاقته الأمراء المقدّمين والعسكر ورءوس النوب والحجاب من المرج والزيات ، فسار فى موكب حافل حتى طلع إلى القلعة من بين التُرب ، فأقام له السلطان الموكب بالحوش ؛ فلما مثل بين يدى السلطان وهو جالس على الدكة ، فتحرّك له ولم يقم ، فعُدّ ذلك ناقصة من الأشرف قايتباى ؛ ثم أخلع على الجحجمة كاملية بصمّور حافلة ، وأركبه فرسا خاصا من مركوبه بسرج ذهب وكنبوش زركش ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدّامه الأمراء ورءوس النوب ، وكان له يوم مشهود ، وقد قلت فى المعنى :

يا أيها الملك الهمام ومن له ... أُسْدُ الفلا تأتى إليه مُلجَمَه
قد فاق قدرك فى الملوك تعاظما ... مُذْصحّ بين يديك نُطْق الجحجُمه

فأنزلوه بدار ابن جلود ، كاتب المماليك ، التى بفُم الخور ، وقد حضر صحبة الجحجمة والدته وأولاده وعياله ، وقد فرّ من أخيه أبو يزيد خوفا على نفسه من القتل ، فالتجأ إلى سلطان مصر . ـ وفيه قبض يشبك من حيدر والى القاهرة على امرأة يقال لها خديجة الرحابية ، وكانت من أعيان مغانى مصر ولها إنشاد لطيف ، وكان أصلها من مغانى العرب ، ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل حسنة الغناء ، فافتتن بها الكثير من الناس ، حتى (٢٠٦ ب) قال فيها بعض الشعراء :

رِحَابيّة تخفى الشموس جمالها ... لها حسن إنشاد تزين مقالها
وقد خايلتْ بالبدر ليلة تَمّه ... فما زال من عينى وقلبى خيالها

وكانت تخايل مع مغانى العرب فى السامر بالشامياة ، ثم عظم أمرها وصارت

من جملة الأعيان ، فلما قبض عليها يشبك كانت فى بعض الأفراح ، فقبض عليها من هناك ، فلما مثلت بين يديه قال لها : أأنتى التى أفسدتى أعيان الناس ؟ ثم أمر بضربها بين يديه ، فضُربت نحوا من خمسين عصاة ، وقُرِّر عليها مبلغ له صورة ، وكُتب عليها قسامة بأنها لا تغنى ولا تحضر فى مقام ؛ فلما خلصت من ذلك أقامت مدّة وهى مريضة من الرجفة التى وقعت لها ، ثم ماتت عقيب ذلك ، وكان لها من العمر دون الثلاثين سنة ، فتأسّف عليها الكثير من الناس ، انتهى ذلك .

وفى هذا الشهر كان ختان أولاد القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر ببركة الرطلى ، فكان له مهمّ حافل جدا ، وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدّمين والعشرات ، وحضر عنده جمجمة بن عثمان وبات عنده ، وكان النيل فى أواخره ، فأمر كاتب السرّ سكان البركة بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة ، وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وطبلية فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهمّ ، فاحتفلوا فى الوقدة وعلّقوا فى الطيقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمّرة بالقناديل ، حتى كانت البركة تضىء بالنور ، ويكاد الإنسان أن يُدخل الخيط فى خُرم الإبرة من عظم ضوء (٢٠٧ آ) النور ، وأحرق حراقة نفط حافلة لم يُسمع بمثلها ، حتى خرجت البنت فى خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وبلغ كرى كل مركب أربعة أشرفية ، واستمرّت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية ، حتى عُدّ ذلك من النوادر التى لم يقع مثلها ، واجتمع بالبركة نحو أربعمائة مركب موسوقة بالخلايق ، وصار ابن رحاب المغنى عمّال فى كل ليلة ، وسائر مغانى البلد من رجال ونساء ، وانطلقت ألسن النساء بالزغاريت ، واتفق فى تلك الليالى من الأموال ما لا يحصى ، حتى قيل ابتاع من عصفور الجبّان على المتفرّجين بنحو مائة وعشرين دينارا جُبن مقلى ، وكذلك ابن الزيبق الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك ، وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحدّ ، وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السرّ أن لا يبقى ممكنا فى هذا المهمّ لأجل الجمجمة ابن عثمان ، كونه كان حاضرا فى هذا المهمّ ، وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتُنا   حتى تباهت على الخلجان والبرك

حُفَّتْ بضوء مصابيح زهت وغدت تضيء فى حندس الديجور والحلك
فـكان لما تناهى حسن وقدتها تخفى شموس الضحى فى دارة الفلك

وقال الشمس القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا لهم دليلا لذا الظلماء من اللهب
(٢٠٧ب) حتى كأنّ جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكأنّ الشمس لم تغب

انتهى ذلك . ـ وفيه عزم السلطان على الجُجمة بن عثمان وأضافه بقبّة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وحضر ذلك الأمراء القدّمين ، وكانت ضيافة حافلة جدا ، وأخلع السلطان على جمجمة كاملية بصمّور . ـ وفيه قرر الجمالى يوسف بن شاهين الـكركى ، سبط بن حجر ، فى وظيفة قراءة الحديث الشريف بالقلعة ، عوضا عن برهان الدين ابن الـكركى الإمام ، وكان السلطان تغيّر خاطره على ابن الـكركى واختفى مدّة طويلة . ـ وفيه أحضر شخص من العرب بين يدى السلطان سِنًّا من نواجذ بنى آدم من نسل العماليق ، فـكان زنته ستة أرطال ونصف ، فتعجّب السلطان من ذلك .

وفى رمضان ثارت رياح من جهة الغرب ، وكانت عاصفة جدا ، وأظلم بسببها الجوّ وأرعد وأبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك المطر فى غير أوانه فى أواخر بابه ، ثم جاءت الأخبار من دمياط بأن هذا الريح كان قوته بدمياط ، وقد قلع عدة أشجار وهدم بعض أماكن وأغرق عدة مراكب من مراكب الفرنج ، وكان ريحا مهولا جدا .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، بأن فى ليلة ثالث عشر هذا الشهر ، سقطت صاعقة عظيمة فى أواخر الليل على المسجد الشريف النبوى ، فاحترق منها المنارة التى تجاه القبر الشريف ، واحترق سقوف المسجد جميعها ، والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة وبعض حيطان المقصورة ، وقُتل المؤذن الذى كان على المئذنة وقت نزول (٢٠٨ آ) الصاعقة ، وقُتل أيضا جماعة ممن كان بالحرم الشريف ، فـكُتب بذلك محضر وثبت على قضاة المدينة ، وكان مما كُتب

(٢٢) المئذنة : المأذنه .

فى المحضر أن المؤذّن لما طلع على المئذنة الشرقية لأجل التسبيح ، فرأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف ، فعملت فيه النار ، فلما عاين المؤذّن ذلك خرس ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات ، وقد عاينوا الناس عدّة أطيار بيض بأعناق طوال طائفة حول المسجد ، تمنع النار أن لا تحرق البيوت التى حول المسجد ، وأن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور ؛ فلما سمع السلطان ذلك بكى وبكى من كان حوله ، وتعجّب النـاس لهذه الواقعة كيف جرت فى مثل هذا المكان الشريف ، فأخذ شيخنا شمس الدين محمد القادرى يعتذر عن ذلك ، وهو قوله :

بطيبة سيّئات الركب بدّلها   ربّ العُلا حسنات عند ما زاروا
وعند ما قُبلتْ ضاهتْ لذى حرم الـمختار من أكلتْ قربانه النـار

واعتذر آخر عن ذلك :

لم يحـترق حرم النبىّ لحادث   يُخشى عليـه ولا دهاه العار
لـكنما أيدى الروافض لامست   ذاك الجنـاب فطهّرته النـار

واعتذر آخر عن ذلك :

قالوا لقد غاب الصواب لحادث   تبنى عليـه رضامم الـكفّار
بل ضُمّ شمل السحت وهو محرم   عنـد الرسول فحرّقته النـار

ثم إن السلطان شرع فى تجديد عمارة المسجد الشريف ، فعيّن الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، بأن (٢٠٨ ب) يتوجّه إلى المدينة الشريفة لعمارة المسجد ، وأرسل معه عدّة من البنائين والنجارين والرخمين وغير ذلك ، وأمر بهدم القبّة الشريفة وإعادتها ، وتغيير المقصورة وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت من الخشب ، وتغيير المنبر والمآذن التى كانت بالحرم ؛ ثم توجّه ابن الزمن إلى هناك وشرع فى البناء ، حتى انتهى منه العمل فى أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، فجاء غاية فى الحسن ، من أجلّ الأبنية وأعظمها ، حتى قيل إن السلطان أصرف على بنائه نحوا من مائة ألف دينار ، وجدّد سائر معالمه وتناهى فى زخرفه ورخامه إلى الغاية ؛

(١ و ٣) المئذنة : المأذنه .   (٢٠) والمآذن : والمواذن .

ووقع مثل هذه الحادثة فى حرق المسجد الشريف سنة إحدى وخمسين وستمائة ، فى أواخر دولة أيبك التركمانى .

وفى هذا الشهر وصل قاصد يعقوب بن حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة من عند يعقوب ، وهو يعتذر فيها مما وقع من بايندُر ، وأن ذلك لم يكن يعلمه ، فعتب السلطان القاصد بسبب ما وقع من بايندُر ، وسرعة قَتْله للأمير يشبك ، ثم أضاف القاصد ، وأخلع عليه ، وأذن له بالسفر . ـ وفيه نزل السلطان إلى قبّة الأمير يشبك الدوادار التى فى رأس دور الحُسينية ، فكشف عليها ورسم للأمير تغرى بردى الأستادار بأن يكمل عمارتها ، فإن الأمير يشبك مات ولم يتمّ بناءها .

فلما رجع السلطان شقّ من القاهرة ، فقام إليه الناس قاطبة وضجّوا له بسبب الفلوس الجدد وغلوّ البضائع ، فلما طلع إلى القلعة رسم بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية ، فاجتمع القضاة الأربعة وكاتب السرّ وناظر الخاص العلاى بن الصابونى والمحتسب ، ثم أخذوا يتكلمون فى أمر الفلوس ، وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان ، وقصد أن يخرجها بأغلى من الفلوس (٢٠٩ آ) العتق ، فلما تكلموا فى أمر الفلوس العتق أخذ ناظر الخاص يعارض فى ذلك لأجل غرضه ؛ فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه فى وسط المدرسة الصالحية ورجموه ، ولولا كاتب السرّ كانوا قتلوه ، فلما طال المجلس فى ذلك اتّفق الحال على أن تكون الفلوس كلها العتق والجدد بالميزان ، بستة وثلاثين الرطل ، فنادوا فى القاهرة بذلك ، فسكن الأمر قليلا .

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، ورسم السلطان للجمجمة بن عثمان بأن يلبس الشاش والقماش ، ويطلع يصلّى مع السلطان صلاة العيد ، فطلع وصلّى وحضر الموكب ، وأخلع عليه السلطان مثمرا وفوقانى بطرز عريض ، ونزل مع الأمراء المقدمين وهو بالشاش والقماش . ـ وفيه أخلع السلطان على بيبرس الرجبى قريبه ، وقرّره فى شادّية الشراب خاناه ، عوضا عن ألماس بحكم انتقاله إلى نيابة صفد . ـ

(١٢) يتكلمون : يتكلموا .

وفيه أخلع السلطان على قريبه تمراز الشمسى ، وقرّره فى أمرة السلاح ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قُتل الأمير يشبك الدوادار . ــ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير المحمل يشبك من حيدر والى القاهرة ، وأمير الركب الأول الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وسافر صحبته جمجمة بن عثمان هو وأمّه وعياله ، وقد هيّأ له السلطان بركا حافلا ، أصرف عليه مالا له صورة . ــ وفيه جاءت الأخبار بوصول الأتابكى أزبك إلى غزّة ، وصحبته النواب والأمراء الذين كانوا قد أُسروا عندٓ بايندُر ، فأرسل السلطان هجّانا إلى الأتابكى أزبك بأن يقبض على قانصوه اليحياوى ، الذى كان نائب الشام وأُسر (٢٠٩ ب) عند بايندُر ، ويرسله إلى القدس بطالا ، وأن بقية الأمراء والنواب يحضرون إلى القاهرة ، وكان قد بلغ السلطان بأن قانصوه اليحياوى كان سببا لكسرة العسكر وقتلة يشبك الدوادار ، فعمل له ذنبا كبيرا بسبب ذلك ، فكان كما يقال :

له ألف ذنب لا يقرّ بواحد ولى كل يوم ألف عُذر بلا ذنب

وفيه كان وصول الأتابكى أزبك إلى القاهرة ، فدخل فى موكب حافل ، وصحبته أزدمر نائب حلب الذى كان قد أسر عند بايندُر ، وكذلك بُرسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ، وكانوا أُسروا أيضا ، فكان لدخولهم يوم مشهود ؛ وحضر صحبة الأتابكى أزبك مثقال البرهانى ، الذى كان مقدّم المماليك ونُفى إلى القدس بطالا ، فلما حضر من غير إذن السلطان شقّ عليه ذلك وأمر بنفيه إلى مكة فلحق بالحاج ، ثم إن الأتابكى أزبك شفع فيه وباس رجل السلطان مرارا عديدة فرسم بعوده إلى القاهرة بطالا ، فعاد من أثناء الطريق .

وفى ذى القعدة أخلع السلطان على قريبه أزدمر ، الذى كان نائب حلب ، وقرّره فى أمرة مجلس ، وكانت شاغرة من حين عُفى منها لاجين الظاهرى ، فقرّر بها أزدمر بغير إقطاع ، فكان له فى كل شهر ألف دينار مرتّبة على الذخيرة ؛ ثم أخلع على برسباى قرا ، وقرّره فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن تمراز الشمسى ، بحكم

---

(٧) الذين : الذى . (٩) يحضرون : يحضروا .

انتقاله إلى أمرة السلاح ؛ وأخلع على تغرى بردى ططر ، وقرّره فى حجوبية الحجاب عوضا عن برسباى قرا ، بحكم انتقاله (٢١٠ آ) إلى الرأس نوبة الكبرى ؛ وأخلع على قانصوه الغورى ، وقرّره فى كشف الوجه القبلى ، وقانصوه هذا هو الذى تسلطن فيما بعد .

وفى ذى الحجة قرر سيباى نائب غزّة فى حجوبية الحجاب بدمشق ، عوضا عن يشبك العلاى ، بحكم انتقاله إلى نيابة حماة ، عوضا عن جانم الجدّاوى ، بحكم انتقاله إلى أتابكية دمشق ، عوضا عن شاد بك الجلبانى ، بحكم القبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ؛ وقرّر سودون الطويل الأينالى فى تقدمة ألف بدمشق ؛ وقرر فى نيابة غزّة دولات باى الأجرود الأينالى ، عوضا عن سيباى الذى قرر فى حجوبية دمشق .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى الروضة ، وكشف عن الجامع الذى أنشأه هناك . ــ وفيه توفى طُوخ الذى كان زردكاشا كبيرا ونُفى إلى دمياط ، ثم شُفع فيه وعاد إلى مصر بطالا فمات بها ، وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان لا بأس به . ــ وفيه توفى شيخ عُربان الشرقية محمد بن عجلان بن بقر ، وكان لا بأس به ، وجرت عليه شدائد كثيرة ومحن وكان قد شاخ وكبرسنّه ؛ وتوفى أُزبك الظاهرى أحد المشرات ؛ وتوفى شاهين التاجى دوادار جانم نائب الشام ، وكان لا بأس به ؛ وتوفى فى أواخر هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الإطالة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم جاءت الأخبار بوفاة جكم قرا العلاى الظاهرى ، نائب ثغر الإسكندرية ، وكان لا بأس به . ــ وفيه قدم الحاج إلى القاهرة ، وحضر جمجمة بن عثمان صحبة الشهابى (٢١٠ ب) أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص أمير الركب الأول ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة . ــ وفيه أفرج السلطان عن أمير ركب المحمل العراقى

(٢٢) المحمل : محمل .

والقاضى الذى كان معه ، وكانا بالبرج الذى بالقلعة من أيام حسن الطويل ، وقد تقدّم سبب ذلك .

وفيه تقلّق جمجمة بن عثمان من إقامته بمصر ، وطلب التوجّه إلى بلاده ليحارب أخيه ، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم فى ذلك ، ثم أحضر جمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير ، فأغلظ عليه الأتابكى أزبك فى القول ، وهو لا ينتهى عن السفر إلى بلاده ، فطال الكلام بينه وبين الأمراء فى ذلك ، ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر إلى بلاده على كره منه ؛ وكان ذاك عين الخطأ ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وسنذكر ذلك فى مواضعه .

وفى صفر أخلع السلطان على شخص من الأراذل ، كان أصله من العوام ، يقال له محمد بن العظمة ، وكان صنعته فرّا ، ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يقرّره فى نظر الأوقاف ، فأخلع عليه بذلك ، فلما استقر فى هذه الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل ، فالتزم للسلطان بمال يورده فى كل شهر له صورة ، فصار يرسل خلف أعيان الناس من رجال ونساء ، ويُرسّم عليهم بسبب الأوقاف ، ويحاسبهم على الماضى والمستقبل ، ويأخذ منهم جملة مال ، وصار بابه أنحس من باب الوالى ، والتفّ عليه جماعة من المناحيس ، وصاروا يفرّعوا له الأذى تفريعا ، وكان هذا فى صحيفة الأشرف قايتباى ، الذى قرّب مثل هذا وسلّطه على الناس ، فكان كما (٢١١ آ) قيل :

لبابك بوّاب عن الخير مانع أضاف لقبح الوجه سوء خطابه
فساويت فيه مَن غدا يمنع القرى ومن يربط الكلب العقور ببابه

فكان يرد هذه الأموال للسلطان ، لا يدرى هى من حلال أو حرام ، كما يقال :

قيل للصبّ خمر فيه حرام فتمنّى حرامه وحلاله

وفيه توفى جانى بك كوهية الإسماعيلى المؤيدى ، الذى كان أحد مقدّمين الألوف بمصر ، ونُفى ثم عاد إلى مصر ، واستمرّ بطالا حتى مات ، وكان لا بأس به . ـ

(١٠) فرا : كذا فى الأصل ، ولعله : فرّان . (٢٢) مقدمين : كذا فى الأصل .

وفيه أخلع على موفق الدين الأسلمى ، المعروف بابن القُمص ، وقرّر فى نظارة الدولة ، وكان فى خدمة الصاحب خشقدم ، وهى أول شهرته . – وفيه توفى آقبردى من أصباى الأشرف ، أحد العشرات ورءوس النوب ، وكان من مماليك الأشرف برسباى ، وسافر إلى الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرّة ، وكان لا بأس به ، ومات فجأة ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفى ربيع الأول عُقد للأمير آقبردى الدوادار ، على أخت خوند زوجة السلطان، وهى ابنة العلاى على بن خاص بك التى كانت زوجة الأمير جانم قريب السلطان ، ناظر الجوالى أحد المقدّمين ، وكان له يوم دخوله عليها مهمّ حافل . – وفيه ، فى أول يوم من بشنس ، قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، وقد خالف العادة فى قلع الصوف بأيام ، ثم عمل المولد النبوى ، وضرب الكرة . – وفيه ضرب السلطان شخصا يقال له بلبان الكاشف ، فلما ضربه لم يعجبه ضرب الرءوس النوب ، فنزل من على الدكة وتولّى ضربه بيده من عظم (٢١١ ب) حنقه عليه .

وفى ربيع الآخر وقع بين قاضى القضاة زين الدين زكريا ، وبين الأمير دولات باى الحسنى شاد الشون ، فكانت حادثة عظيمة ، قام فيها القاضى الشافعى ، فما حصل من ذلك على طائل ، وهذه الواقعة مشهورة بسبب وقف . – وفيه أخلع السلطان على الأمير أزبك اليوسفى أحد المقدّمين ، وقرّره فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر دولات باى الحسنى شاد الشون فى أمرة الركب الأول . – وفيه كان ختان ولد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف أينال بثغر الإسكندرية ، وكان حافلا ، فأرسل يطلّب على بن رحاب المغنى بسبب الزفّة .

وفيه أخلع السلطان على الشيخ صلاح الدين الحنفى الطرابلسى، وقرّره فى مشيخة المدرسة الأشرفية التى بجوار الوراقين ، عوضا عن البرهان بن الكركى ، بحكم اختفائه لما تغيّر عليه خاطر السلطان . – وفيه أخلع السلطان على أحد مماليكه ، يقال له على باى،

(٨) حافل : حافلا .

وقرّره فى نيابة ثغر الإسكندرية ، عوضا عن حكم قرا بحكم موته ، وكان على باى هذا كاشف الشرقية يومئذ .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بقتل سيف أمير آل فضل ، الذى خرج الأمير يشبك الدوادار بسببه كما تقدّم ، وقد قتله ابن عمّه عساف فى بعض بلاد العراق . ـ وفيه خرج السلطان وسافر على الهجن ، ولم يُعلم إلى أين توجّه ، فكثر الكلام فى ذلك بسبب سفره ، ثم ظهر بعد ذلك أنه سافر إلى بعض جهات المباسة وغيرها ، ثم رجع بعد أيام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الأمير خاير بك من حديد ، الذى كان أحد المقدّمين بمصر ، وتغيّر خاطر (٢١٢ آ) السلطان عليه كما تقدّم فنفاه إلى الشام ، فأقام بها مدّة ثم نقله إلى مكة فمات بها ؛ وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان دينا خيرا عارفا بأنواع الفروسية ، وله اشتغال بالعلم وخط جيّد وفصاحة بالعربية ، مات وله من العمر زيادة على الستين سنة ، وكان من جملة الأمراء المقدّمين بمصر ، وهو صاحب المدرسة التى بزقاق حلب .

وفى أثناء هذا الشهر كانت وفاة شاعر العصر ورأس الأدباء على الإطلاق ، الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى المنصورى المعروف بالهايم القاهرى الحنبلى ، وكان له شعر جيّد ونظم رقيق جدا ، وفيه يقول الناصرى محمد ابن شادى خُجا المنبرى ، وهو قوله :

اختبرنا ملوك علم القوافى ... فى بديع المنظوم والمنثور
ما وجدنا خليفة فى المعانى ... ملكا فى البيان كالمنصورى

وكان الشهاب هذا جميل الهيئة ، نيّر الوجه ، متعففا عن الناس ، ولما بلغ خمس وسبعين سنة من العمر أنشأ يقول :

بلغتُ من دنياى سنّا به ... رتعتُ فى سبعين والخمس
فالحمد لله الكريم الذى ... متّعنى بالسنّ والضرس

فلما بلغ الثمانين سنة من العمر أنشأ يقول :

نحو الثمانين من العمر قد قطعتُها مثل عقود الجمان
ما أحوجتْ يوما يمينى إلى عصى ولا سمعى إلى ترجمان

ثم عرض له فى أواخر عمره فالج ، فلزم الفراش مدّة طويلة ، وانقطع فى داره عن الحركة ، فأنشأ يقول :

آه يا درهمى ويا دينـــارى ضعتَ بين الطبيب والعطّـار
كنتَ أنسى فى وحدتى وشفاى من سقامى وصحّتى فى انكسارى
(٢١٢ب) كنتَ تقضى مما حلى من غداء وعشـــاء يا منيتى أوطـارى
قد حمانى الطبيب عن شهواتى فاحمِ يا ربّ قلبه بالنـــار
طال شوقى إلى الفواكه والـــبطيخ والجـــبن واللّبَا والخيار
ضاع لُبّى على مُقاساة لُبّ الـــقرع والهنـــدبا وبزر الشمار
كلما جمّع اختيارى خُطاما فرّقتْه منى يد الاضطـــرار
ليت شعرى وللزمان خطوب وبلاء يختصّ بالأحـــرار
هل لميّت قضى عليه طبيب من كفيل أو آخذ بالثار

واستمر بهذا الفالج إلى أن مات ، وكان مولده سنة ثلاث وثمانمائة . ـ وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ، وقصدوا قتل مقدّم المماليك حتى فرّ منهم واختفى ، وأحرقوا باب الزردخاناه ، وكانت فتنة كبيرة ، ثم سكن الحال قليلا . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن جُمجمة بن عثمان لما خرج من مصر وتوجّه إلى بلاد ابن قرمان ، بعث إليه أخوه جماعة من عسكره فتحاربوا معه ، فانكسر جمجمة وفرّ هاربا ولا يُعلم أين توجّه ، فندم السلطان على خروجه من مصر . ـ وفيه كان وفاء النيل المبارك وتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان له يوم مشهود . ـ وفيه هجم اللصوص تحت الليل على قيسارية جركس ، وقتلوا البوّاب وأخذوا من الدكاكين أشياء كثيرة (٢١٣ آ) ولم تنتطح فى ذاك شاتان .

وفيه أنعم السلطان على الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بأمرة عشرة ، وأرسل

(١٤) ثلاث : ثلاث وثلاثين ، ويلاحظ أن المنصورى قد جاوز الثمانين سنة من عمره .

إليه بشاش فلفّ له تخفيفة . ـ وفيه توفيت خوند شقرا ابنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، زوجة الأتابكى جرباش كُرت ، وكانت من مشاهير الخوندات ، فنزل السلطان وصلّى عليها . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن جمجمة بن عثمان لما فرّ من عسكر أخيه خرج عليه بعض الفرنج ، وكان فى مركب فى البحر الملح ، فأسره ، وقد ذهب جميع ما كان معه من مال وقماش وغيره ، فكان خروجه من مصر عين الغلط . ـ وفيه هلك بطرك النصارى اليعاقبة ، وكان عند أهل ملّته مشكورا .

وفى شعبان صنع الأتابكى أزبك فى الأزبكية حراقة نفط ووقدة حافلة ، وكانت ليلة مشهودة . ـ وفيه رسم السلطان بعمارة سور البيرة ، فجاء من أحسن المبانى ، وأنفق عليه مال له صورة . ـ وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، بأن السلطان أنشأ هناك مدرسة وجعل لها شبابيك مطلّة على الحرم النبوى ، فقامت على السلطان الأشلة بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لا يجوز ، فإن حرمة النبي صلّى الله عليه وسلم وهو ميّت كحرمته وهو حىّ ، وقد أجاز ذلك بعض علماء الجاه . ـ وفيه توفى الناصرى محمد بن الأتابكى جرباش كُرت ، وهو ابن خوند شقرا الماضى ذكر وفاتها ، فكان بينه وبين وفاة والدته نحو من شهر ، وقد مات فجأة ، وقيل وقع بينه وبين سرور شاد الحوش السلطانى ، (٢١٣ ب) وكان طواشى والدته قديما ، فخنق منه الناصرى محمد فتناول فصّا من الماس وابتلعه ، فمات من ليلته ، وكان ريسا حشما ، لطيف الذات ، فكه المحاضرة ، لا بأس به .

وفى رمضان توجّه الصاحب خُشقدم إلى جهة الوجه القبلى بسبب ضمّ المغَلْ . ـ وفيه كان قراءة صحيح البخارى ، وخُتم وفُرّقت الخلع على القضاة والعلماء ، وكذلك الصرر ، وكان ختما حافلا . ـ وفيه خسف جرم القمر ، ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة . ـ وفيه توفى قاضى المحلّة أوحد الدين محمد المُجيمى ، وكان ريسا حشما لا بأس به . ـ وفيه رسم السلطان بنفى دولات باى من مصطفى نائب غزّة ، فنفى إلى مكّة المشرفة .

---

(٧) شعبان ، لم يذكر المؤلف شيئا من أخبار شهرى جمادى الآخرة ورجب من هذه السنة.

وفى شوال ظهر قاسم شغيتة الذى كان وزيرا ، وكان له مدّة وهو مختفى ، فلما ظهر أخلع عليه السلطان كاملية حافلة ، وقرّره فى نظر الدولة ، عوضا عن موفق الدين بن القُمّص الأسلمى . ـ وفيه حضر الصاحب خُشقدم من السفر ، فلما حضر رسّم السلطان عليه لعمل الحساب . ـ وفى هذا الشهر وُلد للسلطان ولد ذكر من سرّيته أصل باى الجركسية ، فسماه محمدا ، وهو الذى تسلطن من بعده . ـ وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزبك اليوسفى أحد المقدّمين ، وبالركب الأول دولات باى الحسنى شاد الشون .

وفى ذى القعدة رسم السلطان للقضاة والشهود أن لا يعقدوا لمملوك من مماليكه ، حتى يأخذوا الإذن من أغاته . ـ وفى هذه الأيام تزايد شرّ جماعة من المماليك الجلبان وصاروا يأخذون شيء الناس (٢١٤ آ) بلاش من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل . ـ وفيه توفى محب الدين كاتب العجم ، واسمه عبد الرحمن بن حسن بن الأمين الحلبى الحنفى ، توفى بالبيمارستان ، وكان فاضلا شاعرا ماهرا ، وله خط جيّد ، وكان عشير الناس فكه المحاضرة ، وكان من أخصاء الأمير يشبك من مهدى الدوادار الكبير كان ، لكنه كان مسرفا على نفسه يميل إلى محبة الأحداث ، وله فيهم أشعار كثيرة ، وكان جاهلا مخترقا ، ومما داعبه به الشهاب المنصورى رحمة الله عليه ، وهو قوله :

فى ملاح لك شتى صَيَّف القلب وشتّا
كم ليال مع مليح يا محب الدين بِتّا
خدّه بستان حُسنٍ حبذا البستان بُستا
أنت بالصبيان صبّ لو رأيت البنت بنتا

وفيه توفى أبوالفتح محمد المنصورى أحد المباشرين، وكان ريسا حشما لابأس به . ـ وفيه قدم الأمير تمراز الشمسى أمير سلاح ، وكان مسافرا فى البحيرة ، فأخلع عليه

(١٠) يأخذون : يأخذوا . (١٥) مخترقا ، أورد المؤلف هنا بيتين من الشعر ، يمكن قراءتهما فى طبعة إستانبول ج ٣ ص ١٩٢ .

السلطان ونزل إلى داره فى موكب حافل .

وفى ذى الحجة كانت الأضحية غالية ولا توجد إلا قليلا ، فحصل للناس غاية القلق بسبب ذلك . ـ فيه قبض السلطان على شخص يقال له الشريف الأكفانى ، زعموا أنه قد قتل زوجته ، (٢١٤ ب) فضُرب بين يدى السلطان فلم يقرّ بشىء ، فرسم بسجنه فسجن مدّة طويلة ، ثم آل أمره إلى أن صالح ورثة زوجته بمال ، وأطلق بعد ما قاسى شدائد ومحنا . ـ وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وقد ثبت الشهر بالأربعاء فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، فحنق السلطان من القاضى زكريا وأشيع عزله ، وقد فات الناس صوم يوم عرفة والتكبير فى صبحته ، وانطلقت ألسن العامة على القاضى زكريا وسبّوه جهرا .

وفيه وصل مبشّر الحاج وأخبر أن وقع بمكة سيل عظيم ، حتى دخل الحرم وعام منه المنبر ووصل إلى قريب عتبة البيت الشريف ، وقُتل بالغرق بسببه نحو من سبعين إنسانا ، وهدم عدّة دور ، وكان أمرا مهولا ؛ وأخبر المبشّر بوفاة بدرالدين الدميرى ، المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية ، مات بالأزلم من طريق الحجاز ، وهو محمد بن يوسف بن على بن محمد بن أحمد بن سلطان الدميرى الشافعى ، وكان فاضلا عارفا بصنعة التوقيع ، وكان موقّع الدست وأحد نواب الحكم ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ، طلق اللسان فى حق الناس بالتعليق ، وكانت الشعراء تهجوه كثيرا ، فمن ذلك قول بعضهم :

قد عيل صبرى من خَطْب ألمّ به ... عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فإنْ غدا الديك سلطانا فلا عجب ... فقد غدا قاضيا فى الناس كتكوت

(٢١٥ آ) وفيه يقول الأديب على بن بُرد بك :

إن الدميرىّ صديقى فلا ... أسمع فيه قول واشٍ ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه ... بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة هنا أن الكتاكيت ينادى عليهم يا ملاح الملاح . ـ وفى أواخر هذه

(١١) المنبر : المنير . (١٥) التوقيع : التوقع .

السنة جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن حسن بن على بن أبى نصر ابن سعد بن الأحمر ، قد ثار على ابنه الغالب بالله صاحب غرناطة وملك منه الأندلس بسبب أمه ، فحقد عليه ذلك وأخرجه من غرناطة وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين وملكها الفرنج ، والأمر لله فى ذلك . ـ وفيه توفى طُرنطاى المحمودى أحد المشرات ، وأصله من مماليك الأشرف بُرسباى ، وكان جُلب هو والسلطان قايتباى فى سنة واحدة ؛ وتوفى يونس الكاتب المجيد ، وكان أكتعا ويكتب بيده اليسرى خطا جيّدا ؛ وتوفى فى أواخر هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان ، لم نذكرهم خوف الإطالة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم أخلع السلطان على محمد بن عبد الرحمن ، وقرّر فى نيابة جدّة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم صرفه عنها . ـ وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى جهة سِنيت ، بسبب الكشف على الجسور ، ثم زار سيدى أحمد (٢١٥ ب) البدوى رحمة الله عليه . ـ وفيه كان الغلال بمصر قليلا ، والأسعار مرتفعة فى سائر البضائع والغلال . ـ وفيه توفى الشيخ علاى الدين الحصنى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، ريسا حشما متواضعا . ـ وفيه وصل الحاج إلى القاهرة وقاسى مشقة زائدة ، ولم تُحمد سيرة أمير ركب المحمل أزبك اليوسفى .

وفى صفر وقع أن كرتباى من مصطفى المعروف بالأحمر ، الذى ولى نيابة الشام فيما بعد ، وكان يومئذ أحد الدوادارية ، وقع بينه وبين ناظر الجيش كمال الدين بعض تشاجر ، فلكمه كرتباى الأحمر أطاح عمامته عن رأسه فى وسط الحوش السلطانى بين الناس ، وراحت فى كيسه . ـ وفيه توفى الصارمى إبراهيم بن منجك ، وكانت وفاته بدمشق ، وكان ريسا حشما من الأعيان .

---

(١٠) وثمانمائة : وثمانين مايه .

وفيه توفى الشيخ أبو حامد المقدسى ، وهو محمد بن خليل المقدسى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله عدّة مصنّفات نفيسة ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة ، لكنه كان سبهللا ، بليد الذهن قليل الفهم ؛ ومما وقع له أن الزينى أبو الخير بن النحاس الشاعر ، داعبه بهذين البيتين ، وكتبهما له فى ورقة ودفعهما إليه فى مجلس القاضى كاتب السرّ ابن مُزْهر ، فلما قرأهما استحسنهما ولم يفهم ما فيهما من الدسيسة عليه ، فكتبهما بخطّه فى بعض مصنفاته ، وأوردهما لابن النحاس ، وكان من قوله فيه :

أبا حامد أنت الذى شاع ذكره بكثرة تأليف وجمع (٢١٦ آ) به انفرد
فأنت الذى ما مِثْل حفظك فى الورى وأنت الذى ما مِثْل ذهنك فى البلد

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانم الجداوى ، نائب حماة وأتابك دمشق ، وكان لا بأس به . – وفيه أشيع عن مثقال الساق الطواشى الظاهرى ، رأس نوبة السقاة ، بأنه يضرب فى بيته الزغل ، فأرسل السلطان كبس داره وقبض عليه .

وفى ربيع الأول رسم السلطان بعمل حساب قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزّى ، بدار بُرسباى قرا رأس نوبة النوب ، فقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يُعبّر عنه . – وفيه ثار بالناس فى فصل الربيع دموية وأمراض حادّة ، ومات بذلك جماعة كثيرة ، حتى أُطلق عليه الفصل الصغير ، ومات به من الأعيان سيدى فرج بن تنم نائب الشام ، وكان شابا جميل الوجه لم يلتح بعد ، فتأسّفت عليه الناس قاطبة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدوّرة برسم المولد الشريف ، وقيل إن مصروفها ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش . – وفيه توفى القاضى نجم الدين يحيى بن حِجّى ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حِجّى بن موسى ابن أحمد الحسبانى الدمشقى ثم القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، ريسا حشما ،

(٣) سبهللا : كذا فى الأصل ، وهى كلمة ما زالت تستعمل فى مصر .

وعُدّ من العلماء ، وكان كريما سخيا ، وولى نظارة الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرُّيسا بمصر والشام ، فلما مات وجد عنده زيادة على ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة .

وفى آخر يوم من برمودة قلع السلطان (٢١٦ ب) الصوف ولبس البياض ، وقد عجّل بلبس البياض قبل أوانه بعشرة أيام . ـ وفيه جاءت الأخبار من القدس بأن قانصوه اليحياوى ، الذى كان نائب الشام ونفى إلى هناك بطالا ، قد أجرى عين ماء بالقدس ، وكانت معطّلة مدّة طويلة ، فأصرف عليها مالا له صورة من ماله ، وحصل بها غاية النفع . ـ وفى هذه السنة توفى أبو الفدا ، الواعظ الناشد المادح ، وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر أخلع على أزدمر تمساح أحد المقدّمين ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر أزدمر الأشقر أحد العشرات فى أمرة الركب الأول . ـ وفيه قرّر شاد بك المحمدى الظاهرى أحد العشرات ، فى نيابة دمياط . ـ وفيه ثارت فتنة كبيرة بين مماليك آقبردى الدوادار ، وبين مماليك أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، فوقع بينهما فتنة بالرملة ، حتى شهروا السلاح على بعضهم ، فثار جماعة من مماليك السلطان مع مماليك آقبردى الدوادار ، فكادت أن تكون فتنة كبيرة بين الأمراء ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى أبو الفضل من أولاد ابن أبى الوفا ، وكان حصل له انجذاب واستمرّ به إلى أن مات ، وكان من بيت كبير الولاية . ـ وفيه وقع زلزلة بالقاهرة بعد العشاء ، لكنها كانت خفيفة ولم تدم ، ولو دامت قدر درجة حصل منها غاية الفساد . ـ وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة ستة أذرع وأربعة أصابع . ـ وفيه سافر الأمير آقبردى الدوادار إلى جهة الصعيد بسبب ضم المغل ، وكان صحبته (٢١٧ آ) أمير عربان هوّارة داوود بن عمر ، وكان قد أعاده السلطان إلى أمرته بالوجه القبلى ، وصرف عنها محمد بن يونس ولد عمّه .

---

(١٠) بركب : بالركب .

ومن الحوادث فى جمادى الأولى أن فى يوم الثلاثاء عاشره ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجّهوا إلى دار بُرسباى قرا ونهبوا كلا فيهاوأحرقوها عن آخرها ، ونهبوا الربوع التى بجوارها وأحرقوها ، حتى نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية والفخرية ، حتى أخذوا القناديل التى بهما ، وكانت مصيبة شنيمة ؛ وهى أول فتك الجلبان بالقاهرة واستخفافهم بالسلطان ، واستمرّت الفتن من يومئذ تتزايد حتى كان منهم ما سنذكره فى موضعه ؛ وكان سبب كاينة برسباى قرا أن شخصا من المماليك الجلبان دخل إلى سوق الشرب ليشترى ثوب بعلبكى من بعض التجار ، فتمترس عليه وضربه ضربا مبرحا وأخذ معه الثوب البعلبكى غصبا ، فشكاه التاجر من باب برسباى قرا ، وكان يومئذ رأس نوبة النوب ، فطلب ذلك المملوك ، فلما حضر قامت عليه البيّنة بما فعله فى سوق الشرب ، فأدّبه برسباى قرا وضربه بين يديه ، فلما بلغ خشداشينه ذلك ثاروا على برسباى قرا وفعلوا به ما فعلوا وراموا يحرقوا سوق الشرب ، حتى أخلوا منه التجار قاطبة وكادت أن تكون فتنة كبيرة تعمّ البلد ؛ ثم إن الأتابكى أزبك مشى بين المماليك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح ، وسكن الحال قليلا .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن على (٢١٧ ب) دولات بن ذلغادر قد أتى إلى ملطية فى جمع كبير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشدّ المحاصرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر . ــ وفيه توفى قانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشرات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان بارعا فى فنون الرمح ؛ وتوفى مُغلباى الفقيه أحد العشرات ، وكان أصله من مماليك العزيز ، وكان له اشتغال بالعلم .

وفيه عرض السلطان الجند وعيّن تجريدة إلى حلب بسبب على دولات بن ذلغادر ، وعيّن بها من الأمراء أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، والأمير تغرى بردى ططر حاجب الحجاب ، ومن الأمراء الطبلخانات الأمير قنبك جشحة رأس نوبة ثانى ، ومن العشرات تانى بك الأينالى الحاجب الثانى ، وسودون الصغير العلاى ، وبُرد بك المحمدى الخازندار ، ونانق ، ومن الجنـد نحوا من خمسمائة مملوك ،

(١١) يحرقوا : كذا فى الأصل ، ويلاحظ الأسلوب فى هذه الفقرة .

ونفق عليهم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند زيادة على السبعين ألف دينار .

وفيه حصر شمس الدين الحُلبي تركة يحيي بن حِجّي ، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى ، فقال : هذا الكتاب ينبغى أن يحرق وإن ابن عربى كان كافرا أشدّ من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان ؟ فقال له بعض الحاضرين : كيف تحرق كتاب الفصوص وفيه آيات من كلام الله تعالى ؟ فقال : ولو كان ، فسكوا عليه ذلك وأرادوا تكفيره ، فبادر وترامى على كاتب السرّ ابن مزهر ، فقام معه وآل أمره إلى أن عزّره وكشفوا رأسه ، ثم حُكم بإسلامه وحُقن دمه ، (٢١٨ آ) وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك ، وفيه يقول أبو النجا القمنى :

أقصدتَ يا حلبي بالصفع فى قفاكا
لما ادّعيتَ جهلا حرق الفصوص يا كا فر
وما خلصتَ حتى أقمت شاهداكا

وفيه توفى قانصوه الداقف المحمدى أحد العشرات ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان علامة فى الدقاف .

وفى رجب خرج الأمراء والعسكر إلى التجريدة التى عُيّنت إلى على دولات ابن ذلغادر ، وكان آخر العهد بالأمير أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، فإنه لم يدخل إلى مصر بعد ذلك . ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى ثامن عشر مسرى ، فلما أوفى توجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على المادة . ــ وفيه توفى بُرد بك الطويل المحمدى أحد العشرات ، وكان شادا على أوقاف الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة محمد بن عبد الرحمن ناظر جدة ، وكان ريسا حشما لطيف الذات عشير الناس ، ولما مات دفن بمكة .

وفى شعبان عرض السلطان المقصورة الحديد التى صنعها للحجرة الشريفة ، فنصبها بالحوش فى أول هذا الشهر ، وقيل زنتها أربعمائة قنطار من الحديد ، فحملت إلى المدينة المشرفة على سبعين جملا . ــ وفيه توفى جانم الفهلوان أحد العشرات ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان رأسا فى الصراع ، توفى بحلب ؛ ومات أيضا

بحلب صنطباى العلاى الظاهرى أحد المشرات ، (٢١٨ ب) وكان رأسا فى الرمى بالنشاب ، وكان من مماليك الظاهر جقمق .

وفى رمضان خسف جرم القمر خسوفا تاما حتى أظلمت الدنيا ، ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة . ـ وفيه ، فى يوم ختم قراءة صحيح البخارى ، وقع بين الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وبين الشيخ صلاح الدين الطرابلسى ، تنافس حتى خرجا فيه عن الحدّ ، بسبب الجلوس فيمن يرتفع عن صاحبه ، وكان الصلاح الطرابلسى متعديا على ابن الغرس ، فما شكر على ذلك ، وكان مجلسا فاحشا لا خير فيه .

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان يوما مشهودا ، وخرج معهم شاد بك أمير آخور ثانى ، وقد قرّر على باشية الجند بمكة ، ومعه خمسون مملوكا ، وأرسل معه السلطان المقصورة الحديد التى صنعها للحجرة الشريفة ، ثم أرسل معه مصحفا كبيرا حُمل على جمل بمفرده ، وكان من النوادر ، كتبه شاهين النورى ، ومات ولم يكمله ، فأكمله الشيخ خطاب بأمر السلطان ، وهو باقٍ إلى الآن فى الحجرة الشريفة . ـ وفيه كان عُرس الركنى عمر بن أبى البقا بن الجيعان ، وكان مهمّا حافلا .

وفى ذى القعدة أخلع السلطان على آقباى كاشف الشرقية ، وقرّر فى نيابة غزة ، عوضا عن دولات باى من مصطفى الماضى خبره بما جرى عليه ، وآل أمره إلى أن نُفى إلى مكة . ـ وفيه أنعم السلطان على ستة أنفار من الخاصكية الظاهرية بإمريات عشرة ، منهم : يشبك دَجاج ، وأبو يزيد ، وبيبرس اليوسفى ، وملاج الأشقر ، وجانى بك البواب ، وقانم السوّاق ، (٢١٩ آ) وأنعم بإقطاع جانم الفهلوان المسافر فى التجريدة على : سودون الصغير ، وقانصوه قرا ، وكسباى الشرينى ، وآخرين من جلبانه ، وكان هذا الإقطاع أمرة عشرة ، وخرج بحكم وفاة جانم الفهلوان .

وفى ذى الحجة قرّر محمد بن البلاح فى التكلم على جهة الجيزة ، عوضا عن

ابن الصميدى . ــ وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وكانت الأضحية مشحوتة وغالية ، بسبب قلّة الجالب من أذى المماليك الجلبان . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى الجماعة الأندلسى الغرناطى المالكى ، توفى بغرناطة ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفى أواخر هذه السنة كثر الأذى من العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلا، حتى أن شخصا من البياطرة قُتل بالجزيرة الوسطى ولا يُعلم من قتله ، ووُجد شخص من المماليك الأينالية مقتولا بمنزله ولا يعلم من قتله ، وغير ذلك جماعة كثيرة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثمانمائة

فيها فى المحرم توفى الجمالى يوسف الحنبلى بن الشهابى أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادى ، قاضى قضاة الحنابلة ، وكان ريسا حشما ، ولى تدريس الحنابلة بالمدرسة البرقوقية ، وكان شاهد ديوان الأمير تمراز الشمسى أمير سلاح ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، لا بأس به . ــ وفيه أعيد أبو الفتح المنوفى إلى نيابة جدّة ، عوضا عن محمد بن عبد الرحمن بحكم وفاته . ــ وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب سيدى على القليوبى ، وكان له مكاشفات وكرامات خارقة .

وفيه قبض على شخص بالقرافة يتزايا بزىّ (٢١٩ ب) أهل الصلاح ، وله شعرة برأسه ، فدخل إلى مزار سيدى أبو العباس الحرار وسرق الستر من على ضريحه ، وقد فعل ذلك فى عدّة مزارات ، وكان فى زىّ حسن لا يظن به سوء ، فلما اشتهر بذلك ضرب وشهر فى القاهرة . ــ وفيه توفى الشيخ ولىّ الدين أحمد شيخ الآثار النبوى ، وقاضى ثغر دمياط ، وكان دينا خيرا ، حسن السيرة ، لا بأس به .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد تأخّر دخول المحمل إلى رابع عشرينه ، مما حصل لهم فى هذه السنة من المشقة الزائدة من موت الجمال والعطش . ــ وفيه عيّن السلطان تجريدة ثانية إلى حلب تقوية لمن تقدّم من العسكر ، وعيّن تمراز الشمسى ،

(٤) القتلا : كذا فى الأصل .

أمير سلاح ، باشا على العسكر ، ومن المقدّمين أزبك اليوسفى ، وعيّن من الجند نحوا من أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية ؛ وكان سبب تعيين هذه التجريدة أن السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم قد أمدّ على دولات بن ذلنادر بعساكر كثيرة ، وهذا أول تحرّك ابن عثمان على بلاد السلطان ، واستمرّت الفتن من بعد ذلك تتزايد إلى أن كان ما سنذكره فى موضعه .

وفى صفر توفى الشيخ شهاب الدين الأبناسى ، وهو أحمد بن إبراهيم بن على بن أحمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، صالحا دينا خيرا ، منقطعا إلى الله تعالى . — وفيه توفى يحيى بن شاد بك المعروف بقاصد الحبشة ، أحد أجناد الحلقة ، وكان ريسا حشما (٢٢٠ آ) عارفا بلغة الحبش ، فكه المحاضرة ، ومولده بعد العشرة والثمانمائة . — وفيه توفى شيخ عربان جبل نابلس ، وهو حرب بن أبى بكر بن محمد بن على بن عبد القادر ، مات وهو مسجون بالبرج فى القلعة ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وآل أمره إلى أن مات مسجونا .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن العسكر الذى خرج من القاهرة قد تقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد كُسر العسكر وقُتل منهم جماعة كثيرة من الجند ، ومن الأمراء قانبك جشحة رأس نوبة ثانى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وقتل معه جماعة من أمراء حلب والشام ، وكان قانبك هذا إنسانا حسنا شجاعا بطلا ، تولّى من الوظائف شادية الشون ، ثم الحجوبية الثانية ، ثم الرأس نوبة الثانية ، وبقى أمير أربعين ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ، ورسم للخليفة بأن يحضر به ، والقضاة الأربعة وأعيان الناس ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة ، ومُدّ هناك أسمطة حافلة ، وهو أول من أحدث هذا المولد بالمشهد النفيسى ، وصار يقال له مولد الخليفة . — وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة على العادة ، وكان حافلا . —

---

(٧) تعالى ، كتب بعدها فى الأصل ما يأتى ثم شطب : ولما مات دفن بزاوية الشيخ شهاب التى بالقرب من حدرة الفول التى بجوار بركة الرطلى .

وفيه توفى المسند رضى الدين الأوكالى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز الشافعى القاهرى ، وكان عالما فاضلا محدثا مسند القاهرة ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى الشيخ عباس المغربى الفاسى المالكى نزيل القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على الجمالى يوسف بن الزرازيرى كاشف البهنساوية ، وقرّر (٢٢٠ ب) فى الوزارة ، عوضا عن خشقدم الطواشى بحكم صرفه عنها ، وقرّر قاسم شغيتة فى نظر الدولة . ـ وفيه كان تفرقة النفقة على الجند المعيّن إلى التجريدة بسبب على دولات ، ثم بعث النفقة إلى الأمراء ، وقد تقرّر إلى السفر تمراز الشمسى أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى أحد المقدّمين ، وكان تميّن آقبردى الدوادار إلى السفر صحبة العسكر ثم بطل بعد ذلك ، فشقّ على العسكر بطلانه ، وكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه توفى آقبردى اليوسفى أحد العشرات ، وكان أصله من مماليك الملك الأشرف بُرسباى ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانصوه الغورى بأمرة عشرة ، وعيّن إلى التجريدة ، وقانصوه هذا هو سلطان مصر الآن . ـ وفيه توفى بايبردى المشرف الأينالى ، وكان لا بأس به ، وقد تأمر بحلب أمرة عشرة .

وفى جمادى الأولى توفى تاج الدين محمد بن الكُردى الحنفى ، وكان عالما فاضلا لا بأس به . ـ وفيه توفى الخواجا الكارمى بدر الدين حسن بن إبراهيم بن عُلَيبة السكندرى ، أخو الخواجا عبد القادر تاجر السلطان ، وكان لا بأس به . ـ وفيه كان خروج الأمير تمراز أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى أحد المقدّمين ، ومن عُيّن معهما من الأمراء العشرات والجند ، فكان لهم يوم مشهود ، وكان عدة الجند الذين خرجوا مع الأمراء نحوا من ألف مملوك .

وفى هذا الشهر وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتاعت البطة الدقيق بأربعة أنصاف ، وكل أردب قمح بنصف دينار ، وانحطّت الأسعار فى سائر البضائع بعد تلك الغلوة التى تقدّمت ، وكان قد (٢٢١ آ) اشتدّ الأمر جدا فانفرج عن قريب . ـ

(١٩) الذين : الذى .

وفيه توفى التاجر نور الدين على بن مقلاع المصرى ، وكان فى سعة من المال ؛ وتوفى السيد الشريف شهاب الدين أحمد الأرسونى المالكى ، أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا متواضعا علامة فى مذهبه ، ومولده سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفى جمادى الآخرة توقّف النيل عن الزيادة وقلق الناس ، ثم تزايد واستمرّت الزيادة عمالة حتى كان الوفاء . ـ وفيه عُزل الجمالى يوسف بن الزرازيرى عن الوزارة ، وقرّر بها قاسم شغيتة على عادته . ـ وفيه أخلع السلطان على القاضى شهاب الدين أحمد الدرسالى ، وقرّر فى قضاء الإسكندرية ، عوضا عن عفيف الدين بحكم صرفه عنها.

وفيه كثرت المرافعات فى قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزّى ، بسبب أوقاف الحنفية ، فرسم السلطان بأن يتوجّه إلى بيت برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتحضر القضاة الثلاثة ، ويُعقد مجلس بسبب حساب أوقاف الحنفية ، فلما حضر إلى هناك حصل له غاية البهدلة من الجُباة وغيرها . ـ وفيه توفى جانى بك من تمرباى ابن أخت السلطان ، وكان شابا صغير السن ، جميل الصورة ، عاقلا حشما ، لا بأس به . ـ وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب سيدى محمد السدار ، رحمة الله عليه ، وكان له الكرامات والمكاشفات الخارقة .

وفى رجب توفى العلامة شمس الدين الجوجرى ، وهو محمد بن عبد المنعم بن محمد ابن عبد المنعم بن إسماعيل القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، عارفا بمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وله عدّة مصنّفات ، وولى عدة تداريس ، (٢٢١ ب) وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به . ـ وفيه توفى الشيخ نور الدين على السنهورى المالكى ، وهو على بن عبد الله بن على الأزهرى ، وكان دينا خيرا صالحا مباركا ، وكان إماما فى مذهب المالكية ، وله شهرة طائلة ، وكان بارعا فى الفقه والعربية ، والقراءة بالروايات السبع ، وغير ذلك من العلوم ، وألّف الكتب النفيسة فى العلوم الجليلة ، ومات وهو كفيف ، ومولده سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وكان عنده انطراح نفس مع تقشّف ، وقد كُفّ فى آخر عمره ، فكان كما قيل فى المعنى :

كفيف بالإفـادة لى كفيل ضرير ما له فينـــا ضريب
سليب الـكبر ذو قلب سليم قرين للتـُقى منـــا قريب

وفيه أخلع السلطان على شمس الدين محمد بن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، وقرّر فى قضاء الشافعية بدمشق، عوضا عن الشهابى أحمد بن فرفور بحكم صرفه عنها. ـ وفيــه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى ثانى عشرين مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على جرى العادة ، وكان يوما مشهودا . ـ وفيه قبض السلطان على محمد بن العظمة ناظر الأوقاف، وسلّمه إلى خشقدم الزمام ، وألزمه بعمل الحساب .

وفى شعبان أخلع السلطان على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى ، وقرّر فى نظر الأوقاف ، عوضا عن ابن العظمة بحكم صرفه عنها . ـ وفيه توفى جانى بك التنمى نائب الـكرك ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى القاضى ولى الدين بركات بن الجيمان، وهو أبو البركات أحمد بن يحيى بن شاكر القاهرى الشافعى ، وكان ريسا حشما عارفا بأحوال المملـكة ، تولّى نيابة كتابة السرّ وصار (٢٢٢ آ) من أخصاء السلطان ، ورُشِّح أمره إلى كتابة السرّ وهرعت الناس إلى بابه ، ومات وهو شاب فى عشر الثلاثين ، وكان جميــل الهيئة حسن الشـكل ، عاقلا بشوشا ، وله برّ ومعروف وصدقات كثيرة ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

قال العواذل ما لمدحك قد غدا يزداد فى الحركات والسكنات
فأجبتهم لا تعجـلوا وتأمّلوا ما زاد إلا وهو فى بركات

فلما مات تأسّف عليه السلطان وقال: لو كان ينفدى بمال لفديته ، وكان يتصرّف فى أشغال السلطان كما ينبغى ؛ ولما توفى القاضى بركات قُرّر أخوه صلاح الدين فى نيابة كتابة السرّ ، عوضا عن أخيه بركات بحكم الوفاة . ـ وفيه انهبط النيل سريعا ، وقد ثبت على اثنين وعشرين أصبعا من ثمانية عشر ذراعا ، فشرّق أكثر البـلاد ، وزاد سعر الغلال ، ولاسيما القمح ، وكان هذا سببا للغلوة التى وقعت فى السنة الآتية، كما سنذكر ذلك فى موضعه .

وفى رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن وردبش نائب حلب خرج فى جمع من العساكر ، واتّقع مع على دولات أخى سوار ، وقد أمدّه ابن عثمان بجمع كبير من عساكره ، فلما التقى العسكران وقع بينهما وقعة مهولة ، فانكسر العسكر الحلبى ، وقتل وردبش نائب حلب ، وجماعة كثيرة من العسكر الحلبى والمصرى ؛ وكان وردبش شجاعا بطلا ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، يعرف بوردبش من محمود شاه ، وتولّى عدة وظائف سنية ، منها : نيابة سيس ، ثم نيابة قلعة الروم ، ولم يباشرها ، ثم ولى نيابة البيرة ، ثم بقى أتابك العساكر بحلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، (٢٢٢ ب) ثم بقى نائب حلب ، واستمرّ بها إلى أن قتل على يد على دولات ، قيل إنه ضرب عنقه بين يديه .

وقتل فى هذه المركة جماعة كثيرة منهم ألماس نائب صفد ، وكان دينا خيرا ، عارفا بأنواع الفروسية ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : أستادارية الصحبة ، وشادية الشراب خاناه ، ثم بقى نائب صفد ، واستمرّ بها حتى قُتل ، وكان شابا عاقلا حشما لا بأس به ؛ وقتل أيضا أزبردى الأشرفى أحد الأمراء العشرات بحلب ؛ وقتل تمراز حشيش من بخشاش الأينالى أحد الخاصكية ؛ وقتل أيضا طراباى الأشقر الإبراهيمى الأينالى أحد الأمراء بحلب ، وتغرى بردى بن محمد بن قاسم أحد العشرات بحلب ، وغير ذلك جماعة كثيرة من العسكر ، وتوفى طُقطباى المحمدى الأشرفى نائب قلعة حلب ، وكان لا بأس به .

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن الأمير تمراز ، لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ، ركب هو وأزدمر أمير مجلس والعسكر المصرى وتوجّه إلى نحو على دولات ، فاتقع معه ، فانكسر على دولات هو وعسكر ابن عثمان ، ونُهب جميع بركهم ، وأخذوا صناجق ابن عثمان ودخلوا بها إلى حلب وهى منكسة ؛ وكانت هذه الحركة أول فتن ابن عثمان ، واستمرّت من يومئذ عمّالة بينه وبين سلطان مصر ، حتى كان ما سنذكره فى موضعه من أمرها ؛ وكان أصل هذه الفتنة تعصّب ابن عثمان لعلى دولات ، وكان ابن عثمان متحمّلا على سلطان مصر فى الباطن

بسبب أشياء لم تظهر للناس .

وفيه رسم السلطان بنقل قانصوه الخسيف الأينالى من دمياط إلى مكة ، وقد بلغه عنه ما (١٢٣ آ) يوجب تغيّر خاطره عليه . ـ وفيه زاد النيل زيادة مُفرطة فى غير أوانها بعد انهباطه ، وقد شرّق غالب البلاد ، فدخل الماء خليج الزربية بعد ما كان قد نشف ، فتعجّب الناس من ذلك ، ولـكن لم يُفد من هذه الزيادة شىء فى رىّ البلاد التى شرّقت قبل ذلك .

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح أحد المقدمين ، وبالركب الأول برسباى العلاى أحد العشرات ، وحجّ صحبته سيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وكان برسباى العلاى زوج أم سيدى منصور ؛ وحجّ فى هذه السنة أبو البقا بن الجيعان ، وصحبته جانبلاط وماماى الخاصـكيان ، وقد توجّه بسبب ما رتّبه السلطان فى المدينة الشريفة من أمر تفرقة الدشيشة التى رتّبها هناك ؛ وحجّ فى هذه السنة عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثى ، وولده العلامة ، وكانا قدما من سمرقند لأجل الحج ؛ وحجّ فى هذه السنة الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس يروم الحجّ ، وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة إنسان من المغاربة يقصدون الحج .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى رأس نوبة السقاة ، فخرج صحبة الحاج منفيا إلى مكة ، وقد بلغ السلطان عنه بأنه يضرب دراهم مغشوشة ، فقبض عليه وعلى شخص من مماليك الأتابكى أزبك يقال له تمربغا ، فوجدوا فى بيت مثقال آلة الضرب التى يصنعون بها الدراهم الزغل ، فرام السلطان قطع أيديهما ، فشفع فيهما من القطع ، فنفى مثقال الساقى وسجن تمربغا حتى مات وهو فى السجن . ـ وفيه مات على بن (٢٢٣ ب) قِمّتى ، رأس نوبة النقباء ، وكان من كبار الظلمة ، مات تحت العقوبة ، وكان من أعيان الناس ، خدم جانى بك نائب جدّة لما كان دوادارا كبيرا ، وخدم السلطان قايتباى لما كان رأس نوبة النوب ، وخدم يشبك الدوادار ، ثم تـكلم فى بعض

---

(٤) انهباطه : إن هباطه .

جهات السلطان فوقف عليه مال ، واستمرّ تحت العقوبة حتى مات ، وكان من الأشرار.

وفيه توفى سودون الصغير الملاى الظاهرى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، توفى بحلب ، وكان يعرف بسودون الخازندار ، وكان لا بأس به . ــ وفيه ضرب السلطان محمد بن العظمة ناظر الأوقاف بالمقارع فى وسط الحوش ، وكتب عليه قسامة أن لا يعود قط يسعى فى نظر الأوقاف ، ومتى سعى فى ذلك يكون دمه هدر ، ثم بعث به إلى المقشرة ، وكتب من هذه القسامة أربع نسخ ، وبعث إلى كل قاض منها نسخة . ــ وفيه توفى قرقماس من يخشباى الظاهرى البواب ، أحد الأمراء العشرات ، وكان موته فجأة ، وكان من خواص السلطان . ــ وفيه توفى أزبك أبو زيد الأينالى ، أحد أمراء حماة ، وكان لا بأس به . ــ وفيه توفى المسند السيد الشريف محمد أبو السعود العلوى الهاشمى الشافعى ، وكان من الفضلاء بارعا فى الحديث .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن على دولات قد أطلق أينال السلحدار نائب طرابلس ، وكان عنده مأسورا . ــ وفيه أرسل السلطان خلعة إلى أزدمر أمير مجلس ورسم له بعوده إلى نيابة حلب كما كان أولا ، عوضا عن وردبش بحكم قتله عند على دولات . ــ وفيه أرسل السلطان خلعة إلى مملوكه أينال الخسيف ، الذى كان أتابك العساكر (٢٢٤ آ) بحلب ، ورسم له بأن يكون نائب صفد ، وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغيّر خاطره عليه فنفاه إلى البلاد الشامية ، فأقام بها مدّة ، ثم رضى عليه وولّاه نيابة صفد بعد نيابة سيس وأتابكية حلب ، ثم ولّاه فيما بعد نيابة حماة .

وفيه اقترن المشترى وزحل ببرج العقرب ، وذكر أرباب الفلكية بأن هذا القران لم يقع من منذ مائتين وستين سنة ، وأن ذلك يدلّ على وقوع فتن عظيمة ، وكان الأمر كذلك ، كما سيأتى الكلام عليه فى محله . ــ وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، فأكرمه السلطان وأخلع عليه . ــ وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن بعض الجند ، يقال له جرباش المجنون ، وكان غاية فى الرمى بالنشاب ، وقف إلى السلطان فى طلب إقطاع عن شخص توفى ، فلم يجبه السلطان إلى ذلك ، فلما نزل إلى داره ذبح نفسه بيده من حنقه من السلطان ، فراحت روحه ولم يرث له أحد .

وفيه توفى الزينى عبد الباسط بن علم الدين شاكر بن الجيمان ، وكان ريسا حشما ، متحدثا على مباشرات عديدة من مدارس وجوامع وأوقاف ، وكان دينا خيرا ، عفيفا عن الرشوة ، صلبا فى أموره ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة . ــ وفيه عزّ وجود القطن جدا ، حتى بلغ سعر كل قنطار ألفين وأربعمائة ولا يوجد . ــ وفيه أخلع السلطان على قريبه بيبرس الرجبى ، وقرّره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن أينال السلحدار بحكم أسره عند على دولات .

وفى ذى الحجة ارتفع سعر البرسيم ، حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية .ــ وفيه عزّ وجود الضحايا من الغنم والبقر ، بواسطة أذى المماليك الجلبان (٢٢٤ ب).ــ وفى يوم عيد النحر أمطرت السماء مطرا غزيرا ، حتى أوحلت الأرض ، وحصل للناس مشقة فى مرورهم فى الشوارع إلى صلاة العيد . ــ وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان أسر عند على دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من حدّ إبهامه وأطلقه .

وفيه جمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان ، بسبب ما وقع منه فى تعصّبه لعلى دولات ، فأشار الأتابكى أزبك وغيره من الأمراء بأن السلطان يرسل إليه بهدية على يد قاصد ، وتزول هذه الوحشة من بينهما ، فانصاغ السلطان لهذا الكلام وعيّن فى ذلك المجلس الأمير جانى بك حبيب أمير آخور ثانى ، وكان حُلو اللسان سيوسا دربا ، وقد تقدّم أنه توجّه إلى يعقوب بن حسن الطويل وتلطّف به فى الكلام ، حتى أطلق من كان عنده فى الأسر من النواب والأمراء والجند كما تقدّم. ــ وفيه خرج بيبرس الرجبى الذى قرر نائب طرابلس، فكان له يوم مشهود.ــ وفيه توفى ناظر جيش غزّة إبراهيم بن عبد الرحمن ، وكان ريسا حشما لا بأس به؛ وتوفى الشيخ المعتقد أحمد السيوعى ، وكان من أعيان الصوفية وله خصاصة بالأتابكى أزبك .

وفيه وصل مبشّر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له قايتباى من مماليك السلطان ، وأخبر بسلامة الحجاج ، وأن القاضى كمال الدين ناظر الجيش اختار المجاورة بمكة ، وكان حجّ فى هذه السنة ؛ وحضر صحبة المبشّر دولات باى (٢٢٥ آ) من

مصطفى ، الذى كان نائب غزّة ونفاه السلطان إلى مكة ، فبعث بحضوره ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجّه إليها . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب قونية من بلاد ابن قرمان ، وهو عبد الله أخو الجمجمة بن عثمان ، تولّى على قونية بعد أخيه جُمجمة ، وكان حسن السيرة لا بأس به ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كانت وفاة قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى ، وهو محمد ابن محمد بن محمد بن محمود بن غازى الثقفى ثم الحلبى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهب أبى حنيفة ، وكان ناظما ناثرا ريسا حشما ، جميل الهيئة حسن الشكل ، تولّى عدّة وظائف سنية ، منها : قضاء حلب ، وكتابة سرّها ونظر جيشها ، ثم ولى كتابة السرّ بمصر وقضاية قضاة الحنفية عدّة مرار ، ثم ولى مشيخة الخانقة الشيخونية ، ومات وهو شيخ بها ، وجرى عليه شدائد ومحن شتى ، واعتراه فى آخر عمره مرض الفالج واستمرّ به إلى أن مات ، وقد ذهل فى عقله ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، ومات وقد قارب التسعين ، وكان من أعيان رؤساء مصر ، وله عدّة تآليف جليلة ، ومن شعره قوله :

قلت له لما وفا موعدى ‏ ‏ ‏ ‏ وما بقلبى لسواه نفاق
وجاد بالوصل على وجهه ‏ ‏ ‏ ‏ حتى سمى كل حبيب وفاق

فلما مات تولى ابنه الشيخ سرىّ الدين عبد البرّ مشيخة الشيخونية ، عوضا عن أبيه . ـ وفيه دخل الحجاج إلى القاهرة ، وحضر أبو البقا بن الجيعان وجان بلاط ومامای ، وجماعة من أقارب السلطان كانوا فى الحجاز فى تلك السنة . ـ وفيه وصل قرقماس التنمى نائب طرسوس ، وكان ممن أسر عند على دولات . ـ وفيه وصل سيف يشبك الملاى (٢٢٥ ب) نائب حماة ، وكان لا بأس به ، وولى عدّة وظائف سنية ، منها : أمرة عشرة بمصر ، وبقى من جملة رءوس النوب ، ثم تولّى نيابة الكرك ، ثم نيابة غزّة ، ثم حجوبية الحجاب بدمشق ، ثم نيابة حماة ومات بها .

وفى صفر أرسل السلطان خلعة إلى سيباى الطيورى حاجب دمشق ، وقرّره فى نيابة حماة ، عوضا عن يشبك العلاى بحكم وفاته ، وقرّر فى حجوبية دمشق يلباى أحد الدوادارية بدمشق، وقرر فى الدوادارية جانى بك الطويل أحد مماليك السلطان.ـ وفيـه كان توجّه جانى بك حبيب أمير آخور ثانى إلى ابن عثمان ، وقد تقدّم القول بأن السلطان قد عيّنه قاصدا إلى ابن عثمان، فتوجّه إليه من البحر الملح من الإسكندرية، وأرسل السلطان صحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وأرسل السلطان صحبته تقليدا من الخليفة إلى ابن عثمان ، بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يده من البلاد الكفرية ، وأرسـل إليه الخليفة أيضا مطالعة تتضمّن تخميد هـذه الفتنة التى قد انتشت بينه وبين السلطان ، وفى المطالعة بعض ترقّق له .

والذى استفاض بين الناس أن سبب هـذه الفتنة الواقعة بين السلطان وبين ابن عثمان ، أن بعض ملوك الهند أرسل إلى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند ، فلما وصل إلى جدّة احتاط عليها نائب جدّة وأحضرها صحبته إلى السلطان ، وكان من جملة تلك (٢٢٦ آ) الهدية خنجر قبضته مرصّعة بفصوص مثمنة ، فطمع السلطان فى تلك الهدية وأخذ الخنجر ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق ؛ وجاء فى عقيب ذلك أن على دولات ترامى على ابن عثمان وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه ، فتعصّب لعلى دولات وأمدّه بالعساكر ، واستمرّت الفتنة تتّسع حتى كان ما سنذكره فى موضعه ؛ وقد طمع غالب ملوك الشرق فى عسكر مصر بموجب ما وقع لهم مع سوّار وباينذُر وغير ذلك من ملوك الشرق ؛ ثم إن السلطان أرسل إلى ابن عثمان ذلك الخنجر والهدية التى بعث بها ملك الهنـد ، وأرسل يعتذر لابن عثمان عن ذلك بعد ما صار ما صار ، فكان كما قيل :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط   وعذر أتى سرّا فأكّد ما فرط
ومن ظنّ أن يمحو جلىّ جفـائه   خفىُّ اعتـذارٍ فهو فى غاية الغلط

ثم إن جانى بك حبيب لبس خلعة السفر ، ونزل فى موكب حافل ، وتوجّه إلى

ثغر الإسكندرية ، ونزل من هناك فى مراكب وتوجّه إلى بلاد ابن عثمان من البحر الملح . ــ وفيه قرر فى أتابكية حلب قرقماس التنمى ، عوضا عن أينال الخسيف بحكم انتقاله إلى نيابة صفد ، وقرّر فى نيابة الكرك أمير زاه بن حسن الدوكارى ، عوضا عن جانى بك الطويل . ــ وفيه توفى خليفة سيدى إبراهيم الدسوقى رحمة الله عليه ، وهو خير الدين أبو الكرم الشافعى ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول عرض السلطان العسكر وعين تجريدة إلى على دولات ، (٢٢٦ ب) وعيّن بها من الأمراء برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجمالى أحد المقدّمين ، ورسم لهم بأن يتقدّموا جاليش العسكر إلى أن يخرج الأتابكى أزبك ، ثم نفق على العسكر الذى تعيّن للتجريدة ، فبلغت النفقة على هذه التجريدة زيادة على مائة ألف دينار . ــ وفيه توفى قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو بدر الدين محمد أبو السعادات بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنانى البُلقينى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا ، تولى قضاء الشافعية بمصر فى دولة الظاهر خُشقدم ولم تطل مدّته بها ، وكان عنده خفّة زائدة ورهج فى الأمور . ــ وفيه توفى عبد القادر الحمامى الجابى ، وكان ريسا حشما سيوسا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، ونصب فى ذلك اليوم الخيمة المعظمة التى أقامها على يده ، وجاءت غاية فى الحسن والتزخرف ؛ وحضر فى هذا المولد ملك التجار أحمد بن محمود بن كاوان ، وكان قدم صحبة الحجاج من مكة ، فعظم أمره بمصر جدا . ــ وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة الواعظ المحدث شهاب الدين أحمد العميرى المقدسى ، وكان عالما فاضلا ، علامة فى فن الوعظ ، دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة . ــ وفيه توفى برسباى من تمر بغا الظاهرى المعروف بحشيش ، وكان من العشرات لا بأس به .

وفيه عُمل مولد السيدة نفيسة رحمة الله عليها ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وكان حافلا . ــ وفيه جاءت الأخبار من (٢٢٧ آ) القدس بوفاة الشيخ سعد الله الهندى الحنفى ، إمام المسجد الاقصى ، وكان من أهل العلم والفضل ، عارفا بالقراآت

السبع ، وكان أحد نواب الحكم بدمشق . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك البُجاسى ، الذى كان نائب حلب وعُزل عنها ، مات بصفد ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، ولا سيما ما وقع له مع النابلسى وكيل بيت المال ، وكان ريسا حشما تولّى عدّة وظائف سنية ، منها : نيابة ملطية ، ونيابة حماة ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وصودر وسجن بدمشق ، ثم نقل إلى صفد فمات بها . ـ وفيه رسم السلطان بأن أحدا من القضاة والشهود لا يعقد نكاحا على جَلَب من مماليكه ، فتقلّق المماليك من ذلك ، ثم تزوّجوا فيما بعد ولم يلتفتوا إلى قول السلطان .

وفى ربيع الآخر وجد شخص من المماليك السلطانية ، يقال له فارس الزردكاش ، مقتولا بالصوّة بعد صلاة الصبح ، ولا يُعلم من قتله . ـ وفيه خرج العسكر المعيّن إلى على دولات ، وكان باش العسكر بُرسباى قرا رأس نوبة النوب ، وصحبته تانى بك الجمالى أحد المقدّمين ، وعدّة من الأمراء المشرات ، وقد خرجوا المقدّمين بغير طُلْب . ـ وفيه قبض آقبردى الدوادار على جماعة من أولاد ابن عمر ، وسجنهم فى البرج الذى بالقلعة ، وكان أحضرهم صحبته لما توجّه إلى الوجه القبلى ، وقد تغيّر خاطر السلطان على بنى عمر .

وفى جمادى الأولى قرّر فى أمرة الحاج بالمحمل أزدمر المسرطن أحد المقدّمين ، (٢٢٧ ب) وبالأول بُرسباى اليوسفى أحد الطبلخانات . ـ وفيه قرّر دولات باى الحسنى الظاهرى شاد الشون فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن قانى بك جشحة ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة مدّة طويلة . ـ وفيه توفى قَراجا نائب جّدة ، وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جّدة ، وكان لا بأس به . ـ وفيه وصل إلى القاهرة أينال السلحدار الأشرفى ، الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان وأخلع عليه وأقرّه فى شادية الشراب خاناه .

وفيه أُخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة فى هذا العام ثمانية أذرع وعشرين أصبعا ،

---

(٧) من ذلك ، أورد المؤلف هنا بيتين من الشعر يمكن قراءتهما فى طبعة إستانبول ج ٣ ص ٢١٢ .

فعُدّ ذلك من النوادر . ـ وفيه توفى الشيخ المتقد نور الدين على من أولاد سيدى يوسف العجمى رحمة الله عليه ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أعيد القاضى شهاب الدين ابن فرفور الدمشقى إلى قضاء الشافعية بدمشق ، مضافا إلى نظر الجيش ، وصرف عنها ابن المزلق . ـ وفيه هجم المنسر على الناس وهم فى زيارة الإمام الليث بن سعد رحمة الله عليه ، فأخذوا عمائم الزوار حتى أزر النساء وعرّوا الناس بطول الطريق ، حتى وصلوا إلى باب القرافة ، وكانت كاينة عظيمة جدا .

وفى جمادى الآخرة ضرب السلطان السيد الشريف إبراهيم ، الذى كان كاتب سرّ دمشق ، وأودعه بالمقشرة ولم يرث إلى شرفه . ـ وفيه قرّر الشيخ كمال الدين بن أبى شريف القدسى فى مشيخة مدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس ، وجاءت غاية فى الحسن . ـ وفيه أخلع السلطان على السيد الشريف موفق الدين الحموى ، وقرّر فى كتابة السرّ بدمشق . ـ وفيه رسم السلطان بقطع يد مملوك من جلبانه وقد سرق غير ما مرة ، (٢٢٨ آ) فلما أرادوا قطع يده شفع فيه بعض الأمراء ، فحنق منه السلطان ، فرسم بقطع رجلين ذلك المملوك أيضا .

وفيه رسم السلطان للأمير آقبردى الدوادار ، وأبى البقا بن الجيعان ، وجان بلاط ، وماماى ، ورمضان المهتار ، وجماعة من القراء والوعاظ ، بأن يتوجهوا إلى القدس ، بسبب عمل وليمة لمدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس ، وقد انتهى منها العمل ، وخرج ابن أبى شريف صحبتهم ، وقد قرّر شيخ هذه المدرسة . ـ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة كوَلك ، وكان بها شخص من مماليك السلطان يقال له طوغان الساعى ، فلما حاصروه أسلمها إليهم بالأمان ، وكانت هذه أول وقائع ابن عثمان ، ثم اتسع الأمر بعد ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس ، صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن على بن سعد بن محمد بن الأحمر ، وكان من خيار ملوك الغرب ، مشتهرا بالعدل ، عارفا بتدبير المملكة ، حسن السيرة ، لا بأس به . ـ وفيه جاءت الأخبار

من مكة المشرفة بأن الأمطار كانت قليلة بها جدا ، وأن الآبار قد نشفت ، والعين التى أجراها السلطان قد وقفت ، وحصل لأهل مكة الضرر الشامل بسبب ذلك . ــ وفى هذا الشهر تزايد شرور المماليك الجلبان والزعر والعبيد بمصر ، حتى أعيى أمرهم الوالى وحاجب الحجاب ، وصارت الأحوال فى اضطراب .

وفى شعبان فى ثانيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى العشرين من مسرى ، فلما أوفى توجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان له يوم مشهود . ــ وفيه قرّر البدرى محمود بن أجا (٢٢٨ ب) فى قضاء الحنفية بحلب ، عوضا عن ابن الحلاوى ، وهذا كان أول شهرة البدرى محمود بن أجا . ــ وفيه كان أول فتح خليج بركة الأزبكية ، وكان له يوم مشهود ، وعزم على الأمراء المقدّمين بالقصر المطلّ على بركة الأزبكية ، ومدّ لهم هناك أسمطة حافلة . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب بتونس وبفاس وغير ذلك من البلاد ، وأن الفرنج استولوا على مدينة مالقة . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس الرجبى قريب السلطان الذى كان نائب طرابلس ، وكان أشيع ذلك وما صحّ ، والآن قد صحّ .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر ابن عثمان قد استولى على أطراف بلاد السلطان ، وأرسل أزدمر نائب حلب يستحثّ السلطان بخروج تجريدة ثقيلة أو يخرج السلطان بنفسه ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكى أزبك ، وكان هو المشار إليه فى تعيين الجند بما يختاره منهم ، ثم عرض القرانصة وأولاد الناس ، وصار الذى لا يطيق السفر منهم يقيم له بديلا كاملا بفرس ولبس وغير ذلك ، أو يورد مائة دينار من له إقطاع وجامكية ؛ ثم إن المماليك المعيّنة للسفر أطلقوا فى الناس النار ، وصاروا يأخذون أبغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا أبغال الطواحين والأكاديش التى بها ، وتعطّلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحّط الخبز من الدكاكين ، وكادت أن تكون غلوة كبيرة ، حتى وبّخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى (٢٢٩ آ) فى القاهرة بالأمان والاطمان ،

(٢٠) يأخذون : يأخذوا . (٢١) التى : الذى .

وأن كل من أُخذ له بغل أو فرس يطلع إلى أمير آخور كبير يخلّصه ، فسكن الحال قليلا .

وفى رمضان توفى بُرسباى الخازندار المحمودى ، وكان من أخصاء السلطان من الأمراء العشرات ، وكان لا بأس به . ـ وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان مجاورا بمكة فأتاه الأجل هناك ، وهو محمد بن يوسف ناظر الخاص المعروف بابن كاتب جكم ، وكان ريسا حشما وله اشتغال بالعلم ، وولى نظر الجيش وهو فى حداثة سنّه ، وباشرها أحسن مباشرة ، وحُمدت سيرته بها حتى مات . ـ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وكان حافلا جدا ، وفُرّقت الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء .

وفى شوال خرج العسكر المعين إلى على دولات ، وكان باش العسكر الأتابكى أزبك ، وكان صحبته قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا حاجب الحجاب ، وتغرى بردى ططر أحد المقدّمين الألوف ، وقد تقدّمهم ستّة من الأمراء المقدّمين ، وهم : أزدمر أمير مجلس ، وتغرى بردى ططر أحد المقدّمين ، ثم خرج بعدهم تمراز الشمسى أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدّمين ، ثم خرج من بعدها بُرسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجمالى أحد المقدّمين ، وكان جملة الأمراء الذين خرجوا أولا وآخرا تسعة أمراء مقدّمين ، ومن الجند نحو من ثلاثة آلاف مملوك بما تقدّم فى الأول والآخر ؛ وكانت هذه التجريدة من أعظم التجاريد ، وطلّب الأتابكى أزبك طُلْبا حافلا ، حتى رجّت له القاهرة ، وكذلك قانصوه (٢٢٩ ب) خمسمائة ، فكان طُلْبه غاية فى الحسن بحيث لم يُعمل قط مثله ، قيل كان مصروف طُلْب قانصوه خمسمائة نحوا من ثمانين ألف دينار ، وخرج العسكر وهم لا بسون آلة الحرب ، وكان ذلك يوما مشهودا ، وكان مع الأتابكى أزبك عدّة أمراء طبلخانات وعشرات ، والجمّ الغفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ، فعُدّت هذه التجريدة من النوادر .

---

(٧) وباشرها : وباشهرها . (١٦) الذين : الذى .

وفى هذا الشهر كانت وفاة الخواجا محيى الدين عبد القادر بن إبراهيم بن حسن ، المعروف بابن عُليبة السكندرى ، تاجر السلطان ، وكان ريسا حشما من أعيان التجار . ـ وفيه أخلع السلطان على القاضى شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص يوسف وقرّر فى نظر الجيش ، عوضا عن أخيه كمال الدين بحكم وفاته بمكة ، وكان متكلما فى نظر الجيش نيابة عن أخيه . ـ وفيه أخلع السلطان على على بن عامر وقرّره فى أمرة آل فضل بحماة ، عوضا عن عَساف بحكم قتله . ـ وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر المسرطن ، وبالركب الأول برسباى اليوسفى . ـ وفيه طيف برأس شخص من العربان المفسدين ، يقال له محمد بن عامر ، أحد مشايخ فزارة ، بعث بها ابن الزرازيرى الكاشف ، وعدّة رءوس من العرب المفسدين .

وفى ذى القعدة ، فى ثالث عشر هاتور ، زاد النيل زيادة مفرطة نحو الذراع ، حتى تعجّب الناس من ذلك . ـ وفيه عاد جانى بك حبيب الذى توجّه قاصدا إلى ابن عثمان ، وقد سافر من البحر الملح وعاد من البرّ من على ملطية ، فلما طلع بين يدى السلطان كان عليه خلعة ابن عثمان ، فأخلع عليه وعلى من كان معه من الخاصكية ؛ ثم إن جانى بك حبيب خلا بالسلطان وأخبره عن أحوال ابن عثمان بأنه غير راجع عن أذاه لعسكر مصر ، وأنه لم ير منه إقبالا (٢٣٠ آ) ولا أكرمه ، وأنه غير ناصح للسلطان ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك . ـ وفيه توفى شمس الدين الوفاى قاضى الخانكاه ، وكان ريسا حشما لا بأس به .

وفى ذى الحجة توفى قانم الفقيه الظاهرى أحد العشرات ، وكان باش المجاورين بمكة المشرفة ، وكان دينا خيرا لا بأس به . ـ وفيه أعيد الزينى أمير حاج إلى نقابة الجيش على عادته ، وصُرف عنها موسى بن الترجمان بعد كاينة عظيمة وقعت له ، وكان غير محمود السيرة سيئ التصرّف فى أفعاله . ـ وفيه قرّر كرتباى من مصطفى المعروف بالأحمر فى كشف البحيرة ، عوضا عن قَرا كُز مملوك تمراز أمير سلاح . ـ وفيه جاءت الأخبار من نائب حلب بأن على دولات أرسل يسأل فى الصلح ،

بعد ما اتّسع الخرق على الراقع ، كما قيل :

أتروض نفسك بعد ما هرمتْ ومن العناء رياضة الهرم

وفى عاشره كان عيد النحر ، وكانت الأضحية رخيصة لغياب العسكر عن مصر . ـ وفيه توفى قاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن محمد الفلحانى التونسى المالكى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه ، قدم إلى مصر وأقام بها مدّة ، ثم عاد إلى بلاده فمات بها . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة المنتصر بالله محمد ، من أولاد الملك مسعود صاحب تونس ، وكان أكبر أولاده مستولى على إحدى جهات المغرب ، وكان شابا حسن السيرة عادلا فى الرعية ، فتأسّف عليه والده جدا .

وقد خرجت هذه السنة عن فتن وشرور ببلاد الشرق وبلاد الغرب ، وحصل فى مصر تشحيطة فى سائر الغلال ، واشتدّ السعر ، ووقع الاضطراب بسبب تلك التجاريد ، وحصل على الناس من المماليك (٢٣٠ ب) ما لا خير فيه ، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك ، ممـا حصل به الضرر الشامل ، وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ، وحصل للناس وقوف حال بسبب ضرب الفلوس الجدد ، وبطل أمر العتق ، والأمر لله .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كان يومئذ خليفة الوقت الإمام أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو العزّ عبد العزيز ؛ وسلطان العصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى الجركسى ؛ وأما القضاة الأربعة فالقاضى زين الدين زكريا الأنصارى الشافعى ، والقاضى شمس الدين محمد الغزّى الحنفى ، والقاضى محيي الدين بن تقى المالكى ، والقاضى بدر الدين محمد السعدى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدّمين فكان عدّتهم يومئذ خمسة عشر أميرا مقدم ألف ، منهم

(١٥) ثم دخلت ، من هنا يبدأ مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ ، الذى روجع على مخطوط الفاتيكان رقم ٨٦٩ ، وقد رمزنا إلى مخطوط الفاتيكان فيما يلى بحرف « ف » .

أرباب الوظائف : الأتابكى أزبك من ططخ أمير كبير ، وتمراز الشمسى أمير سلاح ، وأما أمرة مجلس كانت شاغر من حين أعيد أزدمر قريب السلطان إلى نيابة حلب ، وبُرسباى قرا الظاهرى رأس نوبة النوب ، وقانصوه من طراباى المعروف بخمسمائة أمير آخور كبير ، وآقبردى من على باى دوادار كبير ، وتغرى بردى ططر حاجب الحجـاب .

وأما الأمراء المقدّمين غير أرباب الوظائف : أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك الجمالى ، وتانى بك قرا الأينالى ، وأزدمر تمساح ، وأزدمر المسرطن ، ويشبك الجمالى السيفى ناظر الخاص يوسف ، وقد جمع بين التقدمة والزردكاشية الكبرى ، وينُظر فى ذلك هل تقدّم وجانم وأينال وشاد بك فى هذه السنة أو بعد ذلك ، وشاد بك من مصطفى ، وجانم من تانى بك ، وأينال من يشبك ؛ وأما الأمراء الطبلخانات فكان عدّتهم يومئذ نحو عشرة أمراء ؛ وبلغت عدّة خاصكيته فى هذه السنة نحو أربعين خاصكيًا لا غير ؛ وأما الأمراء العشرات فكان (٢ آ) عدّتهم يومئذ نحوا من ستين أميرا .

وأما أرباب الوظائف من المتعمّمين : فالقاضى كاتب السرّ تقى الدين أبو بكر ابن مُزهر ، ونائبه صلاح الدين بن الجيمان ، وناظر الجيش الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، ومستوفى ديوان الجيش أبو البقا بن الجيمان ، وناظر الخاص علاى الدين بن الصابونى ، وقد جمع بين نظارة الخاص ووكالة بيت المال ، والوزارة بيد قاسم شُغيتة متحدّث فيها ، وشرف الدين بن البقرى ناظر الدولة ، وقد جمع بين نظارة الدولة ونظارة الأوقاف فى تلك الأيام ، والبدرى بدر الدين ابن مُزهر محتسب القاهرة ، ووالى الشُرطة يشبك من حيدر الأينالى ، والأستادارية بيد تغرى بردى المعروف بالقادرى ، ونقابة الجيش بيد أمير حاج بن أبى الفرج ، وكتابة الخزانة بيد عبد الغنى بن الجيمان ، وكتابة المماليك بيد يوسف بن أبى الفتح نائب جدّة ، ونظارة

(٩-١٠) وينظر - أو بعد ذلك : كتبت هذه الجملة فى الأصل على الهامش .

(١١-١٢) وبلغت - لا غير : كتبت هذه الجملة فى الأصل على الهامش .

الأسطبل بيد يحيى بن البقرى ، ونظارة الزردخاناه بيد عبد الباسط بن تقى الدين ، ونظارة الكسوة الشريفة بيد رمضان المهتار ، ونظر الجوالى بيد نور الدين على البتنونى المعروف بالحنبلى .

وأما أرباب الوظائف من الطواشية : نخشقدم الأحمدى متولّى الزمامية ، وخالص التكرورى مقدّم المماليك ، ونائبه عنبر ، وسرور شاد الحوش ، وغير ذلك من أرباب الوظائف لم نذكرهم هنا خوف الإطالة فى ذلك ، وإنما ذكرنا منهم الأعيان ؛ فهذا كان ترتيب أرباب الوظائف فى مستهلّ هذه السنة على حكم ما ذكرناه ، ثم انتقلت الوظائف من بعد ذلك إلى جماعة كثيرة من الأتراك والمباشرين ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى مواضعه من ولاية وعزل ووفاة ، انتهى ذلك .

وفيه ، أعنى هذا الشهر ، توفى السيد الشريف أبو عوان ، واسمه أحمد بن أبى بكر التونسى المالكى ، وكان يعرف بالعوانى ، وكان دينا خيرا جميل الهيئة حسن الشكل ويقال إن فيه أشياء من شبيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة . ــ وفيه توجّه السلطان إلى جهة (٢ ب) الشرقية ، بسبب أنه كشف على الجسور ، فغاب هناك أياما ثم عاد إلى القلعة . ــ وفيه تناهى سعر البرسيم كل فدان مخضرّ باثنى عشر دينارا ، وأبيع الدريس كل مائة قتّة بأربعمائة درهم ، حتى عدّ ذلك من النوادر ، وسبب ذلك أن حبّة البرسيم كان غاليا فى تلك السنة ، وكان النيل خسيسا ، والذى طلع من البرسيم أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال جميعه مرتفعا فى هذه السنة ، حتى غلا سعر الراوية الماء من عدم العلف لجمال السقايين .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى الروضة ، وعدّى وهو راكب ، وكان معه القاضى قطب الدين الخيضرى وجماعة من خاصكيته، فتوجّه إلى خرطوم الروضة وأقام به إلى آخر النهار ، ونصب له هناك سحابة وموخر ، فطاب له رؤية ذلك المكان ، فأمر بأن يبنى هناك قصر مطلّ من الأربع جهات ، فلم يتمّ له ذلك . ــ وفيه تأخر دخول الحجاج إلى خامس عشرينه ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر المسرطن، وبالركب الأول

---

(٢٢) قصر مطل : قصرا مطلا .

برسباى اليوسفى ، وحصل لهما بموت الجمال وشدّة الغلاء مشقّة زائدة، وقد جاور أكثر الناس وانقطع آخرون بالينبع ، ولم يدخلوا القاهرة إلا بعد أيام .

وفيه توجه السلطان إلى قبّة يشبك التى بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق وكشف عن أحوالها ، ثم عاد إلى القلعة ، وألزم سرور شاد الحوش بعمل مصالح الصوفية الذين بتربة الظاهر برقوق . ـ وفيه توجه آقبردى الدوادار إلى جهة الصعيد ، بسبب فساد بنى عمر .

وفى صفر قُتل القاضى تقى الدين أبو بكر ، المعروف بخروف ، قُتل ببولاق ولا يُعلم من قتله ، وكان رئيسا حشما لا بأس به ، وكان ترشّح أمره بأن يلى قضاء الحنفية فى دولة الظاهر خشقدم ، وقد سعى له ابن العينى . ـ وفيه خسف جرم القمر واظلم الجوّ ، واستمرّ على ذلك نحوا من خمسين درجة . ـ وفيه توفى سيدى موسى ابن الخليفة المتوكل على الله عمّ أمير المؤمنين أبى العزّ عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما، وفاتته الخلافة (٣ آ) عدّة مرار ، وقد تولّى أربعة من إخوته وهو مبعد لقلّة حظّه ، وكان مولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين عربان جبل نابلس ، وقُتل فيها آقبردى من بخشايش الأينالى أستادار الأغوار ، وقُتل أيضا جماعة كثيرة من العربان ، منهم أبو بكر أمير جرم ، ويوسف بن الجيوسى أحد مشايخ نابلس ، وجماعة كثيرة من أولاد إسماعيل وأولاد عبد القادر ، وكانت فتنة شنيعة مهولة ؛ فلما بلغ السلطان ذلك عيّن آقبردى الدوادار بأن يتوجّه إلى جبل نابلس ويخمد هذه الفتنة التى بين العربان ، فخرج مبادرا إلى ذلك .

وفيه كانت وفاة قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو ولى الدين أحمد الأسيوطى بن أحمد بن عبد الخالق بن عبد المحيى بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محمودا فى أيام قضائه ، رئيسا حشما سيوسا فى أفعاله ،

---

(٥) الذين : الذى . (١٨) ويخمد : ويحمل .

ولى القضاء الأكبر ومشيخة الجمالية والناصرية وعدّة تداريس ، وأقام فى القضاء وهو ماشى مع الناس أحسن سيرة ، ودام بها ما يزيد على ست عشرة سنة والناس عنه راضية ، وكان مولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر المصرى تقاتل مع عسكر ابن عثمان ، فكانت النصرة بها لعسكر مصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم جماعة كثيرة نحو من أربعين ألف من توابع عسكره ، وقبض على أحمد بك بن هرسك ، وكان من أجلّ أمراء ابن عثمان ، فلما قبض عليه أُسر وأودع فى الحديد ، فلما بلغ السلطان ذلك سُرّ بهذا الخبر جدا .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، لكن كان أكثر الأمراء غائبا فى التجريدة ، ولم يكن بمصر منهم سوى ثلاثة أمراء مقدّمين . ـ وفيه توفى القاضى أبو الحسن بن عرب ، وهو على بن عمر الطنبدى الشافعى ، أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان لا بأس به . ـ وفيه اختفى القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش أخو كمال الدين ، فلما اختفى أخلع السلطان على البدرى محمد بن القاضى كمال الدين ناظر (٣ ب) الجيش وقرّره فى نظر الجيش ، عوضا عن عمّه الشهابى أحمد بحكم اختفائه ، وكان البدرى هذا حديث السنّ لما تولى نظر الجيش لم يلتح بعد . ـ وفيه قرر شاهين الجمالى فى مشيخة الحرم النبوى .

وفيه توفى المسند شمس الدين محمد البساطى الشافعى ، وكان علامة فى الحديث ، دينا خيرا لا بأس به . ـ وفيه وصل دوادار نائب حلب ، وأخبر بصحة كسرة عسكر ابن عثمان والقبض على أحمد بك بن هرسك ، وجماعة صحبته من أمراء ابن عثمان من أعيانهم ، وقد أخذ العسكر المصرى من النهب ما لا يحصى ، من خيول وسلاح وبرك وغير ذلك ، وأخذوا سناجقهم ، وكان عدّتهم نحوا من مائة وعشرين سنجق ، وقد قُطعت عدّة وافرة من رءوس عسكر ابن عثمان ، وسيحضرون صحبة قيت الساقى الخاصكى ، فسُرّ السلطان لهذا الخبر وأخلع على دوادار نائب حلب خلعة حافلة ، وأظهر الفرح والسرور . ـ ثم فى عقيب ذلك اليوم سقط الصارى الخشب الذى تعلّق

فيه القناديل فى رمضان بمنارة جامع القلعة ، فأخذ الناس يتفاءلون بشىء يحدث للسلطان عن قريب .

فلما كان اليوم الثانى من انكسار الصارى ، ركب السلطان على فرس حرون ، وسيّر فى الحوش ، ثم ساق ونخع الفرس باللجام ، فشبّ به وانقلب على السلطان ، فسقط إلى الأرض وبقيت رجله تحت جنب الفرس ، فانكسرت رجل السلطان من عند عظمة نخذه كسرا بالغا ، فأغمى عليه وسال منه الدم ؛ فأرجفت القلعة بموته ، واضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وكثر القال والقيل بين الناس ، ولم يشكّ فى موته أحد بل تيقّنوا ذلك ؛ فحمله بعض الخاصكية وهو مغمى عليه ، فأدخله إلى قاعة الدهيشة ، فتسامع الأمراء بذلك فطلعوا إليه ، ثم طلع كاتب السرّ ابن مُزهر ، فلما دخل عليه ، قال له السلطان : اكتب فى هذه الساعة مراسيم وارسلهم إلى حلب ، لتطمئن الأمراء والعسكر بسلامة السلطان من هذا العارض ، وقد يحصل له السلامة والشفاء عن قريب ، فكتبت المراسيم بصورة الحال وأخرجت على يد (٤ آ) هجان فى أثناء ذلك اليوم ، وتوجّهت إلى حلب ؛ وقد نظم بعض شعراء العصر ، وهو الشهاب المنصورى ، يعتذر عن هذه الواقعة بهذين البيتين ، وهو قوله :

وقد زعموا أن الجواد كبا به وحاشاه من عيب يضاف إليه
ولكن رأى سلطان عزّ وهيبة فقبّل وجه الأرضِ بين يديه

وفيه توفى الشيخ الصالح زين الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن حجاج الأنباسى القاهرى الشافعى ، وكان عالما عاملا دينا خيرا صالحا ، منجمعا عن بنى الدنيا ، متصوّفا على طريقة السلف ، متواضعا جدا ، وذكر للقضاء غير ما مرّة وهو يأبى من ذلك ، ولما مات دفن بزاوية الشيخ شهاب ، التى بحدرة الفول ، عند بركة الرطلى.

وفى ربيع الآخر طلع القضاة إلى القلعة للتهنئة بالشهر ، فأذن لهم بالدخول على السلطان وهو فى القاعة التى بين الدهيشة وقاعة الحرم ، فلما دخلوا عليه وجدوه على سرير ، وقد قوّروا له الفرش من تحته ، ورجله قدّامه وهو لا ينام ولا يتحرّك ، فكان الأمراء والمباشرون يدخلون عليه كل يوم ويعطونه الخدمة وهو جالس

على ذلك السرير فيدعون له وينصرفون .

وفيه وصل قيت الساقى ، وهو قيت من آقباى ، من حلب ، ومعه عدّة رءوس من التى قطعت من عسكر ابن عثمان ، فلما دخل القاهرة زُيّنت له زينة حافلة ، واصطفّت الناس للفرجة على الدكاكين ، فدخل وقدامه الرءوس محمولة على الرماح ، وكان عدّتها ما يزيد على مائتى رأس؛ فلما طلع إلى القلعة ضربت له البشائر ، وأقيمت الخدمة بالحوش ، ووقف أرباب الدولة كل أحد فى منزلته على العادة ، وغطيت الدكة التى يجلس عليها السلطان بالملاءة الحرير ، فلما صعد قيت الساقى باس الأرض إلى نحو الدكة ، فأحضرت له خلعة ولمن كان صحبته من المماليك السلطانية ، فلبسوا تلك الخلع ونزلوا من القلعة فى موكب حافل .

وكل هذا جرى والسلطان منقطع فى قاعة الدهيشة ، وهو فى غاية التألم من رجله ، وقيل (٤ ب) إن السلطان فرّق على الفقراء فى مدّة انقطاعة بهذا العارض نحوا من ألف دينار على يد قطب الدين الخيضرى ، ثم إنه بعد أيام علّم على أربعة مراسيم ، وكانت العلامة قد تعطّلت أياما . — وفيه توفى الشيخ جلال الدين البكرى ، وكان علامة فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان اسمه محمد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن محمد الديروطى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، ناب فى القضاء مدّة طويلة وولى قضاء الإسكندرية ، ثم ولى مشيخة الخانقاة البيبرسية ، وكان بيده عدّة تداريس ، ومولده سنة سبع وثمانمائة .

وفيه رسم السلطان على لسان القاضى كاتب السرّ ابن مُزهر بأن يجمع رءوس النوب والنقباء الذين بأبواب الحكام ، ويكتب عليهم قسائم بأنهم لا يأخذوا من الأخصام إذا طُلبوا من أبوابهم أكثر من نصفين فضة لكل نقيب ، حسبما رسم السلطان بذلك ، فجمعهم وكتب عليهم قسائم بذلك ، فأقام هذا الأمر مدّة يسيرة ثم عادوا لما كانوا عليه . — وفيه قرّر شيخنا الجلال الأسيوطى فى مشيخة البيبرسية ، عوضا عن الجلال البكرى بحكم وفاته ، وكان الساعى له الخليفة عبد العزيز .

(١٩) الذين : الذى .

وفيه هجم جماعة من المنسر على سوق باب الشعرية ، وقتلوا البواب ، وفتحوا عدّة دكاكين ، وأخذوا ما فيها ، وخرجوا من الباب ، ولم ينتطح فى ذاك شاتان .

وفى جمادى الأولى حُمل السلطان وهو على السرير وخرج إلى الدهيشة ، وجلس بالشباك المطلّ على الحوش ، وعرض قدّامه عدّة خيول ، فحصل للناس الاطمان عليه . ـ وفيه حصل للسلطان الشفاء ودخل الحمام ، فلما كان يوم الجمعة ركب من باب الدهيشة وتوجّه إلى الجامع وصلّى الجمعة ، وكان له بالقلعة يوم مشهود ، وتخلّق الخدّام بالزعفران ، وفرّقت خوند على الناس البنود الحرير الأصفر ، فوضعوهم فى أوساطهم جماعة من الخدّام والخاصكية ، حتى الزمام ، ومقدّم المماليك ، وغلمان السلطان قاطبة ، وأعيان الناس من الحجاب ، ورءوس (٥ آ) النوب ، ونقيب الجيش ، وغير ذلك من الأعيان ، رلما رجع السلطان من الجامع لاقته المغانى ، ونثرت خوند على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه ، وكان يوما حافلا بالقلعة ؛ وأخلع على الأطباء والمزينين الخلع السنية ، ودقّت البشائر بالقلعة ، ونودى بالزينة فى القاهرة .

فلما كان غد ذلك اليوم طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنّوا السلطان بالعافية ، وجلس على الدكة وحكم بين الناس ، وكان مدّة انقطاعه بهذا العارض نحوا من ثلاثة وخمسين يوما ، وكان الناس قد أيسوا منه ، فعدّ ركوبه من النوادر بعد ذلك العارض المهول ، وقد قال القائل فى المعنى :

الله يدفع عن نفس الإمام لنا وكلنا للمنايا دونه عرض
فليت أن الذى يعروه من مرض بالعايدين جميعا لا به المرض
فنى الإمام له من غيرنا عوض وليس فى غيره منه لنا عوض
فما أبالى إذا ما نفسه سلمت لو باد كلّ عباد الله وانقرضوا

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، بعد أن حصل لهم تلك الكسرة ، تجمّع جيشا كثيفا ورجع إلى المحاربة ثانيا ، وأن عسكر السلطان بعد أن رجع إلى حلب خرج ثانيا إلى نحو كولك ؛ فانزعج السلطان لهذا الخبر ، ثم نادى

للعسكر بالعرض ، فعرض وعيّن جماعة من الأمراء والجند ، فكانوا نحوا من خمسمائة مملوك ، وكان الباش عليهم يشبك الجمالى أحد المقدمين الزردكاش الكبير ، فلما عرض نفق على الجند المعينين للسفر واستحثّهم على الخروج إلى حلب ؛ ولما ضاق الأمر بالسلطان قصد أن يخرج إلى التجريدة بنفسه ، وأرسل إلى كرتباى الأحمر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفة العربان الذين بالبحيرة ما قدر عليه ، ثم عرض جماعة من الزعر وقصد أن ينفق عليهم لكل واحد ثلاثين دينارا وأن يخرجوا صحبته ، وصار ينتظر ما يرد عليه من الأخبار .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس من أعمال الغرب ، وقد حصل (٥ب) بين صاحب فاس والفرنج ما لاخير فيه من الحروب وقتل العساكر ، وأن صاحب غرناطة توجّه إلى عمّه يسأله فى أن يرسل إليه نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة ، والأمر لله . ــ وفيه خرج الأمير يشبك الجمالى ، ومن تعيّن معه من العسكر ، إلى جهة حلب ، فكان لهم يوم مشهود .

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة دولات باى المحوجب الشرفى نائب مطية ، وكان عنده شجاعة وفروسية ؛ وتوفى قانم أمير شكار المحمدى الظاهرى ، أحد الأمراء العشرات ، وكان لا بأس به . ــ وفيه توفى السيد الشريف على أخو أمير مكة ، وهو على بن بركات بن حسن بن عجلان الهاشمى العلوى ، وكان مقيما بالقاهرة من حين فرّ من أخيه وحضر إلى مصر ، فأتاه الأجل بها ، وكان رئيسا حشما فاضلا ذكيّا لا بأس به ، ومولده بعد مضى الخمسين والثمانمائة .

وفى شعبان طلع القضاة الأربعة إلى القلعة للتهنئة بالشهر ، فكثرت المرافعات فى قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الغزّى ، فحنق منه السلطان ورسم لنقيب الجيش بالقبض عليه فى المجلس العام ، وتوجّه به إلى المدرسة الصالحية ليقيم حساب أوقاف الحنفية ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، واستمرّ فى الترسيم إلى أن عزل . ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى ثامن عشر مسرى ، فتوجّه أزدمر تمساح وفتح السدّ ،

---

(٢) المقدمين : المقدمين من .   (٥) الذين : الذى .

وكان الأتابكى أزبك غائبا فى التجريدة ؛ ومن النوادر أن النيل زاد فى ذلك اليوم عشرين أصبعا من الذراع السابع عشر ، فكانت من النوادر فى يوم كسره ، واستمرّت الزيادة عمّالة ، حتى أنه زاد فى ثلاثة أيام متوالية بعد الوفاء تسعة وأربعين أصبعا ، حتى عدّ ذلك من النوادر الغريبة فى الزيادات ، وقد قيل فى المعنى :

وفا النيل إذ وَفّى البسيطة حقّها   وزاد على ما جاده من صنائع
فماذا تقول الناس فى جود منعم   يشار إلى إنعامه بالأصابع

وفيه نزل السلطان إلى الميدان ، وجلس بالمقعد الذى به ، وعرض (٦ آ) المحابيس من رجال ونساء وأطلق منهم جماعة ، ثم أمر بتوسيط أحمد بن بشارة شيخ المشير ببلاد صفد . ــ وفيه عاد الأمير آقبردى الدوادار من جبل نابلس ، ومعه عدة من العربان وهم فى الحديد ، وقد قبض على أعيان مشايخهم .

وفى رمضان كان أول ما خطب بمدرسة الصاحب خشقدم الزمام ، التى أنشأها بخط باب الرملة ، وقد جاءت من محاسن المبانى ، وكان أصلها قاعة ، فصنع بها محرابا ، واتخذها مدرسة ، وخطب بها . ــ وفيه توفى شمس الدين محمد الدجوى ، أحد نواب الحكم الشافعية ، وكان إنسانا حسنا لا بأس به ، ومولده سنة تسع وعشرين وثمانمائة . ــ وفيه قُبض على إنسان وهو سكران فى رمضان ، فضرب بالمقارع وطيف به فى القاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة العلاى على بن شاهين العثمانى نائب قلعة دمشق ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . ــ وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى بالقلعة بالحوش ، وكان ذلك على خلاف العادة . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على خشقدم الزمام لأمر وقع له ، وكانت كاينة عظيمة ، وقصد الإخراق به ، وأمر بضربه حتى شفع فيه ، ثم آل أمره من بعد ذلك إلى أن نفاه إلى جهة قوص ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة برد بك سُكر أتابك العساكر بطرابلس ،

---

(٤) وأربعين : فى ف : وتسعين .   (١٥) الدجوى : فى ف : الديجورى .

وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به ، ولـكن وقع له شدائد ومحن ونُفى من مصر ، وكان من خواص السلطان ثم تغيّر خاطره عليه ، وجرى له أمور شتّى . ـ وفيه أخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الإخميمى شيخ المدرسة البرقوقية وقرّره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن شمس الدين الغزّى بحكم انفصاله عنها ، وجرى على الغزّى أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح على العادة . ـ وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من أعيان المفسدين فى الأرض ، يقال له حمّور ، ووُسّط معه شخص آخر (٦ ب) من المفسدين ، فنزلوا بحمّور من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب غريبة الهيئة تجرّ بالعجل ، ولها حركات تدور بها ، فرجّت القاهرة فى ذلك اليوم ، وكان له يوم مشهود ، فتوجّهوا به إلى جزيرة الفيل فوسّطوه هناك ، وأراح الله الناس منه .

وفيه أرسل السلطان تجريدة إلى البحيرة ، بسبب فساد محمد الجُويلى شيخ عربان البحيرة ، وكان باش الجند قرقماس المعلم أحد الأمراء العشرات ، وأسنباى المبشّر ، وأزبك قفص ، ومامای ، ونحو من مائتين مملوك من المماليك السلطانية ، فلما وصلوا إلى البحيرة تقاتلوا مع الجُويلى أشدّ قتال ، وقُتل من الترك والعرب جماعة كثيرة ، ورجع العسكر من غير طائل ، ولا حصلوا من الجويلى على شىء .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن مركبا ببولاق عدّت بجماعة تحت الليل ، فغرقت فى وسط البحر بمن فيها من الناس والدواب ، ومن العجائب أن كان بها إنسان علامةً فى السباحة يعوم من البرّ إلى البرّ ، فغرق ولم يُعلم له خبر ، وكان إلى جانبه صبىّ صغير لا يعرف السباحة فنجا من الغرق وطلع إلى البرّ ، فعدّ ذلك من النوادر ، كما قيل :

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه ــــ وينجو بعون الله من حيث يحذر

---

(١٠) يوم مشهود : يوما مشهودا . (١٤) مائتين : كذا فى الأصل .

(١٩) إنسان : إنسانا . (٢٠) صبى صغير : صبيا صغيرا .

وفيه توفى الشيخ قلج الرومى الأدهمى ، شيخ زاوية السلطان التى بالمرج والزيات، فلما مات قرّرت فى مشيخة الزاوية امرأة ، وهى زوجة قلج المذكور ، فعدّ ذلك من النوادر ، وكانت المرأة تقرب لجهان شاه . ـ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد ثار على الأتابكى أزبك وقصد العود إلى القاهرة ، فتشوّش السلطان لهذا الخبر ، وأرسل يقول للأتابكى أزبك بأن ينفق على العسكر هناك لكل مملوك خمسين دينارا ، ففعل ذلك وسكنت الفتنة قليلا .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجُلبان ، وتوجّهوا إلى بيت البدرى (٧ آ) بدر الدين ابن مُزهر المحتسب ، وقصدوا حرق بيته ، فاختفى ، وذلك بسبب تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك ، ثم توجّهوا إلى الشون وكسروا أبوابها ونهبوا ما فيها من شعير وقمح ، ففعلوا ذلك بشون السلطان والأمراء ، وكانت فتنة مهولة ؛ فلما بلغ السلطان ذلك بعث إليهم جماعة من الخاصكية ومقدّم المماليك ، فما قدروا على ردّهم ، فركب السلطان بنفسه بعد العصر وتوجّه إلى بولاق ، فلما رأوه فرّوا من وجهه ، ثم أتوا إلى دار الصاحب قاسم فنهبوا كلما فيها ؛ فلما أصبحوا لم ينتهوا عما هم عليه ، ولم يطلع أحد من المباشرين إلى القلعة ؛ ثم إن القاضى كاتب السرّ ترامى على السلطان وقبّل رجله ثلاث مرات بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسبة ، فما أجاب إلا بعد جهد كثير .

وفيه توفى الكاتب المجيد الزينى خطاب بن عمر بن خطاب الأزهرى الشافعى ، وكان فاضلا وله اشتغال بالعلم ، وكتب المنسوب من الخط الجيّد ، وكان له فى ذلك دعاوى عريضة ، وفيه يقول الشهاب المنصورى ، وهو قوله :

بذى التهذيب خطّابٌ تسامت صحايف زانها خطّا وضبطا
فلو نطق الطروس لفضّلته وقالت أجود الكتّاب خطّا

وفيه وصل قيت الساقى الخاصكى ، وهو قيت من آقباى ، وكان توجّه قاصدا إلى يعقوب بن حسن الطويل ، فعاد ومعه مكاتبة بإظهار التودّد وصدق المحبة للسلطان. ـ

(١٣) عما : عنا .

وفيه توفيت خوند آسية ، ابنة المؤيد شيخ ، ووالدة سيدى يحي بن يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا ، وكان حصل لها تأسّف على ولدها يحي لما مات ، فكفّ بصرها فى أواخر عمرها ، ومولدها سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وكانت آخر من توفى من أولاد الملك المؤيد شيخ .

وفى ذى القعدة ظهر برهان الدين بن الكركى إمام السلطان ، وكان مختفيا من حين تغيّر خاطر السلطان عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء حتى ظهر وقابل السلطان، ونزل إلى داره بطالا . ــ وفيه أخلع على آقبردى (٧ ب) الدوادار وقرّر فى الوزارة وكان متكلما فيها بغير تقرير ، وقرّر موفق الدين بن القُمّص الأسلمى فى نظر الدولة ، عوضا عن قاسم شغيتة بحكم صرفه عن الوزارة ونظر الدولة ، فوكّل به وأقام فى الترسيم حتى يعمل الحساب .

وفيه أخلع على كسباى الشريفى وقرّر فى الحسبة ، عوضا عن البدرى بن مُزهر بحكم استعفائه منها . ــ وفيه رسم السلطان بتوسيط عبد العزيز المعروف بعزّوز من أولاد بنى عمر أمير عربان هوّارة ، ووسّط معه جماعة من أقاربه ، وهو شخص يقال له يعقوب بن سليمان ، وآخر يقال له موسى بن عبد الله ، وآخر يقال له موسى بن أبى لاسون ، وعلىّ أخى عزوز ، وشخص يقال له محمد بن بشارة ، فكانت آجالهم متقاربة من بعضهم . ــ وفيه بلغ سعر الأرز إلى ستة دنانير كل أردب ولا يوجد ، ثم عزّ جدا حتى تناهى سعره إلى اثنى عشر دينارا كل أردب ، حتى عدّ ذلك من النوادر الغريبة . ــ وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من كبار المنسر ، يقال له أحمد الدنف ، وله حكايات فى فن السرقة يطول شرحها .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان مسافرا فى التجريدة ، وقد حضروا من غير إذن من السلطان ، وقصدوا الإخراق بالأتابكى أزبك باش العسكر وهو بحلب ، فقال لهم : الذى يقصد الرواح إلى مصر يروح ويقابل أستاذه ؛ فصاروا يجوا فى الدسّ،

---

(٢) دوادارا كبيرا : دوادار كبير . (١٩) الدنف : الدنق . وفى ف : الدنف .

(٢٢) يجوا : كذا فى الأصل .

ثم قويت الإشاعة بوقوع فتنــة كبيرة ، وصاروا جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمراء بسلم المدرج ، ويقولون لهم : قولوا للسلطان ينفق علينا وإلا يقع منا فتنة كبيرة ، وصاروا يغلظون عليهم فى القول ، وصار القيل والقال عمّالا كل يوم ، والإشاعات قائمة بوقوع فتنة ، وقصدوا الإخراق بالأمير آقبردى الدوادار غير ما مرّة حتى امتنع أياما عن طلوع القلعة .

وفيــه قرّر فى قضاء الحنفية بدمشق القاضى زين الدين عبد الرحمن الحسبانى ، عوضا عن عماد الدين إسماعيل الناصرى ، بحكم صرفه عنها . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى مكة (٨ آ) البرهان بن ظُهيرة الشافعى ، وهو إبراهيم بن على بن محمد ابن حسين بن على بن أحمد بن ظُهيرة الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، رئيسا حشما انتهت إليه رئاسة مكة ، وكان المرجع إليه بها ، ولما مات قرّر فى قضاء الشافعية بمكة ولده أبو السعود عوضا عنه .

وفيه كان دخول الأتابكى أزبك وبقية الأمراء والجند ، ممن كان مسافرا فى التجريدة إلى على دولات وعسكر ابن عثمان ، فلما دخل العسكر إلى القاهرة كان لهم يوم مشهود حتى رجّت لهم القاهرة ، وكان قدّامهم الأسرى من عسكر ابن عثمان وهم مشاة فى زناجير ، وصناجق ابن عثمان منكّسة ، وكان صحبتهم جماعة من أمرائه وهم فى زناجير على خيول ، ودخل الأمير أحمد بن هرسك راكبا وفى عنقه زنجير ، وكان ابن هرسك من أعيان أمراء ابن عثمان ؛ فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش عاتب أحمد بن هرسك ووبّخه بالكلام ، ثم سلّمه إلى الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزّع بقية الأسرى على جماعة من المباشرين ، حتى قضاة القضاة ، ثم أخلع على الأتابكى أزبك وبقية الأمراء ، ونزلوا إلى دورهم لما انقضى أمر هذه الحركة.

ففى عقيب ذلك ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب وأشهروا السلاح ، وكان ذلك فى سلخ هذا الشهر ، فاضطربت الأحوال ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم فى الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وجاءت

(١٤) الأسرى : الأسراء . والأسرى وردت صحيحة فيما يلى سطر ١٩ .

الزعر أفواجا أفواجا ؛ وكان قبل ذلك توجّه جماعة من المماليك الجلبان إلى بيت آقبردى الدوادار ، وتكلموا معه فى أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم فى نظير تعب سرّهم ، بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم على عسكر ابن عثمان ، وسألوا أيضا فى أن يعمل مصالحهم فى مرتّب اللحم والعليق ، فلما اجتمع آقبردى بالسلطان وكلّمه فى ذلك غير ما مرة ، وهو مصمّم على عدم إجابتهم إلى شىء مما سألوه فيه ، فلما عاد الجواب لهم بعدم الإجابة (٨ ب) فى ذلك ثاروا عليه ، واتّسعت الفتنة ، وغلقت الأمراء أبوابها ، واستمرّ الحال على ذلك .

وفى ذى الحجة لم يطلع أحد من القضاة إلى القلعة بسبب التّهنئة بالشهر، وكانت الفتنة قائمة كما تقدّم ، ثم طلع الأتابكى أزبك إلى القلعة واجتمع بالسلطان ، وكلّمه فى أمر النفقة على المماليك ، وتلطّف به فى القول ، فما أجاب إلى ذلك إلا بعد جهد كبير، فتقرّر الحال على أنه ينفق عليهم على كل مملوك منهم خمسين دينارا، ثم نادى فى القاهرة بأن النفقة ستكون فى أوّل السنة الجديدة ، فخمدت هذه الفتنة شيئا قليلا .

وفيه جلس السلطان على الدكّة التى بالحوش ، وحضر الأتابكى أزبك ، وفرّقت الأقاطيع الشاغرة عمن توفى فى هذه التجريدة من الجند ، وصار الأتابكى أزبك هو المشار إليه فى هذا الأمر . ـ وفيه أنعم السلطان على آقباى من جانم الظاهرى خشقدم بأمرة عشرة ، وهى أمرة أصباى السيفى قُرقماس الشعبانى ، بحكم أنه كان مريضا منقطعا فى داره ؛ وأنعم على قانم أبو شمرة بأمرة عشرة ، وهى أمرة قراكز ، بحكم عجزه أيضا . ـ وفيه كانت الضحايا قليلة جدا ، ولا سيما الغنم .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية ، فامتنع المماليك من أخذها ، وصمّموا ، وقالوا : ما نأخذ إلا النفقة مع الجامكية ، ولا نصبر إلى الشهر الآتى ؛ فلما رآهم قد صمّموا على ذلك نفق عليهم ، فأعطى المماليك الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا ، وللقرانصة خمسة وعشرين دينارا ، ولم يعط ممن لا توجّه فى هذه التجريدة من المماليك المقيمين ، ومن أولاد الناس ، شيئا ، ووقع القيل والقال بسبب ذلك ، فلم يلتفت إلى شىء من كلامهم ، وخمدت هذه الفتنة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كانت الأسعار مشتطة فى سائر البضائع ، وتشحّط الخبز من الدكاكين حتى ابتاع كل رطل من الخبز بنصف فضة ، وكانت أحوال الناس واقفة بسبب الفلوس الجدد ، وصار النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين درهما من الفلوس الجدد ، وصارت البضائع من المأكل [والمشرب بسعرَيْن] ، حتى غلا سعر الراوية الماء وعزّ وجود جمال السقايين ، وصار الغلاء فى المأكول والمشروب ، هذا والمماليك قد طغوا فى حق الناس ، وتزايد بهم الضرر الشامل ، والعربان قد تزايد شرورهم فى البلاد من الشرقية والغربيـة ، وابن عثمان فى غاية التحرّك على البلاد الحلبية ، والسلطان فى غاية الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريدة إلى ابن عثمان ثانيا ، وصار العسكر فى أمر مريج بسبب ذلك ، والإشاعات قائمة بوقوع فتنة بين الجلبان ، وقد صاروا فرقتان ، فرقة مع قانصوه خمسمائة ، وفرقة مع آقبردى الدوادار ، والاضطراب بينهما عمّال .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة السلطان الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وكان ملـكا جليلا وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه ، حتى صار مفتيا فى طبقة العلماء ، ومات وهو فى عشر الخمسين من العمر ؛ فلما بلغ السلطان وفاته رسم بنقل جثته إلى مصر ، ودفن على أبيه الملك الظاهر جقمق ، وشرع فى أسباب ذلك ، وعيّن من يتوجه إلى هناك ليحضره .

وفيه رسم السلطان بفكّ قيد أحمد بن هرسك الذى قد أسر ، وكذلك فكّ قيود من أسر من عسكر ابن عثمان ، وأخذوا فى أسباب تجهيزهم إلى بلادهم ؛ وقد أشيع أمر الصلح بين السلطان وابن عثمان . ــ وفيه اشتدّ أمر الغلاء جدا ، حتى أبيع القمح كل أردب بستة دنانير ، وأبيعت البطة الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما ،

(٥) من المأكل ، تنقص هنا ورقة من مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ الذى ننقل عنه ، وقد أتممنا المتن من صفحتى ٦٥ ب و ٦٦ آ من مخطوط الفاتيكان رقم ٨٦٩ .

وأبيع خبز الذرة ، ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدّم من الغلوات المشهورة ، حتى صنّفوا العوام رقصة ، وهم يقولون :

زويجى ذى المسخرة   يطعمنى خبز الدرة

وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدّة الجوع ؛ ثم إن السلطان فتح عدة شون وباع منها القمح على حكم خمسة أشرفية كل أردب ، وصار المحتسب يضرب الناس من السوقة على عدم بيع الخبز وإظهاره على الدكاكين . ـ وفيه أنعم السلطان على مملوكه قيت الساق بأمرية عشرة ، وكذلك مغلباى البجمقدار ، وقرّر قيت الرجبي البجمقدار ، عوضا عن مغلباى . ـ وفيه حضرت جثة الملك المنصور عثمان من ثغر دمياط ، ودُفن على أبيه الظاهر جقمق بتربة قانى باى الجركسى .

وفيه قدم أينال الخسيف نائب صفد أحد مماليك السلطان ، فلما حضر أرسل السلطان خلعة وتقليدا إلى يلباى حاجب دمشق ، وقرّره فى نيابة صفد ، عوضا عن أينال الخسيف ؛ ثم بعد مدّة قرّر أينال الخسيف فى حجوبية دمشق ، عوضا عن يلباى بحكم انتقاله إلى نيابة صفد . ـ وفيه توفى شمس الدين ابن سولة الفارسكورى ، وكان من أعيان الشافعية ، من أهل العلم والفضل ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى المنشد المطرب الواعظ المادح شمس الدين محمد بن حلة ، وكان من مشاهير الوعاظ ، وله نظم جيّد ، ومولده قبل العشرين والثمانمائة . ـ وفيه انحطّ سعر القمح ، وأبيع الأردب القمح بأربعة دنانير ، بعد ستة أشرفية ، بواسطة كثرة جلب الذرة ، وقد حصل للناس به غاية الرفق .

وفى صفر خسف جرم القمر ، واظلم الجوّ ، ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة ، فلهج الناس بأن زوال السلطان قد قرب ، وما كان شيئاً مما لهجوا به ، وأقام السلطان بعد ذلك مدّة طويلة ، ومما قيل فى المعنى :

لا تفعل الشمس شيئا لا ولا القمر   وعن خسوفهما لا يصدر الكدر

(٦) الناس ، بداية صفحة ٦٦ آ من مخطوط الفاتيكان .   (١١) حاجب : صاحب .
(١٦) انحط : انحل .   (٢١) ومما : مما .

وفيه توفى الشيخ نظام الدين محمد بن الحى بغا الحنفى التركى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الناس ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس ، فى سعة من المعيشة ، وفيه يقول المنصورى :

سبحان مَنْ مَنّ بجيش الـكلام على نظام الدين دون الأنام
(٩ آ) فلفظ أهل العلم درّ ولا يزّين ذاك الدرّ إلّا النظام

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة الأمير قانصوه الخسيف الأحمدى الأينالى ، الذى كان أحد الأمراء المقدّمين ونفى إلى دمياط ، ثم نقل إلى مكة فمات بها ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وكان من أعيان طائفة المماليك الأينالية ، وهو الذى تعصّب للأشرف قايتباى حتى تسلطن ، فما ناله منه خير ، كما يقال :

رُبّ من ترجو به دفع الأذى سوف يأتيك الأذى من قبله

وكان يقول فى مجالس بسطه : لولا أنا ما فرح قايتباى قط بالسلطنة ، فلما بلغ السلطان قايتباى ذلك جرى على قانصوه هذا ما لاخير فيه ، وكان يطلق لسانه فى حقّ الأشرف قايتباى بما لا يليق ، فحقد ذلك عليه ، كما يقال :

وقد يُرجى لجرح السيف برء ولا برء لمـا جرح اللسان

وفى ربيع الأول توفى الأمير ملاج اليوسفى نائب القلعة ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما عاقلا ، عارفا بفنون الفروسية ، وكان لا بأس به . — وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة . — وفيه تصدّى شخص من العوانية ، واحتكر بيع الملح وضمنه بمكس ، ولم يكن يعهد ذلك من قبل ، فلما جرى ذلك نشفت الملاحة فى تلك السنة حتى عزّ وجود الملح جدا .

وفى ربيع الآخر توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبد العظيم السدّار ، الذى كان يبيع السدر والحنّا عند الغرابليين ، وكان للناس فيه اعتقاد زائد ، وهو عبدالعظيم بن ناصر بن خلف المصرى ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة . — وفيه توفى

(٥) صفحة ٩ آ من مخطوط باريس .   (٢٢) اعتقاد زائد : اعتقادا زائدا .

الشيخ محيي الدين عبد القادر الفرضي ، وكان علامة فى الفرائض ، وهو عبد القادر ابن على بن شعبان القاهرى الحنفى ، وكان إمام جامع أصلام .

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن (٩ب) عبد الرحمن ابن عمر البلقينى الشافعى ، وكان فاضلا ناب فى الحكم ، وكان محمود السيرة . ـ وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير آقبردى الدوادار ، بأنه قد انتصر على العرب الأحامدة، وكان توجّه إلى الوجه القبلى بسبب ذلك ، فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم ، وبعث بهم إلى مصر ، فأباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج ؛ ووقع لآقبردى مع الأحامدة أمور غريبة ، يطول الشرح فى ذكرها ، وعذّب منهم جماعة بالنار ، وطمّ منهم جماعة بالتراب وهم أحياء ، وتفنّن فى عذابهم تفنينا ، وقد مهّد بلاد الصعيد منهم، وكانوا أظهروا الفساد بها جدا .

وفيه توفى القاضى سراج الدين عمر بن حريز المالكى ، وهو عمر بن أبى بكر بن محمد بن محمد محرّز الهاشمى القريشى العلوى الحسينى المنفلوطى المالكى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، وولى قضاء المالكية بعد أخيه حسام الدين ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وعزل من القضاء ودام معزولا حتى مات . ـ وفيه افتتن طائفتان من الزُعر ووقع منهم أمور يطول شرحها ، وصاروا يقتلون بعضهم بعضا جهارا ، حتى أعيي الوالى أمرهم .

وفى جمادى الآخرة توفى برد بك طرخان الظاهرى جقمق ، وكان إنسانا حسنا لا بأس به ، وكان بيده أمرة عشرة يأكلها وهو طرخان . ـ وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قناطر بنى المنجا ، فخرج البدرى حسن بن الطولونى ، ومعه جماعة من البنائين والمهندسين بسبب العمارة ، وصرف على ذلك نحوا من سبعة آلاف دينار ، وكانت هذه القناطر قد تشعّثت وآلت إلى السقوط ، فتدارك السلطان ذلك ، وجاءت من أحسن المبانى .

وفيه توفيت ستّ الخلفاء ، ابنة الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وكانت بارعة فى الحسن ، فكثر عليها الحزن والأسف من الناس ، وكانت أمّها ابنة قاضى القضاة

علم الدين صالح البُلقينى ؛ وكان عُقد لها على الأمير خشكلدى البيسق ، ثم فسخ العقد قبل الدخول ، (١٠ آ) ثم تزوّج بها القاضى كاتب السرّ أبو بكر بن مُزهر ، ثم تزوّجت بعده بالقاضى قطب الدين الخيضرى ، ثم تزوّجت من بعده بالسيد الشريف إسحق البرديني وماتت تحته ، وكان مولدها سنة ستين وثمانمائة .

وفيه فى يوم الجمعة كان عقد قانصوه خمسمائة على ابنة الأتابكى أزبك من خوند ابنة الظاهر جقمق ، عُقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس ، وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدّة زبادى صينى فيهم سُكّر ، ومشنات فاكهة ، فرّقت فى الجامع ، فكان كما يقال فى المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك بهىّ كما شاء الإله وأظهرا
سنىّ المعالى يُسّرت حركاته إذا الله سنّى أمر عقد تيسّرا

وفيه جاءت الأخبار بأن جانم الأجرود الأينالى كاشف منفلوط قد فرّ إلى بلاد النوبة ، وكان السلطان أرسل بالقبض عليه ، ففرّ من الخوف على نفسه ، وأقام مدّة وهو هارب ، حتى بعث السلطان إليه بالأمان .

وفى رجب لما صمدوا القضاة للتهنئة بالشهر ، أمر السلطان بالقبض على جماعة القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، فقبض على علاى الدين الحنفى النقيب ، وعلى أمين الحُكم الصانى ، وجماعة من الجُباة ، ووكّل بهم لعمل حساب أوقاف الشافعية التى تحت نظر القاضى الشافعى ، فاستمرّوا فى الترسيم بسبب هذه الواقعة نحوا من ثلاث سنين ، والسلطان يتغافل عنهم . ــ وفيه أخلع السلطان على القاضى عزّ الدين الحسناوى ، وأعاده إلى قضاء الشافعية بحلب ، عوضا عن أبى البقا بن الشحنة . ــ وفيه توقّف النيل عن الزيادة اثنى عشر يوما متوالية ، إلى تاسع أبيب ، فزاد قلق الناس بسبب ذلك ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة ، واستمرّت إلى أن أوفى ، وقال القائل :

فى أبيب جاء حرّ : فوق ما قد كان عاده زاد فيه النيل دفقا : قلت حرّ بزياده

(٤) البرديني : كذا فى ف ، وفى الأصل : التزويى . (١٩) الحسناوى : فى ف : الحسباوى .

(١٠ ب) وفيه كان دخول قانصوه خمسمائة على ابنة الأتابكى أزبك، فحمل الجهاز من الأزبكية إلى دار قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع، فلما شقّ من القاهرة كان له يوم مشهود، فكان به من الحمّالين التى عليها الأمتعة زيادة على أربعمائة حمّال، فدهش الناس لرؤيته، ورجّت له القاهرة، وعُدّ من النوادر، قيل كان ما صرف عليه نحو من مائتى ألف دينار، ولما كان ليلة العُرس عُمل بالأزبكية، وكان حافلا، ومُدّت هناك الأسمطة الحافلة، ثم إن قانصوه خمسمائة ركب بعد العشاء من باب السلسلة، ومشت قدّامه الأمراء المقدّمين وهم بالشاش والقماش، ومشت الخاصكية قدّامه وبأيديهم الشموع الموقدة، فشقّ من القاهرة حتى وصل إلى الأزبكية، وعُدّت هذه الزفّة من النوادر الغريبة؛ لكن حصل تلك الليلة غاية الضرر من المماليك الجلبان، خطفوا العمائم، وضربوا جماعة من الأمراء المقدّمين، وخطفوا الشمع من أيدى الخاصكية، وما حصل تلك الليلة منهم خير، وكادت تكون فتنة عظيمة.

وفيه رسم السلطان لكسباى المحتسب بأن يجمع له أعيان التجار الذين بالأسواق، فلما عرضوا عليه قال لهم: ساعدونى بشىء من المال على خروج التجريدة، ثم أفرض عليهم أربعين ألف دينار، فضجّوا من ذلك، وقالوا: ما نقدر على هذا القدر كله، فلا زال يخفض عنهم من ذلك القدر والتجار يقولون: ما نقدر على هذا، فلما طال الأمر بينهم وبين السلطان تقرّر الحال على أن يردوا اثنى عشر ألف دينار إذا خرجت التجريدة، فانفضّ المجلس على ذلك.

وفى شعبان توفيت الست فاطمة ابنة الجمالى يوسف ناظر الخاص، التى كانت زوجة الأمير خاير بك سلطان ليلة، وكانت رئيسة حشمة لا بأس بها. ــ وفيه توفى الشيخ تاج الدين بن قاضى القضاة سعد الدين الدميرى الحنفى، وكان ولى بعد أبيه مشيخة الجامع المؤيّدى، وكان عالما فاضلا، أخذ العلم عن أبيه ومولده سنة خمس (١١ آ) وثمانمائة. ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك، فى ثانى عشر مسرى، وتوجّه

---

(١٣) الذين: التى (١٦) يخفض: يحفظ

الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة . ـ وفيه قرّر قرقماس من ولىّ الدين فى الأمرة آخورية الثالثة ، وكانت شاغرة مدّة ؛ وقرر فى باشية الجند بمكة المشرفة أزدمر الأشرفى برسباى ، عوضا عن شاد بك أمير آخور الظاهرى ، بحكم وفاته .

وفى رمضان أخلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الديرى ، وقرّر فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن عمه تاج الدين ، فأقام بها مدّة يسيرة وسعى عليه محيى الدين عبد القادر بن الدهانة الحنفى ، فقرّره السلطان بها ، وقد أورد مالا له صورة .ـ وفيه وصل الأمير آقبردى الدوادار ، وكان مسافرا نحو الوجه القبلى ، بسبب فساد عربان طائفة الأحامدة ، وقد تقدّم ما جرى عليهم منه .

وفيه أخلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن قاضى القضاة صلاح الدين المكينى ، وقرّر فى مشيخة الخشّابية ، عوضا عن الشيخ فتح الدين محمد بن قاضى القضاة علم الدين صالح البُلقينى الشافعى ، بحكم وفاته فى شهر رجب ؛ وقد سعى فيها بدر الدين المكينى بمال له صورة حتى قرّر بها . ـ وفيه توفى القاضى عبد الغفار الميدومى الشافعى ، أحد نواب الحكم ، وكان لا بأس به . ـ وفيه ختم قراءة صحيح البخارى بالقلعة ، وكان بالحوش كالعام الماضى ، وفرّقت الصرر على الفقهاء بحكم النصف ، وقطعت صرر من له خلع ، وقد شحّ السلطان فى هذه الأيام جدا .

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة نائب الشام قجماس الإسحاقى الظاهرى ، وكان دينا خيرا فى غاية الاحتشام مع لين جانب ، وكان إنسانا حسنا لا بأس به ، وهو الذى أنشأ المدرسة التى عند الدرب الأحمر بقرب سوق الغنم ، وأنشأ مثلها بدمشق ، وله آثار حسنة غير ذلك . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على يشبك من حيدر والى القاهرة ، فأمر بنفيه إلى الكرك ، فشفع فيه الأتابكى أزبك وردّ (١١ ب) من الخانكة ، فعزل من الولاية واستمر فى أمرة عشرة .

وفيه توفى الجلال أبو البقا بن الشحنة الحلبى الشافعى ، قاضى القضاة بحلب ، وكان عالما فاضلا تقلّد بمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان والده حنفى

---

(١٦) الظاهرى : الظاهر .

الذهب ، فقدم إلى القاهرة معزولا ، ومات بها ، وكان لا بأس به . ــ وفيه أرسل السلطان خلف قانصوه اليحياوى ، الذى كان نائب الشام وعزل ، ونفى إلى القدس بطالا بسبب ما وقع فى فتنة باينذر كما تقدم ، فلما حضر أخلع عليه السلطان وأعاده إلى نيابة الشام ، عوضا عن قجماس الإسحاقى بحكم وفاته .

وفيه أخلع على مغلباى الشربفى ، الذى كان أستادار الصحبة ، وقرّر فى ولاية القاهرة ، عوضا عن يشبك من حيدر بحكم صرفه عنها ؛ ثم بعد مدّة طويلة أخلع على أسنباى المبشّر ، وقرّر فى أستادارية الصحبة ، عوضا عن مغلباى بحكم انتقاله إلى الولاية . ــ وفيه جاءت الأخبار بفرار شاه بُضاع بن ذلغادر ، وكان مسجونا بقلعة دمشق ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكّد إلى الغاية ، ورسم بشنق نائب قلعة دمشق ؛ ثم جاءت الأخبار بأن شاه بُضاع لما فرّ من قلعة دمشق توجّه إلى ابن عثمان ، فأكرمه وأقام عنده إلى أن كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وبالأول خاير بك كاشف المحلة . ــ وفيه توفى مجد الدين إسماعيل الشطرنجى ، وكان عالية فى نقل الشطرنج ، وجيها عند الأمراء ، كثير العشرة للناس ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على موفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الدولة ، فضربه بالمقارع بين يديه بالحوش ، وسلّمه للأمير آقبردى الدوادار ؛ ثم أخلع على شرف الدين ابن البدر حسن وقرّره فى نظر الدولة ، عوضا عن موفق الدين بن القمص الأسلمى .

وفى ذى القعدة قدم قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسِلِهِ ، تتضمّن بأن السلطان يرسل إليه تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فإنهم قد أشرفوا على أخذ غرناطة ، (١٢ آ) وهو فى المحاصرة معهم ؛ فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه بأن يبعث إلى القُسوس الذين بالقيامة التى بالقدس ، بأن يرسلوا كتابا على يد قسّيس من أعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب قشتيلية ، بأن يحلّ عن أهل أندلس ويرحل عنهم ، وإلا يشوّش السلطان

(٢١) الذين بالقيامة : الذى بالقمامة . (٢٢) نابل : كذا فى ف ، وفى الأصل : بابل .

على أهل القيامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من دخول القيامة ويهدمها ؛ فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل كما أشار السلطان ، ولم يفد من ذلك شيء ، وملكوا الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد .

وفيه توفى الشهاب الأبشيهى أحمد بن محمد المحلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، وناب فى الحكم مدّة طويلة ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس . ـ وفيه توفى أبرك الأشرفى أحد الأمراء العشرات ، وكان لا بأس به . ـ وفيه كان علف الدواب غاليا، ففرّق السلطان الأضحية على الأمراء والجند من قبل عيد النحر بخمسة وعشرين يوما ، فعُدّ ذلك من النوادر .

وفى ذى الحجة فى سابع عشره خرج قانصوه اليحياوى إلى محل نيابته بدمشق، وكان له يوم مشهود . ـ وفيه سقطت قبّة جامع القلعة على المحراب والمنبر ، وقتلت تحتها بوّاب الجامع، وولده ، فرجّت لها القلعة ، وخرج السلطان وهو ماشى حتى يرى ما سقط فى الجامع ، وكان ذلك قبل يوم الجمعة بثلاثة أيام ، فأمر السلطان بشيل الأتربة من الجامع ، ثم أخذ فى أسباب عمل قبّة غيرها ، فجدّد هذه القبّة الموجودة الآن ، وجدّد المنبر ، وكان قبل ذلك من الخشب ، فجدّده وجعله من الرخام الملوّن ، وجدّد عمارة الميضة التى بالجامع ، وجاءت من أحسن المبانى .

وفيه أخلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له سيباى من بختجا ، وقرّره فى نيابة سيس ، عوضا عن قانصوه الجمالى بحكم وفاته . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب المماليك ، وأخذ منه تسعة آلاف (١٢ ب) دينار ، وجرت عليه وعلى والده أبى الفتح نائب جدّة أمور يطول شرحها ، حتى آل أمره إلى ذهاب عقله واعتراه جنون .

وفيه قويت الإشاعات بثوران فتنة من المماليك الجلبان ، وكثر القال والقيل فى ذلك ، ونقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة ؛ فلما تزايد الكلام فى ذلك صلّى السلطان الجمعة ، فلما فرغ من الصلاة

---

(١) القيامة : القمامة . (٢) نابل : كذا فى ف ، وفى الأصل : بابل .

دخل إلى الحوش وجلس على الدكة ، ثم أحضر أغوات الطباق ، وأعيان المماليك الجلبان ، وكلمهم بكلمات كثيرة ، ووبّخهم بالكلام ، حتى قال : إن كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك ، فاستغفروا له ، ثم آل الأمر إلى صلحهم مع السلطان وسكون هذه الفتنة قليلا ؛ فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة ، حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيّأ للفرار بنفسه ، ولا يُعلم أين يتوجّه ، وقد تزايد القول فى ذلك ، فكان كما يقال :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، وكانت الأسمار مرتفعة فى سائر البضائع ، والإشاعات قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلبية ، والإشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان ، والأحوال واقفة ، والسلطان ناظر إلى الظلم وأخذ أموال الناس ، والأمر إلى الله ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم سافر قانصوه اليحياوى إلى الشام ، وقد تقدّم بأنه تقرّر فى نيابة الشام ، فخرج فى موكب حافل . ـ وفيه سمح خاطر السلطان بأن ينفق على مماليكه توسعة على نزول خيلهم من الربيع ، فأعطى لكل مملوك عشرة دنانير والقرانصة خمسة دنانير وللسيفية ثلاثة دنانير ، فأصرف فى هذه الحركة جملة مال كبير . ـ وفيه جاءت الأخبار بقتل حسن بن سليمان بن عيسى بن عمر الهوّارى ، أخو داود بن عمر أمير هوّارة ، قتله بعض أعدائه من العربان ، وكان شابا حشما لا بأس به (١٣ آ) .

وفيه توفى جانى بك حبيب العلاى الأينالى أحد الأمراء الطبلخانات وأمير آخور ثانى ، وكان رئيسا حشما حلو اللسان حسن العبارة ، سيوسا دربا عارفا ، فصيح اللسان بالعربية ، توجّه قاصدا إلى يعقوب بن حسن الطويل ، ثم توجّه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم ، وكان مقبول الشكل حسن الوجه ، ومات ولم يظهر الشيب

---

(٣) الأمر : الأمراء . (٢٠) حلو : حاوى .

بلحيته ، وجرى عليه شدائد ومحن فى دولة الظاهر خشقدم ، وفرّ إلى بلاد الغرب وأقام بهـا حتى توفى الظاهر خشقدم ، فعاد إلى مصر ، وكان له خصاصة بالأشرف قايتباى . ــ وفيه توفى بيبرس اليوسفى الظاهرى أحد المشرات ، وكان لا بأس به .

وفيه بلغ سعر الراوية من الماء نحو من ثلاثة أنصاف ، ذلك بسبب عدم وجود الجمال ، لتسلّط المماليك الجلبان على السقايين لأجل حمل الدريس ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب ذلك . ــ وفيه وصل الحاج إلى القاهرة ، وكان أشيع عنهم أمور شنيمة فظهر أن ذلك كذب، وكان أشيع عنهم بأن طائفة عربان الأحامدة قد استولوا على الحاج ولم ينج منهم أحد . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عساكر عظيمة ، وقصد المحاربة لعسكر مصر ، فانزعج السلطان لهذا الخبر جدا .

وفى صفر أحضر خضر بك من مال باى نائب القدس ؛ فلما مثل بين يدى السلطان أمر بضربه ، فضرب ضربا مؤلما ، وأقام فى الترسيم حتى أورد مالا له صورة ، وكان كثر فيه الشكاوى عند السلطان وآل أمره إلى أن عزل عن نيابة القدس . ــ وفيه قرّر دقاق السيفى أينال الأشقر فى نيابة القدس، عوضا عن خضر بك بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بوفاة السلطان الملك المؤيد أبى الفتح أحمد بن الملك الأشرف أينال العلاى الجركسى ، وكانت وفاته بثغر الإسكندرية فى ليلة رابع عشر هذا الشهر ؛ فلما بلغ السلطان ذلك أخذ فى أسباب إحضار جثته إلى القاهرة ، ودفنه على أبيه الأشرف أينال ؛ وكان المؤيد (١٣ ب) هذا رئيسا حشما قليل الأذى ، وجرى عليه شدائد ومحن، ونفى إلى الإسكندرية ودام بها إلى أن مات، وكان فى عشر الخمسين ، وقد تقدّم ترجمته عند ما ولى السلطنة ، ثم أحضرت جثته فيما بعد ودفن على أبيه .

ومن الوقائع الغريبة أن محب الدين أبو الطيّب الأسيوطى بلغه أن السلطان قد تغيّر خاطره عليه وقصد الإخراق به ، فلما تحقّق ذلك توجّه إلى المقياس وألقى نفسه

(٩) ولم ينج : ولم ينجوا .

فى البحر عمدا ، فغرق ومات ، وكان عالما فاضلا من ذوى العقول ، رئيسا حشما ، وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، وكان من أعيان موقمين الحكم ، وكان عارفا بأمور صنعة التوقيع ، وكان اسمه محمد بن محمد بن على بن عمر بن حسين القاهرى الشافعى ، ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، ولكن هانت عليه نفسه لما تأمّل ما سوف يجرى عليه ، وكان له أعداء كثيرة ، فخاف على نفسه من السلطان ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تُظهرنّ لعاذل أو عاذر حاليك فى السرّاء والضرّاء
فلرحمة المتوجّعين حرارة فى القلب مثل شماتة الأعداء

وفى ربيع الأول قرّر السيد الشريف موفق الدين الحموى فى نظر الجيش بدمشق ، عوضا عن محيي الدين عبد القادر بحكم موته ؛ وقرّر ولده عبد الرحيم فى كتابة السرّ بدمشق . ــ وفيه قرر أيدكى الأشرفى فى نيابة القلعة بدمشق ، عوضا عن على بن شاهين بحكم صرفه عنها . ــ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة فى العام الماضى . ــ وفيه أحضر السلطان بطرك النصارى ، ورئيس اليهود ، وقرّر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب خروج التجريدة إلى ابن عثمان ، وهذا أول فتح باب المصادرات للناس . ــ وفيه قرّر فى أمرة الحاجّ بركب المحمل جان بلاط الأشرفى الخاصكى أحد الدوادارية ، وقرّر بالركب الأول كرتباى كاشف البحيرة .

وفيه أنعم السلطان على مماليكه وهما : قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ، بتقدمتى ألف . ــ ومن الحوادث فيه أن السلطان رسم بتوسيط مجد الدين (١٤آ) بن البقرى ، وقد جرى عليه شدائد ومحن ، وسجن بالمقشرة ما يزيد على ست سنين ؛ وكان السلطان يكرهه طبعا ، وقد بلغه أن مجد الدين هذا لما قتل يشبك الدوادار أظهر الشماتة به ، وخلّق عياله بالزعفران ، وكان حصل له مع يشبك كاينة عظيمة ، فلما قتل فرح به وأظهر السرور ، فلما أن بلغ السلطان تأثر منه وجرى له ما جرى ؛ وكان مجد الدين

(٢) موقعين : كذا فى الأصل .

رئيسا حشما ، ولى الأستادارية غير ما مرّة ، وكذلك الوزارة ، وكان أصله من القبط واسمه شاكر بن علم الدين ، فوسّطوه ببركة الكلاب ، ثم حملوه إلى تربة عمّه يحيى فدفن بها ، وكان عنده بعض عسف وظلم .

وفيه عمل السلطان الموكب وأخلع على جماعة من الأمراء ، فقرّر برسباى قرا فى أمرة مجلس ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، بحكم عوده إلى نيابة حلب ، وكانت أمرة مجلس شاغرة فى هذه المدّة ؛ وقرّر تغرى بردى ططر فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن برسباى قرا ، بحكم انتقاله إلى أمرة مجلس ؛ وقرّر تانى بك الجمالى فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن تغرى بردى ططر ، بحكم انتقاله إلى الرأس نوبة الكبرى ؛ وقرّر يشبك من حيدر ، الذى كان والى الشرطة ، أمير آخور ثانى ، عوضا عن جانى بك حبيب ، وكان بيده أمرة طبلخانات ؛ وقرّر شاد بك أخوخ فى نيابة القلعة ، عوضا عن ملاج بحكم وفاته .

وفى ربيع الآخر أخلع على أسنباى المبشّر الأشرفى، وقرّر فى أستادارية الصحبة، عوضا عن مغلباى ، بحكم انتقاله إلى ولاية الشرطة ؛ وقرر أينال الفقيه الظاهرى فى الحجوبية الثانية ، عوضا عن تانى بك الألياسى ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة ؛ وقرّر كرتباى بن أخت السلطان فى معلميّة الدلالين ، وهى وظيفة تاجر المماليك ، عوضا عن قانصوه الشامى ، بحكم انتقاله إلى التقدمة .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان بأمريات عشرة على جماعة من خاصكيته ، منهم : قصروه السيفى آقبردى ، وقانصوه من فارس المعروف بقرا ، ودولات باى الفلاح ، وجان بلاط الغورى ، وسودون العجمى ، (١٤ ب) وأصطمر من ولى الدين ، وآخرين منهم . ــ وفيه صرف شرف الدين بن البدر حسن عن نظر الدولة ، وضرب بين يدى السلطان ، وأخلع على قاسم شعيتة وأعيد إلى نظر الدولة .

ومن الحوادث أن فى يوم الخميس عاشره جلس السلطان على الدكة بالحوش على

---

(١٠) أخوخ : فى ف : شاد بك من مصطفى المعروف بالخوخ .
(١٤) الألياسى : فى ف : الايناسى .

المادة ، فثار ريح عاصف ، فوقعت من شدّته السحابة التى بالحوش ، فأصابت جماعة من الأمراء ، وجرح تانى بك الجمالى حاجب الحجاب فى وجهه ، وقد وقع عامود السحابة ، وجرح أيضا دولات باى الحسنى ، وطاحت تخافيف الأمراء وعمائم المباشرين ؛ فقام السلطان من وقته ودخل إلى البحرة ، وتهارب العسكر وظنوا أنها القيامة ، وهرب الفراشون أصحاب النوبة خوفا على أنفسهم من السلطان ، وقد اظلم الجو ظلمة شديدة ، وقام رعد وبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى جرى السيل فى الأسواق والشوارع ، وكان يوما مهولا .

وفيه جاءت الأخبار من سيس بأن فى ذلك اليوم وقع بها صاعقة مهولة ، هدمت سور قلعتها ، وقتل بها من الناس جماعة . ـ وفيه توفى شرف الدين عبد الباسط بن البقرى ، أخو مجد الدين شقيقه ، وكان رئيسا حشما ولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الاسطبل ، ونظر الأوقاف ، ونظر الدولة ، وكان وجيها عند الناس حسن الهيئة ، فكان بين موته وموت أخيه مجد الدين نحوا من شهر ، وقيل مات مسموما .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حلب بأن أبا يزيد بن عثمان جهز عسكرا وقد وصل إلى أدنة ، فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ونادى للعسكر بالعرض ، فحضر الأتابكى أزبك باش العسكر ، فكتب بحضرته من الجند نحوا من أربعة آلاف مملوك ، وعيّن من الأمراء المقدّمين أحد عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات زيادة على ستين أميرا ، حتى عدّت هذه التجريدة من نوادر التجاريد التى لم يسمع بمثلها ، وقد بلغ السلطان أن ابن عثمان جمع من العساكر ما لا يحصى ، فلما عرض الجند وعيّن الأمراء أخذ فى أسباب تفرقة النفقة ؛ ثم إنه عيّن ثلاثة من الخاصكية يسيرون على الهجن (١٥ آ) لكشف أخبار ابن عثمان بما يكون من أمره واستحثهم على الخروج وردّ الجواب إليه بسرعة ؛ ثم عيّن آقبردى الدوادار وكاتب السرّ ابن مُزهر بأن يتوجها إلى جبل نابلس ، بسبب جمع العشران من عرب نابلس .

---

(١٢) بين : بعد . (٢٠) يسيرون : يسيروا .

وفيه جاءت الأخبار بأن يعقوب بن حسن الطويل وقع بينه وبين صاحب هراة من الفتن ما لا يعبّر عنه ، وآل الأمر إلى كسرة يعقوب وانهزامه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى ، فشقّ على السلطان هذا الخبر . ـ وفيه قرّر شرف الدين بن البدر حسن فى نظر الأوقاف ، عوضا عن شرف الدين بن البقرى بحكم وفاته ، وقد وليها ابن البدر حسن غير ما مرّة .

وفيه تغيّر خاطر السلطان على الأمير دولات باى الحسنى وأمر بنفيه إلى مكة ، فخرج إلى الخانكة ، ثم طلع الأتابكى أزبك وشفع فيه ، حتى عاد إلى داره . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الإبراهيمى الأشرفى الطويل نائب صفد ، ثم دوادار السلطان بحلب ، وكان لا بأس به ؛ فلما مات قرّر فى دوادارية السلطان بحلب أركماس من ولى الدين ، عوضا عن جانى بك الإبراهيمى بحكم وفاته . ـ وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة إياس من غير قتال ولا مانع ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفى جمادى الآخرة بعث السلطان نفقات الأمراء المقدّمين والعشرات ، فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار ، وكانت الأمراء المعيّنين للتجريدة أحد عشر أميرا مقدّم ألف ، وهم : الأتابكى أزبك أمير كبير ، وتمراز الشمسى أمير السلاح ، وبرسباى قرا أمير مجلس ، وقانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتغرى بردى ططر رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجمالى حاجب الحجاب ؛ وأما الأمراء المقدّمين غير أرباب الوظائف وهم : أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك قرا الأينالى ، ويشبك الجمالى السيفى ناظر الخاص يوسف ، وقانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ؛ وكانت الأمراء (١٥ ب) الطبلخانات والعشرات نحوا من خمسين أميرا ؛ ثم نفق على الجند فأعطى لكل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة شهور ثمانية آلاف درهم ، وثمن جمل سبعة أشرفية .

فكان جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار حتى عُدّ ذلك من

(١٥) الأتابكى : أتابكى .

النوادر ، ولم يُسمع بمثل ذلك فيما تقدّم من الدول الماضية ، أن أحدا من السلاطين فعل مثل ذلك ، فكانت نفقة الأتابكى أزبك وحده ثلاثون ألف دينار ، وكانت عادة نفقة الأتابكية إلى دولة الظاهر برقوق عشرة آلاف دينار ، ولم يُسمع بأوسع من هذه النفقة قط ، فكان كما يقال .

تهب ألوفا ولا تهاب ألوفها   هان العدوّ لديك والدينار

فلما أخذوا المماليك النفقة ، أطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا الأبغال والخيول حتى أكاديش الطواحين ، وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغير ذلك . —

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب باستيلاء الفنش صاحب قشتيلية على مدينة مالقة من بلاد الأندلس ، وكانت كاينة عظيمة وقعت هناك . — وفيه كان خروج الأتابكى أزبك ومن عُيّن معه من الأمراء والعسكر ، فرجّت لهم القاهرة ، وكان يوما مشهودا ، واستمرّت الأطلاب تنسحب من إشراق الشمس إلى بعد الظهر ، وخرج العسكر وهم لابسون آلة السلاح حتى عُدّ ذلك من النوادر الغريبة ، وكان طُلْب الأتابكى أزبك وطُلْب قانصوه خمسمائة غاية فى الحسن ، حتى قيل كان مصروف طُلْب قانصوه خمسمائة بنحو من ثمانين ألف دينار ؛ ثم إن الأمراء نزلوا بالريدانية واستمرّوا هناك إلى أن رحلوا ، ولم تخرج من مصر تجريدة أعظم من هذه ، حتى ولا فى أيام برقوق .

وفيه قبض السلطان على أبى الفتح المنوفى نائب جدّة ، ورسم عليه بطبقة الزمام ، وكان حصل له ماخولية وطرف جنون ؛ ثم أخلع على شاهين الجمالى وقرّره فى نيابة جدّة ، عوضا عن أبى الفتح ، ثم أمر السلطان بتوجّه أبى الفتح إلى البيمارستان ، فإنه لما أحضر بين يديه كلّمه السلطان ، فردّ له الجواب كجواب من فى عقله خلل ، فأمر بضربه بالمقارع ، فشفع (١٦ آ) فيه بعض الأمراء ، وشهد جماعة من المباشرين بأنه قد حصل له ماخولية ، فأمر بأن ينزلوا به إلى البيمارستان وهو عريان مكشوف الرأس ، ماشى وفى عنقه زنجير ، ورسم بأن يدعوه عند المجانين ، ففعلوا به ذلك ، فأقام

(٨) الفنش : الفيش ، وفى ف : القيس . || مالقة : مالقية .

فى البيمارستان أياما ثم شُفع فيه ، فعاد إلى طبقة الزمام وأقام فى الترسيم ؛ وكان أبوالفتح فى خدمة السلطان من حين كان شاد الشراب خاناه ، وكان عنده من المقرّبين، ثم عذر به ووقع له معه أمور يطول شرحها . ـ وفيه توفى برسباى أطلاشا الشمسى الظاهرى أحد الأمراء العشرات ، وكان من خشداشين السلطان ، وكان لا بأس به .

وفى رجب بلغ السلطان بأن العربان قالت : إن مصر ما بقى بها من الجند إلا قليلا وزاد طمعهم فى حقّ الترك ، فرسم السلطان لمن بقى فى القاهرة من الجند بأن يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ، ويسيروا إلى جهة المطرية ويعودوا ويشقّوا من القاهرة ، وفى أوساطهم السيوف والتراكيش ، وهم راكبون الخيل ، فصاروا يفعلون ذلك فى كل يوم أحد وأربعاء ، ويدخلون إلى القاهرة أفواجا أفواجا ، وتقعد الناس على الدكاكين لرؤيتهم ، فأقاموا على ذلك مدّة ثم بطل . ـ وفيه كان انتهاء عمل القبّة ، التى جدّدها السلطان بجامع القلعة عوضا عن التى سقطت ، فجدّدها وجدّد المنبر ، وصارت من أحسن المبانى .

وفيه من الحوادث أن السلطان جدّد مظلمة شنيعة ، وهى أنه أرسل لكاشف الشرقية بأن يأخذ من البلاد الخمس من خراج المقطعين ، بسبب تجهيز خيّالة من فرسان عربان الشرقية ، يتوجّهون إلى العسكر عونة ، بسبب قتال عسكر ابن عثمان ، فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد والقبض على الفلاحين ، ونسب ذلك إلى شرف الدين بن البدر حسن ، بأنه كان هو القائم فى ذلك ، فتوعّدته المماليك الجلبان بالقتل ، ونهبوا بيته فيما بعد ، وقد جُبى الخمس من خراج المقطعين سنتين متوالية ، ولم تخرج خيّالة من الشرقية ، وكانت زيادة مظلمة أخرى .

وفيه وصل الزينى أبو بكر بن مُزهر كاتب السرّ ، وقد تقدّم القول إنه (١٦ ب) خرج إلى نابلس صحبة الأمير آقبردى الدوادار ، بسبب جمع العشران من عرب نابلس لأجل التجريدة الماضى خبرها ، فحضر وهو متوعّك فى جسده ، فلم يقابل السلطان ولا طلع إلى القلعة ، واستمرّ ملازما الفراش بداره حتى مات ، كما سيأتى الكلام

(٣) أطلاشا : فى ف : الطلاشى . (١٤) الشرقية : فى ف : الغربية والشرقية .

على ذلك فى موضعه . ـ وفيه وصل قاصد ملك الفرنج صاحب الأنكرس من بنى الأصفر ، وصحبته هدية حافلة للسلطان ، فأكرمه وأنزله فى مكان عُدّ له .

وفى شعبان توفى دولات باى من مصطفى الأشرفى المعروف بالأجرود نائب غزّة ، ثم بقى أحد الأمراء المقدّمين بدمشق ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم بن على الشافعى شيخ مدرسة كاتب السرّ ابن مُزهر ، التى أنشأها فى حارة برجوان ، وكان من أهل العلم والفضل وله شهرة بمصر ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة تغرى بردى ططر الشمسى الظاهرى جقمق ، رأس نوبة النوب ، توفى بحلب ، وكان من أجلّ الأمراء ، وتولّى عدة وظائف سنيّة ، منها : نيابة القلعة بمصر ، ثم بقى مقدّم ألف ، ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، وخرج مع العسكر فى التجريدة فمات بحلب ، ومما وقع له أن الأمراء لما خرجوا فى هذه التجريدة طلّبوا كلهم على العادة لا خلان منه ، فإنه خرج بغير طُلب ، فلما طلع إلى القلعة مقته السلطان بسبب ذلك ، فقال له تغرى بردى ططر : لا تمقتنى ولا أمقتك ، أنا ما بقيت أردّ من هذه السفرة ، وكان الأمر كذلك ، كما يقال : إن البلاء موكل بالمنطق .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان بعث عدة مراكب من البحر الملح وهى مشحونة بالعساكر ، وقد وصلت إلى جهة باب الملك ، ليقاطع بها على العسكر المصرى ، فما تمّ له ذلك ، وأخذله الله تعالى ، وكانت النصرة لعسكر مصر ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ـ وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى حادى عشر مسرى ، فتوجّه آقبردى الدوادار وفتح السدّ ، ولم يتفق لآقبردى أنه نزل لفتح السدّ غير هذه السنة ، لموجب غيبة الأتابكى أزبك (١٧ آ) وبقية الأمراء ، وكان له يوم مشهود . ـ وفيه أخلع على فارس المنصورى ، وقرّر فى نيابة دمياط ، عوضا عن شاد بك الأشقر ، بحكم صرفه عنها .

---

(١٢) لا خلان منه : كذا فى الأصل ، وفى ف : ما خلا هو .

وفى رمضان ، فى الثالث منه ، كانت وفاة الزينى أبو بكر بن مُزهر ، كاتب السرّ بالديار المصرية ، وهو أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان المعروف بمزُهر الدمشقى الأنصارى الشافعى ، وكان عالما فاضلا عارفا بالفقه ، رئيسا حشما انتهت إليه رئاسة عصره ، وكان وجيها عند الملوك والسلاطين ، وولى عدّة وظائف سنية ، منها : نظر الاسطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السرّ ، ودام بها نيفا وعشرين سنة ، حتى مات وهو مقرّر بها ، وتكلم فى وظيفة قضاء الشافعية مدّة ، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة ، وكان قد شاخ وكبر سنّه ، فلما مات رثيته بقصيدة منها ، وهو قولى من أبيات :

صارت مرامله كمثل أرامل تبكى بأعينها دما وتترّب
وكذا الدواة تسوّدت أقلامها حزنا عليه وأقسمت لا تكتب

فكانت جنازته مشهودة ، وغطى نعشه بمرقعة من الصوف ؛ فلما توفى أخلع السلطان على ولده المقر البدرى محمد ، وقرّر فى كتابة السرّ بمصر ، عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، ذلك فى يوم الخميس سادس عشره ، وأخذ منه مالا له صورة حتى تولّى هذه الوظيفة ، وكان شابا فى عشر الثلاثين لما قرّر فى كتابة السرّ ، وكان السلطان محتفلا به ، فاستخلص منه أموال أبيه بحسن عبارة ، ولما تولّى كتابة السرّ قلت فيه بيتان ، وهما :

تشرّفت الإنشاء من آل مُزهر بنجل سما قدرا وشاع له ذكر
أضاءت به الأيام فى مصر بهجة ولِمَ لا وقد أضحى يلوح لها البدر

وفيه جاءت الأخبار بأن الأتابكى أزبك ملك باب الملك ، واستخلصه من أيدى عسكر ابن عثمان ، بعد أن أتوا إليه فى نحو من ستين مركبا ، وهى مشحونة بالمقاتلين وآلة السلاح ، فتقلّق العسكر المصرى من ذلك (١٧ ب) وانقطعت قلوبهم ، وظنّوا أنهم هم المأخوذون ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله تعالى عليهم بريح عاصف ، فأغرق غالب تلك المراكب فى البحر الملح ، والذى فرّ من العثمانية وطلع إلى البرّ ، فقتلهم العسكر المصرى ، وكانت النصرة لهم على العثمانية ، وكان هذا على غير القياس ، فلما

تحقق السلطان هذا الخبر سُرّ به جدّا ولم يصدّق بذلك .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بوفاة صاحب تونس ، السلطان المتوكل على الله عثمان بن محمد بن محمد بن العزيز أحمد البهيانى الموحدى ، وكان ملكا جليلا أقام فى الملك نحوا من أربع وخمسين سنة ، ومات وهو فى عشر السبعين سنة ، ومما مدح به وهو قول القائل من شعراء الغرب :

بقيت ولا أبقى لك الدهر حاسدا فإنك فى هذا الزمان فريد
عُلاك سِوار والممالك معصم وجودك طوق والبرية جِيد

ولما توفى تولّى بعده ولد ولده يحيى ، المعروف بحفيده ، فلم تطل مدته وقتل ، واستطال عليه أعمامه . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة سيباى من قانى باى الطيورى الظاهرى نائب حماة ، وكان لا بأس به . ــ وفيه ورد الخبر من الأتابكى أزبك ، بأن فى ثامن شهر رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر والعثمانية ، وقُتل من الفريقين ما لا يحصى ، فكان ممن قُتل من أمراء مصر : دولات باى الحسنى رأس نوبة ثانى أصيب بمدفع ، وقُتل من المماليك السلطانية عدّة وافرة ، ومن العسكر العثمانى أكثره ، وقد هزموا العثمانية وغنموا منهم عسكر مصر أشياء كثيرة ، من خيول وسلاح وغير ذلك ؛ فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بدقّ البشائر بالقلعة ، فدقّت سبعة أيام .

وفى شوال وصل مغلباى البجمقدار أحد العشرات من مماليك السلطان ، وصحبته عدّة رءوس ممن قُطعت من عسكر ابن عثمان ، وكانوا نحوا من مائتى رأس ، فشقّ مغلباى من القاهرة وقدّامه تلك الرءوس وهى على الرماح ، وكان له يوم مشهود ، فأخلع عليه السلطان ونزل فى موكب حافل ؛ ثم أخبر بوفاة مغلباى الفهلوان المحمدى الأشرفى أينال أحد العشرات ورءوس (١٨ آ) النوب ، وكانت وفاته بحلب ، وكان عارفا بفن الصراع علامة فيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان بعد ما حصل له هذه الكسرة عاد أيضا إلى أدنة ، وأن العسكر المصرى شرع فى حصارهم بها ، وقد تمادى الأمر فى ذلك

حتى أُخذت بعد مضى ثلاثة أشهر ، وقتل فى مدّة المحاصرة من الفريقين ما لا يحصى ، وآل الأمر إلى أن أخذوها بالأمان ، وجرى أمور فى ذلك يطول شرحها .

وفيه خرج الحاجّ من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل جان بلاط الخاصكى أحد الدوادارية ، وبالأول كرتباى الكاشف المعروف بالأحمر كاشف الغربية الأشرفى ، وحجّ فى تلك السنة داود بن عمر أمير عربان هوّارة . ــ وفيه توفيت دولات باى الجركسية ، سرية الظاهر جقمق ، وهى زوجة برقوق نائب الشام ، وكانت ديّنة خيّرة لا بأس بها . ــ وفيه أرسل السلطان خلعة إلى أينال الخسيف باستقراره فى نيابة حماة ، وقد سعى له الأتابكى أزبك فى ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم دهيشة من أزدمر الأشرفى الخاصكى الساقى ، أحد خواص السلطان ، خرج إلى دمشق فى بعض مهمّات السلطان فمات بدمشق ، وكان شابا جميل الهيئة حسن الشكل لا بأس به . ــ وفيه أعيد زين الدين الحسبانى إلى قضاء الحنفية بدمشق ، وصرف عنها مجد الدين الناصرى وسجن بقلعة دمشق . ــ وفيه توفى الناصرى محمد بن محمد بن محمد بن سلامش بن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وكان رئيسا حشما من مشاهير أولاد الأسياد .

وفى ذى القعدة توفى القاضى خير الدين الشنشى محمد بن عمر بن محمد بن حسن بن موسى القاهرى الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وترشّح أمره بأن يلى قضاء الحنفية بمصر ، ولم يتمّ ذلك له ، ومولده سنة أربعين وثمانمائة . ــ وفيه قرّر شخص يقال له محبّ الدين ، وكان أصله من الأقباط ، فقرّر فى نظر الجيش بدمشق ، عوضا عن السيد الشريف موفّق الدين ، بحكم صرفه عنها ، فأعيب ذلك على السلطان ، فاتفق أن محبّ الدين المذكور لما دخل إلى الشام أقام بها أياما ومرض ومات ، وكان قد جدّ فى السعى على الشريف موفّق الدين وأورد مالا له صورة .

(١٨) وثمانمائة : ومائة .

وفيه (١٨ ب) ضرب السلطان شخصا من نواب الحنفية يقال له شهاب الدين القصيف ، ورسم بنفيه إلى الواح ، فشُفع فيه وكتب عليه قسامة بأنه لا ينوب فى الحكم قط ، ولا يسمى فى ذلك ، بل ولا يشهد فى شىء من الأمور الشرعية ، لأمر أوجب ذلك . ـ وفيه أُحضرت جثة دولات باى الحسنى ، رأس نوبة ثانى ، من أدنة ، ودُفنت بمصر فى تربته .

وفى ذى الحجة توفى الشيخ تقى الدين السخاوى ، واسمه أبو بكر بن عبد الرحمن ابن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث ، سمع على الحافظ بن حجر وغيره ، وكان لا بأس به . ـ وفيه قدم البدرى محمود بن أجا ، قاضى قضاة الحنفية بحلب ، فأقام بالقاهرة مدّة ، ثم عاد إلى حلب على وظيفته . ـ وفيه توفى بُرسباى العلاى الطويل الظاهرى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان يعرف بالبوّاب ، خرج إلى التجريدة فمات هناك . ـ وتوفى قرقماس المحمدى الظاهرى المعروف بالمعلم ، وكان أحد الأمراء العشرات ، وكان عارفا بفنون الرمح علامة فى ذلك .

وتوفى ملاج الظاهرى جقمق أحد العشرات ، وكان دينا خيرا من ذوى العقول ، ومما وقع له أنه كان بيده إقطاع خراب ، وعنده عيال كثير وله أولاد ، فوقف إلى السلطان وشكى له حاله ، وأن إقطاعه خراب لا يحصل له منه شىء ، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ، فنزل إلى داره ودخل إلى طبقة مهجورة عنده ، وعمل إلى سلبة وربطها فى سقف الطبقة ، وعمل فيها خيّة وشنق نفسه بها فمات ، وقد هانت عليه نفسه من شدّة قهره ، وكان ساكنا فى الجودرية ، فراح القتل فى كيسه ولا تأثّر له أحد .

وفيه جاءت الأخبار بقتل صاحب طرابلس الغرب ، واسمه أبو بكر بن عثمان بن محمد الحفصى ، قتله صاحب تونس ، وقتل ولده أيضا ، وجماعة من أعوانه . ـ وتوفى فى هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان ، منهم قاضى الإسكندرية محمد بن محمد بن عوض المالكى ، وكان لا بأس به ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثمان (١٩ آ) مائة

فيها فى المحرم ، لما طلع القضاة للتهنئة ، رسم السلطان بعرض نواب الشافعية ونواب الحنفية ، وكلمهم كلاما مزعجا ، وأمر بإبطال جماعة منهم ، وجرى أمور يطول شرحها ، ثم آل الأمر إلى التحجير عليهم فى الأحكام الشرعية ، وأن لا يسجنوا الخصم إلا بإذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعمّ ذلك سائر النواب . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على الطواشى خشقدم الزمام الخازندار والوزير أيضا ، فرسم بالقبض عليه فى وسط الحوش ، وهمّ بضربه ثم آل الأمر إلى أن خرج منفيا إلى سواكن ، واحتاط على موجوده قاطبة ، واستمرّ منفيا إلى أن مات هناك ، وكان عنده عسف وظلم ، وشدّة بأس ، وسفاهة لسان ، وكان غيرمشكور فى أفعاله.

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن شخصا يقال له عبد القادر بن الرماح ، وكان له خصاصة بالسلطان ، فقال له إن الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وهو شخص من عباد الله الصالحين ، وكان قصد السلطان الاجتماع عليه ، فقيل له إنه يتردّد إلى مكانه عند جامع محمود بالقرافة تحت الجبل المقطم ، فقال السلطان : لما يحضر هناك أعلمنى ، فعمد عبد القادر بن الرماح إلى شخص كان يقرب فى الشبه من الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وكان يدّعى أنه شريف ، فأعلم السلطان بأن الدشطوطى يحضر تلك الليلة إلى المكان المذكور .

فصلّى السلطان العشاء ونزل وصحبته ثلاثة أنفس ، فأتى إلى ذلك المكان ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك الشخص جالسا ورأسه فى عبّه ، فشرع السلطان يقبّل رجله ، ويقول له : يا سيدى أحمد حملتى مع ابن عثمان ، فصار ذلك الشخص يتغرب عليه ، ويقول له : انت ماترجع عن ظلم العباد ، فطال المجلس بينهما ، ثم إن السلطان دفع له كيسا فيه خمسمائة دينار ، وقيل ألف دينار ، فصار يمتنع من ذلك ، والسلطان يتلطّف به ، ويقول له : فرّق ذلك على الفقراء ، ثم ركب ومضى وهو يظن أنه الدشطوطى .

ثم بعد أيام انكشفت هذه الواقعة ، وظهر أنها مفتعلة ، فلما تحقق السلطان ذلك ، فأحضر عبد القادر بن الرماح ، والشخص الذى تزايا بزى الدشطوطى ، وخادم المكان الذى كانوا به ، فضُربوا بين يدى السلطان (١٩ ب) بالمقارع ، وأما عبد القادر بن الرماح الذى كان سببا لذلك ، رسم السلطان بحلق ذقنه ، وأشهره فى القاهرة على حمار ، ثم سجنه بالمقشرة إلى أن مات عقيب ذلك ؛ وكانت هذه الواقعة من أغرب الوقائع التى لم يُسمع بمثلها ، ومع أن عبد القادر بن الرماح كان من ذوى العقول ، ولكن يحبو الزناد ، ويكبو الجواد ، كما يقال :

وإنّى رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

وفى صفر أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط من يشبك بأمرة عشرة ، وهى أول استظهاره فى العلو والرفعة ، وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ـ وفيه جاءت الأخبار أن صاحب فاس من بلاد الغرب ، بأنه قد غزا الفرنج واستخلص منهم عدّة بلاد كانت أُخذت من يد المسلمين ، فأعادها لهم ، وقُتل ولده فى المعركة . ـ وفيه صار العسكر من المماليك السلطانية يدخلون إلى القاهرة شيئا فشيئا قبل حضور الأتابكى أربك ، فتنكّد السلطان لذلك .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان غالب الأمراء مسافرا فى التجريدة ، فكان أمر السماط فيه بحكم النصف عن العادة . ـ وفيه بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريدة ، يقصدون أن يثيروا فتنة كبيرة ، ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم ، ثم بلغ السلطان أن المماليك قالوا : إن كان السلطان ما يعطينا نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر لم يسافروا ، وذكروا كلمات كثيرة من هذا النمط .

فلما تحقّق السلطان ذلك أخذ فى أسباب تحصيل المال ، فاجتمع بالقضاة الأربعة وذكر لهم أن الخزائن نفذ ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصدون نفقة وإن لم

(٧) يحبو . . . ويكبو : يحبوا . . . ويكبوا .

(١٧و١٩) الذين : الذى . (١٧) يقصدون: يقصدوا .

أنفق عليهم شيئا وإلا يثيروا فتنة كبيرة ، فاتفق الحال على أن يفرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة ، فانفضّ المجلس على ذلك ، وياليته كان اقتصر على هذه المظلمة فقط ، ولكن اتسع الأمر بعد ذلك حتى كان ما سنذكره (٢٠ آ) فى موضعه ؛ ثم إن السلطان أمر تغرى بردى الأستادار بأن يتكلم فى ذلك ، هو وناظر الخاص ابن الصابونى ، فاقتسموا التصرف فى ذلك ، فشرعوا فى جباية المال .

ثم بعد أيام من هذا الشهر دخل الأتابكى أزبك ومن كان معه مسافرا فى التجريدة من الأمراء وبقيّة العسكر ، وكان لهم يوم مشهود ؛ ومن العجائب أن فى حالة دخولهم إلى القاهرة أشيع بين الناس عودهم إلى حلب عن قريب ، فإن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس وعلى طرسوس وغير ذلك من البلاد الحلبية ؛ وحضر صحبة الأتابكى أزبك جماعة كثيرة من عسكر ابن عثمان ، أتوا طائعين باختيارهم ، فنزّلهم السلطان فى ديوانه وقرّر لهم الجوامك ، وهم إلى الآن فى الديوان يسمّون العثمانية . ـ ثم قويت الإشاعات بوقوع فتنه كبيرة ، وأن المماليك قد صمّموا على أخذ النفقة لكل واحد منهم مائة دينار ، فتقلّق السلطان من هذه الإشاعات واشتدّ عليه الأمر .

وفى ربيع الآخر ، فى يوم السبت رابعه ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وأرسل خلف القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس ، قال السلطان للقضاة والأمراء : هذه المماليك يرومون منّى نفقة ، وقد نفذ جميع ما فى الخزائن من المال على التجاريد ، ولم يبق بها شىء من المال ؛ ثم أقسم بالله أن نفذ منه على التجاريد من حين ولى السلطنة وإلى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار ، ثم قال للأمراء : اختاروا لكم من تسلطنوه غيرى ؛ وأحضر فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، وأحضر القبة والطير ، ثم قام وقال للقضاة : اشهدوا علىّ أنى قد خلعت نفسى من السلطنة ؛ وشرع يفك أزراره ، وقصد الدخول

(٢) التى : الذى.

إلى قاعة البحرة ، فتملّق به القضاة ومنعوه من ذلك ، وشرع قاضى قضاة المالـكية محيي الدين بن تقي يبـكى ، وأظهر التأسّف لهذه الواقعة ، وصار يتفارش ويتترّب .

ثم إن الأمير تمراز أمير سلاح صار يمشى بين الجلبان وبين السلطان فى عمل المصلحة ، فـكثر القال والقيل فى ذلك ، (٢٠ ب) وضجّ العسكر ، وتردّدت الوسايط بين السلطان وبين الجلبان ، ثم تقرّر الحال بعد جهد كبير على أن السلطان ينفق على الجلبان لـكل واحد منهم خمسين دينارا ، من ذلك أربعين دينارا معجلا ويتأخّر عشرة ينفقها عليهم بعد مضي شهرين ، وأن القرانصة ينفق عليهم خمسة وعشرين دينارا ، فتقرّر الحال على ذلك وسكن الاضطراب قليلا .

ثم إن السلطان أرسل خلف الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، وكان ساكنا عنده بالحوش ، فلما حضر جدّد له مبايعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة ، فـكانت مدة سلطنته فى هذه المرّة الأولى، إلى يوم خلعه هذا ، اثنين وعشرين سنة إلا ثلاثة أشهر ، ثم قام الخليفة ونزل القضاة إلى دورهم ، وانفضّ الموكب وكان يوما مهولا .

ثم إن السلطان أخذ فى أسباب تحصيل جمع المال لأجل النفقة ، واستحثّ فى إحضار ما يُجبَى من المال بسبب الشهرين الذى أفرضها على أرباب الأملاك ، ثم أفرض على المماليك القرانصة وأولاد الناس الذين لم يسافروا فى التجريدة ، فقرّر على من له جامكية ألفين ، أربعين دينارا ، ومن له ألف جامكية ، بحكم النصف من ذلك، ومن لم يرد شيئا من ذلك تُقطع جامكيته ستّة أشهر حتى يغلق ما أفرض عليه ، ثم نفق على المماليك فيما بعد .

وفيه ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشيني ، الذى ولى قضاء الحنابلة فيما بعد ، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدّة طويلة حتى سكن الأمر وسبب ذلك نقل عنه أنه قد أفتى السلطان بحلّ ما يجي إليه من أجرة الأملاك عن

---

(١٨) فيما بعد : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وأن الأمير تمراز شفع فى القرانصة وأولاد الناس أن لا يردوا شيئا مما قرر عليهم ، وكان الغالب منهم أورد شيئا وراح عليه ، والمتأخر لم يحط شيئا بسبب الشفاعة .

الشهرين الماضى خبرها ، فلما بلغ العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله ، فاستمرّ مختفيا حتى توجّه إلى مكة وجاور بها مدّة .

وفيه كانت وفاة الشيخ بدر الدين بن الغرس ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن خليل ابن على بن خليل القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، عارفا بأصول الفقه، وله نظم جيّد ، وولى عدّة تداريس سنيّة ، وناب فى القضاء مدّة ، ثم ولى مشيخة تربة الأشرف برسباى ودام بها حتى مات ، وكان من أعيان الحنفية وذكر (٢١ آ) إلى قضاء الحنفية غير ما مرّة ، ومن نظمه ، وهو قوله :

إن جاءكم صبّ بكم فأكرموا مثواه تجزَون خيار الثواب
وجاوبوا العُذّال عمن غدا من سقمه لا يستطيع الجواب

ولما مات رثاه شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى بقوله :

لقد اظلمت مصر واقفرت الدنيا لموت عديم المثل بل أوحد العصر
سأعجب إن ضاءت ليالى عصرنا وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

وفيه كانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع ، ونسب ذلك إلى إهمال كسباى المحتسب ، فرفع بعض الناس قصّة يشكو فيها من أفعال المحتسب ، بأنه لم ينظر فى مصالح المسلمين ، فوبّخه السلطان بالكلام ، ثم بطحه بين يديه وضربه نحوا من عشرين عصاة ؛ فلما نزل من القلعة أطلق فى السوقة النار ، وكذلك سماسرة القمح، وجرى بسبب ذلك أمور شتى . — وفيه كانت وفاة الحافظ قطب الدين الأخيضرى محمد بن محمد بن عبدالله بن خيضَر بن سليمان بن داود بن فلاح بن ضميرة الرملى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما ، وكان من أخصاء الأشرف قايتباى ، وولى عدّة وظائف سنية ، منها كتابة سرّ دمشق ، ونظر جيشها ، وقضاء الشافعية بها ، وغير ذلك من الوظائف ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيـه بعث السلطان بالقبض على مملوكه أزبك النصرانى ، وكان قرّره فى نيابة كركر ، فوقع منه غاية الفساد هناك ، وآل أمره بأن حُزّت رأسه وعُلّقت على باب قلعة كركر ، وكان من شرار الناس . — ومن الحوادث فى أثناء هذا الشهر ، أشيع

بين الناس بأن فرس البحر قد ظهرت عنـد شبرا ، وصارت تتراءى للناس مدّة ثم اختفت ، وتحقّقت الأقوال بذلك .

وفيه أخلع السلطان على الأمير أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار وقرّره فى الرأس نوبة الـكبرى ، عوضا عن تغرى بردى ططر ، بحكم وفاته بحلب ؛ وأخلع على شاد بك أخوخ وقرّره فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن قانصوه الألفى ، بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وكانت الدوادارية الثانية شاغرة مدّة ؛ وأنعم على مملوكه طُقطباى بأمرة عشرة (٢١ ب) وجعله متحدّثا فى نيابة القلعة ، عوضا عن شاد بك أخوخ حتى يرى من يولّيه نيابة القلعة ، فاستمرّ بها إلى الآن من غير أن يخلع عليه بها ؛ وأنعم على يشبك من حيدر الذى كان والى الشرطة بتقدمة ألف ، مضافا لـما بيده من الأمير آخورية الثانية ؛ وأنعم على مملوكه جانم الذى كان أميرا بالشام بتقدمة ألف ، وكتب له بذلك وهو بالشام ؛ وقرّر أيضا مملوكه مغلباى الشريفى فى تقدمة ألف ، مضافا لما بيده من ولاية القاهرة ، فأقام على ذلك مدّة حتى تقرّر فى الولاية غيره

وفيه كان ابتداء تفرقة النفقة على الجند كما تقرّر الحال عليـه ، على أن للجلبان خمسين دينارا وللقرانصة خمسة وعشرين ، وقد أخّر للجلبان عشرة دنانير من الخمسين، ووعدهم بأن يعطيها لهم فيما بعد . ــ وفيه توفى تقى الدين ناظر الزردخاناه ، فلما مات قرّر ولده عبد الباسط فى نظر الزردخاناه ، عوضا عن أبيه . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن شاه بُضاغ بن ذلغادر حضر إلى الأبلستين ، ومعه طائفة من عسكر ابن عثمان ، وكبس على أخيـه على دولات وقبض على اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك انزعج لهذا الخبر جدا . ــ وفيه أعيد الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص إلى نظر الجيش ، وصرف عنها بدر الدين بن أخيه كمال الدين .

وفيه عيّن السلطان عدّة من أمراء البلاد الشامية ، فقرّر فى حجوبية دمشق يونس نائب البيرة ؛ وقرّر فى نيابة البيرة أينال باى من جلبانه ، وكان يقرب له ؛ وقرر با كير بن صالح الـكُردى حاجب حلب فى نيابة قلعة الروم ؛ وقرر مملوكه قانصوه الغورى فى حجوبية حلب ، عوضا عن با كير ، وقانصوه هذا هو الذى ولى السلطنة

فيما بعد ؛ وقرر أركماس من طُراباى فى دوادارية السلطان بدمشق ؛ وقرّر قنبك نائب بَهسَنا فى دوادارية السلطان بحلب ؛ وقرر فى نيابة بَهسَنا كرتباى الأشرفى من مماليكه ، فخرجت إليهم المراسيم بمعنى ذلك .

وفيه أخلع السلطان على تانى بك الجمالى الظاهرى وقرّر فى أمرة مجلس ، عوضا عن برسباى قرا ، بحكم (٢٢ آ) وفاته فى التجريدة بحلب ، وكان تغيّر خاطر السلطان على تانى بك الجمالى وقصد نفيه إلى مكة بسبب أمرة مجلس ، فإنه قصد أن يقرّره فى الرأس نوبة الكبرى ، فامتنع من ذلك وصمّم على أنه ما يلى إلا أمرة مجلس ، فتغيّر خاطر السلطان عليه بسبب ذلك ، وأقام أياما لا يطلع إلى القلعة ، ثم أرسل خلفه وأخلع عليه وأقرّه فى أمرة مجلس على كره منه . ـ وفيه أرسل السلطان خلعة إلى عبد الرزاق أخى على دولات ، وقرّره فى أتابكية حماة ، عوضا عن ابن طُرغل ، ونقل ابن طُرغل إلى نيابة طرسوس .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب ، بأن عسكر ابن عثمان ، لما بلغهم رجوع العسكر المصرى ، طمع فى أخذ البلاد الحلبية ، وأرسل يستحثّ السلطان فى خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة حلب ؛ فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعيّن تجريدة ، وكتب عدّة وافرة من الجند ، وجعل الباش على هذه التجريدة قانصوه الشامى أحد المقدمين الألوف ، ومن الأمراء الطبلخانات يشبك جنب الرأس نوبة الثانى ، وأزدمر الفقيه الظاهرى ، وكرتباى من تمرباى ابن أخت السلطان ، وأصطمر من ولى الدين أحد العشرات ، فلما عرض الجند نفق عليهم وعلى الأمراء ، وحرّصهم فى سرعة الخروج إلى التجريدة من غير إمهال .

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ محب الدين ، أخو قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ، وكان عالما فاضلا ، وناب فى الحكم ، وولى خطابة الجامع المؤيدى ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى القاضى شمس الدين محمد بن الجليس أحد نواب الحنابلة ، وكان من الأعيان مشكور السيرة .

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بسلخ شخص يسمّى أحمد بن الديوان من

أهل حلب ، فسلخه فى المقشرة ، وسلخ ولده محمد معه ، وأشهروهما فى القاهرة على جملين ، وكان أحمد بن الديوان من أعيان الرؤساء بحلب ، وكان من أخصاء السلطان، فنقل عنه أنه كاتب ابن عثمان فى شىء من أخبار المملكة ، فلما بلغ السلطان ذلك تغيّر خاطره عليه وجرى له أمور يطول شرحها ، وكانت (٢٢ ب) من الوقائع المهولة . ـ وفيه أنعم السلطان على طوخ المحمدى البجمقدار بأمرة عشرة .

وفيه خرجت التجريدة ومن تعيّن بها من الأمراء والعسكر، وكان يوما مشهودا ، قيل بلغت النفقة على الجند والأمراء فى هـذه التجريدة الخفيفة نحوا من مائة وخمسين ألف دينار ، غير جامكية أربعة أشهر وثمن الجمال ، وكان السلطان دربا فى خروج هذه التجريدة لصون مدينة حلب . ـ وفيه قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان ، يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا إلى ابن عثمان لعل يكون الصلح ، فأعيد له الجواب : إذا أطلق تجار المماليك الذين عنده ، وبعث مفاتيح القلاع التى أخذها ، كاتبناه فى أمر الصلح ، وأرسلنا إليه قاصدا ؛ ولـكن جرى بعد هذه الواقعة أمور شتى .

وفى رجب أخلع على تانى بك المحمدى الأينالى أحد العشرات ، وقرّر فى شادية الشون ، وأشركوا معه آقبردى ططر الظاهرى أحد العشرات أيضا . ـ وفيه توفى الشيخ جمال الدين الـكورانى ، شيخ خانقاة سعيد السعداء ، وهو عبد الله بن محمد بن حسن بن خضر بن محمد الأردبيلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفى شعبان قرّر فى مشيخة خانقاة سعيد السعداء الشيخ زين الدين عبد الرحمن السنتاوى الشافعى ، عوضا عن جمال الدين الـكورانى بحـكم وفاته . ـ وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان بسبب العشرة دنانير التى تأخّرت لهم من الخمسين التى تقرّر الحال عليها فى أمر النفقة ، فما سكنت الفتنة حتى نفقها لهم . ـ وفيه حضر إسكندر ابن ميخال أحد أمراء ابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان على دولات هو

(١١) الذين : الذى .   (١٩) السنتاوى : فى ف : القناوى .
(٢٢) ميخال : فى ف : جيجان .

القائم فى القبض عليه ، فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود ، وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم . ــ وفيه توفى سودون الثور أحد العشرات ، وكان لا بأس به ؛ وتوفى الطواشى مرجان الجمالى المعروف بستمائة ، وكان من أعيان الطواشية . ــ وفى آخر يوم من شعبان كان وفاء النيل المبارك ، وفتح السدّ فى أول يوم من رمضان .

وفى رمضان فى أول يوم منه كان فتح السدّ عن الوفاء ، ووافق ذلك سادس مسرى ، فنزل الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وقيل (٢٣ آ) إن جماعة من أوباش العوام أفطروا ذلك اليوم من شدّة الحرّ والعطش . ــ وفى أثنائه عمل الأتابكى أزبك وقدة حافلة وحراقة نفط فى بركة الأزبكية ، وعزم على الأمراء وكانت ليلة حافله .

وفى شوال كان أول توت ، وهو يوم النوروز عند القبط ، وكان عيد الفطر عند المسلمين ، فعدّ ذلك من النوادر . ــ وفيه خرج الحاجّ على العادة ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وكان الحاجّ فى تلك السنة قليلا . ــ وفيه جاءت الأخبار من سواكن بوفاة الصاحب خشقدم الأحمدى ، وكان رئيسا حشما من أعيان الطواشية ، وولى عدة وظائف سنيّة ، منها الوزارة ، والزمامية ، والخازندارية الكبرى ، وكان ظالما غاشما عسوفا من وسائط السوء . ــ وفيه توفى الشيخ أبو الفضل محمد المحلى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

وفى ذى القعدة توفى الطواشى مرجان التقوى ، وكان لا بأس به ؛ وتوفى نورروز أخو برسباى قرا أمير مجلس ، وكان من العشرات من خيار الظاهرية ، وكان لا بأس به ؛ وتوفى الشيخ جعفر بن إبراهيم السنهورى الشافعى ، شيخ القراء بمصر ، وكان يقرئ بأربعة عشر رواية ، وكان علامة فى فن القراآت . ــ وفيه جاءت جماعة من تجار الإسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم فى الظلم والمصادرات ، فأرسل إليه السلطان يحذّره من ذلك .

---

(٢٢) يشكون : شكوا .

وفى ذى الحجة أنعم السلطان على سيباى نائب سيس بأمرة عشرة ، وكذلك كسباى من أزبك الساق . ـ وفيه توفى شعبان بن الزوارى شيخ القبانيين ، وكان علامة فى صنعة القبانة ، وتحريره فى الأوزان ؛ وتوفى سليمان ابن محمد المغربى إمام الخليفة ، وكان فاضلا فى علم الميقات ، وله شهرة فى ذلك ، انتهى ما أوردناه من ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كسفت الشمس كسوفا تاما حتى اظلمت الدنيا ، وثار عقيب ذلك أرياح عاصفة حتى فزع الناس من ذلك . ـ وفيه قدم إلى القاهرة (٢٣ ب) شاه بضاغ بن ذلغادر ، وقد تقدّم القول بأنه هرب من قلعة دمشق وكان مسجونا بها ، فلما هرب توجّه إلى ابن عثمان والتفّ على عسكره وملك الأبلستين، واستمرّ فى عصيان مدّة طويلة ، ثم وقع بينه وبين ابن عثمان وقصد قتله ، ففرّ منه والتجأ إلى السلطان ؛ فلما حضر أكرمه وأخلع عليه ، ثم بعد مدّة بعثه إلى أسيوط يقيم بها ، وأجرى عليه ما يكفيه ، فعُدّ ذلك من جمله سعد السلطان، وكانت من النوادر .

وفى صفر توفى الطواشى سرور السيفى قرا خجا الحسنى ، وكان لا بأس به ، وولى رأس نوبة السقاة وغير ذلك . ـ وفيه كان اقتران المريخ مع زحل فافرط البرد فى تلك الأيام ، حتى أحرق الأشجار وجمّد المياه ؛ وذكر بعض المنجّمين أن هذا الاقتران يدلّ على وقوع فتن ، وأن البرد يستمرّ أياما متوالية ، وهو فى تزايد من الإفراط حتى صار الثلج ينزل فى الليل وينعقد على الجدارات بناحية الجيزة ، ومات به الكثير من الحرافيش من شدّة البرد ، فكان كما يقال فى المعنى :

ويوم برد يد أنفاسه تخمش الأوجُه من قَرصها

---

(٢) الزوارى : فى ف : الزواوى . (١٣) أسيوط : فى ف : منفلوط .
(١٥) خجا : فى ف : قجا .

يوم تودّ الشمس من برده   لو جرّت النار إلى قُرصها

وفيه كثرت الشكاوى فى محمد بن إسماعيل قاضى الواح ، فأمر السلطان بإحضاره ، فلما حضر عرّاه وضربه بالمقارع ، ثم أشهره فى القاهرة وهو على حمار ، ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد أيام ، وكان من كبار الظلمة من المفسدين فى الأرض ، فلما أخرجت جنازته ثار عليه طائفة كثيرة من الألواحية ، ورجموه بالحجارة وهو فى النعش ، وأرادوا حرقه بالنار ، فما خلّصوه ودفنوه إلا بعد جهد كبير .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار من عند على دولات بأن ابن عثمان فى تجهيز عساكر ، وقد وصل أوائلهم إلى كولك ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكّد لهذا الخبر ، وجمع الأمراء وأخذ رأيهم فى ذلك ، فوقع الاتفاق على خروج تجريدة صحبة الأتابكى أزبك ، ثم أخذ السلطان فى أسباب جمع الخُمس من ضواحى الشرقية ، كما فعل عند خروج التجريدة الماضية (٢٤ آ) لأجل جمع فرسان العرب ، لتخرج صحبة أمير كبير أمام العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأذى ، وقطع الخُمس من خراجهم مرتين . ـ وفيه أخلع السلطان على قيت من قانم الساقى وقرّر فى ولاية القاهرة ، عوضا عن مغلباى الشريفى ، بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وكان متكلما فى الولاية مع التقدمة . ـ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض ، وأشيع أمر التجريدة إلى ابن عثمان ، فلما عرض العسكر بادر إليهم بتفرقة النفقة ؛ ثم وقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام السلطان من على الدكة ونزل وقال : أنا أترك لكم عن السلطنة وأمضى إلى مكة ؛ فتلطّف به الأمراء ، ثم آل الأمر من بعد ذلك إلى أن

---

(٥) الألواحية : الاواحية ، وفى ف : أولاد أخيه .

(١٤) مرتين : أضيف هنا فى ف ما يأتى : وفيه عرض السلطان أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم إلى دونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم وأرموا قدامه كتبهم إلى التجريدة ، ونفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، و كل اثنين أشركهم فى جمل أعطاه لهم ، وخرجوا صحبة التجريدة .

نفق عليهم لـكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة شهور ، وثمن جمل سبعة دنانير ، فنفق فى ذلك اليوم على عدّة طباق ، واستمرّ على ذلك حتى أكمل النفقة ، ثم حملت نفقات الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ، وقد تعيّنوا للسفر أجمعين ، ولم يبق بمصر من المقدّمين سوى آقبردى الدوادار ، وأزدمر تمساح فقط ، فـكانوا على الحـكم الأول كما تقدّم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحوا من خمسمائة ألف دينار ؛ وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباى إلى ابن عثمان وغيره ، ولم يجرّد بعدها أبدا ؛ ثم نودى للعسكر بأن لا يخرج منهم أحد قبل الباش ، فما سمعوا له شيئًا .

وفيه قرّر تمر الرجبى الخاصكى الخازندار فى نيابة جدّة ، عوضا عن شاهين الجمالى ، وقد سأل الإعفاء من ذلك . ــ وفيه تعيّن كرتباى كاشف البحيرة فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وعيّن أينال الفقيه الحاجب الثانى بالركب الأول .

وفى ربيع الآخر فى ثانى عشرينه خرج الأتابكى أزبك من القاهرة قاصدا للبلاد الحلبيّة ، وصحبته الأمراء المقدّمين ، وكان عدّتهم عشرة وهم على حكم ما ذكرناه فى التجريدة الماضية ، وأما الأمراء الطبلخانات والعشرات فـكانوا زيادة على الخمسين أميرا ، وأما المماليك السلطانية فـكانوا زيادة على ثلاثة آلاف مملوك ، (٢٤ب) فـكان لهم يوم مشهود حـتى رجّت لهم القاهرة ، واستمرّت الأطلاب تنسحب من إشراق الشمس إلى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الـكامل من آلة السلاح ، فعدّت هذه التجريدة من نوادر التجاريد ، وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان فى أمر الفتن ، والأمر لله .

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بنقل إسكندر بن ميخال من البرج التى فى باب السلسلة إلى دار كاتب السرّ البدرى بن مُزهر ، وأمره بالحفظ عليه . ــ وفيه جاءت الأخبار من مكة بوقوع سيل عظيم فى خامس صفر ، فقيل إنه بلغ إلى الحجر الأسود ، وهدم عدة أماكن ، وحصل منه غاية الضرر .

---

(١٢) ثانى عشرينه : فى ف : خامس عشر . (١٥) ثلاثة آلاف : فى ف : أربعة آلاف .

وفى جمادى الآخرة قويت بالقاهرة الإشاعات بسفر السلطان بنفسه إلى حلب، ونزل إلى الميدان وعرض الهُجن وعيّن جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وحرّص على من بقى من العسكر فى عمل يرقهم وأن يكونوا على يقظة من السفر . ـ وفيه وصل آقبردى الدوادار من البحيرة ، وكان قد خرج بسبب فساد العربان .

وفى رجب كان ختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد ، الذى تسلطن بعده، وكان عمره يومئذ نحوا من سبع سنين وأشهر ، وكان المهمّ بالقلعة سبعة أيام متوالية، وكان من نوادر المهمّات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بأن تزّين القاهرة فزُيّنت زينة حافلة ، حتى زيّنوا داخل الأسواق مثل : سوق الشرب ، والجواهرة ، والوراقين ، وسوق الفاضل ، والباسطية ، وسوق الحاجب ، والصاغة ، وغير ذلك من الأسواق ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحدّ ، وكان العسكر غائبا فى التجريدة والناس فى أمن من أذى المماليك ، فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم ما لا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار ، فكان من جملة ما أهداه المقر الشهابى أحمد بن العينى طست وإبريق ذهب ، زنته نحو من ستمائة مثقال ، برسم الختان ، وأشياء كثيرة (٢٥ آ) غير ذلك .

وتختّن مع ابن السلطان جماعة كثيرة من أولاد الأمراء والخاصكية ، فكانوا زيادة عن أربعين ولدا ، فرسم لكل صبيّ بكسوة على قدر مقام أبيه ، فكان من جملة أولاد الأعيان : ابن الخليفة ابن أبى يزيد أمير المؤمنين عبد العزيز ، وهو ابن سيدى عمر ، وسيدى عثمان بن الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وابن الججمة ابن عثمان ، وأولاد العلاى على بن خاص بك ، وغير ذلك من أولاد الأمراء والأعيان .

فلما كان يوم الخميس عشرينه اجتمع الأمراء والمباشرون وأعيان الناس بالحوش السلطانى ، وركب ابن السلطان من قاعة البحرة ، ومشت قدّامه الأمراء والخاصكية

---

(٩) والصاغة : كتبت فى الأصل بعد « والفرجة » فى السطر التالى .

وهم بالشاش والقماش ، ومشى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين بن الإخميمى ، وسائر أعيان المباشرين وأولاد الجيمان وأعيان الخدام ، وكان ماسك لجام الفرس الأمير آقبردى الدوادار ، والشهابى أحمد بن العينى ، وهما بالشاش والقماش ، ولم يكن بمصر من الأمراء المقدّمين غير الأمير آقبردى الدوادار ؛ فاستمرّ ابن السلطان فى ذلك الموكب من قاعة البحرة إلى باب الستارة ، والسلطان جالس فى المقعد ينظر إليه ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ولاقاه المغانى ، فنزل عن فرسه بباب الستارة ودخل قاعة البيسرية ، فكان الختان بها ؛ وقيل دخل على المزيّن نحو من خمسة آلاف دينـار ، فأنعم عليه من ذلك بألف دينار ، فتقاسموها الرؤساء من المزّينين ، وعدّ هذا الختان من النوادر؛ ثم نزل ابن الجمجمة ، وأولاد العلاى على بن خاص بك ، وتوجّهوا إلى بيوتهم ، فشقوّا من القاهرة فى موكب حافل ، ورسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يركبوا قدّامهم ففعلوا ذلك .

وفى هذا الشهر كانت وفاة الزينى خضر بن سنان النوروزى الجركسى ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، وكان فى سعة من المعيشة ، ومات وهو فى عشر الستين . ـ (٢٥ ب) وفيه خسف جرم القمر ، ودام فى الخسوف نحوا من أربعين درجة حتى انجلى. ـ وفيه عيّن السلطان جماعة من الجند إلى مكة يقيمون بها ، وجعل عليهم باشا آقبردى تمساح الظاهرى أحد العشرات ، وعيّن الطواشى إياس الشامى فى مشيخة الحرم النبوى .

وفيه ثاروا مماليك الأمير آقبردى الدوادار عليه وحاصروه وهو فى داره ، وطلبوا منه زيادة فى جوامكهم ، فبعث إليه السلطان بالوالى ، فقبض على جماعة منهم وضربهم بالمقارع ، وقطع أيدى جماعة منهم ، ففرّ الباقون إلى الجامع الأزهر وأقاموا به أياما

(٤) الدوادار : أضيف هنا فى ف : والأمير أزدمر تمساح والأمير أزدمر المسرطن .
(١٣) سنان : كذا فى ف ، وفى الأصل : شناف .

ثم آل الأمر بأن نفى طائفة منهم إلى جهة قوص، وطائفة إلى البلاد الشامية، فسكن الحال قليلا.

وفيه جاء هجان من عند العسكر، وأخبر بأن العسكر قصد التوجّه إلى بلاد ابن عثمان، وقد أرسلوا ماماى الخاصكى رسولا إلى ابن عثمان، فلما أبطأ عليهم خبره زحف العسكر المصرى على أطراف بلاد ابن عثمان، ووصلوا إلى قيسارية، وقتلوا بها ونهبوا عدّة من ضياعها وأحرقوها، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان، وانقسم العسكر على فرقتين، فرقة إلى دارندة، وفرقة مقيمة بكولك ينتظرون ما يكون من هذا الأمر؛ ثم حضر جان بلاط الغورى أحد مماليك السلطان، وكان من الأمراء العشرات يومئذ، فأخبر بأن العسكر فى تقلّق زائد بسبب الغلاء الذى هناك، وأن العليق ما يوجد، وأنهم قد عوّلوا على المجىء إلى مصر، فما سرّ السلطان بهذا الخبر ولا أعجبه.

وفى شعبان رفعت امرأة قصّة للسلطان، تشكو فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب المالكية، فأمر السلطان بإحضاره، فلما حضر بطحه وضربه ضربا مؤلما، وآل أمره إلى أن غرم فى هذه الكاينة مالا له صورة، بعد عقود مجالس بينه وبين المرأة التى رافعت فيه. ـ وفيه كانت البشارة بالنيل المبارك، وجاءت القاعدة سبعة أذرع إلا ثمانية أصابع. ـ وفيه قرّر شهاب الدين الصيرفى فى تدريس الشافعية بالخانقة الشيخونية، (٢٦ آ) عوضا عن الجلال بن الأمانة بحكم نزوله عنها؛ ولم ينزل أحد عن هذه الوظيفة قبل اليوم قط، إلا أن تخرج بحكم وفاة. ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على دقماق نائب القدس، وفخر الدين بن نسيبه، من أعيان بيت المقدس، فرسم بإحضارهما، فلما حضرا أمر بضربهما، فضربا بين يديه، وأمر بنفى ابن نسيبه إلى الواح حتى شفع فيه.

وفى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام، وجدهم يشربون الخمر

(١٧) ابن الأمانة: فى ف: ابن الابانه.

فى رمضان نهارا ، فضربهم وأشهرهم فى القاهرة ثم سجنهم . ـ وفيه أخبرنى ممن أثق به أنه رأى بأسوان شخصا أسود اللون ، وله عين واحدة فى جبهته ، وله أنف نابت فى جبهته تحت تلك العين ، وبين أنفه وفمه نحو من أربعة أصابع ، فكان من جملة العجائب . ـ وفيه ظهر بالقاهرة امرأة ولها ثلاثة أبزاز ، أحدهم تحت إبطها .

وفيه فى رابع مسرى كان وفاء النيل المبارك ، ونزل أزدمر تمساح وفتح السدّ على العادة ، وكان الوفاء فى عاشر شهر رمضان ؛ ومن النوادر أنه زاد فى اليوم الثالث من مسرى ثلاثة وثلاثين أصبعا فى دفعة واحدة . ـ وفيه توفى برهان الدين التتاى ، أخو شرف الدين الأنصارى ، وهو إبراهيم بن على بن سليمان التتاى الأنصارى المالكى ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم ، ومولده سنة عشرين وثمانمائة . ـ وفيه حضر هجان وأخبر أن العسكر على حصار قلعة كوارة ، ومات فى مدّة المحاصرة قانصوه من فارس المعروف بقرا ، وهو من مماليك السلطان وكان من العشرات ، ثم أخذت هذه القلعة فيما بعد وهدمت إلى الأرض .

وفى شوال كان الموكب السلطانى فى يوم عيد الفطر بالحوش على العادة التى استجدّها السلطان فى غيبة الأمراء ، ولم يحضر فى موكب العيد من الأمراء المقدّمين سوى الأمير أزدمر تمساح فقط ، وكان آقبردى الدوادار مسافرا إلى جهة البحيرة بسبب فساد العربان ، فجلس السلطان على الدكة وأخلع على المباشرين وأرباب الدولة ، وانفضّ الموكب سريعا .

وفيه تزايد شرّ العبيد حتى خرجوا فى ذلك (٣٦ ب) عن الحدّ ، وصاروا يقتلون بعضهم بعضا ، حتى أعيى الوالى أمرهم ، وصاروا طائفتين ، طائفة تعادى طائفة . ـ وفيه قرّر فى قضاء الشافعية بحلب شمس الدين محمد بن عثمان الزعيم ، عوضا عن عز الدين الحسناوى . ـ وفيه قرّر شمس الدين محمد بن أبى الفتح الكتبى فى مشيخة القبانيين ، ثم ولى بعد ذلك التحدّث فى مباشرة بندر جدّة .

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل سوق الحمير من عند باب الميدان إلى جهة

---

(٤) العجائب : الأعجايب . (٢١) الحسناوى : فى ف : الحسانى .

مدرسة قانى باى الجركسى ، واستمرّ على ذلك إلى الآن . ـ وفيه ابتدأ السلطان بعمارة المكان الذى قد أنشأه فى بركة الفيل برسم ولده المقر الناصرى ، وكان يظن أن ولده يسكن فيه بعده ، ويتمّ مقيما بمصر كمثل أولاد السلاطين ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . ـ وفيه أفرج السلطان عن علاى الدين الحنفى نقيب قاضى القضاة الشافعى ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى الترسيم مدّة طويلة ، وغرم جملة من المال.

وفيه رسم السلطان بإكحال عينى شخص يقال له على بن محمد المرجوشى ؛ فأكحل عينيه وقطع لسانه ، وكان والده من أعيان وجوه التجار بسوق الشرب ، وسبب ذلك أنه أوحى إلى السلطان بأنه يعرف صنعة الكيمياء ، فانصاغ له السلطان حتى أتلف عليه جملة مال ، ولم يفد من ذلك شىء ، وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسى أمير سلاح ، وأتلف على الآخر جملة مال ، ولم يفد من هذا شىء ، فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل . ـ وفيه خرج الأمير آقبردى الدوادار مسافرا إلى جهة نابلس ، وحصل منه غاية الضرر للناس ، منها أنه أخذ جمال السقايين لحمل سنيحه ، حتى عزّ وجود الماء بمصر ، وغلا سعر الراوية بسبب ذلك ، وضاق الأمر .

وفيه أخلع على الطواشى فيروز وقرر فى الزمامية ، عوضا عن الصاحب خُشقدم الزمام ، بحكم نفيه إلى قوص . ـ وفيه جاءت الأخبار بموت آقبردى ططر الظاهرى جقمق أحد العشرات ، وشاد الشون ، وكان لا بأس به . ـ وفيه جاءت الأخبار بأخذ قلعة كوارة من يد عسكر ابن عثمان ، فسرّ السلطان (٢٧ آ) لهذا ، ثم بعد مدّة ورد عليه الأخبار بأن العسكر تقلّق وهو طالب المجىء إلى مصر ، فتنكّد لهذا الخبر ، وأرسل عدّة مراسيم للأمراء بالإقامة فى حلب ، فما سمعوا له شيئا ، ثم جاءت الأخبار بأن الأتابكى أزبك قد دخل إلى الشام ، هو والأمراء والنواب والعسكر ، وهم قاصدون الدخول إلى القاهرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفى ذى الحجة تكاثر دخول العسكر إلى القاهرة من غير تستُّر ، وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة ، وصرّحوا بذلك ، ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى

(٤) أفرج : أخرج . (٥) شدائد ومحنا : شديدا ومحن . (٦) عينى : عينان .

قدم من التجريدة يصمد إلى القلعة ، فامتنع المماليك من ذلك ولم يصمدوا إلى القلعة.

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن الفرنج استولوا على مدينة غرناطة ، وهى دار ملك الأندلس ، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها ، وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة ، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج ، وقرروا للفرنج فى كل سنة شيئا من المال يردّونه لهم .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية محيى الدين بن تقى ، وهو عبد القادر بن أحمد ابن محمد بن أحمد بن على بن تقى الدميرى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية ، رئيسا حشما ، وناب فى الحكم مدّة ، وكان لا بأس به ، وأخذ العلم عن جماعة من الأقدمين كالبساطى ، والشيخ عُبادة ، والشيخ طاهر ، وغير ذلك من المشايخ .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ الصالح المعتقد سيدى أحمد بن عقبة اليمنى ، وكان من كبار أولياء الله تعالى ؛ وتوفى القاضى فتح الدين محمد السوهاجى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ؛ وتوفى زين الدين الطوخى الخالدى ، وكان من الفضلاء وله نظم جيّد ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس وتسعين وثمانمائة .

ثم دخلت سنة ست وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم ، فى يوم مستهلّه ، كان دخول الأتابكى أزبك ومن معه من الأمراء والعسكر ، فدخلوا إلى القاهرة فى موكب حافل ، وكان لهم يوم مشهود ، فلما طلعوا إلى القلعة أخلع السلطان على الأتابكى أزبك وبقية الأمراء ونزلوا إلى دورهم ، وهذه آخر تجاريد الأتابكى أزبك إلى البلاد الحلبية . ــ (٢٧ ب) وفيه قرر كرتباى ابن أخت السلطان فى شادية الشراب خاناه ، وقرّر مملوكه جان بلاط من يشبك فى تجارة المماليك . ــ وفيه أشيع بين الناس أن المماليك يقصدون إثارة فتنة ويرومون نفقة على جارى العادة ، فأقسم السلطان بالله العظيم لئن طلبوا منه نفقة يتوجّه تحت الليل إلى مكة ويقيم بها .

(٢٠) يقصدون : يقصدوا . || ويرومون : ويروموا .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية كان ، وهو إبراهيم بن عمر بن محمد بن موسى ابن مُجيل اللقانى المالكى الأزهرى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه ، دينا خيرا رئيسا حشما ، مات وهو منفصل عن القضاء ، وكان محمود السيرة فى أفعاله . ـ وفيه توفى الشيخ سنان الأرزنجانى الحنفى ، وهو يوسف بن موسى بن سعد الدين ، وكان قرّر فى مشيخة تربة الأمير يشبك الدوادار ، وكان من أعيان الحنفية ؛ وتوفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن السنتاوى ، شيخ خانقاة سعيد السعداء ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا لا بأس به ، وتوفى الشيخ حافظ العجمى المقُرِئ ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على أربعة من خاصكيته بأمريات عشرة منهم : بُرد بك من بير على الذى [صار] مقدّم ألف ، وخرج إلى مكة بعد كاينة آقبردى الدوادار ومات بها ، وأمّر أيضا قيت الرجبى ، الذى ولى الأتابكية فيما بعد ، وأمّر أيضا مصرباى ، الذى ولى الدوادارية الكبرى فيما بعد ، وأمّر أيضا كشبغا ، الذى ولى نيابة الإسكندرية ومات بها .

وفى صفر أنعم السلطان على جانم ، الذى كان نائب قلعة حلب ، بتقدمة ألف ، وقد تعيّنت له قبل أن يحضر إلى القاهرة ، فأقام جانم هذا فى التقدمة نحو سنة ومات بالطاعون فى السنة الآتية ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ـ وفيه قدم الشهابى أحمد بن فرفور من دمشق ، وأشيع بين الناس أنه جاء ليسعى فى كتابة السرّ ، فما وافق السلطان على ذلك ، فأقام فى مصر مدّة ثم عاد إلى دمشق . ـ وفيه جلس السلطان على تفرقة الجامكية ، فقطع فى ذلك اليوم جوامك جماعة من الجند ، نحو من ثمانين إنسانا من الشيوخ والعواجز والضعفاء ، فكثر عليه الدعاء من الناس فى ذلك اليوم بسبب ذلك .

وفى ربيع الأول أخلع السلطان على الشيخ (٢٨ آ) عبد الغنى بن تقى وقرّر فى قضاء المالكية ، عوضا عن أخيه محيى الدين بحكم وفاته . ـ وفيه رسم السلطان للأتابكى أزبك بأن يتوجّه إلى شبرمنت بنواحى الجيزية ، بسبب عمارة القناطر التى هناك ،

فأصرف عليها السلطان نحوا من خمسة آلاف دينار بسبب ترميمها ، فجاءت من أحسن المبانى ، وبنى هناك رصيفا به نفع للمسافرين فى أيام النيل ، وبنى هناك لنفسه منظرة وغيطا على بركة هناك ، فجاء ذلك غاية فى الحسن من أجلّ المتنزّهات ، وهو باق إلى الآن .

ومن الحوادث المهولة أن فى أثناء هذا الشهر توجّه السلطان إلى قبّة يشبك الدوادار ، التى هى فى رأس دور الحسينة ، فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة ، فحضر القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، والقاضى الحنفى ناصر الدين بن الإخميمى ، والقاضى المالكى عبد الغنى بن تقى ، والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى ، فلما تكامل المجلس شرع السلطان فى التكلم معهم ، فذكر لهم بأن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت إلى الخراب ، وأن التجار منعوا مما كان يجلب إلى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون منى نفقــة ، وإن لم أنفق عليهم شيئا فينهبون مصر والقاهرة ويحرقون البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان إلى البلاد الحلبية فما يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم ، ثم شرع يقسم بالله تعالى أن ليس بقى فى الخزائن من المال لا كثيرا ولا قليلا ، وأن القصد بأن أفرض على الأوقاف والأملاك التى بمصر والقاهرة ، من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين ومراكب وغير ذلك ، أجرة سنة كاملة ، أتمان بها على خروج التجريدة .

فسكت المجلس ساعة ، ثم قال القاضى الشافعى: لعل الله تعالى يكفيكم مؤنة ذلك ، وقال القاضى المالــكى : إن أجرة سنة كاملة يثقل على الناس ولا يطيقون ذلك ، وإن كان ولا بد من ذلك فليُفرض عليهم أجرة خمسة أشهر ، وقبل ذلك أفرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر ، وما يطيق الحال أكثر من ذلك ؛ فتوقّف السلطان ساعة ، ثم آل الأمر إلى ما قاله قاضى (٢٨ ب) القضاة المالــكى ، وانفضّ المجلس على ذلك ؛ فلما بلغ الناس ما وقع اضطربت الأحوال وكثر القيل والقال فى ذلك ،

(١٧) أتمان : كذا فى الأصل ، ويعنى أنه يستعين بها .

وأشيع بأن السلطان يفرض على الجماجم من ذكر وأنثى من كبير وصغير على كل رأس دينارين ذهب ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة .

ثم بعد أيام رسم السلطان لتغرى بردى الأستادار بأن يكون متكلما على جباية الأملاك ، من باب زويلة إلى دير الطين ، ورسم لعلاى الدين بن الصابونى ناظر الخاص بأن يكون متكلما فى جباية الأملاك ، من باب زويلة إلى خارج الحسينة ؛ فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجّهوا الرسل الغلاظ الشداد ، ولم يرعوا الوداد ، وطلبوا أعيان الناس ، وانقطع الرجاء باليأس ، وصار الإنسان يخرج من داره ، فيرى أربعة من الرسل فى استنظاره ، فيكون نهاره أغبر ، ويخرج وهو فى أذياله يتعثّر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد ، وقد قال بعض الوالة فى المعنى :

غرمت شهرين عن أجرة مكانى أمس وأصبحت منموس فى بحر المغارم غمس
أقسم وربّ الخلايق والقمر والشمس ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

وقد جرى فى هذه الواقعة أمور عجيبة وحكايات غريبة ، فمن ذلك ما قيل أن بعض الرسل توجّه إلى نحو الحسينة ، فأتى إلى امرأة ساكنة فى حوش ، ولم يجد عندها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك الرسول بأجرة الحوش التى هى ساكنة فيه ، فجاء عليها من الأجرة عشرين نصفا عن مدّة خمسة أشهر ، فلم تجد شيئا تعطيه للرسول ، فأغلظ عليها وخرج منه الحدّ ، فلما رأت منه ذلك كان عندها شجرة نبق فى الحوش ، فقالت له : اقطع هذه الشجرة وبعها وخذ ثمنها فى نظير ما جاء علىّ ، فأحضر بالقطاعين وقطع تلك السدرة وحملها ومضى ، وقد حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التى كانت تستظلّ تحتها فى أيام الصيف ؛ وكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث فى دولة الأشرف قايتباى ، وياليته أصرف هذا المال فى شىء عاد نفعه على الناس ، ولكن أصرفه فى غير مستحقه ، (٢٩ آ) وضاع فى البطال ولم ينتفع به ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

---

(٩) فيقدحون : فيقدحوا .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . ـ وفيه كانت مصادرة السلطان لمهتاره رمضان ، فضيّق عليه حتى أخذ منه ستين ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك ، وكان رمضان المهتار متحصله فى كل يوم فوق الأربعين دينارا ، خارجا عن جهاته وحماياته وغير ذلك ، وكان متحدّثا فى نظر الكسوة وغير ذلك من الجهات السلطانية ، ورأى من العزّ والعظمة ما لا رآه غيره من المهاترة السلطانية .

وفى ربيع الآخر ثارت المماليك الجلبان على السلطان وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم ، فلما رأى منهم عين الجدّ نفق عليهم على العادة ، كما تقدم شرح ذلك . ـ وفيه عيّن السلطان قرقماس أحد الأمير آخورية بأن يتوجّه إلى دمشق ، بسبب جباية أملاك دمشق عن الخمسة أشهر كما وقع بمصر ، وعيّن قاصدا أيضا إلى ثغر الإسكندرية بمعنى ذلك ، وإلى ثغر دمياط ؛ وكانت هذه المصيبة عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف البيمارستان خمسة أشهر ، وانقطع معلوم الأيتام والضعفاء فى رواتبهم عن مدّة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والتُّرب ، وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية ؛ فلما توجّه قرقماس المذكور إلى دمشق أظهر بها من المظالم أشياء كثيرة ، ما لم يفعلها هناد فى زمانه ، وقرقماس هذا هو الذى ولى نيابة حلب فيما بعد ، وقبض عليه طومان باى الدوادار لما خرج إلى الشام ، بسبب عصيان قصروه نائب الشام ، فسجن قرقماس هذا بقلعة دمشق ، ثم عاد إلى مصر ، وهو متولّى الأتابكية الآن .

وفى جمادى الأولى أخلع على تانى بك الجمالى وقرّر فى أمرة مجلس ، عوضا عن برسباى قرا المحمدى بحكم وفاته فى حلب ، وكانت أمرة مجلس شاغرة مدة طويلة ، وكان تانى بك الجمالى متكلما فيها بغير تقرير . ـ وفيه انتهت عمارة أبو البقا بن الجيعان من تجديد ما عمّره فى الزاوية الحمراء التى عند قناطر الأوز ، وصارت من جملة (٢٩ ب) مفترجات القاهرة ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

---

(١٩) برسباى ... فى : كذا فى ف ، وفى الأصل : أزدمر قريب السلطان بحكم انتقاله إلى نيابة . وانظر فى ذلك هنا فيما سبق ص ٢٤٩ س ٤ـ٥ وص٢٦٥ س٤ـ٥ .

عجبت لجامع قد زاد حسنا وأبدع فى التزخرف والبناء
به أنهار تجرى فى جنان وقصر شاهق لأبى البقاء

وصنع هناك جامعا بخطبة ، وجاء من أحسن المبانى . ــ وفيه انفصل على باى عن نيابة ثغر الإسكندرية وأتى إلى مصر معزولا . ــ وفيه قدم آقبردى الدوادار وكان مسافرا إلى جهة نابلس ، فأهلك الحرث والنسل فى هذه السفرة ، وحضر صحبته أركماس من ولى الدين دوادار السلطان بدمشق ، وقد كثرت فيه الشكاوى فاستجار بالأمير آقبردى وحضر صحبته .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الكرك بأن ظهر بها فى قبيلة بنى لام صفة رجل من بنى آدم ، غير أن ذقنه قدر غربال القمح ، وكان يأكل اللحم النىّ بعظمه ، ويأكل الجيف من على الكيمان ، وربما افترس من بنى آدم جماعة ، وكان يفترس البقر والغنم ، فكانوا يخرجون إليه جماعة من بنى لام ويرمونه بالنشاب ، فلا يؤثر ذلك فيه ولو ضربوه بالسيوف ، وكان إذا صرخ تسقط منه الحوامل ، فلما قوى تسليطه على ذلك المكان رحلوا عنه بنو لام وتركوه له ، وقد أعيى الناس أمره ، وهذه الواقعة مشهورة بين الناس ، وقد وصل مطالعة إلى السلطان بمعنى ذلك .

وفيه أرسل السلطان مراسيم إلى نائب الشام ، بأن يجمع أعيان التجار بهاوسائر الناس ، ويفرض عليهم الأموال الجزيلة على كل واحدعلى قدر مقامه مساعدة للسلطان على خروج التجريدة كما فعل بمصر ، وكتب بمعنى ذلك المراسيم إلى الإسكندرية ودمياط ، وأشيع بين الناس أن السلطان يخرج فى هذه المرة بنفسه ، وقد قويت الإشاعات بذلك .

وفى جمادى الآخرة وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفةبعد المغرب ، وماجت منها الأرض ثم سكنت . ــ وفيه حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ابن عثمان صحبة ماماى الخاصكى ، الذى توجّه قبل تاريخه إلى عند ابن عثمان ، وكان هذا القاصد الذى حضر

---

(٢١) من عند : كذا فى ف ، وفى الأصل : بالأمس إلى .
(٢١ــ٢٢) صحبة . . . عثمان : نقلا عن ف ، وهوينقص فى الأصل .

من أجلّ قضاة ابن عثمان ، وكان متولّى قضاء البرصا ، وهو شخص من أهل العلم ، يقال له شيخ على جلبى ، فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وبالغ فى تعظيمه جدا، فأحضر على يده (٣٠ آ) مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استولى عليها ، فسلّمها إلى السلطان ، وأشيع أمر الصلح بين ابن عثمان والسلطان ، فنزل القاصد فى مكان عُدّ له وهو فى غاية الإكرام ؛ ثم إن السلطان أطلق إسكندر بن ميخال ، الذى كان أُسر كما تقدم وأقام فى السجن مدة طويلة ، فلما أطلقه السلطان أحسن إليه وأكساه، وكذلك أطلق الأسراء الذين أُسروا من عسكر ابن عثمان ، وأكساهم وأحسن إليهم، وتوجّهوا إلى بلادهم صحبة القاصد لما سافر ، وهذا ما كان من ملخص أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان .

وفيه أمر السلطان بضرب أبا يزيد الصغير أحد البجمقدارية ، وكان من خواصه، ولكن ضربه لأمر أوجب ذلك ، وأبا يزيد هذا هو الذى صيّر رأس نوبة ثانيا فيما بعد ، وقبض عليه العادل طومان باى وسجنه بقلعة دمشق ، لما توجّه إلى هناك وتسلطن . ـ وفيه كسفت الشمس كسوفا تامّا ، ودامت فى الكسوف نحوا من ثلاثين درجة ، وعادت الزلزلة التى وقعت بالأمس وكانت خفيفة جدا .

وفى رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وحضر قاصد ابن عثمان ، فعرض السلطان فى ذلك اليوم كسوة الكعبة ومقام إبراهيم عليه السلام ، وزفّ معهما المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . ـ وفيه توفى بركات الصالحى وكيل بيت المال ، وكان من أعيان الموقّعين ، وهو أبو البركات محمد بن محمد بن أبى بكر القاهرى الشافعى الصالحى ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله ، كثير الظلم والعسف ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة ، وكان اعتراه آكلة فى رجله ، فاستمرّ بها إلى أن مات ، وفيه يقول بعض الشعراء مداعبة لطيفة :

بركات زاد الظلم فى أيامه　　　وعلى الورى قد جار فى توكله
من رجله كان الهلاك بماهة　　　فمشى إلى نار الجحيم برجله

(٧) الأسراء : كذا فى الأصل . || الذين : الذى .

وهو الذى كان سببا لمرافعة جماعة قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، واستمرّ الشيخ برهان الدين القلقشندى فى التوكيل به حتى مات بركات الصالحى ، فأفرج عنه بعد أن غرم أموالا لها صورة . ـ وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى أنشأه فى الروضة ، وجاء غاية فى الحسن ، (٣٠ ب) وصنع هناك ابن الطولونى ناعورة تدور بحمار ، فكانت الناس تتوجّه للفرجة عليها ، وكان البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ، ويسمّونها البدرية ، وينصب على شاطئ البحر قدّام الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب هناك حتى تسدّ البحر ، ويجتمع الجمّ الخفير من العالم ، ويوقد بالجامع وقدة حافلة ، ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، واستمرّ الحال على ذلك مدّة ، ثم بطل من يومئذ هذا الأمر .

وفيه أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين السيوطى ، أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل برّ الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية ، وأما من نسب بأن ذلك يجوز فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فباطل من نقل ذلك عن الإمام الشافعى ، وهذا كلام ليس له صحة فى كتب الشافعية قاطبة . ـ وفيه خرج جان بلاط من يشبك قاصدا عن السلطان إلى ابن عثمان ، فخرج فى تجمّل زائد وموكب حافل ؛ وجان بلاط هذا هو الذى ولى السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

وفى شعبان قرّر كرتباى من مصطفى المعروف [بالأحمر] ، وهو الذى كان كاشف البحيرة ، فى حجوبية الحجاب بطرابلس ، ونظر جيشها ، وغير ذلك من الوظائف بها . ـ وفيه ظهرت أعجوبة وهو أن ولد مولود فى ستة أشهر ، فلما نظروا إليه فرأوا له فى وجهه لحية ، وعلى فمه شارب ، وقد دارت لحيته بوجهه ، وفى فمه ثنايا مفلجة ، وكان عليه بشاعة ، فعاش ثلاثة أيام ومات .

---

(١٢) الإجماع : الاجتماع . (١٧) بعشر : بعشرين .
(١٨) ما بين القوسين ينقص فى الأصل .

وفى رمضان أخلع على يشبك من حيدر ، الذى كان والى القاهرة وقرّر فى نيابة حماة ، عوضا عن أينال الخسيف ، وقرّر أينال الخسيف فى تقدمة ألف بمصر فيما بعد . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على أزدمر المسرطن أحد المقدّمين الألوف بمصر ، فقرّره فى نيابة صفد ، عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته عنها ، وكان أزدمر المسرطن من خواص السلطان ، وكان عنده من المقرّبين ، وكان أغات آقبردى الدوادار ، ثم وقع (٣١ آ) بينه وبين السلطان فى الباطن ، فمقته وولاه نيابة صفد ، واستمرّ بها حتى مات . ــ وفى أواخر هذه السنة وقع الرخاء بالديار المصرية فى سائر البضائع ، حتى أبيع كل ثلاثة أرادب قمح بأشرفى ، ورخص سائر الغلال جدا .

وفى شوال فى ليلة عيد الفطر [كان] وفاء النيـل المبارك ، فأخّر السلطان فتح السدّ فى ذلك اليوم ، وفتح فى اليوم الثانى من شوال ، ووافق ذلك خامس عشر مسرى القبطى ، فصار العيد عيدان ، فعدّ ذلك من النوادر ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين السيوطى وهو قوله :

يوم عيـد الفطر وافا　　بهنـــاء وسماده
ختم الصـوم وأوفا　　النيل فى أحسن عاده
يا له من يوم عيد　　فيـه حسنى وزياده

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير أزدمر تمساح .

وفى ذى القعدة توفى تقىّ الدين بن نصر الله ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت ، وكان لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقوع فتنة كبيرة بين نائب حلب وبين جماعة من أهل حلب ، وقتل فى المعركة من مماليك أزدمر نائب حلب سبعة عشر مملوكا ، وقتل من أهل حلب نحوا من خمسين إنسانا ، وأحرقوا جماعة من حاشية النائب بالنار ، وكادت حلب أن تخرب عن آخرها ، ولولا قانصوه الغورى حاجب الحجاب بحلب ، قام فى تخميد هذه الفتنة حتى سكنت ، ما كان يحصل خيرا فى هذه

(٩) ما بين القوسين ينقص فى الأصل .

(١٦) وفيه . . . تمساح : هذه العباره نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل .

الحركة ، فلما سمع السلطان بهذا الخبر انزعج له جدا ، وعيّن ماماى الخاصكى بأن يتوجه إلى حلب ليكشف عن أصل هذه الفتنة ، فأخذ فى أسباب السفر إلى حلب .

وفى ذى الحجة كان ابتداء الفتنة بين قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وبين آقبردى الدوادار ، وقد وقع بينهما بسبب توتى ، واستمرّت الفتن تتزايد بينهما حتى كان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه . ــ وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة كبيرة بين ملوك الشرق ، وأن يعقوب بن حسن الطويل قد قتل أخاه ، ووقع أيضا فتنة بين خليل الصوفى وسليمان ماجان ، واستمرّت الفتن قائمة هناك فى جهات متعدّدة ؛ ووقع أيضا فتنة فى طرابلس المغرب وقتل شاشى بن (٣١ ب) أبى النصر بن رجاء الخير قائد طرابلس ، وكان من خيار أعيان بلاد المغرب ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم كان دخول الحاج إلى القاهرة ، وحجّت فى تلك السنة زوجة آقبردى الدوادار ، وهى ابنة العلاى على بن خاص بك ، أخت خوند زوجة السلطان وكان طريق الحجاز فى تلك السنة مخوفا بسبب فساد العربان . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على مجد الدين إسماعيل الناصرى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، فلما حضر بطحه السلطان وضربه بين يديه ضربا مبرحا ، وقيل بل ضربه بالمقارع نحوا من عشرين شيبا .

وفى صفر توفى نور الدين على بن محمد بن عبد المؤمن البتنونى الشافعى ، ناظر الجوالى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . ــ وتوفى يشبك جنب من ططخ الظاهرى جقمق ، أحد الأمراء الطبلخانات والرأس نوبة الثانى ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، وكان حافلا . ــ وفيه

(٤) بسبب توتى : كذا فى الأصل . وفى ف « بسبب نونى » .
(٨) شاشى : كذا فى الأصل ، وفى ف : شاسى .

قُرِّر الناصرى محمد بن جرباش فى مشيخة المدرسة الظاهرية ، التى بين القصرين. ـ وفيه توفى تاج الدين بن الجيعان وهو عبد اللطيف ابن عبد الغنى بن علم الدين شاكر، وكان متحدِّثا فى كتابة الخزانة، وكان شابا حسنا محمود السيرة فى أفعاله ، ومات وهو فى عشر الثلاثين . ـ وتوفى أبو يزيد قصقا الظاهرى جقمق، وكان من الأمراء العشرات .

وفى ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون ، حتى حكى أن شخصا من الأتراك رأى فى منامه ملك الموت ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت جئت إلى قبض أرواح الكثير من الناس ، فإن الطاعون قد دخل مصر ؛ فقال له ذلك الجندى : هل تقبض روحى فى هذا الوباء ؟ فقال له : قد بقى من عمرك سبعة أيام ؛ فانتبه الجندى من المنام وهو مرعوب ، فلما أصبح كتب وصيّة ، ثم إنه فى اليوم السابع مات كما قيل له ، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن مملكة حسن بك الطويل فى اضطراب ، وأن ابن عثمان أشرف على أخذ بلاد الطويل من يد أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة حسين بن أغرلو (٣٢ آ) بن حسن الطويل ، الذى كان مقيما بالقاهرة ، ثم آل الأمر إلى إهمال خروج التجريدة ، ومات حسين فيما بعد لما حجّ ، ودفن بالمدينة الشريفة .

وفى جمادى الأولى قويت الإشاعات بوقوع الطاعون ، وزعموا أن إنسانا رأى النبى صلّى الله عليه وسلم فى المنام ، وقال له : إن الطاعون كان واقعا عليكم فشفعت فيكم عند ربى ، فقُلْ للناس يصوموا سبعة أيام متوالية ؛ فصام الكثير من الناس سبعة أيام متوالية ، فلم يفد من ذلك شىء ووقع بالديار المصرية ، وكان طاعونا مهولا ؛ قلت ولم يقع الطاعون بمصر من سنة إحدى وثمانين وثمانمائة إلا فى هذه السنة ، وهى سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، وقد تأخّر الطاعون عن ميجاله ستة عشر سنة لم يدخل

(١) القصرين : القصر بين . (٢١) ميجاله : كذا فى الأصل ، ولعله يعنى « موعده » . وسوف نصادف هذه الكلمة مرة أخرى فيما يلى هنا من المتن ، فى أخبار شهر ذى الحجة سنة ٩٠٢ .

مصر ، وكان هذا الطاعون من الطواعين المشهورة بموجب إبطائه هذه المدة ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى .

وكان مبدأ هذا الطاعون من حلب ، وكان فى مدّة انقطاع الطاعون عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الرباء وجور المماليك فى حق الناس ؛ وقد روى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أُخذوا بالفناء ؛ قال العلامة شهاب الدين ابن حجر : والحكمة فى ذلك أن الزنا حدّه إزهاق الروح فى المحصن ، فإذا لم يقم فيه الحدّ فيسلّط الله تعالى عليهم الجنّ يقتلونهم ، ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرّا فسلّط عليهم الجن يقتلونهم سرّا من حيث لا يرونهم ، وقاعدة العذاب أنه إذا نزل يعمّ المستحقّ له وغيره ، والرحمة لا تكون إلا مخصوصة ، ثم يبعثون يوم القيامة على قدر نيّاتهم ؛ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إذا بخس المكيال حبس القطر ، وإذا كثر الزنا وقع الطاعون ، وإذا كثر الكذب وقع الهرج ، انتهى ذلك .

وفى جمادى الآخرة هجم الطاعون بالقاهرة وفشى جملة واحدة ، وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، وكان قوّة عمله فى المماليك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء ؛ ووقع فى هذا الطاعون أمور غريبة وحكايات عجيبة ، منها أن الكمثرى أبيع كل رطل (٣٢ ب) بأشرفيين ولا يوجد ، وأبيعت الكمثراية الواحدة باثنى عشر نصفا ؛ ومنها أن إنسانا كان معه خمسة أولاد ، فطُعنوا الخمسة فى يوم واحد ، وماتوا الخمسة فى يوم واحد ؛ ومن العجائب أن جماعة كثيرة فرّوا من الطاعون لما دخل إلى مصر ، فتوجّهوا إلى أماكن عديدة ، فلما ارتفع الطاعون عادوا إلى مصر ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد ، فسبحان القادر على كل شىء ، ولما كثر الموت عزّ وجود البعلبكى ، وأضرّ ذلك بحال الناس ، وكفّنوا موتاهم فى الخام والملحم وغير ذلك .

وفيه توفى برسباى الخازندار أحد خواص السلطان ، المتكلم على أوقافه ، وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به . ـ وتوفى مغلباى الشريفى الطويل أحد مقدمين الألوف ،

---

(٢) الذى : التى . (٢٣) مقدمين : كذا فى الأصل .

وأصله من مماليك الأشرف قايتباى . ـ وتوفى جانم من مصطفى ، الذى كان نائب قلمة حلب ، ثم بقى مقدّم ألف بمصر . ـ وتوفى قيت الساقى ، أحد العشرات ووالى القاهرة ، وهو قايت من آقباى ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى مغلباى الأشرفى أحد الأمراء العشرات ؛ وأصله من مماليك السلطان أيضا . ـ وتوفيت ابنة الأتابكى أزبك ، وهى زوجة الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وكانت شابة جميلة ، وتوفيت أختها بعدها بأيام قلائل ، وكانت بكرا . ـ وتوفى نانق المؤيدى أحد العشرات ، وكان شابا حسن الهيئة لا بأس به . ـ وتوفى خاير بك غمغم الأينالى أحد العشرات ، وكان لا بأس به .

وفى رجب توفيت ابنة السلطان قايتباى ، وكانت تسمّى ستّ الجراكسة ، وكانت شابة جميلة مستحقّة للزواج ، وكانت من سريّة ، فماتت هى وأمّها فى يوم واحد ، وأخرجت قدّام نعش ابنتها ، وكانت جنازة ابنة السلطان حافلة ، وأخرجت فى بشخانة زركش وقدّامها كفارة . ـ ثم حضر جانم المعروف بالمصبغة من الشام ، فلما حضر إلى مصر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر ، وأنعم على قرابته كرتباى بتقدمة ألف ، وكان يوما مشهودا .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط من يشبك بتقدمة ألف وبعث إليه بالكُتب ، وجان بلاط هذا هو الذى ولى السلطنة فيما بعد ، وأنعم أيضا على مملوكه (٣٣ آ) شاد بك أخوخ الدوادار الثانى بتقدمة ألف أيضا ، وقرر ماماى الخاصكى فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن شاد بك أخوخ بحكم انتقاله إلى التقدمة ، وقرر قيت الرجبى فى ولاية القاهرة ، عوضا عن قيت الساقى ، بحكم وفاته بالطاعون كما تقدم . ـ وفى هذا الشهر كانت وفاة الشاب الفاضل على باى بن برقوق نائب الشام ، وكان شابا رئيسا حشما ، ديّنا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان له نظم جيّد ، ومولده سنة ست وستين وثمانمائة ، ومن شعره الرقيق ، وهو قوله :

عود خيار شنبر قد جاءنا بالعجب أزهاره أبدت لنا شمارخا من ذهب

ومما مدحه به الشهاب المنصورى ، وهو قوله فيه :

محيا على باى بن برقوق مشرق كبدر سنىّ ليس بينهما فرق
فإن يك سباقا إلى الفضل والندا فلا تعجبوا منه فوالده برق وق

ومن النكت اللطيفة قيل وقع بين الشهاب أحمد بن الشيخ على المقرى ، وبين سيدى على باى هذا بعض وحشة ، فسطّع على سيدى على باى وسمّاه زلابية مضافا إلى اسم شخص كان من الأتراك ، وهو مضحك يعبث عليه الناس ويقولون له زلابية فيرجمهم ، فلما أشيع ذلك بين الناس أخذ بعض شعراء العصر هذا المعنى وعمل فى ذلك مداعبة لطيفة ، وقال :

قد شبّهوه لمن يدعى زلابية وصحّ تشبيههم والأب برقوق
لكنهم فاتهم للوزّ نسبته فإن اسم أبيه نصفه قوق

وفيه توفى جكم كاشف منوف ، وشاد بك كاشف قليوب ، ومن الخشقدمية جماعة كثيرة ، منهم قان بردى الظريف ، وكسباى المحمدى ، وآقباى الطويل ، وقانصوه قر ، وأينال الأشقر ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليك السلطان والأمراء ، ومات من العبيد والجوار والأطفال والغرباء ما لا يحصى عددهم .

وفى أواخر هذا الشهر تناقص أمر الطاعون وخفّ بالنسبة لما كان عليه ، بعد ما جرف الناس جرفا وأخلا الدور من أهلها ، قيل أحصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ، وورد اسمه لديوان (٣٣ ب) المواريث ، خارجا عن الطرحاء ومن لم يرد اسمه إلى الديوان ، فكانوا نحوا من مائتين ألف إنسان وزيادة ، فمن ذلك بنات بكر اثنى عشر ألف بنت من مصر والقاهرة والضواحى ، وقد قال القائل فى المعنى .

زالت محاسن مصر فى عيناى من همّ ودَهْش
وكادوا بنو نعش بها أن يلحقوا ببنات نعش

وقال الشيخ بدر الدين بن الزيتونى هذا الزجل يرثى به أهل مصر لما وقع بها الطاعون ، وهو قوله :

---

(٥) يعبث : يعبثوا . (١٧) مائتين : كذا فى الأصل .

وَحِّدوا من قد حكم بالموت   ونفــذ حكمه بمـا يختـار
واحتجب عن العيون سبحان   جلّ من لا تدركه الأبصار

بالمهات ربّ البشر لمـــا   قد حكم فى الـكائنات بأجمع
اختفوا فى ذا الوجود وأضحوا   ما لهم من ذا القضا مدفع
جاء أخـذ ملاح وقد كانوا   شبه أقمـار أو بدور طلع
فاندبوا يا أهـل الحما وابكوا   واجعلوا دمع العيـون مدرار
واحزنوا على الذى ماتوا   واختفوا عن أعين النظـار

كنت أجد أقمار بدور طلع   وشموس تشرق على الأطلال
حسنهم سما وقد كانوا   فى هنا بالجاه وكثر المـال
جا المهات سرعة وعاندهم   اختفوا حين عاينوا الأهوال
وبقوا تحت الثرى غيـاب   بعـد ما كانوا يضوا أجهار
يا أسف قلبى وطول حزنى   عنى قد غابت شموس وأقمار

حين أتى كاس المهات للناس   وبقى ما بينهم داير
وسقاهم فى المقـــام شربه   حتى صار فى سرّهم ساير
أصبحوا فى حضرتو غياب   بعد ما كان كل أحد حاضر
سكروا فى حضرة الساقى   لمـا كاس الموت عليهم دار
وبقوا ندمان وقد غابوا   من شراب ما هو خمر خمّار

ركب الطاعون وقد طلب   وحمل فى عسـكر الأطفال
كم جرح قلوب وكم أفنـا   من جموع لمـا عليهم جال
كم ترك مطمون بقى مطروح   كم كسر شجعان وكم أبطال

(١٨) ركب : وكب .

والقضا فرّق جموع النـاس … كَنّ كان فى إيد القضا بتّار
كم رأيت مقتول بذى الوقعه … بعد كسرو ما يجد إجبـار

كم رأيت ملسوع بسمّ الموت … قد لسع ولا يجـد درياق
(٣٤ آ) كم رأيت مصاب من أفعالو … جت إليـه آفة بَلَا تنساق
كم رأيت ثـكله وهى حيّا … شعرها ناشر من الأشـواق
كم رأيت شجاع بقى ملقا … بعد ما كان فى الوجود سيّار
كم رأيت دار جاها دبيب الموت … ما ترك فيهـا ولا ديّار

يا فهيم انظر لذى الدنيـا … كيف بقت يحكى لنا بستان
والبشر قد أصبحوا فيهـا … كَنهم أثمـار على الأغصان
ومليـك الموت بأمر الله … قد بقى فيهـا شبيه جنّان
كلما انتهى إلى واحـد … وبلغ حـدّوا إلى القـدار
جا إليـه بأمر الذى انشا … قطعو من بين ذى الأثمـار

نسألك يا ربّ يا رحمن … يا مليـك أوّل ويا آخـر
يا لطيف بالخلق يا حافظ … يا علـيم بالذنب يا غافر
يا بصير يا فرد يا واحـد … يا سميع يا حقّ يا قادر
ارفع الطاعون بجـاه أحمد … الممجّـد صاحب الأنوار
وانزل الرحمـه ومتّعنـا … بالرضـا والعفـو يا ستّار

وانا المـوفى ولى أزجال … من نظام تحكى عقود جوهر
كلما كرّرتها تحـلو … ما أحسن السكّر إذا انـكرّر
فاسمعوا لى ما أقول واصغوا … يا جميـع من حلّ ذا المحضر
وحّدوا من قد حكم بالموت … ونفذ حكمه بمـا يختار

واحتجب عن العيون سبحان جلّ من لا تدركه الأبصار

انتهى ذلك .

وفى شعبان ارتفع الطاعون عن مصر والقاهرة جملة واحدة ، ومشى نحو بلاد الصعيد . ـ وفى هذا الشهر توفى الشيخ شمس الدين الحمصانى ، محمد بن أبى بكر بن محمد القاهرى الشافعى ، الكاتب المجيد ، وكان عالما فاضلا عارفا بالقراآت السبع ، وكان إمام جامع ابن طولون ، وكان دينا خيرا لا بأس به ، ومولده سنة عشرة وثمانمائة . ـ وفيه توفى الشيخ محمد العجمى ، الذى كان مقيما بجامع كراى ، وكان من أولياء الله تعالى معتقدا بالصلاح . ـ وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفنش صاحب قشتيلية الفرنجى قد ملك غرناطة ، التى هى دار مملكة الأندلس ، وكانت هذه الواقعة من (٣٤ ب) أعظم الوقائع المهولة فى الإسلام .

وفى رمضان قرّر ناصر الدين محمد الصفدى فى وكالة بيت المال ، وحصل منه الظلم والعسف فى الناس . ـ وفيه ثارت فتنة كبيرة بين المماليك الجلبان ، بسبب تفرقة الأقاطيع التى توفّرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون ، فشرع السلطان يفرّق الثالات على المماليك باستدعاء اسم كل مملوك مثل الجامكية ، وأخرج عدّة أقاطيع من الذخيرة ، وفرّقها على المماليك حتى أرضاهم بكل ما أمكن ، فكان معظم كل إقطاع نحو خمسة وعشرين ألف درهم ، ومنهم دون ذلك ، وقد تحيّر السلطان فى رضا المماليك بسبب ذلك .

وفى شوال خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى أمير مجلس ، وبالأول كرتباى قريب السلطان . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على الصاحب قاسم ، فعزله ، وكان يومئذ ناظر الدولة ؛ فلما صرف عنها قرّر بها عبد القادر الطويل ، عوضا عن قاسم شغيتة .

وفى ذى القعدة أمر السلطان بتجديد عمارة الميدان الناصرى ، وكان الأتابكى

---

(١٣) الذين : الذى .

(٢٢) وفى ذى القعدة : أضيف هنا فى ف ما يأتى : وفى ذى القعدة ابتدأ السلطان بتفرقة =

أزبك شادا على العمارة حتى انتهى منه العمل . ـ وفيه كان وفاء النيل ، ونزل الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة . ـ وفيه اختفى تغرى بردى الأستادار ، وقد
٣ تغيّر خاطر السلطان عليه ، فلما طال اختفاؤه أخلع السلطان على الأمير آقبردى الدوادار ، وقرّر فى الأستادارية ، عوضا عن تغرى بردى ، مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى .

٦ وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من مكة بوفاة الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، وكان من مشاهير التجار ، فى سعة من المال ، وله برّ ومعروف ، وهو صاحب المدرسة التى ببولاق عند الرصيف ، وكان دينا خيرا لا بأس به . ـ وتوفى شيخ
٩ جبل نابلس ، يونس بن إسماعيل . ـ وتوفى يوسف بن برد بك العجمى ، وكان شابا حسنا لا بأس به . ـ وتوفى على بن الجحجمة ، الذى كان مقيما بمصر ، وتختّن مع ابن السلطان ، انتهى ذلك .

= الأقاطيع المقررة ، المتوفرة عن من مات بالطاعون فى السنة المذكورة ، فصار يفرق إقطاع كل من توفى من الطباق لأهل طبقته ، ولا يخرج من ذلك شيئا لغير أهل طبقته ، وكانت أغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتواصون مع بعضهم بالنوبة ، ويحضرون ويعرضون ذلك على السلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من تكون طبقته فيها إقطاعات كثيرة متوفرة ، ومنهم من يكون فيها شئ قليل ، فتأخر من المماليك الجلبان جماعة من غير إقطاع ، وذلك إلى آخر خروج المماليك فى السنة المذكورة سنة سبع ، فأعرضهم السلطان فيما بعد ، وأخرج لهم أقاطيع كانت متوفرة فى الذخيرة ، ففرقها على المماليك الذين لم يخصهم شىء من الإقطاعات المتوفرة من الطاعون ، وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم والسلطان يعطيهم ويكتب ، إلى حين لم يبق من جلبان قايتباى أحد بلا إقطاع إلا الذى استجد من بعد الفصل ، وكان غاية الإقطاعات التى تفرقت أكثرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم ، والإقطاعات التى توفرت من جماعة المماليك الأينالية ففرقها على خشداشينهم الأينالية فوق إقطاعاتهم ، والتى توفرت من الخشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية ، وأعطى لبعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ، ممن كان منزولا بالديوان وهو بالطبقة ، إقطاعات خفيفة ، واستمرت تفرقة الإقطاعات مدة ثلاثة أشهر .

(٥) الكبرى : أضيف هنا فى ف ما يأتى: وفيه فرق السلطان على جميع العسكر من القرانصة والجلبان ، وأعطى لكل واحد منهم فرسا من موجود الذين ماتوا بالطاعون ، وذلك لأجل كثرة الخيول وقلة الغلمان لخدمتها .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم لم يحضر مبشّر الحاج، وصارت الناس فى قلق بسبب ذلك، وكان مبشّر الحاج فى تلك السنة أحد مماليك السلطان، (٣٥ آ) وهو شخص يقال له تانى بك الأبح، فاعترض له بعض العربان فى أثناء الطريق، وأعاقوه عندهم أياما. — وفيه توفى برهان الدين النعمانى المحدث، وكان إنسانا حسنا لا بأس به. — وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط، بأن نزل بها بَرَد تحت الليل، فكان قدر كل بَرَدة مثل بيضة النعام، ونزل بها بَرَدة كبيرة، فكان زنتها خمسة وسبعون رطلا بالمصرى، فقُتل بسبب ذلك عدة بهايم وطيور وغير ذلك، وكان أمرا مهولا.

وفى صفر خرج الأمير آقبردى الدوادار إلى جهة نابلس، وخرجت أيضا تجريدة إلى جهة البحيرة، وكان الباش عليها الأمير أزبك [اليوسفى رأس] نوبة النوب، وعدّة وافرة من الأمراء العشرات والجند. — وفيه عاد الطاعون إلى القاهرة ثانيا، لكنه كان خفيفا بالنسبة لما كان قبل ذلك، ومات به جماعة من الأطفال وغيرهم، ممن كان فرّ قبل دخول الطاعون من القاهرة. — وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانى باى قرا الرماح بأمرة عشرة، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة قرّره فى نيابة صهيون، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة، وقانى باى قرا هذا هو الذى بقى أمير آخور كبير فيما بعد.

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على مملوكه كسباى الشريفى المحتسب بأمرة عشرة. — وفيه عمل السلطان المولد النبوى، وكان حافلا على العادة، وحضر القضاة الأربعة.

وفى ربيع الآخر عيّن قانصوه خمسمائة، أمير آخور كبير، فى أمرة الحاج بركب المحمل، وعيّن الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بالركب الأول. — وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة، بأن فى ليلة تاسع عشر صفر سقطت صاعقة عظيمة فى المسجد الشريف، فأحرقت منه جانبا كما قد جرى فى سنة ست وثمانين وثمانمائة،

---

(١٠) ما بين القوسين نقلا عن ف.

وسقطت فى تلك الليلة عدّة صواعق خارج المدينة الشريفة ؛ فلما بلغ السلطان ذلك أمر بإصلاح ما قد فسد من أمر المسجد الشريف .

وفى جمادى الأولى توفى بركات بن الظريف المقرىء ، وكان علامة فى القراءات مع الجوق . ـ وتوفى الناصرى محمد بن الأمير بُرد بك ، وهو سبط الأشرف أينال ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكان (٣٥ ب) مُفرطا فى السمن جدا ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى الخواجا عمران بن غازى ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الآخرة خسف جرم القمر جميعه . ـ وفيه توفى الشهابى أحمد بن برقوق نائب الشام ، وهو أخو سيدى على باى المقدّم ذكر وفاته ، فكان بينه وبين أخيه دون السنة ، وكان شابا حسنا جميل الهيئة لم يلتح بعد .

وفى رجب ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ، ووقفوا بالرملة ومنعوا الأمراء من الطلوع إلى القلعة ، وآل الأمر إلى طلب نفقة من السلطان ، فمشى بعض الأمراء بينهم وبين السلطان فى ذلك ، فأوعدهم بالنفقة بعد مضى شهر ، فسكن الحال قليلا ، ولكن استمرّت الدكاكين مغلوقة وكذلك الأسواق ، والناس يرتقبون وقوع فتنة كبيرة حتى نودى لهم بعد أيام بالأمان والاطمان . ـ وفيه وصل قاصد من عند رستم بن قرا يُلك صاحب العراقين ، وكان ولى مُلك العراقين بعد أمور يطول شرحها . ـ وفيه توفى القاضى نور الدين على بن قاسم أحد نواب الحكم المالكى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما لا بأس به . ـ وتوفى صندل الحبشى نائب المقدم . ـ وتوفى برسباى أمير خازندار ، وكان قد طعن فى السنّ .

وفى شعبان توفى شاد بك الأشقر المحمدى الظاهرى جقمق ، أحد العشرات ونائب ثغر دمياط وشاد الحجر ، وكان لا بأس به . ـ وفيه عيّن السلطان قانصوه المحمدى المعروف بالبُرجى أحد العشرات ، بأن يتوجّه قاصدا عن السلطان إلى ملك

(٣ ـ ٤) فى القراءات مع الجوق : وفى ف : فى قراءات الرياسة بالجوق .

(١٤) يرتقبون : يرتقبوا . (١٩) خازندار : فى ف : جاندار .

الشرق رستم ، أحد أولاد حسن الطويل متولّى العراقين ، وقد جرى بينه وبين إخوته ما لا خير فيه حتى تولّى بعد أمور وقعت له ، فخرج قانصوه هذا بعد أيام فى تجمل زائد . ـ وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن أهلها قد رجموا النائب قانصوه اليحياوى ، وقد ثارت بدمشق فتنة كبيرة .

وفى رمضان نودى بالصوم بعد ضحوة النهار ، وقد ثبت رؤية الهلال بعد طلوع الشمس بثلاثين درجة ، وقد أكل غالب الناس فى ذلك اليوم ، ولا سيما (٣٦ آ) الأعوام ، فثقل عليهم الإمساك فى ذلك اليوم بعد الإفطار . ـ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة سودون الطويل الأينالى ، أحد الأمراء المقدّمين بدمشق ، وكان لا بأس به . ـ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، فأخلع على القضاة ومشايخ العلم ، وفرّقت الصرر على الفقهاء ، ووقع فى ذلك اليوم بحث بين البرهان الدميرى أحد نواب المالكية ، وبين بعض الطلبة ، فأنكروا على برهان الدين الدميرى بما أجابه فى المسئلة ، وكان الختم حافلا جدا .

وفى شوال كان وفاء النيل المبارك ، وافق ذلك ثانى عشر مسرى القبطى ، وتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وقد قال محمد بن قانصوه من صادق :

اضمر على النيل وانظر ما تسرّ به   إذا أضمرت فما فى الفال إشكال
لفالك الماء رمل والنسيم   مبدى ضميرك والتجميد أشكال

وفيه خرج الأمير قانصوه خمسمائة بركب المحمل ، والناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بالركب الأول ، فكان لهما بالقاهرة يوم مشهود ، وطلّب الأمير قانصوه خمسمائة ذلك الطُلْب الحافل . ـ ومن غريب الاتفاق أن النيل أوفى وغالب الناس فى بركة الحاج مشغولين بالحجاج ، فلما بلغ الأتابكى أزبك وفاء النيل ، حضر تحت الليل حتى فتح السدّ وعاد .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المحدث الواعظ برهان الدين إبراهيم ابن الحموى رحمة الله عليه ، مات بطريق الحجاز قبل وصوله إلى العقبة ودفن هناك ،

---

(٩) فأخلع على : فى ف : فاجتمع .

وكان عالما فاضلا محدثا بارعا فى الحديث ، وكان دينا خيرا من أهل الصلاح ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة . ـ وفيه أخلع السلطان على داود بن سليمان من أولاد بنى عمر أمير عربان هوّارة ، وقرّره فى أمرة الوجه القبلى ببلاد الصعيد .

وفى ذى الحجة توفى ابن العبَسى ناظر الأحباس ، وهو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن أحمد العبَسى الشافعى ، وكان رئيسا حشما محمود السيرة لا بأس به . ـ وتوفى السيد الشريف محمد القادرى ، أخو زين العابدين ، وكان لا بأس به ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثمانمائة

فيها فى المحرم صمد القضاة إلى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، وصمد أيضا الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، فلما جلس سأله السلطان (٣٦ ب) عن أىّ سُنّة سَنّها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشىء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السلطان عنده كتاب يسمّى « حيرة الفقهاء » ، ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف فى هذه المسألة، بأن السلطان قصد بذلك الآذان، فإنه سَنّه ولم يفعله، والأصح أنه أذّن فى وقت، وأورد فى ذلك الحديث ، وعمل فى هذه المسألة كُراسة مطولة وذكر فيها أشياء كثيرة مما سَنّه النبى عليه السلام ولم يفعله .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من مماليكه بأمريات عشرة ، منهم : كشبغا ، وماماى جوشن ، ومصر باى أخو مغلباى ، وبرسباى العلاى ، وأسنباى الأصم ، وآخرين . ـ وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا عن قانصوه خمسمائة خيرا ، ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة على أنه أرمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر الملح فيما بعد ، وشالوا له الحجاج رايات سود وهم داخلون البركة ، وما قاسوا الحجاج فى هذه السنة خيرا ، وكانت سنة صعبة على الناس من الغلاء وموت الجمال ؛ واستمرّ قانصوه خمسمائة فى خلطنة وعكس ولم ينتجح أمره من بعد ذلك ، حتى كان ما سنذكره من أمره .

وفيه توفى الشيخ جمال الدين يوسف بن شاهين الكركى ، سبط الحافظ بن حجر القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا ، رئيسا حشما لا بأس به . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن العربان تغلّبوا على الكرك والشوبك ، وحصل هناك فتن مهولة .

وفى صفر نزل ابن السلطان من القلعة فى موكب حافل ، وتوجّه إلى داره التى أنشأها له السلطان على بركة الفيل ، فأقام بها ساعة ثم عاد إلى القلعة ؛ وهذا أوّل ظهوره للناس ونزوله إلى المدينة ، وكان معه آقبردى الدوادار ، والجمّ الغفير من الجند ؛ وكان نزوله سببا حتى نفق على الجند لكل واحد منهم خمسون دينارا ، وسمّوها نفقة نزول ابن السلطان ، وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لكى يشاع ذلك . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر (٣٧ آ) المسرطن نائب صفد الظاهرى جقمق ، وكان أميرا جليلا سليم الفطرة ، ومات وهو فى عشر الستين .

وفى عقيب ذلك جاءت الأخبار من حلب بوفاة نائبها أزدمر من مزيد قريب السلطان ، وكان إنسانا حسنا لا بأس به ، وولى عدّة وظائف سنيّة ، منها نيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وأمرة مجلس بمصر ، وغير ذلك من الوظائف والنيابات ، ونيابة صفد ، ومات وهو فى عشر السبعين ، وكان فى أوائل عمره فى قلّة وخمول ، وأقام على ذلك دهرا طويلا ، فلما تسلطن السلطان ظهر أنه قرابته ، فجاءت إليه السعادة بغتة ، فأقام فيها مدة ومات ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ؛ فلما مات أزدمر أرسل السلطان خلعة إلى أينال السلحدار نائب طرابلس ، ونقله إلى نيابة حلب ، عوضا عن قرابته أزدمر بحكم وفاته ، وكان أينال هذا ولى نيابة صفد أيضا بعد أزدمر المسرطن وقتل فى واقعة آقبردى الدوادار لما فرّ إلى حلب .

وفى ربيع الأول توفيت خوند سلطان بنخ ، زوجة الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب ، وكانت زوجة تنم المؤيدى نائب الشام ، وكانت من مشاهير الخوندات ، وهى والدة سيدى فرج الماضى ذكر وفاته ، وكانت لا بأس بها ، وكانت تقرب للملك الظاهر جقمق . ـ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافـ

(١٤) السبعين : كذا فى الأصل ، وفى ف : الستين .

وفيه توفى الشيخ أحمد رزوق المغربى المالكى ، وكان من أهل الصلاح والدين . — وفيه قبض السلطان على بدر الدين بن الإنبابى كاتب جيش الشام ، فضربه بالعصا بين يديه ، وأمر بقطع لسانه حتى شفع فيه من ذلك ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ، ولكن خرج خُلق السلطان فى ذلك اليوم جدا .

وفى ربيع الآخر توفى القاضى تاج الدين بن الإمام ، وهو محمد بن أحمد بن محمد الإمام ، وكان أحد نواب الحكم من الحنفية ، وكان غير مشكور فى قضائه وعنده خفّة ورهج ، ومما قاله فيه الشهاب المنصورى ، وهو قوله :

قالوا علا التاج فهو قاض فقلت يا ضيمة الحقوق
غايته أنه تُويْج مُلقى على مفرق الطريق

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن سقط بها ثلج (٣٧ ب) حتى عمّ الأسطحة والشوارع ، مثل ثلج الشام ، فعُدّ ذلك من النوادر . — وفيه عيّن السلطان أزدمر تمساح أمير حاج ركب المحمل ، وعيّن الناصرى محمد بن العلاى على ابن خاص بك أمير الركب الأول ، وعيّن يشبك الأشقر باش المجاورين بمكة .

وفيه عيّن السلطان الأمير ماماى من خُداد الدوادار الثانى ، بأن يتوجّه رسولا إلى ابن عثمان ، وقد توجّه إليه قبل ذلك مرّة أو مرّتين ، وهذه آخر قصاد السلطان إلى ابن عثمان ؛ فشرع ماماى فى عمل يرق حافل ، وصنع له رَدكا ببركة الرطلى فى زمن الشتاء ، وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة ، وعمر الجسر وسكن به الناس أياما فى قلب الشتاء ، حتى عُدّ ذلك من النوادر ؛ وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل ، أو مغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى ، أو غير ذلك من الملاهى ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحدّ ، وأقاموا على ذلك نحوا من عشرين يوما ؛ ثم سافر الأمير ماماى وخرج فى تجمّل زائد وموكب حافل ، فتوجّه إلى بلاد ابن عثمان .

---

(٢٠) أو غير ذلك من الملاهى : كذا فى الأصل ، وفى ف « أو جوق المخبطين » ، ولعله يعنى « المحبظين » .

وفيه تغيّر خاطر السلطان على الزمام فيروز الطواشى ، فأمر بسجنه ، فسجن بالبرج التى فى القلعة أياما حتى شفع فيه وأطلق ، وسبب ذلك أن شهاب الدين السجنى رافع فيه عند السلطان ، فتغيّظ عليه .

وفى جمادى الأولى أمر السلطان بتجديد عمارة باب القرافة ، فعمره وأنشأ هناك الربوع والسبيل ، وجاء من أحسن المبانى ، ثم بعد مدّة يسيرة أنشأ جامعا بخطبة خارج باب القرافة ، فجاء غاية فى الحسن ، وحصل به النفع للناس . ـ وفيه قرّر بُرد بك الطويل فى دوادارية السلطان بدمشق ، وقرّر برسباى الصغير فى الحجوبية الثانية . ـ وفيه توفى القاضى محيى الدين بن مظفر ، وهو عبد القادر بن محمد بن أحمد بن على بن مظفر ، أحد نواب الحكم الشافعى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، محمود السيرة فى قضائه ، وكان لابأس به . ـ وتوفى الشيخ الصالح سيدى على الجبرتى ، وكان مقيما بالجامع الأزهر ، مات فجأة وهو بالحمّام ، وكان رجلا مباركا .

وفى جمادى الآخرة كان الحريق المهول بالقلعة فى حواصل السلطان ، التى عند (٣٨ آ) قاعة البحرة ، وكان فيهم خيام كثيرة ، فاحترق غالبها ولعب فيها النار ، فلم يسلم منهم سوى خيمة المولد الشريف فقط ، فقوّمت الخيام التى احترقت فكانت بنحو من مائتين ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك ، ولا يُعلم سبب وقوع النار هناك ، فقام السلطان بنفسه وبقى يطفى الحريق مع المماليك ، فأقامت النار تعمل هناك ثلاثة أيام ؛ فلما طلع النهار صعدت الأمراء إلى القلعة ، وصاروا يسلمون على خاطر السلطان بسبب ذلك ، وقد تأثّر السلطان لذلك وشقّ عليه حرق تلك الخيام ، وشرع كل من طلع إليه من الأمراء يشكو له بأن لم يبق عنده من الخيام شىء ، فصارت الأمراء كل من كان عنده خيام جدد يقدّمها للسلطان ، ففعل ذلك الكثير من الأمراء والمباشرين .

ثم أشيع بعد ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان الخليفة ساكنا بالقلعة داخل الحوش بجوار قاعة البحرة ، فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن ينزل

(١٥) مائتين : كذا فى الأصل .

من القلعة ويسكن بالمدينة ، وما حصل على الخليفة خير بسبب ذلك ، ونزل هو وعياله من القلعة وسكن فى القاعة التى بطريق مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت إشاعة النار بأنها من مطبخ الخليفة باطلا ليس لها صحة ، وإنما ذلك كلام الأعداء فى حقّ الخليفة .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا تاما حتى اظلمت الدنيا ، وأقام فى الخسوف نحوا من ثلاثين درجة . ــ وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن وقع بهــا الغلاء المهول ، حتى مات من أهلها نحو من ألفين وخمسمائة إنسان من شدة الجوع ، وأكلوا الجيف والميتات .

وفيه أمر الأتابكى أزبك بتجديد عمارة المدرسة المنصورية التى بدهليز البيمارستان، وعمل على الفسقية التى بها قبّة ، وجدّد بها منبرا ، وأقام بها خطبة وخطب بها ؛ ولم يُعهد قبل ذلك أن أحدا من الأتابكية قبله أقام بها خطبة ، فعُدّ ذلك من النوادر، ولقد رام ذلك الأتابكى أيتمش البُجاسى فى دولة الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة ، فتعذّر عليه ذلك ، وأفتاه بعض العلماء بأنه لا يجوز له ذلك ، وأن فيه مخالفة لشرط الواقف ، فرجع عن ذلك ، فلما تولّى الأتابكية تمراز الشمسى (٣٨ ب) بعد أزبك أبطل الخطبة منها ، فلما قتل تمراز وأعيد أزبك إلى الأتابكية ثانيا أعاد بها الخطبة ، واستمرّت إلى الآن .

وفيه ثارت رياح مزعجة حتى ارتاع الناس منها ، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيمان التى خلف المجراة ، فرأى فى الأرض أثر قدم إنسان ، فكان طوله فوق الذراع ، وقد أثر ذلك فى التراب الناعم ، وظهر فى عدة أماكن بين الكيمان ، فأشيع ذلك بين الناس ولا يعلم ما سبب ذلك .

وفى رجب كانت وفاة الشيخ صلاح الدين الطربلسى ، وهو محمد بن محمد بن يوسف الحنفى ، وكان عالما فاضلا مفتيا بارعا فى مذهبه ، وولى عدّة تداريس ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية التى تجاه سوق الوراقين ، ومات وهو فى عشر الستين ،

---

(١) هو : وهو .

وكان لا بأس به . ـ وفيه قدم شخص من ماردين ، يقال له نور على ، وقد فرّ من رستم صاحب العراقين لذنب أوجب ذلك ، فانتمى إلى سلطان مصر ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتّب له ما يكفيه ، وأقام بمصر مدة طويلة حتى توفى الأشرف قايتباى ، ففرّ إلى بلاده . ـ وفيه مات يشبك قرقاش الحسنى الأشرفى برسباى ، أحد الأمراء العشرات ، وكان لا بأس به .

وفى شعبان أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية لبرهان الدين الكركى الإمام ، عوضا عن الصلاح الطرابلسى بحكم وفاته . ـ وفيه كانت وليمة عرس الأمير جان بلاط ، على ابنة القاضى كاتب السرّ ابن مزهر ، وهى أخت البدرى كاتب السرّ ابن مزهر ، وكان مهمّا حافلا . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة أفريقية ، وهو زكريا بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبى فارس الحفصى ، مات بالطاعون ، فلما توفى قرّر ولده عمر فى مملكة أفريقية ، عوضا عن أبيه زكريا .

وفى رمضان رخص سعر البطيخ العبدلّى ، حتى أبيع كل حمل بنصفين فضة ، ولولا المكس لأبيع بأقلّ من ذلك ، وأبيع فى الحوانيت كل قنطار بنصف فضة . ـ وفية كانت وفاة العلاى على بن خاص بك صهر السلطان ، وهو على بن خليل ابن حسن بن خاص بك التركى الأصل ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا ، من أعيان أولاد الناس ، وكان قد كبر وشاخ ، ومولده قبل الثلاثين (٣٩ آ) والثمانمائة ، وكانت جنازته حافلة ، وأخرج بكفّارة ، ونزل السلطان وصلّى عليه فى سبيل المؤمنى ، ومشت الأمراء قدّامه للتربة ، وكان له اشتغال بالعلم ، وكان ينظم الشعر وله نظم جيّد ، فمن ذلك قوله فى مؤذّن :

ومؤذّن فى حسنه ، أنا مغرم لا أصبر لمّا طلبتُ وصاله، أضحى علىّ يكبّر

وفيه أنعم السلطان بأمريات عشرة على جماعة كثيرة من الخاصكية ، منهم طومان باى الثور ، وتمر القصير ، الذى بقى زردكاشا ، ثم بقى مقدّم ألف ،

(٤) قرقاش : كذا فى الأصل ، وفى ف : قرقماس . وقد ورد اسم قرقاش هنا فيما سبق ص ١٠٣ س ١٧ . (٢٢) طومان : فى ف : طوغان .

وقايتباى الأشقر ، وآخرين منهم .

وفى شوال كان عيد الفطر بالجمعة ، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب ، وما ذاك إلا أن العيد إذا جاء يوم الجمعة يخطب فى ذلك اليوم خطبتين ، ويدعى للسلطان فى ذلك اليوم على المنابر مرتين ، فيلهجون الناس بأن فيه كال سمد للسلطان ، وهو وجه العلّة فى هذه المسألة ، وقد جاء فى أيام الأشرف قايتباى خمسة أعياد بالجمعة ولم يضرّه ذلك ، ومكث فى هذه المدّة الطويلة ولم يؤثّر فيه ذلك شيئا ، فمن ذلك عيد فطر بالجمعة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، وعيد فطر أيضا بالجمعة سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر بالجمعة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر أيضا بالجمعة سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وعيد فطر أيضا بالجمعة سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، فهذه خمسة أعياد وقد مرّت عليه وهى بالجمعة ، وهو ثابت فى مملكته لم يتزحزح منذ ثلاثين سنة ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله فالله يفعل لا جـدى ولا حمـل
مع السعادة ما للنجم من أثر فلا يضرّك مرّيخ ولا زحل

وفى هذا الشهر توفى الأديب الفاضل محمد بن شادى خُجا المحمدى ، وكان شاعرا ماهرا وله نظم جيّد فائق فى المعانى ، ومن شعره الرقيق ، وهو قوله :

لم أصغِ فيمن قد بنى فى الحشا بيتا من الحبّ لواشٍ وشاد
رشا له لحظٌ إذا ما رَنَى أنساك فيه الغىُّ عينَ الرشاد

(٣٩ ب) ومولده بعد الخمسين والثمانمائة ، ومما قاله فيه الشهاب المنصورى من المديح وأجاد :

أنت شـاد بنغمة الشحرور فى رياض المنظوم والمنثـور
ذو ذكاء فالعبير الرطب منه ضائع عنـد طيب ذاك العبير
عجبـا لى مـكاتب ورقيق مـع أنى أحتـاج للتدبير
ياابن شاد مذ شاد مدحك ذكر قلت إنى من حسنه فى قصور

---

(٨) بالجمعة : كتب فى الأصل قبل كلمة « وعيد » السابقة .

وفيه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أزدمر تمساح بالمحمل وأينال الفقيه بالأول . ـ وفيه توفى تانى بك الخازندار ، وكان من خواصّ السلطان لا بأس به . ـ وفيه قرّر فى قضاء الحنابلة بمكة الشهاب الشيشينى ، وهو قاضى قضاة مصر الآن . ـ وفيه توفى جانى بك المحمودى الظاهرى جقمق ، خشداش السلطان ، وكان من العشرات ، ورأى غاية العزّ فى أيام السلطان ، وكان لا بأس به . ـ وفيه توفى الشيخ أبو الكرم المغربى ، وكان فاضلا فى علم الفلك ومعرفة أحواله .

وفى ذى القعدة توقّف النيل عن الزيادة أياما ، حتى تقلّق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشترى القمح والشعير وغير ذلك من الغلال ، واستمرّ النيل فى توقّف وربما نقص الذى كان زاده ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة واستمرّت حتى كان الوفاء ، وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه من صادق ، وهو قوله :

قلمتْ أصابع نيلنا عين الذى خزن الغلال
وغدتْ تقول النقص كا . . . ن على الوفا قطعا وزال

وقد أجاد ، وقال شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى :

النيل وافا ووفّا مبشّرا بالمنافع
وخازن القوت عينيه تقلّمت بالأصابع

وفى أواخر هذا الشهر كان الوفاء ، وحصل للناس غاية الجبر ، بعد أن كان النيل قد نقص وآيس الناس من طلوعه فى هذه السنة ، فتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان يوما مشهودا . ـ وفيه توفى عبد العظيم أحد كتاب المماليك ، وكان لا بأس به . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك من حيدر نائب حماة ، وكان أصله من مماليك الأشرف أينال ، وتولّى عدة وظائف (٤٠ آ) سنية ، منها ولاية القاهرة ، والأمير آخور الثانية ، ثم بقى مقدّم ألف ، ثم بقى نائب حماة ، وكان لا بأس به ، ومات وهو نائب حماة ودفن بها ؛ فلما مات يشبك أخلع السلطان على آقباى الطويل ،

(٣) الشيشينى : الشيشى . (١٣) وزال : وزلال .

وقرّر فى نيابة حماة ، عوضا عن يشبك من حيدر بحكم وفاته .

ومن الحوادث أن فى أيام الأشرف قايتباى ، وقع مقطع بالجبل المقطم على جماعة من الحجارين فماتوا تحته ، ومات من المماليك نحو من ثلاثة كانوا هناك لأجل النقارة ، ومات تحت الردم عدة حمير كانوا هناك لأجل حمل النقارة ، وكان هذا المقطع قد وقع على حين غفلة ، وكان أمرا مهولا ؛ ومن العجائب أن شخصا من المماليك كان هناك ، فلما وقع المقطع تصلّب عليه شىء من الحجارة ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام والروح فيه ، حتى نقبوا له نقبا من بين الحجارة وخلّصوه ، وعاش بعد ذلك مدّة طويلة.

وفى ذى الحجة فتح الأتابكى أزبك سدّ بركة الأزبكية ، وكان يوما مشهودا ؛ ثم بعد أيام صنع هناك وقدة حافلة وحراقة نفط ، وعزم على ابن السلطان فنزل إليه ، وبات عنده فى القصر المطلّ على البركة ، ومدّ له أسمطة حافلة ، وقدّم له تقادم جزيلة ، ما بين مماليك وخيول وقماش وغير ذلك ؛ ثم طلع ابن السلطان إلى القلعة فى اليوم الثانى أواخر النهار ، ولم يشقّ ابن السلطان المدينة سوى فى ذلك اليوم من منذ نشأ ، وكان مقيما بالقلعة لم يَرَ البحر قط .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار . بوفاة صاحب سمرقند ، وهو الملك المعظم أحمد بن أبى سعيد ، فلما مات تولّى على سمرقند بعده أخوه محمود صاحب بلخشان . — وتوفى أيضا صاحب فرغانة من بلاد المشرق ، وهو عمر بن أبى سعيد ، وكان فيه الخير والعدل فى الرعية ، ولما مات تولّى من بعده على مدينة فرغانة أخوه أحمد، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسعمائة

فيها فى المحرم صعد القضاة الأربعة إلى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، فلما جلسوا أمر السلطان بعقد مجلس بالمدرسة (٤٠ ب) الصالحية ، بسبب شمس الدين بن الطوّانى

(١٦) المشرق : المغرب .

المغربى ، القاضى المالكى بدمشق ، وكان قد حضر إلى القاهرة لأمر أوجب ذلك . ـ وفيه انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر ، وقد جدّده الخواجا مصطفى بن محمود ابن رستم الرومى ، وأصرف عليه من ماله نحوا من خمسة عشر ألف دينار ، وجاء غاية فى الحسن ، وهو على ما جدّده به إلى الآن . ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان على شخص يقال له شمس الدين محمد بن عمران المقدسى ، وكان رفيقا لأحمد السجنى ، فضربه بين يديه ضربا مؤلما ، فما طاق ذلك ومات بعد أيام قلائل .

وفى صفر جاءت الأخبار بوفاة يونس الأشرفى حاجب دمشق ، فلما مات تقرّر فى حجوبية دمشق قانى بك نائب غزّة ، عوضا عن يونس المذكور . ـ وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن الحاج الشامى لما رجع إلى الشام ، خرج عليه فى أثناء الطريق طائفة من عربان بنى لام ، فاحتاطوا على الركب عن آخره ، وسبوا الحريم ونهبوا الأموال ، وأسروا أمير الركب أركماس ، وكان أميرا مهولا ، فتنكّد السلطان لهذا الخبر وانزعج لذلك . ـ وفيه توفى كسباى من أزبك الساقى أحد العشرات ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول توفى القاضى نور الدين الصوفى ، على بن أحمد بن محمد الصوفى الحنفى ، أحد نواب الحنفية ، وكان رئيسا حشما من أعيان النواب ، وكان لا بأس به . ـ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة . ـ وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذ منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة ، وقتل تحت الليل جماعة من أرباب الأدراك ، ولم ينتطح فى ذاك شاتان . ـ وفيه توفى يشبك من قصروه ، المعروف بيشبك شحات ، وكان من الأمراء العشرات ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على كرتباى ، أخى الأمير آقبردى الدوادار ، وقرّر فى نيابة صفد . ـ وفيه توفى جانى باى الحسنى الظاهرى جقمق أحد العشرات ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى قرّر عفيف الدين بن الشحنة فى قضاء الشافعية بحلب ، وقد

سعى فى ذلك بمال له صورة . ـ وفيه قرّر مصر باى من على باى فى نيابة قلعة حلب . ـ وفيه تعيّن تانى بك الجمالى فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وعيّن كرتباى بن أخت السلطان (٤١ آ) فى أمرة الركب الأول .

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير أزدمر تمساح من يلباى الظاهرى جقمق ، أحد المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما محمود السيرة ، ولا سيما فى سفر الحجاز ، وقد سافر أمير حاج ركب المحمل عدّة مرار ، والناس عنه راضية والثناء عنه جميل . ـ وفيه توفى الصاحب قاسم شغيتة ، وكان من الأعيان ، تولّى نظر الدولة والوزارة غير ما مرّة ، وجاء فى الوزارة على الوضع ، وكان كفوا للمنصب ، ثائرا بالسداد ، منفذا فى مباشرته ، وجرى عليه شدائد كثيرة ومحن ، ومات وهو فى التوكيل به ، وربما قيل كان فى الخشب حتى مات ، وباشر ديوان الوزارة مدّة طويلة وآل أمره إلى أن مات أشرّ موتة .

ونقل بعض المؤرخين على أن قاسم هذا كان فى مبتدأ أمره خبازا ، وأن صلاح الدين المكينى أشهره فى القاهرة لما كان محتسبا ، ثم إن قاسم صار من جملة صيارف اللحم ، فلما قرّر شمس الدين البباى فى الوزارة ، تحشّر فيه وصار من جملة مباشرين الدولة ، فلما غرق البباى تكلم فى الوزارة هو وعبد القادر الطويل ، ثم إن قاسم راج أمره وترشّح للوزارة حتى استقرّ بها ، وصار من أعيان الرؤساء بمصر ، وباشر الوزارة أحسن مباشرة ونتج فى السداد فيها ، وقد قال القائل فى المعنى :

وكم سيّد يستوجب الرفع قدره غدا شاكيا من جزم أيامه خفضا
وكم جاهل يدعى رئيسا لقومه كذاك الخصى يدعى رئيسا من الأعضا

وفى رجب كانت وفاة القاضى شرف الدين يحيى بن البدر حسن ناظر الأوقاف ، وكان رئيسا حشما ، لكنه أظهر للسلطان نتيجة ، وعادى الناس قاطبة ، ولاسيما الأتراك ، بسبب ما أفرده على البلاد لأجل الخمس ، كما تقدّم ذكر ذلك ، فنهبوا المماليك داره فى بعض الركبات ، واستمرّ فى عكس إلى أن مات ، ولم يثن عليه أحد خيرا فى

---

(١٤) مباشرين : كذا فى الأصل .

مدّة ولايته لنظر الأوقاف ، كما يقال :

تولّاها وليس له عدوّ وفارقها وليس له صديق

وفيه توفى قاضى بولاق ابن قرقاس أحد نواب الحنفية ، واسمه عبد القاهر بن أحمد بن على بن محمد بن أبى بكر الدماصى ، وكان يعرف بابن قرقاس ، وكان من أعيان الحنفية ، مشكور (٤١ ب) السيرة فى قضائه ، وكان لا بأس به . ـ وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى أبيع كل عشرة أرادب قمح بثلاثة دنانير ، حتى عُدّ ذلك من النوادر . ـ وفيه توفى الطواشى سرور شاد الحوش ، وكان عنده قسوة زائدة ، وعسف وظلم ، وهو الذى أحدث بالقلعة السجن المسمّى بالعرقانة من داخل الحوش، وكان يحبس فيه من يختار من أصحاب الجرائم ، فاستمرّ بعده إلى الآن . ـ وفيه توفى المسند عبد القادر بن الزياد المناوى ، وكان لا بأس به .

وفيه تغيّظ السلطان على ولده محمد ، فألبسه زمط عتيق وكبر خام ، ونزل به إلى طبقة الميدان ، ولم ينعم عليه بأمرة عشرة فى أيامه قط ، وقال لأغات الطبقة نوروز المجنون : دعه يكنس الطبقة ويقعد على السفرة آخر المماليك ، وإن قوى رأسه اضربه علقة قوية ، وعامله معاملة المماليك الجلبان ؛ فأقام فى الطبقة أياما حتى طلع الأتابكى أزبك وشفع فيه ، واستمرّ عنده ممقوتا حتى مات .

وفى شعبان وصل إلى القاهرة شخص جركسى ، وهو جلب قحّ ، وقد جاوز الستين سنة من العمر ، ومعه اثنان من الأولاد وهما شبان ملاح الهيئة ، فذكروا أن ذلك الشيخ أخو السلطان ، وكان مقيما ببلاد الفرنج ، فلما حضر استسلمه السلطان ، وختّنه ، وختّن أولاده معه ، وسمّاه قيت ، وسمّى أولاده أحدهما جانم والآخر جانى بك، ورتّب لهم جوامك ، ونزّلهم فى الطبقة ، وصاروا من جملة المماليك السلطانية ، ولكن جرى عليهم بعد ذلك أمور مهولة يأتى الكلام عليها .

وفيه قدم إلى القاهرة القاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى ، قاضى قضاة

(١٥) الأولاد وهما : كتبت فى الأصل بعد « حتى مات » فى سطر (١٧) السابق .

(١٨) وكان مقيما ببلاد الفرنج : كذا فى الأصل ، وفى ف : وأنه أبيع ببلاد الإفرنج ، وكان مقيما بها .

الشافعية بها ، فلما حضر جرى عليه أنكاد ومحن من السلطان ، وغرم مالا له صورة ، حتى استمرّ فى قضاء الشافعية بدمشق على عادته . ـ وفيه توفى أحمدجربيات ، وكان أستاذا فى فن الموسيقة ، وعنده فكاهة وحسن محاضرة . ـ وفيه أشيع الخبر بموت جمجمة بن محمد بن عثمان ملك الروم ، مات بنابل من بلاد الفرنج ، وجرى عليه أمور يطول شرحها ، ومات وهو فى أسر الفرنج ، وقد تقدّم سبب ذلك . ـ وفيه غرقت معدّية بساحل بولاق ، فمات بها عدّة كثيرة من الناس ، من رجال ونساء وأطفال وبهايم ، وما انتطح فى ذلك شاتان .

وفى رمضان توعّك (٤٢ آ) السلطان فى جسده حتى أرجف بموته ، ونسب قانصوه خمسمائة فى مدّة توعّك السلطان على أنه قد تقحّم على السلطنة ، فمنع من الدخول على السلطان فى مدّة انقطاعه ، ثم إن السلطان حصل له الشفاء ونودى فى القاهرة بالزينة ، واستمرّت الزينة أياما فى شهررمضان ، حتى تعطّلت الناس عن البيع والشراء . ـ وفى هذا الشهر أقيمت الخطبة بالجامع الذى أنشأه الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب ، بدرب [ابن] البابا . ـ وفيه توفى تغرى برمش الأينالى أحد العشرات ، وكان لا بأس به .

وفى شوال فى ليلة عيد الفطر ، خرج الأمير قانصوه خمسمائة مسافرا إلى جهة بعض بلاده ، ولم يحضر موكب العيد ، فكثر القيل والقال فى ذلك اليوم ، وكان سفره برأى السلطان ؛ فلما كان يوم العيد ثارت فتنة من المماليك الجلبان ، وركب الكثير منهم فى ذلك اليوم وتوجّهوا إلى دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها ، وأحرقوا بعض أماكن بها وأخربوا غالبها ، وهى الدار العظيمة التى أنشأها فى قناطر السباع ، المطلّة على الخليج الحاكمى ، وكان الذى أثار الفتنة طائفة من المماليك ممن هو من عصبة آقبردى الدوادار ، فحصل الاضطراب فى ذلك اليوم ، ثم سكن الحال قليلا .

وفيه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير الركب به تانى بك الجمالى ، وبالأول كرتباى ابن أخت السلطان . ـ وفيه توفى القاضى نور الدين على بن داود الصيرفى الإسرائيلى الحنفى ، أحدنواب الحكم ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان يكتب التاريخ

مجازفة لا عن قائل ولا راو ، وله فى تاريخه خباطات كثيرة ، وجمع من ذلك عدّة كتب من تأليفه ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا من يقول جمعت فى التاريخ كتبا كامله لك بالأباعر نسبة لم تدر ما هى حامله

وكان مولده سنة تسعة عشرة وثمانمائة ، وكان لا يخلو من فضيلة .

وفى ذى القعدة وصل سيف قان بردى نائب دُورَكى ، وكان غير محمود السيرة.ــ وفيه كان وفاء النيل المبارك وتوجّه الأتابكى أزبك وفتح السدّ على العادة ، وكان آخر فتح الأتابكى أزبك إلى السدّ ، وجرى عليه من بعد (٤٢ ب) ذلك ما سنذكره عن قريب . ــ وفى هذا الشهر وقع الرخاء بالديار المصرية حتى أبيع كل ثمانية أرغفة من سن الخبز البايت بثلاثة دراهم نقر ، حتى عُدّ ذلك من النوادر الغريبة .

وفيه بدأ السلطان بتوعّك جسده ، وظهر عليه أشاير الموت ، فضرب الكرة فى هذه السنة ضربا هيّنا ، بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوّة ، فسبحان مغيّر الأحوال . ــ وفيه توفى سيدى عبدالرحمن اليمنى ، وكان من أولياء الله تعالى . ــ وتوفى آقبردى التماسيحى الظاهرى جقمق ، وكان من الأمراء العشرات ، وكان لا بأس به.ــ وتوفى أيضا باش مكة أزدمر من مراد خجا الأشرفى برسباى ، وكان أحد الأمراء العشرات لا بأس به .

وفيه ظهرت أعجوبة ، وهى أن امرأة ولدت مولودا صورته كصورة الفيل ، وله زلومة سوداء ، وكان بشع المنظر ، فمات من يومه . ــ وفيه توفى الطواشى سرور السيفى مازى نائب المقدم ، وكان لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب خراسان ، وهو حسين بن بيقرا بن منصور ، وبيقرا جدّه ، قيل إنه مات بعلّة النقرسة .

وفى ذى الحجة فى يوم الخميس مستهلّ هذا الشهر ، جرت كاينة عظيمة ، وهو أن قانصوه خمسمائة لما توجّه إلى إقطاعه فى ليلة عيد الفطر كما تقدّم ، وتوجّه طائفة

(٤) تسعة : كذا فى الأصل ، وفى ف : سبعة .

(٥) سيف قان بردى : كذا فى الأصل ، وهو صحيح ، وفى ف : سوجان .

من المماليك إلى داره ونهبوا ما فيها وأحرقوا غالبها ، فلما رجع قانصوه خمسمائة من السفر ، تعمّرت القلوب بالعداوة بينه وبين آقبردى الدوادار ، وصارت العداوة كل يوم فى مزيد ، فلما كان يوم الخميس المذكور ركب قانصوه خمسمائة ولبس لامة الحرب والتفّ عليه جماعة من خشداشينه ، مثل قانصوه الألفى أحد الأمراء المقدّمين ، وقانصوه الشامى أحد المقدّمين أيضا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات جماعة كثيرة ، منهم برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، وأسنْباى المبشّر ، وقايتباى المبشّر أيضا ، وأزبك قفص ، وغير ذلك من الأمراء ، والجمّ الغفير من الخاصكية والمماليك السلطانية .

فلما لبسوا لامة الحرب توجّهوا إلى بيت قانصوه خمسمائة ، فركب معهم وأتوا إلى بيت الأتابكى أزبك ، الذى أنشأه فى الأزبكية ، فاجتمع هناك من العسكر ما لا يحصى ؛ فلما بلغ الأمير يشبك الجمالى أحد المقدّمين والزردكاش الكبير ، بأن العسكر قد اجتمع عند الأتابكى أزبك (٤٣ آ) حضر يشبك الجمالى أيضا ، فكمّل هناك أربعة أمراء مقدّمين ، وجاء العسكر أفواجا أفواجا ، ولا بقى يعلم إن كانت هذه الركبة على السلطان أم على الأمير آقبردى الدوادار ؛ فلما اشتدّ الأمر طلع تانى بك قرا حاجب الحجاب إلى السلطان ، وتنصّح له ، وخلا به ، وقال له : إنما هذه الركبة على السلطان ، وأن العسكر قائم مع الأتابكى أزبك لأجل قانصوه خمسمائة ، فإنه كان صهره.

فلما تحقّق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وخشى من اتساع الفتنة ، فنزل إلى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرملة ، وعلّق الصنجق السلطانى ، ودُقّت الكوسات حربى ، ثم نادى للعسكر كل من كان طائعا لله وللسلطان يطلع إلى الرملة ويقف تحت الصنجق السلطانى ، فلما بلغ الأمراء المقدّمين ذلك طلع إلى باب السلسلة : تمراز الشمسى أمير سلاح ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، وآقبردى الدوادار الكبير ، وأزبك اليوسفى رأس نوبة النوب ، وتانى بك قرا حاجب

(٧) ق:ص : أضيف هنا فى ف : وقيت القاضى .

الحجاب ، وبقية الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ، واجتمع بالرملة الجمّ الغفير من العسكر .

فلما بلغ ذلك من بالأزبكية من العسكر ، بأن السلطان قد نادى أن العسكر الطائع يطلع إلى الرملة ويقف تحت الصنجق السلطانى، فصاروا فى الحال يتسحّبون من هناك شيئا فشيئا ويطلعون إلى الرملة ، حتى لم يبق فى الأزبكية إلا مماليك الأمراء الذين هناك ، فظهرت الكسرة على قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء ، وكانت هذه أول حركات قانصوه خمسمائة ، وكان معكوس الحركات فى سائر أفعاله ، كما يقال فى المعنى :

وأخّرنى دهرى وقدّم معشرا   لأنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجهّال أعلم أننى   أنا الميم والأيام أفلح أعلم

فبينما الأتابكى أزبك جالس فى مقعده وإذا بالأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب دخل عليه ، وصحبته الحاج رمضان مهتار الطستخاناه ، فقال له : قم كلم السلطان فى خير ، فقام من وقته وتوضأ وصلّى ركعتين ، وركب وهو (٤٣ ب) بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء مفككّ الأزرار ، فطلع صحبتهما إلى القلعة ، فلما رأوه المماليك الجلبان كادوا أن يقطعوه بالسيف ، وقيل إن الأمير آقبردى الدوادار كلّمه وشتمه ، فلما وقف بين يدى السلطان ، فقام له وأمر بإدخاله إلى قاعة البحرة ، خوفا عليه من المماليك الجلبان أن لا يقتلوه .

فلما بلغ قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء أن الأتابكى أزبك قد عوّقوه بالقلعة ، فقام قانصوه خمسمائة وركب وتوجّه من على قنطرة الحاجب واختفى من حيث لا يعلم له خبر ، وكذلك قانصوه الألفى ، والشامى ، وبقية الأمراء ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة ، فلما اختفوا الأمراء انفضّ ذلك الجمع الذى كان بالأزبكية كأنه لم يكن ، وكانت الكسرة على قانصوه خمسمائة .

---

(١) الحجاب : أضيف هنا فى ف : وجان بلاط من يشبك ، وشاد بك أخوخ .
(٥) الذين : الذى .   (١٢) خير : كذا فى الأصل ، وفى ف : خبر .
(١٤) كلمه : كذا فى الأصل ، وفى ف : لكمه .

ثم إن السلطان نادى للعسكر بأن يقلعوا آلة الحرب ويتوجّهوا إلى بيوتهم ، ونادى للناس بالأمان والاطمان ، وسكنت تلك الفتنة ؛ وكان قانصوه خمسمائة فى هذه السنة جدّد سور باب السلسلة ، وأنشأ المقعد المطلّ على الرملة ، والمبيت ، وحوله أبراج موجودة به إلى الآن .

فلما كان يوم الجمعة صبحة ذلك اليوم قبض بعض مشايخ العربان على الأمير قانصوه الألفى ، وكان قد توجّه إلى برّ الجيزة فقبض عليه من هناك ، وأُحضر إلى بيت آقبردى الدوادار ، فقيّده وأرسله إلى السجن بقلعة صفد ؛ ثم إن الأمير قانصوه الشامى أرسل يطلب الأمان من السلطان ، فأرسل له فى ذلك اليوم منديل الأمان ، فلما قابل السلطان أخلع عليه وقرّره فى نيابة حماة ، ورسم له بأن يخرج من يومه إلى السفر .

ثم إن آقبردى الدوادار صار يقبض على جماعة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة ، فقبض على قيت الرجبى والى القاهرة ، ومصر باى الثور المعروف بالشريفى ، فقيّدوهما وتوجّهوا بهما إلى السجن بالصبيبة ، ثم قبض على آخرين منهم ، وهم برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، وأسنباى المبشّر ، وقايتباى المبشّر أيضا ، وأزبك قفص ولكن فرّ فى أثناء الطريق ، وقبض على سودون الفقيه ، فنفى هؤلاء الجماعة عن آخرهم ، واستمرّ قانصوه خمسمائة مختفيا لم يظهر ، حتى كان ما سيأتى الكلام على ذلك .

وقد انتصف آقبردى (٤٤ آ) الدوادار على عصبة قانصوه خمسمائة ، وبدّد شملهم ، وفتك فى تلك الأيام ، وطاش وخفّ إلى الغاية ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحلّ والعقد ، ليس على يده يد ، وكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقّه ، كما يقال :

كل شيء إذا تناها تواها كانتقاص البدور عند التمام

---

(٣) سور : صور . (١٣) ومصرباى : كذا فى الأصل ، وهوالصحيح ، وفى ف : برسباى . || بالصبيبة ، أى بقلعة الصبيبة بالشام .

ثم إن آقبردى الدوادار فرّق فى هذه الأيام أضحية جزيلة على العسكر ممن هو فى عصبته ، فكانت تعدل ضحايا السلطان ، من بقر وغنم ، حتى غمر العسكر بالإحسان ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنا أسمر والراية البيضاء لى   لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحلُ لى عيش العداة لأننى   نوديت يوم الحرب بالمرّان

هذا ما كان من أمر هؤلاء ، وأما ما كان من أمر الأتابكى أزبك ، فإنه أقام بقاعة البحرة ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة رسم له السلطان بأنه يصلّى معه الجمعة وهو بالشاش والقماش على عادته ، فخرج وصلّى مع السلطان الجمعة ، فلما فرغ من الصلاة أراد أن ينزل إلى داره ، فقيل له : إن المماليك واقفة بالرملة ، ومتى نزلت من هنا يقتلونك لا محالة ، فخاف عليه السلطان وأدخله إلى قاعة البحرة ، ثم إنه اجتمع بالسلطان ، وقال له : أنا ما بقى لى إقامة فى مصر ، يقتلونى المماليك الجلبان ، وقصدى أتوجّه إلى مكة ؛ فأجابه السلطان إلى ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن ذى الحجة من تلك السنة ، نزل الأتابكى أزبك من من القلعة وهو راكب على إكديش ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، وعليه ملوطة بيضاء ، من غير تقييد ولا أوجاق خلفه ، فتوجّه إلى مكة من الطور ، ونزل من هناك إلى البحر الملح ، ورسم له السلطان بأن يأخذ ولده يحيى صحبته إلى مكة ، وكانت نكبته بغتة على حين غفلة ، كما يقال :

على قدر فضل المرء يأتى خطوبه   ويُعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قلّ فيما يتقّيه اصطباره   فقد قلّ ممـا يرتجيه نصيبه

فكانت مدّته فى الأتابكية نحوا من سبعة وعشرين سنة ، وسوف يعود إلى الأتابكية ثانيا كما سيأتى الكلام على ذلك . ــ (٤٤ ب) وفى ذلك اليوم رسم السلطان بإخراج الأمير يشبك الجمالى ، أحد المقدّمين والزردكاش الكبير ، فخرج منفيا إلى القدس ، ولم يكن له ذنب غير أنه كان من جماعة أمير كبير ، وحضر يوم الركبة إلى بيته ، فصار له ذنب ، وكان يشبك الجمالى من خواص السلطان ، ثم أقلب

عليه ، فأقام بالقدس منفيا إلى أن مات به عن قريب ، فكان كما يقال :

يمدّون ذنبا واحدا إن جنيته عليّ وما أحصى ذنوبهم عدّا

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من تونس ، بأن بها ثارت فتنة عظيمة ، وحصل لعساكر المغرب مقتلة مهولة ، والأمر إلى الله ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعمائة

وهى أول القرن العاشر ، وكان مستهلّها بالأحد ، وهو أول أيام الأسابيع ، وأول افتتاح العام بالأحد .

فنى المحرم كان خليفة الوقت الإمام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسى ؛ وسلطان العصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى جقمق ؛ وقاضى قضاة الشافعية زين الدين زكريا الأنصارى ؛ والقاضى الحنفى ناصر الدين محمد الإخميمى ؛ والقاضى المالكى عبد الغنى بن تقى ؛ والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى .

فمن حوادث هذه السنة أن السلطان أحدث مكسا على بيع الغلة ، وجعل على كل أردب نصف فضة ، ولم يعهد هذا قبل ذلك ، وكانت هذه الفعلة من أقبح مساوئه ، واستمرّ ذلك فى صحيفته إلى الآن . ــ وفيه قدم على باى نائب الإسكندرية ، فقرّره السلطان من جملة الأمراء المقدّمين . ــ وفيه وصل الحاج وقد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة ، ولم يجدوا الماء بنخل ، فعرّج بهم أمير الحاج إلى جهة عيون موسى حتى وجدوا الماء ؛ وأخبر بعض الحجاج أنه سمع وهو واقف بعرفة ما جرى بمصر من ركوب المماليك ، وكسرة قانصوه خمسمائة ، ونفى الأتابكى أزبك إلى مكة ، والقبض على جماعة من الأمراء ، فعُدّ ذلك من النوادر ، كيف أشيع ذلك فى عرفة من غير مخبر أتى إلى هناك .

وفيه قُدّم للسلطان أترجة غريبة الشكل ، اجتمع فيها سبع عشرة أترجة من أصل واحد ، فكانت بديعة الخلقة جدا . ــ وفيه عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى ، شيخ

(٦) أيام الأسابيع : أسابيع الأيام .

قبّة (٤٥ آ) السلطان التى بالمرج والزيات ، وكان قد توجّه إلى ابن عثمان قاصدا عن لسان السلطان ، وصحبته هديّة حافلة إلى ابن عثمان ، من جملتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون ، وغير ذلك أشياء كثيرة ، فلما عاد عبد المؤمن أخبر بأن ابن عثمان تلاشى أمر عسكره ، وبطلت همّته عن محـاربة عساكر مصر ، فسر السلطان لهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة صالح الـكردى حاجب حلب وشيـخ الأكراد بها ، مات قتيلا . ــ وجاءت الأخبار من حلب أيضا بقتل محمود بن أبى سعيد صاحب سمرقند ، قتله محمود بن يونس خان صاحب شاش ، وملك من بعده سمرقند ، وكان محمود هذا آخر ذرية تمرلنك ، وبه زالت دولتهم كأنها لم تـكن ، وهو محمود بن أبى سعيد بن أحمد بن ميران شاه بن تمرلنك ، وكان من أعيان ملوك الشرق. ــ وفيه ترشح أمر تمراز الشمسى بأن يلى الأتابكية .

وفى صفر فى يوم الاثنين مستهلّه عمل السلطان الموكب ، وأخلع على جماعة من الأمراء ، فقرّر تمراز الشمسى فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك من طُطخ ، بحكم نفيه إلى مكة ؛ وأخلع على تانى بك الجمالى ، وقرّر فى أمرة السلاح ، عوضا عن تمراز ، بحكم انتقاله إلى الأتابكية ؛ وقرّر أزبك اليوسفى فى أمرة مجلس ، عوضا عن تانى بك الجمالى ، بحكم انتقاله إلى أمرة سلاح ؛ وقرّر تانى بك قرا الأينالى رأس نوبة النوب ، عوضا عن أزبك اليوسفى ، بحكم انتقاله إلى أمرة مجلس ؛ وقرر أينال الخسيف فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن تانى بك قرا ، بحكم انتقاله إلى الرأس نوبة الـكبرى ؛ وأنعم فى هذا الشهر بتقادم ألوف على جماعة من مماليـكه ، منهم ماماى من خداد ، وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وكرتباى الأحمر كاشف البحيرة ، وقانم قريبه ، وعلى باى نائب الإسكندرية ، وجانم الشهير بالمصبغة ؛ وأنعم بأمريات طبلخانات وعشرات على جماعة كثيرة ممن هو من عصبه آقبردى الدوادار ، منهم آقباى الطويل ، وخاير بك الدوادار ، وطقطباى من طبقة الأربعين ، وطقطباى أيضا

---

(١٦) تانى بك . . . وقرر : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

من طبقة الطازية ، وغير ذلك جماعة آخرين يأتى الـكلام عليهم فى موضعه .

وفيه أخلع على قانبك الشريفى (٤٥ ب) وقرر فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن على باى ، بحكم انتقاله إلى التقدمة . ـ وفيه توفى المسند شرف الدين القبانى ، وكان من أهل الفضل لا بأس به . ـ وفيه أخلع على الأتابكى تمراز ، وقرّر فى نظر البيمارستان المنصورى ، فتوجّه إلى هناك فى موكب حافل .

وفى ربيع الأول أخلع على شمس الدين محمد بن مزاحم ، وقرّر فى نظر الأوقاف والأحباس ونظر القرافتين ، وكان أصله من طرابلس ، وكان غير مشـكور فى أفعاله . ـ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا كان آخر موالد السلطان ، ولم يعمل بعد ذلك مولد . ـ وفيه أخلع على تانى بك قرا رأس نوبة النوب ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب المحمل ، وقرّر بُرد بك نائب جدّة فى أمرة الأول .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة يشبك الجمالى ، أحد الأمراء المقدّمين كان ، وكان دينا خيرا ، وأصله من مماليك ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف ، منها حسبة القاهرة ، والزردكاشية والتقدمة ، وسافر أمير حاج بركب المحمل غير ما مرّة . ـ وفيه وقع بين الأمير آقبردى ، وبين قرقماس من ولى الدين أمير آخور ثالث ، واستمرّت العداوة بينهما تتزايد حتى كان ما سنذكره .

وفى ربيع الآخر أخلع السلطان على شاد بك من مصطفى المعروف بأخوخ ، وقرّره أمير آخور كبير ، عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم اختفائه ؛ وقرّر برد بك المحمدى الأينالى أمير آخور ثانى ، عوضا عن شاد بك ؛ وقرر دولات باى من غيبى الأينالى فى الزردكاشية الـكبرى ، عوضا عن يشبك الجمالى ، بحكم موته فى القدس بطالا ؛ وقرّر برقوق الساقى الأينالى فى الحسبة ، عوضا عن كسباى ؛ وقرّر كسباى

---

(١) الطازية : كذا فى ف ، وفى الأصل : الظارية . (١٤ـ١٥) والزردكاشية والتقدمة : كذا فى الأصل ، وفى ف : ثم بقى مقدم ألف وجمع بين الزردكاشية والتقدمة .

فى الدوادارية الثانية ، وكان يعرف بكسباى الشريف ؛ وقرّر مصر باى فى شادية الشراب خاناه ؛ وقرر أركماس الحلبى فى نيابة القلعة ؛ وقرر سودون العجمى فى أستادارية الصحبة ؛ وقرّر برد بك من بير على فى تجارة المماليك ، فأخلع على هؤلاء الجميع فى يوم واحد .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، بأن أمير المدينة هجم على حواصل المال التى بها من قبل النذور ، فاستولى على اثنى عشر ألف دينار ، وأخذ عدة قناديل ذهب كانت معلقة بالحجرة الشريفة ، وخرج إلى جهة العراق (٤٦ آ) فلم يُدرك . — وفيه أخبر جماعة من الفلكية بأن زحل قد اقترن مع المريخ فى برج الحوت ، وذكروا بأن هذا القران سيقع به فتن عظيمة عن قريب ، فأجاب شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى عن ذلك بقوله :

ليس القران بفاعل   كلا ولا بمؤثّر
إن المؤثّر فعـل من   خَلَق القران تدبّر
فالفعل عنه صـادر   كم يا منجّم تفترى

وفيه توفى بيغوت من تبجق قرا ، أحد الأمراء العشرات الأشرفى برسباى ، وكان لا بأس به ، فلما مات أنعم السلطان بأمرته على تانى بك الأبح . — وفى هذه الأيام رخص المغل جدا ، حتى أبيع كل خمسة أرادب قمح بدينار ، وأبيعت البطة الدقيق بثلاثة أنصاف ، وعمّ الرخاء فى سائر البضائع .

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بقطع آيدى ثمانية أنفار ممن يعملون الدراهم الزغل ، وكان فيهم شيخ قد ناف عن الثمانين ، فقطعت أيديهم وشهروا فى القاهرة . — وفيه توفى الزينى فرج المقرئ ، وكان قد قارب التسعين سنة من العمر ، وكان لا بأس به . — وفيه توفى قايتباى الناظر الظاهرى خشقدم ، وكان من الأمراء الطبلخانات بدمشق . — وفيه أذن السلطان إلى القاضى محبّ الدين محمود بن أجا ، بأن يتوجّه إلى حلب على وظيفته فى قضاء الحنفيه بحلب ، وكان قد حجّ فى العام الماضى .

---

(١٤) تبجق : فى ف : قبخق .   (٢٢) محب الدين : فى ف : بدر الدين.

وفى جمادى الآخرة نزل جماعة من المنسر على علاى الدين بن الصابونى ناظر الخاص، وكان فى تربته التى أنشأها فى رأس دور الحسينة ، فأخذوا جميع ما كان عنده ، وجرح ابن الصابونى فى يده ، وكانت واقعة مهولة . ـ وفيه مات يشبك دجاج المحمدى الظاهرى جقمق أحد العشرات .

وفى رجب توفى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن عربشاه الدمشقى الحنفى ، شيخ المدرسة الصرغتمشية ، وكان من أهل العلم والفضل لا بأس به ، فقرّر عوضه فى مشيخة الصرغتمشية شمس الدين الغزّى . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه نائب دوركى ، شنق قاضى المدينة سيف الدين يوسف الحنفى ، وقد بلغه أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار هذه المملكة ، وربما اتُّهم بذلك .

وفى شعبان كانت وفاة القاضى عبد الغنى بن الجيعان ، وهو عبد الغنى (٤٦ ب) ابن علم الدين شاكر ، وكان متولّى كتابة الخزانة ، وكان من خيار بنى الجيعان ، رئيسا حشما موصوفا بالكرم الزائد ، ويحكى عنه أشياء فى برّه للناس ما لا يحكى عن البرامكة فى أيامهم ، ومات وهو فى عشر الثمانين ، وكانت جنازته حافلة ، فكان أحق بقول القائل :

فلو أن البرامك عاينوه وأنعمه تعمّ الخلق سقيا
فينضب جعفر ويعوز فضل ويبلى خالد ويموت يحيى

وفيه هجم المنسر على سوق التجّار بجامع ابن طولون ، وكسروا منه عدّة دكاكين، وأخذوا ما كان فيها من القماش ، وراحت على أربابها .

وفى رمضان توفى سودون أكديش الظاهرى جقمق أحد العشرات ، وكان لا بأس به . ـ ومن الحوادث فى هذا الشهر أن السلطان نادى للعسكر بالعرض ، فلما طلعوا إلى القلعة أحضر لهم المصحف الكبير العثمانى وحلّفهم عليه قاطبة ، وكذلك الأمراء أن لا يخرجوا عن طاعته ولا يخالفوه فيما يريد ،

---

(١٦) ويعوز : ويفوز .

ثم نفق عليهم نفقة كاملة ، لكل مملوك مائة دينار ، ولطائفة منهم خمسون دينارا ، وشيء عشرون دينارا وشيء عشرة ، فنفق على المماليك قاطبة ، ثم على الخدّام وأولاد الناس ، ثم بعث نفقة للخليفة ولبعض أمراء ، فبلغت هذه النفقة زيادة على الأربعمائة ألف دينار .

ولا يعلم ما سبب هذه النفقة التى انتفقت من غير موجب لذلك ، والذى أشيع بين الناس أن السلطان قال : أنا لما تسلطنت لم أنفق على العسكر شيئا ، فهذه فى نظير ذلك؛ والوجه الثانى أن السلطان قصد ظهور قانصوه خمسمائة ، وكانت له به عناية تامة، فنفق على العسكر حتى يرضيهم بسبب ظهور قانصوه خمسمائة ، فما سهل ذلك على آقبردى الدوادار ، وأخذ حذره مما سيأتى .

ومن العجائب أن مال هذه النفقة كان مجهزا حاضرا ، وهى الخمسة أشهر التى أخذها من أجرة الأملاك والأوقاف ، ومن أوقاف الجوامع والمدارس والبيمارستان ، وصادر فيها طائفة اليهود والنصارى ، وتجار الفرنج وتجار المغاربة والبرالسة ، وغير ذلك من أعيان التجار (٤٧ آ) ومشاهير الناس ، وكان هذا المال الذى جُبى من هذه الجهات تحت يد القاضى علاى الدين بن الصابونى ناظر الخاص ، والأمير تغرى بردى الأستادار ، فلما خمدت فتنة ابن عُثمان التى كانت سببا لذلك ، فما وفّق الله تعالى أن يردّ للناس ما أخذه منهم ، كما فعل الأشرف برسباى ، لما أخذ من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم بسبب تجريدة شاه روخ بن تمرلنك ، لما تحرك عليه فى سنة إحدى

(١–٣) ثم نفق . . وأولاد الناس : كذا فى الأصل ، وفى ف: وفيه نفق السلطان على العسكر ، وقيل صدقة ، ففرق على المماليك القرانصة والسيفية الذين كانوا منزلين بالديوان قبل سلطنته، هم وجلبانه لكل واحد منهم خمسون دينارا، ولأولاد الناس أصحاب الجوامك العتق ، لكل واحد منهم ثلاثين دينارا ، وقيل إنه فرق بعد ذلك على الخدام الطواشية، لكل واحد منهم عشرين دينارا واثنى عشر دينارا .

(٧) ذلك : أضيف هنا فى ف : والأصح ذلك لأنه نفق على القرانصة العتق ، والسيفية العتق، مائة دينار لكل واحد ، والذى تجدد من القرانصة السيفية فى أيامه خمسون دينارا لكل واحد ، وسماها صدقة .

وأربعين وثمانمائة ، فلما بطل أمر التجريدة ، وحصل للأشرف برسباى ر جسده ، ردّ لأجناد الحلقة ما كان أخذمنهم ، وكُتب ذلك فى صحيفته إلى يوم القيا. والأشرف قايتباى جمع هذا المال من وجوه المظالم ، وحصل للناس بسبب ذلك مشقّة زائدة ، فأخرجه فى غير مستحقّه ، لا فى وجه من وجوه النفعة للمسلمين ، فكانت كما قيل :

لست أعطى فى حرام أبدا إلا حراما

وفى شوال قرّر عنبر التكرورى فى نيابة تقدمة المماليك ، ثم بقى من بعد ذلك مقدّم المماليك . ـ وفيه توفى تنم الضبع الظاهرى جقمق أحد العشرات ، وكان أخو تانى بك الجمالى أمير سلاح ، فلما مات تنم الضبع ، وقف شخص من الأمراء العشرات يقال له ملاج من طُطخ الظاهرى [جقمق] ، يطلب من السلطان إقطاع تنم الضبع ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، فخنق ملاج من السلطان ، فلما نزل إلى داره شنق نفسه من شدّة قهره ، فمات هو وتنم الضبع فى يوم واحد ، وقد تقدّم القول على وفاة ملاج .

وفيه وقعت الوحشة بين آقبردى الدوادار ، وبين جان بلاط وماماى ، لما رآهما قد التفا على كرتباى الأحمر ، ويشبك قر ، وكان جان بلاط أعزّ أصحاب آقبردى الدوادار . ـ وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك قرا رأس نوبة النوب ، وبرد بك نائب جدّة بالأول . ـ وفيه توفى أركماس الحلبى نائب القلعة ، وكان لا بأس به . ـ وتوفى محمد بن نوروز المحمدى الميقاتى ، وكان علامة فى هذا الفن .

وفى أواخر هذا الشهر ظهر الأمير قانصوه خمسمائة ، وكان مدّة اختفائه

(١٤) وماماى : أضيف بعدها فى ف مايأتى: وسببُ ذلك أن جان بلاط طلب أمرية الآخورية الكبرى وعينت له ، فوقف آقبردى وباس الأرض على أن يكون شاد بك أخوه أمير آخور كبير ، فأنعم السلطان على شاد بك بها ، فمن حينئذ وقعت الوحشة بينهم .

) تسعة أشهر ، فلما طلع إلى القلعة رسم له السلطان بأن يأخذ تحت إبطه رب بعلبكى حتى يرقّ عليه قلب العسكر ، يعنى جاء وكفنه تحت إبطه ، فلما وقف بين يدى السلطان قبّل الأرض، فأخلع عليه كاملية صوف صينى بصمّور ، ورسم له بأن يتوجّه إلى داره ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وصحبته الأتابكى تمراز ، وآقبردى الدوادار ، فوصّلاه إلى داره ورجعا .

وفى ذى القعدة ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، ممن هو من عصبة قانصوه خمسمائة ، فلبسوا السلاح وطلعوا إلى الرملة ، وحاصروا آقبردى الدوادار وهو فى داره ، فلما تزايد الأمر وأحرقوا الربع التى خلف بيت آقبردى عند سوق الجلاق ، فلما بلغ السلطان ذلك ركب ونزل إلى باب السلسلة ، وجلس بالمقعد المطلّ على سوق الخيل ، فلم تخش منه المماليك وتزايد الأمر ، ومما أفحشوا المماليك فى حق السلطان ، أن قبل ذلك بمدّة طويلة ، كان السلطان ينام فى الصيف على الدكة التى بالحوش ، فدخل عليه فى الليل بعض الخاصكية ، وقال له : إن المماليك الذى فى طبقة الحوش قد عوّلوا على أن ينشبوا السلطان وهو راقد على الدكة .

فلما بلغ السلطان ذلك بادر وقام من على الدكة ، وتحوّل إلى مكان غيره ، فلما أصبح وجد ثلاثة أسهم نشاب فى المخدة التى ينام عليها ، فما وسع السلطان إلا تستّر هذا الأمر ، ونقل المماليك من طبقة الحوش ، وسدّ بابها وقطع سلّمها ، انتهى ذلك ؛ فاستمرّ السلطان جالسا بالمقعد الذى بباب السلسة إلى بعد العصر ، فبلغه أن آقبردى

---

(١٠) الخيل : أضيف بعدها فى ف : بالرملة .

(١٣) الحوش : كذا فى الأصل ، وفى ف : المطلع .

(١٥ـ١٦) فى المخدة . . . انتهى ذلك : كذا فى الأصل ، وفى ف : فى المخدة واللحاف الذى كان للسلطان بسبب النوم والتغطية عليه ، فما وسع السلطان إلا أنه فرق المماليك الذى بطبقة المطلع على الأطباق ، وجعل على حائط كل طبقة المطلع بناء تستر منه رؤية الحوش ، وقيل إن الذى فعل به ذلك وأرمى عليه هو شخص خاصكى من أخصائه يسمى شرمنت ، فأحضره وضربه بين يديه نحوا من ألفين عصاة ، حتى قيل إنه مات ، وضرب معه جماعة من أصحابه وسجنهم بالبرج ، وقطع جوامكهم ، وأبطل شرمنت من الخاصكية ، وذلك قبل فتنة ابن عثمان مع السلطان .

الدوادار قد غيّب من داره ، فعند ذلك قام السلطان وقد حمّ فى جسـ وطلع إلى القلعة ، وكان هذا آخر ركوبه ورؤية الناس إليه ، فلما دخل إلى ، طلع إلى المقعد ، ودخل إلى المبيت التى به ، فلزم الفراش ، وثقل فى المرض من ليلته . ولما غيّب آقبردى ، نهب العوام داره ودار الأمراء الذين من عصبته ، منهم أينال الخسيف ، وشاد بك ، وغير ذلك من الأمراء ، وهذه أول كسرة آقبردى ، فكان كما قيل :

لا تعجبوا للدهر فى أفعاله　　إن أضحك الباكى وأبكى الضاحكا

ثم إن السلطان تزايد به الألم ، وقوى عليه أمر الإسهال المفرط وعجز عن الحركة ، وكثر القيل والقال بين الناس . — ثم إن النيل (٤٨ آ) أوفى فى تلك الأيام ، فرسم السلطان للأتابكى تمراز بأن يتوجّه ويفتح السدّ ، فتوجّه وفتح السدّ والناس فى غاية الاضطراب ، ثم طلع الأتابكى تمراز إلى القلعة ولبس خلعته بسبب فتح السدّ ، وكل هذا والسلطان على غير استواء ، وأشيع أنه فى النزع وقد خرس .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه طلع الأتابكى تمراز إلى القلعة ، ودخل على السلطان فى المبيت ، فوجده فى السياق ، فقال له : يا مولانا السلطان إن الأحوال قد فسدت ، ومن الرأى أن تسلطن سيدى ؛ فلم يردّ عليه السلطان جوابا ، فأخذ سيدى ابن السلطان ، ونزل به إلى باب السلسلة ، فأجلسه فى المقعد الذى هناك ، وجلس معه ليولّيه السلطنة ، فانتظر الأمير آقبردى الدوادار بأن يطلع إليه ، فاختفى آقبردى ولم يطلع إلى القلعة فى ذلك اليوم ؛ فلم يشعر تمراز إلا وقد دهمته العساكر كالجراد الناشر ، وذلك أن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر ، لما بلغهما أن الأتابكى تمراز بباب السلسلة ومعه سيدى ابن السلطان ، فلبسوا السلاح وهجموا ودخلوا الميدان من عند حوش العرب ، وطلعوا إلى باب السلسلة من الاسطبل ، فقبضوا على الأتابكى تمراز وقيّدوه وسجنوه بالبرج التى بباب السلسلة .

ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين ، أحدهما فى رجليه ، والآخر

---

(٥) وغير ذلك من الأمراء : كذا فى الأصل ، وفى ف : وقانم وجانم مصبغة وغيرهم .

وخلفه أوجاق بخنجر يردفه ، فنزلوا به من باب الميدان الذى عند حوش ب ، وتوجّهوا به من على المجراة إلى البحر ، وكان المتسفّر عليه أخو قانصوه الألفى وهو جانم، وبطلت الإشاعة بسلطنته ؛ فلما جرى ذلك وقع النهب فى داره ، ودار آقبردى الدوادار ، وجماعة من الأمراء ، ممن كان من عصبة آقبردى ؛ ثم إن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر ، وجماعة من الأمراء ممن هو من عصبة قانصوه خمسمائة ، باتوا بباب السلسلة تلك الليلة ، واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، فترشّح أمر سيدى ابن السلطان ووقع الاتفاق على ذلك .

فلما كان يوم السبت سادس عشرين ذى القعدة اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة ، وأرسلوا خلف أمـــير المؤمنين المتوكل على الله (٤٨ ب) أبو العز عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة ، وهم : قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، وقاضى القضاة ناصر الدين محمد بن الإخميمى الحنفى ، وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقى المالـكى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمد السعدى الحنبلى ؛ فلما تـكامل المجلس تـكلموا فى خلع الأشرف قايتباى بحكم أنه قد أشرف على الموت ، فبايعه الخليفة بالسلطنة عوضا عن أبيه الأشرف قايتباى ، وأشهدوا عليه القضاة بذلك ، فهذا كله وقع والسلطان قايتباى فى النزع لم يشعر بشىء مما جرى .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرين ذى القعدة من سنة إحدى وتسعمائة ، فيه كانت وفاة الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، توفى إلى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر وبات بالقلعة ، وأخرج صبحة يوم الاثنين ثامن عشرينه ، فتوفى وله من العمر نحو من أربعة وثمانين سنة ، ومات بعلّة الدبلة ، واعتراه علّة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

---

(٢) البحر : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به إلى الإسكندرية ، فسجن بها . (٣) جانم : فى ف : جانم من برسباى .

(١٤) فبايعه الخليفة بالسلطنة : كذا فى الأصل، وفى ف : فخلع وبايع الخليفة ولده الناصرى محمد بالسلطنة . (١٦) سابع عشرين : كذا فى الأصل ، وفى ف : سادس عشرين .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يوما ، بما فيه من مدّة انقطاعه عند توعّك جسده ، فإنه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وتوفى يوم الأحد سابع عشرين ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، وهذه المدّة لم تتفق لأحد من ملوك الترك قبله .

وعاش عمره كله وهو فى عزّ وشهامة ، من حين كان خاصكيا إلى أن بقى سلطانا ولا نُنى قط ، ولا تقيّد ولا سُجن ، وكان عليه سكينة ووقار ، مهاب الشكل فى العيون جميل الهيئة ، مبجّلا فى موكبه ، كفوا للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها ، ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطىء العزل لأرباب الوظائف ، يتروّى فى الأمور أياما قبل وقوعها ، وكان لا يُخرِج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته ، ويرسل يكشف عليه وهو ميت حتى يصدّق بموته .

وكان صفته طويل القامة ، عربى الوجه ، مصفرّ اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية ، تولّى الملك وله من العمر نحو من أربعة وخمسين سنة ، وكان موصوفا بالشجاعة ، عارفا بأنواع الفروسية ، ولا سيما فى فن لعب الرمح ، علامة فى كل فن ؛ لكنه كان محببا لجمع الأموال ، ناظرا لما فى أيدى (٤٩ آ) الناس ، ولولا ذلك لكان خيار ملوك الجراكسة على الإطلاق ، ولكنه كان معذورا فى ذلك ، تحرّك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرها ، وجرّد إليهم عدّة تجاريد ، نحو ست عشرة تجريدة ، وهو ثابت على سرير ملكه لم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ما أصرفه على نفقات التجاريد التى جرّدها فى أيام سلطنته إلى أن مات ، فكانت نحوا من سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجا عما كان ينفقه على المماليك عند عودهم من التجاريد ، وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها .

وكان مغرما بمشترى المماليك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه ، لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك ؛ ومن العجائب أن من بعده قد انحصرت

ســتة مصر فى مماليكه فقط دون غيرهم ، وتسلطن منهم إلى الآن أربعة سلاطين ؛ وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمرا ، ولا كان يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة، وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعات فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة ، وإلى الآن تتلى فى الجوامع ؛ وكان له اعتقاد فى الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته ، وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشّف .

وكان لا يوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان له برّ ومعروف ، وأوقف عدّة جهات على وجوه البرّ والصدقة ؛ وكانت محاسنه أكثر من مساوئه ، ولم يخلّف من الأولاد سوى ابنه محمد الذى تسلطن من بعده ، وكان من سريته أصل باى، ولم يتزوج فى مندعمره سوى بخوند فاطمة ابنة العلاى على بن خاص بك ، واستمرّت معه إلى أن مات ، ورثاه الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتونى بهذه القطمة الزجل وهو قوله :

يرحم الله سلطاننا الأشرف — كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور — ينصر الله العادل الناصر

لما زاد الضعف بقايتباى — والدوادار فى غاية الإمكان
(٤٩ب) وتوافق مع الأمير تمراز — فطلع قانصوه إلى الميدان
وأتى القلعة معو كرتباى — والأمارة وهدّموا البنيان
هرب آقبردى وقيّدوا تمراز — وتولّى سلطاننا الناصر
من يخالف أمرو ومن يعصيه — ردّ مقهور والأمر للقاهر

فولّى الملك سادس العشرين — من شهر ذى القعدة طلوع شمسو
بعد واحد من السنين تالى — تسعمائة بعد انقضا أمسو
وتوفى أبوه أخير النهار — فى صباحو واروه حلول رمسو
بعد ملكو تسعة وعشرين عام — واربع أشهر بالكاتب الحاصر

(٢٣) ملكو : ملوكو .

ويليها أحـــد وعشرين يوم   لا يزيدو أوّل ولا آخر

مات الأشرف والقبر صار حاويه   بعد لسمو بالموت وسمّو حاق
وسرى فيه سمّ الذيبب حايق   ما وجد لو من ذى القضا درياق
وقد أمسى مرهون بأفعـالو   وأتت لو آفة قضـاه تنساق
لهْف قلبي عليه شجاع وفتو   والخوندات تبـكى عليه باكر
كم رأينـــا تـكلا وهى حيّـه   شعرها صار من حزنها ناشر

لهْف قلبي على الأمير تمراز   كان موقّر وهو الأمير الـكبير
والدوادار حولو رجال وأعوان   يضربوا بالحسام ومالو كثير
قال لتمراز : ما عنـدنا غيرك   كن مساعد وانت النظام والمشير
جت جمـــاعه لقانصوه بالخبر   خبّروه بيه ركب وكان صابر
وطلع للقلعـه مسك تمراز   وظفر بيه وصار عليه ظافر

العجب فى الركبه نهار جمعه   من سنه كان فى الأزبكية القوم
كيف يوافق لشهر ذى القعده   والعدد فيه خمسه وعشرين يوم
مثل يومو فى الشهر والجمعه   والعدد فيه فاعجب لهـــذا دوم
والجزا من جنس العمل قالوا   وبهذا صـــار المثل ساير
كل من كان يحفر لأخيه حفره   ما يقع فى الحفرة سوى الحافر

الدوادار وشاد بك والحسيف   هم وجانم غابوا عن الحضّار
والجمالى نظــام أمير السلاح   بالمقدّر وكرتباى قد صـــار
هو المقدم وكاشف الـكشاف   ومدبّر وزير وأسـتادار
وعلى الـكل قانصوه عالى   خمسمائه هو الشـاطر الماهر
قد تولّى أتابك العســكر   والأمير الـكبير وهو الناظر

(١٥٠أ) خلت دوله كرقعة الشطرنج   والدوادار قانصوه فى رهان
كم رأينا بيدق من الحاشيه   قد تقدم عندو وصار فرزان
لما ساق الفرس يريد النيل   غالبتهم فى حومة الميدان
ضربوا شاه لما انكشف رخو   ما وجد لو فى رقعتو ساتر
ماتت النفس وانقلب دستو   وهرب راح مرماد وهو الخاسر

ضربوا تحت الرمل للغيّاب   جودلتهم دلّت على الحضره
ورأينا الألفى نقا خدّو   فى بياضو قد أشرقت حمره
واجتماعو باصحاب وآل أحيان   ولّد اشكال يلتى بهم نصره
وظهرلو راية فرح فى الطريق   مع جماعة بالعزّ تتباشر
بانّو يطلع وينظر السلطان   مرحبا بالطالع وبالناظر

اعتذارى للّى سمع قولى   إنّ صحبى والقرب يأتونى
يقصدونى ويطلبوا فنّى   إن تأبيت بالعجز يرمونى
أستحى أن أظهر ضعيف نظمى   وجمالى أنسب لزيتونى
وانّنى أبو النجا العوفى   إن تجد عيب فيما أقول حاضر
استر العيب واربح ثواب سترى   جلّ من لا فيه عيب وهو الغافر

لو تكونوا البحار مع الأنهار   وجميع المياه وسيل الغمام
حبر جارى وساير الأعشاب   والنبات والشجر جميع أقلام
والسموات والأرض والأكوان   تبق أوراق طباق ليوم القيام
وجميع العالم يجوا كُتّاب   يكتبوا المدح فى النبى الطاهر
للقيامة ما يحصروا ذرّه   من مديحو ووصفه الفاخر

كان للأشرف خصال ملاح تشكر   ما رأينا فى عصرنا مثلو

يا الذى جا يسمع بديع نظمى   خد وحرّر على جميع نقـلو
وإن أتى لك من يطلب التاريخ   والوقايـع عن الملوك قل لو
يرحم الله سلطاننا الأشرف   كان مؤيد على العدا ظـاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور   ينصر الله العـادل النـاصر

انتهى ذلك ؛ وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى فى أيام دولته من المبانى الفاخرة ، منها أنه جدّد عمارة المسجد الشريف النبوى لما احترق ، وأنشأ قبّة عظيمة على القبر الشريف ؛ وأنشأ هناك مدرسة بشبابيك مطلّة على الحرم (٥٠ ب) النبوى ، وأنشأ مدرسـة بمكة عند باب السلام ، وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة بدمشق ، ومدرسة بثغر الإسكندرية ، والبرج المعظم التى أنشأها مكان المنار القديم ، وأنشأ مدرسة بغزّة .

وأما ما أنشأه من المبانى بالديار المصرية وهو الجامع الذى أنشأه بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضة ، وجامع برأس الـكبش ، وجامع بباب الخرق عند الشيخ سلطان شاه ، والسبيل والمـكتب بقريب من سوق تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدّد عمارة قبّة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، ومدرسة بالخانـكاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس فى أماكن شتى من البلاد ، وأنشأ السبيل الذى برأس سويقة عبد المنعم ، وأنشأ بالقاهرة عدّة زوايا وأسبلة وصهاريج وغير ذلك ، وأنشأ السبيل الذى بالقرب من جامع الأزهر ، وأنشأ الخان الذى عند الخان الخليلى ، وأنشأ عدّة قناطر فى أماكن عديدة ، وأنشأ بالقاهرة عدّة ربوع وحوانيت فى مواضع متفرّقة وجعلهم وقف على الدشيشة التى كان قد قرّرها بالمدينة الشريفة .

وأما ما أنشأه بالقلعة وهو المقعد الذى هو داخل الحوش ، والمبيتين التى حوله ، والحواصل التى بجوار قاعة البحرة ، وجدّد عمارة الإيوان الناصرى الذى بالقلعة ،

(١٦) الذى : التى .

وأنشأمواضع كثيرة بالقلعة، وجدّد عمارة قناطر أبو المنجا ، والقناطر التى بشبرمنت بالجيزة ، وأنشأ هناك رصيفا وحصل به غاية النفع فى أيام النيل للمسافرين ، وجدّد عمارة قنطرة باب البحر ، وجدّد عمارة الميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية وأصرف عليه جملة مال ، وجدّد بناء زاوية الشيخ عماد الدين رحمة الله عليه ، وجدّد عمارة باب القرافة ، وأنشأ هناك الربوع الهائلة ، وأنشأ مقعدا ومبيتة وجنينة بدار البقر التى تحت القلعة ، وجدّد عمارة جامع الرحمة التى بنيط جانى بك نائب جدّة ، وجدّد مقام سيدى أحمد البدوى وبناه بناء حافلا ووسّعه ، وأنشأ عدّة قناطر وجسور بالشرقية والغربية ، وله عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع للمسلمين .

وأما ما أبطله فى أيام سلطنته من شمار المملكة ، وهو خدمة القصر بالشاش والقماش ، وقد قرّرته الملوك السالفة لإقامة الحرمة ونظام المملكة ؛ وأبطل الرمايات التى كانت تعمل ببركة الحبّ ؛ ودخول الملوك إلى القاهرة فى المواكب الحافلة ، والعسكر قدّامه بالشاش والقماش ، ويكون لهم يوم مشهود ؛ وأبطل لبس الصوف بالمطم ، وكان يشقّ الملك القاهرة وهو لابس الصوف ، هو والأمراء ، ويكون لهم يوم مشهود .

وأبطل المركب المسماة بالذهبية ، وكان من شمار المملكة ، ولا سيما يوم وفاء النيل ، وكانت الملوك (٥١ آ) تتوجّه فيها إلى المقياس ، وكان بها ستون مقذافا ؛ وأبطل المركب المسماة بالدرمونة ، وكانت تحمل مغلّ الحرمين الشريفين ، وكانت غريبة الهيئة فى شكلها ؛ وأبطل دوران المحمل فى رجب فى أيام سلطنته ، وما كان يعمل فيه يوم سوق الرماحة لما يلبسون الأحمر ويسوقون به ، وكانت تزيّن القاهرة ، وأبطل المسارات التى كانت تعمل فى تلك الأيام ، وكان ينفق فى مدّة دوران المحمل من الأموال ما لا ينحصر ؛ وأبطل فى أيامه أشياء كثيرة من شمار المملكة ، لم نذكرها هنا خوف الإطالة ، ولكن آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم مما ذكرناه الظاهر خشقدم ، رحمه الله تعالى .

---

(١٩) ويسوقون : ويسوقوا . || المسارات : سايرات .

وأما ماعُدّ له من المساوئ ، فإنه لما تولّى السلطنة ، ندب يشبك الدوادار لما تولّى الوزارة ، فقطع لحوم جماعة من الناس كانت مرتّبة لأيتام ونساء أرامل ، وكانت تباع وتشترى بين الناس من الديوان إلى آخر دولة الظاهر خشقدم ، وكانت الوزراء تنتج بالسداد لذلك ؛ ثم فعل مثل ذلك بالجوامك ، وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس ، وذلك بسبب تجريدة سوار لمن يسافر ، والذى أبقاه أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية ألفان درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم خمسين دينارا ، بسبب بديل لتجريدة سوار .

وأخذ من أجرة أملاك القاهرة وغيرها سبعة أشهر ، وعمّ ذلك للأوقاف من الجوامع والمدارس والترب ، وحصل من ذلك الضرر الشامل كما تقدّم ؛ وصادر اليهود والنصارى فى أيامه مرّتين ؛ وصادر جماعة من أعيان التجار ومن تجار الأرياف والبرلسية ؛ وأرمى على البلاد التى فى الشرقية شيئا يقال له الخمس ، بسبب خيالة تخرج مع التجريدة إلى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بعربان جبل نابلس ، ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين وحصل لهم الضرر الشامل ؛ ومنها أنه كان يولّى جماعة من مماليكه عوضا عن مشايخ العربان ، فيجورون على الفلاحين ويأخذون منهم غير العادة أضعافا ، فيحسب ذلك على المقطعين من خراجهم ؛ وكذلك الكشاف يقرّر عليهم الأموال فيجورون أيضا على البلاد ويأخذون المثل أمثال ، فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد وانحطّ خراج المقطعين جدا ، وقد تزايد الأمر بعد ذلك حتى جاوز الحدّ فى النهاية .

ومنها أنه أحدث مكسا على بيع الغلال ، (٥١ ب) وجعل على كل أردب قمح أو شعير نصف فضة خارجا عن ثمنه ، لمن يشترى أو يبيع ، وقد تزايد الأمر بعد ذلك إلى أن صارت نصفين ؛ وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بحضرته وضيّق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من الملوك ، وكان مقدّم المماليك وأحد رءوس

(٦) ألفان : كذا فى الأصل . (١١) والبرلسية : كذا فى الأصل ، وفى ف : البرانسة .
(١٤و١٦) فيجورون . . . ويأخذون : فيجوروا . . . ويأخذوا .

النوب يتولّى تفرقة الجامكية فى الإيوان ، ولم يشعر السلطان بذلك ، فبطل ذلك واستمرّت من يومئذ تنفق الجامكية بحضرة السلطان إلى الآن ، ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرها من الأفعال الشنيعة مما تقدّم ذكره ، وقطع يد إبراهيم ابن قريبعين صيرفى الجامكية ، وكان فى سنّ شيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع ، وقد رتّب له السلطان ما يكفيه إلى أن مات .

ومن محاسن الأشرف قايتباى أنه كان فى شدّة غضبه يستحيل فى الحال راضيا ، ويزول ما كان عنده من الحدّة ، وهذه من أجمل الخصائل ؛ وفى الجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه ، وكان خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء من بعده من السلاطين ، ولولا كان عنده بعض طمع لكان أجلّ ملوك الجراكسة ، وكان من خيارهم ، ولكن كما يقال :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء فضلا أن تعدّ معايبه

وقال بعض العرب :

إذا أنت لم تنفع فضُرّ فإنما   يراعى الفتى كيما يضرّ وينفع

انتهى ما أوردناه من أخبار الأشرف قايتباى ، وذلك على سبيل الاختصار ، ولما مات تولى ابنه محمد من بعده .

ذكر سلطنة الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد

صاحب اللقبين ، وقد تلقّب أولا بالناصر ، ثم تلقّب بالأشرف ابن الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، وهو الثانى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ،

---

(٣) الشنيعة : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وهو شنق القاضى ابن المقسى ، وتوسيط مجد الدين بن البقرى الأستادار وغير ذلك .

(٥) إلى أن مات : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وهو أول من أحدث برددارية السلطان ، ولم تكن هذه الوظيفة قبل ذلك تعرف ، فصارت زيادة مظلمة أخرى والله أعلم .

تقدّم أنه بويع بالسلطنة يوم السبت سادس عشرين ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، وكانت مبايعته فى الرابعة من النهار ، والماضى من الشروق ثمانية وأربعون درجة والطالع بالميزان .

وقد تقدم أن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر ، لما هجما على باب السلسلة وقبضا على الأتابكى تمراز وقيّداه ، وبعثا به إلى السجن بثغر مدينة الإسكندرية ، فلما جرى ذلك وقع الاتفاق على سلطنة سيدى ابن السلطان ، فأحضروا الخليفة والقضاة الأربعة ، وخلعوا الأشرف قايتباى من السلطنة ، (٥٢ آ) وبايعوا ولده من غير عهد له من أبيه ، ولقّبوه بالملك الناصر ، وكنى بأبى السعادات ، وكان تلقّب بالمنصور أولا ، ثم قرّر لقبه بالناصر ، فلما انقضى أمر المبايعة أحضر إليه شعائر الملك ، وهى الجبّة السوداء ، وقد فصّلت على قدره ، ولُفّت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وتقلّد بالسيف الجايلى ، وقدّمت إليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من سلم الحراقة ، فتقدّم قانصوه خمسمائة وحمل القبّة والطير على رأسه وقد ترشّح أمره بأن يلى الأتابكية .

فركب السلطان وركب الخليفة معه ، ومشت بين يديه الأمراء حتى طلع من باب سرّ القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وقبّل له الأمراء الأرض ، وضربت البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء من الخاص والعام ؛ وفى حال جلوسه على سرير الملك أخلع على الخليفة ونزل إلى داره ، وأخلع على قانصوه خمسمائة وأقرّه فى الأتابكية ، عوضا [عن] تمراز الشمسى ، وأخلع على جان بلاط من يشبك وقرّر فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن آقبردى الدوادار ، وأخلع على تانى بك الجمالى وصيّر نظام الملك مضافا لما بيده من أمرة السلاح ، وكان القائم فى تدبير هذه الأمور الأمير كرتباى الأحمر .

فهذا كله جرى والأشرف قايتباى فى النزع ، لم يشعر بما وقع من هذه الأمور ، ولو كان واعيا لما مكّن الأمراء بأن يسلطنوا ولده ، ولا كان ذلك قصده ؛ وكان الملك الناصر له من العمر نحو من أربعة عشر سنة وأشهر ، وقد قارب البلوغ ، وكان

مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وكانت أمــه جركسية تسمى أصل باى من مشتروات الأشرف قايتباى ، وكان الملك الناصر محمد هذا جميل الهيئة ، مليح الشــكل ، وعنده عترسة وجرأة فى الأمور ، متحركـ فى نفسه ، وعنده رهج وخفّة ، ومما مدح به ، وهو قول القائل :

إن العناصر فى سلطاننا اجتمعت   شمائلا بهرت من حين مولده
قد ناسب النار عزما والهوى خلقا   والبحر جودا وملك الأرض فى يده

ولما كان يوم الأحد سابع عشرين هــذا الشهر ، كانت وفاة الملك الأشرف قايتباى ، وقد تقدّم ذكر ذلك ، توفى بعد العصر من ذلك اليوم ، وبات [بالقلعة] فطافت له نُدَراء بالقاهرة وهم يقولون : [نصلّى] غدا باكر النهار (٥٢ ب) على العبد الفقير إلى الله تعالى الملك الأشرف قايتباى ، فتأسّف عليه الــكثير من الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرينه ، وهو اليوم الثالث من سلطنة ولده ، فشرع الأمراء فى تجهيزه وإخراجه فغسل فى المبيت الذى مات به ، وأخرج نعشه إلى قدّام الدكة التى بالحوش ، فصُلّى عليه هناكـ ، ونزلوا من سلم المدرج ، ومشت قدّامه الأمراء والعسكر قاطبة ، وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوكـ ، فتوجّهوا به إلى تربته التى أنشأها بالقرب من زاوية سيدى عبد الله المنوفى رحمة الله عليه ، فدفن بها وانقضت مدّته من الدنيا كأنه لم يكن ، وزال ملــكه بعد أن حكم بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وهذه المدّة لم تتفق لأحد من الملوكـ قبله ، وقد قيل فى المعنى :

إن الذى اغــترّ بالدنيا وزينتها   وظلّ فيهــا بحب المــال مفتونا
أتت إليه المنــايا وهى مسرعة   فأصبح الجسم تحت الترب مدفونا
قد فارق الأهل والأوطان وانقطعت   آماله وغــدا فى القــبر مرهونا
خلا بأعمــاله ما كان من حسن   أو من قبيح به قــد صار مقرونا

انتهى ذلك . ــ وفى ذى الحجة فرّق السلطان الملك الناصر الضحايا على العادة

(٨و٩) مابين القوسين ينقص فى الأصل .

للعسكر ، وأنعم السلطان بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم أزبك اليوسفى الظاهرى جقمق المعروف بفستق ، وكسباى الزينى ، ويشبك النجمى المعروف بقمر ، وقرقماس من ولى الدين . — وفيه كتبت المراسيم بحضور الأمراء الذين كانوا أخرجوا إلى النفى من حين كانت واقعة قانصوه خمسمائة وآقبردى ، وكتب بحضور قانصوه الشامى الذى كان قرّر فى نيابة حماة ، وقرّر عوضه بنيابة حماة أركماس أحد المقدّمين بدمشق ، وكتب بحضور قانصوه الألفى أيضا وآخرين من الأمراء المنفيين .

وفيه ظهر تغرى بردى الأستادار ، وكان مختفيا مدة تزيد على أربع سنين ، وكان قد فرّ من خوفه من السلطان قايتباى ، لما تجمّد عليه مال له صورة . — وفيه جاءت الأخبار بقتل أحمد بن بهادر نائب قلعة صفد ، وكان لا بأس به ، وقد قتله كرتباى أخو آقبردى الدوادار ، وكان كرتباى (٥٣ آ) يومئذ نائب صفد ، وقتل معه خاصكيا يقال له ألماس وقد جاء بالقبض عليه ، انتهى ذلك . — وفيه عيّنت نيابة صفد لبردبك الطويل ، عوضا عن كرتباى بحكم صرفه عنها . — وفيه قرر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجوالى ، وهذه أول وظائفه .

وفيه عظم أمر الأتابكى قانصوه خمسمائة إلى الغاية حتى لم يصلّ مع السلطان صلاة عيد النحر ، ولا صلاة الجمعة ، ثم رسم بإخراج مماليك آقبردى الدوادار إلى أماكن شتى من البلاد ، وكان قد تخوّف منهم . — وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى على الغزال ، وكان مقيما بخانقاة سرياقوس . — وفيه فرّق الملك الناصر جملة أقاطيع كانت فى الذخيرة من أيام الأشرف قايتباى ، فكانت نحوا من ألف إقطاع ، ففرّقت على المماليك جميعها ، ما بين أقاطيع ورزق وغير ذلك .

وفيه قرّر جان بلاط الغورى فى نيابة القلعة ، عوضا عن أيدكى . — وفيه قرّر

(٢) النجمى كذا فى الأصل ، وهو صحيح ، وفى ف : العجمى . (٣) الذين : الذى .

(١٠–١١) وقتل . . . انتهى ذلك : كذا فى الأصل ، وفى ف ما يأتى : فخرجت المراسيم بقبضه على يد خاصكى يقال له ألماس من ولى الدين ، فلما تحقق ذلك كرتباى ضرب عنق ألماس وأحمد بن بهادر نائب القلعة ، وخرج من مدينة صفد .

طراباى الشريفى أمير آخور رابع ، عوضا عن تغرى بردى السيفى يونس الدوادار ، بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الثالثة . ــ وفيه قرر السيد الشريف عبدالرحيم الحموى فى كتابة سرّ دمشق ، عوضا عن محبّ الدين الأسلمى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، فتوجّه إلى ابن عثمان فأكرمه . ــ وفيه قرّر يخشباى فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم ولى نيابة حماة فيما بعد .

وفيه قرر كرتباى الأحمر فى الوزارة ، والأستادارية ، وكاشف الكشاف ، مضافا لما بيده من تقدمة ألف ، وصار صاحب الحلّ والعقد فى تلك الأيام ، فأظهر أشياء كثيرة من أنواع العدل ، منها أنه أبطل وظيفة نظر الأوقاف ، ونودى بذلك فى القاهرة ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وأبطل عدّة مكوس ومظالم ، وحجّر على البرددارية والرسل والنقباء أنهم لا يأخذون من الأخصام أكثر من نصفين فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرّر عليه رسما ، ولو دام كرتباى بمصر لحصل للناس به خير . ــ وفيه قبض على القاضى شمس الدين أبى المنصور صاحب ديوان آقبردى الدوادار ، فتسلّمه الأمير جان بلاط الدوادار وضربه ضربا مبرحا ، وقرّر عليه مالا له صورة .

وفيه أخلع على الأمير آقباى (٥٣ب) الطويل نائب غزّة ، واستمرّ على نيابته بغزّة ، وكان أشيع عزله لأنه كان من عصبة آقبردى الدوادار ، فلما أراد أن يتوجّه إلى غزّة أخذ معه آقبردى الدوادار فى الخفية ، فلما بلغ قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر بأن آقبردى الدوادار خرج صحبة آقباى الطويل ، بعثا إليه والى الشرطة إلى الخانكاه ، ففتّش حوله الحوايج خاناه ، فستر الله تعالى على آقبردى حتى خرج من القاهرة ولم يظفروا به ، وهذا كان بسبب خروج آقبردى الدوادار من مصر وتوجّهه إلى غزّة ، فكبسوا بسببه فى ذلك اليوم عدة أماكن ودور بالخانكاه فلم يظفروا به ، حتى هجموا هناك الجوامع والزوايا ، وحصل الضرر الشامل بسبب ذلك ، وقيل إنه لما خرج من الخانكاه فتشوا سنيح الأمير آقباى نائب غزّة ، فاختفى آقبردى فى الدست الكبير الرخية لما حملوها على الجمل ، فستر الله عليه .

وفيه نزل السلطان الملك الناصر من القلعة وتوجّه إلى القرافة ، فزار وعاد إلى

القلعة ، وهذا أول ركوبه فى حال السلطنة . ــ وفيه حضر الأمير خشكلدى البيسق، وكان مقيما بدمشق من أيام الأشرف قايتباى ، فلما حضر أكرمه السلطان ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه . ــ وفيه كثرت الإشاعات بوقوع فتنة ، فبادر الأتابكى قانصوه خمسمائة وقبض على جماعة من طائفة الأينالية ، فقبض على نحو من ستة عشر نفرا ، فأخرجوا مع نقيب الجيش شيئا فشيئا ، وتوجّهوا إلى نحو البلاد الشامية ، فكان منهم برد بك المحمدى ، وبرقوق ، ودولات باى من غيبى ، وغير ذلك آخرين . ــ وفيه قوى الفحص والتفتيش على آقبردى الدوادار ، وهجموا بسببه على عدّة دور ، فلم يجدوه ، ولم يعلموا بأنه خرج صحبة آقباى نائب غزّة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعمائة

فيها فى المحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسى ، وكان سلطان العصر يومئذ الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباى ، والقضاة الأربعة على الحكم الأول كما تقدّم ، وكان الأتابكى يومئذ قانصوه خمسمائة ، ونظام الملك تانى بك الجمالى الظاهرى ، والدوادار الكبير جان بلاط من يشبك ، والوزير والأستادار كرتباى الأحمر . ــ وفيه (٥٤ آ) خرج أصطمر من ولى الدين ومعه عدة من الجند ، بسبب القبض على أمير الحاج تانى بك قرا الأينالى، فلاقاه من عجرود ، وقيّده وبعث به من هناك إلى ثغر الإسكندرية ، فسجن بها مع الأتابكى تمراز . ــ وفيه جاءت الأخبار بقتل عساف بن الحنش، نائب صيدا وبيروت ، وكان من مشاهير الرؤساء وله شهرة زائدة بتلك البلاد .

وفيه كانت نفقة البيعة ، فنفق على الجند على العادة ، لكن لم يعط مائة دينار كاملة سوى للقايتبايهية فقط ، وما دون ذلك خمسين دينارا ، ونفق على أولاد الناس ثلاثين دينارا ، وشىء منهم عشرين دينارا . ــ وفيه أحضر السلطان المصحف العثمانى

(١) البيسق : كذا فى الأصل ، وهو الاسم الصحيح ، وفى ف : السيفى .

وحلّف عليه سائر الأمراء والعسكر ولم يطلع الأتابكى قانصوه خمسمائة ولا حلف ، ولكن طلع بعد أيام وحلف أيمانا غير صادقة ، كما يقال :

خان اليمين وعهد الودّ قد فسخا ولا نوى قط صدقا خالصا فسخا

وفيه قرّر دولات باى من أركماس الساقى فى نيابة البيرة وخرج إليها عن قريب ، ودولات باى هذا هو أمير السلاح الآن . — وفيه قبض كرتباى الأحمر على شمس الدين الفرنوى ، إمام آقبردى الدوادار ، وعاقبه أشدّ العقوبة ، وتسلّم أيضا أبو المنصور وعاقبه أشدّ العقوبة ، وجرى لهما أمور يطول شرحها ، وما خلصا إلا بعد جهد كبير ، وكان السلطان له عناية فى الباطن بجماعة آقبردى الدوادار .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على جماعة من الأمراء العشرات ، ممن كان من عصبة آقبردى الدوادار ، منهم أسنباى الإبراهيمى المعروف بالأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك من أزدمر المعروف بالصغير ، ويخشباى من عبد الكريم ، وطقطباى السيفى برد بك الدوادار ؛ ومن الخاصكية تمراز جوشن ، وأينال السلحدار ، وأبا يزيد الصغير ، وقانصوه الساقى ، وآخرين منهم ، ولم يكن ذلك باختيار السلطان.

وفيه توفى الشيخ حمزة بن محمد بن حسن بن على بن عبد الحكيم المغربى البجاى المالكى ، وكان عالما فاضلا ، مقيما بالخانقاه الشيخونية ، وكان لا بأس به . — (٥٤ ب) وفيه رسم السلطان للخليفة بأن يطلع إلى القلعة ويسكن بها كما كان ساكنا من قبل ، وكان السلطان قايتباى رسم له بأن ينزل ويسكن بالمدينة ، عند ما حرق حاصل الخيام كما تقدّم .

ومن الحوادث أن السلطان ضرب امرأة بين يديه بالمقارع ، وشهرت على حمار وفى عنقها زنجير ، وهذا لم يعهد قط ؛ فلما طاش السلطان الملك الناصر وخفّ ، وكّل به كرتباى الأحمر أربعة من الخاصكية ، يمنعونه من اللعب مع أولاد العوام ، ومن كل تصرّف سيء ، وصار تانى بك الجمالى نظام الملك ، يبات عنده كل ليلة بالقلعة ، ومع ذلك فما ارعوى ولا حصل من هذا طائل ، وزاد فى الطيشان حتى خرج

(٤) من أركماس : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

فى ذلك عن الحدّ ، وكان معه ما سنذكره فى موضعه .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد نفى تانى بك قرا من مجرود ، فلما دخل المحمل طلبه السلطان إلى عنده بالقلعة ليراه ، ولم يكن رآه قبل ذلك قط . ــ وفيه أنعم السلطان بتقدمة تانى بك قرا على قيت الرجبى . ــ ومن جملة طيشان الملك الناصر أنه خرج إلى صلاة الجمعة وهو بغير كلفتاة بل بتخفيفة صغيرة ، فشقّ ذلك على الأمراء وأعابوا عليه هذه الفعلة .

وفى صفر أخلع السلطان على قانصوه الشامى ، الذى كان نائب حماة ، وقرّره فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن تانى بك قرا بحكم نفيه إلى الإسكندرية ، لما بقى أمير مجلس ونفى . ــ وفيه قرّر فى مشيخة تربة الأمير يشبك من مهدى الدوادار الشيخ أبو النجا الفوّى الواعظ ، وكان من أهل الفضل .

ومن الحوادث أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى بوظيفة لم يسمع بها قط ، وهو أنه جعله على سائر القضاة قاضيا كبيرا ، يولّى منهم من شاء ويعزل من شاء ، مطلقا فى سائر ممالك الإسلام ، وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى دولة بنى أيوب ؛ فلما بلغ القضاة ذلك شقّ عليهم ، واستخفّوا عقل الخليفة على ذلك ، وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حلّ ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ؛ ولكن الخليفة استخفّ بالسلطان لكونه حديث السنّ ، وقصد أن يكون الأمر مغدوقا به دون السلطان ، (٥٥ آ) فلما قامت الدائرة والأسئلة على الخليفة رجع عن ذلك ، وقال : إيش كنت أنا الشيخ جلال الدين هو الذى حسّن لى ذلك ، وقال : هذه كانت وظيفة قديمة وكانت الخلفاء يولّونها لمن يختارونه من العلماء ؛ ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقع أمور يطول شرحها حتى سكن الحال بعد مدة .

وفيه أشيع بأن الأتابكى أزبك قد حضر من مكة فى الخفية ، فاضطربت أحوال

---

(٥) كلفتاة : فى ف : كلوتات .

المماليك الجلبان ، وكادوا أن ينشوا فتنة ، ولم يكن لتلك الإشاعة صحة . – وفيه عزل الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وولى القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ، وكان الساعى له جان بلاط الدوادار ، وكان من أخصائه . – وفى هذا الشهر كان ابتداء لبس الأمراء المقدّمين للتخافيف التى بالقرون الطوال ، وقد خرجوا فى ذلك عن الحدّ ، وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يقول أميرنا لما تبدّا أنا فى الحرب ذو القرنين دَعْنى
أنا كبش وأعداى نعاج إذا برزوا فأنطحهم بقرنى

وفيه أخلع على قانصوه الألفى وقرّر أمير آخور كبير ، عوضا عن شاد بك أخوخ بحكم اختفائه . – وفيه أخلع على يخشباى وقرّر فى نيابة قلعة دمشق ، بعد ما كانت بيد نائب الشام ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . – وفيه جاءت الأخبار بوفاة كرتباى نائب البيرة ، وكان قصد التوجه إلى مصر فمات ببعلبك .

وفى ربيع الأول أخلع على الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العينى ، وقرّر فى نظر الجوالى ، عوضا عن عبد القادر القصروى . – وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا أول موالده ، فلما حضر بين الأمراء اعتراه النعاس حتى رش الماء على وجهه كى يستفيق . – وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجّه إلى تربة والده ، فزار قبره ، ثم توجّه من هناك إلى قبّة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية ، ثم عاد إلى القلعة وشقّ من القاهرة فى موكب حافل .

وفيه أخلع السلطان على كرتباى ابن عمّة السلطان ، وقرّر فى أمرة الحاج بركب (٥٥ ب) المحمل . – وفيه قرر قانصوه دوادار يشبك الدوادار فى أمرة ميسرة بحلب ، ثم جرى عليه بعد ذلك أمور شتى . – وفيه قرر قصروه فى نيابة الكرك كما كان أولا . – وفيه قرر طومان باى الخازندار فى نيابة الإسكندرية ، فأقام بها مدّة يسيرة ثم عاد إلى القاهرة ، وطومان باى هذا هو الذى ولى السلطنة فيما بعد وتلقّب بالعادل . –

(٩) اختفائه : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وفيه أنعم السلطان على دولات باى الفلاح بتقدمة ألف وصار من جملة المقدمين .

وفيه حضر إلى القاهرة قانى باى قرا الرماح ، وكان أتابكا بحلب وصرف عنها .

وفى ربيع الآخر سافر سيباى الدوادار الثانى إلى جهة غزّة بسبب آقبردى الدوادار، وقد ثبت أنه عند آقباى نائب غزّة ، ثم جاءت الأخبار بأن آقبردى الدوادار قد خرج من غزّة ، هو وآقباى النائب ، وتوجّها إلى نحو البلاد الشامية ، فتأثر الأمراء لذلك وضربوا مشورة فى أمره ، فوقع الاتفاق على أن يكتبوا له بأمان من السلطان والأمراء ، فكتبوا له أمانا وأرسلوه له ، وكل هذا عين الخداع له .ـ وفيه قرر محمد بن أبى يزيد فى نظر البيمارستان المنصورى ، وكان قد عظم أمره فى تلك الأيام جداً . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانصوه نائب قلعة الروم ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى نزل السلطان من القلعة ، وتوجّه إلى قبة يشبك التى فى المطرية وبات بها ، ثم طلع إلى القلعة ، وشقّ من القاهرة وزيّنت له ، وكان يوما مشهودا .ـ وفيه تزايدت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، ووزّعوا الناس أمتعتهم من الدور ، فلما كثر الكلام فى ذلك أحضر السلطان المصحف العثمانى وطلع به إلى القلعة ، وحلّف عليه سائر الأمراء والجند ، بأن يكونوا كلمة واحدة ، ويكونوا عباد الله إخوانا ، وأن الأمراء الذين هم من عصبة آقبردى الدوادار يظهرون ويكونون هم وإياهم شيئا واحدا ، فوافق الأتابكى قانصوه على ذلك ، وكذلك كرتباى الأحمر وبقيّة الأمراء .

فلما جرى ذلك نادى السلطان فى القاهرة ، بأن الغُيّاب الذين من عصبة آقبردى الدوادار يظهرون ولهم الأمان من الأمراء والسلطان ، فعند ذلك ظهر شاد بك أخوخ الذى كان أمير آخور كبير ، وأينال الخسيف (٥٦ آ) الذى كان حاجب الحجاب ، وقانم قريب السلطان أحد المقدّمين كان ، وجانم المعروف بمصبغة ، فلما ظهروا طلعوا إلى القلعة ، فأخلع عليهم السلطان كوامل بصمّور ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشرين هذا الشهر ، ثم رسم لهم السلطان بأن يتوجّهوا إلى دار الأتابكى قانصوه التى بقناطر

(١٥و١٧) الذين : الذى .   (١٥و١٨) يظهرون : يظهروا .
(١٥) ويكونون : ويكونوا .

السباع ، ويقبّلوا يده ، فتوجّهوا إلى هناك وقبّلوا يد الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ورجعوا إلى بيوتهم .

فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم أرسل الأتابكى قانصوه خلفهم ، وزعم أنه يضيّفهم ويمدّ لهم مَدّة ، فحضر إليه شاد بك أخوخ ، وأينال الخسيف ، وقانم قريب السلطان ، ولم يحضر صحبهم جانم مصبغة ، وكان صاحب رأى ؛ فلما اجتمعوا عند الأتابكى قانصوه طاولهم بالكلام ، ثم أحضر لهم سفرة الشراب فشربوا ، ولم يجلس معهم شاد بك ، ثم فتحوا بينهم باب العتاب ، واستمرّوا على ذلك حتى نصف الليل ، فلم يشعروا إلا وقد دخل عليهم مصرباى الثور والى القاهرة ، فقبض على الثلاثة وتوجّه بهم نحو الجزيرة الوسطى ، فقيل إنهم غُرّقوا هناك وكان آخر العهد بهم ، وقد قيل فى المعنى .

لما رأيت الغدر منهم بدا والبغض من أعينهم لى يلوح
فقلت للقلب ارتجع عنهم ما قصدهم منك سوى أخذ روح

فلما كان يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ثامن عشرينه صلّى الأتابكى قانصوه العشاء ، وركب بمن معه من الأمراء والعسكر ، فهجم وملك باب السلسلة ، وكان خشداشه قانصوه الألفى أمير آخور كبير ، فما أحوجه يدقّ باب ولا ينتظر الجواب . ــ فلما كان يوم الأربعاء صبيحة تلك الليلة جلس الأتابكى قانصوه خمسمائة فى الحراقة التى بباب السلسلة ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، فحضر ، وحضر القضاة الأربعة ، واجتمع عنده أربعة عشر مقدّم ألف ، والعسكر قاطبة ، من أمير وجندى .

فلما تكامل المجلس مشوا مع الخليفة فى خلع الملك الناصر وسلطنة قانصوه خمسمائة ، فخلع الناصر من السلطنة بصورة شرعية ، وكتب بذلك صفة محضر ، وشهد فيه جماعة كثيرة ، وبويع قانصوه خمسمائة بالسلطنة ، وتلقّب بالأشرف أبى النصر ، على لقب (٥٦ ب) أستاذه الأشرف قايتباى ، فلما تمت مبايعته قبّل له الأمراء الأرض والعسكر قاطبة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات

بالدعاء من الخاص والعام ؛ وأخلع على شخص يقال له جانم ، أخو قانصوه الألفى ، وقرّره فى ولاية القاهرة ؛ وكان قانصوه خمسمائة محببا للناس قاطبة بخلاف آقبردى الدوادار ، فلما لم يبق سوى أن يفيض عليه شعار الملك ، ويركب فرس النوبة ، وتحمل على رأسه القبة والطير ، ويصعد إلى القصر ويجلس على سرير الملك ، فوقع من بعد ذلك العجائب والغرائب ، كما يقال :

ستقضى لنا الأيام غير الذى غدت ويحدث من بعد الأمور أمور

ثم إن قانصوه خمسمائة بعث بعض الأمراء إلى القلعة ، بأن يقبض على الملك الناصر ، ويدخله إلى قاعة البحرة ، ويأخذ منه الترس والنمجاة ، فتعصّب له جماعة من مماليك أبيه كانوا بالقلعة ، نحو من ألف مملوك ، وكان رأس الجلبان قانصوه خال الملك الناصر ، فمنعوه من دخول قاعة البحرة ومن إعطائه الترس والنمجاة ، ولم يكن عند الناصر من الأمراء أحد ، فقام خاله قانصوه فى محاربة قانصوه خمسمائة أشدّ القيام ، وقاتل هو والجلبان قتال الموت ، فملكوا فى ذلك اليوم رأس المصوّة وسلم المدرج والطبلخاناه ، وعمد قانصوه خال السلطان إلى الزردخاناه وأخرج ما بها من زرديات وخوذ وقسىّ ونشاب ، ففرّقها على المماليك الجلبان .

وكان البدرى حسن بن الطولونى بايتا بالقلعة ، فأحضر النجارين والحجارين ، فعملوا أشياء كثيرة من الطوارق والمدافع ، وكان عند الملك الناصر عدّة وافرة من العبيد ، ما بين نفطية ورماة بالبندق الرصاص ، فحاصروا قانصوه خمسمائة وهو بباب السلسلة أشدّ المحاصرة ؛ ثم إن كرتباى الأحمر توجّه خلف القلعة ، ونصب مكحلة على الجبل المقطم تجاه القلعة ، وأرمى بها على الحوش السلطانى ، فلم يفد من ذلك شىء ؛ ثم إن قانصوه خمسمائة نادى فى القاهرة بأن أولاد الناس النفطية يطلعون إلى باب السلسلة ، ويباتون بها ، فلم يطلع إليه أحد منهم ؛ فاستمرّ قانصوه خمسمائة فى

(١) أخو قانصوه الألفى : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل .

(٩) كانوا بالقلعة : فى ف : الذى كانوا بالطباق وجمدارية وكتابية .

(١٠) الملك الناصر . . . البحرة ومن : نقلا عن ف، وينقص فى الأصل.

المحاصرة ، وهو مقيم بباب السلسلة ، والأمراء عنده والخليفة والأربعة قضاة ، فاستمرّ على ذلك يوم الأربعاء والخميس .

فلما كان يوم الجمعة مستهلّ جمادى الآخرة وقع فى ذلك اليوم واقعة مهولة ، وقت صلاة الجمعة (٥٧ آ) ، فلما رأى قانصوه خمسمائة عين الغلب ركب وخرج من باب السلسلة ، وكذلك جماعة الأمراء المقدّمين ، الذين كانوا عنده ، فلما خرج قانصوه من باب السلسلة وقف عند سبيل المؤمنى ، فخرّر عليه بعض الرماة بكفيّة ، وقيل بسهم نشاب ، فجاء فى وجهه ، فسقط عن فرسه إلى الأرض وقد أغمى عليه وغاب عن الوجود ، فحملوه الغلمان على أكتافهم ، وبقى لباسه بدكّته باينا للناس ، ورأسه مكشوفة ، عليها زمط أقرع ، فنزلوا به من الصليبة وهو على هذه الهيئة ، فلما وصلوا به إلى المدرسة الجاولية أركبوه على حمار ، وهو مغمى عليه لا يدرى بما جرى له ، فلما وصلوا به إلى درب الشمسى اختفى فى مكان هناك ، وكانت هذه الواقعة من أعجب الوقائع وأغربها ، كما يقال :

وبين اختلاف الليل والصبح معرك   يكرّ علينا جيشه بالعجائب

فلما انكسر قانصوه خمسمائة ، وخرج من باب السلسلة على أنحس حالة ، نزل المماليك الجلبان من القلعة إلى باب السلسلة ، ونهبوا كلما كان فيه من سلاح وقماش وغير ذلك ، ونهبوا طستخانات الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم ، وماسلم الخليفة والقضاة من القتل إلا سلامة ، وقتل من هذه الحركة جماعة من الجند ، وقتل شخص من الأمراء العشرات يقال له كشبغا ، وكانت هذه النصرة للملك الناصر على قانصوه خمسمائة على غير القياس ، بعد أن ملك باب السلسلة ، وبايعه

---

(٣) مستهل جمادى الآخرة : كذا فى الأصل وكذلك فى ف ، ولعله يقصد : آخر جمادى الأولى .

(٤) صلاة الجمعة : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وأحرقوا المماليك الذين بالقلعة سقيفة الاصطبل السلطانى بحراريق وبارود ، وأرموه عليها ، فاحترق الاصطبل ، وصار المقعد الذى بباب السلسلة مكشوفا ، فخاف قانصوه خمسمائة على نفسه أن يرموا عليه شيئا من فوق ، وكانت سقيفة الاصطبل تمنع الرمى عن المقعد الذى بباب السلسلة . (٥) الذين : الذى .

(٧) فجاء فى وجهه : فى ف : فجاءت على طرف أذنه جوازا . (١٣) جيشه : جشيه .

الخليفة ، وتلقّب بالأشرف ، واجتمع عنده سائر الأمراء المقدّمين ، من الظاهرية والقايتبيهيّة ، وسائر العسكر من كبير وصغير ، وقبّلوا له الأرض قاطبة ، فأورثه الله تعالى الخذلان ، وانتصر عليه الملك الناصر ، وكان قد استخفّ به ، فكان كما يقال فى المعنى :

ولا تحقرنّ صغيرا رماك وإن كان فى ساعديه قِصَر
فإن السيوف تحزّ الرقاب وتعجز عما تنال الإبر

وقال آخر :

ولا تحتقر كيد الصغير فربما تموت الأفاعى من سموم العقارب

وقيل :

لا تحقرنّ صغيرا فى مخاصمة إن الذبابة تدمى مقلة الأسد

فلما كان يوم السبت مستهلّ جمادى الآخرة ، طلع الخليفة إلى القلعة وقضاة القضاة يهنّون السلطان بالشهر ، وبهذه النصرة التى حصلت له ، (٥٧ ب) ثم إن الخليفة أعاد الملك الناصر إلى السلطنة وبايعه ثانيا ، وكان خلع من السلطنة ، وأقام ثلاثة أيام إلى أن عاد إليها ؛ وقيل إن الملك الناصر رشد فى ذلك اليوم ، وثبت رشده ، وأباحوا له التصرّف فى المملكة بما يختار ، ثم إنه أخلع على الخليفة ونزل إلى داره .

وضربت البشائر بالقلعة ، وتخلّق جماعة السلطان بالزعفران ، وفرّق على الخاصكية سلاريات حرير أصفر بسنجاب ، وتوشّحوا بالبنود الحرير الأصفر ؛ ثم فى ذلك اليوم رسم السلطان بالإفراج عن الأتابكى تمراز الشمسى ، وتانى بك قرا ، فتوجّه بالمراسيم إلى ثغر الإسكندرية مغلباى الشريفى ، وهو الآن الزردكاش الكبير ، وكتب السلطان أيضا مراسيم إلى آقبردى الدوادار بالحضور ، فتوجّه إليه جانباى .

وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على أينال السلحدار ، وقرّره فى ولاية القاهرة ، عوضا عن مصرباى الثور بحكم اختفائه ؛ وصرف عن نظر الجيش عبدالقادر القصروى ،

(٣) استخف به : أضيف بعدها فى ف : لصغر سنه وقلة عصبته .
(١٧) بسنجاب : كذا فى ف ، وفى الأصل : بسزاب .

وأعيد إليها الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف ؛ وقرّر البدرى محمد بن كمال الدين ناظر الجيش كان ، فى نظر الجوالى ، عوضا عن الناصرى محمد بن العينى بحكم صرفه عنها ؛ وأخلع السلطان على عمّه قايت ، وقرّره فى الزردكاشية الكبرى ؛ وقرر شمس الدين الفرنوى فى نظر الأحباس ، عوضا عن محمد بن مزاحم الطرابلسى ؛ وعيّن الأمير سودون العجمى إلى نيابة الإسكندرية، عوضا عن بيبردى أخو قانصوه خمسمائة، وكان يعرف بيبيردى الفهلوان ، وأرسل بالقبض عليه ؛ فلما جرى ذلك وقع النهب فى دور الأمراء الذين اختفوا لما انكسر قانصوه خمسمائة ، وأقامت القاهرة نحوا من أربعة عشر ليلة لم يدقّ فيها طبلخاناه على باب أمير مقدّم ألف ، بموجب اختفائهم واضطراب الأحوال .

وفى هذه المدة كانت القلعة شاغرة ، لم تقام بها خدمة ، ولا يصعد إليها أمير ، والإشاعات كل ليلة قائمة بوقوع فتنة ، وكثر القيل والقال فى ذلك ، وامتنع الناس من الأسفار إلى الشرقية والغربية لتزايد فساد العربان فى الطرقات ، والقاهرة مائجة بأهلها يترقّبون وقوع فتنة كبيرة .

ومن العجائب أن لما انكسر قانصوه خمسمائة ، توجّه فى ذلك اليوم قانصوه الشامى ومصرباى (٥٨ آ) الثور والى القاهرة ، فخرجا على جرايد الخيل إلى برّ الجيزة ، ويتوجّهان من هناك إلى ثغر الإسكندرية ليقتلا الأتابكى تمراز وتانى بك قرا ، وكانا فى السجن بالإسكندرية كما تقدّم ، وكان بيبردى أخو قانصوه خمسمائة يومئذ نائب ثغر الإسكندرية ، فلم يشكّا بأن نائب الإسكندرية يمكنهما من قتل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا ، فكان تدبيرهما فى تدميرهما ، فبينما هما فى أثناء الطريق ، فخرج عليهما جماعة من العربان فى تروجة ، فتحاربا معهما فانكسرا وقبضت عليهما العربان ، فقُتل مصرباى الثور ، وحُزّت رأسه ، وعُلّقت على باب الإسكندرية ، وأما قانصوه الشامى قبضوا عليه وأحضروه إلى الإسكندرية ، فسجن فى البرج الذى كان به الأتابكى تمراز ، والمجازاة من جنس العمل ، وقد قيل :

---

(٢) الناصرى : فى ف : الشمسى . (٧) الذين : الذى. (١٦) ويتوجهان : ويتوجها .

وكم من طالب يسعى لشىء وفيه هلاكه لو كان يدرى

فأقام قانصوه الشامى فى البرج أياما ، وبعث السلطان مراسيم بقتله ، فقتل وحزّت رأسه ، وعُلّقت على باب الإسكندرية وهى مشهورة ، فكان أول من قتل من الأمراء ، وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ، وكان لا بأس به . — ثم فى أثناء هذا الشهر وصل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا ، وكانت مدّة سجن الأتابكى تمراز بالإسكندرية ستة أشهر وأيام ، وكذلك تانى بك قرا ، فخرج الناس إلى ملتقاهما ، وطلعا إلى القلعة فى موكب حافل ، وعليهما الملاليط الطرح ، فلما قابلا السلطان أخلع عليهما ، ثم أعاد تمراز إلى الأتابكية ، عوضا عن قانصوه خمسمائة ؛ وأخلع على تانى بك قرا وقرّره فى أمرة مجلس ، عوضا عن أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ؛ وأنعم على قنبك المعروف بنائب الإسكندرية ، وقرّره من جملة مقدّمين الألوف ؛ وقرّر خشكلدى فى أستادارية الصحبة ؛ وعزل أينال السلحدار عن ولاية القاهرة ، وقرّر بها قانصوه الفاجر عوضا عنه .

وفيه أخلع السلطان على خاله المقر السيفى قانصوه من قانصوه ، وقرّره فى شادية الشراب خاناه ، عوضا عن مصر باى الشربفى ، بحكم أنه صار مقدّم ألف ، وأنعم عليه بأمرة طبلخاناه ، وهذا أول ظهوره بمصر واشتهاره بها ، وكان من جملة مماليك السلطان الجدارية ، ولم يكن خاصكيا ، فخدمه السعد جملة واحدة ، (٥٨ ب) واستمر يرتقى إلى أن بقى سلطانا كما سيأتى الكلام عن ذلك فى موضعه ؛ فلما بقى شاد الشراب خاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحلّ والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه ، وعوّلت الناس على أشغالها فى ردّ جوابه .

---

(٢) مراسيم : أضيف بعدها فى ف ماياتى : على يد قانصوه دوادار الأمير شاد بك أخوخ ، الذى قتل وهو يضرب عنق قانصوه الشامى ، فلما وصل المراسيم إلى ثغر الإسكندرية ، أخرج قانصوه الشامى من برج الإسكندرية وتوجه به إلى آخر المدينة ، وضرب عنقه ، قتل وكان المشاعلى غائبا ، والذى ضرب عنقه كان صبى المشاعلى ، وقيل إنه ضربه ثلاث ضربات حتى أطاح رأسه ، وعذبه غاية التعذيب ، وذلك أن قانصوه دوادار شاد بك أخوخ أخذ بثأر أستاذه منه .

(١٠) مقدمين : كذا فى الأصل .

فهذا كله جرى وقانصوه خمسمائة من حين انكسر وهو مختفى ، والإشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة ، وصار الناس على رأسهم طيرة ، ثم أشيع بين الناس أن المماليك الذين من عصبة قانصوه خمسمائة يقصدون قتل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا ، فرسم لهما السلطان بأن يطلما إلى القلعة ويقيما بها ، حتى يكون من هذا الأمر ما يكون ، فطلع الأتابكى تمراز وتانى بك قرا ، فأقاما فى الجامع الصغير الذى هو داخل الحوش السلطانى ، فأقاما به أياما .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة ظهر الأشرف قانصوه خمسمائة من مكان فى درب الرسينة ، التى عند قناطر السباع ، وكان قد أشيع بأنه قد جرح فى وجهه من حين انهزم من الرملة ، فلما ظهر تسامع به من كان من عصبته فأتوا إليه أفواجا أفواجا ، فركب من هناك وعلى رأسه صنجق ، فتوجّه إلى الميدان الناصرى الذى عند البركة ؛ فلما تسامع به العسكر حضر إلى عنده جماعة من الأمراء ممن كان من عصبته واختفى يوم الهزيمة ، فحضر قانصوه الألفى ، وجان بلاط الدوادار ، وكرتباى الأحمر ، وماماى من خداد ، وكسباى ، ويشبك قمر ، فهؤلاء مقدّمين ألوف ، وحضر من الأمراء العشرات جماعة كثيرة .

فلما تكاثر هناك العسكر ضاق بهم الميدان ، فحسن ببال قانصوه خمسمائة بأن يأخذ العسكر ويتوجّه إلى الأزبكية ، فتوجّه إلى هناك ونزل بدار الأتابكى أزبك ، فلم يحضر إليه من العسكر إلا قليلا ، وقد تلاشى أمره ، وبان عليه الخذلان ، وهو لا ينتهى عما هو فيه ، كما يقال فى الأمثال :

الموت فى طلب الثار ولا الحياة فى العار

وقال آخر :

---

(٣) الذين : الذى . (٣) يقصدون : يقصدوا .

(١٢ ــ ١٣) الدوادار . . . وكسباى : كذا فى الأصل ، وفى ف : من يشبك ، وماماى ، وقرقماس من ولى الدين ، وقانصوه المحمدى ، وقيت الرجبى ، وكرتباى الأحمر ، وكرتباى الشريفى .

(١٣) مقدمين : كذا فى الأصل . (١٤) العشرات : فى ف : الطبلخانات والعشرات .

فوتى فى الوغى عيشى لأنى رأيت العيش فى أرب النفوس

فبات تلك الليلة هناك فى الأزبكية ، فلما أصبح يوم الأربعاء تسحّب غالب مَن كان عنده من العسكر ، ولم يبق منه إلا القليل فبلغه أن المماليك الجلبان نازلة من الطباق وهم مشاة ، وقد وصلوا إلى رأس البندقانيين (٥٩ آ) ، فلما تحقق ذلك طلب الفرس وركب هو ومن كان عنده من الأمراء ، وهم قانصوه الألفى ، وماماى الصغير ، ويشبك قر ، وكسباى ، والطواشى فيروز الزمام ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات نحو من عشرين أميرا ، منهم قايتباى الأقرع الزردكاش ، وبُرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس الشريفى المحتسب ، وأسنباى المبشّر ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى المصارع أزدمر الخازندار ، ودولات باى جركس ، وتمر باى المحمدى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار ، وطومان باى أخو الأمير جانم ، وآخرين من الأمراء؛ فخرجوا من الأزبكية بعد طلوع الشمس ، وهم على جرايد الخيل فتوجّهوا إلى نحو خانقاة سرياقوس ، وكان آخر العهد بهم ، وقد قتلوا أجمعين كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

فكانت هذه ثالث كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة ، وكان أرشلا معكوس الحركات فى سائر أفعاله ، لم يطبّ طبّه ، وكان ذلك خذلان من الله تعالى له ، وقد قيل فى المعنى :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

فإن نال بالسعى المنا تمّ قصده وإن حالت الأقدار كان له العذر

فلما وصلوا المماليك الجلبان إلى الأزبكية وجدوا قانصوه خمسمائة قد تسحّب منها ،

---

(٣) القليل : أضيف بعدها فى ف : وتوجه الأمير كرتباى الأحمر إلى المطرية وخليج الزعفران لأجل الخيول ، فأخذوها لأنها كانت فى الربيع .

(١٩) تسحب منها : أضيف بعدها فى ف مايأتى : وكان الأتابكى تمراز نزل مع جماعة الجلبان من على باب الحرق وأتوا إلى الأزبكية ، والجماعة الثانية مع تانى بك قرا نزلوا وتوجهوا من البندقانيين من على قنطرة الموسكى وأتوا الأزبكية من هناك ، فلم يجدوا بها أحدا .

فأحرقوا طبلخانات الأتابكى أزبك، وباب داره ، والربوع التى هناك ، ونهبوا قناديل الجامع والحصر التى به ، وكان هناك حواصل للأتابكى أزبك فيها خيام ونشاب ، فنهبوا ذلك جميعه ، ونهبوا دور سكان الأزبكية ، فكان كما يقال :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم   فكأننى سبّابة المتندّم

ثم جاءت الأخبار بأن قانصوه خمسمائة لما خرج من الأزبكية قصد التوجّه إلى غزّة ليقتل آقبردى الدوادار ، ولكن فاته الشنب ، وكان مقيما عند آقباى نائب غزّة، وكان السلطان أرسل خلفه ليحضر إلى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا له بكسرة قانصوه خمسمائة ، فقصد التوجّه إلى الديار المصرية ، فلما خرج من غزّة ووصل إلى خان يونس الذى هناك ، (٥٩ب) فلم يشعر إلا وقد دهمته عساكر قانصوه خمسمائة، ولم يكن عنده علم من ذلك ، فأحاطوا به ، فكان بينهما واقعة مهولة، فانكسر آقبردى الدوادار ودخل إلى خان يونس ، وأغلق عليه الباب ، فحاصره قانصوه خمسمائة أشدّ المحاصرة ، وأحرق باب الخان ، وأشرف على أن يظفر به .

فلما رأى آقبردى عين الغلب طلب من قانصوه خمسمائة الأمان ، فلم يعطه الأمان، فبينما هما على ذلك وقد قرب غروب الشمس ، وإذا بآقباى نائب غزّة ، وأينال باى نائب طرابلس، وشيخ العرب إبراهيم بن نبيعة ، ومعهم جماعة ، والعربان والعشير ، أتوا ليتوجّهوا مع آقبردى إلى القاهرة ، فوجدوه فى المحاصرة وهو فى خان يونس ، فكان كما يقال : فى أضيق الوقت يأتى الله بالفرج ، فكان بينهما واقعة لم يسمع بمثلها ، فلما حال بينهما الليل انكسر قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء والعسكر، وهذه رابع كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة ، فكان كما يقال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة   حتى تروم التى من دونها العطب

فكان أول من أُسر من الأمراء ماماى من خداد ، فحُزّت رأسه بين يدى آقبردى ، ثم حُزّت رأس فيروز الزمام ، وحُزّت رأس سودون الدوادار ؛ وأما قانصوه خمسمائة فمن الناس من يقول إن رأسه قد حُزّت بين يدى آقبردى ، وأخذ منه الهيا كل التى كان حاملها ، ومن الناس من يقول إنه لما انكسر وحال بينهما الليل

ركب على فرس وكان مجروحا ، فنجا بنفسه ، ولم يعلم له خبر ، والأصح أنه قتل وحُزّت رأسه بين يدى آقبردى ، ودخلت رأسه إلى القاهرة على رمح ، وصار الناس بعد ذلك يشكّون فى قتله إلى الآن ، ويزعمون أنه باق فى قيد الحياة إلى الآن ، وهذا من الأمور المستحيلة ، وقد قضى الأمر فى قتله .

ولما كان صبيحة يوم الواقعة صار آقبردى يقبض على الأمراء الذين كانوا صحبة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليهم من الغيطان التى هناك والخانقاه ، فمسك قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات زيادة على عشرين أميرا ممن تقدّم ذكرهم ، فلما قبض عليهم قيّدهم ، (٦٠ آ) وقبض على جماعة من الخاصكية ممن كان صحبة قانصوه خمسمائة ، فاستمرّوا فى أسره حتى كان من أمرهم ما سنذكره فى موضعه ، هذا ما كان من أمر قانصوه وآقبردى الدوادار .

وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد حركة قانصوه خمسمائة ، فإنه صار مع مماليك أبيه فى غاية الضنك وهو مهدّد ، والأتابكى تمراز فى غاية المشقّة ، وقد وُعد بالقتل غير ما مرّة . — فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه وقعت قلقلة بين المماليك والأمراء بالقلعة ، فقالوا المماليك للأمراء : غيّروا لقب السلطان ، ولقّبوه بالملك الأشرف على لقب أبيه ، فطال الكلام فى ذلك [ثم] قالت الأمراء : كيف يكون هذا الأمر بعد ما خرجت عدّة مناشير ومربعات إلى البلاد الشامية بالملك الناصر ، فكيف نغيّر لقبه بالأشرف ؟ فقالوا المماليك : لابدّ من ذلك ؛ وصمّموا على قولهم ، فعند ذلك نودى فى القاهرة بأن السلطان تغيّر لقبه وتلقّب بالملك الأشرف ، فتعجّب الناس من ذلك ، وصارت الخطباء منهم من يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الأشرف .

وكان سبب تغيير لقب السلطان أنه أخرج خرجا من المماليك ، فصاروا يسمّون الناصرية ومماليك أبيه يسمون الأشرفية ، فصارت المماليك الناصرية أرجح كفّة من المماليك الأشرفية ، فما طاقوا ذلك ، وقالوا : لقّبوا السلطان بالأشرف ، ونصير كلنا

---

(٥) الذين : الذى .

أشرفية ؛ فلا زالوا على ذلك حتى فعلوه ؛ وتقرب هذه الواقعة مما اتفق للملك الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون الألفى ، أنه لما تسلطن أولا تلقّب بالملك الصالح ، لما خلعه الظاهر برقوق من السلطنة وتسلطن عوضه ، فلما أعيد إلى السلطنة ثانيا ، وخلع برقوق بعد مضى ثمانية أشهر فى فتنة يلبغا الناصرى ومنطاش، فغيّروا لقبه ولقّبوه بالملك المنصور ، وقد تقدّم سبب ذلك .

وفى هذه الأيام كثر الاضطراب بالديار المصرية ، وامتنع الأمراء من طلوع الخدمة، وكثر بين الناس القال والقيل بأن المماليك يقصدون أن يهجموا على السلطان ويقتلوه، فرسم السلطان بسدّ باب السلسلة وباب الميدان وباب حوش العرب، فسدّوهم بالحجر الفصّ ، واستمروا على ذلك مدة طويلة ، فكان الناس يطلعون إلى باب السلسلة من الباب الذى عند الصوّة تحت الطبلخانات .

وفى رجب أخلع السلطان على على بن سيف (٦٠ ب) وقرّره فى أمرة آل فضل، عوضا عن أبيه . ـ وفيه رسم السلطان بنفى أزبك فستق الظاهرى جقمق . ـ وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم برد بك نائب جدّة ، ومصر باى ، وقرقماس التنمى ، ولكن لم يتم له ذلك فيما بعد ، وقرّر فى نيابة غزّة عوضا عن آقباى كما سيأتى الكلام على ذلك ، وصُيّر قانبك نائب الإسكندرية من جملة المقدّمين، وقرّر مغلباى بجمقدار فى الخازندارية . ـ وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار وفتحوا عدّة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق تحت الربع، وكسروا منه عدّة دكاكين وأخذوا ما فيها ، ولم تنتطح فى ذاك شاتان .

وفيه قبض الملك الناصر على القاضى كاتب السر بدر الدين بن مُزهر ، وأودعه فى الطشخاناة السلطانية التى بجوار البحرة ؛ وقرّر عليه أموالا لا يقدر عليها ، وهذه أول نكباته ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما يطول شرحه ، واستمرّ من بعد ذلك فى النكبات تترادف عليه شيئا بعد شىء ، حتى كان فيها هلاكه كما سنذكره ؛ وكان

---

(٧) يقصدون : يقصدوا . (٩) يطلعون : أضيف بعدها فى ف : إلى القلعة من باب المدرج فقط ويطلعون .

سبب ذلك أنه يوم مبايعة قانصوه خمسمائة كان هو المديدب له ، وأظهر البشر والفرح فى ذلك اليوم ، فصار له ذنب عند الناصر بسبب ذلك ؛ ومن جملة ما قاساه أن الناصر لـكمه على عينه ، فنفرت عن مكانها وكادت أن تذهب ، وأقام أياما وعينه مرفودة وهو فى التوكيل به أياما ، حتى أورد مالاً له صورة مما قرّر عليه .

وفيه رسم السلطان للأتابكى تمراز والأمير تانى بك قرا بأن ينزلا إلى دورهما ، وكانا بجامع القلعة من حين ركب قانصوه خمسمائة وانـكسر ، كما تقدم ذكر ذلك ، فأخلع عليهما السلطان ونزلا إلى دورهما فى غاية التعظيم . ـ وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار بنصرة آقبردى الدوادار على قانصوه خمسمائة ، فلما تحقّق السلطان ذلك نادى فى القاهرة بالزينة ، ودقّت البشائر بالقلعة .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب دخلت فى ذلك اليوم رءوس من قتل فى المعركة على خان يونس ، كما تقدم ذكر ذلك ، فـكان عدة الرءوس التى حضرت إلى القاهرة أربعة وثلاثين رأسا ، وهى معلقة على رماح والمشاعلية تنادى عليهم : هذا جزاء من يخامر ويعصى على السلطان .

فـكان من جملة تلك الرءوس رأس ماماى من خداد أحد المقدّمين ، وكان (٦١ آ) شابا رئيسا حشما وافر العقل ، شجاعا بطلا ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، توجّه قاصدا إلى ابن عثمان غير ما مرّة وتولّى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدّم ألف ، وهو الذى جدّد الدار المعظمة التى بين القصرين ، وأصرف عليها جملة مال .

ومن جملة الرءوس رأس فيروز الزمام ، فلم يرث عليه أحد من الناس ، ولا أثنوا عليه خيرا ، وكان فيروز الزمام عنده خفّة وطيش ؛ ومن الأمراء العشرات يخشباى من عبد الـكريم ، وتمرباى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار ؛ ومن الخاصكية عدة وافرة ، منهم قايتباى من قيت الرجبى ، وخاير بك دوادار الأتابكى أزبك ،

(٢٠) وتمرباى كاشف الشرقية : كذا فى ف ، وكتبت فى الأصل هنا فيما يلى سطر ١ من الصفحة القادمة بعد كلمة «وآخرين» . (٢١) من قيت : كذا فى ف ، وفى الأصل : أنى قيت .

وأزبك البيسرى السيفى جانى بك نائب جدّة ، وآخرين من الخاصكية والمماليك السلطانية .

وكان آخر الرءوس رأس قانصوه خمسمائة الذى تسلطن ، وما كان أغناه عن هذه السلطنة ، فصنعوا له عيونا من زجاج حتى يعرف بها من بين الرءوس ، وكان قانصوه خمسمائة أميرا جليلا موصوفا بالشجاعة ، وافر العقل كثير الأدب والحشمة ، ويقال إن أصله من كتابية الظاهر خشقدم ، واشتراه الأشرف قايتباى وأعتقه ، فهو من معاتيقه ، وتولّى من الوظائف : الدوادارية الثانية ، وأمير آخورية الكبرى ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، ثم تسلطن وتلقّب بالأشرف ، وأقام فى السلطنة ثلاثة أيام ، وخرب بسببه عدّة دور ، وقتلت جماعة كثيرة من الأمراء ، وكان قانصوه خمسمائة قليل الحظّ ، ليس له سعد فى حركاته ، وقتل وهو فى عشر الخمسين ؛ فلما عرضوا تلك الرءوس على الملك الناصر ، شكّ أكثر الناس بأن هذه ليس برأس قانصوه خمسمائة ، واستمرّوا على ذلك إلى الآن ؛ فأمر الناصر بأن تعلّق تلك الرؤوس على باب زويلة وباب النصر ، واستمرت الكوسات تدقّ بالقلعة سبعة أيام ، وكذلك ببيوت الأمراء المقدّمين .

ثم إن الأمير آقبردى الدوادار أرسل يشاور السلطان فى أمر تلك الأمراء الذين أسروا بخان يونس ، فبرزت إليه المراسيم الشريفة بقتلهم أجمعين ، فلما وصل آقبردى إلى الخطّارة سلّم هؤلاء الأمراء إلى شيخ العرب أحمد بن قاسم ، فأتى بهم إلى (٦١ ب) فاقوس ، فقتلهم أجمعين تحت جميزة كانت هناك ، ثم رُموا ببئر هناك وانقضت أخبارهم ؛ وقيل إن الذى باشر قتلهم قنبك أبو شامة فيما يقال ، وقُتل قنبك أبو شامة أيضا بعد ذلك بمدّة يسيرة ، كما سيأتى الكلام على ذلك ، ومثل ما تعمل شاة الحمى فى قرض يعمل فى جلدها .

فكان عدّة من قتل هناك من الأمراء نحوا من عشرة أمراء ، منهم مقدمين

(١٥) الذين : الذى . (٢٢) عشرة : فى ف : خمسة عشر .
(٢٢) مقدمين : كذا فى الأصل .

ألوف ثلاثة ، وهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ؛ وكان قانصوه الألفى من أجلّ الأمراء ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وتولّى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ثم بقى أمير آخور كبير ؛ وكسباى الزينى تولّى حسبة القاهرة والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدّم ألف ؛ ويشبك قمر تولّى ولاية القاهرة ، ثم بقى مقدّم ألف ، فماتوا هؤلاء الأمراء أشرّ موتة ، حتى قيل إن العرب قطعت أرجلهم بالخناجر ، حتى أخذوا منها القيود الحديد وألقوهم هناك فى بئر خراب ؛ وأما مَن قُتل هناك من الأمراء الطبلخانات فالأمير قايتباى الأقرع الزردكاش ، وبرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس الشريفى المحتسب، وأسنباى المبشّر ، وتمراز شيخ ، ودولات باى من جركس ، وآخرين من الأمراء العشرات والخاصكية ، وقد تقدّم القول على ذلك ، وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع وأبشمها .

وكان قانصوه خمسمائة لما تسحّب من الأزبكية وقصد التوجّه إلى غزّة ، أخذ عدّة خيول للناس ، كانت فى مرابط على البرسيم فى زمن الربيع ، فحصل بسبب ذلك غاية الضرر ، وكانت تلك الأيام كلها اضطراب . ـ ثم إن الناصر أرسل يستحثّ آقبردى الدوادار فى الدخول إلى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا لهم ، ولكن حدث بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها .

وفيه أخلع على جوهر المعينى الحبشي وقرّر فى الزمامية ، عوضا عن فيروز الرومى بحكم قتله كما تقدّم ، وقرّر عبد اللطيف الرومى فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن فيروز أيضا . ـ وفيه أنعم السلطان على قانى باى قرا الرماح بتقدمة ألف ، وكان أمير عشرة ، وولى نيابة صهيون قبل ذلك ، وأخلع على أبى يزيد الصغير وقرّر فى باشية مكة ، وكان ذلك باختياره خوفا على نفسه من الفتن .

(٦٢ آ) ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مماليك الأتابكى تمراز قتلوا شخصا من خواصه ، يقال له محمد البارنبارى ، وكان من وسائط السوء عند تمراز ، فما طاقوا مماليكه ذلك ، فقتلوه وهو جالس بباب الأتابكى تمراز ، وتعصّب لهم بعض مماليك

---

(٧) الزردكاش : فى ف : الزردكاش الكبير . (٢٢) البارنبارى : فى ف : البارنبالى .

السلطان ، فلم يطلع من يد الأتابكى تمراز فى حقّهم شىء ، وراح القتل فى كيس محمد البارنبارى ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيه ابتدأ الملك الناصر فى الطيشان ومخالطة الأوباش والأطراف ، وحملت إليه مركب صغيرة ، فحملها فى البحرة ، وصنع فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلى ، وكان ينزل بنفسه فى المركب ، ويبيع كما يصنعون البياعون فى بركة الرطلى زمن النيل ، وكل هذا خفّة وصغرنة ؛ ثم إنه أعرض المحابيس ، فأطلق منهم جماعة ، وأمر بإتلاف سبعة أنفار من أهل الفساد كانوا معهم ، ثم أدخلهم إلى الحوش الذى قدّام باب قاعة البحرة ، فوسّطهم بيده هناك ، وعلّمه المشاعلى كيف يوسّط ، ثم قطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده ، والمشاعلى يعلّمه كيف يصنع ، وهذا من أقبح الفعائل التى لا تليق بالملوك ، ولكن قصد أن يمشى على طريق الملك الناصر فرج بن برقوق ، وهى أنحس طريقة .

وفى يوم الأحد رابع عشر رجب فيه كان دخول الأمير آقبردى الدوادار إلى القاهرة ، فلما دخل القاهرة زيّنت له ، ودخل فى موكب حافل ، وطلّب طُلْبا حافلا ، وكان له يوم مشهود ؛ ودخل معه من الأمراء آقباى نائب غزّة ، وأينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب إبراهيم بن نبيمة ، وجماعة من الأمراء والخاصكية ممن كان من عصبته وفرّ معه ، منهم برد بك المحمدى الخازندار الأينالى ، ودولات باى من غيبى ، ومغلباى عسل ، وجانم الأجرود ، فهؤلاء من الأينالية ، ومن القايتبيهية أسنباى الأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك الصغير ، وآخرين منهم .

وكان معه من الخاصكية والمماليك السلطانية ، ممن فرّ مع قانصوه خمسمائة ، نحو من مائتى إنسان ، وكانوا فى زناجير حديد ، فقصد آقبردى أن يدخل بهم قدّامه وهم فى الزناجير ، فتعصّب لهم خشداشينهم (٦٢ب) وقالوا : متى فعل ذلك قتلناه ، فرجع عن ذلك ؛ وكان أحضر صحبته رأس قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ، الذين قتلوا فى الخطارة ، وقصد أن يشهرهم على الرماح قدّامه لما يدخل القاهرة ،

---

(٤) حلوى : حلوه . (٢٠) مائتى : مائتان . (٢٣) الذين : الذى .

فلم يجسر يفعل ذلك ، ولكن عرضهم على السلطان فيما بعد فى الدسّ ولم يشعر بهم أحد .

فلما شقّ القاهرة فطلع إلى القلعة ، أخلع عليه السلطان ، وعلى من جاء صحبته من الأمراء ، وعلى شيخ العرب ابن نبيمة ، ونزلوا إلى دورهم ، ثم إن الملك الناصر قصد أن يفتك بالمماليك الذين حضروا صحبة آقبردى ممن أسر على خان يونس من عصبة قانصوه خمسمائة ، وكانوا نحوا من مائتى إنسان ، فما جسر على ذلك وخشى من وقوع فتنة ، فما وسعه إلا عفى عنهم ، ونفق على كل واحد منهم عشرة دنانير وأطلقوا ، وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة .

ثم إن السلطان عمل الموكب وحضر الأتابكى تمراز ، وتانى بك قرا أمير مجلس ، وآقبردى الدوادار ، ثم أحضر المصحف العثمانى إلى القلعة ، فحلّف عليه الأتابكى تمراز ، وتانى بك قرا ، وآقبردى الدوادار ، ولم يكن حلّفهم قبل اليوم ، بأنهم لا يخامروا ولا يعصوا ولا يركبوا على السلطان ، فحلفوا على ذلك .

ثم إنه أخلع على آقبردى وقرّره فى أمرة السلاح ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، وقرّره أيضا فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن جان بلاط من يشبك بحكم اختفائه ، وقرّره أيضا فى الوزارة والأستادارية الكبرى وكشوفية الكشاف ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم اختفائه ، فصار كما كان يشبك من مهدى ؛ وهذا كان نهاية سعد آقبردى ، فأقام على ذلك مدة يسيرة نحوا من شهرين ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

ثم أخلع على آقباى نائب غزّة وقرّره فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن قانصوه الشامى بحكم قتله بالإسكندرية ؛ وأنعم على جانم الأجرود كاشف منفلوط بتقدمة ألف ؛ وأقرّ أينال باى نائب طرابلس على حاله فى نيابة طرابلس ، فأقام بالقاهرة أياما ورجع إلى طرابلس على عادته ؛ وأنعم على كرتباى أخو آقبردى بتقدمة ألف ؛

---

(٥) الذين : الذى . (٦) مائتى : مائتان . (١٨) موضعه : أضيف بعدها فى ف : وفيه قرر كرتباى أمير آخور عوضا عن قانصوه الألفى بحكم قتله .

وبرد بك المحمدى بتقدمة ألف ؛ ورسم السلطان لكاتب السر وناظر الجيش أن لا يخرجوا مراسيم سلطانية ولا مربعات ولا مناشير إلا بختم من وراء العلامة السلطانية (٦٣ آ) وأن يكتب أيضا وراء العلامة ما تضمّنه ذلك المرسوم .

وفيه قويت الإشاعات بوقوع فتنة وأخذ السلطان فى تحصين القلعة ، ونقل إليها أشياء كثيرة من الدقيق والبقسماط والأحطاب والماء والمليق وغير ذلك ، وكانت الأحوال فى غاية الاضطراب ، وظهر غالب من كان قد اختفى من عصبة قانصوه خمسمائة ، وانتموا إلى قانصوه خال السلطان ، والتفّوا عليه ، بغضا فى آقبردى الدوادار ، وقد تلاشى أمره لما أن عاد فى هذه المرّة ، وصار مهدّدا بالقتل فى كل ليلة ، ولم تنفذ له كلمة مع وجود قانصوه خال السلطان ، وقد صار السعى لأرباب الدولة من بابه ، واجتمعت فيه الكلمة ، فكان كما يقال فى المعنى :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها   فحيث ما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت   يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

فكان زوال آقبردى عن قريب .

وفى شعبان أنعم السلطان بأمرة عشرة على قراكز الفهلوان ، وهى أمرة قايتباى الشرفى الذى قتل بغزّة . ــ وفيه حضر إلى الأبواب الشريفة برد بك الطويل نائب صفد ، فلم يأذن له السلطان بالاجتماع به ، ومنع من الطلوع إلى القلعة عند حضوره ، وقاسى من آقبردى الدوادار غاية البهدلة . ــ وفيه أمر السلطان بأن تقطع الحيّات التى تصنع فى البيمارستان بحضرته حتى يتفرج عليها ، فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة ، فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها ، وأخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصونى ، وولده ، والحاوى الذى أحضر الحيّات ، وآخرين منهم .

وفيه أنعم السلطان على طومان باى الخاصكى ، أحد الخازندارية ، بأمرة عشرة ، وكان قدم من البلاد الشامية ، وطومان باى هذا هو الذى ولى السلطنة فيما بعد ولقّب بالعادل ، فكان بين أمرته العشرة وسلطنته دون الأربع سنين . ــ وفيه هجم النسر

(١٤ــ١٥) قايتباى الشرفى : كذا فى ف ، وفى الأصل : قانى تباى الشرقى .

على سوق أمير جيوش ، وأخذوا منه أشياء كثيرة من عدّة دكاكين ، وقتلوا الخفير ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان . ــ وفيه أخلع السلطان على جانم المصبغة وقرّره فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن أينال الخسيف . ــ وفيه رسم السلطان بشنق عبد القادر صبي القصديرى .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بقتل شمس الدين بن بدر الدين (٦٣ ب) حسن ابن المزلق الدمشقى ، مات مذبوحا بدمشق وهو فى داره ، وكان متولى قضاء الشافعية بدمشق . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة رستم صاحب العراقين وديار بكر ، وكان لا بأس به . ــ وفيه ثارت المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت له ، فنفق عليهم بعد ما كادت أن تقع فتنة كبيرة بسبب ذلك ، فبلغت هذه النفقة نحوا من خمسمائة ألف دينار ، فصودر فيها جماعة كثيرة من المباشرين وغيرها . ــ وفيه صار السلطان يُخْرِج إقطاعات أولاد الناس والرزق ، بل والأملاك ، ويفرّقها على المماليك الجلبان ، وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفيه قرّر تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، وقرّر قصروه فى نيابة القلعة . ــ وفيه قبض آقبردى الدوادار على داود بن عمر أمير هوّارة ، وقد آل أمره فيما بعد أنه شنق على باب شونة بمنفلوط بالوجه القبلى ، لأمور حقدها عليه . ــ وفيه جاءت الأخبار من نواحى هرمز ، بأن خسف بها مدينة كاملة بأهلها . ــ وفيه أكمل السلطان النفقة على الجند والأمراء . ــ وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن عامر المغربى المالكى ، شيخ تربة الأشرف قايتباى ، وكان عالما فاضلا صالحا متقشفا لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن الطاعون قد وقع بمدينة غزّة ، وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيه أخلع السلطان على وفا الماوردى ، وقرّره فى أمرة شكار ، ورسم له بأن يتزيّا بزىّ الأتراك ، ويلبس التخفيفة التى بالقرون ، والسلارى القصير الكمّ ، وكان عاميا يلبس العمامة والملوطة الطرح ، فعُدّ ذلك من نواقص الملك الناصر . ــ

(١) الخفير : الغفير . (٤) القصديرى : كذا فى ف ، وفى الأصل : التغرديرى .
(٦) الشافعية : كذا فى ف ، وتنقص فى الأصل .

وفيه تزايد أذى الجلبان فى حق آقبردى الدوادار ، وصار مهدّدا بالقتل فى كل يوم ، حتى ساءل السلطان بأن يولّيه نيابة الشام ويخرج إليها خوفا على نفسه من الجلبان ، فلم يسمح له السلطان بذلك .

وفى رمضان ، فى أول ليلة منه، لم يطلع أحد من الأمراء ، ولا فطر عند السلطان على جارى العادة ، وكثرت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة بسبب آقبردى الدوادار.ـ فلما كان يوم السبت رابع شهر رمضان ركب الأمير آقبردى ، ووافقه (٦٤ آ) على ذلك تانى بك قرا أمير مجلس ، وآقباى نائب غزّة رأس نوبةالنوب ، وجانم الأجرود أحد المقدمين ، وكاشف منفلوط ، وجانم المصبغة حاجب الحجاب ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، والجمّ الغفير من الجند ، ممن هو عصبة آقبردى ، فوقع فى ذلك اليوم واقعة مهولة ، فانـكسر آقبردى بعد العصر واختفى ؛ فلما دخل الليل هرب آقبردى هو ومماليكه ، وأخذ صحبته آقباى نائب غزّة رأس نوبة النوب ، فلما هرب توجّه إلى نحو الصعيد ، فأقام به حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفى خالص الطواشى التـكرورى مقدّم المماليك ، وكان عنده لين جانب ، وكان لا بأس به ؛ فلما مات قرّر فى تقدمة المماليك مثقال الحبشى البرهانى ، الذى كان مقدّم المماليك ونفى إلى القدس وأعيد إلى القاهرة . ـ وفيه اشتدّ الحرّ وعزّ وجود السقايين ، وتـكالب النـاس على الروايا والجمال حتى تخانقوا بالعصىّ ، وبلغ سعر الراوية الماء ثلاثة أنصاف فضة ولا توجد .

ومن النوادر الغريبة أن فى يوم التاسع والعشرين من هـذا الشهر أمر السلطان بأن تدقّ الـكوسات بالقلعة ، وقال : أنا أعمل العيد فى الغد من هذا الشهر إن رأوا الهلال أو لم يروا ؛ فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع إلى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وعرّفه أن العيد لا يكون إلا إذا رُؤى الهلال ، فشقّ ذلك على السلطان ، وهمّ بعزل القاضى فى ذلك اليوم ؛ فلما دخل الليل لم يُرَ الهلال فى تلك الليلة وجاء العيد بالجمعة ، وكان الناصر تطيّر من العيد بأن يجىء يوم الجمعة ، فـكان ذلك على رغم أنفه .

وفى شوال لم يخرج السلطان إلى صلاة العيد ، ولا طلع الأتابكى تمراز إلى القلعة، ولا بقية الأمراء المقدّمين ، فبعث السلطان الخلع إليهم فى بيوتهم ؛ وفى أواخر ذلك اليوم طلع الخليفة ليهنىء السلطان بالعيد ، وكان بقاعة البحرة مع ذلك الأوباش الذين يعاشرهم ، فلم يخرج إليه السلطان ، وأرسل يتشكر منه ، (٦٤ ب) وأمره بالانصراف ، فعُدّ ذلك من نواقص الملك الناصر ، وكان الناصر فى تلك الأيام فى غاية الطيشان .

وفيه أخلع السلطان على عمّه قيت وقرّره فى نيابة القلعة ، عوضا عن قصروه بحكم أنه بقى مقدم ألف ، وقرّر ولده جانم فى الزردكاشية ، عوضا عن أبيه . — وفيه رسم السلطان لشخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له قانصوه الساقى ، بأن يكون أمينا على باب القلعة عند سلم المدرج ، يحيط علما بمن يطلع إلى القلعة أو ينزل منها ، فعدّ ذلك من النوادر .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة بوفاة الحافظ شمس الدين السخاوى ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث ، وألّف له تاريخا فيه أشياء كثيرة من المساوئ فى حق الناس ، وكان مولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من الصعيد ، بأن قامت هناك فتنة كبيرة بين حميد بن عمر أمير هوّارة ، أخو داود الماضى خبر شنقه ، فوقع بين حميد وبين قريبه إبراهيم فتنة مهولة يأتى الكلام عليها . — وفيه كانت الفتن قائمة بين طائفة بنى حرام وبنى وائل، حتى أعيى جان بردى الكاشف أمرهم ، وخرج إليهم تجريدة وبها عدّة من الأمراء ، ولم يفد من ذلك شيء . — وفيه عيّن السلطان أبا يزيد الصغير بأن يتوجه إلى آقبردى الدوادار للصعيد ، وصحبته خلعة وفرس بسرج ذهب وكنبوش ، وعلى يده مراسيم شريفة لآقبردى الدوادار، بأنه على عادته وفى وظائفه حتى يصير له حرمة على العربان ، ثم حضر إلى القاهرة عن قريب ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

(٤) الذين : الذى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل مصرباى أحد المقدمين ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن العينى ، وكان الحاج فى تلك السنة قليلا . ــ وفيه صعد سليمان بن قرطام ، أحد مشايخ بنى حرام ، إلى القلعة ، وعلى رأسه منديل الأمان من السلطان ، فلما مثل بين يديه لكمه قانصوه الفاجر والى الشرطة ، وأخذ منه منديل الأمان والسلطان ساكت لم يتكلم ، وثارت عليه جماعة من المماليك السلطانية ، وقالوا : هذا (٦٥ آ) قتل خشداشينا الذين قتلوا بالخطارة ، فكيف يعطونه منديل الأمان ؟ فشقّ ذلك على السلطان ، وقام عن الدكّة وهو مغضب من المماليك .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وحضر سيفه ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به ، تولّى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الإسكندرية ، ونيابة صفد ، وطرابلس ، ونيابة حلب ، ونيابة الشام ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وأُسر عند يعقوب بن حسن الطويل فى كاينة يشبك الدوادار مع باينذر ، ونفى إلى القدس ، ثم ولى بعد ذلك نيابة الشام ومات بها وهو على نيابته ، وكان من أجلّ الأمراء وأعظمهم قدرا .

وفى ذى القعدة توفى قاضى القضاة الحنبلى بدر الدين السعدى محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن إبراهيم الحنبلى ، وكان عالما فاضلا عارفا بمذهبه ، تولّى القضاء بمصر وهو فى عنفوان شبوبيته ، وأقام به مدّة طويلة حتى مات وهو على وظيفته ، وكان لا بأس به ، وتوفى وهو فى عشر الستين ؛ فلما مات أرسل السلطان خلف شهاب الدين الشيشينى وكان بمكة ، فلما حضر أخلع عليه السلطان وأقرّه فى قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدى بحكم وفاته ، وهو باق على وظيفته إلى الآن ، لكن بعد عزل وإعادة كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ــ وفيه ظهر قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أحد الأمراء المقدّمين ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر أمّنه السلطان على نفسه ، وأقام بداره .

---

(٦) الذين : الذى . (١٣) قدرا : أضيف بعدها فى ف : وفيه توفى الشيخ الصالح نور الدين الذاكر ، من عين الغزال، وكان معروفا بالصلاح لا بأس به .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن القاضى أبو البقا بن الجيعان ، وكان طالما إلى القلعة فصلّى صلاة الفجر وخرج من داره ، فلما وصل إلى الحمّام التى يُرى بين زقاقهم خرج عليه بعض المماليك ، فضربه بخنجر فى بطنه ضربة بالغة ، فمات من وقته ، وما عُرف قاتله ، واتّهم به جماعة من المماليك ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ؛ وكان رئيسا حشما فاضلا عارفا بأحوال المملكة ، وكان مقرّبا عند الأشرف قايتباى ، ورقى فى أيامه وانتهت إليه الرياسة ، وفاق على من تقدّمه من أقاربه ، (٦٥ ب) وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ بنى الجيعان ، وكان اسمه أبو البقا محمد بن يحيى بن شاكر ، وله برّ ومعروف ، وهو الذى أنشأ عمارة الزاوية الحمراء ، وجعل بها خطبة ، والحوض والسبيل ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغيط الحافل ، وصار ذلك المكان من جملة مفترجات القاهرة ، وتسعى إليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك ، وصار عوضا عن التاج والسبعة الوجوه التى كان من المفترجات القديمة ؛ ومات أبو البقا وقد قارب الستين سنة من العمر ، فلما مات أخلع السلطان على أخيه صلاح الدين وقرّره فى استيفاء الجيش ، مضافا لما بيده من نيابة كتابة السرّ .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، وضيّقوا على السلطان وصار معهم فى غاية الضنك ، فأرسل يستحثّ آقبردى الدوادار فى سرعة المجىء . — فلما كان يوم الخميس رابع عشرين هذا الشهر وصل آقبردى الدوادار إلى برّ الجيزة ، فلما تسامعت به الأمراء خرجوا إليه قاطبة ، وكذلك العسكر ، ولم يخرج إليه قانصوه خال السلطان ، فتلطّف به الأتابكى تمراز حتى ركب معه ، وتوجّها إلى نحو السواقى التى عند الهدّ بالقرب من درب الخولى ، فقصد قانصوه خال السلطان أن يعدّى من هناك ويتوجّه إلى آقبردى ليسلّم عليه ، فمنعوه المماليك من ذلك ، وقالوا له : متى ما رحت إليه يقبض عليك ؛ فتخيّل من ذلك ورجع من حيث أتى ، فعند ذلك كثر القيل والقال ، واضطربت الأحوال ، وصار العسكر على ثلاث فرق ، فرقة مع آقبردى الدوادار ،

(٢) الذى يرى بين : فى ف : الذى بنى خارج عن .

وفرقة مع قانصوه خال السلطان ، وهى الفرقة التى كانت من عصبة قانصوه خمسمائة فالتفوا على خال السلطان ، وفرقة وافرة من المماليك الجلبان مع السلطان .

ثم إن طائفة من المماليك الذين من عصبة خال السلطان لبسوا آلة السلاح وتوجهوا إلى بيت آقبردى الدوادار الذى عند حدرة البقر ، فأحرقوا مقعده ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه ، وذلك قبل دخول آقبردى إلى القاهرة . ـ فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه عدّى آقبردى عن برّ الجيزة إلى مصر ، فلما وصل مصلّة خولان التى بالقرافة الكبرى ، لاقاه الأتابكى تمراز ، وتانى بك قرا وقد ظهر (٦٦ آ) وكان مختفيا من حين كسر آقبردى فى شهر رمضان كما تقدّم ، وتوجّه إلى آقبردى الجمّ الغفير من العسكر ، وكان آقبردى أرسل خاف جماعة من عربان بنى وائل وعربان عزالة ، فلاقوه من عند باب الزغلة التى عند الجراة ، فصاروا يشوّشوا على الناس الذين يتوجهون إلى هناك ويمرّونهم ويأخذون عمائمهم وأثوابهم ، فخرج إليهم جماعة من المماليك واتقعوا معهم عند باب الزغلة ، فقتل فى ذلك اليوم جماعة من الغلمان واثنان من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم السبت سادس عشرين هذا الشهر رحل الأمير آقبردى من مصلّة خولان ، ودخل إلى المدينة من على مشهد السيدة النفيسة رضى الله عنها ، ولم يشقّ من الصليبة بل توجّه إلى بيته من درب الخازن ، فلما استقرّ بداره أتى إليه الأمراء والعسكر أفواجا أفواجا ، ولو حطم فى ذلك اليوم وطلع إلى الرملة لملك القلعة من غير مانع ، وكان ذلك عين الصواب ، ولكن أشار عليه بعض الأمراء

(٣ و ١١) الذين : الذى . (٦ و ١٤) مصلة : كذا فى الأصل ، ويعنى مصلى .

(١٠) فلاقوه . . . الزغلة : كذا فى الأصل ، وفى ف : ثم إن العربان كانوا فى طلائع عسكر آقبرى وأتوا معه ووصلوا إلى باب الزغلية ، وقد كان توجه إليهم جماعة من المماليك الذين هم فى عرض قانصوه خمسمائة ، فالتقى معهم خايربك والكاشف وجماعة من المماليك الذين هم من عصبة آقبردى ، فكسروهم وشحتوهم هم والعرب إلى أن وصلوا إلى مجراة التى عند باب الزغلية ، وصار العرب يشوشون على الناس الذين توجه إلى هناك ويعرونهم ويأخذون عمائمهم وأثوابهم .

(١٦) من الصليبة . . . فلما : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

بالتثبّت فى ذلك ، فـكان كما يقال :

وربّما فات بعض الناس حاجته　　　مع التأنّى وكان الرأى لو عجلا

فلما بلغ قانصوه خال السلطان أن آقبردى قد أحضر صحبته عربان من بنى وائل وعَزالة ، فأرسل هو أيضا خلف طائفة من عربان بنى حرام ، فصار الأتراك يتقعون مع بعضهم ، والعربان يتقعون مع بعضهم، فلم يحصل بالطائفتين نفع ، بل حصل منهم غاية الضرر ، وصاروا يعرّون الناس ، ويخطفون العمائم بالمطرية وبولاق ومصر العتيقة والقرافة ، وصاروا ينهبون الترب ومزارات الصالحين ، حتى مزار الإمام الشافعى والإمام الليث رضى الله عنهما ، وأظن أن هذا كان سببا لـكسرة آقبردى .

ثم إن آقبردى أحضر أشياء كثيرة من الأخشاب وشرع فى عمل طوارق ، وأحضر عدّة قناطير نحاس وشرع فى سبك مكحلة كبيرة ، وأظهر آقبردى الدوادار فى هذه الحركة همّة عالية ، وكان عنده من الأمراء الأتابكى تمراز الشمسى ، وكرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا الأينالى أمير مجلس ، وآقباى نائب غزّة رأس نوبة النواب ، وجانم المصبغة حاجب الحجاب ، وقانبك الشريفى نائب الإسكندرية أحد المقدمين الألوف ، وجانم الأجرود أحد المقدّمين ، وبرد بك المحمدى الأينالى أحد المقدّمين (٦٦ب) أيضا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات

(٤ ــ ٥) فأرسل . . . بعضهم : كذا فى الأصل ، وفى ف : اضطربت أحواله ولم يكن عنده بالقلعة من العسكر إلا القليل ، فعند ذلك طلع إلى القلعة الأمير كرتباى الأحمر ، وكان مختفيا من عند واقعة خان يونس ، فلما بلغ جماعة قانصوه خمسمائة أن كرتباى قد طلع إلى القلعة فبادروا إلى القلعة لينزلهم السلطان فى الديوان ، فأقاموا فى الجامع وصاروا من عصبة الفواقة ، وكان أكثرهم رماة بالمدافع والسفقيات والبندق الرصاص ، وهم الذين كانوا سببا لـكسرة آقبردى، فقويت شوكة خال السلطان بهم وبالأمير كرتباى الأحمر ، فصار جماعة المماليك طالعين إلى القلعة أفواجا وقويت الفواقة ، وأرسل خال السلطان خلف طائفة عربان من بنى حرام وأحضر قراجا نائب غزة كان عربان السواملة ، فصار العربان تقاتل مع بعضهم .

(٤ و٥) يتقعون : يتقعوا . (١٠) مكحلة كبيرة : فى ف : مكحلتين كبار ، وأحضر المعلم دميلكوا السباك وشرع فى سبكهم . (١٠) وأظهر : وأحضر .

فكانوا زيادة على الثلاثين أميرا ، منهم مغلباى صُصرُق الأشرفى برسباى ، وغير ذلك من الأمراء ، واجتمع عنده الجمّ الغفير من العسكر من سائر الطوائف .

فكان آقبردى فى كل يوم يمدّ للأمراء والخاصكية أسمطة حافلة فى باكر النهار وآخره ، ثم يحضر لهم السكر والحلوى والفاكهة والبطيخ الصيفى ، واستمرّ الحرب ثائرا بين الفريقين ، وحاصر آقبردى من بالقلعة أشدّ المحاصرة ، ومنع الغلمان والعبيد أن يصعدوا إلى القلعة بشىء من نوع الأكل ، وقطع آذان جماعة من العبيد بسبب ذلك .

ثم استهلّ شهر ذى الحجة فقوى عزم آقبردى على محاصرة القلعة ، فكان يركب كل يوم هو والأتابكى تمراز والأمراء والعسكر ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى يخفق ، وقد أرسله إليه الملك الناصر فى الدّس ، وكان له به عناية فى الباطن ، فصار آقبردى يظهر أنه لم يركب على السلطان ، وإنما له غرماء من الأمراء يقصد القبض عليهم ؛ هذا ما كان من أمر آقبردى الدوادار ، وأما ما كان من أمر الملك الناصر فإنه لم يكن عنده بالقلعة من الأمراء سوى سودون العجمى ، وجان بلاط الغورى ، وقانى باى قرا الرماح ، وخاله قانصوه شاد الشراب خاناه ، فنصبوا عدة مكاحل حول القلعة ، ونصبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة .

وصار الحرب ثائرا بين الفريقين ، فبقى مع الفرقة التى بالقلعة من سلّم المدرج إلى رأس الصوّة إلى باب زويلة إلى باب النصر إلى المطرية ، وصار مع الفرقة التى مع

---

(٦) العبيد: أضيف بعدها فى ف : وأيديهم.

(١٣ ــ ١٥) سوى . . . السلسلة : كذا فى الاصل ، وفى ف : سوى قانصوه خاله ، ثم صعد فى ذلك اليوم كرتباى الأحمر على الفور وكان مختفيا وجلس بالمقعد الذى برأس سلم المدرج، وكان الأمير سودون العجمى وجان بلاط الغورى وقانى باى الرماح وطومان باى الشريفى ودولات باى قرموط وغير ذلك ممّن الأمراء ركبوا المكاحل حول القلعة وركبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة ، وكان غالب مماليك قانصوه اليحياوى نائب الشام الذى توفى وحضرت مماليكه تلك الأيام كلها رماة بالسفقيات والبندقيات الرصاص ، فأخذ بخاطرهم كرتباى الأحمر وخال السلطان قانصوه ، ونزلوهم فى الديوان السلطانى ، وأصرفوا إليهم الجامكية ، حتى أنهم صاروا معهم وكانوا زيادة عن مائتى إنسان .

آقبردى من باب القرافة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى مصر العتيقة وبولاق ؛ يقتل فى كل يوم من طوائف العربان مقتلة كبيرة من بنى وائل وبنى حرام ، وكانوا يدخلون برءوس القتلاء آخر النهار فى شباك التبن ، فقتل فى هذه المعركة من العربان زيادة على ألف إنسان ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم ، فكانت الأتراك تتقع مع بعضها والعربان تتقع مع بعضها .

فلما قرب عيد الأضحية فرّق آقبردى على الأمراء والعسكر الذين ركبوا معه عدّة أبقار وأغنام كثيرة ، ثم نفق عليهم جامكية ذلك الشهر ، وكل هذا من ماله دون مال السلطان ، فأصرف فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وياليت (٦٧ آ) أفاده من ذلك شيئا ؛ ثم إن آقبردى شرع فى سبك مكحلة كبيرة ، فأحضر المعلم دُمَنيكوا السبّاك وألزمه بعمل مكحلة ، فأخذ فى أسباب ذلك ؛ ثم إن آقبردى وزّع الأمراء فى أماكن شتى بسبب حصار القلعة ، فكان الأمير كرتباى بن عمّة السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أمير مجلس ، وجماعة من العسكر ، فى مدرسة السلطان حسن بسبب حصار القلعة ، فكانوا يرمون عليها ، فلم يفد من ذلك شىء ، ثم إن المكحلة المسماة بالمجنونة أرموا بها على من فى مدرسة السلطان حسن ، فخرق المدفع شباك المدرسة ، ودخل قتل ثلاثة أنفار من المماليك الذين هناك ، فحصل للعسكر من ذلك زممة .

فكان لهم يوم عيد النحر وقعة تشيب منها النواصى ، وقتل فى ذلك اليوم شخص من الأمراء العشرات ، يقال له جانم من قايتباى ، وشخص يسمى طومان باى نائب بهسنا ، وشخص يسمى قصروه نائب سنجار ، وكانا حضرا صحبة الأمير آقبردى من البلاد الشامية ، وقتل ممن كان بالقلعة من المماليك جماعة ، ومات شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له برسباى اليوسفى أبو ذقن ، وكان من مماليك الظاهر جقمق ، مات فجأة بالقلعة فى مدّة المحاصرة ، وكان لا بأس به .

---

(٣) القتلاء : كذا فى الأصل . (٥) تتقع : تتقعوا . (٦ و ١٥) الذين : الذى .

(١٨) سنجار : يسجر ، وفى ف : سنجى (١٩-٢٠) الأمراء . . . اليوسفى : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل

فلما طال على العسكر الذى كان مع آقبردى أمر الحصار ، وأبطأ عليهم دُمَنيكوا بفراغ المكحلة التى شرع فى سبكها ، وصار يقتل فى كل يوم من حلف آقبردى جماعة كثيرة ، فبقى يتسحّب منهم جماعة ويطلعون إلى القلعة شيئا فشيئا ، فبان على آقبردى التلاشى ، فلما تحايت الطائفة الفوقانية ، فعند ذلك ظهر جان بلاط من يشبك الذى كان دوادارا كبيرا ، وظهر قرقماس من ولى الدين ، وقيت الرجبى ، وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وظهر قبل ذلك كرتباى الأحمر ، وأزبك اليوسفى الظاهرى ، وتانى بك الجمالى ، وغير ذلك من الأمراء ممن كان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر .

فلما ظهروا وطلعوا إلى القلعة قويت شوكة من كان بالقلعة وجدّوا فى القتال، ولو حطم آقبردى أول يوم ودخل إلى المدينة ، لكان ملك القلعة فى ذلك اليوم من غير مانع له ، وكانت قلوب العسكر معمرّة منه بالرعب الشديد ، ولكن استخفّ آقبردى بمن كان بالقلعة ولم يعلم ما وراء ذلك ، فاشتدّ أمر القتال ممن كان بالقلعة، واستطالوا على التحاتة الذين من حلف آقبردى بالنشاب والبندق الرصاص والمدافع، حتى أهلكوا منهم ما لا يحصى .

وكان مع آقبردى مدرسة السلطان حسن وسبيل المؤمنى وسويقة (٦٧ ب) عبد المنعم ، وصار آقبردى معه صنجق ساطانى ، وهو يقول : الله ينصر السلطان الملك الناصر ؛ وكرتباى الأحمر وبقية الأمراء معهم صنجق سلطانى ، وهم يقولون: الله ينصر السلطان الملك الناصر ؛ فحار فكر الناس بين الفريقين ولا بقى يُعلم هذه الركبة على من ؟ إما على السلطان أو على الأمراء فى بعضهم ؟ واستمرّ الحال على ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه .

وأما من توفى فى هذا الشهر من الأعيان ، منهم قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن الإخميمى الحنفى ، وهو محمد بن أحمد الأنصارى القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا يقرأ بالسبع روايات ، وكان ضنينا بنفسه ، وكان إمام السلطان الملك الأشرف

(١٣) التحاتة : كذا فى الأصل ، ويعنى الذين تحت القلعة .

قايتباى ، ثم قرّره فى قضاية القضاة واستمرّ بها حتى مات ، وكان موته فجأة فأخرجت جنازته ولم يشعر بها أحد من الناس بسبب تلك الفتن القائمة .

وتوفى به أيضا القاضى أبو الفتح محمد المنوفى كاتب المماليك ونائب جدّة ، وكان من أعيان المباشرين ، ورأى من العزّ والعظمة ما لا يوصف ، وفى أواخر عمره قاسى شدائد ومحنا ، واعتراه جنون وماخولية ، واستمرّ على ذلك حتى مات . ــ وتوفى أيضا سيدى إبراهيم بن أبى الفضل بن أبى الوفا ، وكان شابا صالحا لا بأس به . ــ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة تمربغا الترجمان ، وكان لا بأس به . ــ وتوفى شمس الدين محمد بن الخادم الحنفى وهو محمد بن أحمد بن أينال الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر توقّف النيل عن الزيادة فى ليالى الوفاء ، وكان كل أحد فى شاغل عن ذلك ، والفتن قائمة . ــ فلما كان يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجة ، الموافق لسابع عشرين مسرى ، فيه وفا النيل المبارك ، وفتح السدّ فى الثامن والعشرين من مسرى ، وقد أبطأ عن ميجاله أياما ، فلما وفا شاوروا الأمير آقبردى عن فتح السدّ ، فبعث والى القاهرة لفتح السدّ ، فوجد الشيخ عبد القادر الدشطوطى قد فتح جانبا منه قبل مجىء الوالى ؛ ولم يتوجّه أحد ليتفرج على فتح السدّ على جارى العادة ، لكون أن القاهرة كانت فى غاية الاضطراب ، من عدم الأمن وفساد الأحوال ، والناس على رءوسهم طيرة ، فكان كما يقال :

أتطلب من زمانك ذا وفاء وتنكر ذاك جهلا من بنيه
(٦٨ آ) لقد عدم الوفاء به وإنى لأعجب من وفاء النيل فيه

وقد قال القائل :

لو نطق النيل قال قولا تشفى به غاية الشفاء

---

(١٠) فى شاغل : من شاغل . (١٣) ميجاله ، يعنى موعده . وقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى هنا فيما سبق ص ٢٨٦ س ٢١ .

قد كثر الغدر فاعذرونى لما توقّفتُ فى الوفــاء

فلم يقم النيل سوى أياما قلائل وانهبط بسرعة ، وشرّق غالب البلاد ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل . ـ ولما وقعت الفتن بمصر بين الأتراك وقعت الفتن أيضا بين العربان ، وأحرقوا القمح والشعير وهو فى الجرون ، ونُهب عدة بلاد ، فوقع الغلاء بالديار المصرية ، [وانتهى سعر القمح] إلى ألف درهم كل أردب ، واستمرّ على ذلك مدة طويلة ، وكانت الأحوال فى تلك الأيام فى غاية الفساد ، وهذا الأمر معلوم من غير أن يُشرح .

واستمرّ الحرب ثائرًا على ما ذكرناه من القتل والنهب عمّال ، والرمى بالمدافع والبندق الرصاص والنشاب ليلا ونهارا ، إلى أن كان يوم الجمعة سادس عشرين ذى الحجة تسحّب من كان عند الأمير آقبردى من العسكر جملة واحدة ، ولم يبق معه سوى مماليكه وبعض مماليك السلطان والأمراء المقدّمين الذين هم من حلفه ؛ وكان الأمير جانم الأجرود الأينالى كاشف منفلوط ، وأحد الأمراء المقدّمين ، قد جرح واختفى ومات من تملك الجرح عقيب ذلك وهو مختفى ولم يشعر به أحد ؛ ثم إن الأمير آقبردى اضطربت أحواله ، وتشتّت ذلك الجمّ الغفير الذى كان عنده ، بعد ما أكلوا أسمطته وأخذوا أضحيته ، ونفق عليهم جامكية شهر من ماله ، فلم يرعوا له ذلك ، ولا أثمر فيهم ما فعله بهم ، فكان كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار فلا تبالى أصدّوا عنك أو زارُ
أخلاقهم حين تبلوهنّ أوعار وفعلهم مأثم للمرء أو عارُ
لهم لديك إذا جاءوك أوطار إذا قضوها تنحّوا عنك أو طارُ

فلما كان وقت المغرب من ليلة السبت نزل كرتباى الأحمر من القلعة ، وصحبته جميع من كان بالقلعة من المماليك الكبار والصغار الذين كانوا بالطباق ، وزحفوا زحفة واحدة ،

(٥) ما بين القوسين نقلا عن ف . وينقص فى الأصل . (١٥) شهر : فى ف : شهرين .
(١٧) زار ، يعنى : زاروا . (١٩) طار ، يعنى : طاروا .
(٢١) الذين : الذى . (٢١) واحدة : أضيف بعدها فى ف : وهجموا على جماعة آقبردى فانكسروا وفروا .

وهجموا على من بمدرسة السلطان حسن ، وأحرقوا بابها ودخلوا على من بالمدرسة من الأمراء ، فقتلوا الأمير كرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، وهرب تانى بك قرا فلم يظفروا به ، وهرب جميع من كان بمدرسة السلطان حسن من الأمراء والمماليك ، فنهبوا الجلبان ما كان (٦٨ ب) بالمدرسة [من] طستخانات الأمراء ، ونهبوا بسط المدرسة والقناديل ، وقلعوا شبابيك القبّة التى بالمدرسة ، وأخذوا رخامها ، وأحرقوا ربع الأمير يشبك الدوادار المجاور للمدرسة ، وأحرقوا أيضا بيته الذى عند القبو بسوق السلاح ، لكون أن كرتباى كان متزوجا بابنة الأمير يشبك وهو ساكن به ، ثم توجّهت طائفة من المماليك إلى سبيل المؤمنى فأحرقوه ، وأحرقوا الربوع التى تحت السور ، وأحرقوا ربع خشكلدى البيسقى التى بجوار بيته ؛ فلما دخل الليل ركب آقبردى فى نفر قليل من مماليكه وطلع إلى الرملة ، فلم يطب طبّة واستمرّ على ذلك بطول الليل .

فلما أصبح يوم السبت سابع عشرين ذى الحجة ، فيه انكسر آقبردى كسرة مهولة . فرجع إلى داره وأخذ بركه وزردخانته والطستخانات ، وخرج من داره وعلى رأسه صنجق ، وقدّامه طبلين وزمرين ، ومماليكه حوله وهى لابسة آلة السلاح ؛ وخرج صحبته من الأمراء المقدّمين : تانى بك قرا أمير مجلس ، وآقباى نائب غزّة رأس نوبة النوب ، وجانم المصبغة حاجب الحجاب ، وقنبك نائب الإسكندرية أحد الأمراء المقدمين ، وكرتباى أخو آقبردى الدوادار أحد المقدّمين ؛ ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات جماعة كثيرة نحو من عشرين أميرا ، فمن جملتهم أينال السلحدار المعروف بالصغير أحد العشرات ؛ ومن المماليك السلطانية والسيفية نحو من ألف مملوك .

فلما خرج من داره دخل من الدرب الذى عند حمّام الفارقانى ، وخرج من

---

(٢) ابن عمة السلطان : أضيف بعدها فى ف : وهو مجروح جرحا بليغا قتل منه وهو .

(٤) مابين القوسين ينقص فى الأصل . (٩) السور : الصور .

(١٤) طبلين وزمرين : كذا فى الأصل .

الدرب الذى تجاه المدرسة الصرغتمشية ، وتوجّه من هناك إلى بولاق ، وطلع من على جزيرة الفيل ، ثم خرج إلى الفضاء وقصد التوجّه إلى نحو البلاد الشامية ، ودخل خانقة سرياقوس ولم يقم بها ، واستمرّ يجدّ السير حتى وصل إلى بلبيس ، فلم يتبعه أحد من الأمراء والعسكر حتى خرج وتوجّه إلى البلاد الشامية ، وجرى منه أمور يطول شرحها ، ولكن يأتى الكلام على بعضها فى مواضعه .

والذى وقع لآقبردى الدوادار لم يقع لمنطاش والناصرى فى أيام الظاهر برقوق، وكان مدّة محاصرته للقلعة واحد وثلاثين يوما ، ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الدول الماضية ، قال بعض المؤرخين : لم يقع بمصر من يوم فتحها وهلمّ جرّا مثل واقعة آقبردى الدوادار ، فكانت من غرائب الوقائع ؛ وفى مدّة المحاصرة (٦٩ آ) كانت الأسواق معطّلة ، والدكاكين مقفلة ، وامتنع البيع والشراء ، ولم تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ولا بالطرقات ، وكثر القتل والنهب ، وكانت القاهرة مائجة والناس فى أمر مريب .

قيل لما طال أمر هذه الفتنة دخل على الأمير آقبردى جماعة من الفقراء من الرفاعية والقادرية وأحمدية من الصوفية ، وقد سألوه بأن يكفّ هذا القتال ، وأن يقع بين الطائفتين الصلح ، فأبى آقبردى من ذلك ؛ ثم نزل إليه مثقال مقدّم المماليك رسولا عن لسان السلطان ، بأن يكون الصلح بينه وبين الأمراء على يد السلطان ، فأبى آقبردى من ذلك ، وكانت هذه ثالث كسرة وقعت لآقبردى ، ولكن هذه كانت آخر العهد به من دخوله إلى مصر ، وقاسى شدائد ومحنا يأتى الكلام عليها ، فهذا ما كان من آقبردى الدوادار .

وأما ما كان من أمر الأتابكى تمراز فإنه كان مقيما بالبيت الذى بجوار بيت يشبك

---

(١) تجاه : يجاه .

(١٧) وكانت : أضيف بعدها فى ف ما يأتى : وكان دمنيكوا قد فرغ مكحلة وركبها ورمى بها أول حجر فكسر باب السلسلة ، فاضطرب من بالقلعة وهجموا على المكحلة ودقوا فيها مسمارا وكانت معيبة ، فلما خرقوا منافضها وشمت النار خرج الحجر على حين غفلة ، وانكسر آقبردى.

الدوادار عند المدرسة البندقدارية ، وكان موعَّكا فى جسده فلم يشعر بكسرة آقبردى ، فلما أراد آقبردى أن يفرّ أرسل خلف الأتابكى تمراز وأعلمه بما جرى ، وقصد يأخـــذه معه ، فأبطأ عليه ، وخشى آقبردى من المماليك الجلبان أن يهجموا عليه ويقتلوه ، فأسرع فى الخروج من داره وترك الأتابكى تمراز فى البيت ومضى .

ثم إن الأتابكى تمراز لبس قماشه وركب وخرج من البيت الذى كان به ، فلما وصل إلى بيت تانى بك قرا لاقاه جماعة من المماليك الجلبان ، فقبضوا عليه وقصدوا قتله ، فأدخلوه إلى بيت تانى بك قرا ، ثم بدا لهم أن يطلعوا به إلى القلعة ، فلما خرجوا به من بيت تانى بك قرا ومشى إلى رأس الصليبة عند السكاكينيين ، لاقاه طائفة من المماليك الجلبان غير هؤلاء ، فقنطروه من على فرسه ، فوقع إلى الأرض ، فطلعوا به على دكان لبعض السيوفية الذى هناك ، فنزعوا أثوابه من عليه وحزّوا رأسه على الدكان بالسيف فلم تنقطع ، فكسروها حتى تخلّصت عن جثته .

وكان الذى قتله شخص من المماليك ، ويقال إن الذى قتل الأتابكى تمراز كان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، يقال له برد بك عجوز ، وهو من أراذل المماليك القايتبيهية ، وما زالت الأيام تبدى العجائب ، يسمّى برد بك الأشقر ، ثم أخذ رأسه ولفّها فى فوطة وطلع بها إلى القلعة ، (٦٩ ب) فلما عُرضت على الملك الناصر شقّ عليه ذلك ، لكونه كان قرابة أبيه الأشرف قايتباى ، ثم إن بعض جماعة الأتابكى تمراز أحضر له نعشا وأخذ فيه جثته وتوجّه بها إلى مكان بالقرب من بيت تغرى بردى الأستادار فغسلوه هناك .

ثم إن السلطان أرسل رأس الأتابكى تمراز ، وأرسل معها ثوبين بعلبكى وثلاثين دينارا ، فخيّطوا رأسه على جثته وغسلوه ؛ ثم أحضروا جثة كرتباى ابن عمّة السلطان الذى قتل فى مدرسة السلطان حسن ، فغسلوه أيضا مع الأتابكى تمراز وأخرجوهما فى يوم واحد ، فصلّوا عليهما فى مصلّة باب الوزير ، ثم توجّهوا بهما إلى تربة الأشرف

(٩) الجلبان : أضاف بعدها فى ف : الفواقة ، أى الذين « فوق » فى القلعة .

(٢٢) مصلة ، يعنى مصلى .

قايتباى، فدفن الأتابكى تمراز على الأشرف داخل القبّة ، ودفن كرتباى ابن عمّة السلطان على جانم قريب السلطان ، الذى كان ناظر الجوالى مقدّم ألف .

وكان الأتابكى تمراز أميراً جليلا معظّما ، دينا خيرا كثير البرّ والصدقات ، محبّبا للناس ، جميل الهيئة ، وله آثار ومعروف ، ولاسيما ما فعله فى الجسور التى صنعها بالغربية وهو كاشف التراب بالغربية ، وهى باقية إلى الآن ، وحصل بها غاية النفع للمسلمين ، وكان أصل الأتابكى تمراز من مماليك الأشرف برسباى ، وأعتقه وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا ساقى فى دولة الأشرف أينال ، ثم أنعم عليه بأمرة العشرة وصار عنده من المقرّبين ، ثم نفى إلى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر إلى القاهرة فى دولة الظاهر تمر بغا ، ثم ظهر أنه ابن أخت الأشرف قايتباى ، فلما تسلطن جعله مقدّم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أميرسلاح ، ثم بقى أتابك العسكر ، عوضا عن أزبك من ططخ لما نفى إلى مكة كما تقدّم ، ولما مات رثيتُه بهذه الأبيات ، وهو قولى مع التضمين :

أرغمتَ يا دهر أنوف الورى ... بقتل تمراز ويتم العباد
أتابك العسكر ذا رأفة ... بالجود قد شاع لأقصى البلاد
أخطأت يا قاتله كيف قد ... قتلتَ من يقمع أهل العناد
مصيبة جلّت فمن أجلها ... قد أطلقت فى كل قلب زناد
لكن فى قتله أسوة ... إلى الحسين بن علىّ الجواد
مذ أودعوه الرمس ما أنصفوا ... بل كان يحيى فى صميم الفؤاد
فالله يأجره على ما جرى ... من قتله بالعفو يوم المعاد

(٧٠ آ) ومات الأتابكى تمراز وهو عشر الثمانين ، وكان ليّن الجانب ، قليل الأذى ، واسطة خير ، وما كان يظن كل أحد أن السلطنة تفوته ، وقد ترشّح أمره إليها غير ما مرّة ، وكان إذا سأله أحد فى حاجة يقول له : اصبر علينا حتى يجىء وقته ، وكان متطمّما بالسلطنة فخابت فيه الظنون ، وجاء الأمر بخلاف ما أمّله أن يكون ،

(١٨) يحيى : كذا فى ف ، وفى الأصل : يخيا .

فكان كما يقال :

وقائل لى لما أن رأى قلق   من انتظارى لآمال تمنينا
عواقب الصبر فيما قال أكثرهم   محمودة قلت أخشى أن تخزينا

ثم جاءت الأخبار بأن آقبردى لما مرّ من على بلاد الشرقية كادت طائفة عربان بنى حرام أن تقطعه ، فرجموه حتى جاءت رجمة فى وجهه ، وسبّوه سبّاقبيحا ، وفعلوا به مثل ذلك فى عدة أماكن ، وما خلص منهم إلا بعد جهد كبير ، وسبب ذلك أنه سلّط عليهم بنى وائل قتلوا منهم فى مدّة المعركة ما لا يحصى ، فلما انكسر ومرّ من عليهم انتقموا منه وجرى عليه منهم ما لا خير فيه .

فلما هرب آقبردى وقتل تمراز ، اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، ونزلوا المماليك الجلبان من الطباق ، وعطعطوا فى المدينة ، وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت ، حتى نهبوا الربوع التى هى سكن العوام ؛ ثم توجّهوا إلى حارة زويلة ونهبوا كل مافيها ، بسبب أن كان لآقبردى حاصلا هناك فيه مال ، فنهبوا كل ما كان فيه ، حتى قيل كان فيه ما يزيد على مائة ألف دينار ، غير الخيام والقماش التى كانت هناك ، ونهبوا بيوت اليهود التى حوله ، ودخلوا الزعر والعبيد ونهبوا القبّة التى فى مدرسة السلطان حسن ، وأخذوا الرخام التى بها ، والشبابيك النحاس التى بها والأبواب ، ومن يومئذ تلاشى حال المدرسة إلى الآن ، واستمر النهب والقتل عمّالا ثلاثة أيام متوالية ، ولم يجدوا من يردّهم عن ذلك ، والمدينة مائجة ، وكل من ظفروا به من جماعة آقبردى يقتلونه أشرّ قتلة ؛ ثم إن كرتباى الأحمر قبض على المعلم دمنيكوا الذى سبك المكحلة لآقبردى ، فقطع رأسه وعلقها على باب السلسلة ، فكان كما قيل فى الأمثال : وربما عوقب من لا جنى .

وقد خرجت هذه السنة على ما شرح فيها من الفتن والأنكاد ، والفساد وخراب البلاد ، ووقع فيها الغلاء ، (٧٠ ب) وتشحّطت الغلال ، وقُتل فيها من الأمراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقدّمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، وقد تقدّم ذكر

(٢٣) مقدمين : كذا فى الأصل .

ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل هذه السنة إلى أواخرها ، حسبما أوردناه من من الوقائع ، وقُتل من الجند والعرب نحو من ألف إنسان ، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العلى العظيم ، وما حصل على العسكر بعد وفاة الأشرف قايتباى خير ، وجاءت الأمور بضدّ ما أمّلوه من بعده ، فكان كما يقال فى المعنى :

يسعى ابن آدم فى قضى أوطاره والموت يتبعه على آثاره
يلهو وكفّ الموت فى أطواقه كالكبش يلعب فى يد جزّاره
يمسى وقد أمن الحوادث ليله فلربما تطرقه فى أسحاره
من راد يعلم كيف تصبح داره من بعده فليعتبر بجواره

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة اثنتين وتسعمائة .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعمائة

فيها فى المحرم كان مستهلّ الشهر يوم الثلاثاء ، ووافق ذلك يوم النوروز للقبط ، بموجب تحويل السنة القبطية إلى السنة العربية ؛ فصعد القضاة إلى القلعة للتهنئة بالشهر ، وبهذه النصرة التى وقعت للسلطان ؛ فلم يحضر الخليفة فى ذلك اليوم بسبب أنه كان متوعّكا فى جسده ، وهو مقيم بالقلعة ، فنزل إلى داره فى محفّة ، وكان ذلك ابتداء ضعف الموت به .

وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركى الإمام وقرّره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن ناصر الدين بن الإخميمى بحكم وفاته ، وهذه أول ولاية ابن الكركى ؛ وأخلع على الشيخ سرىّ الدين عبد البرّ بن الشحنة وقرّره فى مشيخة المدرسة الأشرفية ، عوضا عن البرهان بن الكركى ، فلم يقم بها عبد البرّ غير ثلاثة أيام وأعيد إليها ابن الكركى ، مضافا لما بيده من قضاء الحنفية .

وفيه تخوّف السلطان على نفسه من الأمراء ، فأحضر لهم المصحف العثمانى ، وحلّف عليه الأمراء الذين هم من حلف قانصوه خمسمائة بأنهم لا يخونونه قط ولا يغدرونه ولا يركبون عليه ، وهذا رابع يمين حلّفه السلطان للأمراء على المصحف

العثمانى ، وكل أيمانهم كانت كاذبة . — ثم إن السلطان عمل الموكب وأخلع على جماعة من الأمراء ، منهم المقر السيفى قانصوه خاله وقرره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن آقبردى بحكم اختفائه ؛ وأخلع على كرتباى الأحمر وقرّره فى أمرة (٧١ آ) السلاح، عوضا عن آقبردى أيضا ؛ وأخلع على جان بلاط من يشبك وقرّره فى نيابة حلب ، وخرج إليها عن قريب .

وفيه وصل مبشّر الحاج ، وهو شخص من العرب ، وقد تأخّر عن عادته ستة أيام لفساد طريق الحجاز . — وفيه توفى الزينى قاسم بن قاسم المالكى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا لا بأس به . — وفيه قرّر كشبغا الشريفى فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن أسنباى . — وفيه عين السلطان خاير بك أخو قانصوه البرجى ، بأن يتوجّه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم . — وفيه قرر عبد القادر بن النقيب فى مشيخة خانقاة سعيد السعداء ، وكانت عُيِّنت للمسلمى ولم يتمّ ذلك . — وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمد الوفاى ، وكان لا بأس به .

وفيه أخلع على طراباى الشريفى وقرّر أمير آخور ثانى ، وهذه أول وظائفه ؛ وأخلع على دولات باى الأجرود وقرّر فى ولاية الشرطة . — وفيه وقع الاتفاق من الأمراء على عود الأتابكى أزبك وحضوره بالقاهرة من مكة ليَلِى الأتابكية ، عوضا عن تمراز الشمسى ، فكتبت له المراسيم بالحضور ، وتوجّه بها طراباى الشريفى الذى قرر أمير آخور ثانى ، فخرج على الفور بسبب ذلك . — وفيه أخلع على قانى باى قرا الرماح وقرّر أمير آخور كبير ، عوضا عن كرتباى ابن عمّة السلطان ، الذى قُتل بمدرسة السلطان حسن فى واقعة آقبردى ، وأخلع على قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى وقرّر فى أمرة مجلس ، عوضا عن تانى بك قرا الأينالى بحكم اختفائه .

وفيه أخلع على قيت الرجبى وقرر حاجب الحجاب ، عوضا عن جانم المصبغة بحكم اختفائه مع الأمير آقبردى ؛ وأخلع على طومان باى وقرر فى الدوادارية الثانية

---

(٢١) قيت الرجبى : كذا فى الأصل ، وهو الصحيح أما فى ف فيقول : قانصوه المحمدى ، وهذا قرر فى أمرة مجلس .

عوضا عن سيباى نائب سيس ، بحكم أنه قرّر فى تقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الأجرود الأينالى كاشف منفلوط ، بحكم أنه جُرح فى واقعة آقبردى ومات عقيب ذلك ؛ وأخلع على أزدمر من على ماى وقرّر فى شادية الشرابخاناه ، عوضا عن قانصوه خال السلطان ، بحكم انتقاله إلى الدوادارية الكبرى ؛ وقرر تمر فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن قايت أخو الأشرف قايتباى ؛ وقرر بيبرس فى نيابة القلعة ، عوضا عن قايت عمّ الملك الناصر ، فعزل من الزردكاشية ونيابة القلعة ، وقد نسب إلى الميل (٧١ ب) مع عصبة آقبردى الدوادار .

وفيه أخلع على أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار وقرّر مقدم ألف مشير المملكة ، وقرّر قانصوه كُرت فى الخازندارية الكبرى . — وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، بعد ما قبض على أمير الحاج مصرباى فى عجرود وتوجّهوا به من هناك إلى السجن بالإسكندرية فسجن بها . — وفيه جاءت الأخبار بأن آقبردى الدوادار ، لما خرج من مصر بعد فراره ، استولى على غزّة وملكها ، فاتفق رَأْىُ الأمراء على خروج تجريدة إليه . — وفيه أخلع على جان بلاط الغورى وقرّر فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن آقباى نائب غزّة ، بحكم فراره مع آقبردى ، وقرر أزبك قفص فى الرأس نوبة الثانية .

وفيه أشيع بين الناس أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز قد اشتدّ به المرض وأشرف على الموت ، وقد عهد بالخلافة إلى ولده الشرفى يعقوب ، وحكم بذلك قاضى القضاة المالكى عبد الغنى بن تقىّ ، ونفّذه على بقيّة القضاة ، وعهد بالخلافة أيضا لولده محمد من بعد أبيه يعقوب ؛ فلما بلغ ذلك ابن عمّه خليل ، اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظرا للخلافة بعد عمّه عبدالعزيز ، فلم ينله من ذلك شىء ، وفاته المطلوب ، فقدح فى الشرفى يعقوب من نار قلبه بكلمات قبيحة ، فلم يفده من ذلك شىء ولا التفت إليه أحد من القضاة ، بل ولا السلطان ، وولى الخلافة يعقوب على رغم أنف خليل ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه عن قريب ، وقد قلت فى هذه الواقعة مع التضمين :

قالت العليا لمن حاولها   سبق المولى وقد حلّ عُراها

فدعُوا الحاسد فيها إنها   حاجة فى نفس يعقوب قضاها

فلما كان يوم الخميس سلخ المحرم من سنة ثلاث وتسعمائة ، فيه كانت وفاة أمير المؤمنين أبو العز عبد العزيز ، وهو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله ، ولم يل والده يعقوب الخلافة بل جـدّه محمد المتوكل ؛ وكان الخليفة عبد العزيز رئيسا حشما ، ذا شهامة ، جميل الهيئة ، كفوا للخلافة ، وافر العقل ، سديد الرأى ، وله اشتغال بالعلم ، وخطّ جيّد مع حسن عبارة ، (٧٢ آ) وكان عنده لين جانب ، واتضاع ، كثير العشرة للناس ،وتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين سنة ، ومولده بعد السابع عشر والثمانمائة ؛ وكانت مدّة خلافته تسع عشرة سنة وأياما ، وحضر مبايعة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، ومبايعة قانصوه خمسمائة ، وكان من خيار بنى العباس ، وكانت له جنازة حافلة ، ونزل الملك الناصر وصلّى عليه بسبيل المؤمنى ، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، داخل القبّة التى تدفن فيها الخلفاء ، ولما مات تولّى الخلافة بعده ابنه يعقوب .

ذكر خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب ابن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله

وهو الرابع والخمسون من خلفاء بنى العباس فى العدد ، وهو الخامس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر ، فهو من خلاصة بنى العباس ، لكونه هاشمى الأبوين ؛ ولم يل الخلافة من هو هاشمى الأبوين غير أربعة من بنى هاشم ، وهم : الإمام على كرم الله وجهه ، كانت أمه هاشمية تسمى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ، وأمّه فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ثم محمد الأمين ابن زبيدة ، وكانت أمه هاشمية ، ثم يعقوب بن عبد العزيز وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، فهذه الأربعة هاشمين الأبوين ، وما عدا ذلك فإن غالب الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحبش وغير ذلك .

---

(٢١) هاشمين : كذا فى الأصل .

وكانت صفة ولاية الشرفى يعقوب أن لما كان يوم السبت ثالث صفر بعث الملك الناصر خلف الشرفى يعقوب ، فحضر وحضر ابن عمه خليل ، فمرض العهد المقدّم ذكره على السلطان ، فشرع خليل يتكلم فى حقّ الشرفى يعقوب بكلمات فاحشة ، منها أنه قال : هذا قليل النظر ولا تصحّ ولايته ؛ فلم يلتفت السلطان إلى كلام خليل، وقال : هذا أبوه كان خليفة ؟ فقيل له : لا ؛ فقال : ما يلى الخلافة إلا من كان أبوه خليفة ؛ وشرع كرتباى الأحمر وأزبك اليوسفى مشير المملكة وتغرى بردى الأستادار يساعدون الشرفى يعقوب ، فترشّح أمره بأن يلى الخلافة ، وفى الحقيقة لم يكن يومئذ من بنى العباس من يصلح للخلافة غير الشرفى (٧٢ ب) يعقوب ، فى الدين والخير والصلاح ، فاتّفق رأى الأمراء على ولايته ، ونزل خليل من القلعة بخفّى حنين .

فلما حضر القضاة وتكامل المجلس لم يحتج إلى مبايعة ثانية ، لأنه استقرّ فى الخلافة بعهد من أبيه له عند موته ، فاستكفى القاضى الشافعى بذلك ؛ ثم أحضر إليه شعار الخلافة فأفيض عليه ، وتلقّب بالمتمسك بالله أبى الصبر ، وعدّ لقبه هذا من النوادر ؛ وقيل إن الشيخ جلال الدين السيوطى هو الذى كنّاه ولقّبه بهذا اللقب ، ومن الغرائب أن لم يل الخلافة من بنى العباس ولا من بنى أميّة من اسمه يعقوب سواه ؛ فلما تمّت بيعته أُحضر إليه التشريف فأفيض عليه ، فصار فى غاية الأبّهة والوقار ، وفى الحقيقة أنه من عباد الله الصالحين ، لم يعهد له صبوة من منذ نشأ وإلى الآن رضى الله عنه ، وفيه أقول مضمنا :

يا أمير المؤمنين أقبل ولا ترتجى غير الذى قد شرّفك
لو أتى العباس أضحى قائلا يرحم الله الذى قد خلّفك

وكان له من العمر لما ولى الخلافة نحو من خمسين سنة وقد وكزه الشيب ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، حتى وصل إلى داره ، واستمرّ فى هذه الولاية مدّة طويلة حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفى ربيع الأول أخلع على قانصوه خال السلطان وقرّر فى الوزارة و الأستادارية،

---

(٥) فقال : فقالت . (٧) يساعدون : يساعدوا .

عوضا عن كرتباى الأحمر ، بحكم استعفائه من ذلك . — وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة السيد الشريف الحسيب النسيب محمد بن بركات أمير مكة ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، كفوا لأمرة مكة ، وكان لا بأس به . — وفيه جاءت الأخبار بوفاة أينال باى الإبراهيمى نائب طرابلس ، وكان من حلف آقبردى الدوادار .

وجاءت الأخبار بوفاة كرتباى أخو آقبردى الدوادار ، الذى كان نائب صفد ، ثم بقى مقدّم ألف بمصر ، وفرّ مع أخيه آقبردى فمات فى أثناء الطريق ودفن هناك . — وفيه أخلع على تغرى بردى القادرى وقرر فى الأستادارية نائبا عن قانصوه خال السلطان . — وفيه فى أوائل بابه أمطرت السماء مطرا مهولا ، حتى وقع منه عدّة أماكن ، وخسف غالب القبور التى بالقرافة والصحراء ، وكان من نوادر الوقائع .

وفيه أخلع السلطان على كرتباى (٧٣ آ) الأحمر وقرّره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم موته ، وكان كرتباى الأحمر هو الساعى فى ذلك ، خوفا على نفسه من الملك الناصر أن لا يسلّط عليه المماليك الجلبان بقتله ، وقد همّ بذلك غير ما مرّة ، لأجل أن كرتباى كان يحجّر على الملك الناصر ويمنعه عن هذه الأفعال الشنيعة ، فكرهه بسبب ذلك وقصد قتله ، حتى قيل إنه ذبح السلطان يوما كبشا بيده ، وقال : هكذا أفعل بكرتباى الأحمر عن قريب ، فلما خرج كرتباى الأحمر من القاهرة كان له يوم مشهود ، وطلّب طُلْبا حافلا .

وفيه عيّن السلطان تجريدة بسبب آقبردى الدوادار ، فإنه لما انكسر وخرج من مصر فاراً حاصر الشام وقصد يملكها فما قدر على ذلك ، فنهب الضياع التى حول دمشق وأخرب غالبها ، وفعل مثل ذلك بضياع حلب ، فوقع الاتفاق من الأمراء على خروج تجريدة له ، فنفق السلطان على العسكر المعيّن لها ، وبعث نفقة الأمراء الذين تعيّنوا للخروج إلى التجريدة ، وهم : قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقيت الرجبى حاجب الحجاب ، وقانصوه الغورى أحد المقدّمين ، وهو الذى تسلطن فيما بعد ، وأصطمر من ولى الدين أحد المقدّمين ، وقصروه أحد المقدّمين ، ومن الأمراء الطبلخانات

(٢٠) الذين : الذى .

والعشرات عدّة وافرة .

ثم جاءت الأخبار بأن آقبردى بعد أن حاصر الشام نحوا من شهر فلم يقدر عليها، وحاربوه الأمراء الذين بالشام ورموا عليه بالمدافع ، ففرّ إلى حلب وحاصرها نحوا من شهرين ، وكان أينال السلحدار يومئذ نائب حلب ، وكان من عصبة آقبردى فقصد أن يسلمه مدينة حلب، فرجموه أهل المدينة وطردوه منها ، وحصّنوا المدينة بالمدافع على الأسوار ، فعند ذلك فرّ آقبردى ومن كان معه من الأمراء والعسكر ، وخرج أينال نائب حلب صحبتهم ، ففرّوا أجمعين وتوجّهوا إلى على دولات فالتجأوا إليه ، فلما بلغ الأمراء ذلك اضطربت أحوالهم وضربوا فى ذلك مشورة ، فوقع الاتفاق على أن يولّوا جان بلاط من يشبك الذى كان دوادارا كبيرا نيابة حلب ، عوضا عن أينال الذى كان بها ، بحكم فراره مع آقبردى .

ولما تولى كرتباى الأحمر نيابة الشام وخرج إليها، أخلع السلطان على محمد بن العظمة وأعاده إلى نظر الأوقاف ، وكان الساعى له عبد القادر بوّاب الدهيشة ، فكثر عليه الدعاء من الناس بسببه . ــ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . ــ وفيه أخلع السلطان على جانبلاط (٧٣ ب) الموتر أحد العشرات ، وقرره فى الحسبة ، عوضا عن تانى بك من حديد بحكم موته . ــ وفى تلك الأيام اشتدّ الغلاء وانتهى سعر القمح إلى ثلاثة أشرفية كل أردب .

وفيه كان دخول الأتابكى أزبك إلى القاهرة ، وقد حضر من مكة ، فلما حضر أخلع عليه وأعاده إلى الأتابكية ، عوضا عن تمراز الشمسى ، بحكم قتله كما تقدّم ، وكان دخول الأتابكى أزبك فى يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر ، وكان مدّة غيبته فى مكة سنتين وثلاثة أشهر وأيام . ــ وفيه هجم المنسر على سوق تحت الربع وسوق الحاجب وفتحوا عدّة دكاكين ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب وتحارب مع المنسر، وقتل من أعوانه جماعة ، ولم يبلغ من المنسر أربا وراحت على التجار أموالها.

(٣) الذين : الذى . (٣) حلب : أضيف بعدها فى ف : فلما توجه إلى حماة حاصرها وأخذ منها أموالا لها صورة ، فلما وصل إلى حلب . (٧) فالتجأوا : فالتجوا .

وفى ربيع الآخر فى يوم الثلاثاء رابعه كان خروج الأمراء الذين تعيّنوا للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى رجّت لهم القاهرة ، وقد تقدّمهم كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام ، وجانبلاط من يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب ، فاستمرت الأطلاب تنسحب إلى قريب الظهر ، والعسكر خارجا أفواجا أفواجا . — وفيه ظهر تانى بك الجمالى ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر أخلع عليه السلطان وأعاده إلى أمرة السلاح ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم انتقاله إلى نيابة الشام .

وفيه أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية إلى برهان الدين بن الكركى ، وانفصل عنها عبد البرّ بن الشحنة . — وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى قبّة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح شقّ من القاهرة فى موكب حافل ، وصحبته قانصوه خاله وبعض الأمراء ، وجعل قدّامه طبلين وزمرين ، وعبيد سود ترمى بالنفوط قدّامه على هيئة الكشاف ، وقد بهدل حرمة المملكة ولم يقع من أبناء الملوك من السواقط ما وقع من الناصر هذا ، كما يأتى الكلام عليها فى موضعه .

وفى هذا الشهر حضر الشهاب الشيشينى من مكّة ، وقد أرسل إليه مرسوم من السلطان بالحضور لِيَلى قضاء الحنابلة ، فلما حضر أخلع عليه وقرّر فى قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدى بحكم وفاته . — وفيه نادى والى القاهرة عن لسان السلطان بأن أهل الأسواق والحارات يعملون عليهم دروبا (٧٤ آ) فامتثلوا ذلك وبنيت بالقاهرة دروب ، منها على سوق تحت الربع وسوق أحمد بن طولون وسوق أمير جيوش ، وغير ذلك من الأسواق والحارات ، وكان المناسر قد كثرت فى تلك الأيام جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات ويمطمطون بها .

ومن الحوادث الشنيعة أن السلطان نادى فى القاهرة بأن الأمراء المختفيين الذين هم من عصبة آقبردى الدوادار يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، وأشيع أن آقبردى

---

(١) الذين : الذى . (١١) طبلين وزمرين : كذا فى الأصل .

(٢٢) يظهرون : يظهروا .

قد ظهر وهو عند السلطان بالقلعة ، فعند ذلك ظهر برد بك المعروف بنائب جدّة ، الذى كان من جملة المقدّمين ، وظهر أيضا برد بك المحمدى الأينالى ، وأبو يزيد الصغير ، وبرسباى السلحدار ، وبرقوق المحتسب ، وشاد بك ، وبيبرس ، وقانصوه الفاجر ، وكرتباى الكاشف ، وخاير بك الكاشف ، وقانصوه الساق ، ودولات باى من غيبى ، وآخرين من الخاصكية .

وكان قبل ذلك رسم السلطان بالإفراج عن مصر باى ، وكان فى السجن بثغر الإسكندرية ، فحضر وحضر أيضا قانبك أبو شامة ، وتانى بك المحمدى الأينالى ، وجانى باى ، وكانوا هؤلاء فى السجن من حين ركب آقبردى الدوادار وانكسر ، فلما ظهروا هؤلاء كثر القال والقيل فى سبب ظهورهم ، ثم إن السلطان صرّح فى قوله : أنا ما رسمت بإخراجهم إلا لأصلح بينهم وبين الطائفة التى من عصبة قانصوه خمسمائة .

فلما ظهروا وطلعوا إلى القلعة باتوا تلك الليلة بالقلعة ، فقرأ السلطان ختمة ومدّ أسمطة حافلة ؛ فلما صلّى العشاء أحضر عدّة خلع ، فأخلع على مصر باى وعيّنه أمير آخور كبير ، وأخلع على أبى يزيد الصغير وعيّنه دوادار ثانى ، وأخلع على قانبك أبو شامة وعيّنه نائب القلعة ، وأقرّ على آخرين منهم فى تقادم ألوف ، وآخرين فى أمريات طبلخانات ، وآخرين فى أمريات عشرات ، وكل هذا خفّة وطيش وصبينة من الملك الناصر ، وقد طاش إلى الغاية لما خرج كرتباى الأحمر إلى الشام ، وكان يظن أن ما بقى على يده يد ، وكل هذا عقل الصغار ، فكان كما قال المعمار :

ذى دولة حواضر تسويقة معتبر خليلى وشامى والخيار مقعبر

فلما جرى ذلك تحت الليل بلغ الأمراء الذين من عصبة قانصوه خمسمائة (٧٤ ب) ما وقع من السلطان تلك الليلة ، فلما طلع النهار لبسوا لامة الحرب وصمدوا إلى القلعة ، فوثبوا على بعضهم بها ، وكانت فتنة مهولة ، فقتلوا الأمير أبا يزيد الصغير ، والأمير سيباى الأشقر ، وهرب الأمير مصر باى ، وقانبك أبو شامة ، واتّسعت الفتنة ،

(١٨) حواضر : فى ف : خواطر . (١٩) الذين : الذى .
(٢٢) وقانبك : فى ف : وقتل قنبك .

وقتل فى هذه المركة جماعة من الخاصكية ، وقد هموّا بقتل السلطان لولا أنه اختفى ، ثم نزلوا بجثة أبى يزيد على حمار ، وتوجّهوا بها إلى داره ليغسلوه ويدفنوه .

ثم نزل جماعة من المماليك ونهبوا بعض أماكن الأمراء الذين من حلف آقبردى ، ونهبوا بيت الناصرى محمد بن خاص بك ، كونه كان صهر آقبردى الدوادار ؛ فلما بلغ الأتابكى أزبك ما جرى طلع إلى القلمة ، واجتمع بالسلطان ولامه على هذه الأفعال الشنيعة التى بتصدر منه ، فلم يلتفت إلى كلامه ، ثم نزل الأتابكى أزبك إلى داره ، وقد خمدت هذه الفتنة قليلا ، وكان ذلك يوم الخميس حادى عشرين ربيع الآخر .

وفى جمادى الأولى وقع من الملك الناصر غاية القبح فى حق الأمراء المقدّمين ، بأشياء ما سبقه إليها أحد من السلاطين ، وهو أنه أضاف لـكل أمير مقدم ... ثلاثين مملوكا من المماليك الأجلاب ، يأخذون من إقطاعه فى كل سنة عشرة آلاف درهم لـكل مملوك ، وأضاف إلى أمير كبير أزبك أربعين مملوكا ، كل مملوك يأخذ من إقطاعه فى كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأضاف لـكل أمير طبلخانات عشرة من المماليك يأخذون من إقطاعه على حكم ما تقدّم ، وأضاف لـكل أمير عشرة خمسة من المماليك ، على حكم ما شرح من ذلك ؛ فحصل من المماليك فى حقّ الأمراء ما لا خير فيه ، وصاروا يدخلون بيوت الأمراء وهم راكبون ، ويشوّشون على مباشرينهم بالضرب والسبّ ، حتى يأخذوا منهم ما قرر لهم ، فأضرّ ذلك بحال الأمراء وما طاقوا ذلك ، ولـكن لم يخرج من أيديهم شىء بسبب اضطراب الأحوال فى تلك الأيام ، فـكان كما يقال :

احضع لقرد السوء فى زمانه وداره ما دام فى سلطانه

وفيه أمر السلطان بهدم كنيسة لليهود فى دموة ، فتوجّه إلى هناك بنفسه

---

(٣) الذين : الذى . (٦) بتصدر : كذا فى الأصل .
(١٦) مباشرينهم : كذا فى الأصل . (١٧) يأخذوا : يأخذون .

وهدمها بحضرته ، ثم عاد إلى القلعة . ـ وفيه تزوّج الأمير طومان باى (٧٥ آ) الدوادار الثانى ، بابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فكان لها مهم حافل . ـ وفى هذا الشهر كانت وفاة شيخنا علامة العصر الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر بن حسن بن عمران بن نجيب ، المعروف بالقادرى ، وكان شاعر العصر على الإطلاق بعد الشهاب المنصورى ، وكان مولده بعد الثلاث والثلاثين والثمانمائة ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيّد ، فمن ذلك قوله فى ميقاتى ، وقد أجاد :

فى صنعة الميقات بـــدر نجمه   بالسعد يخدمه مـــدى الساعات
حجّت عيون الناس كعبة حسنه   وقضت مناسكها من الميقات

وقوله أيضا فى فرس محجل الثلاثة مُطْلَق اليمين :

وطرف زانه التحجيل يحـكى   لمن يحـكيه بالسحر المبـــين
جوادا رام أن يخفى نوالا   فأسبل كـّمــه فوق اليمـــين

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن قد وقع بين السيد الشريف بركات ، وبين ابن أخيه هزاع فتنة كبيرة ، وكادت أن تخرب فيها مكة . ـ وفيه توفى إمام الكاملية وابن إمامها ، وكان من عباد الله الصالحين ، دينا خيرا لا بأس به .

وفى جمادى الآخرة وقعت الوحشة بين السلطان وبين الأمراء ، بل وبين خاله قانصوه ، بسبب ما تقدم من تلك الفتنة التى وقعت من حلف آقبردى الدوادار ، وقد نسب فيها السلطان إلى غرض . ـ وفيه قرّر يحيي بن سبع فى أمرة الينبع ، عوضا عن دراج بحكم صرفه عنها . ـ وفيه جاءت الأخبار بقتل الطواشى لؤلؤ الروى رأس السقاة ، وكان قد خرج إلى الوجه القبلى فى بعض أشغال السلطان ، ليتوجّه إلى مكة من هناك ، وكان صحبته السيجينى المرافع ، فقتل مع لؤلؤ أيضا . ـ وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوئ لا ينبغى شرحها . ـ وفيه جاءت الأخبار بوصول الطاعون إلى قطيا وقد فشا بها ، وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى مصر والقاهرة بأن تعلّق على الحـوانيت قناديل ،

وكذلك البيوت المطلّة على الشوارع ، وصار يركب هو بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء ، وقدّامه فانوسين أكرة وأربع مشاعل ، ومعه أولاد (٧٥ ب) عمّه قيت : جانم وأخوه جانى بك ، وقدّامه عدّة عبيد سود ، ومعهم مكاحل نفط ، فكان إذا طاف بالقاهرة من بعد العشاء ، ورأى أحدا يمشى فى الشوارع يقطع أذنيه مع أنفه ، وشىء يضربه بالمقارع ، وشىء يوسّطه ، فقتل من الناس ما لا يحصى فى مدّة يسيرة ، وكان إذا مرّ بدكان ولم يَرَ عليها قنديلا ، يسمّر الدكان وهو واقف بنفسه عليها حتى تُسمّر ، وكل هذا خفّة وطيش ، وقد بهدل حرمة المملكة فى أيامه ولم يتبع طريقة الملوك السالفة فى إقامة حرمة السلطنة ، وصار على طريقة والى الشرطة .

وفيه قبض بعض الخاصكية على عبد من عبيد السلطان ، يقال له فرج الله ، وكان مقربا عنده إلى الغاية ، فلما قبضوا عليه قتلوه بالرملة ، فشقّ ذلك على السلطان وتأسّف عليه ، ولم يقدر أن يحميه من المماليك ، فإنهم كانوا يومئذ طالبين الشرّ مع السلطان ، بسبب هذه الأفعال التى بتصدر منه . ـ وفيه قرر شاهين الجمالى باستمراره فى نظر الحرم الشريف النبوى على عادته ، فخرج إلى السفر عن قريب ، وأمره السلطان أن يتوجّه إلى يحيى بن سبع أمير الينبع ، ويصلح بينه وبين أمير مكة ، وكان وقع بينهما فى تلك الأيام وحشة .

وفى رجب ظهر الطاعون بالقاهرة ومات به جماعة . ـ وفيه تخوّفت خوند أصل باى أم الناصر على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت المماليك قد التفوّا عليه ، فأحضرت المصحف العثمانى إلى بين يديها فى قاعة الدواميد ، وحلّفت عليه أخاها قانصوه وابنها الناصر محمد بوفاء كل منهما إلى صاحبه ، ولم يفد من تلك الأيمان شىء . ـ وفيه خرج خاير بك أخو قانصوه البرجى قاصدا إلى ابن عثمان ، فخرج فى تجمّل زائد ، وأصرف فى هذه الحركة مالا له صورة . ـ وفيه توفى الشيخ داود المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، من أهل العلم والدين ، وكان لا بأس به .

وفى شعبان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، ومات من المماليك والأطفال

---

(٢) فانوسين : كذا فى الأصل . (١٢) بتصدر : كذا فى الأصل .

والعبيد والجوار جانبا ؛ فلما كثر الموت فى المماليك صنع السلطان ثلاثين نمشا برسم من يموت بالقلمة ، وحصل بذلك النفع . ــ وفيه توفى أينال الفقيه الحسنى الظاهرى جقمق ، أحد الأمراء الطبلخانات والحاجب الثانى ، وكان دينا خيرا لا بأس به . ــ (٧٦ آ) وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصا من مماليك السلطان مات ، فغسل وكفن ووضع فى نمشه وحمل ليدفن ، فبينما هو فى أثناء الطريق اضطرب وتحرّك فى أكفانه ، فوضع على الأرض وحلّوا أكفانه ، فاستوى جالسا ، وعاش بعد ذلك مدّة . ــ وفيه توفى العزّى عبد العزيز بن البرهان إبراهيم ، وكان من مشاهير الناس لا بأس به ، مات مطعونا .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الصوفية التى بالخانقاة البيبرسية ، ثاروا على شيخهم الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه فى الفسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وكان طومان باى الدوادار محطّا عليه ، فلما تسلطن فيما بعد اختفى الشيخ جلال الدين فى مدّة سلطنته ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه . ــ وفيه أخلع على ماماى جوشن وقرّر فى الحجوبية الثانية . ــ وفيه تعامل الناس بالفلوس الجدد معاددة ، وبطل أمر وزنهم بالميزان .

وفيه تزايد شرّ المماليك الجلبان ، وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الأسواق ، وصاروا يستخفّون بالسلطان والأمراء ، حتى قيل إن بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها فرس ذلك المملوك ، فسقط إلى الأرض ، فخرج خُلقه وهاش على الحمالين الذين حاملين الميت ، فلما عاينوا ذلك هربوا وألقوا الميت على الأرض ، فلما هربوا أخذ الدبوس ووقع فى الميت فضربه به حتى اشتفى ، وصار الميت ملقى على الأرض لم يدفن إلى آخر النهار ، وقيل جرت هذه الواقعة فى سويقة صفيّة ، وصار الطمن عمّال والمماليك جائرة فى حقّ الناس بالأذى ، حتى قلت فى ذلك هذه الداعبة ، وهو قولى :

(٥) وكفن : ودفن .

أقـــول للطمن والمماليك جاوزتما الحدّ فى النـكاية
ترفقــا بالورى قليـــلا فى واحد منـكما كفاية

فـكان الناس على ما ذكرناه من هذه الأفعال الشنيعة ، والملك الناصر فى طيشانه ولعبه ، فنزل إلى بولاق فى ليلة سيدى إسماعيل الإنبابى رحمة الله عليه ، وشقّ البحر فى مركب ، ومعه (٧٦ ب) جماعة أولاد عمّه : جانم وأخيه جانى بك ، وأحرق تلك الليلة ببولاق حراقة نفط حافلة ، وبات فى المركب تلك الليلة ، وكانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وفعل مثل ذلك عدّة مرار . ـ وفيه توفى عبد القادر الألواحى بوّاب الدهيشة ، وكان عند الملك الناصر من جملة المقرّبين ، وكانت الناس تسعى فى الوظائف من بابه . ـ وفيه مات بالطاعون شاه بضاع بن ذالغادر أمير التركمان ، وكان مقيما بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجّه إلى محاربة آقبردى الدوادار ، فتبعوه إلى عينتاب واتقعوا معه هناك ، فانـكسر آقبردى كسرة مهولة ، وقتل من عصبته جماعة كثيرة ، منهم أينال السلحدار نائب حلب الذى فرّ معه ، وقُتل لِعلى دولات ولدان ، وقُتل من المماليك والخاصكية الذين كانوا معه جانب كبير ، وأخبروا أن آقبردى لـمـا انـكسر توجّه إلى نحو الفراة بمن معه من الأمراء ، ومن بقى معه من العسكر ، وقد حاربه كرتباى الأحمر نائب الشام أشدّ المحاربة ، وكان قد توجّه إلى عينتاب صحبة العسكر حتى يحارب معه وكسره ، وعن قريب تحضر رءوس من قتل فى هذه المعركة .

وفى رمضان تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى المماليك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء فتكا ذريعا ، حتى انتهى إلى ثمانمائة جنازة فى كل يوم ، وكان كما يقال فى المعنى :

---

(٥) جماعة : أضيف بعدها فى ف : من العوام يغنون على الندا والإجهار ، وكان معه .
(١٧ـ١٨) وكسره ... المعركة : كذا فى الأصل ، وفى ف : وانـكسر وهرب ، وطلع على جبل الصوف ، وقيل إنه لما انـكسر وصعد على جبل الصوف توجه إلى نحو الفراة بمن معه من الأمراء والمماليك .

ألا إن هذا الوباء قد سبا وقد عمّنـا طعن طوفانه

ولا عاصم اليوم من أمره سوى رحمـة الله سبحانه

ومات فى هذا الشهر من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العينى ، وكان شابا رئيسا حشما ، أدوبا عاقلا ، وولى من الوظائف : حسبة القاهرة ، ونظر الجوالى ، ووكالة بيت المال ، وتوجّه إلى الحجاز أمير حاج أول فى دولة الملك الناصر ، وكان عنده من أخصائه ؛ ومات بيبرس من حيدر الأشرفى قايتباى نائب القلعة ، وكان لا بأس به ؛ ومات الأمير جانبلاط الغورى رئيس نوبة النوب ، وكان قليل الأذى لا بأس به ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وتنقّل من الخاصكية لأمرة عشرة ، ثم بقى أمير الطبلخانات ، ثم بقى نائب القلعة ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، وتوفى فى هذا الشهر .

وفيه (٧٧ آ) مات صنطبـاى المبشّر الأشرفى قايتبـاى ، أحد الأمراء الطبلخانات ؛ وماتت شاشة أم آقبردى الدوادار الجركسية ، فنزل السلطان وصلّى عليها ، وحمل نعشها قانصوه خال السلطان ، ومشى به خطوات ؛ وماتت أم جمجمة ابن عثمان ، سرية أبيه محمد بن عثمان ملك الروم ، وكان اسمها ججك ، وكانت لا بأس بها ؛ ومات قيت الأشرفى قايتباى أحد العشرات ، وكان شاد الطرانة

ومن الوقائع الغريبة أن شخصا من المماليك الجلبان طعن ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا ، وأخرج بين أيديهم جملة قماش ، مابين بشاخين ومقاعد ومخدّات وبسط وغير ذلك ، ومبلغ نحو من ثلاثة آلاف دينار ، وأخبر أنه نهب ذلك من مكان سمّاه ، ثم قال لغلامه : امض وآتنى بأصحاب تلك القماش ، فمضى الغلام والشهود جالسة ، فغاب ساعة ثم أحضر أصحاب القماش ، فعرفهم ذلك المملوك ، فسلّمهم تلك المال والقماش بحضرة الشهود وسألهم المحاللة ، فلما حاللوه ومضوا مات من ليلته ، فعدّ ذلك من النوادر .

ومات آخر من المماليك الجلبان ، فوجد عنده خمسة عشر ألف دينار ، فذكر غلامه أنه نهب ذلك من حاصل آقبردى الذى فى حارة زويلة ، فحمل ذلك المال إلى

خزائن السلطان ؛ ومات مصرباى من على باى الذى كان نائب قلعة حلب وعزل عنها ؛ ولما كثر الموت فى الناس رسم السلطان بعمارة سبيل المؤمنى ، وهى المصلاة التى بالرملة ، وكانت خرابا من حين حاصر آقبردى القلعة .

وفيه جدّد الأمير طومان باى ، الدوادار الثانى ، ما فسد من مدرسة السلطان حسن ، من حين كانت واقعة آقبردى الدوادار ، فجدّد باب المدرسة الذى كان احترق ، وسدّ شبابيك القبّة وغير ذلك مما فسد منها ، وأقيمت بها الخطبة وصلاة التراويح ، وكانت معطلة نحوا من عشرة أشهر بسبب ما تقدم .

وفيه قبض على إنسان زعموا أنه ينبش القبور على الموتى ويسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حىّ ، فسلخوه من حدّ رقبته وأرخوه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، فطافوا به فى القاهرة ثم علّقوه على باب النصر ، واستمر معلّقا إلى أن مات ؛ ثم نودى للحفارين بحفظ أكفان الموتى . ــ وفى أواخر هذا الشهر تناقص أمر الطعن وخفّ ، بعد أن فتك فى الناس فتكا ذريعا ، (٧٧ ب) حتى قيل ضُبط من مات فى هذا الطاعون فى مدة ثلاثة أشهر ، فكان زيادة على مائتى ألف إنسان ، من كبير وصغير ومن المماليك السلطانية نحو من ألف ومائتين إنسان .

وفى شوال أخلع السلطان على قرقماس من ولى الدين وقرّر فى الرأس نوبية الكبرى ، عوضا عن جانبلاط الغورى بحكم موته ؛ وقرر يلباى المؤيدى من جملة مقدمين الألوف بمصر . ــ وفى رابع عشر هذا الشهر وصل سودون الدوادارى أحد العشرات ، وصحبته عدة رءوس ممن قتل فى المعركة التى وقعت بين آقبردى والعسكر الذى خرج من مصر كما تقدم ، وكان عدّة تلك الرءوس واحد وثلاثين رأسا ، وكان فيهم رأس أينال السلحدار ، الذى كان نائب حلب وفرّ مع آقبردى ، وفيهم رأس ابن على دولات ، الذى قتل فى المعركة ، وقيل قتل له ولدان ؛ فكان يوم دخولهم إلى القاهرة يوم مشهود ، فدخلت الرءوس وهى مشهورة على أرماح ، وشقّوا بهم

(١) الذى : التى . (١٤) ومائتين : كذا فى الأصل .

(١٦) يلباى : ياباى . وفى ف: ملباى . (١٧) مقدمين : كذا فى الأصل .

من القاهرة والشاعلية تنادى عليهم ، فلما عرضوا على السلطان رسم بأن يعلقوا على أبواب المدينة ، فعلقت رأس أينال نائب حلب على باب زويلة ، ومعها رأس ابن على دولات ، والباق على أبواب المدينة ، وكل هذا يشق على الملك الناصر فى الباطن وكانت له عناية مع آقبردى وتعصّب .

وأخبر سودون الدوادارى أن كرتباى الأحمر نائب الشام ، رجع إلى الشام ، وجانبلاط نائب حلب ، رجع إلى حلب ، وأن المسكر واصل عن قريب ؛ وقيل إن كرتباى الأحمر ، لما استقرّ فى نيابة الشام استولى على نيابة قلعة الشام أيضا ، مضافا لما بيده من نيابة الشام ، وهذا الأمر عزيز الوقوع جدا .

وفيه أمر السلطان ببناء جامع الفيوم ، وكان القائم فى ذلك الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، فأرسل صحبته السلطان عدّة من البنائين والمهندسين . ـ وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن كاتب السرّ بدر الدين بن مُزهر ، لما توجّه إلى مكة ، أصلح بين أمير مكة وأخيه بمرسوم السلطان ؛ وجاءت الأخبار أيضا من مكة بوفاة الأمير برد بك نائب جدّة ، وكان أحد الأمراء المقدّمين بمصر ، وخرج منفيا إلى مكة بعد كسرة آقبردى فمات بها ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به (٧٨ آ) .

وفيه كان ابتداء الوحشة بين السلطان وخاله قانصوه ، وقد صار بعض الأمراء يوقع بينهما الفتن ، حتى بلغ بذلك مقاصد ، وخيّلوا الملك الناصر من خاله ، وخيّلوا خاله منه بأشياء من أنواع الحيل والخداع ، وأخذوا فى أسباب ما يتمّ به الحيلة على قتل الملك الناصر ، وقد سعوا فى ذلك سعى الشطّار ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه ، وقد قيل فى معنى ذلك :

صف بالدهاء الذى يخشى الدهاء فما ينام خيفة أن تسدى له الحيل
فقد تبيت بقلب ضمّه أسد ولا تبيت بقلب ضمّه رجل

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى ، وبالأول جان بلاط المؤتر المحتسب . ـ وفيه جدّد الأمير قانصوه خال السلطان

خطبة فى المدرسة البشيرية ، فجدّد بها خطبة بسبب مماليكه ، وكان ساكنا بالقرب من هناك . ــ وفيه قبض الوالى على شخص من السرّاق ، فلما عرضه على السلطان أمر بقطع يده ورجله ، وألزم ذلك السارق أن يقطعهما بيده ، ففعل ذلك بحضرة السلطان . ــ وفى أواخر هذا الشهر دخلت التجريدة التى توجّهت إلى آقبردى الدوادار ، وقد حضروا من غير إذن من السلطان ، فشقّ عليه ذلك وأخذ حذره من الأمراء ، كونهم دخلوا من غير إذن منه.

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن آقبردى الدوادار ، لما بلغه رجوع التجريدة عاد إلى عينتاب ، وصار ينهب البلاد ويقطع الطريق على التجار ، فلما بلغ الأمراء بذلك أعياهم أمره . ــ وفيه تزايد شرّ العربان بالشرقية ، حتى خرج إليهم قانصوه خال السلطان ، وقرقماس رأس نوبة النوب ، فلما خرج خال السلطان سرح فى البلاد الشرقية والغربية سرحة حافلة ، وغاب نحوا من شهر ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان وغيرها . ــ وفيه قصد السلطان أن يخرج إلى مولد سيدى أحمد (٧٨ ب) البدوى رحمة الله عليه ، فلم يمكّنوه الأمراء من ذلك . ــ وفيه توفى الخطيب الوزيرى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عثمان المالكى ، وكان من أهل العلم والفضل لا بأس به .

وفى ذى الحجة عاد قانصوه خال السلطان من السرحة ، فنادى له السلطان فى القاهرة بالزينة ، فزيّنت ، ثم إنه دخل فى موكب حافل وطلع إلى القلعة ، فأخلع عليه السلطان خلعة سنية ، فلما نزل من القلعة ووصل إلى رأس الصوّة لاقاه جماعة من المماليك الجلبان وبأيديهم دبابيس مسحوبة ، فقالوا له : قل للسلطان ينفق علينا بسبب نصرته على آقبردى الدوادار ؟ فاستمرّوا يحاصرونه من رأس الصوّة إلى أن دخل بيته الذى عند درب حمّام الفارقانى ، فلما دخل بيته وقفوا له على الباب حتى قلع الخلعة وأكل المدّة ، ثم أركبوه ثانيا وطلعوا به إلى القلعة وهو مهدّد منهم بالقتل ، فلما طلع إلى السلطان وأعلمه بذلك ، فلم يوافق السلطان على هذا الأمر ، فردّ الجواب على المماليك بالمنع من السلطان .

(١) البشيرية : أضيف بعدها فى ف : التى بدرب الخازن .

فاستمرّوا صابرين حتّى مضى عيد النحر ، وانقضى أمر تفرقة الأضحية ، فلبسوا لامة الحرب وطلعوا إلى الرملة ، وحاصروا السلطان وهو بالقلعة ، وكان قانصوه خاله عنده فوق القلعة ، ثم توجّهوا إلى بيت الأتابكى أزبك فأركبوه غصبا وطلعوا به إلى القلعة ، فتكلم مع السلطان فى ذلك ، فتمنّع ساعة ، ثم وقع الاتفاق على أنه ينفق عليهم بعد مضى شهر لكل مملوك خمسين دينارا ، فلما نزل الأتابكى أزبك من القلعة وردّ عليهم الجواب ، خمدت تلك الفتنة وقلعوا آلة السلاح .

ثم إن السلطان أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فوزّع على المباشرين جانبا ، وعلى قضاة القضاة جانبا ، وعلى أعيان الناس من التجار وأولاد الناس وغير ذلك ، حتّى على اليهود قاطبة والنصارى ، ومشاهير السوقة والمتسبّبين ، وكان القائم فى ذلك قانصوه خال السلطان وأعوانه ، وهم : ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وإبراهيم المهاجرى إمام الأمير قانصوه المشار إليه ، وقانبك دواداره ، فجلس قانصوه خال السلطان فى داره التى عند درب حمّام الفارقانى وأحضر المعاصير والكسارات ، وأحمى خوذ حديد على النار ، وطلب الناس بالرسل الغلاظ الشداد .

فأما قاضى القضاة المالكى ابن تقى اختفى من بيته ، وكذلك قاضى القضاة (٧٩ آ) الحنبلى الشهاب الشيشينى ؛ وطلب القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، فامتنع مما قرّر عليه ، فبطح على الأرض ليضرب ، وكذلك ناظر الخاص علاى الدين ابن الصابونى ، وعلى هذا فقس بقيّة الناس من الأعيان والمشاهير ؛ فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم ، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك ، فكثر الدعاء على الناصر وخاله ، وقد تزايد الظلم والجور فى تلك الأيام إلى الغاية ، حتّى فرج الله تعالى عن قريب وقتل الملك الناصر بعد مضى ثلاثة أشهر ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ولكن كما قال القائل :

وماذا ينفع الدرياق يوما إذا وافى وقد مات اللديغ

ولما تكامل جمع الأموال ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على الجند ، فأعطى لطائفة المماليك القايتبيهية لكل واحد خمسين دينارا ، وما عدا ذلك خمسة وعشرين دينارا .

ومن أخبار الملك الناصر التى هى فى غاية البشاعة، قيل إنه دخل إلى حارة الروم، وهجم على دار إبراهيم مستوفى ديوان الخاص ليلا ، وقبض على ولده أبى البقا ورام توسيطه، فألقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار ؛ وقيل كان سبب ذلك أن الملك الناصر بلغه أن زوجة أبى البقا جميلة، فهجم عليه بسببها فأخفوها منه، فجرى بسبب ذلك ما جرى، وهذا ما استفاض فى الكلام بين الناس ، والله أعلم .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن المسلمين أخذوا حصن جربة من يدى الفرنج ، وكانوا قد استولوا عليها نحوا من سنة وشىء ، فكانت النصرة للمغاربة على الفرنج . ـ وفى هذه السنة كثرت الفلوس الجدد بأيدى الناس ، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد ، وصار الدينار الذهب يصرف من الفلوس الجدد بثلاثين نصفا ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة ، وسعر بالفلوس ، وأضرّ ذلك بحال الناس .

وفيه تزوّج قانى باى قرا أمير آخور كبير ، ببنت الأمير يشبك الدوادار ، التى كانت زوجة كرتباى بن عمّة الأشرف قايتباى ، الذى قتل فى واقعة (٧٩ ب) آقبردى بمدرسة السلطان حسن . ـ وفيه خرج نوروز أخوخ ، أحد الأمراء العشرات ، قاصدا إلى كرتباى الأحمر نائب الشام ، وعلى يده مراسيم بالعتب عليه ، الذى قد استولى على نيابة قلعة الشام من غير إذن من السلطان ، فتوجّه إليه وعاد بعد مدّة بغير طائل منه . ـ وفيه توفى آقباى أستادار الذخيرة ، وكان لا بأس به . ـ وجاءت الأخبار من مكة بوفاة أنصباى ، الذى كان نائب الإسكندرية ، واتّهم بموته كاتب السر لما توجّه إلى هناك .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، وقد وقع بها الغلاء والفناء، والمصادرات للناس ، وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدّم ، وأذى المماليك فى حقّ الرعية ، وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب ؛ وما كفى هذا كله ، حتى فشى فى الناس داء يقال له الحبّ الفرنجى ، أعاذنا الله منه ، وقد أعيى الأطباء أمره ولم يظهر هذا بعصر قط ، سوى فى أوائل هذا القرن، ومات به من الناس ما لا يحصى، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وتسعمائة

فيها فى المحرم كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله أبى العزّ عبد العزيز ؛ وسلطان العصر الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الملك الأشرف قايتباى ؛ وأما القضاة الأربعة فالقاضى زين الدين زكريا الشافعى ، والقاضى برهان الدين بن الكركى الحنفى ، والقاضى عبد الغنى بن تقى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدمون فقد تقلّبت أحوالهم بموجب ما جرى من الفتن والقتل ، كما تقدّم من أخبار السنة الخالية ، فكان الأتابكى أزبك يومئذ أمير كبير ، وتانى بك الجمالى الظاهرى جقمق أمير سلاح ، وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، وقانى باى قرا الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه خال السلطان دوادار كبير ووزير وأستادار وكاشف الكشاف ، وقرقماس من ولى الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرجبى حاجب الحجاب ، وبقية الأمراء المقدّمين على حكم ما تقدّم من أخبارهم .

وأما المباشرون (٨٠ آ) فالقاضى بدر الدين بن مُزهر كاتب السرّ ، ونائبه صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص يوسف ناظر الجيش ، والقاضى علاى الدين بن الصابونى ناظر الخاص ووكيل بيت المال ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدّم .

ومن الوقائع فى هذا الشهر أن النيل أوفى فى تاسع عشر مسرى ، الموافق لرابع المحرم ، وكان السلطان الناصر عوّل على أن ينزل ويفتح السدّ بنفسه ، وأخذ فى أسباب ذلك ، فلم يمكّنوه الأمراء من ذلك خوفا عليه من القتل ، فشقّ عليه ذلك ؛ فلما صلّى العشاء نزل من القلعة على حين غفلة ، وقدّامه عدّة فوانيس ومشاعل ، ومعه أولاد عمّه وبعض خاصكية نحو مائة خاصكى ، فتوجّه إلى السدّ وفتحه تحت الليل ؛ ثم توجّه إلى سدّ قنطرة قديدار ، ففتحه أيضا ، ثم عاد إلى القلعة ، وكل هذا تحت الليل.

---

(٢٢) قديدار : قديرار . وفى ف: دويدار .

فلما أن طلع النهار أصبح الناس يجدون الخلجان والبرك قد تمّرت بالميـاه فتعجّبوا من ذلك ، وهذا قط ما وقع فى الجاهلية ، ولا فى الإســلام أن السدّ فتح بالليل ، وقطع على الناس فرحاتهم بيوم الوفاء ، وما كان يقع فيه من القصف والفرجة المعتادة ، وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه من صادق :

منذ للسلطان قالوا للورى بالـكسر جبر
كسر السدّ بليـل فغدا للنـاس كسر

ثم بعد مضى أيام توجّه السلطان إلى قناطر أبى المنجا وفتح سدّها أيضا ، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة . ـ وفيه ضرب السلطان الـكرة بالحوش فى غير يوم موكب ، وكان معه بعض أمراء طبلخانات وعشرات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، فصار طومان باى يقتحم على أخذ الـكرة من السلطان ، لحنق منه السلطان وضربه على ظهره بالصولنجان غير ما مرّة ، فـكان ذلك من جملة ما حقده عليه طومان باى ، حتى كان سببا لقتله عن قريب .

وفيه مرّ السلطان من بين القصرين بعد العشاء ، فرأى شخصا ماشيا فى السوق وقد خرج من الحمّام ، فقيل له : إن هذا الرجل سكران ، فوسّطه ولم يفحص عن أمره ، وراح ذلك الرجل ظلما ، وكان الناصر قد تزايد شرّه فى تلك الأيام إلى الغاية. ـ وفيه نادى السلطان (٨٠ ب) لسكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليالى متوالية ، فامتثلوا ذلك ، وصار ينزل فى المراكب ويطوف البركة هو وأولاد عمّه ، فإن رأى امرأة جميلة فى بيتها يهجم عليها ويطلع لها من الطاق ويأخذها غصبا ، ويضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته ، فارتابت الناس منه وبقى على رءوسهم طيرة.

ومن الحوادث فى هذا الشهر قد أشيع بين الناس أن السلطان عمل له برقا حافلا بتربة أبيه ، وقد عوّل على أن يسافر فى الدسّ إلى نحو البلاد الشامية ، بسبب آقبردى ليكون له عونا على نصرته ودخوله إلى مصر ، وكان السلطان له عناية بآقبردى باطنا وظاهرا ؛ فلما بلغ المماليك ذلك توجّهوا إلى مكان فيه السنيح ونهبوه عن آخره ،

(٣) وقطع : كذا فى ف ، وفى الأصل : وقد طلع . (١٠) طومان باى : طومان .

وضربوا الغلمان الذين تعيّنوا إلى السفر مع السلطان ، وكادت أن تكون فتنة مهولة بسبب ذلك ، وقصدوا أن يلبسوا آلة السلاح ويثيروا فتنة عظيمة ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه وصل الحاج ودخل القاهرة ، بعد أن قاسى مشقّة وعطشا ، وقلّة أمن من فساد العربان ؛ وأشيعت الأخبار بوفاة يوسف بن أبي الفتح كاتب المماليك ، مات بمكة وكان مجاورا بها ، وكان لا بأس به . ـ وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن المحمل لما دخل إلى القاهرة صحبة الحاج ، فشقّ المدينة ، فلما وصل إلى جامع الماردانى برّكوا الجمل هناك ، وأرادوا أن ينزعوا أثواب المحمل من عليه ، وإذا بقاصد من عند السلطان يطلب المحمل ، وكان بقبّة يشبك التى بالمطرية ، فتوجّهوا به إليه ، فشقّ القاهرة ثانيا حتى رآه السلطان وهو بالقبّة ، ثم عادوا به فشقّ القاهرة ثالث مرة ، فعُدّ ذلك من النوادر التى قط ما وقعت .

وفى صفر جاءت الأخبار من البحيرة بأن الجويلى ومرعى ثاروا فتنة مهولة بالبحيرة ، ونهبوا البلاد وأسرو النساء وقتلوا الأطفال ، وأشيع أن الجويلى حلف أنه لا يمكّن أحدا من أرباب الدولة أن يأخذ خراجا من بلاد الغربية فى هذه السنة ؛ فلما تحقّق السلطان ذلك عيّن تجريدة إلى البحيرة ، فلم يوافق أحد من الأمراء ولا العسكر على الخروج إلى البحيرة ، وكان النيل فى قوة زيادته ؛ ثم إن السلطان نادى للعسكر بالعرض (٨١ آ) فى الميدان ، فلما حضر العسكر لم ينزل إليهم السلطان وقد تخوّف على نفسه ، فانفضّ ذلك الجمع وكثر القال والقيل بين الناس ، وكانت أيام الناصر كلها فتن وشرور وقلاقل . ـ وفيه ظهر البدرى بن مُزهر كاتب السرّ ، وكان مختفيا ، فأرسل له السلطان بالأمان . ـ وفيه قرّر قانصوه بن سلطان جركس ، المعروف بابن اللوقا ، فى حجوبية الحجاب بدمشق .

وفيه قرّر إبراهيم بن يحيى المهاجرى فى نظر ديوان المفرد ، بواسطة قانصوه خال السلطان ، فإنه كان إمامه . ـ وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن جميع

---

(١) الذين : الذى .   (١٤) لا يمكن أحدا : لا يمكن أحد .

الحوانيت ، التى بالأسواق والشوارع ، يبيّضوا وجوهها ويزخرفوها بالدهان ، فحصل على الناس بسبب ذلك غاية المشقّة بسبب مصروف ذلك ، ثم رسم بتبييض وجوه الربوع المطلة على الشوارع ، وكل هذا عقل الصغار ووسائط السوء التى كانت حوله . ـ وفيه وقعت زلزلة خفيفة بالقاهرة ، وكانت فألا على السلطان ، فإنه قتل عقيب ذلك . ـ وفيه تزوّج السلطان بمصر باى الجركسية ، زوجة كرتباى أخى آقبردى الدوادار ، الذى كان نائب صفد ، ووقع بين السلطان وأمه بسبب زواج مصر باى ما لا خير فيه ، وكانت عليه كعب الشؤم ، فأقام معها دون الشهر وقتل .

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان المصحف العثمانى بين يديه وحلّف عليه العسكر قاطبة ، ثم حلّف الأمراء ، فلما حلفوا قالوا : مثلما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك منا أحدا بغير سبب ؛ فتوقّف السلطان من ذلك اليمين ، وكان المتكلم بين السلطان والأمراء تانى بك الجمالى أمير سلاح ، فانفضّ المجلس مانعا ، ونزلوا الأمراء على غير رضا .

فلما كان يوم الجمعة لم يطلع من الأمراء أحد إلى صلاة الجمعة مع السلطان ، واجتمعوا فى بيت قانصوه الخال ولم يمكّنوه من الطلوع إلى القلعة ، واستمرّ الحال على ذلك إلى يوم الاثنين ؛ ثم إن السلطان أرسل نقيب الجيش إلى طومان باى الدوادار الثانى ، وطراباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر شاد الشرابخاناه ، وأنص باى ، فقال لهم نقيب (٨١ ب) الجيش عن لسان السلطان : رسم لكم السلطان بأن تكتبوا وصيّة وتخرجوا فى عقيب هذا اليوم ، وتتوجّهوا إلى مكة من البحر ؛ فلم يلتفتوا إلى كلام نقيب الجيش ، وقالوا : ما نخرج من مصر لموضع ، ومهما فعله بنا يفعل ؛ فعند ذلك أضمروا له السوء وتغيّرت عليه خواطر الأمراء قاطبة ، وهو فى غفلة عما يراد به ، وقد حقدوا عليه قبل ذلك مما يقع منه من هذه الأفعال الشنيعة ، وصار كل أحد من الناس حاقدا عليه باطنا وظاهرا من سوء تدبيره ، فكان كما يقال:

(١) يبيضوا . . . ويزخرفوها : كذا فى الأصل . (٢١) مما يقع : كذا فى ف ، وفى الأصل : لما ينفع .

ما تفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

وفى هذا الشهر ظهر مصر باى وآخرون من الأمراء ممن كان مختفيا من حين كان واقعة آقبردى الدوادار ، فلما ظهروا طلعوا إلى القلعة ، وهم : مصر باى ، وقانبك أبو شامة ، وقانصوه الفاجر ، وتمراز جوشن ، وقانصوه الساقى ، وجماعة من الأينالية ، منهم : دولات باى من غيبى ، وبرقوق الساقى ، وآخرين من الخاصكية ؛ وكان ظهورهم بأمر من السلطان ، فلما قابلوا السلطان أخلع عليهم ، وعلى خاله ، وأشيع بأن الصلح قد وقع بين حلف آقبردى الدوادار ، وحلف قانصوه خمسمائة ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الملك الناصر ، وأخذ عقيب ذلك بأيام .

وفيه نزل السلطان إلى نحو قبّة يشبك التى بالمطرية ، فأقام بها إلى آخر النهار ، وعاد إلى القلعة ، وكان هذا آخر ركوبه إلى جهة قبّة يشبك . ـ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، فلم يطلع إليه من الأمراء سوى الأتابكى أزبك وتانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبعض أمراء عشرات ، والقضاة الأربعة ، ولم يطلع خاله قانصوه ، ولا أحد من الأمراء ، ولا حضروا المولد .

ووقع فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان فى حقّ الأمراء والفقهاء ما لا خير فيه ، فرجموا الأمراء من الطباق بالحجارة ، وكبّوا عليهم الماء المتنجس بالأقذار ، وخطفوا عمائم الفقهاء ، وكان يوما مهولا ؛ فلما انقضى يوم المولد بعث السلطان يقول للأمير طومان باى الدوادار الثانى : اخرج فى هذه الساعة على جرايد الخيل إلى جهة البحيرة ، (٨٢ آ) بسبب فساد الجويلى ومرعى ؛ فخرج طومان باى من يومه ، وأتى إلى برّ الجيزة ونصب بها خيامه.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره نزل السلطان من القلعة وتوجّه إلى نحو قناطر العشرة ، وكان ذلك فى أواخر النيل ، فعدّى إلى برّ الجيزة ، وسبقه الخام والمطبخ ، وكان عنده جانب كبير من بقيّة احتياج المولد ، فلما وصل السلطان إلى الوطاق نزل به ،

(١٢) وتانى بك : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل

ولم يكن معه سوى أولاد عمّه : جانم وأخيه جانى بك ، وجماعة من الخاصكية ، ولم يتوجّه معه أحد من الأمراء ، حتى ولا خاله ، فأرسل أحضر أبو الخير بعدّة خيال الظلّ ، وجوق مغانى العرب ، وبريّوه ريس المحبّظين ، وأقام هناك ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش ، وقد خرج عن الحدّ فى اللهو والخلاعة والانشراح ، ومدّ هناك أسمطة حافلة ، وحلوى وفاكهة وغير ذلك ، وأنعم على جماعة من الخاصكية بخيول ومال ، وانشرح فى تلك الأيام بخلاف العادة ، وتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بأمثاله، فكان كما يقال فى المعنى :

تزوّد من الدنيا فإنك لا تدرى إذا جَنّ ليلك هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علّة وكم من عليل عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدرى

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشره أدركت السلطان تفرقة الجامكية ، فأذن للخاصكية الذين كانوا معه أن يتقدّموا قبله كى لا يزاحمونه وقت التعدية ، فتقدّم جماعة منهم إلى بيوتهم ، فصلّى السلطان العصر وركب ، ولم يبق معه سوى أولاد عمّه وبعض سلحدارية ، فلما ركب مرّ من على الطالبية ، وكان الأمير طومان باى الدوادار الثانى هناك يقصد التوجّه إلى البحيرة كما تقدّم ذكر ذلك ، فلما مرّ من عليه خرج طومان باى مسرعا وعزم عليه ، فلم ينزل عنده ، فخرج إليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدّموا له الجفنة اللبن وملمقة ، فمدّ يده إلى الجفنة وأكل من اللبن ، فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر إلا وقد خرج عليه (٨٢ ب) كمين من الخيام التى هناك نحو من خمسين مملوكا ، وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به وعاجلوه بالحسام قبل الكلام ، فقتلوه أشرّ قتلة ، وحملوا عليه أى حملة ، فجاءت ضربة على رقبته طارت عن جثّته ، فوقع عن فرسه إلى الأرض ، وقتلوا معه أولاد عمّه : جانم وأخيه

(١٢) الذين : الذى . (١٢) أن يتقدموا : أن يتقدمون . (١٧) وملمقة : ومعلقة.

جانى بك ، وكانا شابان جميلان الهيئة ، ملاح الأشكال ، وقُتل معهما أيضا شخص من السلحدارية يقال له أزبك العُمرى الخاصكى ، المعروف بالبواب ، وكان من خواصه ، وفى هذه الواقعة يقول محمد بن قانصوه من صادق :

قد قُتل الناصر سلطاننا   من فعله المعهود فى الذهن
فهنّئوا أنفسكم مثلنـــا   بأمن قطع الأنف والأذن

وتقرب هذه الواقعة من واقعة الأشرف خليل بن المنصور قلاون ، وقد قتل مثل هذه القتلة بعينها فى تروجة ، بمكان يعرف بالحمامات ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وقتله أيضا مماليك أبيه مثل هذه الواقعة بعينها ؛ وكانت قتلة الملك الناصر فى يوم الأربعاء بعد العصر خامس عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة ، وقتل بأرض الطالبية ، وقد نسبت قتلته إلى بعض الأمراء من مماليك أبيه ، فكان كما قيل فى المعنى :

كنت من كُربتى أفرّ إليهم   فهموا كُربتى فأين المفرّ

فلما قُتل صارت جثته مرميّة على الأرض هو ومن قُتل معه ، فلما دخل الليل حملوه جماعة شيخ الطالبية وأدخلوه فى مسجد هناك ، وألقوه على حصير ، هو ومن قُتل معه ، وهو مخبط فى دمه ، ورأسه مشبكة فى جثته ببعض شىء ، فبات تلك الليلة . — فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما وقع للناصر من قتلته ، فاضطربت أحوال المدينة وماجت بأهلها ، ولبس العسكر لأمة الحرب وباتوا تلك الليلة فى اضطراب ؛ وكان جماعة من الأمراء قرّروا مع الأمير قانصوه خال السلطان ، أنه إذا قُتل الناصر يكون هو السلطان بعده ، فتغافل عن هذه الواقعة حتى قُتل الناصر ، ولولا استمالوا خاله لما قدروا على قتله .

فلما كان يوم الخميس صبيحة ذلك بعث خال السلطان ثلاثة نعوش إلى الطالبية ،

---

(١) شابان جميلان : كذا فى الأصل .

(١٢) المفر : أضيف بعدها فى ف : وكان كما قيل أيضا :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة هى الذئاب

فأحضروا جثة السلطان وأولاد عمّه جانم وأخيه ، فلما عدّوا بهم من الجيزة أتوا بهم إلى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه بالقرب من حمّام الفارقانى ، فغسلوا السلطان (٨٣ آ) وأولاد عمّه هناك ، وأخرجت الثلاثة نعوش ولم يكن معهم غير الحمالين فقط فأتوا بهم إلى باب الوزير ، فلم يجدوا من يصلّى عليهم ، حتى مسكوا بعض الفقهاء صلّى عليهم ، ثم توجّهوا بهم إلى تربة الأشرف قايتباى ، فدفنوا الملك الناصر على أبيه داخل القبّة ، وأولاد عمّه على جانم قرابة السلطان ؛ وقد رثيت الناصر لما مات بهذين البيتين وهما:

يا قبر لا تظلم عليه فطالما جلّى بطلعته دجى الإظلام
طوبى لقبر قد حواه كيف لا يحكى السماء وفيه بدر تمـام

وكان الملك الناصر حسن الشكل ، أبيض اللون ، عربى الوجه ، نحيف الجسد ، معتدل القامة ، قتل وله من العمر نحو من سبع عشرة سنة ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وكان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة ، لكنه كان جاهلا عسوفا، جرئ اليد ، سفّاكا للدماء ، سيئ التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس ، ووقع منه أمور شنيعة فى مدّة سلطنته لا ينبغى شرحها ، وسار فى المملكة أقبح سيرة ، ولم يقع من أبناء الملوك من السواقط ما وقع منه فى سائر أفعاله ، حتى جاوز فى ذلك الحدّ ، وكان ضعيف الخط جدا فى العلامة ، وليس له من المحاسن إلا القليل ، وفيه أقول :

سلطاننا الناصر المفدّى أخباره نقلها صحيح
بالجهل أضحى قبيح فعل فلم يُفِد شكله المليح

وكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور وحروب قائمة ، كما تقدّم ذكر ذلك من الوقائع ، وما كان الأشرف قايتباى قصده أن يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الناصر محمد بن الأشرف قايتباى وذلك على سبيل الاختصار، ولما قتل الناصر تولى بعده خاله المقر السيفى قانصوه أمير دوادار كبير ، تمّ ذلك .

(١) جانم : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل .

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه من قانصوه الأشرفى

وهو الثالث والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد، (٨٣ ب) وكان أصله جركسى الجنس، اشتراه الأمير قانصوه الألفى مع جملة مماليك ، قدّمهم للسلطان الملك الأشرف قايتباى فى سنة ثمان وتسمين وثمانمائة ، فأنزله بالطبقة مع جملة المماليك الكتابية ، فأقام بها مدّة يسيرة ، ثم ظهر أنه أخو سرية السلطان أصل باى الجركسية ، أم ولده محمد الذى تسلطن ، ثم إن السلطان أخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجدارية ، فأقام على ذلك حتى توفى الأشرف قايتباى وتسلطن ولده الناصر محمد، جمله خازندار كيس، وبقى يسمى: خال السلطان .

فلما وثب قانصوه خمسمائة على الملك الناصر كما تقدّم ، لم يكن عنده بالقلعة سوى خاله قانصوه هذا ، وجماعة كثيرة من المماليك الجلبان ، فقام خاله قانصوه بنصرته، هو والمماليك الجلبان وقاتلوا قتال الموت ، بعد ماأرسل قانصوه خمسمائة يدخل الناصر إلى قاعة البحرة ويقيّده، فلما انتصر الناصر على قانصوه خمسمائة أخلع على خاله قانصوه وقرره أمير طبلخانات شاد الشراب خاناه دفعة واحدة ، فمظم أمره وشاع بين الناس ذكره؛ فلما ركب آقبردى الدوادار وانكسر وتوجّه إلى البلاد الشامية ، أخلع السلطان على خاله وقرّره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن آقبردى، ثم قُرّر فى الوزارة والأستادارية فعظم أمره جدا .

فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يلى السلطنة بعد الناصر، فاجتمع الأمراء بدار الظاهر تمربغا ، وحضر الأتابكى أزبك وبقيّة الأمراء ، وأشيع فى ذلك اليوم بأن قانصوه خمسمائة فى قيد الحياة ، فنودى له بالأمان وأن يظهر ، فلم يكن لهذا الكلام تأثير وبطلت هذه الإشاعات ؛ ثم قالوا للأتابكى أزبك : تولّ السلطنة أنت، فحلف بالطلاق ثلاثة من بنت الملك الظاهر بأنه [لن] يتسلطن، وأن يعود

(١٥-١٦) وانكسر ... خاله : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

إلى مكة كما كان.

ثم حضر قانصوه خال السلطان الناصر من بيته الذى بالقرب من حمّام الفارقانى، وصعد إلى باب السلسلة، فلما صعد وقع الاتفاق على سلطنته، وكان القائم فى ذلك طومان باى الدوادار الثانى، فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب، والقضاة الأربعة، وهم: زين الدين زكريا الشافعى، والبرهان بن الكركى (٨٤ آ) الحنفى، وعبدالغنى بن تقى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى، فبايعه الخليفة بالسلطنة، وشهد عليه القضاة الأربعة بذلك، وتلقّب بالملك الظاهر أبى سعيد، وذلك فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة، وذلك فى أثناء الساعة الرابعة، وهى لزحل.

فأحضر إليه شعار الملك وهى الجبة والعمامة السوداء والسيف البداوى، فأفيض عليه الشعار، وقدّمت إليه فرس النوبة، وركب من سلم المقعد الذى بباب السلسلة، ومشت الأمراء بين يديه، وركب الخليفة أيضا معه، وتقدّم الأتابكى أزبك وحمل القبّة والطير على رأسه، وكان أولى بالسلطنة من كل أحد، وقد فاتته عدّة مرار، فكان كما يقال:

إذا رفع الزمان محلّ شخص ... وكان سواه أولى لو تصاعد
فكم فى العرس أبهى من عروس ... ولكن للعروس الوقت ساعد

فلما طلع الظاهر إلى القصر جلس على سرير الملك، فأول من قبّل له الأرض الأتابكى أزبك، ثم بقيّة الأمراء شيئا فشيئا، وقيل إن الذى لقّبه بالملك الظاهر تانى بك الجمالى أمير سلاح، فلما جلس على سرير الملك أخلع على الخليفة ونزل إلى داره، وأخلع على الأتابكى أزبك باستمراره فى الأتابكية، وأخلع على الأمير طومان باى الدوادار الثانى، وأقرّه فى الدوادارية الكبرى، عوضا عن نفسه؛ ثم دُقّت البشائر بالقلعة، ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت الأصوات له بالدعاء، وفرح كل واحد من الناس بسلطنته، بغضا فى الملك الناصر مما كان يفعله من الأفعال الشنيعة.

(١) كما كان: أضيف بعدها فى ف: وصعدوا إلى باب السلسلة.

فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خُطب باسم الظاهر على المنابر ، وجاء فى حال سلطنته ماشيا فيها على الوضع ، وانصلحت الأحوال فى أيامه على قدر ما ، كان جلبا ، فتولّى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة ، وكان له عقل وافر ، وثبات جنان ، والذى وقع له لم يقع لأحد من مبتدأ دولة الأتراك وإلى هلم ، فإنه كان من دخوله إلى مصر ، وإقامته فى الطبقة ، وحضوره من بلاد جركس ، وأمريته ، وسلطنته ، دون الست سنين ، وهذا لم يتفّق لأحد من الأتراك قبله ، وكان من جملة الجدارية ، فقرّر فى أمرة أربعين (٨٤ ب) وشادية الشرابخاناه دفعة واحدة ، وكان له سعد خارق من العناية الأزلية فى القدم ، كما يقال :

إذا خصّص الرحمن عبدا بنعمة فكل حسود بعد ذلك مقمع
فيا طالب العلياء مهلا ولا تطل فليس بسعى المرء ما شاء يصنع

وفى حال سلطنته حضر سيف كرتباى الأحمر نائب الشام ، وقد مات الملك الناصر بحسرة أن يسمع بذكر موته ، ويقال إن الناصر راشا على قتل كرتباى الأحمر بألف دينار ، قيل إن بعض غلمان كرتباى سمّه فى زيق الكوفية ، فلما لبسها وعرق سرى السم فيه ، فورم وجهه ووصل الورم إلى قلبه فمات ، وقد تمّت حيلة الناصر عليه ؛ وكان كرتباى أميرا جليلا رئيسا ، وكان يحجّر على الناصر وينهاه عن هذه الأفعال الشنيعة ، فكرهه بواسطة ذلك ، وكان يلصق أوراقا بقاعة البحرة بهيئة كرتباى الأحمر وهو مسمّر على جمل والناس تنشبه ؛ وكان كرتباى يصرّح فى وسط مجلسه بالشام ويقول : أنا من تحت حكم صبى وامرأة ؛ يعنى عن الناصر وأمّه ، ولما استقر كرتباى فى نيابة الشام ملك قلعتها ، وطرد نائبها ، ووقع منه أمور فى حق الناصر يطول شرحها .

وفى ذلك اليوم ثار جماعة من المماليك الجلبان على ناصر الدين الصفدى وكيل

(٣) كان جلبا ، يعنى كان من المماليك الجلبان .
(٥) وأمريته : كذا فى ف ، وفى الأصل : امرأته . (١٢) راشا ، من الرشوة .
(١٧) تنشبه : كذا فى الأصل ، وفى ف : تنتشه .

بيت المـال ، فضربوه ضربا مبرحا حتى كاد أن يموت . ـ وفيه عمل السلطان الموكب بالقصر وأخلع على قصروه من أينال وقرّره فى نيابة حلب ، عوضا عن جان بلاط من يشبك ، وأرسل إلى جان بلاط خلعة ونقله من نيابة حلب إلى نيابة الشام ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم وفاته. ـ وفيه قرّر الأمير طومان باى فى الوزارة والأستادارية ، مضافا لما بيده من الدوادارية الـكبرى .

وفيه ثار جماعة من المماليك الناصرية على الأمير طومان باى الدوادار ورجموه من الطباق ، وقصدوا قتله غير ما مرّة ، وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتلة الناصر ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم بسدّ جميع الـكورة التى تطلّ على دهاليز القلعة من طباق المماليك . ـ وفيه أخلع السلطان على طُراباى الشربى وقرّره فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن طومان باى بحكم انتقاله إلى الدوادارية الـكبرى ، (٨٥ آ) وقرّر تانى بك أحد العشرات فى الخازندارية ، وقرّر آقباى الطويل فى نظر الجوالى ، وأنعم على بيبرس الأشقر بأمرة عشرة .

وفيه قبض الأمير طومان باى الدوادار عَلَى علىّ بن رحاب المغنى ، فضربه بالمقارع ، وأشهره فى القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار ، وكان على بن رحاب ظالمـا أدخل نفسه فيما لا يعنيه ، وتعصّب لآقبردى الدوادار ، وصار يسبّ الأمراء سبّا قبيحا فى المجالس جهارا ، ويهجوهم الهجو الفاحش ، ويصرح بذلك فى الساعات وهو على الدكة ، وكان كرتباى الأحمر قبض عليه قبل ذلك وأراد ضربه ، ثم وبّخه بالـكلام وعفا عنه ، فلما زاد فى هذا الأمر ضربه طومان باى وأشهره فى القاهرة ، والمشاعلية تنادى عليه : هذا جزاء من يكثر كلاما ويدخل نفسه فيما لا يعنيه .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تحصيل الأموال لأجل النفقة على الجند ، فقرّر على الشهابى أحمد ناظر الجيش مبلغا له صورة ، فاختفى ، فأخلع على القاضى عبد القادر القصروى وقرّره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد بحكم اختفائه . ـ وفيه

(٢) قصروه : كذا فى الأصل ، وهو الصحيح ، وفى ف : قانصوه .

اختفى الشهابى أحمد بن العينى بسبب مال أفرض عليه ، واختفى جوهر المعينى الزمام بسبب مـال أفرض عليه ، وقبض على محسن الطواشى الخـازن ، وآخرين من الطواشية ، وقرّر عليهم الأموال ، وتسلّم طرابـاى محسن الخـازن وعاقبه ، واستخلص منه الأموال ، حتى أباع جميع ما يملـكه وبيته وقماشه ولم يف بمـا قرّر عليه ، وفعلوا مثل ذلك بالطواشى مسك الساقى وغير ذلك من الطواشية .

وفى ربيع الآخر خرج قصروه الذى قرر فى نيابة حلب ، وخرج صحبته آقباى الذى قرّر فى نيابة قلعة الشام . ـ وفيه تميّن قرقماس من ولى الدين ، رأس نوبة النوب ، فى أمرة ركب المحمل ، وتميّن أزبك المـكحل ، أحد الأمراء الطبلخانات ، فى أمرة الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن آقبردى الدوادار قد حاصر حلب أشدّ المحاصرة ، وأحرق ما حولها من الضياع ، وأشرف على أخذ المدينة ، وقد التفّ عليه الجمّ الغفير من التركمان ، وحصل منه غاية الضرر ؛ فلما تحقّق السلطان ذلك عيّن تجريدة ثقيلة إلى آقبردى ، وكان باش العسكر تانى بك الجمالى أمير سلاح ، (٨٥ ب) وبها من الأمراء : قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وسودون العجمى أحد المقدمين ، ويلباى المؤيدى أحد المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وعدّة وافرة من العسكر ، فنفق عليهم واستحثّهم على الخروج إلى حلب سرعة .

وفيه توجه جانم طاز الإبراهيمى أحد العشرات ، إلى على دولات بن ذلغادر وصحبته خلعة على عادته . ـ وفيه أمر السلطان بتوسيط شخص من الجند يقال له ألماس ، وقد قتل قتيلا فوسّطه السلطان بسبب ذلك .

وفى جمادى الأولى، فى يوم الاثنين عاشره ، خرجت التجريدة المعينة إلى آقبردى الدوادار ، وكان لخروجها يوم مشهود . ـ وفيه صنع السلطان له مولدا فى غير وقته ، وحضر فيه القضاة الأربعة على العادة ، وكان يوما حافلا بالحوش السلطانى . ـ وفيه

---

(١٥) الطبلخانات : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل .

(١٨) خلعة : أضيف بعدها فى ف : وتقليد إلى على دولات باستمراره على أمرية التركمان.

أنعم السلطان على جان بردى الأشقر الكاشف بأمرة عشرة . ـ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة الطواشى هلال ، توفى بالشام ، وكان تعيّن لتقدمة المماليك ، وكان لا بأس به . ـ وفيه كان ابتداء تفرقة نفقة البيعة على الجند .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه ، الذى قرر فى نيابة حلب ، لما دخل الشام ، وضع يده على مال كان لكرتباى الأحمر ، وكان مبلغا ثقيلا نحوا من سبعة وستين ألف دينار ، وهذا كان أوّل عصيان قصروه واستخفافه بالسلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكّد لهذا الخبر ، وعيّن مسيد أحد الدوادارية بالتوجّه إلى قصروه ، وأن يأمره بردّ ما أخذه من مال كرتباى الأحمر ، فلما توجّه إلى قصروه لم يلتفت إلى مراسيم السلطان ، ولا ردّ شيئا من المال الذى أخذه ، واعتذر بأشياء لم تقبل .

وفيه قبض السلطان على شخص من الحراميّة يقال له ابن الوارث ، فقطع لسانه وأكحلت عينه بالمراود المحمية بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام ولا السرقة ، وقد قبض عليه بعد ذلك وعلى رأسه عَمْلَة، والطبع فى الإنسان لا يتغيّر . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة كشبغا الشريفى نائب الإسكندرية ، وكان لا بأس به . ـ وفيه أخرج السلطان تقدمة الأمير أزبك اليوسفى بحكم كبر سنّه وعجز عن الحركة ، فلما أخرجت عنه أنعم السلطان بها على أزدمر (٨٦ آ) من على باى ، الذى كان شاد الشرابخاناه .

وفى جمادى الآخرة عاد الأمير طومان باى الدوادار من السرحة التى سرحها نحو بلاد الصعيد ، وأحضر صحبته من الأغنام فوق الأربعة آلاف رأس ، زعموا أنها من أغنام عرب عزالة ، وجرى بسبب ذلك فيما بعد أمور غريبة يأتى الكلام عليها فى موضعه . ـ وفيه قرر أزبك المكحل فى نيابة الإسكندرية ، عوضا عن كشبغا الشريفى . ـ وفيه كثرت المصادرات للمباشرين وأعيان الناس بسبب النفقة ، وقد عجز السلطان عن سدادها . ـ وفيه عيّن السلطان البدرى بن مُزهر كاتب السرّ ، بأن يخرج إلى مكة المشرفة فى بعض المهمات الشريفة .

وفيه قبض السلطان على الناصرى محمد بن خاص بك أخى خوند زوجة

---

(١٦) جمادى الآخرة : ينقص فى ف .

الأشرف قايتباى ، فأقام فى الترسيم مدّة ، وطُلب منه مال له صورة ، وعُرض للضرب غير ما مرّة ، وقد آل أمره على أن يخرج أمير حاج بالركب الأول ، وأمره بأن يقوم بما يحتاج إليه من ماله ، ولا يأخذ من السلطان شيئا ؛ ثم قبض على أخت خوند بنت خاص بك ، التى كانت زوجة آقبردى الدوادار ، ورسّم عليها وطالبها بمال له صورة ، وزعم أن آقبردى أودع عندها مائة ألف دينار ، وجرى عليها ما لا خير فيه من الأنكاد والضرر .

وفيه غمز بعض الناس على الأمير قنبك أبو شامة ، وكان مختفيا فى مكان بحارة زويلة ، فكبس عليه والى الشرطة ومعه جماعة من المماليك ، فلما دخلوا عليه هاش عليهم بالسيف ، فتكاثروا عليه ومسكوه وقتلوه بالدار التى كان بها ؛ وكان قنبك أبو شامة أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أكبر أصحاب آقبردى الدوادار ، وقد فاته القتل عدّة مرار ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

وفى رجب أخلع على أنصباى وقرّر فى شادية الشراب خاناه ، عوضا عن أزدمر من على باى ، بحكم انتقاله إلى التقدمة . ــ وفيه أخلع على يخشباى وقرّر فى نيابة حماة ، وخرج إليها فيما بعد . ــ وفيه قرّر شخص يقال له محمد الباسطى فى التكلم على جهات الحسبة ، وجرت من هذا (٨٦ ب) الباسطى أمور يطول الشرح فى ذكرها ، وآل أمره بأن ضُرب بالمقارع ، وشهر على جمل فى دولة العادل طومان باى .

وفى شعبان غرق محب الدين محمد بن قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، قيل كان فى مركب فغرق قدّام المقياس ، وكان غير مشكور السيرة . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير طومان باى الدوادار ، لما توجّه إلى جهة الصعيد ، احتال على حميد ابن عمر أمير عربان هوّارة ، فلما ظفر به قتله وحزّ رأسه وأرسلها إلى مصر ، فعلّقت على باب زويلة ثلاثة أيام . ــ وفى حادى عشره وصل خاير بك أخو قانصوه البرجى ، الذى توجّه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم ، وكان الملك الناصر أرسله قاصدا عن لسانه إلى ابن عثمان ، وصحبته هدية حافلة إلى ابن عثمان ، فأكرمه وأظهر الفرح بسلطنة

---

(١٢) رجب : فى ف : جمادى الآخرة .

الملك الناصر ، فلما بلغه قتلة الناصر شقّ ذلك عليه ووبّخ خاير بك بالـكلام .

وفيه تغيّر خاطر السلطان على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ، وأمر بتوسيطه حتى شفع فيه . ــ وفيه عاد الطاعون الذى وقع فى العام الماضى ، ومات فيه كثير من الناس ممن كان فرّ من الغرباء ، وعاد بعد رفع الطاعون ، فردّ الطاعون فى هذه السنة ، لـكن كان خفيفا جدا . ــ وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان زحف على بلاد السلطان ، وآل الأمر إلى أن ابن عثمان أرسل يقول لنائب حلب : اعزل ابن طرغل ، فأجابهم نائب حلب إلى ذلك وعزل ابن طرغل .

وفى رمضان أخلع السلطان على بهاى الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقى ، وقرّر فى قضاء الحنابلة ، وصرف الشهاب أحمد بن الشيشينى ، فأقام ابن قدامة فى منصب القضاء شهرا واحدا وأربعة أيام ، وعزل وأعيد الشيشينى إلى القضاء ثانيا . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على الشيخ سرىّ الدين عبدالبرّ بن الشحنة ورسم بنفيه إلى قوص ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى ، فرسم له السلطان أن يلزم داره ولا يركب ولا يجتمع على أحد من الناس ، وجرت عليه أمور مهولة فى تلك الأيام .

وفيه اجتمع السلطان والأمراء فى قاعة البحرة وضربوا مشورة (٨٧ آ) فى أمر آقبردى الدوادار ، فوقع الاتفاق فى ذلك اليوم على أن آقبردى يستقرّ فى نيابة طرابلس ، وأن آقباى الذى كان رأس نوبة النوب يستقرّ فى الأتابكية بدمشقّ ، وأن تانى بك قرا يتوجّه إلى القدس بطالا ، فانفصل المجلس على ذلك . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وأمر بنفيه إلى نحو البلاد الشامية ، حتى شفع فيه بعض الأمراء من النفى . ــ وفيه وقع للناصرى محمد بن بنت جمال الدين الأستادار كاينة عظيمة ، وهو أن شخصا تخاصم معه ، فشكاه من بيت طُراباى ، وكان يومئذ دوادار ثانى ، فوقع من ابن بنت جمال الدين فى المجلس بعض كلام فى حقّ خصمه ، فبطحه طُراباى بين يديه وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك . ــ وفيه قرّر ابن قدامة فى قضاء الحنابلة بدمشق ، وتوجّه فيما بعد .

وفيه فى يوم الأحد رابع عشرينه كانت وفاة الأتابكى أزبك من ططخ ، وقد زعموا

أن ولده يحيى قد سحره حتى مات ، فقبض على شخص يقال له القصديرى وصبيّه ، واتهم أنه هو الذى سحره حتى مات ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ؛ وكان الأتابكى أزبك من أجلّ الأمراء قدرا ، وأعظمهم ذكرا ، كان أميرا جليلا فى سعة من المال ، وافر الحرمة نافذ الكلمة ، وكان أصله من معاتيق الظاهر جقمق ، ويقال أصله من كتابية الأشرف برسباى ، واشتراه الظاهر جقمق من بيت المال وأعتقه ، فهو من معاتيقه ، وصاهره مرتين فى ابنتيه ، وولى عدة وظائف سنية بمصر ، منها حجوبية الحجاب ، ورأس نوبة النوب ، ثم بقى نائب الشام فى دولة الظاهر يلباى ، ثم عاد إلى مصر وولى الأتابكية فى دولة الأشرف قايتباى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وأقام بها نحوا من ثلاثين سنة .

وكان من مبتدأ أمره رئيسا حشما ، قرر فى أمرة عشرة فى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ولا زال يرقى حتى كان من أمره ما ذكرناه ، وقاسى شدائد ومحنا ، ونفى نحوا من أربع مرار ، وسجن بالإسكندرية مرتين ، وكان كفوا للمهمات السلطانية والتجاريد ، وقد سافر فى عدّة تجاريد ، ويطلّب الأطلاب الحافلة ، وأصرف على التجاريد من ماله ما لا ينحصر ، وكان مسعود الحركات فى سائر أفعاله ، ذات (٨٧ ب) شهامة وعلوّ همّة ، وأظهر العزم الشديد فى قتال عسكر ابن عثمان وكسرهم غير ما مرة ، ولم تجئ بعده فى الأتابكية مثله ، ومات وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة ، وخلف من الأولاد ولده الناصرى محمد الذى من بنت الظاهر جقمق ، وولده يحيى ، وصاهر الأشرف قانصوه خمسمائة فى إحدى بناته وماتت معه .

فلما مات ترافعا محمد ويحيى بين يدى السلطان ، فوضع السلطان يده على تركة الأتابكى أزبك من صامت وناطق ، قيل وجد له من الذهب العين ستمائة ألف دينار ، وقيل سبعمائة ألف دينار ، خارجا عن البرك والخيول والقماش والتحف ، وخارجا عن جهاز ابنته التى ماتت مع قانصوه خمسمائة ، وقد قوّم ذلك بنحو مائة ألف دينار ، فحمل ذلك جميعه إلى الخزائن الشريفة ، وقد نال الأتابكى أزبك من الدنيا منالا عظيما كما قال القائل :

أتلهو من نعيمك فى قصور ... وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غرّه أمل طويل ... يؤدّيه إلى أجل قصير
أتفرح والمنيّة كل يوم ... تُريك مكان قبرك فى القبور
هى الدنيا فإن سرّتْك يوما ... فإن الحزن عاقبة السرور
ستسلب كلما جمّت منها ... كعارية تردّ على المعير

ولولا ماأصرفه الأتابكى أزبك على التجاريد ، وعمارة الأزبكية، وجهاز ابنته سارة، ما كان ماله ينحصر ، وكانت تركته تقارب موجود سلار نائب السلطنة ، وقد تقدّم ذكرذلك ، ومن أراد يعلم علوّ همّة الأتابكى أزبك فلينظر ما صنعه من عمارة الأزبكية، وقد أنشأها فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة ، وقد مهّد ما كان بها من الكيمان وحفر البركة العظيمة ، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، وأنشأ هناك الجامع وتلك القصور، وما عدا ذلك من ربوع ودكاكين وحمامات وأسواق وغير ذلك ، حتى صارت مدينة على انفرادها ، تسكنها الأمراء من المقدّمين وغيرها وأعيان الناس إلى الآن ، وصارت تنسب إليه ، كما يقال :

ليس الفتى بفتاء يستضاء به ... حتى يكون له فى الأرض آثار

(٨٨ آ) ومما عُدّ من مساوئ الأتابكى أزبك أنه كان شديد الخلق صعب المراس ، إذا سجن أحدا لا يطلقه أبدا ، وكان عنده جدّة زائدة وشحّ فى نفسه ، جرىء اللسان ، مع تكبّر وبطش ، وقد فاتته السلطنة عدّة مرار ، فكان كما يقال :

إذا منعتك أشجار المعالى ... جناها الغضّ فاقنع بالشميم

فلما علم السلطان بموته نزل وصلّى عليه ، وكانت جنازته حافلة ، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر جقمق ، وهى تربة قانى باى الجركسى . — فلما نزل السلطان وصلّى عليه، فقيل له إن الأمير أزبك اليوسفى أمير مجلس كان ، إنه فى النزع وسيموت فى هذه الساعة ، فجلس السلطان على مدوّرة فى سبيل المؤمنى ينتظر جنازة الأمير أزبك اليوسفى حتى يصلّى عليه ، فلم يمت فى تلك الساعة ، فقام السلطان وطلع إلى القلعة؛

(٢٠) جقمق : فى ف : الناصر .

فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم توفى فيه أيضا الأمير أزبك اليوسفى ؛ فلما أخرجت جنازته نزل السلطان ثانيا حتى صلّى عليه ، فطلعت جنازته من الصليبة ، فلما صلّوا عليه رجعوا به من على حدرة البقر ، ودخلوا به من الدرب الذى عند حمام الفارقانى ، وتوجّهوا به إلى مدرسته التى أنشأها بدرب ابن البابا ودفن بها .

وكان الأمير أزبك اليوسفى أميرا جليلا ؛ دينا خيرا ، ليّن الجانب ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان يعرف بأزبك الخازندار ، وبأزبك ناظر الخاص أيضا ، مات وهو طرخان ، وقد كبر سنّه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر ، وكان قليل الأذى كثير البرّ والصدقات ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : الخازندارية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم مشير المملكة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أخرجت عنه التقدمة إلى أزدمر من على باى ، فأقام مدة يسيرة على ذلك ومات ، انتهى ذلك .

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، جاءت الأخبار بأن عربان عزالة ثاروا على الكاشف بالبحيرة فحاربهم ، ففرّوا منه وعدّوا من الوراق ، (٨٨ ب) وطلعوا بالقرب من شبرا ، وتوجّهوا من خلف الجبل الأحمر ، وطلعوا من على بحر بلامة قبالة طُرا ، ثم نزلوا بالميصرة وهى ضيعة هناك ؛ فلما بلغ السلطان ذلك عيّن لهم تجريدة ، فخرج إليهم فى الحال قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقرقماس من ولىّ الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرجبى حاجب الحجاب ، وسيباى نائب سيس أحد المقدّمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات جماعة كثيرة ، منهم طراباى الشريفى الدوادار الثانى ، والجمّ الغفير من العسكر .

فلبسوا آلة السلاح وخرجوا يوم عيد الفطر ، فتوجّهوا إلى نحو الميصرة ، فوجدوا عرب عزالة هناك نازلين ، فاتقعوا معهم واقعة مهولة ، فانكسروا الأتراك وتشتّتوا ، وقتل من المماليك السلطانية نحو من خمسين مملوكا ، ومثل ذلك من الغلمان والعبيد ، وجرح الأمير قرقماس رأس نوبة النوب فى وجهه ، وكذلك قيت الرجبى ،

(١٢) عزالة : فى ف : هوارة وعزالة .

وأما الأمير طراباى فقيل إن العرب ذبحوه من وريده لـكنه لم يمت من ذلك ، وجرح من العسـكر ما لا يحصى ، ثم إن العرب نهبوا بركهم عن آخره وتوجّهوا إلى نحو بلاد الصعيد .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت وماجت ، ونادى السلطان للعسكر قاطبة بالخروج إلى المعصرة وهم لابسون السلاح ، فلما وصلوا إلى هناك وجدوا العرب قد رحلوا والذى قتل من العسكر طُرحاء على الأرض ، فأرسلوا يطلبون من القاهرة عدّة نعوش بسبب من قتل هناك ، فصيّروا لهم نعوشا فى مراكب من البحر إلى طرا ، فأحضروا فيهم من قتل ، وصار يوم العيد مثل المأتم فى كل حارة حيّا كأيام الفصول بسبب من قتل ، وموجب ذلك أن الترك استخفّوا بالعرب فأكمنوا لهم كمينة فخرجت الترك من ورائهم فانـكسروا وقتل منهم من قتل ، وكانت هذه الحادثة من الحوادث المهولة ، وقد قلت فى ذلك :

ألا قولوا لعرب قد تجرّوا على حرب فهل يخشوا عقيبه
سهام مليـكنا أضحت نفوذا ونرجو أن تـكون لـكم مصيبه

(٨٩ آ) ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الأمير دولات باى الفلاح ، أحـــد الأمراء المقدّمين ، خرج فى يوم الأربعاء يسير إلى نحو الرصد ، فلعب هناك بالـكرة ، وساق الفرس فى أرض محجرة فتقنطر به ، فوقع على حجر هناك فمات لوقته ، فحملوه على قفص حمّال وأتوا به إلى بيته حتى غسلوه وكفنوه ، وأخرجوه فى يوم الخميس ، ونزل إليه السلطان وصلّى عليه . ــ ثم إن السلطان ، بعد أن صلّى عليه ، توجّه إلى بيت طراباى الدوادار الثانى ، فسلّم عليه بسبب ما وقع له مع عرب عزالة . ــ وفيه تغيّر خاطر السلطان على قراجا نائب غزّة ، فأحضره إلى القاهرة وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، ثم آل أمره من بعد ذلك إلى أن ولى نيابة طرسوس وقتل بها .

وفيه دخل الأمير طومان باى الدوادار الـكبير وكان مسافرا إلى جهة الصعيد ،

---

(٦) يطلبون : يطلبوا . (١٧) الخميس : فى ف : وأخرجوه يوم الاثنين وقيل يوم الخميس .

فلما بلغه ما فعلت عرب عزالة مما تقدّم ذكره ، فكبس عليهم فى مكان بالوجه القبلى ، وقبض على جماعة منهم ، نحو من ثلثمائة إنسان من رجال ونساء وصغار ، فوصلوا بهم إلى بولاق وطلعوا بهم من الصليبة قدام الأمير طومان باى ، فكان لهم يوم مشهود ، فوضعوا الرجال فى زناجير ، والنساء والصغار فى حبال ، وعلّقوا رءوس من قتل من الرجال فى أرقاب النساء .

وكانت واقعة من الوقائع الغريبة ، ولم يتفّق مثل ذلك سوى فى أيام الظاهر برقوق ، بما وقع لبدر بن سلام كبير العربان بالبحيرة ، وقد تقدّم ذكر ذلك فى أخبار الظاهر برقوق . — فلما طلع الأمير طومان باى إلى القلعة ، صادف ذلك اليوم خروج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قرقماس رأس نوبة النوب ، وبالأول الناصرى محمد بن خاص بك .

فلما عرضوا عرب عزالة على السلطان رسم بتسميرهم على جمال ، فسمّروهم وشقّوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود ، وصارت الفرجة فرجتان : على المحمل ، وعلى عربان عزالة ؛ ثم إنهم كلبوهم وعلّقوهم على أبواب المدينة ، على كل باب منها نحو من عشرة أنفار ، حتى على باب القنطرة ، وباب الشعرية ، وغير ذلك من الأبواب ، ثم رسم السلطان بأن نساء العربان يدعوهم (٨٩ ب) فى الحجرة حتى يكون من أمرهم ما يكون ، وقد قام الأمير طومان باى بنصرة الأتراك على العرب بعد أن كادت تنتهك حرمة المملكة ، وتبهدلت الأتراك أى بهدلة بسبب ما وقع لهم فى المعيصرة ، كما تقدّم ذكر ذلك فى أول الواقعة ، وكان هذا أمرا غريبا من معظم النوادر ، وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى هذه القطعة الزجل ، وهى من الجناس التامّ :

نحمد الله ونشكرو خالقا الجسم والعصب
إذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

(١٥) يدعوهم فى الحجرة : فى ف : يرجوهم بالأحجار .

ذالعرب أكثروا الفساد   فى عزالة وعـــزّلوا
جو وعـــدّوا وشرّقوا   وعلى الحـــرب عوّلوا
٣ أهلكوا الحرث والنّسال   فى الضـــواحى وحمّلوا
من عزالة عرب طغوا   عمـــرهم فى الوغا ذهب
جتهم الترك ورّخـــوا   واقمتهم بمـــا ذهب

٦ صار عزيز العرب ذليل   وبقى فى الوجود عدم
وجميع ما جـــرى لهم   بالمقـــدّر وبالحكم
كان مسطّر على الجبين   وبهـــذا جرى القـــلم
٩ كل تركى رفع مثـــين   وسِـــلاحو لهم نصب
وجَزَم قطْعَ وصلهم   والتعب زادهم نصب

جُوا من الشرق قبّلوا   صعدوا يطلبوا الصميد
١٢ ساقت الترك جرّدت   كل هندى صقيل سعيد
ما بقى قيس ولا يمن   والقريب بالهَرَب بعيد
كم بعزّة جريح طريح   جفن عينـــو الدما حلب
١٥ ما وجد لو أحـــد حماه   لا من الشام ولا حلب

العرب راهنـــوا رهان   وحـــكم غلبهم يبيح
ما لهم رأس ولا ذنب   وعليهم حـــكى البيح
١٨ وانطوَى نَشرُ درجهم   للقيـــامة بلا رجيح
فى الأراضى سعوا فساد   لأجل ذا قتْلهم وجب
وحـــكم قتْلهم حـــكم   بالإباحة وقال وجب

أصبح البحـــر بالرمـ   ـرّ عالى وقد سما
(٩٠ آ) وبقى البرّ فى الحروب   بحر طامى من الدما
بحـر لا ماء ولا سمك   قاتل الله العرب بما
أفســدوا فى المعيصرة   فى السكاكر وفى القصب
بالمهنّـــد وبالرماح   والقنـا العـامل القصب

ابن ســالم أمــيرهم   أخــذ النجع غرّبوا
وهجم وأخرب البـلاد   وبذا الشرق غـــرّبوا
كم موطن عزيز ديار   أخرب البيت وغرّبوا
جـــو لتحت المعيصره   كنّ كان بينهم نشب
جا الدُويدار ومن معو   وبِسَهْم القسى نشب

أشهر الرءوس على الرماح   وبهم قرّت العيـــون
صار دماهم على الثرا   فى النظر أنهر العيـون
وابن سالم كبيرهم   خانتو الحرص والعيون
والعجايز مع الشيـوخ   ربّطوا الـكل فى السلب
ملّكوا منهم الرقاب   وخذوا البرك والسلب

علقـــوهم مشنكلين   حتى سال منهم الصديد
حبّ الرءوس على الرماح   وبقى جـــلدهم قديد
والـكبار جو مقيـــدين   فى زناجير ثقـال حديد
والعجايز حكوا ققف   والبنات يشبهوا اللعب
والرجال المـــاندين   سمّروهم على اللُعـــب

راقت الأرض والبـلاد   والفساد قد رجع صلاح

والعــرب ذل عزّهم   حين رموا الرمح والسلاح
قال فقيهى رجب رويت   فى أحاديث رجال صحاح
العرب يتركوا القتال   فى رجب قلت يا رجب
المَلِك مهّـد البــلاد   كنّ كل السنة رجب

كان وكان عسكر العرب   وبديع شـمرهم بطل
قوما ذو بيت لنمتــدح   فى موشّح أمـير بطل
شاطر الترك نمــدحو   فى مواليّا أو زجــل
وأمدح الظاهر الملك   من بلغ غاية الرتب
بالقــوافى ووزنهــا   والمعــانى وبالرتب

(٩٠ب) لو يكون الوجود ورق   والميــاه كلّهم حبر
وجميع النبــات يراع   والخلايق يجــوا زمر
يكتبوا المــدح يعجزوا   عن مديح سـيد البشر
ذا نبى سنّ صارمو   ولفرض الجهـاد ندب
وبجفنة تراب عمــل   فى رقاب العــدا ندب

أهــل فتى تجاوزوا   وأسرّوا العيب والزلل
تغنموا الأجر والثواب   والحسود عقلو فى خبل
الحسود قطّ ما يسـود   والحسد إن عدل قتل
وعليش يحسدوا أديب   ناسب النظم فانتسب
بابن زيتــونى مشتهر   بجل عوفى إذا انتسب

انقضت قصّــة العرب   من أديب لخّص الـكلام
فى زجــل رقّ ملتزم   فى بديمو جناس تمــام

وبقى البـــدو والحضر   فى هنـــائه على الدوام
نحمـــد الله ونشـــكرو   خالق الجسم والعصب
إذ نصرنا على العرب   بالدوادار والعصـــــب

وهـــذا الزجل يقرب من الزجل الذى قاله النبارى فى واقعة العرب ، التى كانت فى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة فى دولة الظاهر برقوق ، وقد وقع فيها ما يشبه ذلك ، انتهى . ــ وفى هذا الشهر قرّر شمس الدين بن مزاحم الطرابلسى فى نظر الاسطبل ، عوضا عن يحيى بن البقرى ، بحكم صرفه عنها ، ومات يحيى عقيب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن آقبردى الدوادار دخل إلى حلب طائعا ، وقد تمّ الصلح بينه وبين الأمراء الذين توجّهوا من مصر ، وسبب ذلك أن العسكر الذى توجّه إلى قتال آقبردى ، فوجدوه بالمرعش عند على دولات ، فلما طال الأمر على العسكر تقلّق ، وكان الغلاء موجودا بحلب ، والعليق ما يوجد ، فقصدوا المجىء إلى مصر ، فأرسل قصروه نائب حلب يسأل آقبردى فى الصلح ، فتوجّه إليه قانى باى قرا أمير آخور كبير ، فمشى فى أمر الصلح ، وكان السلطان والأمراء مائلين إلى ذلك ، فلما وثق آقبردى (٩١ آ) بذلك حضر صحبته قانى باى قرا ودخل إلى حلب طائعا مختارا ؛ فلاقاه قصروه نائب حلب وسائر الأمراء الذين كانوا هناك ، وكان له بحلب يوم مشهود ؛ وكان الأمير آقبردى متوعّـكا فى جسده ، فلما استقر بحلب كاتبوا بذلك إلى السلطان فى صدق بأمر الصلح ، فعيّن له خلعة حافلة ، وفرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكتب له تقليـدا بنيابة طرابلس وما لها من التحصّل فى كل سنة ، ثم أخذوا فى أسباب التوجّه إليه .

وفيه توفى سعد الدين القبطى مستوفى الخاص ، وكان لا بأس به . ــ وفيه أرسل السلطان الأمير تمر الزردكاش إلى المقر السيفى جان بلاط من يشبك نائب الشام ، يسأله فى الحضور إلى مصر ليَلِى وظيفة الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك ، بحكم موته ، فخرج الأمير تمر إلى الشام بسبب ذلك

---

(٢٠) سعد الدين : فى ف : برهان الدين .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بوفاة الأمير آقبردى من على باى أمير دوادار كبير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما، بشوشا متواضعا ، كريما سخى النفس، فى سعة من المال ، مثريا جدا ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم ظهر أنه قريبه ورقى فى أيامه إلى منتهى الرياسة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أمرة السلاح، والدوادارية الكبرى، والوزارة ، والأستادارية ، وكاشف الكشاف، وقريب السلطان، وعديله ، تزوّج بأخت خوند الخاصبكية ، ومدبّر المملكة ، وصاحب الحلّ والعقد بالديار المصرية ؛ وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، شديد العزم ، شجاعا بطلا مقدما فى الحرب ، تولّى الدوادارية الكبرى بعد يشبك من مهدى سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وأقام بها نحوا من ست عشرة سنة ، وكان مغدقا بالعطاء الجزيل على الأمراء والعسكر ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونهبت أمواله أربعة مرار ، وقاسى من الشدائد والضيق ما يطول شرحه ، واستمرّ يحارب عسكر مصر بمفرده نحوا من ثلاث سنين ، وكان غالب العسكر عليه فلم يظفر به أحد ، ولم يسلّم نفسه عن عجز ، ولا سجن قط ، ولا تقيّد ، وآخر الأمر مات على فراشه من غير أن يقتل ، فكان كما يقال :

أنا أسمر والراية البيضاء لى لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى نوديتُ يوم الحرب بالمرّان

(٩١ ب) قيل إن آقبردى لما دخل إلى حلب وأقام بها اعتراه أكلة فى وجهه، فرعت فى جسده حتى مات بحلب ، ودفن عند سيدى سعد الأنصارى رحمة الله عليه، ثم نقلت جثته إلى القاهرة فى أواخر صفر سنة خمس وتسعمائة ، ودفن بتربته التى أنشأها بالصحراء ، ومات وله من العمر دون الخمسين سنة ؛ وكان أسمر اللون ، عربى الوجه ، طويل القامة ، نحيف الجسد ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، غير عبوس الوجه ، وكان لا بأس به ، وكان السلطان والأمراء يخشون من سطوته ، فلما مات

---

(١٦) بالمر ن : فى ف : بالميدان ، وعلى الهامش : بالمران والمراد به الرمح .
(٢٢) يخشون : يخشوا .

كفى كل أحد شرّه ، وقد قلت ذلك مع التضمين والاقتباس :

مات آقبردى الأمير وولّى   بعد عزّ وحاز جاها ومالا
فأتاه من بعد ذا ريب دهر   نال منه من العنا ما أنالا
وقضى نحبه بغير قتال   وكفى الله المؤمنين القتالا

فلما تحقّق السلطان موت آقبردى جهّز المراسيم إلى الأمراء الذين كانوا صحبة آقبردى ، وهم : تانى بك قرا الذى كان أمير مجلس ، وآقباى نائب غزّة الذى كان رأس نوبة النوب ، وجانم المصبغة الذى كان حاجب الحجاب ، وقنبك نائب الإسكندرية الذى كان أحد المقدّمين بمصر ؛ فأما تانى بك قرا وآقباى فرسم لهما السلطان بأن يتوجّها إلى القدس ويقيما به وهما بطالين ؛ وأما جانم المصبغة وقنبك توجّها إلى الشام بطالين ؛ واستمر تانى بك قرا وآقباى فى القدس حتى كان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه ؛ وأما أينال الصغير السلحدار الذى كان واليا أحد العشرات ، الذى كان صحبة آقبردى ، فإنه غرق فى بعض الأنهار على ما ذكر ؛ وأما بقية العسكر الذى كان مع آقبردى ، فمات منهم جماعة كثيرة ، ودخل منهم إلى مصر الباقون ، وخمدت فتنة آقبردى كأنها لم تكن ، بعد ما جرت منه أمور مهولة بمصر وبالبلاد الشامية ، وهذا أمر مشهور بما وقع له .

وفى ذى الحجة فرّق السلطان الضحايا على العسكر ، وكان عيدا حافلا ، وجاء العيد بالجمعة ، ولهج الناس بزوال السلطان عن قريب ، وكان الأمر كذلك ولم يقم إلى العيد الثانى . ـ وفيه توفى الطواشى مقبل الرومى الأشرفى أينال رأس نوبة السقاة ، وكان لا بأس به ، (٩٢ آ) فلما مات أخلع السلطان على الطواشى محسن الحبشى الأشرفى قايتباى وقرّره رأس نوبة السقاة ، عوضا عن مقبل الرومى بحكم وفاته ، وقد قاسى محسن هذا فيما بعد غاية الشدائد والمحن .

وفيه انتقل قصروه من نيابة حلب إلى نيابة الشام ، عوضا عن جان بلاط من يشبك ، بحكم انتقاله إلى الأتابكية بمصر ؛ وانتقل دولات باى من أركماس نائب

---

(١٢) الذى كان صحبة ... على ماذكر : فى ف: قيل إنه قتل وقيل إنه غرق فى بعض الأنهار.

طرابلس إلى نيابة حلب ، عوضا عن قصروه المنتقل إلى نيابة الشام ؛ وقرر يلباى المؤيدى فى نيابة طرابلس ، عوضا عن دولات باى المنتقل إلى نيابة حلب ، وأضيف إلى يلباى حجوبية طرابلس أيضا مع النيابة .

وفيه دخلت مسرى من الشهور القبطية ، فكانت زيادة النيل فى ثالث مسرى ثلاثين أصبعا ، وفى الرابع منها أربعين أصبعا ، وفى الخامس منها عشرين أصبعا ، فأوفى الله فى خامس مسرى ، وكسر فى اليوم السادس منها ، الموافق لحادى عشرين ذى الحجة ، فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير بأن يتوجّه ويفتح السدّ ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى الأتابكى أزبك ، وكانت الأمراء غائبين فى التجريدة التى توجّهت بسبب آقبردى ، فلم يكن بمصر أكبر من الأمير طومان باى يومئذ ، فتوجّه إلى المقياس فى الحراقة ، فخلّق العمود ورجع إلى فتح السدّ ، فأظهر فى ذلك اليوم غاية ما يكون من العظمة ، وفرّق المجامع الحلوى والمشنات الفاكهة ، والبطيخ الصيفى ، ونشرت على رأسه خفائف الذهب والفضة عند السدّ لما ركب من هناك ، وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة ، وكان نيلا عظيما فى تلك السنة ، وثبت إلى أواخر بابه ، وترادفت الزيادة بالأصابع ، فكان كما يقال :

وفّت أصابع نيلنا   وطغت وطافت فى البلاد
وأتت بكل مسرة   ما ذى أصابع ذى أيادى

وقد قال القائل فى المعنى :

قد وفا النيل خامسا شهر مسرى   فملا بشره قلوب العباد
جاء فى عزمه وأوفى سريعا   كحبيب أتى بلا ميعاد

وفى هذا الشهر دخلت الأمراء الذين كانوا توجّهوا إلى التجريدة بسبب قتال آقبردى ، فحضر الأمراء المقدّم ذكرهم ، وحضر صحبتهم من كان مع آقبردى مشتتا فى البلاد الشامية ، جماعة من الأمراء العشرات ، منهم أسنباى الأصم ، ونوروز أخو يشبك (٩٢ ب) الدوادار ، وجانم آقجى الإبراهيمى ، وآخرون من الخاصكية ممن كان من عصبة آقبردى الدوادار ، فأقاموا بالقاهرة مدّة يسيرة ، ثم عادوا إلى البلاد الشامية .

وفيه توفى شرف الدين بن الأصيفر ، وكان من أعيان المباشرين . ـ وتوفى جلال الدين بن الصالحى ، وكان لا بأس به ، وقاسى شدائد ومحنا فى أواخر عمره . ـ وفيه جاءت الأخبار بوفاة داود باشاه وزير ابن عثمان ملك الروم ، وكان رئيسا حشما مدبر مملكة الروم ، سديد الرأى ، وافر العقل ، مشكور السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة مهولة ببلاد الغرب بين ملوك الفرنج وملوك الغرب ، وكانت النصرة للمسلمين على الفرنج ، ولله الحمد . ـ وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء ، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب ذلك . ـ وقد خرجت هذه السنة عن الناس والفتن قائمة فى سائر البلاد ، حتى بمكة ، ووقع بين الشريف محمد أمير مكة وبين أخيه هزاع ، واستمرّت الفتن هناك قائمة فيما بعد ، حتى كان ما سنذكره فى موضعه ، انتهى ذلك ولله الأمر .

ثم دخلت سنة خمس وتسعمائة

فيها فى المحرم كان الخليفة أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب العباسى الهاشمى الأبوين ؛ والسلطان الملك الظاهر أبوسعيد قانصوه خال الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ؛ وأما القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية ؛ وكذلك الأمراء المقدّمين أرباب الوظائف ، غير أن الأتابكية تعيّنت إلى المقر السيفى جانبلاط من يشبك نائب الشام ، وكتب له بالحضور . ـ وفيه توفى يحيى بن البقرى الذى كان ناظر الاسطبل وصرف عنها ، وكان لا بأس به .

وفيه تغيّر خاطر السلطان على القاضى علاى الدين على بن الصابونى ناظر الخاص ، فعزله ورسّم عليه ، ثم أخلع على شهاب الدين الرملى وقرّره فى نظر الخاص ، عوضا عن ابن الصابونى ، ولم يكن شهاب الدين الرملى هذا تقدّمت له رياسة بمصر ، ولا قط ولى قبل ذلك وظيفة سنية ، وكانت ولايته من غلطات الزمان ، وفى ذلك يقول شيخنا (٩٣ آ) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، وهو قوله :

---

(١) ابن الأصيفر : فى ف : ابن الأشقر .

قد استوى الرملى على منصب الـــــخاص برأس العـــام يا خلّى
من عدم الدست ومن جهل من يطبخ حتى انحطّ للرملى

وفيه استعفى هلال الطواشى الرومى من تقدمة المماليك ، وسأل فى أن يتوجّه إلى الشام ويكون بها على أمرة عشرة ، فأجيب إلى ذلك ؛ ثم إن السلطان أخلع على عنبر التكرورى وقرّر فى تقدمة المماليك ، عوضا عن هلال . ـ وفيه توفى أزبك قفص الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، الرأس نوبة الثانى ؛ فلما مات أزبك قفص أخلع السلطان على أبى يزيد المحمدى وقرّر فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن أزبك قفص بحكم موته . ـ وفيه كان إقامة الخطبة بالجامع الذى أنشأه بركات بن قريميط بحارة زويلة ، وجاء فى غاية الحسن ، ولاسيما بذلك الخط .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد قاسى فى تلك السنة مشقة زائدة ، وخرج طائفة من العربان على الركب الغزّاوى بالقرب من الشرفة ، فاستولوا عليه عن آخره ، وأسروا النساء ، وقتلوا الرجال ، ولولا أدركهم قرقماس أمير ركب المحمل لأخذ جميع من فى الركب الغزّاوى جميعــه ، وقد نهبوا أطراف الركب الأول ، وكان أمير الركب فى تلك السنة الناصرى محمد بن خاص بك أخو خوند . ـ وفيه توفى الشيخ خالد الوقاد النحوى الأزهرى الشــافعى ، وكان فاضلا فى النحو وله فى ذلك عدّة تصانيف .

وفى صفر كان دخول المقر السيفى جان بلاط نائب الشام ، فلما حضر أقرّه السلطان فى الأتابكية ، عوضا عن أزبك من ططخ بحــكم وفاته ، وسكن بالأزبكية ، فلما أقام بمصر شرع فى بناء تربته التى بجوار باب النصر ، وصنع بها خطبة ، ولم تتمّ إلا بعد موته ودفن بها . ـ وفيه فى ثالثه توفى الشيخ الصالح الزاهد الوارع أبو العباس أحمد ابن محمد الغمرى رحمة الله عليه ، ودفن بجامعه الذى أنشأه بالقرب من باب القوس . ـ وفيه حضرت جثة آقبردى الدوادار وهى فى سحلية خشب ، فدفن فى تربته التى أنشأها

(١٥ـ١٦) الأزهرى . . . تصانيف : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .
(٢١) من باب القوس : فى ف : من مرجوش وباب القوس .

بالصحراء ، وقد نقل من حلب إلى مصر بعد دفنه فى تربة سيدى سعد الأنصارى رضى الله عنه .

وفى ربيع الأول عيّن السلطان الأمير قانصوه كرت ، أحد الأمراء الطبلخانات (٩٣ ب) والخازندار الثانى ، بأن يتوجّه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج بعد مدّة ، وجرى عليه أمور شتى من بعد ذلك . – وفيه جاءت الأخبار بوفاة أيدكى حمار الأشرفى قايتباى نائب قلعة الشام ، وجرى عليه قبل موته شدائد ومحن شتى . – وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا . – وفيه عيّن السلطان الأمير قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، بأن يتوجّه أمير حاج ركب المحمل ، وعيّن جان بلاط الموتر المحتسب بالركب الأول .

وفيه جاء للسلطان ولد ذكر من زوجته خوند جان كلدى الجركسية ، فسمّاه أحمد ، فلما كان يوم سابعه اجتمع سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وكان مهمّا حافلا ، وحمل الزمام جوهر المعينى القبة والطير على رأس خوند جان كلدى ، وفرشت لها الشقق الحرير ، ونشرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وكان لها بالقلعة يوم مشهود . – وفيه تزوّج السلطان بخوند مصر باى زوجة الملك الناصر ، وكانت عليه كعب الشؤم لم يسنّى معها .

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن قصروه الذى تولى نيابة الشام ، قد عصى وخرج عن الطاعة ، واستولى على قلعة الشام كما كان كرتباى الأحمر ، واستمرّ العصيان يتزايد من قصروه حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه . – وفيه أرسل السلطان بالقبض على خاير بك الكاشف ، فأحضر فى الحديد ، فرسم بنفيه إلى قلعة المرقب ، فسجن بها ، ثم أطلق ، وجرى عليه من الأنكاد ما لا خير فيه ، وصودر غير ما مرة . – وفيه قدم البدرى محمود بن أجا من حلب ، وقد انفصل من قضاء الحنفية بحلب ، وأتى إلى مصر وأقام بها ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه . – وفيه قرر فارس المنصورى نائب دمياط فى كشف الغربية ، عوضا عن خاير بك الماضى خبره .

(١٥) لم يسنى : كذا فى الأصل وأيضا فى ف ، ولعله يعنى أنه لم يمكث سنة معها .

وفيه قبض على سليمان بن قرطام وكان من كبار المفسدين بالشرقية ، فلما قبض عليه رسم السلطان بأن يشنكلوه على باب زويلة ، وأقام معلقا ثلاثة أيام بلياليها .—

وفيه قبض السلطان على أخت خوند بنت خاص بك زوجة آقبردى الدوادار ، فرسم عليها بالقلعة وقرّر عليها مالا له صورة ، وقد رافعها أبو المنصور مباشر آقبردى ، وزعم أن آقبردى أودع عندها مالا ، فأقامت فى الترسيم (٩٤ آ) حتى أوردت ما قرّر عليها .

وفعل مثل ذلك بأختها خوند الكبرى زوجة الأشرف قايتباى ، فقرّر عليها مالا له صورة ، ووكّل بها خمسة من الطواشية حتى أوردت ما قرّر عليها ، وباعت أشياء كثيرة من قماشها ؛ وقد حصل عليها ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن فى دولة الناصر محمد بن الأشرف قايتباى توجّه طائفة من المماليك الجلبان إلى دارها ، وقصدوا يهجمون عليها، ثم قالوا لبعض الطواشية : ادخلوا قولوا لخوند تنفق علينا لكل مملوك خمسين دينارا ، فلما بلغ خوند ذلك غيّبت من البيت ؛ وكان سبب ذلك قد أشيع بين الناس أن خوند تزوّجت قانصوه خمسمائة فى الخفية ، فلما قتل قانصوه تحرّشت المماليك بخوند وطلبوا منها نفقة كما تقدم، وكان الذى تحرش بخوند جماعة من المماليك من أحلاف آقبردى الدوادار .

فلما بلغ الملك الناصر ذلك قام مع خوند قياما تاما، ونادى فى القاهرة: جميع العسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف أن أحدا من العسكر لا يتوجّه إلى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ولا يقف لها على باب ، وكل من خالف مرسوم السلطان شنق بلا معاودة ؛ فانكفّوا المماليك عن التوجّه إلى بيت خوند من حين أذن، وقام بنصرتها بعد ما قصدت تسافر من المدينة ، مع أن الملك الناصر صادر خوند فى أيامه بحسن عبارة ، وأخذ منها جملة مال ، وحصل لها عقيب ذلك طلوعا فى وجهها ، واستمرّ بها ذلك العارض حتى ماتت ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه.

(٦) ما : فيا . (١٩) فانكفوا : فانكفوه ، وفى ف : فانكف .
(٢٠) أذن : فى ف : نادى .

وفى جمادى الأولى فى الثانى منه نزل السلطان إلى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح أوكب وشقّ من المدينة وزُيّنت له ، ثم عرّج وطلع من الصليبة والأمراء قدّامه والمباشرون ، فاستمرّ فى ذلك الموكب الحافل حتى طلع إلى القلعة . ــ وفيه قرّر ابن النيربى فى نظر الجيش بدمشق ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة هلال الرومى الطواشى ، الذى كان مقدّم المماليك ، توفى بدمشق ، وكان لا بأس به . ــ وفيه فى يوم الجمعة ثامنه عقد للأتابكى جان بلاط على خوند (٩٤ ب) أصل باى الجركسية امّ الملك الناصر وأخت الملك الظاهر قانصوه، وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وكان عقداً حافلا.

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة آقباى الطويل ، الذى كان نائب غزّة ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، وفرّ مع آقبردى لما انكسر وخرج من مصر ، وآل أمره إلى أن أقام بالقدس بطالا حتى مات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان شجاعا بطلا ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وقاسى ما لا خير فيه بسبب صحابته لآقبردى الدوادار ، وهو الذى كان سببا لنصرته على قانصوه خمسمائة فى الواقعة التى وقعت بخان يونس الذى بالقرب من مدينة غزّة ، قيل إن آقباى مات مسموما على ما قيل .

وفيه قرر على ابن طرغل فى نيابة عينتاب . ــ وفيه توفى شمس الدين محمد الفرنوى، الذى كان إمام آقبردى الدوادار ، ثم بقى ناظر الأحباس ، وكان يكتب الخط الجيّد المنسوب ، وقاسى من الشدائد والمحن ما لا يعبّر عنه ، وعذّبه كرتباى الأحمر بأنواع العذاب . ــ وفيه توفى الشيخ أحمد المجذوب الذى كان تحت الكوم الذى عند القنطرة الجديدة ، وكان من كبار الصالحين . ــ وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار متوجّها إلى الشرقية والغربية ، فسرح فى البلاد نحوا من عشرين يوما ، ثم عاد إلى القاهرة ، وقد حاش عدة خيول من العربان ، وغير ذلك من الأغنام والجمال.

---

(١٢) أقام : قام .

وفى رجب تزايدت عظمة الملك الظاهر قانصوه هذا ، فجلس على الدكة التى بالحوش ، ونصب سحابة جديدة صنعها من المخمل المذهب ، وبها رنوك زركش ؛ فجاءت غاية فى الحسن ، فجلس على الدكة والسحابة على رأسه ، وطلع القضاة الأربعة للتّهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا . ــ وفيه فى الحادى عشر منه تغيّر خاطر السلطان على القاضى كاتب السرّ بدر الدين بن مُزهر ، فقبض عليه وسجنه بالمرقانة ، ثم طلب أخاه كمال الدين محمد وقرّره فى كتابة السرّ ، عوضا عن أخيه بدر الدين . ــ وفيه قرر سيباى فى نيابة صَهْيون ، عوضا عن قنبك الشيخ ، بحكم فراره عند ابن عثمان وخوفه على نفسه من القتل .

وفيه كان دخول خوند أصل باى أمّ الملك الناصر على الأتابكى (٩٥ آ) جانبلاط ، فنزل جهازها من القلعة فى يوم السبت خامس عشره وشقّ من القاهرة ؛ واستمرّ ينسحب من ضحوة النهار إلى وقت الظهر ، فتوجّهوا به إلى الأزبكية ، فكان عدّة الحمالين أربعمائة حمّال ، والبغال نحو من مائتين بغل ، فرجّت له القاهرة وكان له يوم مشهود ، فكان به من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشره نزلت خوند أمّ السلطان فى محفة زركش ، وتوجّهت إلى الأزبكية ، ومشت قدّامها جماعة من المباشرين ، منهم كاتب السرّ كمال الدين بن مزهر ، وناظر الجيش عبد القادر القصروى ، وصلاح الدين بن الجيعان نائب كاتب السرّ ، وآخرون من المباشرين والطواشية ، وبعض أمراء عشرات ، وهم بالشاش والقماش ، وعدّة وافرة من الخاصكية ؛ فلما وصلت إلى باب البيت الكبير الذى بالأزبكية ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حافر بغال المحفّة ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وكان ذلك يوما مشهودا ، ولكن جرى من بعد ذلك أمور شتى وأنكاد مترادفة : يأتى الكلام عليها فى موضعه ، فكان كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها   ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى شعبان فى يوم السبت سادسه جاءت الأخبار من القدس بقتل الأمير

---

(١١) النهار : نهار .   (١٢) مائتين : كذا فى الأصل .

تانى بك قرا ، وكان مقيما بالقدس كما تقدم ذكر ذلك ، وكان من عصبة آقبردى الدوادار وفرّ معه ، فلما استقرّ بالقدس توجّهت إليه المراسيم الشريفة بخنقه ، فخُنق وهو بين أولاده وعياله ، وكانوا توجّهوا إليه ، وكانت قتلته فى يوم الأحد ثامن عشرين رجب ودفن بالقدس ، فلما جاءت الأخبار بموته تأسّف عليه الكثير من الناس ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما ، ليّن الجانب ، قليل الأذى ، كثير الخير.

ومن آثاره وهو السبيل والصهريج الذى أنشأه برأس سويقة عبد المنعم تجاه الرملة ، وأصرف على ذلك من ماله مالا له صورة ، فلما كمل بناء ذلك فقدّم هذا السبيل والصهريج إلى الأشرف قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل السلطان ؛ ومن آثاره المسجد اللطيف ، الذى أنشأه بجوار بيته عند خوخة القُردمى .

وكان أصله من مماليك الأشرف أينال ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، (٩٥ ب) وولى عدّة وظائف سنية ، منها : تاجر المماليك ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ووقع له من الشدائد والمحن ما يطول شرحه ، وفاته القتل عدّة مرار ، وكان يُنسب إلى صحابة آقبردى الدوادار ، وفرّ معه إلى البيرة ، وعدّى الفراة ، وكان موصوفا بالفروسية والشجاعة ، ومات وهو فى عشر الستين وزيادة ، ولما مات رثيته بهذه الأبيات :

مَنْ طالع التاريخ يوما أو قرأ   ما يروى صرف الدهر عن تنبك قرا
شاع الحديث بخنقه فلأجل ذا   خنقت بعبرتها الورا مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله   والدهر إن أصفا يعود مكدّرا
قد كنت أحذر من وقوع حمامه   والآن دمعى كالدماء وقد جرى
لهفى عليه من أمير صارم   فى يوم حرب للعداء مدمّرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده   لكن قاتله تعدّى وافترى
يا لهف قلبى قد تجرّع فقده   وتجدّدت أحزانه بين الورى

يا لهف قلبى كم أمير كان فى عزّ وجاه صار مدفون الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم فالحكم للرحمن فيما قدّرا
يا ربّ فاجعل قبرهم فى روضة واجعل برحمتك الجنان لهم قرا

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى ، توفى ببلاد ابن عثمان ، وكان لا بأس به ، وهو الذى جدّد عمارة الجامع الأزهر ، وأصرف على ذلك مالا له صورة من ماله ، وكان مشكور السيرة . ــ وفيه طلع الأتابكى جان بلاط إلى القلعة وضمن بدر الدين بن مزهر كاتب السرّ ، فإنه الأتابكى جانبلاط كان زوج أخت بدر الدين بن مزهر ، فلما ضمنه وتسلّمه من السلطان على مال قرّر عليه ، فلما استقرّ عنده هرب تلك الليلة من مكان بالأزبكية ، فتشوّش الأتابكى جان بلاط لذلك ، ثم غمز على بدر الدين بن مزهر وقبض عليه عقيب ذلك وآل أمره إلى كل سوء . ــ وفيه توفى ابن السلطان الماضى خبر وصفه ، فكان مدّة حياته أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ، فأظهروا عليه الحزن والأسف ، ودفن فى تربة أبيه التى أنشأها بالصحراء ، (٩٦ آ) فكان كما يقال :

بدا وفى حاله توارى فيالها طلعة شريقه
جوهرة ما عملت إلا دموع عينى لها عقيقه

وفى أواخر هذا الشهر توفى القاضى شهاب الدين بن الصيرفى ، وهو أحمد بن صدقة الإسرائيلى الشافعى ، أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان عالما فاضلا من أعيان النواب ، وله تصانيف ونظم جيّد ، ومات وقد قارب السبعين سنة . ــ وفيه جاءت الأخبار بقتل قراجا نائب سيس ، وتولّى أيضا نيابة غزة ، وكان موصوفا بالشجاعة . ــ وتوفى الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس . ــ وفيه عيّن السلطان نيابة حلب إلى الأمير قرقماس من ولى الدين ، فلما قرره فى نيابة حلب أخرج عنه وظيفة الرأس نوبة الكبرى ، وقرّر بها الأمير قانصوه الغورى ، ولم يتمّ أمر قرقماس فى نيابته بحلب وأعيد إلى تقدمة ألف ، ووقع من بعد ذلك أمور شتى

وفى رمضان عرض السلطان المحابيس من الرجال والنساء الذين بالحجرة ، وعمل مصالح أرباب الديون وصالح عنهم أصحاب الحقوق ، ووزن عن جماعة من ماله ، وأطلق فى ذلك اليوم نحوا من مائتى إنسان ، وضاع على غالب الناس حقوقها ممن كان له دين على من أطلقه من المحابيس ، فكان كما يقال فى المعنى :

رام نفعا فضرّ من غير قصد ومن البرّ ما يكون عقوقا

وفى يوم الاثنين رابع عشره عيّن السلطان تجريدة إلى الكرك بسبب عربان بنى لام ، وقد تقدّم ما وقع منهم فى حقّ الحجاج ، وكان باش العسكر سيباى نائب سيس أحد المقدّمين ، وجماعة من الجند ، فخرجوا فى أثناء ذلك مسرعين . ـ وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه نائب الشام خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان جملة واحدة ، وحضر قانصوه بن سلطان جركس ، المعروف بابن اللوقا ، حاجب دمشق ، وأخبر أن قصروه نائب الشام أصرفه عن الحجوبية وقصد القبض عليه ففرّ منه ، وأخبر بأن قصروه استولى على قلعة الشام وعلى ما فيها من المال .

فلما تحقّق السلطان ذلك تنكّد (٩٦ ب) إلى الغاية ، واضطربت أحواله ، وأظهر أنه يخرج إلى الشام بنفسه وشرع فى أسباب ذلك ، ثم نزل إلى الميدان وأعرض ما عنده من الهجن ، وأمر صلاح الدين بن الجيعان بأن يحضر قوائم مصروف الأشرف برسباى عند توجّهه إلى آمد ، وكل هذا هيت وتحييس على الأمراء والعسكر ؛ ثم إنه عيّن قنبك أحد الدوادارية ، بأن يتوجّه إلى الشام لكشف الأخبار عن حقيقة ذلك . ـ وفى أواخر هذا الشهر فطر السلطان ليلة بالإيوان الكبير ، الذى بالقرب من القصر ، واجتمع عنده الأمراء وضربوا مشورة فى أمر قصروه ، فعُدّ فطوره فى الإيوان من النوادر .

وفى شوال صادف أن فى يوم عيد الفطر قلع السلطان الصوف فى ذلك اليوم ولبس البياض ، فخرج إلى صلاة العيد وهو راكب على فرس بوز قرطاسى بسرج فضة بيضاء بغير طلاء ، وعباه حرير أبيض ، وخفّ أبيض ، ومهاميز كفت فضة بيضاء ،

---

(١) الذين : التى . (١٦) هيت وتحييس : كذا فى الأصل ، وكذلك فى ف .

حتى الشاية التى فى رجله من البُرغالى الأبيض ، حتى قبع الـكلفتاة كان من الصوف الأبيض ، فعُدّ ذلك من النوادر ؛ وكان لبس هـذا البياض فألا عليه ، فإنه خلع من السلطنة عقيب ذلك .

وفيه ، فى اليوم الثانى ، صلّى الأمير طومان باى الدوادار صلاة الجمعة مع السلطان بالقلعة ، فلما انقضت الصلاة أخلع عليه السلطان ونزل متوجّها إلى جهة الوجه القبلى ؛ وكان فى تلك الأيام قويت الإشاعات بأن السلطان يقصد القبض على الأمير طومان باى ، وكان وقع بينهما فى الباطن بسبب قصروه نائب الشام ، وكان الأمير طومان باى متواطئا مع قصروه على السلطان ، وكان طومان باى يقصد التمهيد لنفسه حتى يتسلطن ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، كما يقال :

بتْ فى قلوب أُسود   لا فى قلوب رجال

فالكيد للناس لا للـبهايم الجُهال

وفيه أشارت الأمراء على السلطان بأن يبعث إلى قصروه قاصدا وعلى يده مراسيم بأن يكون على نيابته بالشام ، وأن يسلّم (٩٧ آ) قلعة الشام إلى نائبها ولا يؤاخذه بما فعل ، فعيّن إليه آقباى الطويل ناظر الجوالى ، فخرج عن قريب . ـ وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمّل زائد ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه البرجى ، وبالأول جان بلاط الموتر المحتسب ؛ فلما توجّها إلى بركة الحاج استمرّ المحمل مقيما بالبركة إلى الخامس والعشرين من شوال ، حتى عُدّ ذلك من النوادر ، وسبب ذلك أن غلمان أمير الركب الأول هرب أكثرهم ، وتعطلت أحواله بموجب ذلك . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على مدينة طرابلس ، وقبض على نائبها يلباى المؤيدى ، وسجنه بقلعة دمشق .

وفى ذى القعدة أخلع السلطان على قيت الرجبى حاجب الحجاب وقرّره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن يلباى المؤيدى ، ولم يتمّ ذلك فيما بعد . ـ وفيه أخلع السلطان على شخص من خواصّه ، يقال له تمر من جانم ، وقرّره فى الحسبة ، عوضا عن

جان بلاط المؤتر وهو غائب بالحجاز ، فلم ينتج أمر تمر هذا وقبض عليه فيما بعد . ــ وفيه أنعم السلطان على أنص باى شاد الشراب خاناه بتقدمة ألف .

وفيه، فى ثالث عشره، حضر آقباى الطويل المتوجّه إلى قصروه كما تقدّم ، فعاد الجواب على السلطان بأن قصروه مستمرّ على العصيان ولم يدخل تحت الطاعة ، فعند ذلك عرض السلطان العسكر وكتب تجريدة إلى قصروه ، وعيّن بها من الأمراء المقدّمين ثمانية ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات نحوا من ثلاثين أميراً ، ومن المماليك السلطانية نحوا من ألفى مملوك ، وأظهر السلطان أنه يخرج إلى الشام عقيب ذلك بنفسه . ــ وفيه جاءت الأخبار بوفاة قنبك أحد الدوادارية ، الذى كان توجّه إلى قصروه لكشف الأخبار ، وقد سافر من البحر الملح لموجب فساد الطرقات ، فلما وصل قانى بك إلى حلب وقابل النائب بها ، وهو دولات باى من أركماس ، فرماه النائب من على سور قلعة حلب إلى الخندق ، فمات بالخندق .

وفيه قويت الإشاعات بأن السلطان قد أرسل بالقبض على الأمير طومان باى الدوادار وهو بالصعيد ، وكانت هذه الإشاعة من أكبر أسباب الفساد فى زوال مُلْك الظاهر قانصوه ؛ فلما قويت الإشاعات بذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير طومان باى الدوادار على عادته ، وكان تَرْك هذه المناداة أصوب وقد تأكّد (٩٧ ب) الأمر بذلك .

وفى هذا الشهر هجم النسر على سوق الورّاقين وسوق المرامزة ، وكسروا عدّة حوانيت ونهبوا ما فيها ، وقتلوا ثلاثة من الخفراء ، وكان النسر نحوا من مائة نفر ، ما بين مشاة وركاب ، ومعهم قسىّ ونشاب ، فنهبوا قماشا بنحو عشرة آلاف دينار ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وكانت من الوقائع المهولة . ــ وفى هذا الشهر كانت وفاة الريس نور الدين على بن رحاب ، المغنى الناشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره ، وكان من نوادر الزمان ، ينظم الشعر ، ويركز الخفائف بالألحان الغريبة ، وكان آخر

---

(٧) ألفى مملوك : ألفين مملوكا . (١١) سور : صور .

(١٧) المرامزة : كذا فى ف ، وفى الأصل : المزامزة .

مغانى الدكة فى الدخول والطرب ، ولم يجئ بعده أحد مثله فى الدخول ، وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات :

توفى نزهة الأسماع طُرًّا وصار العيش منّا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصُّراخَ مع انتحاب
وأبدى الدفّ والماصول زعقا كمن جاء المآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا وقد ضاق الوجود بلا رحاب

وفى أواخر هذا الشهر حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان مسافرا إلى جهة الصعيد ، فلما حضر إلى الجيزة خرج الأمراء والعسكر قاطبة إلى تلقّيه ، فأقام بالجيزة ولم يعدّى ، فتوجّه إليه الأمير طُراباى أحد المقدّمين ، وعلى يده صورة حلف عن لسان السلطان ، أنه لا يشوّش عليه إذا قابله ولا يقبض عليه ؛ فلما توجه إليه الأمير طُراباى لم يثق الأمير طومان باى بذلك الحلف ، وأظهر العصيان ، فرجع الأمير طُراباى بجواب غير صالح ؛ وقد تقلّب على الظاهر قانصوه غالب الأمراء والعسكر ، فلما رأى أحواله مضطربة تحقّق وقوع فتنة ، فأخذ فى أسباب تحصين القلعة ، ونقل إليها أشياء كثيرة من البقسماط والجبن ، وملأ الصهاريج التى بالقلعة ، وفرّق السلاح على مماليكه ، وانتظر ما يكون من أمر الأمير طومان باى .

فلما عدّت إليه الأمراء قبض على جماعة ، منهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، فلما قبض عليه وضمه فى الحديد ، وقبض على أنص باى ، وعلى تمر قريب السلطان الذى تولى الحسبة ووضمه فى الحديد ، (٩٨ آ) وقبض على القاضى عبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلى آخرين من الأمراء . ــ فلما كان يوم الأربعاء سادس عشرين ذى القعدة عدّى الأمير طومان باى من نحو إنبابة ، وطلع من بولاق بمن معه من العساكر ، فتوجّه إلى الأزبكية بعد العصر وبات بها ، وكان الأتابكى جان بلاط ساكنا هناك ، فاجتمعوا الأمراء عنده وضربوا مشورة فى أمر الظاهر قانصوه ، فوقع الاتفاق على خلعه من السلطنة .

---

(١٠) قابله : قابل . (١٩ــ٢٠) آخرين . . . سادس : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

فلما كان يوم الخميس سابع عشرين هذا الشهر لبس العسكر لامة الحرب ، وركب الأتابكى جان بلاط ، والأمير طومان باى ، وبقية الأمراء ، من الأزبكية ، وتوجّهوا إلى بيت الظاهر تمربغا الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فعند ذلك ركبوا وحاصروا الظاهر قانصوه وهو بالقلعة ، ولم يكن عنده من الأمراء سوى جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وبعض أمراء العشرات ، ومن الجند نحو ألف إنسان ، فاستمرّ الحرب ثائرا بين الفريقين ، وأقام تحاربهم ثلاثة أيام على قلّة مَنْ عنده من العسكر بالقلعة ، وكان الظاهر قانصوه حصّن القلعة ، وسدّ باب الاسطبل الذى من جهة باب القرافة .

فلما كان يوم الجمعة بعد العصر ملك الأمير طومان باى مدرسة السلطان حسن ، وركّب هناك مكحلة ، وصار يرمى على من بباب السلسلة . ـ فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه انكسر الظاهر قانصوه ، وتشتّت من كان عنده بالقلعة ، فلما رأى عين الغلب دخل الحريم ، وتزايا بزىّ النساء ، وكشف عن رأسه وتزيّر وتنقّب ، ونزل من القلعة وتوجّه [نحو] الترب ، واختفى خبره ، فكان كما يقال :

وقائلة [لى] دهتك الهموم وأمرك ممتثل فى الأمم
فقلت ذريتى علـى غصّتى فإن الهموم بقدر الهمم

فلما انكسر الظاهر قانصوه لم يجسر الأمير طومان باى يتسلطن ، وكان قدّامه الأتابكى جان بلاط ، فاستمرّت القاهرة بلا سلطان من يوم السبت إلى يوم الأحد ، وقد أشيع وجود قانصوه خمسمائة الذى تسلطن ، فنودى فى القاهرة: إن كان قانصوه خمسمائة موجودا فليظهر وله الأمان ، فلم يكن (٩٨ ب) لهذه الإشاعة صحة ، فعند ذلك وقع الخلف بين الأمراء فى من يلى السلطنة ، فذُكر تانى بك الجمالى ، فلم يرض به العسكر ، ثم ذكر الأتابكى جان بلاط فلم يرض به العسكر ، فتعصّب له الأمير طومان باى حتى تسلطن ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

فكانت مدة الظاهر قانصوه سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما ، وكان ملكا

(١٣و١٤) ما بين القوسين نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

هيّنا لين الجانب ، قليل الأذى كثير البرّ والمعروف ، وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء ، مهما يقولون له ، يقول : يخشى ؛ فسمّته العوام « يخشى » ؛ كما سمّوا الظاهر يلباى : إيش كنت أنا قل لو ؛ وكانت أيام الظاهر قانصوه أصلح حال من أيام الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وقد انصلحت أحوال البلاد الشرقية ، وقلّ أذى العربان ، وكذلك البلاد الغربية ، ووقع الرخاء فى أيامه فى سائر البضائع ، وانكفّت المماليك عن ما كانوا يصنعون من الأذى فى أيام الملك الناصر محمد ، وساس الظاهر فى أيامه أحسن سياسة ، وخُلع والناس عنه راضية .

وكانت صفته أبيض اللون ، يميل إلى الصفرة ، نحيف الجسد ، قصير القامة ، أسود الشعر ، عربى الوجه ، مستدير اللحية ، جميل الهيئة ، حسن الشكل فى المنظر ، جركسى الجنس ، قليل الكلام بالعربى ، الغالب عليه الجلوبية ، تولّى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة ، وكان وافر العقل ، ثابت الجنان ، مع سكون وعدم رهج .

وأما ما عُدّ من مساوئه ، وهو قتله للأمير تانى بك قرا من غير ذنب ، أرسل لخنقه وهو بين أولاده وعياله وهو بالقدس ؛ ومنها أنه صادر خوند الخاصبكيّة زوجة أستاذه الملك الأشرف قايتباى ، ووكّل بها الطواشية ، حتى أباعت قماشها مثل التركة وأوردت ما قرّره عليها من المال ، وصادر أختها زوجة آقبردى ووكّل بها بالقلعة ، وطالبها بمائة ألف دينار ، وزعم أن آقبردى أودع عندها مالا ، وصادر أخاها الناصر محمد بن خاص بك ، وعرضه للضرب غير ما مرّة وألزمه بأن يسافر أمير حاج بالركب الأول من ماله ، ولم يعطه شيئا كعادة أمراء الحاج .

ومنها أنه ظلم جماعة من أعيان الناس من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا ، وهدّها بسبب البيت الذى أنشأه على بركة الفيل لأجل أخيه قانم ، وفعل مثل ذلك بالتربة التى أنشأها بالصحراء ، وضيّق بها الطريق على المارّ من هناك ، وأعمى ترب الناس (٩٩ آ) التى بجواره ؛ ومنها أنه كان متواطئا مع الأمراء على قتلة الملك

(٧) الظاهر : الناصر. (١٠) الجلوبية : كذا فى الأصل ، وكذلك فى ف ، ويعنى لهجة الجلبان.

الناصر محمد بن أخته ، ولولا تواطؤه لما قدر أحد على قتله ؛ ومنها أنه رسم بشنق بدر الدين بن مزهر كاتب السرّ ، حتى شفع فيه طومان باى الدوادار ؛ ومنها أنه كان غير عفيف الذيل ، على ما قيل ، والله أعلم . ـ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الظاهر أبى سعيد قانصوه خال الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر سلطنة الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط من يشبك الأشرفى

وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد ، وكان أصله جركسى الجنس ، اشتراه الأمير يشبك من مهدى أمير دوادار كبير ، وأقام عنده مدّة ، وحفظ القرآن ، ثم إن الأمير يشبك قدّمه مع جملة مماليك إلى الملك الأشرف قايتباى ، فأنزله بالطبقة ، فأقام بها مدّة ، ثم أعتقه وصار من جملة معاتيق الأشرف قايتباى ، ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بعد مدّة بقى خاصكيا دوادار سكين ، وسافر أمير حاج بالركب الأول وهو خاصكى غير ما مرّة ، ثم أنعم عليه السلطان بأمرة عشرة فى سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، وسافر إلى الحجاز أمير ركب المحمل وهو أمير عشرة ، وقرّر فى نظر الخانكاه ، ثم توجّه قاصدا إلى بن عثمان ملك الروم فى سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكان يومئذ أمير طبلخاناه تاجر المماليك .

ثم بقى مقدم [ألف] فى أواخر دولة الأشرف قايتباى ، ثم بقى دوادارا كبيرا ، عوضا عن آقبردى فى دولة الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم قرّره فى نيابة حلب وخرج إليها ، فلما تولى الظاهر قانصوه نقله إلى نيابة الشام ، عوضا عن كرتباى

---

(١٥) أربع وتسعين : كذا فى الأصل ، وفى ف : أربع وسبعين ، والصحيح هو المذكور فى الأصل ، لأن جانبلاط كان فى سنة ٨٨٩ خاصكيا ولم يكن قد ترقى بعد إلى أمرة عشرة ، انظر هنا فيما سبق ص ٢١١ س ١٠ . (١٨) مابين القوسين ينقص فى الأصل .

الأمير بحكم وفاته ، ثم أحضره الظاهر قانصوه إلى الديار المصرية ، وأقرّه فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك بحكم وفاته ، ثم تزوّج بخوند أصل باى أم الملك الناصر ، واستمرّ على ذلك حتى وثب طومان باى الدوادار على الظاهر قانصوه وانكسر ، فوقع الاختيار على سلطنته على كره من الأمراء والعسكر .

وكانت صفة مبايعته أنه لما تسحّب الظاهر قانصوه من القلعة ، (٩٩ ب) واختفى كما تقدّم ، أقامت القاهرة بغير سلطان يومين ؛ فلما كان يوم الاثنين ثانى ذى الحجة صعد الأمراء والعسكر إلى باب السلسلة واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، وكان قصد الأمير طومان باى أن يتسلطن وقد ظهر ذلك فيما بعد ، ولكن كان قدّامه الأتابكى جان بلاط ، وتانى بك الجمالى أمير سلاح ، فلم يجسر أن يتسلطن ، وكان العسكر غير راض به ، فما وسعه إلا تعصّب للأتابكى جان بلاط وسلطنه ؛ فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة وهم : زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقىّ المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى .

فلما تكامل المجلس عملوا صورة محضر فى خلع الظاهر قانصوه ، فخلع من السلطنة فى الحال ، ثم إن الخليفة بايع الأتابكى جان بلاط بالسلطنة ، وقيل تسلطن فى ساعة الشمس ، وتلقّب بالأشرف ، وكنى بأبى النصر على لقب أستاذه الأشرف قايتباى ؛ فلما تمّت بيعته أحضر إليه شعار الملك ، وهى الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك الشعار ، وقدّمت إليه فرس النوبة ، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، ورفعت على رأسه القبة والطير ، وركب الخليفة عن يمينه ، ومشت الأمراء بين يديه ، واستمرّ فى ذلك الموكب حتى طلع من باب سرّ القصر ، وجلس على سرير الملك ، وقبّل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ؛ ثم أخلع على الخليفة وألزمه أن يتحوّل من يومه ويسكن بالقلعة كما كان والده المتوكل على الله عبد العزيز ، فامتثل ذلك ؛ ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ،

(٩) أن يتسلطن : تسلطن ، وفى ف : ذلك الذى تسلطن فيما بعد .

وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان ملء العيون ، كفوا للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأى .

وفى حال سلطنته رسم بالإفراج عن الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وكان مشكوكا فى الحديد عند الأمير طومان باى الدوادار ، وقد قاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبّر عنه ، وكذلك الأمير طراباى كان عنده فى الترسيم أيضا ، فأخلع على قانى باى قرا وأبقاه فى أمرة آخورية الكبرى على عادته ، وأطلق طراباى وأنص باى شاد الشرابخاناه وأبقاهما على وظائفهما ، ثم إنه عيّن الأتابكية إلى قصروه نائب الشام ، وكان يظن أنه سيدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

ثم فى يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة جلس فى شباك الدهيشة ، وعرض (١٠٠ آ) مماليك الظاهر قانصوه ، ومسح منهم جماعة — وفى ذلك اليوم بعث للأمير طومان باى الدوادار نحوا من ثلاثمائة فرس من خيوله الخاص الذى كانوا عنده لما حضر من الشام . — ومما عُدّ من آداب الأشرف جان بلاط أنه لما ولى السلطنة ، فكان إذا جلس على الدكة التى بالحوش ، فلا يقعد فى مكان كان يجلس فيه الأشرف قايتباى ، بل يجلس فى وسط الدكة تأدبا لأستاذه قايتباى .

وفى يوم الخميس خامس ذى الحجة فرّق الأضحية على الجند والأمراء ومن له عادة . — ثم أخلع على بدر الدين بن مزهر وأعاده إلى كتابة السرّ ، وعزل أخاه كمال الدين عنها ؛ وأعاد الشهابى أحمد بن ناظر الخاص إلى نظر الجيش ، وعزل عبد القادر القصروى وأودعه الترسيم ، وقرّر عليه مالا له صورة ؛ وأخلع على علاى الدين بن الصابونى وأعاده إلى نظر الخاص ، وعزل شهاب الدين بن الرملى عنها ، وسلّمه إلى طراباى على مال قرّر عليه ؛ وأخلع على قيت الرجبى وأعيد إلى حجوبية الحجاب ، وبطل سفره إلى طرابلس نائبا ؛ وأخلع على أزبك الناشف وقرّره فى نيابة القلعة ، عوضا عن جان بلاط الأبح بحكم اختفائه ؛ ثم عيّن قصروه الصغير بأن يمضى إلى قصروه نائب الشام بالبشارة بسلطنته ، وظنّ أن قصروه يسرّ لسلطنته ، فما ازداد إلا عصيانا ، وأرسل إليه

(١٠) ومسح : كذا فى الأصل ، وكذلك فى ف .

بالحضور ليلى الأتابكية، فلم يلتفت قصروه إلى ذلك وتمادى على ما هو عليه من العصيان.

ثم قبض على تمر قرابة الظاهر قانصوه الذى كان محتسبا ، ووكّل به وقرّر عليه مالا ، وكذلك قبض على تانى بك الخازندار وقرّر عليه مالا . ـ وفيه عيّن دولات باى إلى تقدمة ألف ، وكذلك بُرد بك المحمدى ، وكذلك خاير بك أخو قانصوه البرجى المحمدى .

وفى هذا الشهر قوى الفحص والتفتيش على الظاهر قانصوه ، وصار والى الشرطة فى كل يوم وليلة يكبس الحارات ويهجم البيوت ، وحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل من الكبس والنهب ، فلما طال الأمر قبض السلطان على الطواشى مسك وضربه ، فأقرّ أن زوجته خوند جان كلدى تعرف طريقه ، فبعث إليها السلطان الأمير طراباى فسألها عنه ، فلم تقرّ بشىء ، فأحضر إليها المعاصير وعصرها فى رجليها ، فلم تقرّ بشىء ، فحضر الوالى وعاقب الجوار وآخرين من جماعتها فلم يقرّوا بشىء .

فلما اشتدّ الأمر بسبب ذلك حضر شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن أينال ، وكان ساكنا فى سويقة صفية عند الزير المعلّق ، فأسرّ للأمير أزدمر أحد الأمراء المقدّمين بأن الظاهر قانصوه (١٠٠ ب) عنده فى بيته ، فلما تحقق الأمير أزدمر ذلك طلع وأعلم السلطان ، فأرسل جماعة من الخاصكية مع والى الشرطة إلى ذلك المكان ، فقبضوا على الظاهر قانصوه ، فأركبوه على بغل وعلى رأسه زمطه ، وعليه كبر أبيض ، فأتوا به على بركة الناصرية ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبّر عنه ؛ وقيل إنه وقع من على البغل فى أثناء الطريق ، وتمترسوا عليه حتى أركبوه ؛ وكان القبض عليه فى يوم الأحد ثانى عشرين ذى الحجة ، وكانت مدة اختفائه أربعة وعشرين يوما ، فجرى عليه هذا كله وهو ساكت لا يتكلم ، فكان كما يقال :

الصبر أولى بوقار الفتى   من قلق يهتك ستر الوقار
من لازم الصبر على حاله   كان على أيامه بالخيار

فاستمرّ على هذه الحالة حتى أتوا به إلى بيت أزدمر ، فلما رآه قام له وأدخله إلى البيت ، فأقام عنده ثلاثة أيام حتى كتب وصية . ـ فلما كان ليلة الثلاثاء خامس عشرينه رسم السلطان بإخراج الظاهر إلى ثغر الإسكندرية ، فقيّدوه وأنزلوه فى مركب تحت الليل وتوجّهوا به إلى الإسكندرية ، فسجن بها ، وقيل إن السلطان جان بلاط أنعم عليه بخمسة آلاف دينار لكون أنه كان صهره زوج أخته ؛ وكان المتسفّر عليه الأمير أزدمر من على باى المذكور ، فأوصله إلى ثغر الإسكندرية وسجنه بها وعاد ؛ وخمدت فتنة الظاهر قانصوه كأنها لم تكن ، بعد ما أقام فى السلطنة سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما ، انتهى .

ثم إن المماليك ربسوا على الأشرف جان بلاط بسبب نفقة البيعة ، فلما رأى منهم الجدّ أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة من الأعيان ، ووزّع على قضاة القضاة مالا له صورة ، فشفع الخليفة فى قاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، فعفا عن ما كان قرّر عليه من المال لفقره .

وفيه قبض السلطان [على] الحاج رمضان المهتار وسلّمه إلى طراباى ، فعاقبه وعصره ، واستخلص منه نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وقد صودر غير ما مرة ، وهذه آخر مصادراته ، فباع جميع ما يملكه ، حتى بيوته وأثاثه وشوار نسائه ، وانكشف حاله جملة واحدة ، وكان رئيسا حشما ، أقام فى مهترة (١٠١ آ) الطشتخانات نحوا من ثلاثة وثلاثين سنة ، ونال من العز والعظمة فى دولة الأشرف قايتباى ما لا رآه غيره من المهاترة ، وكان متكلما على نظر الكسوة الشريفة ، وغير ذلك من الجهات السلطانية ، وكان غالب السعى من بابه ، حتى قيل كان متحصّله فى كل يوم نحو من خمسين دينارا غير ما يتحصّل من جهاته .

وفيه اشتدّ الأمر على الناس بسبب المصادرات ، وقاست أعيان الناس من البهدلة والأنكاد ما لا يعبّر عنه ، وكان المتكلم فى أمر هذه المصادرات البدرى بدر الدين ابن مُزهر كاتب السرّ ، فأظهر النتيجة لصهره الأشرف جان بلاط ، وحصل منه

(٩) ربسوا : كذا فى الأصل ، وكذلك فى ف . (١٣) مابين القوسين ينقص فى الأصل .

للناس الضرر الشامل ، وشوّش على الـكثير منهم ، وقد عقب عليه ذلك فيما بعد حتى كان من أمره ما سنذكره ، وعمّت هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى ، وجماعة من أعيان التجار ، والطواشية منهم الطواشى مسك ، ومختص ، ومحسن ، وغير ذلك ، وكانت حادثة مهولة .

وفيه أنعم السلطان بأمرة عشرة على خاير بك العلاى الأشرفى قايتباى أحد خواصه ، وعلى جانم المحمدى الظاهرى خشقدم ، وعلى على باى دوادار خشكلدى البيسق ، وآخرين من الخاصكية . ــ وفى ليلة الجمعة سابع عشرينه وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة بعد العشاء وأقامت نصف درجة ، ولو دامت لأفسدت ، وقد شاهدوا وقت وقوع الزلزلة بعض النجوم فى السماء تتناثر .

وفيه نزل السلطان وتوجّه إلى تربة الأشرف قايتباى فزار قبره ، ثم توجّه إلى باب النصر وكشف عن عمارة مدرسته التى هناك ، ثم دخل من باب النصر وشقّ المدينة ، ثم أتى إلى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه على بركة الفيل ، فكشف عن زوجته خوند أم الناصر وكانت مقيمة هناك ، فزارها ثم عاد إلى القلعة . ــ وفيه أعيد الطواشى محسن كما كان خازنا ، وقد قاسى من الأنكاد ما لا خير فيه .

وفى أواخر هذه السنة كانت وفاة صاحبنا تقى الدين بن محمود ، أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصالحية ، وكان رئيسا حشما عشير الناس فكه المحاضرة ، لكنه كان ملسانا كثير التعليق للناس ، لا يفوته أحد من كبير ولا صغير ، وكانت أعيان الناس يخشون من لسانه ، حتى قضاة القضاة والمباشرين ، وقد هجاه الأديب زين الدين بن النحاس بقوله :

(١٠١ب) قف وقفة عند سبّاب الأنام ترى جيوش أجفانه بالسرد قد كُسرت
ومن توقّد نيران الحشيش غدت عيناه ترمى جمارا بعد ما نفرت

وقال آخر فى المعنى :

لا تعجبوا لعيون فاتها نسك وبالحشايش صارت بعد ما نفرت

---

(١٧) ملسانا : كذا فى ف ، وفى الأصل : مكسانا .

كقطعتين دما حاكت بحمرتها كأنما هدبها فى جفنها نحرت

وفى هذه السنة انقطع البلسان من مصر ، وهو البلسم ، وكان من آثار نبي الله عيسى عليه السلام ، وكانت الفرنج يجيئون من أقصى البلاد حتى يشتروا من دهن هذا البلسم ، ويتغالون فى ثمنه ، وقد أحضر حبّ البلسان البرّى من الحجاز ، وزرعوه بأرض المطرية وعالجوه ، فلم ينتج ولم ينبت ، وانقطع من مصر بالكلية كأنه لم يكن قط بعين شمس ، وهو أجلّ نبات بها ، وهذا لم يتّفق قط ، بل كان قبل ظهور الإسلام بمدة طويلة ، وكان ذكى الرائحة أشبه شبها بورق الملوخية ، وكان دهنه ينفع للأمراض الباردة كوجع الظهر والركب وغير ذلك من الأعراض البلغمية ، وكان يستخرج دهن هذا البلسم فى رابع عشرين بشنس القبطى ، وكان فى الزمن القديم يحضر يوم استخراج دهنه بعض أمراء السلطان ، وقيل الخازندار الكبير ، وأجود ما يكون طبخ دهنه فى برمهات ، وكان يزرع حبّه فى بؤنة إلى هاتور ، وكان معدودا من جملة محاسن مصر ، وكان انقطاعه عن مصر فى أوائل قرن التسعمائة . ـ ومن حوادث هذا القرن أيضا الحبّ الفرنجى ، أعاذنا الله منه ، وقد فشا فى الناس جدا حتى أعيي الحكماء أمره ، واستمرّ يعترض للناس إلى الآن ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وتسعمائة

فيها فى المحرم كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب الهاشمى الأبوين ؛ والسلطان الملك الأشرف أبو النصر جانبلاط من يشبك الأشرفى ؛ والقضاة الأربعة على حكم ما تقدّم ؛ وكانت الأتابكية شاغرة ، وقد تعيّنت لقصروه نائب الشام . ـ وفى يوم الثلاثاء مستهلّ المحرم كان صعود خوند أصل باى زوجة الأشرف جانبلاط ، وهى أم الناصر ، وسرية الأشرف قايتباى ، وأخت قانصوه وزوجة الأشرف جان بلاط ، فكان يوم صعودها إلى القلعة يوما مشهودا ، فشقّت (١٠٢ آ) من الصليبة وهى فى محفّة زركش ، وحولها الخدام من أعيان الطواشية ،

---

(٣) يجيئون : يجون . (١٢) أوائل قرن التسعمائة : فى ف : رأس القرن العاشر .

وقدّامها أعيان المباشرين ، وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين إنسانا ، وهم بالشاش والقماش ، وجماعة من المماليك نحو من مائة إنسان ، وهم بالكوافى القندس واللاليط ، وبأيديهم المصي يفسّحون الناس ، فاستمرّت فى هذا الموكب الحافل حتى صعدت إلى القلعة ، ومعها نحو من مائتى امرأة على مكارية .

وفيه فرّق السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد جمع هذا المال من وجوه الظلم والمصادرات ، ففرّق على جماعة مخصوصة من العسكر ، وقطع للأكثرين من الجند وأولاد الناس وغير ذلك . — وفيه فى يوم الخميس ثالثه حضر قصروه الصغير ، الذى كان قد توجّه إلى قصروه نائب الشام ببشارة سلطنة الأشرف جانبلاط ، فلما عاد وأخبر أن قصروه نائب الشام باق على عصيانه ، ولم يدخل تحت طاعة الأشرف جانبلاط ، ولا لبس خلعته ، ولا قبّل له الأرض ، فلما تحقّق السلطان ذلك تنكد إلى الغاية ، وكان يظنّ أن قصروه يدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفى يوم الجمعة رابع المحرم صلّى السلطان الجمعة ، وجلس بباب الستارة ، وأخلع على الأمير تانى بك الجمالى وقرّره فى الأتابكية ، عوضا عن نفسه ، وكان السلطان أخّر وظيفة الأتابكية لقصروه نائب الشام ، فلما تمادى على عصيانه قرّر بها تانى بك الجمالى ؛ وأخلع على الأمير طومان باى وقرّره فى أمرة السلاح ، مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، وقرّره أيضا فى الوزارة والأستادارية وكشوفية الكشاف ، كما كان الأمير يشبك من مهدى ، فعظم أمره جدا وصار صاحب الحلّ والعقد فى تلك الأيام .

وفيه استمرّ قرقماس من ولى الدين فى نيابة حلب كما قرّره الظاهر قانصوه ، وقرّر برد بك الطويل فى نيابة طرابلس ، عوضا عن قيت الرجبي الذى كان تعيّن إليها ، وقرّر قانصوه بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا فى نيابة حماة ، وكان قرّر قبل ذلك فى نيابة غزّة ، ثم بطل أمر هؤلاء النواب جميعا ، وحدث أمور بعد ذلك يأتى الكلام عليها فى موضعه .

وفيه فى يوم السبت خامس المحرم ، الموافق لثامن مسرى ، أوفى النيل المبارك ،

وكسر يوم الأحد سادس المحرم ، (١٠٢ ب) فلما أوفى توجّه الأمير طومان باى الدوادار لفتح السدّ على العادة ، فأظهر فى ذلك اليوم غاية العظمة ، وفرّق على المتفرّجين نحوا من مائتى مجمع حلوى ، ومائتى مشنّة فاكهة ، حتى فرّق البطيخ الصيفى ، ونثر للعوام فضة لما أراد يركب عند السدّ ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان له يوم مشهود ، وهذا كان آخر فتحه للسدّ ، وتسلطن عقيب ذلك ، وجرى عليه أمور يأتى الكلام عليها ؛ فابتهج الناس بيوم الوفاء لكون أن النيل وافى مسرعا ، وحصل به غاية النفع ، وكان نيلا عاليا ، فكان كما يقال :

كأن فى يوم الوفاء نيلنا أتقن علم الحرف بالضبط
إذ بالصبا صفحات خلجانه تجدولت بالكسر والبسط

وفيه تكلم وسائط السوء مع السلطان فى إعادة وظيفة نظر الأوقاف ، فلما عرضوا ذلك على الأمير طومان باى فلم يوافق على إعادة هذه الوظيفة ، وكان الملك الناصر أبطلها بواسطة كرتباى الأحمر ، فلما توجّه كرتباى الأحمر إلى الشام ، وطاش الملك الناصر بعده ، سعى محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف فى إعادته إلى هذه الوظيفة ، وكان الساعى له عبدالقادر بواب الدهيشة ، فقرّره الناصر فى نظر الأوقاف ، فأقام بها مدة يسيرة وضجّ منه الناس ، فشكوه للملك الناصر ، فقبض عليه وضرب ضربا مبرحا ، ونفاه إلى قوص ؛ وقد تولّى هذه الوظيفة غير ما مرّة ولم ينتجح أمره ، وقد تولّاها جماعة كثيرة ، منهم شخص يسمى ابن الفار الوكيل فلم ينتجح أمره ، وتولّى بها أيضا شرف الدين بن البدر حسن فلم ينتج فيما تقرّر عليه من المال ، وقد تولّاها جماعة كثيرة ولم يشوروا بالسداد ، وهى وظيفة شرّ وظلم ، فشكر الناس فضل الأمير طومان باى الدوادار على إبطال هذه الوظيفة فى تلك الأيام المسّة .

وفيه قبض السلطان على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاسطبل ، وقرّر عليه مال يردّه للخزائن الشريفة . — وفيه عاد سيباى نائب سيس أحد المقدّمين ، وكان توجّه إلى الكرك لقتال عربان بنى لام ، فعاد من غير طائل . — وفيه اجتمع السلطان

(٨) بالضبط : بالدبط . (٢٠) المسة : كذا فى الأصل ، وكذلك فى ف .

بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر قصروه نائب الشام ، فأشاروا على السلطان بأن يرسل إليه قاصدا ، فعيّن شخصين (١٠٣ آ) من الأمراء العشرات ، وهما أزدمر الفقيه والآخر يسمى أصباى ، فتوجّها إليه عن قريب ؛ ثم فى أثناء ذلك حضر خاير بك الكاشف ، الذى كان قانصوه نفاه وفرّ من أثناء الطريق وتوجّه إلى قصروه وأظهر العصيان ، فلما بلغه سلطنة الأشرف جانبلاط فرّ من عند قصروه ودخل تحت طاعة الأشرف جانبلاط ، فلما حضر أخلع عليه ووعده بتقدمة ألف .

وفيه فى خامس عشرينه كان دخول الحاج إلى القاهرة ، وقد حصل لهم مشقّة زائدة ، وعوّقوهم العرب حتى فات ميعاد دخولهم . ـ وفيه تعيّن تمرباى الدوادار للخروج إلى قصروه نائب الشام ، وكانت هذه من مكائد الأمير طومان باى ، فأظهر للسلطان أنه يروم الصلح بينه وبين قصروه ، وكان الأمر بخلاف ذلك فيما بعد ، وتلاعب بالأشرف جانبلاط وهو يظن أنه له من الناصحين ، فكان كما يقال فى أمثال الصادح والباغم :

جهد البلاء صحبة الأضداد فإنّها كىّ على الفؤاد

ومنها :

كذاك من يستنصح الأعادى يردنه بالغش والفساد

ومنها :

أعظم ما يلقى الفتى من جهد أن يبتلى من جنسه بالضدّ

ومنها :

والعاقل الكافى من الرجال لا ينثنى بزخرف المقال

انتهى ذلك . ـ وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على غزّة وأعمالها والقدس ، وغير ذلك من النواحى .

وفى صفر عظم أمر الأمير طومان باى جدا ، وتصرّف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه لا يقضى أمرا دونه . ـ وفيه

---

(٤) قانصوه : فى ف : الظاهر . (٦) ووعده بتقدمة : ووعد تقدمة .

جاءت الأخبار من حلب بأن دولات باى نائبها أظهر الطاعة للسلطان ، وأنه ليس مع قصروه نائب الشام ، وكان هذا كله حيل وخداع ، وترتيب من الأمير طومان باى ، حتى كَلّ عزمه عن إرسال تجريدة إلى قصروه نائب الشام ، وكانت لوائح الخذلان لائحة على الأشرف جان بلاط ، وأحواله كلها معكوسة ، وصار الأمير طومان باى يمهّد لنفسه فى الباطن .

وفيه توعّك قاضي القضاة زين الدين زكريا وحصل له ضعف فى بصره ، فأغلق بابه وأظهر أنه قد عزل نفسه عن القضاء ، فلم يلتفت السلطان إليه ؛ فلما كان يوم الاثنين عشرين هذا الشهر أخلع السلطان على محيي الدين (١٠٣ ب) عبد القادر بن النقيب وقرّره فى قضاء الشافعية ، عوضا عن القاضى زكريا بحكم انفصاله عنها ؛ فكانت مدة ولاية زكريا فى قضاء الشافعية نحوا من عشرين سنة ، فإنه تولّى فى دولة الأشرف قايتباى فى سادس رجب سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعزل فى صفر سنة ست وتسعمائة ، وهذه المدّة لم تتفق لأحد من قضاة الشافعية فى ولاية واحدة غيره ، فعُدّ ذلك من النوادر ، وسيعود إلى القضاء ثانيا عن قريب ؛ فلما تولّى عبد القادر بن النقيب شقّ على كل أحد من الناس ولايته ولاموا السلطان على ذلك ، وكان يومئذ فى الشافعية من هو أولى بالقضاء منه ، ولكن سعى بمال له صورة حتى تولى على كره من الناس ، فكان كما يقال ذو بيت :

فى مصر من القضاة قاضٍ وَلَهُ   فى أكل مواريث اليتامى وَلَه
إن رمت عدالة فقم مجتهدا   مَنْ عَدّ لَه دراهما عدّله

وهذه أول ولايته للقضاء بمصر ، وقيل إنه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى ، وسيُعزل عن قريب . — وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة ، التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فى المسلمين السيف ، وقالوا : من دخل فى ديننا تركناه ، ومن لم يدخل فى ديننا قتلناه ؛ فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل ، ثم ثاروا عليهم المسلمون ثانيا وانتصفوا عليهم بعض شيء ، واستمرّ الحرب بينهما ثائرا والأمر لله .

وفى ربيع الأول نزل السلطان إلى بيت الأمير طومان باى الدوادار ، وترجّل عن فرسه ودخل هو وإياه إلى البيت ، وأقام عنده ساعة يتحدثان فى أمر قصروه ، ثم ركب وطلع إلى القلعة . ــ وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهو أول موالده . ــ وفيه فى يومه عيّن السلطان خاير بك ، أخو قانصوه البرجى ، ومعه جماعة من العسكر ، وأمرهم بأن يقيموا بغزّة خشية من قصروه أن لا يطرق غزّة على حين غفلة ، فخرج خاير بك والعسكر مسرعين . ــ وفيه ماتت خوند حبيبة ابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وهى زوجة الأمير طومان باى الدوادار ، وكانت جنازتها حافلة .

وفيه عيّن السلطان الأمير سودون العجمى أحد المقدّمين ، وقرّره فى امرة الحاج بركب (١٠٤ آ) المحمل ، وعيّن دولات باى قرموط والى القاهرة بالركب الأول . ــ وفيه عرض السلطان العسكر وعيّن تجريدة إلى قصروه نائب الشام ، وقد تمادى على العصيان والخروج عن الطاعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية ، وانقطعت سائر الأصناف التى كانت تجلب من البلاد الشامية كالماورد والورق الشامى والفاكهة، وغير ذلك مما كان يجلب من الأصناف الشامية .

فلما عرض العسكر عيّن نحوا من ألفين مملوك ، ومن الأمراء المقدّمين أحد عشر أميرا ، وكان الباش على هؤلاء الأمراء المقر السيفى طومان باى أمير سلاح وأمير دوادار كبير ووزير وأستادار وكاشف الكشاف ومشير المملكة وما مع ذلك من الوظائف ، فلما عرض السلطان العسكر نفق عليهم وبعث نفقة الأمراء ، ثم استحثهم على الخروج بسرعة ورسم لهم بأن يخرجوا شيئا بعد شىء ؛ فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشرين هذا الشهر خرج جماعة من الأمراء المعينين فى هذه التجريدة ، فكان جاليش العسكر قيت الرجبى حاجب الحجاب ، وأصطمر من ولى الدين أحد المقدّمين، وسودون الدوادارى أحد المقدّمين، وخرج صحبتهم خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية.

---

(٥) يقيموا : يقميون . (١٥) ألفين : كذا فى الأصل .

وفيه قرّر الأمير قانى بردى اليوسفى فى شادية الشراب خاناه مع أمرة أربعين ، وكان من خواص الأمير طومان باى الدوادار ، وقرّر قلج فى نيابة البيرة ، [ثم] لم يتمّ له ذلك ، وقرر فى نيابة الإسكندرية ، ثم نفى فى دولة العادل طومان باى إلى البلاد الشامية . ـ وفيه قرّر الشيخ صنطباى فى نظر المدرسة السنقرية التى بباب النصر ، وأخرج النظر عن قاضى القضاة الشافعى زكريا بأمر السلطان . ـ وفيه قرر أنصباى الذى كان شاد الشرابخاناه فى تقدمة ألف ، وكان من خواص الأمير طومان باى ومن أعز أصحابه . ـ وفيه قرّر طقطباى فى كشف أسيوط ، وصرف عنها يوسف النوام ، وقرّر جانم المحمدى الخشقدمى فى كشف منفلوط ، وصرف عنها جندر السيفى أزبك اليوسفى .

وفى ربيع الآخر فى يوم السبت مستهلّه خرج من تعيّن من النواب المقدم ذكرهم، وهم : قرقماس من ولى الدين المعيّن لنيابة حلب ، وبرد بك الطويل المعيّن لنيابة طرابلس ، وقانصوه بن سلطان جركس المعروف (١٠٤ ب) بابن اللوقا المعيّن لنيابة حماة ؛ وقد تعينت نيابة الشام لدولات باى نائب حلب بأن ينتقل إلى نيابة الشام ، عوضا عن قصروه إذا قبض عليه ، فكانت هذه التراتيب كلها فى البطال ، وآل الأمر بخلاف ذلك كما يأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفيه فى يوم الاثنين رابعه خرج المقر السيفى طومان باى أمير سلاح وأمير دوادار كبير وما مع ذلك ، فلما خرج طلّب طُلْبا حافلا حتى رُجّت له القاهرة ، فلما طلع إلى القلعة أفاض عليه السلطان خلعة حافلة ، وهو فوقانى حرير أزرق بوجه حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل كان طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندق ، وكان ما دخل فيه ثمانمائة مثقال ، بحيث لم يعمل قط مثله ولا سُمع بمثل ذلك ؛ وكان الأشرف جان بلاط يقاتل على رضا الأمير طومان باى بكل ما يمكن ، ومع هذا كان الأمير طومان باى يضمر له كل سوء ، فكان لسان حال الأشرف جان بلاط يقول :

أقاسى المنون لنَيل المُنى ويا ليت هـذا بهذا يفى

وكان الأمير طومان باى باغى على الأشرف حانبلاط ، فكان كما يقال فى الأمثال:

والغــدر بالعهد قبيح جدّا شرّ الورى من ليس يرعى عهدا

فلما خرج كان صحبته من الأمراء المقدّمين الأمير قانى باى قرا الرماح أمير آخور كبير ، والأمير قانصوه الغورى رأس نوبة النوب ، والأمير أزدمر من على باى أحد المقدّمين والأمير أنص باى أحد المقدمين ، فكانوا بمن تقدّمهم من الأمراء المقدّمين أحد عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات نحو من عشرين أميرا ، ومن المماليك السلطانية زيادة على ألفى مملوك ، فكانت هذه التجريدة المعينة إلى قصروه نائب الشام تعادل تجاريد ابن عثمان ، وقد تقدّم ذكر ذلك فى أخبار الأشرف قايتباى .

فلما شقّ الأمير طومان باى من القاهرة كان له يوم مشهود ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان محبّبا للناس ولا سيما العوام ، فلهج الناس بأنه سيمود سلطانا وكان الأمر كذلك ، فاستمرّ فى ذلك الموكب حتى نزل بالريدانية فى الوطاق، فأقام به أياما ورحل ؛ وقيل إن السلطان (١٠٥ آ) نزل إليه هناك فى الخفية تحت الليل ، وجلس عنده وتحدثا فى ما يكون من أمر قصروه ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من مال وقماش وتحف ، حتى أحجار حيوانية لمنع السموم القاتلة ، ثم ودّعه وطلع إلى القلعة ، وكان يظنّ أن الأمير طومان باى ناصح له ، وكان الأمر بخلاف ذلك .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن السلطان تغيّر خاطره على القاضى كاتب السرّ بدر الدين بن مُزهر ، فقبض عليه وعلى حاشيته ، وسجنه بالمرقانة ، وضربه ضربا مبرحا غير ما مرة ، وسبب ذلك أن السلطان لما صادر الناس كما تقدّم ندب القاضى بدر الدين إلى ذلك ، فأظهر من العسف والظلم والتشويش على الناس ما يطول شرحه ، وأظهر النتيجة فى ذلك للأشرف جان بلاط فإنه كان صهره ، فكثر الدعاء عليه وأخذه الله من الجانب الذى يأمن إليه ، كما يقال :

فكان كالمتمنّى أن يرى فلقا من الصباح فلما أن رآه عمى

ثم إنه قرّر عليه مالا وأقام فى المرقانة حتى يردّ ما تقرّر عليه من المال ، وكان

---

(٣) الرماح : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل . (٧) ألفى مملوك : ألفين مملوكا .

من أمره ما سنذكره فى موضعه . ـ فلما كان يوم الخميس ثانى عشره أخلع السلطان على صلاح الدين بن يحيى بن شاكر بن الجيعان وقرّره فى كتابة السرّ ، عوضا عن بدر الدين بن مُزهر بحكم صرفه عنها ، وهذه آخر ولايته لكتابة السرّ ولم يعد إليها بدر الدين بعد ذلك . ـ وفى ليلة الجمعة ثالث عشره خُسف جرم القمر خسوفا تامّا ، وأقام فى الخسوف إلى قريب التسبيح ، وغرب وهو مكسوف .

وفيه توفى القاضى جلال الدين بن الأمانة أحد أعيان نواب الشافعية ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، فاته منصب القضاة غير ما مرة ، وهو آخر من يروى صحيح مسلم عن الزينى الزركشى بالسماع ، وكان قد طعن فى السنّ وقارب التسعين من العمر . ـ وفيه نودى من قبل السلطان بإبطال ما تجدّد من المكوس ، والمظالم الحادثة من بعد موت الأشرف قايتباى . ـ وفيه عاد تمرباى خازندار الأمير طومان باى الدوادار ، وكان قد توجّه إلى قصروه نائب الشام ليمشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فلم يوافق (١٠٥ ب) قصروه على ذلك . ـ وفيه توفى أصباى الأشرفى قايتباى وكان أحد الدوادارية ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين خامسه ، وصل هجان من الشام ، وعلى يده مكاتبات إلى تمر باى دوادار طومان باى ليفرّقها على الأمراء ، فكان من مضمونها أنه قد تسلطن بالشام ، وتلقّب بالملك العادل ، فاستفاض هذا الكلام بين الناس وفشا ؛ فلما فرّق تمرباى المكاتبات على الأمراء ، فخاف على نفسه ، ففرّ تحت الليل وستر الله عليه حتى خرج من القاهرة .

ثم بعد أيام جاءت الأخبار مفصّلة بصحّة ما جرى ، وهو أن العسكر لما وصل إلى الشام نزل فى مكان يسمّى سعسع بالقرب من دمشق ، فركب قصروه نائب الشام فى نفر قليل من عسكره وأظهر أنه طائع ، فاطمأن إليه العسكر ، وكان غالب الأمراء خشداشينه ، فلما حضر إليهم دخل هو وإياهم إلى الشام واجتمعوا فى القصر الأبلق الذى هناك بالميدان ، وحضر قصروه نائب الشام وذكروا له أن يطلع إلى القلعة ويقرأ مراسيم السلطان ، فطلع وطلعوا الأمراء إلى القلعة ، فعند ذلك قرأوا عليه مراسيم

(٢٣ـ٢٤) وذكروا . . . فعند ذلك : نقلا عن ف ، وينقص فى الأصل .

السلطان ، فلم يلتفت إلى ذلك ، ثم تفاوض هو والأمراء فى الكلام .

ثم ثارت فتنة كبيرة بالقصر ، وأمر قصروه بالقبض على جماعة من الأمراء ، وهم : قرقماس من ولى الدين الذى قرّر فى نيابة حلب ، وأزدمر من على باى أحد الأمراء المقدّمين ، وخاير بك أخو قانصوه البرجى أحد الأمراء المقدّمين ، وسودون الدواداری أحد المقدّمين ، وقانصوه بن سلطان جركس الذى قرر فى نيابة حماة ، وقبض على آخرين من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، فلما قبض عليهم قيّدهم وسجنهم بالقلعة بدمشق .

ثم فى أثناء ذلك حضر إلى دمشق دولات باى نائب حلب ، وكان يدعى أنه أخو الأمير طومان باى ، فلما حضر تعصّب قصروه للأمير طومان باى وتكلم فى سلطنته ، فأحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة ، وشهد فيه جماعة من الخاصكية بأشياء توجب الخلع ، فخلع من السلطنة ، وبايعوا طومان باى بالسلطنة من غير خليفة ، وتلقّب بالملك العادل أبو النصر ، وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه ، وقبّل له الأمراء الأرض ، فأول من قبّل له الأرض قصروه نائب الشام ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا .

فلما تمّ أمره فى السلطنة عين الأتابكيّة (١٠٦ آ) بمصر إلى قصروه نائب الشام وعيّن نيابة الشام لدولات باى نائب حلب ، وعيّن نيابة حلب إلى أركماس من ولى الدين ، وعيّن نيابة طرابلس لبرد بك الطويل ، وعيّن نيابة صفد لجانم ، وقرّر قيت الرجبى فى أمرة السلاح عوضا عن نفسه ، وقرّر قانصوه الغورى فى الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية وكشف الكشاف عوضا عن نفسه ، وقرّر قانبك نائب الإسكندرية فى الرأس نوبة الكبرى ، وقرّر أصطمر من ولى الدين فى الحجوبية الكبرى ، وعيّن عدّة تقادم ألوف وأمريات طبلخانات وعشرات لجماعة من عصبته ؛ ثم إنه رسم بشنق أحد مشايخ العربان من أولاد ابن نبيمة ، وشنق شخصا من مشايخ

---

(٢) قصروه : أضيف بعدها فى ف : والأمير طومان باى . (٨-٩) نائب حلب ... طومان باى : فى ف : ابن الكاس نائب حلب الشهير بأخى العادل وأحضر له شعار الملك .

بنى حرام ، يقال له ثابت ؛ فلما تمّ أمره فى السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ، ثم أخذ فى أسباب التوجّه إلى مصر .

فلما طرق الأشرف جان بلاط هذه الأخبار اضطربت أحواله وضاقت به الدنيا بما رحبت ، ثم أخذ فى أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر ، عوضا عن من أظهر العصيان بدمشق ، فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عونا ويدخلوا تحت طاعته، فأحضر لهم المصحف العثمانى وحلّف عليه سائر الأمراء من كبير وصغير ، بعد صلاة الجمعة ، بحضرة الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة ، وكان قاضى القضاة الشافعى عبد القادر بن النقيب ألّف صورة أيمانات مغلّظة بالله ، وبالمصحف وبالحج وبالعتق والطلاق الثلاثة وغير ذلك من التأكيد فى الأيمان المغلّظة ، وكتب ذلك فى سجلّ ودفعه إلى صلاح الدين بن الجيعان كاتب السرّ ليحلّف به الأمراء ، وكان هذا سببا لانتقام العادل من ابن النقيب ، فلما حضر إلى مصر وتمّ أمره فى السلطنة، فجرى على ابن النقيب منه أمور مهولة يأتى الكلام عليها فى موضعه .

فلما تكامل المجلس حلّف الأمراء بمعنى ذلك الإيمان التى تقدّمت ، فحلفوا أنهم لا يخونوا ولا يغدروا ولا يميلوا مع العادل إذا حضر ، فحلفوا على ذلك ، ثم أحضر لهم عدة تشاريف ، فأخلع على قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى وقرّره فى أمرة السلاح، عوضا عن طومان باى بحكم سلطنته بدمشق ، وقرر (١٠٦ ب) خشكلدى البيسق الظاهرى خشقدم فى أمرة مجلس ، عوضا عن قانصوه البرجى بحكم انتقاله إلى أمرة السلاح ، وقرّر مصر باى فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن طومان باى بحكم سلطنته بدمشق ، وقرّر سيباى نائب سيس فى الأمير آخورية الكبرى ، عوضا عن قانى باى قرا الرماح بحكم عصيانه مع طومان باى ، وقرّر سودون العجمى فى الرأس نوبية الكبرى ، عوضا عن قانصوه النورى بحكم عصيانه مع طومان باى ، وقرّر برد بك المحمدى الأينالى فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن قيت الرجبى بحكم عصيانه

(١) بنى حرام : كذا فى ف ، وفى الأصل : بنى جرم .   (٤) الذين : الذى .
(٢٠) الرماح : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل .

مع طومان باى ، وقرّر قصروه الصغير فى ولاية القاهرة ، وقرّر تانى بك الأبح فى شادية الشراب خاناه ، وقرّر آقباى الأشقر الطويل فى تجارة المماليك ، وقرّر تمر باى الطويل فى أستادارية الصحبة ، وقرّر جان بردى رأس نوبة ثانى ، وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم : بيبردى الفهلوان ، وأزبك المكحل ، وخشكلدى النى كان أستادار الصحبة ، ودولات باى قرموط الذى كان والى القاهرة ، وأرزمك الناشف ، وتمراز جوشن ، وتمر الزردكاش ، وآخرين من الأمراء ، عوضا عمن خامر مع طومان باى .

ثم فرّق عدّة أقاطيع على الخاصكية ، عوضا عمن كان صحبة طومان باى بالشام ؛ ثم أخذ فى أسباب تحصين القلعة ، فركّب حولها المكاحل المعمّرة بالمدافع ، وأصلح سورها وأبراجها ، وبنى فوق سلّم المدرج بابا وهو الموجود الآن ، ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة فبناه بالحجر الفصّ ، وصنع فيه مرامى وأبواب صفار ، ثم سدّ باب الميدان ، وباب حوش العرب ، وباب الاسطبل الذى عند الصرّة ، وصار ينزل فى النهار مرتين يكشف على العمارة بنفسه ، ثم رسم بهدم مدرسة السلطان حسن ، فهدم منها بعض شىء من وراء ظهر محراب القبة ، وأقاموا يهدمون فيها ثلاثة أيام فلم يقدروا على هدم ذلك ، فتكلم الأمير تغرى بردى الأستادار مع السلطان فى عدم ذلك ، فرجع إليه السلطان وترك الهدم عنها ، وقد تأسّف الناس على هدمها لأن لم يعمّر فى الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفد من هدمها شىء وما كان يقدر على هدمها ، فكان ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى ، وهو قوله :

(١٠٧ آ) هُتِكت قبة الحسن وانتفى وصفها الحسن
إنّ فى ذا لَعِبْرة لكن المستفيق من

وقال محمد بن قانصوه بن صادق :

---

(٦) وآخرين : فى ف: وقرقماس الشرفى ، وخير بك الكاشف ، وغير ذلك .
(١١) بالحجر الفص : بالفص الحجر . (١٤) يهدمون : يهدموا .

حسن السلطان قد هُتِكت خِيفــةَ المحــذور قبّتهُ
تَعِس الراضى بذا وغَدَتْ مِثلهـــا فى الهتك حرمتهُ

ثم إن السلطان نقل إلى القلعة أشياء كثيرة من الطيق والبقسماط والجبن وغير ذلك من الاحتياج ، ثم ملأ الصهاريج التى بالقلعة ، ونقل إليها أشياء من احتياج المطبخ ما يكفى المحاصرة فوق الشهرين ، ثم نادى فى القاهرة بإصلاح الدروب وإصلاح أبواب المدينة ، فاضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال وكثر القيل والقال ، ووزّع الناس قماشهم فى المخابىء ، وظنّ كل أحد أن هذه فتنة مهولة لا تنجلى إلا عن أمور شتى ، وصار الناس فى رعب من ذلك ، وقد اشتدّ الأمر جدا .

ثم إن السلطان قبض على إسماعيل بن زامل وشنقه على باب الميدان ، وسبب ذلك أنه لما هرب تمرباى خازندار طومان باى الذى تسلطن بالشام ، كيف مكّنه من أن يتوجّه إلى الشام وما أعلم السلطان بذلك ، فشنقه لأجل ذلك وصار له ذنب كبير ؛ ثم إن السلطان أراد أن يقبض على الأمير طراباى ، وعوّقه بالقلعة ساعة ، ثم بدا له ترك هذا الأمر .

ثم إن السلطان رسم بقطع سلالم مدرسة السلطان حسن ، وأمر بنقض أماكن من دار يشبك الدوادار ، ونقل إلى القلعة أخشاب كثيرة ، صنع منها طوارق وسلالم خشب وغير ذلك من آلة الحرب ؛ ثم فتح الزردخاناه وفرّق منها على جماعة من الجند عدّة سيوف وزرديات ولبوس وبكاتروقسىّ ونشاب وغير ذلك ، ثم فرّق عليهم عدّة خيول خاص ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن من الإنعام حتى تمنّى كل بقاءه ولم يفد من ذلك شىء ، فكان كما يقال :

إذا طُبع الزمان على اعوجاج فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم الأربعاء مستهلّه ، أخلع السلطان على الأمير عبد اللطيف الطواشى ، وقرّره زماما وخازندارا كبيرا ، عوضا عن جوهر المعينى بحكم وفاته كما تقدّم . ـ وفيه توفى الشيخ الصالح (١٠٧ ب) المعتقد بالجذب سيدى عبيد القفاص ، وكان من الصالحين . ـ وفى يوم السبت رابعه جاءت الأخبار بأن العادل طومان باى

خرج من الشام ، هو وقصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وجماعة من النواب ، والتف عليهم الجمّ الغفير من عسكر الشام وعربان جبل نابلس والمشير وغير ذلك ، وقد وصل إلى غزّة .

فلما تحقّق السلطان ذلك علّق الصنجق السلطانى على باب السلسلة ، ونادى للعسكر بأن الطائع يطلع إلى القلعة ومعه آلة السلاح ، وأن سائر الأمراء تطلع إلى القلعة ؛ ثم رسم لأقارب الخليفة بأن يطلعوا عنده إلى القلعة كبارهم وصغارهم، ثم رسم لقاضى القضاة بأن يطلعوا إلى القلعة ، وكذلك سائر المباشرين من أرباب الوظائف يطلعوا إلى القلعة أجمعين ، فامتثلوا ذلك وطلعوا إلى القلعة وأقاموا بها ، واحتاط فى الأمور بكل ما يمكن ، ولم يفد من ذلك شىء ، فكان كما يقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم الخميس تاسعه وصل العادل بمن معه من العساكر إلى خانقاة سرياقوس، ودخل أوائل عسكره إلى القاهرة ، فماجت المدينة واضطربت ، وقلق الأشرف جان بلاط وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، فكان كما قيل فى المعنى :

قد كان يرجف فى ليالى وصله قلب فكيف يكون عند صدوده

ثم جاءت الأخبار بوصول عسكر العادل إلى المطرية ، فخرج إليه بعض المماليك السلطانية واتقعوا معهم هناك قتال هيّن ، ففرّ منهم أزبك النصرانى ودخل تحت طاعة العادل وقبّل له الأرض، فأخلع عليه العادل هناك وقرّره والى الشرطة بالقاهرة؛ ثم إن بعض المماليك توجّه إلى بيت العادل الذى كان ساكنا به ، وهو بيت الظاهر تمربغا التى عند سوق السلاح بالقبو ، فأحرقوا مقعده ومبيته ونهبوا منهم بعض أثاث .

فلما كان يوم السبت حادى عشره كان دخول العادل طومان باى إلى القاهرة ، فدخل من باب الفتوح ورفع على رأسه صنجق خليفىّ ، وكان معه من الأمراء : قانى باى قرا الرماح أمير آخور كبير ، والأمير (١٠٨ آ) قانصوه الغورى رأس نوبة النوب، وقد تقرّر فى الدوادارية الكبرى بدمشق، والأمير قيت الرجبى حاجب الحجاب،

والأمير أسطمر من ولى الدين أحد الأمراء المقدّمين ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وكان معه من النواب قصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وبرد بك الطويل نائب طرابلس ، وجانم نائب حماة وغير ذلك من الجند والعربان والمشير .

فشقّ من القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محبّبا للناس قاطبة ، فنادى بالأمان والاطمان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوّش على أحد من الرعية ، فتزايدت له الناس بالأدعية السنية ، وكان الناس يظنّون أن العادل طومان باى إذا دخل إلى القاهرة تخرب عن آخرها ، بسبب ما يقع من الفتن ، وأن الأمر يطول فى ذلك ، فما حصل إلا كل خير ، وانفرج الأمر عن قريب .

فاستمرّ العادل طومان باى فى ذلك الموكب ، وكان له يوم مشهود ، حتى توجّه إلى بيت تانى بك قرا ، الذى عند حمّام الفارقانى ، فنزل به ، ونزل قصروه بالأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، ونزل دولات باى نائب حلب بجامع شيخوا ، ونزل نائب طرابلس بدار أزبك اليوسفى أمير مجلس كان ، الذى بدرب ابن البابا ، وتوزّعوا الأمراء والنواب الذين حضروا صحبة العادل كل أحد فى مكان ، بالقرب من الصليبة .

ثم ثار الحرب بين الفريقين وعظم الأمر جدا ، وكان القائم بأمر الحرب لنصرة العادل ، قصروه نائب الشام ، فأمر بحفر خنادق فى الطرقات ، فحفر أربعة خنادق ، خندقا برأس الرملة عند سويقة عبد المنعم ، وخندقا عند حدرة البقر ، وخندقا عند باب الوزير ، وخندقا برأس جامع أحمد بن طولون .

ثم إن العادل أحضر عدة أخشاب لاطات وجزم وصوارى ، وأحضر جماعة النجارين ، فصنعوا منها عدّة طوارق وسلالم ، وشرعوا فى عمل مناجنيق ، وسدّوا عدة أبواب فى أماكن شتى ، وظنوا أن هذه الفتنة يطول أمرها ، ففى اليوم الثالث من المحاصرة ملك قصروه مدرسة السلطان حسن ، وركّب عليها المكاحل

---

(١٤) الذين : الذى . (١٦) الطرقات : أضيف بعدها فى ف : وولاها سورا من الحجارة . (٢١) أماكن شتى : أضيف بعدها فى ف : وبنوا عليها دروبا وصاروا يغلقونها .

(١٠٨ ب) المعمّرة بالمدافع ، ووقّف بها الرماة وأرموا على من بالقلعة بالبندق الرصاص ، فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة وجرح آخرون ، ففتر عزمهم عن القتال ، وبانت الكسرة على الأشرف جانبلاط ، ولم يكن عنده بالقلعة من الأمراء سوى : الأتابكى تانى بك الجمالى ، والأمير طراباى ، والأمير مصر باى ، والأمير قانصوه المحمدى البرجى ، وخشكلدى البيسقى ، وآخرون من الأمراء المقدّمين وغيرهم .

وكان بعض الأمراء أشار على السلطان جانبلاط لما وصل العادل إلى المطرية ، بأن يخرج إليه الأتابكى تانى بك الجمالى ، وآخرون من الأمراء ، ويحاربونه قبل أن يدخل إلى القاهرة ويتمكن منها ، فلم يوافق على ذلك جماعة من الأمراء ، وكان هذا عين الصواب ، كما يقال فى المعنى :

وانتهِز الفرصة إنّ الفرصة　　تصير إن لم تنتهزْها غُصّة
واسبق إلى الأجود سبق الناقد　　فسَبْقك الخصم من المكايد

ثم إن العادل قصد أن يحضر جماعة من فرسان عربان الشرقية يقاتلون معه كما فعل آقبردى الدوادار ، فلم يوافقوه الأمراء على ذلك ، وقالوا : هذا يحصل منه غاية الفساد ، فترك ذلك ـ فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره اشتدّ الحرب بين الفريقين ، وحصل بينهما واقعة مهولة بباب الوزير ، فجرح فيها شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له تمر باى الطويل أستادار الصحبة ، فلما جرح أغمى عليه فسقط عن فرسه ، فأخذوا لبسه وسلاحه وفرسه وحمل إلى داره فمات بعد أيام .

وفى ذلك اليوم تقنطر الأمير مصر باى الدوادار بالتبّانة ، وأخذوا فرسه من تحته ، فنجا بنفسه وهرب ؛ وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين ، وقتل فى ذلك اليوم أيضا الأمير قانبك نائب الإسكندرية أحد الأمراء المقدّمين ، وكان من

---

(١) بها الرماة : فى ف : بهافىأبواب الرملة . (١) بالبندق : فى ف : بالسبقيات والبندق .
(٥) البيسقى : أضيف بعدها فى ف : ونائب سيس سيباى .
(٢١) المقدمين : أضيف بعدها فى ف : قتل بكفية .

عصبة الأمير آقبردى الدوادار ، وحضر إلى القاهرة صحبة قصروه نائب الشام ، وكان مقيما بالشام ، وقتل جماعة من الخاصكية فى ذلك اليوم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره استمرّ الحرب ثائرا بين الفريقين إلى يوم الخميس سادس عشره ، فنفق العادل (١٠٩ آ) طومان باى على العسكر الذى من عصبته جامكية شهر ، فصار الأشرف جان بلاط ينفق الجامكية بالقلعة على من عنده من العسكر ، والعادل طومان باى ينفق الجامكية فى بيت تانى بك قرا على من عنده من العسكر .

فلما تلاشى أمر الأشرف جان بلاط ، وترشّح أمر العادل طومان باى ، ولاحت عليه لوائح النصر ، فصار جماعة من الأمراء والعسكر يتسحّبون من القلعة وينزلون عند العادل طومان باى ، فنزل إليه : قانصوه الفقيه ، وتمر الظاهرى ، وجان بلاط الأبح ، وتانى بك الأبح ، وغير ذلك من الأمراء والخاصكية ؛ ثم نزل فى ذلك اليوم القاضى عبد القادر القصروى وتوجّه إلى عند العادل ، فأخلع عليه وأقرّه فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد ناظر الجيش ؛ وكان الأشرف جان بلاط واعد العسكر أنه ينفق عليهم مع الجامكية ، فلم ينفق عليهم شيئا ، فتقلّبوا عليه وتسحّب غالبهم وأتى إلى العادل فترحّب بهم .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خرج العادل من بيت تانى بك قرا ، وهو راكب وعليه سلارى جوخ أحمر مفرّى بصمور ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، والأمراء حوله ، فتوجّه إلى جامع شيخوا وصلّى به صلاة الجمعة ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان له يوم مشهود ؛ فلما خطب الشرفى يحيى بن العدّاس ، خطيب جامع شيخوا ، دعا فى أواخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهى أول خطبة خطب بها باسم العادل فى القاهرة ، قبل أن يخلع الأشرف جانبلاط من السلطنة ، وقد خاطر الشرفى يحيى بن العدّاس بنفسه فى ذلك ، فعدّ من النوادر ، فلما تسلطن العادل ، وتم أمره فى السلطنة ، كتب للشرفى يحيى بن العدّاس جامكية فى كل شهر ألف درهم فى نظير ذلك .

---

(١٦) مفرى بصمور ، يعنى عليه فرو صمور .

وفى يوم السبت ثامن عشره ، وقت صلاة الفجر ، نزل من القلعة جماعة من الأمراء العشرات، منهم : جان بردى الغزالى ، وخاير بك الكاشف ، وآخرون من الخاصكية، فتوجّهوا إلى عند العادل ؛ ثم إن الأشرف جان بلاط رسم بتفرقة الجامكية الثانية فى الاسطبل السلطانى ، وحضر هناك العسكر وهم (١٠٩ب) لابسون لامة الحرب ، فبينما العسكر التى بالقلعة مشغولين بتفرقة الجامكية ، وإذا بالقلعة قد ماجت واضطربت ، وثار الجمّ الغفير بالرملة من المماليك الذين من عصبة العادل ، فنهبت الجامكية عن آخرها التى نفقت بالاسطبل .

وكان سبب ذلك مما استفاض بين الناس أن الأشرف جانبلاط كان مقيما فى مدّة حصار القلعة بالقصر الكبير، وعنده جماعة من مشايخ الصوفية ومن يعرف بالصلاح، فلما ضاق الأمر على الأشرف جانبلاط قام ودخل دور الحريم، فأبطأ فيه ساعة طويلة، فعمد الأمير طرا باى إلى الترس والنمجاة ونزل من القلعة وتوجّه إلى عند العادل طومان باى، وأشاع أن الأشرف جان بلاط قد هرب من القلعة ، فلما سمع بذلك الأتابكى قصروه وكان مقيما فى مدّة المحاصرة فى مدرسة السلطان حسن، فحطم بمن معه من الجند، فملك باب السلسلة وسلم المدرج من غير مانع ، ولم يفد من تحصين الأشرف جان بلاط شىء ، ولا من بنائه لتلك الأبراج شىء ، ولا من تركيب المكحلة الكبيرة التى يقال لها المجنونة ، وكان هذا خذلانا من الله تعالى له ، وقد قلت فى المعنى مع التضمين :

تحصّن خوفا جنبلاط بقلعة — فلم تدفع الأعداءَ عنه المدافع
فكانت مراميه كفارغ بندق — خلىّ من القتلى ولكن فراقع

فلما كانت الكسرة على الأشرف جانبلاط وقع النهب بالقلعة فى الحواصل السلطانية ، فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، مما نقله الأشرف جانبلاط إلى القلعة من أغنام وأبقار ، وبقسماط وسكر ، واحتياج المطبخ ، وغير ذلك ؛ ثم إن فى ذلك اليوم رسم العادل بالإفراج عن القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السرّ ، وكان الأشرف جانبلاط سجنه بالعرقانة ، وقرّر عليه مالا له صورة ، وأقام بالعرقانة مدّة طويلة ، فأفرج عنه ونزل إلى داره فى ذلك اليوم .

فلما حصلت هذه النصرة من غير قتال مهول ، فعنــد ذلك ركب العادل طومان باى من بيت تانى بك قرا ، وعلى رأسه صنجق سلطانى ، وصمد إلى باب السلسلة من غير مانع وملكه ، وكان من أمر سلطنته ما سيأتى الكلام (١١٠ آ) عليه فى موضعه ؛ ثم فى أثناء ذلك اليوم قبض على الأشرف جان بلاط ، قيل وجد فى مكان مهجور بدور الحرم ، فمُسك من هناك ، فلما قبضوا عليه أدخلوه إلى قاعة البحرة ، وقيّدوه بقيد ثقيل ، ووكلوا به جماعة من الخاصكية ، وفيهم شخص من مماليك آقبردى الدوادار ، فحصل للأشرف جان بلاط منه غاية البهدلة وما لا خير فيه ، فكان كما يقال فى أمثال الصادح والباغم :

عنــد تمام المرء يبدو نقصه وربمــا ضرّ الحريص حرْصه

ومنها :

كم عشتُ فى لذّة عيش زَمَنِى فأصبر الآن لهذى المِحَنِ

ثم نقل الأشرف جان بلاط من البحرة إلى البيت التى بجوار المقعد الذى بالحوش، فأقام به نحوا من ثمانية عشر يوما ، فلما كان يوم الاثنين خامس رجب توجّهوا بالملك الأشرف جان بلاط إلى السجن بثغر الإسكندرية ، فنزلوا به من باب الدرفيل وقت الظهر، وهو مقيّد وخلفه أوجاقى بخنجر ، فتوجّهوا به من على الجراة إلى البحر، فنزل فى الحراقة وسار إلى الإسكندرية ، وكان المتسفّر عليــه : الأمير أنسباى أحد المقدّمين ، والأمير قان بردى أحد العشرات ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجّهوا به إلى الإسكندرية ورجعوا .

وقيل كان سبب تأخير الأشرف جان بلاط هذه الثمانية عشر يوما ، حتى أورد ما قرره عليه العادل من المال حتى أرضاه ، فكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوما ، وكان هذه المدّة فى غاية فى الضنك مع الأمير طومان باى ، وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة، وحاصره وهو بالقلعة نحوا من سبعة أيام، فإنه دخل إلى القاهرة يوم السبت حادى عشر هذا الشهر ، وملك القلعة يوم السبت ثامن عشره ، وتعب فى تحصين القلعة ، ونقل إليها أشياء كثيرة من كل صنف

كما تقدم وظنّ أن حصار القلعة يطول ، فما أفاده من ذلك شيء .

وكان الأشرف جانبلاط أرشل ، قطيع القلب ، قليل الحظّ ، عسوفاظالما ، حصل منه فى مدة سلطنته للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال ، ولو أقام فى السلطنة حصل للناس منه غاية المشقّة من الظلم والأذى ، فعجّل الله به ؛ ومن مساوئه ما وقع له مع آقبردى الدوادار ، فإنه كان أعزّ أصحابه ، ثم أقلب عليه بعد صحابته له ما كأنه يعرفه .

وكان صفته أبيض اللون ، طويل القامة ، غليظ الجسد ، مستدير الوجه ، أسود اللحية ، جميل الهيئة ، حسن الشكل ، تولّى (١١٠ ب) الملك وله من العمر نحو من أربعين سنة ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى تسلطن وأقام هذه المدة اليسيرة ، وآل أمره إلى أن خنق وهو مسجون بالبرج ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، انتهى ما أوردناه من أخبار الأشرف جان بلاط وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر سلطنة العادل أبو النصر طومان باى الأشرفى قايتباى

وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو التاسع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ؛ وكان أصله جركسى الجنس ، اشتراه قانصوه اليحياوى نائب الشام وقدّمه مع جملة مماليك إلى الأشرف قايتباى ، فأقام فى الطبقة مدّة طويلة ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا ، ثم بقى خازندار كيس فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم قرّر فى نيابة الإسكندرية فى سنة اثنتين وتسعمائة ، وتوجّه إليها فأقام بها مدّة يسيرة وعاد إلى مصر ، ثم بقى أمير طبلخاناه دوادار ثانى فى دولة الناصر أيضا ، ثم بقى مقدّم ألف دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر قانصوه ، ثم بقى أمير سلاح دوادارا كبيرا ووزيرا وأستادارا وكاشف الكشاف

---

(١٨) خازندار : فى ف : خاصكى خازندار .

ومدبّر المملكة فى دولة الأشرف جانبلاط .

ثم سافر إلى الشام لما عصى قصروه نائب الشام ، فتسلطن هناك وعاد وهو سلطان كما تقدّم ، فلما دخل إلى القاهرة وصحبته قصروه وبقية النواب ، قام قصروه بنصرته قياما حافلا ، وصار يقف على حفر الخندق بنفسه ، ويشيل التراب بالقفف على كتفه ، هو ومماليكه ، مع الفعلاء ، ونصب المكاحل على مدرسة السلطان حسن ، ووقّف الرماة بالبندق الرصاص ، واستمرّ يحاصر القلعة سبعة أيام ؛ فلما كان يوم السبت ثامن عشر الشهر هذا ، كُسر الأشرف جانبلاط ، فحطم العادل وملك باب السلسلة من غير مانع .

فلما استقرّ بباب السلسلة قبض على قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر ابن النقيب ، ووكل بهجماعة من الأوجاقية ، وقرّر عليه مالا لهصورة ، فنزلوا به وهو ماشى على أقدامه وحوله أوجاقية ، ورسل قابضين عليه من أكمامه ، فشقّوا به من الصليبة (١١١ آ) وهو على هذه الهيئة ، فسبّوه العوام وكادوا أن يرجموه ، حتى حماه بعض الأتراك ، واستمرّ على ذلك حتى أتوا به إلى بيت على بن أبى الجود البردداد ، وكان ساكنا فى ربع الأشرف برسباى الذى بالصليبة ، فأقام هناك فى الترسيم حتى يردّ المال الذى قرّر عليه ، وكان قد بلغ العادل ما رتّبه ابن النقيب من الأقسام المغلظة التى حلّفها الأشرف جان بلاط للعسكر ، لما بلغه سلطنة العادل بدمشق ، فانتقم منه العادل بسبب ذلك وعزله عن القضاء ، فكانت مدّته فى هذه الولاية ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وسيعود إلى القضاء ثانيا عن قريب ، وقد قلت فى ذلك :

ولّوك أشرف منصب يا قاضيا ... لكن إن عدل الزمان ستُنْسَخ
طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا ... وكذا القلوب على المناصب تُطبخ

ثم إن العادل طلب قاضى القضاة زين الدين زكريا ، فلما توجّهوا إليه امتنع من الحضور واعتذر متوعّكا فى جسده ، فلا زالوا به حتى أركبوه وطلع إلى القلعة ،

(٤–٥) يقف . . . كتفه : فى ف : ينفق على حفر الخناديق وشيل التراب بالقفة على رأسه وكتفه . (١١) قابضين : كذا فى الأصل . (١٣) البردداد : البرداد .

فأخلع عليه العادل وأعاده إلى القضاء ، وعزل ابن النقيب كما تقدم ؛ ثم حضر قاضى قضاة الحنفية البرهان بن الكركى ، وقاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقىّ ، وقاضى القضاة الحنابلة الشهاب الشيشينى ؛ ثم حضر أمير المؤمنين أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب .

فلما تكامل المجلس عملوا صورة شرعية فى خلع الأشرف جان بلاط ، وولاية العادل طومان باى ، فخُلع جان بلاط من السلطنة ، وبايع الخليفة طومان باى بالسلطنة ، وجدّد له مبايعة ثانية زيادة على ما بيده من مبايعته بالشام ، واستمرّ على لقبه بالعادل الذى تلقّب به بالشام ، وكان أولا تلقّب بالملك المؤيد وهو بالشام ، ثم تحوّل لقبه إلى الملك العادل .

فلما كُسر الأشرف جان بلاط كما تقدّم ، ركب العادل من بيت تانى بك قرا وطلع إلى القلعة ، فلما طلع لم يجلس بباب السلسلة بالمقعد الذى هناك ، بل طلع إلى القلعة ودخل إلى القصر الكبير وجلس به ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، ووقعت مبايعته هناك ، وأفيض عليه شعار الملك به ، واجتمع هناك الأمراء (١١١ ب) والعسكر وأرباب الدولة قاطبة ، واستمرّ على ذلك حتى جلس على سرير الملك ، ورفع الزردكاش القبّة والطير على رأسه ، وكان الأتابكى تانى بك الجمالى مختفيا ، وقبّل الأرض له الأمراء قاطبة .

ثم أخلع على الخليفة وكان ساكنا بالقلعة ؛ ثم قرّر قصروه فى الأتابكية ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، فأخلع عليه فى ذلك اليوم تلك الفوقانى التى كان الأشرف جان بلاط صنعه له عند توجّهه إلى دمشق ، وكان فوقانى أخضر حرير ، بوجه مخمل أزرق ، بطرز يلبغاوى عريض ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف ، قيل دخل فيه من الذهب ثمانمائة مثقال من ذهب بنادقة ، بحيث لم يعمل مثله قط ؛ ثم قام العادل لقصروه وقبّل رأسه ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، فتوجّه إلى الأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، وكان كله عين الخداع من العادل فى حقّ

قصروه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما يقال فى المعنى :

إذا رأيتَ ثنايا الليث كاشرة   فلا تظنّ بأن الليث بسّام

ثم ضُربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان محبّبا للناس ولا سيما العوام ، فزيّنت له القاهرة سبعة أيام متوالية ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحدّ ، حتى عدّ ذلك من النوادر الغريبة ؛ وصار كل أحد فى الفرح بسلطنته ، وانفرجت تلك الفتنة عن الناس عن قريب ، وكان يظن كل أحد بأن أمر الفتنة يطول ويتسع ، فآل الأمر إلى خير بخمود الفتنة عن قريب ، فكان كما يقال :

ملك نداه المبتدا   للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه   حكم القضاء والقدر

فلما تمّ أمره فى السلطنة ، فكان أول شىء صدر منه من الأفعال الشنيعة ، أنه قبض على خوند أصل باى ، أم الناصر ، وزوجة الأشرف جان بلاط ، وأخت الظاهر قانصوه ، فوكل بها عشرة من الخدّام ، وقرّر عليها نحوا من خمسين ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فباعت أشياء كثيرة من قماشها ، وأخذت فى أسباب وزن ما قرّر عليها من المال .

ثم إنه عزل برهان الدين بن (١١٢ آ) الكركى عن قضاء الحنفية ، وقرّر بها الشيخ سرى الدين عبد البرّ بن الشحنة ، وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية . — وفيه قرّر قرقماس المقرى فى الحسبة ، فلما قرّر بها قبض على محمد الباسطى ، الذى كان متكلما فى الحسبة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، فلما قبض عليه ضربه بالمقارع فى يوم شديد البرد ، وأشهره فى القاهرة على جمل ، فما طاق ذلك ومات عن قريب ، وكان من الظلمة الكبار .

وفيه أخلع على أسنباى الأصم وقرّر فى الحجوبية الثانية ، وقرّر نوروز أخو يشبك الدوادار فى الرأس نوبة الثانية ، وقرّر طومان باى الأشرفى قايتباى فى الأمير آخورية

(٢) بسام : فى ف : يبتسم .

الثانية ، وقرّر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجيش ، وصرف عنها الشهابى أحمد بن ناظر الخاص . ــ وفيه رسم السلطان برمّ ما فسد من حيطان مدرسة السلطان حسن فى مدّة محاصرة القلعة ، فرمّ ذلك جميعه . ــ وفيه توفى الشرفى يونس بن محمد ابن أينبك أحد الزردكاشية ، وكان لا بأس به .

وفى رجب ، فى ليلة الخميس مستهلّه ، جرى من الحوادث الغريبة أن الأتابكى قصروه طلع إلى القلعة ليبات عند السلطان ، وكان يبات بالقلعة ليلة الاثنين وليلة الخميس فى تلك الأيام ، فلما طلع على جارى العادة ، وأكل السماط مع السلطان، وجلسوا ساعة يتحدّثون ، فقال له السلطان : والله قلبي خائف منك يا أمير كبير ، فلما صلّى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجّهوا به إلى المكان الذى أنشأه الظاهر قانصوه بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ، ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسل وكفن وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن فى تربة الصاحب خشقدم الزمام التى بالقرب من حوش العرب .

وكان قصروه أميرا جليلا مهابا مبجّلا ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وتولّى عدّة وظائف سنية ، منها : نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، وكان فى أيام العادل هو الآمر والناهى فى الموكب ، وإذا نزل من القلعة تتوجّه معه الأمراء إلى الأزبكية ، ويقام له هناك مواكب تفوق على موكب السلطان ، ثم إنه صنع وليمة حافلة بالأزبكية ، (١١٢ ب) وجمع قرّاء البلد والوعاظ ، وعزم على سائر الأمراء، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده أكابر الأمراء وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم فى تلك الليلة على جماعة من الأمراء بخيول ومال حتى استمال قلوبهم ، وكان يوصف بالكرم الزائد مع شجاعته ، فأوعد العسكر بكل جميل فمالوا إليه ، وعوّلوا فى السلطنة عليه ، فلما بلغ العادل ذلك المجلس استغنم الفرصة وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت الليل ودفنه ، فكان كما يقال فى الأمثال :

وانتهز الفرصة إن الفرصة   تصير إن لم تنتهزها غصّة

وقد قلت فى واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :

اعجبوا من أمر قصروه الذى ... ملكه بالشام جهلا قد ترك
وأتى مصرا فما نال المُنى ... ورماه الدهر فى وسط الشرك

وقولى :

كان قصروه قصيرا عمره ... خانه الدهر فولّى مسرعا
طلبوا التسليم منه فأبى ... ثم ما سلّم حتى ودّعا

وقولى :

لم ينل قصروه ما أمّله ... من علوّ فاته فى دهره
رام كيداً للمليك عادل ... فرماه كيده فى نحره

ولكن كان العادل باغيا على قصروه ، ووشت بينهما الأعادى بالكلام ، حتى وقع بينهما وجرى ما جرى من القتل ، وكان قصروه سببا لنصرته بالشام ومصر ، وكان يشيل التراب على كتفه مع الفعلة عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند حضور العادل من الشام ، وما أبقى ممكنا فى نصرة العادل على الأشرف جان بلاط ، وآخر الأمر قتله ظلماً ، فلم يعش بعده العادل سوى مدة يسيرة وقتل هو أيضا ، قال الإمام على كرم الله وجهه : من سلّ سيف البغى قُتل به ، وفى الأمثال :

البغى داءٌ ما له دواء ... ليس للملك معه بقاء

وكان بين العادل طومان باى وبين قصروه أيمان عظيمة ، ومواثيق وعهود ، وما كان قصروه يظنّ أن العادل يخون تلك الأيمان ، فكان كما قيل :

وحلفتَ أنك لا تميل مع الهوى ... أين اليمين وأين ما عاهدتنى

وكان قصروه عفيفا عن المنكرات ، شجاعا بطلا سخىّ النفس ، (١١٣ آ) غير أنه كان عنده بطش وخِفّة وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة من العمر ، ووكزه الشيب ، فلما مات تأسّف عليه الكثير من الناس ، وزال حبّ طومان باى العادل من قلوب الناس كأنه لم يكن ، ولم يستحسن أحد منه قتله لقصروه

---

(٢١) بطش : فى ف : طيش .

الذى كان سببا لنصرته ، فنفرت عنه قلوب الرعية ، وكان هذا على غير القياس ، كما يقال :

لا تشكرنّ امرأً حتى تجرّبه ولا تذمنّه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا وذمّك المرء بعد الشكر تكذيب

وتقرب واقعة قصروه مع العادل طومان باى مما وقع لطشتمر حُمص أخضر ، وقطلوبغا الفخرى ، مع الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاون ، فإن طشتمر وقطلوبغا الفخرى كانا سببا لنصرته لما حضر من الكرك ، فلما تسلطن قبض عليهما وقيّد طشتمر وقطلوبغا ولم يرعهما ، ثم أمر بتوسيطهما عند عوده إلى الكرك ، ولم يكن لهما من الذنوب ما أوجب لذلك ، وهذه الأفعال ما تصدر إلا من جاهل أحمق يعدّ من جملة المجانين، وكانت هذه الواقعة فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، انتهى ذلك .

ثم إن العادل قبض على يخشباى الذى كان نائب حماة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط ؛ وقبض على تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء فقرّره فى حجوبية الحجاب بدمشق وخرج من يومه ؛ ثم قبض على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ؛ وقبض على آخرين من الأمراء العشرات والخاصكية ممن كان من عصبة قصروه . — ثم فى يوم الخميس ثامن رجب قبض السلطان على الأمير قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، وأمر بنفيه إلى مكة بطالا ، فتوجّه من البحر الملح ؛ ثم قبض على قلج نائب الإسكندرية ، وبعثه إلى الشام بطالا ؛ وقبض على جان بلاط الموتّر الذى كان محتسبا ونفاه .

وفيه فى أثناء هذا الشهر خرج الأشرف جان بلاط نفيا إلى ثغر الإسكندرية ، وهو مقيّد كما تقدّم ، وإنما تأخّر هذه (١١٣ ب) المدّة بعد كسرته ، وذلك أنه كان مقيما فى الترسيم حتى أورد ما قرّره عليه العادل من المال . — وفى يوم الجمعة عاشره عُقد للسلطان طومان باى على خوند فاطمة ابنة العلاى على بن خاص بك ، زوجة الأشرف قايتباى ، فعُقد له عليها بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة ذلك العقد ،

وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على قان بردى اليوسفى بتقدمة ألف ، وقرّره فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن طراباى الشريفى ، بحكم انتقاله إلى الرأس نوبية الكبرى ؛ ثم عمل الموكب وأخلع على جماعة من الأمراء ، فأخلع على دولات باى قريبه وقرّره فى نيابة الشام ، عوضا عن قصروه ؛ وأخلع على جانم من قجماس بنيابة طرابلس ، عوضا عن برد بك الطويل ؛ وأخلع على سيباى نائب سيس ، وقرّره فى نيابة حماة ؛ وأخلع على قانصوه الفاجر ، وقرّره فى نيابة صفد ؛ وأخلع على ملاج الأشرفى قايتباى ، وقرّره فى نيابة القدس ؛ وأخلع على قصروه الصغير ، وقرّره فى نيابة البيرة ؛ وأخلع على جانم ، وقرّره فى نيابة طرسوس ؛ فلما أخلع عليهم استحثّهم فى سرعة الخروج إلى محل ولاياتهم فخرجوا بغير أطلاب ؛ ثم أمر بنفى جماعة من الأمراء العشرات ، فنفى جان بردى الغزالى ، ومسايد ، وقرقماس ، وقايتباى ، وآخرين من الخاصكية ، فتوجّهوا بهم إلى نحو قوص .

وفى يوم السبت سادس عشرينه أخلع السلطان على جانى بك السيفى آقبردى الدوادار ، وقرّره فى شادية الشرابخاناه ؛ وقرّر طوخ المحمدى فى نيابة القلعة ؛ وقرّر تمرباى السيفى قجماس أحد خواصه فى الخازندارية الكبرى . ـ وفيه أنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : طقطباى ، وماماى جوشن ؛ ثم فى أثناء ذلك حضر خاير بك أخو قانصوه البرجى ، وكان من جملة ممن سجن بقلعة دمشق مع الأمراء القدّم ذكرهم ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف كما كان ؛ ثم قرّر طراباى الشريفى فى الرأس نوبية الكبرى ، واستمرّت الأتابكية شاغرة من حين قتل قصروه ، فرسم السلطان للأمير طراباى بأن يتكلم فى جهات الأتابكية إلى أن يقرّر بها من يختاره .

---

(٢) اليوسفى : نقلا عن ف ، وتنقص فى الأصل . (٤) قريبه : فى ف : الشهير بأخى العادل . (٥) قصروه : أضيف بعدها فى ف : وقرر قرقماس من ولى الدين فى نيابة حلب ، عوضا عن دولات باى . (١٥) فى الخازندارية : من الخازندارية .

وفيه، فى أواخره، عزل (١١٤ آ) السلطان القاضى الحنفى عبدالبرّ بن الشحنة، وأعاد البرهان بن الكركى، فكانت مدة القاضى عبد البرّ فى القضاء أياما وعُزل عنها، وقد قلت فى ذلك :

ولّوك قاضى القضاة لكن جاءوك بالعزل عن قريب
فمدّة الحكم منك كانت أقصر من جلسة الخطيب

ولما تولّى قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى وأعيد إلى القضاء، قلت فى ذلك :

بقاضى القضاة استبشرتْ مصر فرحة بعودته فى منصب للشرائع
فمذ قيل مَن أولَى بمرتبة القضا على مذهب النعمان من كلّ بارع
أشار إليه بالأيادى مليكها وأومى إليه نيابها بالأصابع

وقد سعى ابن الكركى فى عوده إلى القضاء بمال له صورة . ـ وفيه اختفى شيخنا جلال الدين الأسيوطى، وقد تطلبه السلطان ليفتك به، وكان بينهما حظّ نفس من حين كان العادل فى الدوادارية الكبرى، وجرى بينهما أمور شتى يطول الكلام عليها ؛ فلما اختفى قرّر السلطان الشيخ ياسين البلبيسى فى مشيخة الخانقاة البيبرسية، عوضا عن الجلال الأسيوطى بحكم صرفه عنها . ـ وفيه جاءت الأخبار بالقبض على مغلباى دجاج حاجب دمشق، وعلى نائب قلمتها أيضا ؛ ثم إن السلطان قرّر فى حجوبية دمشق برد بك تفاح، وقرّر تمر من جانم الظاهرى فى حجوبية حلب، عوضا عن تمراز جوشن، وكانت حيلة عليه، فلما خرج أرسل بالقبض عليه ومضوا به إلى القدس بطالا .

وفى شعبان كانت تفرقة السلطان لنفقة البيعة على الجند، ففرّق على حكم ما نفق الأشرف جان بلاط . ـ وفيه حضر قاصد على دولات وعلى يده مكاتبة إلى السلطان، تتضمّن أنه أرسل يشفع فى الأمير أركماس نائب البيرة، وكان قد فرّ إلى ابن عثمان، وعاد فأقام عند على دولات حتى يشفع فيه عند السلطان . ـ وفيه عوّل السلطان بأن يقبض على الأمير خشكلدى البيسقى، فلما بلغه ذلك فرّ من داره واستمر مختفيا

حتى جرى للعادل ماجرى . — وفيه طلع جهاز (١١٤ب) خوند الخاصبكية إلى القلعة، فشقّ من الصليبة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه، فى يوم الاثنين رابعه ، جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بقتل الأشرف جان بلاط ، مات خنقا وهو فى البرج بالإسكندرية ، وقد أرسل العادل مرسومه فى الدسّ إلى نائب الإسكندرية بخنقه ، فخنق وهو فى القيد ، وقيل لما أرادوا خنقه أحدث فى ثيابه ، وصار له شخير كالثور العظيم ، فلما مات غسّل وكفّن وصُلّى عليه ودُفن بمقابر الإسكندرية ، ثم نقل بعد موته كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ؛ وكان الأشرف جان بلاط ملكا جليلا ، وافر العقل ، جميل الهيئة ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها : تجارة المماليك ، وتقدمة ألف ، والدوادارية الكبرى ، ونيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، ثم ولى السلطنة وأقام بها ستة أشهر وثمانية عشر يوما ، وآل أمره إلى أن مات مخنوقا ، وقاسى شدائد ومحنا ، كما يقال فى الأمثال :

والمرء لا يدرى متى يمتحن   فإنه فى دهره مرتهن

ومات الأشرف جان بلاط وهو فى عشر الأربعين ، وكان أرشل قليل الحظ ، ولما مات رثيته بهذه الأبيات :

جنبلاط بدا له   طالع النحس أطرده
نجمه لاح مخبرا   بمكوس مؤبّده
عند ما ظنّ أنه   نال بالملك مقصده
جاءه الموت عاجلا   فى بروج مشيّده

وفى يوم الخميس سابعه صعدت خوند الخاصبكية زوجة العادل طومان باى إلى القلعة ، فخرجت من بيتها الذى بقنطرة سنقر وهى فى محفّة زركش، ومشت قدّامها الرءوس النوب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومشى قدّامها الوالى ونقيب الجيش وعبد اللطيف الزمام وأعيان المباشرين ، منهم : كاتب السرّ صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلاى الدين بن الصابونى

ناظر الخاص ، وبقية المباشرين قاطبة ، وأعيان الطواشية ، منهم عنبر مقدّم المماليك ، وآخرين من الخدام ، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو من مائتى امرأة .

فلما وصلت إلى باب (١١٥ آ) الستارة ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حافر بغال المحفّة ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على رأسها ، حتى جلست بقاعة العواميد ، والشبابة السلطانية عمّالة ، وكان يوما مشهودا بالقلعة ، واستمرّ المهمّ عمّال بالقلعة ثلاثة أيام ، وكان لها موكب حافل لما شقّت من الصليبة ، وكان قدامها المجمع السلطانى ، والبقج وطشت وإبريق بللور ، ومدورة زركش ، ولم يتّفق هذا الموكب لأحد من الخوندات قبلها ، بأنه نزل من القلعة ، وعاد لها على هذا الوجه، سواها وخوند أصل باى أم الملك الناصر ، ولكن هذه أعظم وأضخم موكب ، وقد قلت فى هذه الواقعة أبيات لطيفة فى المعنى :

عادت خوند إلى سرور ثانى ... مذ زوجت بالعادل السلطان
فى وجهها الإقبال والبشر الذى ... يتفاءلون به بكل لسان
طلعت كشمس الأفق ضمن محفّة ... تجلى كحور العين وسط جنان
فى موكب يحكى مواكب قيصر ... ضاهت على كسرى أنوشروان
لما أتت عند الصعود لقلعة ... نُثرت عليها الدرّ بالعقيان
عادت إلى الأوطان فى بشر وفى ... عزّ وإقبال وصفو زمان
قالت مراتب عزّها مذ أقبلت ... عاد السرور بمقدم السكان
واستبشرت دارا بها سكنت وقد ... رقصت لها طربا على العيدان
وتبسّمت أزهار أغصان الربا ... فرحا بها فى روضة البستان
بحر السماح غدا براحة كفّها ... تروى العطاش بمنهل الإحسان
وتجود من فيض الندا بمكارم ... فيكون منه شفاء للظمآن
فالله يكفيها مؤونة حاسد ... ويُطيل أياما لها بأمان
ما ماس غصن فى الرياض وكلّلت ... أيدى الغمام شقائق النعمان

وقد عرضت هذه القصيدة على خوند لما طلعت إلى القلعة واستحسنتها .

وفيه أخلع السلطان على طوخ المحمدى وقرّره فى نيابة القلعة ، عوضا عن طقطباى بحكم اختفائه. ـ وفيه قرّر شمس الدين أبو المنصور فى كتابة الخزانة، مشاركا لصلاح الدين ابن الجيمان . ـ وفيه قبض السلطان على القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصروى ووكل به ، وأخلع على القاضى شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص وأعاده (١١٥ ب) إلى نظر الجيش ، عوضا عن القصروى . ـ وفيه رسم السلطان للأمير خشكلدى البيسقى بأن يتوجّه إلى القدس بطالا ، فلما بلغه ذلك هرب وغيّب من داره ، وكذلك جماعة من الأمراء اختفوا من دورهم ، فلما غيّب خشكلدى البيسقى تغيّر خاطر السلطان على الأمير أصطمر من ولى الدين وقصد الإخراق به ، لكونه كان صهر البيسقى وصار ممقوتا عنده .

وفى رمضان فى مستهلّه رسم السلطان للخليفة بأن ينزل ويسكن بداره ، وكان الأشرف جان بلاط رسم له بأن يسكن بالقلعة . ـ وفى يوم الاثنين ثالثه أخلع السلطان على المقر البدرى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى ، وقرّره فى كتابة السرّ بالديار المصرية ، عوضا عن صلاح الدين بن الجيمان ، بحكم استعفائه منها ، وقد تقدّم للبدرى محمود أنه ولى قضاء الحنفية بحلب غير ما مرة ، وكان والده القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى رئيسا حشما من الأعيان ، وولى قضاء العسكر فى أيام الأشرف قايتباى ، وكان من خواص الأمير يشبك الدوادار ، ورأى الأوقات الجيدة .

وفيه توفى العلاى على بن الصابونى ناظر الخاص ، وهو على بن أحمد بن محمد بن سليمان البكرى الدمشقى الشافعى ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص ، وأقام به مدة طويلة ، ومات عن خمسة وثمانين سنة ؛ فلما مات أخلع السلطان على علاى الدين على بن حسن الإمام ، وكان من جملة مباشرين الخاص ، وولى نظارة الطور ، وكانت نظارة الخاص تعيّنت إلى ناصر الدين الصفدى ، ثم تحوّلت إلى علاى الدين بن الإمام .

وفيه نفق السلطان الكسوة على العسكر على العادة . ـ وفيه أرسل السلطان

(٢١) مباشرين : كذا فى الأصل .

خلعة إلى قانصوه قرا ، الذى كان كاشف الشرقية ثم بقى نائب غزّة ، فقرّره فى نيابة حلب ، فاستعظموا عليه الناس ذلك ولاموا السلطان على هذه الفعلة ، فخرج إليه بالتقليد شخص من بعض الدوادارية يقال له أيدكى . ــ وفيه قرّر فى نيابة غزّة شخص يقال له على باى السيفى يشبك ، عوضا عن قانصوه قرا ، بحكم انتقاله إلى نيابة حلب؛ وقرّر يلباى المؤيدى فى داوادارية السلطان بدمشق ، وفى نظارة (١١٦ آ) الجيش بها أيضا ، حتى عدّ ذلك من النوادر ؛ وقرّر قانصوه الجمل فى الأتابكية بدمشق ، عوضا عن قرقماس التنمى بحكم صرفه عنها . ــ وفيه توفى كسباى المغربى الأينالى أحد الأمراء العشرات ، مات فجأة ، وكان لا بأس به .

وفيه تزايد شرّ العادل وصار يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا، وهم : مصرباى ، وطقطباى ، وتمرباى ، وكرتباى ، وخشكلدى ، وآخرين ، وصار طراباى ، وأنسباى ، وبيبردى الفهلوان ، وقان بردى الغورى ، وأزبك النصرانى والى الشرطة ، يطوفون من بعد العشاء ومعهم المشاعل ، وعدّة وافرة من المماليك السلطانية ، فيشوّشون على الناس ، ويكبسون عليهم البيوت تحت الليل ، ويسبون حريمهم ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فما عن قريب حتى هرب العادل واختفى وصاروا يكبسون عليه البيوت والحارات ، ويتطلبونه أشد الطلب ، كما تدين تدان .

وفيه حضرت إلى القاهرة زليخا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل ملك العراقين، حضرت تروم الحج ، فأكرمها السلطان ورسم لها بعمل يرق . ــ وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، واجتمع القضاة الأربعة ، وأرسل السلطان خلف الأمير قانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وقيت الرجبى أمير سلاح ، وكان يوما حافلا ، فلم يحضر قانصوه الغورى ، ولاقيت الرجبى ، وقد أحسّا بالشرّ حين عوّل العادل على مسكهما.ــ وفيه دارت عدة من الطواشية على جماعة من الجند ، وأشيع بالعرض للعسكر ، وأن السلطان يقصد القبض على جماعة من المماليك فتخيّلوا من ذلك ولم يطلع أحد منهم

(٩) الذين : الذى .

إلى القلعة ، وقد تغيّرت عليه خواطر العسكر قاطبة . ــ وفيه أخرج السلطان خرجا من المماليك وسمّاهم العادليّة .

واستمرّ الحال فى اضطراب إلى يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان ، فلبس العسكر آلة السلاح ووثبوا على العادل ، وكان القائم بهذه الفتنة قيت الرجبي ومصرباى ؛ فلما اتّسعت الفتنة ظهر جماعة من الأمراء المختفيين ، منهم : خشكلدى البيسق ، وجان بردى الغزالى (١١٦ ب) وكان العادل رسم بنفيه إلى قوص ، ومنهم بيبردى الفهلوان وآخرون من الأمراء ممن كان مختفيا .

فلما تحقّق العادل بأن الركبة عليه نزل إلى باب السلسلة ، وعلّق الصنجق السلطانى ، ونادى للعسكر الطائع يطلع إلى القلعة ، فلم يطلع إليه أحد من الأمراء ولا من العسكر ، ولم يكن عنده من الأمراء سوى الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدّمين ، وكان من عصبته ومن خواصه ، وقد أشيع بين الناس أنه سيولّيه الأتابكية عوضا عن قصروه ، وكان عنده أيضا قرقماس المقرى المحتسب ، وطراباى رأس نوبة النوب ، وأنسباى ، وآخرون من الأمراء ، وبعض مماليك سلطانية .

فجلس فى المقعد المطلّ على الرملة ، فلم يطلع إليه أحد من العسكر ، ووقع فى ذلك اليوم قتال هيّن ، وجرح الأمير قان بردى فى وجهه ؛ فلما كان وقت الغروب من سلخ شهر رمضان ، نزل الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير من باب السلسلة ، ومعه ماماى جوشن ، ونزل طراباى وأنصباى ، فلما رأى ذلك من كان عند العادل من المماليك السلطانية تسحّبوا أجمعين ، وتمت الكسرة على العادل ، فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة واختفى ، وكانت ليلة عيد الفطر ، فاضطربت الأحوال ولاسيما فى تلك الليلة ، وقد قلت فى المعنى :

فى ليلة العيد أتى سلطاننا كل الضرر
فلم تكن كسرته إلا كلمح بالبصر

---

(٨) نزل : كذا فى ف ، وتنقص فى الأصل .

(١٥) وقت : كذا فى ف ، وفى الأصل : يوم .

وكان سبب هذه الفتنة فى ليلة العيد أن قد أشيع بين الناس أن السلطان قد عوّل على مسك جماعة من الأمراء يوم العيد وهم فى الجامع ، فلما بلغهم ذلك وثبوا عليه تلك الليلة ، فلما نزل من القلعة واختفى وقع النهب فى الاسطبل السلطانى والركبخاناه ، فنهب منها أشياء كثيرة ، نحو من ستين ألف دينار على ما قيل ؛ فلما كان يوم العيد لم يصلّ أحد من الأمراء صلاة العيد ، واشتغل كل أحد بما هو فيه ، ووقع الخلف بين الأمراء فيمن يلى السلطنة ، وكان من الأمر ما سنذكره فى موضعه .

فكانت مدّة العادل طومان باى فى السلطنة بالديار (١١٧ آ) المصرية مائة يوم سوى عنها ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، هذا خارجا عن سلطنته بدمشق ، وكان ملكا جليلا ، مهابا مبجّلا ، تولّى الملك وقد جاوز الأربعين سنة من العمر ؛ وكان صفته طويل القامة ، أبيض اللون ، مشربا بحمرة ، مدوّر الوجه ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، الغالب عليه الشقرة ، وكان ملئ الجسد ، جميل الهيئة ، وافر العقل ، سديد الرأى ، غير أنه كان سفاكا للدماء ، عسوفا ظالما ، قتل الأتابكى قصروه ظلما ، وأرسل بخنق الأشرف جانبلاط وهو بالبرج ، وعوّل على خنق الظاهر قانصوه أيضا وهو بالبرج ، لكن كان فى أجَله فُسحة ، وأغرق جماعة كثيرة من الخاصكية فى هذه المدّة اليسيرة ، ولو دام فى السلطنة لوقع منه أمور شتى وكان يقتل غالب الأمراء وثلْث العسكر .

وكانت مدّة سلطنته كلها شرورا وفتنا مع قصرها ، وآخر الأمر هرب واختفى ، واستمرّ مختفيا حتى قبض عليه وقطعت رأسه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وآل الأمر إلى أنه خلع من السلطنة ، وتسلطن بعده قانصوه الغورى ، كما سنذكر ذلك فى محله ، انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك العادل طومان باى ، وذلك على سبيل الاختصار .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦٦٦١/٨٤

ISBN / ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٢٧٢ ـ ٥

INHALT

Mit besonderer Genugtuung wiederholen wir an dieser Stelle den Dank an all die Institutionen in den verschiedensten Ländern, die zur Herausgabe auch dieses Bandes der *Badā'iʿ az-zuhūr fī waqā'iʿ ad-duhūr* beigetragen und damit abermals bewiesen haben, wie sehr ihnen an einer wissenschaftlichen Zusammenarbeit über nationale Grenzen hinweg gelegen ist.

Kairo, den 10 April 1963.

Mohamed Mostafa.

VORWORT

Mit dem vorliegenden Band der *Badā'iʿ az-zuhūr fī waqā'iʿ ad-duhūr* ist die Neuausgabe der Bände III, IV und V der Ägyptischen Chronik des Ibn Ijās abgeschlossen. Im Vorwort zum vierten Band wurde dargelegt, aus welchen Gründen unsere Ausgabe mit diesen drei Bänden und nicht mit den beiden ersten eröffnet wurde.

Textgrundlage des dritten Bandes bildet für die Seiten 3-222 das Autograph (Fatih Nr. 4198), beendet am Sonntag, den 4. Rabīʿ I 913, und für die Seiten 222-477 die Handschrift Paris Nr. 1824, eine Abschrift nach dem Autograph vom 15. Muḥarram 914, deren Kolophon das Datum 28. Rabīʿ I 1127 trägt. Darüber hinaus wurde die Pariser Handschrift mit derjenigen der Bibliotheca Vaticana (Nr. 869) kollationiert, wodurch sich kleinere Auslassungen des zuerst genannten Codex ergänzen liessen, obgleich die vatikanische Handschrift im allgemeinen eine gekürzte Fassung bietet, ihr Schreiber bei einigen Namen und Termini technici Fehler gemacht und also den Text gegenüber dem Original verschlechtert hat.

Der Schreiber der Pariser Handschrift hat den ihm vorliegenden Text des Autographs, wie sich feststellen lässt, unverfälscht übernommen, und zwar unter Wahrung des ursprünglichen Stils, einer schlichten und einfachen Sprache, die der Ausdrucksweise des Volkes näher steht als der Hochsprache, wobei der Autor den herkömmlichen Regeln der Orthographie keine besondere Beachtung schenkt. Wie bereits im Vorwort zum fünften Band erläutert, lag uns daran, den Stil des Autors unangetastet zu lassen. Es wurden also nur offensichtliche Versehen getilgt, und zwar unter jeweiligem Hinweis im Apparat. Im übrigen wurde die Sprache des Werkes mit ihren umgangssprachlichen Ausdrücken und Formen ohne Veränderungen und Verbesserungen beibehalten, so dass man daran die Sprach- und Stilentwicklung der Zeit untersuchen kann.

مركز تحقيق التراث

بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف

محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

حققها وكتب لها المقدمة والفهارس

محمد مصطفى

الجزء الثالث

من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠٦هـ

(١٤٦٨ — ١٥٠١م)



الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

١٤٠٤ ـ ١٩٨٤

بدائع الزهور في وقائع الدهور

الجزء الثالث

طبعة ثالثة
مصورة من الطبعة الثانية

تصدير

بهذا الجزء الثالث من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، أكون قد انتهيت من إعادة تحقيق ونشر الأجزاء الثلاثة ـ الثالث والرابع والخامس ـ من كتاب ابن إياس . وفيما كتبته فى كلمة التصدير للجزء الرابع ذكرت الأسباب التى جملتنى أبدأ بنشر هذه الأجزاء الثلاثة أولا ، قبل نشر الجزءين الأول والثانى من هذا الكتاب .

وقد اعتمدت فى نشر هذا الجزء على مخطوطين : نقلت عن أولهما الصفحات من ٣ إلى ٢٢٢ ، وعن ثانيهما الصفحات من ٢٢٢ إلى ٤٧٧ . والمخطوط الأول (فاتح رقم ٤١٩٨) مكتوب بخط ابن إياس ، انتهى المؤلف من كتابته فى يوم الأحد ٤ من ربيع الأول سنة ٩١٣ . والمخطوط الثانى (باريس رقم ١٨٢٤) أتم ناسخه كتابته فى ٢٨ من ربيع الأول سنة ١١٢٧ ، ونقله عن نسخة بخط ابن إياس ، فرغ المؤلف من كتابتها يوم الاثنين ١٥ من المحرم سنة ٩١٤ . وقد راجعت متن هذا المخطوط الأخير على متن مخطوط (الفاتيكان رقم ٨٦٩) الذى نقلت عنه ما وجدته من عبارات قصيرة ، كانت قد سقطت من الناسخ فى مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ ، وإن كان المتن فى مخطوط الفاتيكان قد اختصر فيه ، كما أن الناسخ قد أخطأ فى بعض ما نقله من أسماء أو مصطلحات ، فأورده محرّفا عن الأصل .

ونلاحظ أن ناسخ مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ قد نقل المتن طبق الأصل عن نسخة المؤلف ، بما فى ذلك من أسلوب لغوى خاص ، ولغة سهلة بسيطة ، أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى ، لا يعبأ فيها المؤلف كثيرا بقواعد الإملاء .

وكما ذكرت فى كلمة التصدير التى كتبتها للجزء الخامس من هذا الكتاب ، فإننى قد حاولت جهدى أن أحافظ على أسلوب المؤلف ، فلم أصحح من الهنات سوى ما ثبت لى أنه قد وقع سهوا ، مع الإشارة إلى ذلك فى الحواشى . أما فى غير ذلك فإننى تركت لغة الكتاب ، وما فيها من كلمات وقواعد عامية ، كما هى دون أى تغيير فيها أو تصحيح ، لتكون مثالا يبحثه المشتغلون باللغة وتطور أساليبها .

وإنه ليشرفنى فى هذه المناسبة أن أكرر الشكر للهيئات المختلفة فى شتى الأقطار ، التى أسهمت أيضا فى إخراج هذا الجزء الثالث من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ، مما يؤكد ما تهدف إليه هذه الهيئات من تعاون علمى وثيق .

القاهرة فى ١٠ من إبريل سنة ١٩٦٣

محمد مصطفى

المحتـــويات

الصفحة